

"لو كان البحر مدادا"

للصحفية الأمريكية كارلا باور

حوار مع الشيخ أكرم ندوى

"لو كان البحر مدادا"

للصحفية الأمريكية كارلا باور

حوار مع الشيخ أكرم ندوي

عرض وتحليل
د. إبداهييم (موض)

مكتبة الشيخ أحمد

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

هل القرآن يقبل التفسير ونقيضه؟

منذ عدة أشهر نشر الصديق المصري المثيبين أ. ميسرة عفيفى على صفحتى فى الفيس بوك خبراً عن ترجمة يابانية لكتاب إنجليزى عن الإسلام لصحفية أمريكية اسمها كارلا باور عنوانه: "If the Oceans were Ink". وهذا العنوان بمثابة ترجمة للعبارة القرآنية التى تقول: "لو كان البحر مداداً" الموجودة فى قوله تعالى: "قل: لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لَنفَدَ البحر قبل أن نَنفَدَ كلماتُ ربى ولو جئنا بمثله مدداً" بسورة "لقمان"، فحفزنى هذا الخبر على البحث عن الأصل الإنجليزى حتى وجدته وشرعت أقرأ فيه. والكتاب عبارة عن تسجيل لحوار طويل دار بين المؤلفه الأمريكية (اليهودية الأم الكويكرية الأب) كارلا باور وبين د. أكرم ندوى الأستاذ الجامعى الهندى الذى يعيش فى أكسفورد حيث أمضيت سنوات دراسى للحصول على درجة الدكتوراة فى النقد الأدبى الحديث من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٢ م. وقد شدنى الكتاب شداً قوياً، وبخاصة أننى قد كتبت عن د. الندوى عدة فقرات فى كتاب سابق لى حول ما طالعته عن رصده وترجمته لآلاف النسخة المحدثات فى التاريخ الإسلامى، ذلك الإنجاز الذى قرأت أنه بلغ أربعين مجلداً، وإن لم يظهر منه سوى المجلد الأول، وألفت نفسى بعد قليل أبدأ فى تسجيل تعليقاتى على ما تقوله الكاتبة. وهذا أول الغيث، وهو يدور حول بعض ما ورد فى الفصل المسمى: "The Quran in Twenty-Five Words".

وأبدأ بإيراد السطور التالية، ثم أثنى بالتعقيب عليها:

"Revered by a population as diverse as the umma, or worldwide Muslim community, the Quran can refract in dazzling ways. The San Francisco civil rights lawyer may discover freedoms in the same sura, or chapter, in which a twelfth-century Cairo cleric saw strictures. A Sudanese mullah, or religious teacher, may read a command for wifely obedience; an Indonesian wife may interpret the same passage as a call for equality and compassion. The Marxist and the Wall Street banker, the despot and the democrat, the terrorist and the pluralist—each can point to a passage in support of his cause.

Sheikh Mohammad Akram Nadwi, the Islamic scholar who taught me the Quran, once told me an old Indian joke. A Hindu goes to his Muslim neighbor and asks if he could borrow a copy of the Quran. "Of course," said the Muslim. "We've got plenty! Let me go get you one from my library." A week later, the Hindu returns. "Thanks so much," he said. "Fascinating. But I wonder, could you give me a copy of the other Quran?" "Um, you're holding it there," said the Muslim. "There's just one Quran, and you've got it." "Yeah, I read it," replied the Hindu. "But I need a copy of the Quran that's followed by Muslims." "The joke is right," said Akram. "All this talk about jihad and forming Islamic states, that's not what the Quran says!"

تقول الكاتبة إن النص القرآني يقبل التفسيرات المتعارضة: فالحاكم المستبد يجد فيه ما يعضد استبداده مثلاً يجد الحاكم الديمقراطي في نفس النص ما يدعم حجته. والمدافعون عن حقوق المرأة يجدون ما يريدون في ذات الآية التي يستشهد بها من يضيّقون على حواء ويحرمونها حقوقها. وبالمثل يجد الماركسي فيه ما يقوى عقيدته الماركسية في الوقت الذي يجد الرأسمالي ما يقوى المذهب الرأسمالي. وبغض النظر عما تريد الكاتبة من وراء هذا الكلام فلا بد من معرفة أن المسلمين في عصر النبي لم يختلفوا في فهم القرآن على النحو الذي تصوره كلمات الكاتبة. ولو كان القرآن في ذاته يؤدي إلى هذا الاختلاف لرأيناهم فرقا وشيعا، كل فرقة تمضي في اتجاهها لا تتلاقى مع سائر الفرق والشيع. لكننا ننظر فنجد أنهم كانوا جميعا على قلب رجل واحد.

أما لو وقع خلاف بين أحد وآخر أو حدث سوء فهم من أي منهم لنص قرآني فما أسرع ما يقضي النبي، بوصفه المرجعية الصحيحة، على هذا الخلاف بتوضيح الصواب من الخطأ كما هو الحال مثلاً حين استغرب عدي بن حاتم قول القرآن عن أتباع النصرانية إنهم قد "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"، إذ قال للنبي: "ما كنا لنعبدهم". فكان أن وضع له النبي أن المقصود بالعبادة هنا تشريعهم لهم من عند أنفسهم اتباعا لنزواتهم وأهوائهم وشهواتهم لا بناء على وحى سماوى، فكانوا يتبعون تعاليمهم رغم انحرافها عن دين الله. وعندئذ اقتنع عدي.

ويمكن أن نُلحِق بذلك تردد الصحابة في قبول معاهدة الحديبية لما رأوا فيها من إجحاف ولما تنص عليه من رجوعهم ذلك العام دون اعتبار، مما دفع بعضهم إلى التساؤل: ألم ير الرسول في منامه أننا سوف نؤدى العمرة؟ فكيف نعود من حيث أتينا دون أن نؤديها؟ فما كان من النبي إلا أن سألهم بدوره قائلا: وهل قلت لكم إنكم ستعتمرون هذا العام؟ فحسم بسؤاله ذلك حيرتهم وترددهم. وهو ما أشارت إليه آية سورة "الفتح": "لقد صدّق الله رسوله الرؤيا بالحق: لتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ. فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا".

ومثله كذلك ما رده رسول الله على عمار بن ياسر حين أثناء فزعا تكاد روحه تزهق بعد أن نطق بكلمة الكفر تحت تأثير التعذيب البشع الذي صبه عليه كفار مكة، فما كان منه عليه السلام إلا أن سألته عن حال قلبه وما فيه من إيمان، فطمأنه بأن إيمانه باق على قوته رغم اضطرابه للنطق بكلمة الكفر فرارا من استمرار التعذيب الشنيع. فواساه الرسول وخفف عنه ومَرَّهَم جراح ضميره مينا له أنه ما دام إيمانه باقيا على حاله في صدره فلا خوف. بل زاد فنصحه بأنهم إن عادوا إلى تعذيبه فليتنطق أمامهم بما يسكتهم

عنه ويجعلهم يطلقون سراحه. ذلك أن العبرة في الإسلام في تلك الأحوال بالنية والقلب. كما أن ديننا لا يتنظر من البشر أن يتحول كل منهم إلى سوبر مان، إذ يعرف أن مُنتَهم ضعيفة وأن لاحتياهم قسوة العذاب حدودا ينتهي إليها مهما كان الواحد منهم شجاعا راسخ اليقين قادرا على التضحيات: "وخلق الإنسان ضعيفا"، "ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وكان الله شاكرا عليهما". والله في الإسلام رب الرحمة واللطف والود والكرم، ورحمته تسبق دائما غضبه، وتسامحه مع عباده بلا حدود.

وعودةً إلى ما قالته كارلا باور نقول إن هناك دائما، لدن شرح أى نص، عدة شروط ينبغي الالتباه إليها ومراعاتها، وإلا فشل الشرح وابتعد عن المعنى الصحيح ابتعادا قد يصل إلى حد التناقض الذي لا يمكن جبره. ومنها احترام السياق، إلى جانب الذكاء والمرونة العقلية والإخلاص بطبيعة الحال، فضلا عن المعرفة الواسعة والعميقة بالموضوع المراد شرحه. والسياق في موضوعنا ليس ضربا واحدا بل ضروباً: السياق اللغوي، والسياق التاريخي، والسياق القرآني، والسياق الحديثي. فلا يصح أبدا أن يهجم هاجم على القرآن الكريم وهو لا يعرف العربية، أو يعرف العربية المعاصرة بينما يجهل العربية القديمة التي كانت سائدة أيام نزول الوحي على سيدنا رسول الله، وإلا ففسر "الدَّرة" مثلاً على أنها الجزء المتناهي في الصغر من المادة في حين أن المقصود في القرآن هو النملة الضئيلة، ولَفَسَّرَ "السيارة" في قوله تعالى: "وجاءت سيارةً فأرسلوا واردهم فأقلى ذُلَّوه" بالعزبة ذات المحرك رغم أنها في القرآن هي القافلة، ولَفَسَّرَ "الخير" في قوله عز شأنه في سياق الحديث عن الإنسان: "وإنه لَحُبٌّ للخير لشديد" على أنه نقيض الشر مع أن القرآن إنما يقصد به هنا الأموال والأموال، ولَفَسَّرَ "الفرح" المنتهى عنه بالسرور، في الوقت الذي يريد به القرآن الغرور والبطر ونيان الآخرة، ولَفَسَّرَ "اللَّعب" لَدُنْ وصفه سبحانه للدنيا بأنها "لعبٌ وهوٌ" على أنه تصريف الطاقة في الجري والقفز وتمضية الوقت في السباق البدني والعقلي وما إلى ذلك بغية تشييط الجسم والعقل والتسرية عن النفس، بينما يقصد القرآن أن حياة الأرض عابرة زائلة وغير جوهرية على عكس الآخرة بأبديتها وجوهريتها، ولَفَسَّرَ "اليد والوجه والعرش" بالنسبة لله على أنها اليد والوجه والعرش كما نعرفها في حياتنا البشرية مع أنها تعنى قدرة الله وعظمته وسلطانه الشامل العميم على الترتيب، ولَفَسَّرَ "الجهاد" في كل الأحوال بمعنى الحرب ضد الكفار الذين يريدون بالإسلام والمسلمين شرا رغم أن "الجهاد" هو بذل الجهد في مواجهة الخصم أيا كان نوع هذا الجهد، ومن ثم فقوله تعالى لرسوله في المرحلة المكية: "وجاهدْهُمْ به جهادا كبيرا" ليس معناه: حاربهم،

بل معناه: اجتهد بكل قوتك لإيصال الرّوح إليهم وإقناعهم بصحة ما فيه وكسبهم إلى صف الإيمان بالحجة والموعظة الحسنة.

وبالمناسبة فأنت إذا ما سألت مصريا الآن عن معنى "الصعيد" فلن يخطر في ذهنه سوى القسم الجنوبي من بلاده، وبالتالي كان من الصعب عليه، إذا لم يكن على علم بالأسلوب العربي القديم، أن يفهم أن المقصود بقوله عز شأنه: "فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا" هو الطاهر من التراب والرمل وما إلى ذلك... بل قد يكون قارئ القرآن صحابيا، وتفوته مع ذلك نكتة بلاغية مثلا فيخطئ فهم النص، كما وقع لعدى بن حاتم حين أخذ الآية القرآنية التالية على حرفيتها، ومن ثم أحضر خيطا أبيض وآخر أسود وظل يأكل في خيمته كلما جاع طوال الليل إلى أن تبين له اللونان عند انتشار النور في الأفاق، وفاته أن الآية إنما تعنى النور والظلام لا الخيطين الماديين، إذ هى استعارة لا تعبير حقيقى. ونص الآية هو: "وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر..." وهكذا.

وكثير من القراء اليوم لن يفهموا بسهولة التراكيب التالية: "وإن كُلاً لما يوفّيهم ربك أعمالهم" (بمعنى أنهم بكل يقين سوف يوفيهم جميعاً ربك أعمالهم)، أو "وإن كُلاً لما جميعاً لدينا محضرون" (ما منهم أحد إلا وسوف يحضر إلينا)، "فلا تكن للخاتنين خصيماً" (لا تأخذ جانب الخاتنين وتدافع عنهم)، "ولات حين مناص" (لا مهرب ولا منجى لأحد في ذلك الحين)، "وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره" (لقد كادوا أن يفتنوك عن الذى أوحينا إليك...)، "الطفل الذين لم يظفروا على عورات النساء" (الأطفال)، "وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتناهم" (ما أكثر الأمم التى كانت أقوى من أمتك، ورغم ذلك أهلكتناهم)، "مما خطيئتهم أغرقوا" (بسبب خطاياهم تم إغراقهم)، "ولا تكونوا كالتى نقصت عزها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة" (بغية أن تكون أمة هى أربى من أمة).

فهذا هو السياق اللغوى للنص القرآنى. أما السياق التاريخى فيأتى على رأسه "أسباب النزول"، إذ بدون الإحاطة بهذه الأسباب سوف تُلفى كثيراً جداً من المسلمين يصلّون متجهين إلى الجهة التى تمنّ لهم دون الالتزام بالقبلة اعتماداً على أن هناك آية تقول: "ولله المشرق والمغرب. فأينا تولىا فسّم وجهه الله"، وفاتهم أن الآية إنما نزلت رداً على شعور بعض الصحابة بالحرج بعد اكتشافهم أنهم قد صلّوا ذات ليلة في غير اتجاه القبلة بسبب الظلام الدامس وخطئهم في تحديد جهة الكعبة، فبين القرآن لهم أن العبرة بالنية والاجتهاد المخلص، وأنهم معذورون في هذا الخطأ، وأن صلاتهم مقبولة. فهم، وإن كان استقبال

القبلة قد أفلت منهم، لم يفلت منهم الأجر لأن الله ليس هنا أو هاهنا بل وجوده مطلق غير منحصر في أى اتجاه، وهو سبحانه قد قبل منهم صلاتهم نظرا لظروفهم القهرية.

وبدون الاستعانة بأسباب النزول سوف يشرب بعض المسلمين الخمر بناء على فهمهم لما تقولوه الآية التالية من سورة "المائدة": "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا. وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"، وهو ما فعله أحد المسلمين على عهد عمر بناء على ما فهمه من ظاهر الآية، الذى يقول إنه ليس على المسلم حرج فى أكل أى شئ أو شربه ما دام تقيًا محسنًا يعمل الصالحات، بينما معناها الحقيقى غير ذلك. فقد تساءل بعض الصحابة أيام النبى عن مصير المسلمين الصالحين الذين ماتوا وكانوا يشربون الخمر، إذ لم تكن أم الحَبَاث قد حُرِّمَتْ بعد. فَوَضَّحَ القرآن أنهم ناجون يوم القيامة لتقواهم وإحسانهم وعملهم الصالحات رغم أنهم كانوا يشربون المسكر. ذلك أن الإسلام لا يحاسب الناس بأثر رجعى، ولا عقوبة إلا بنص. وما دام النص القرآنى الخاص بتحريم الخمر لم يكن قد نزل بعد فليس على هؤلاء الصحابة حرج. كما أنه بعد نزوله لا ينسحب على الزمن الذى مضى. بل ما مضى قد مضى، وانتهى أمره. والمهم فى هذا كله هو التقوى والعمل الصالح سواء كان ذلك قبل تحريم الخمر أو بعده. فإن كان الشخص تقيًا صالحًا ومات وهو يشرب الخمر قبل تحريمها فهو ناج، أما إن لم يكن تقيًا ولا صالحًا والتزم، لسبب آخر، بترك الخمر بعد تحريمها فليس من الناجين.

وفى قوله تعالى جَدُّهُ: "إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرُوَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ. فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" يمكن جدا أن يظن كثير من المسلمين أن السعى بين الصفا والمروة هو فى أحسن أحواله غير محرَّم لكنه غير واجب، استنادا إلى ظاهر الآية من أنه ليس هناك إثم على الساعى بينهما، وهو ما يفهم منه أن هذا كل ما هنالك بحيث إذا لم يسع الحاج بينهما فلا جُنَاحَ عليه من باب الأولى. لكن سبب نزولها يقلب المعنى رأسا على عقب، فقد كان بعض الصحابة يتحرج من ذلك السعى نظرا إلى أنه كان فوق كل من التلين صنم فى الجاهلية، فظنوا أن من الأسلم عدم السعى بينهما تجنبًا للتشبه بها كان يصنعه الوثنيون آنئذ. وفاتهم أن الصنمين قد أزيلوا، وعاد السعى بين التلين إلى وضعه الأصلى قبل انحرافه على أيدي أهل الجاهلية. فالآية لا تقول عن السعى إنه لا بأس به، بل تزيل ما حاك فى نفوس بعض الصحابة من أنه إحدى شعائر الوثنية، أما حكمه فباقى على الوجوب.

وأما السياق القرآني فمعناه أنه يجب النظر إلى أى نص من كتاب الله في ضوء النصوص القرآنية التي ترسم الخطوط العامة للإسلام، وبخاصة تلك التي تتعلق بموضوع النص المراد تفسيره. ولناخذ مثالين على ما نقول: فأما المثال الأول فله صلة بما كتبه ابن سلام في مقدمة كتابه: "طبقات الشعراء" عن النحل والانتحال في الشعر الجاهلي، إذ كان من رأيه أن ما بلغنا من أشعار لعاد وثمود هي أشعار منحولة لهاتين القبيلتين زورا وبهتانا. وحجته في ذلك، وهو ما يهمنها هنا، أن القرآن قد أخبرنا أنها قد أئيدتا عن آخرهما طبقا لما جاء في سورتي "النجم" و"الحاقة". ومن ثم فالسؤال هو: من ياترى حفظ أشعارهما وأداها إلينا رغم أن أحدا لم يبق منهما؟ وقد كنت، إلى بضع سنين مضت، أمر على تلك الحجة موافقا غام الموافقة مثل مثل جميع الباحثين الذين تناولوا ابن سلام ونظريته في النحل والانتحال، إذ بدا لي، في مناسبة لا يهم القارئ ذكرها هنا، أن أراجع ما قاله القرآن عن عاد وثمود، فألفيته يقول بتمتهى الوضوح والصراحة في سورة "هود" إن الله قد نجى كلا من هود (نبي عاد) وصالح (نبي ثمود) والذين آمنوا معه. وهو ما يعنى أن حجة ابن سلام باطلة تمام البطلان، وأنه لا يصح الارتكان إلى دعوى تدمير هاتين القبيلتين لأنها دعوى متهافة لا حقيقة لها. والسبب هو أن ابن سلام توقف إزاء نصين قرآنيين يذكران أن تينك القبيلتين لم يبق منهما باقية، مغفلا نصين آخرين يوضحان أن الذين تم تدميرهم إنما هم الكفار المعاندون من القبيلتين لكل القبيلتين. لكن هذا لا يعنى بالضرورة أن ما بلغنا من شعر منسوب لعاد وثمود هو شعر صحيح، بل تلك قضية أخرى.

وأما المثال الآخر فيتعلق بالقتال. وفي هذه الأيام يتهم الإسلام دائما بأنه دينٌ عدوانيٌّ يسارع إلى قتال أعدائه بل إلى قتلهم. ويشار في هذا الصدد إلى قوله تعالى مثلا في سورة "التوبة": "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واغزوهم واقعدوا لهم كل مَرْصِدٍ" وقوله جل جلاله من ذات السورة: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوثوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". وفات من يشير إلى تينك الآيتين وأمثالهما قوله تعالى: "وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوا. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"، "وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولأن صبرتم هو خيرٌ للصَّابِرِينَ"، "وإن جنتحوا للسَّلم فاجتجح لها وتوكل على الله".

كما أن قوله تعالى في سورة "التوبة": "قاتلوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ

صَاغِرُونَ" الخاص بقتال أهل الكتاب ليس في الأمر بقتالهم من الباب للطاق، بل في قتال الروم، الذين كانوا يعدّون العدة للهجوم على المسلمين والقضاء على دينهم. أما الآية الخامسة من ذات السورة: "فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاحْضَرُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَأَبَّوْا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" فهي في المشركين الذين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدات سياسية بالموادعة لمدة معلومة غدروا بالمسلمين وحلفائهم بعد توقيعها بقليل وقتلوا منهم طائفة دون أن يكون المسلمون ومن حالفوهم قد أسأوا لهم قط. ومع هذا فإن القرآن لم يقل للمسلمين: هيا اجمعوا عليهم في الحال. بل قال: أعطوهم مهلة أربعة أشهر يتنقلون فيها بطول البلاد وعرضها حسبما يحلو لهم دون أن تتعرضوا لهم بشيء. بل زاد فأوجب على المسلمين أنه متى أتاهم آت من الكفار يستجير بهم فليجبروه حتى يسمع كلام الله ثم فليبلغوه المكان الذي يأمن فيه على نفسه تمام الأمان. ثم بعد ذلك كله حين تنتهي مهلة الأشهر الأربعة فعاقبوهم وأذيقوهم من نفس الكأس التي أذاقوا منها إخوانكم المغدور بهم. ومعروف أن المسلمين لم يقتلوا أحدا من المشركين عندئذ، وكان الآيات قد نزلت للترهيب وتحطيم الروح المعنوية لديهم ليس إلا. وعلى كل حال فقد تسارعت وتيرة الأحداث، وتم فتح مكة، ثم دخل أهلها في دين الله، ليتشر الإسلام بعدها بإيقاع أسرع حتى عم ضياؤه بلاد العرب جمعاء. فأين العدوانية هنا؟ ولئن نتكلم عن راية السلم التي ظل المسلمون يرفعونها طوال الفترة المكية أيام كان الاضطهاد والأذى يحيق بهم من كل جانب وفي كل لحظة.

ويؤيد كلامنا ما ذكره رسول الله في بعض أحاديثه كقوله: "لَا تَلْتَمِزُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ. فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَانْبِئُوا"، إذ لو كان قتال غير المسلمين واجبا من الباب للطاق لكان غنى لقاء العدو ومكرمة لا يمكن أن ينهى عنها النبي عليه السلام. وفي واقعة الحديبية قال صلى الله عليه وسلم عن المشركين وتعنتهم معه هو وأتباعه: "والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطَّةً يعظّمون فيها حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا" مؤكدا أنه لن يبدأ أبدا بعلوان وأنه سوف يصابر المشركين إلى أبعد مدى. بل إنه، حين بلغه أن قريشا قد أقبلت تريد مقاتلته وصدته عن زيارة البيت الحرام بالقوة الغشوم، أعلن قائلا: "إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقَاتِلِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ. فَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ نَهَكْتُهُمُ الْحَرْبُ وَأَضْرَتْ بِهِمْ. فَإِنْ شَاؤُوا مَا دَذَنْتُهُمْ مَدَّةً وَيَحْلُلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ: فَإِنَّ ظَهْرَنَا وَشَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَقَدْ جَمَّوْا. وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيده لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفِرَ سَالِفَتِي أَوْ لَيْدِيْنِ اللَّهُ أَمْرُهُ". فكما ترى كان عليه السلام

حريصا على السلم إلى آخر المدى، أما الحرب فعندما لا يكون من الحرب مناص. وقد تجلّى ذلك في المعاهدة التي كتبت بينه وبينهم، إذ قَبِلَ الشروط المجحفة التي أملاها المشركون على المسلمين، وساءت كثيرا من الصحابة، ومع هذا ظل الرسول على موقفه.

ثم إذا كانت سياسة القرآن هي العدوان على المخالفين مهما كانوا له من المسالمين فلم كتب النبي عليه السلام صحيفة المدينة إرساء لأسس التعايش السلمى بين فئات سكانها من أوس وخزرج ومهاجرين ويهود؟ لقد كان الأحرى به أن ينقّض على اليهود فور هجرته قبل أن يستفيقوا فيقضى عليهم بكل سهولة وسلاسة. ولماذا لم يقتل مشركى مكة لذن الفتح متهزا ما كانوا عليه عقيب ذلك من ضعف وتهافت بعد الهزيمة النكراء التي حلت بهم؟ لقد كانت كلمته لهم: "اذهبوا، فأنتم الطُّلُقاء"، تلك الكلمة التي سكنت مسامع التاريخ ولم تغادرها منذ ذلك اليوم الخالد. وقد رفض صلى الله عليه وسلم ما رددته أحد الصحابة الشريين حين قال في ذلك اليوم العصيب تعبيرا عن نيته في تطهير رؤوس المكين عند دخوله المدينة المقدسة: "اليوم يومُ الملحمة. اليومُ تُسْتَحَلُّ الحرمة"، ونهاه عن ذلك، ونحاه عن القيادة فورا. وهذه الأمثلة تبين لنا وجوب الاستعانة على تفسير القرآن بالسياق الحديث أيضا.

ومن هذا الباب كذلك ما رواه المغيرة بن شعبة في قوله: "لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرأون: "يَا أُخْتُ هَارُونَ"، وموسى قَبِلَ عيسى بكذا وكذا. فلما قدمتُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يسمّونَ بأنبيائهم والصالحين قبلهم". يقصد صلى الله عليه وسلم أن أم المسيح ليست أختا هارون على الحقيقة، لكن كان من عادة الإسرائيليين أن ينسبوا ناسا منهم إلى المشاهير الماضين من بنى جلدتهم رغم انتفاء صلات الدم بين الطرفين. وهو ما تقوله دوائر المعارف الكتابية من أن كلمات "أب وابن وأخ وأخت" كثيرا ما تستخدم في الكتاب المقدس على نحو رمزي يدخل تحته بكل أريحية مناداة الإسرائيليين لمريم أم عيسى عليهما السلام بـ "يا أخت هارون" طبقا لما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام. ثم إن القرآن لم يقتل إن مريم أخت هارون، بل ذكر أن بنى إسرائيل هم الذين نادوها بذلك.

وهذا فيما يتعلق بالأمور الدينية وما أشبهها، وإلا فتفسير القرآن آخرى أن يستعين بكل ألوان المعارف والعلوم والفنون من تاريخ وجغرافية وطب وفلك وكيمياء وفيزياء ونفس واجتماع وتربية ونحت وتصوير... إلخ. وقد كنت في صغرى مثلاً أمرت على قوله تعالى في سورة "الفجر": "إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ" فلا تستثير منى انفعالا ولا

تَحْصُلُ مِنِّي الثَنَاتَا، إِذْ كُنْتَ أَتَنُذِلُ أَحَقَّقَ مَعْنَى الْكَلَامِ عَنْ إِزْمٍ وَلَا أَفْهَمَ وَجْهَ تَمِيزِ عِمَادِهَا، كَمَا لَمْ أَكُنْ أَتَصَوِّرُ أَنَّ ثُمُودَ قَدْ فَعَلْتَ أَكْثَرَ مِنْ إِحْدَاثِ فَتَحَاتٍ بَدَائِيَّةٍ فِي الْجِبَالِ وَتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا كَهَوْفَا سَازِجَةٍ يَسْكُونُهَا، إِلَى أَنْ قَرَأْتُ مِنْذُ بَضْعَةِ عَشْرٍ عَامَا أَنَّ إِزْمَ كَانَتْ مُتَقَدِّمَةً فِي فَنِّ الْعِمَارَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ أَعْمَدَةُ مَبَانِيهَا أَضْخَمَ أَعْمَدَةٍ فِي زَمَنِهَا. وَبِالْمَثَلِ لَمْ تَكُنْ ثُمُودَ تَسْكُنُ مَغَاوِرَ وَكَهَوْفَا وَحَشِيَّةَ فِي جُوفِ الْجِبَالِ بَلْ نَحْتَتُ فِيهَا قُصُورًا رَائِعَةً مَزْخَرَفَةً بِدِيْعَةٍ عَمَّا لَا يَسْتَطِيعُهُ كَثِيرٌ مِنَّا الْيَوْمَ. وَقَدْ رَأَيْتُ صُورًا لِبَعْضِ تِلْكَ الْقُصُورِ فَشُدِّدْتُ لَهَا شَاهِدَتٌ. وَالْفَضْلُ فِي هَذَا وَذَلِكَ إِنَّهَا يَرْجِعُ إِلَى تَقَدُّمِ عِلْمِي التَّارِيخِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ وَاِكْتِشَافَاتِهَا الْمَذْهَلَةِ الَّتِي لَا تَتَوَقَّفُ. وَمِنْ هُنَا صَكَّكَتُ شَعَارًا عِلْمِيًّا فِي كِتَابِي: "مَسِيرُ التَّفْسِيرِ" هُوَ "كُلُّ الْعِلْمِ فِي خِدْمَةِ التَّفْسِيرِ".

كذلك فقله تعالى في معرض الحديث عن خلق الجنين وأطوار تشكله: "يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاثٍ" يمكن تصوره عن طريق علم التشريح. فكما قرأت في بعض المواقع العلمية: "يحاط الجنين في داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هي من الداخل إلى الخارج كما يلي: غشاء السلى أو الرهل (amnion)، والغشاء المشيموي (chorion)، والغشاء الساقط (Decidua). وهذه الأغشية الثلاثة تحيط بالجنين إحاطة كاملة فتجعله في ظلمة شاملة هي الظلمة الأولى. ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم، وهو جدار سميك يتكون من ثلاث طبقات تحدث الظلمة الكاملة الثانية حول الجنين وأغشيته. والرحم المحتوى على الجنين وأغشيته في ظلمتين متالتين يقع في وسط الحوض، ويحاط إحاطة كاملة بالبدن المكون من كلٍّ من البطن والظهر، وكلاهما يحدث الظلمة الثالثة تصديقا لقول ربنا تبارك وتعالى".

وهناك قوله تعالى من سورة "فاطر": "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُهُ، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ. وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا". ورغم أن الآية تقول بصريح العبارة: "ومن كلٍّ (أى من كل من البحر المالح والبحر العذب، وليس من المالح فقط)... تستخرجون حلية تلبسونها" نقرأ في تفسير الطبري (القرن الرابع الهجري): "تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا: يعنى الدر والمرجان. تستخرجونها من المِلْحِ الْأُجَاجِ". وفي تفسير أبي السعود (القرن العاشر الهجري) نقرأ ما يلي: "قوله تعالى: وَمِنْ كُلِّ (أى من كلٍّ واحدٍ منهما) تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا، وَتَسْتَخْرِجُونَ (أى من المالح خاصة) حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا". ويقول الشوكاني (القرن الثالث عشر الهجري): "وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا: الظاهر أن المعنى "وتستخرجون منها حلية تلبسونها". وقال المبرد: إنما تستخرج الحلية من

المالح. وروى عن الزجاج: أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده. ورجح النحاس قول المبرّد."

ويقول الطباطبائي (وهو مفسر معاصر) في تفسير "الميزان": "والحلية المستخرجة من البحر اللؤلؤ والمرجان والأصداف... فظاهر الآية أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحر العذب والبحر المالح، لكن جمعا من المفسرين استشكلوا ذلك بأن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من البحر المالح دون العذب. وقد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة منها أن الآية مسوقة لبيان اشتراك البحرين في مطلق الفائدة، وإن اختص ببعضها، كأنه قيل: ومن كل تتفعون وتستفيدون كما تأكلون منها لحما طريا، وتستخرجون من البحر المالح حلية تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر. ومنها أنه شبه المؤمن والكافر بالعذب والأجاج، ثم فصل الأجاج على الكافر بأن في الأجاج بعض النفع، والكافر لا نفع في وجوده. ومنها أن قوله: "وتستخرجون حلية تلبسونها" من تمة التمثيل على معنى أن البحرين، وإن اشتركا في بعض المنافع، تفاوتتا فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه ما خرج به عن صفاء فطرته. والمؤمن والكافر، وإن اتفقا أحيانا في بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة، متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصلية دون الآخر."

أما عبد الله يوسف على فنراه، في تعليقه على هذه الآية في ترجمته الإنجليزية للقرآن المجيد، يذكر من الحلى البحرى اللؤلؤ والمرجان، ومن الحلى النهري العقيق وبرادة الذهب وغيرهما. وفي مادة "Pearl" من "Encyclopaedia Britannica" أن اللؤلؤ يوجد أيضا في المياه العذبة. أما "المتخب في تفسير القرآن الكريم" فيقول في الهامش المخصص لتلك الآية: "قد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك. أما اللؤلؤ فإنه، كما يستخرج من أنواع معينة من البحر، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار، فتوجد اللاكلى في المياه العذبة في إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان... إلخ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة، ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بالريقة. ويوجد الياقوت كذلك في الرواسب النهرية في موجوك بالقرب من باندالاس في بورما العليا. أما في سيام وفي سيلان فيوجد الياقوت غالبا في الرواسب النهرية. ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل في الزينة حجر التوباز ويوجد في الرواسب النهرية في مواقع كثيرة متشرة في البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا) وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفر

أو بنيا، والوزير كون (circon) حجر كريم جذاب تقارب خواصه من خواص الماس، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية".

ومع هذا فإن بعض المترجمين الأوربيين في العصر الحديث قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلي. وقد تجلّى هذا في ترجمتهم لهذه الآية: فمثلا نرى رودويل الإنجليزي يترجم الجزء الخاص بالحلي منها هكذا: "Yet from both ye eat fresh fish, and take forth for you ornaments to wear." وعبارة "from both" تصلح لترجمة آية سورة "الرحمن": "يخرج منها اللؤلؤ والمرجان"، لكنها لا تصلح لترجمة هذه الآية. كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو التالي: "Und (aus dem Salzmeer) geumnt ihr schmuck... um ihm euch anzulegen." وترجمته: "وتستخرجون (من البحر المالح) حلية تلبسونها". ويرى القارئ أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة: "من البحر المالح: aus dem Salzmeer"، وهو ما يشير إلى استبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق وغيرهما من أنواع الحلي على ما تقول الآية الكريمة. أما ترجمة سيل وبالم (الإنجليزي تان)، وترجمتا كازيميرسكى وماسون (الفرنسي تان)، وكذلك ترجمتا ماكس هنج ومولانا صبير الدين (الألماني تان) على سبيل المثال، فقد ترجمت كلها النص القرآنى كما هو، ولكنها لم تلتزم الصمت فلم تعلق بشيء. فمن الواضح أن الاستعانة بالعلوم الطبيعية يمدنا بالتفسير الصحيح لكثير من آيات القرآن الكريم. والسبب في كل هذا أن القرآن كتاب لكل العصور ولكل البيئات وأنه كتاب إلهي، وليس من تأليف محمد، وإلا لكان انعكاسا لمستوى بيئته وعصره ثقافيا وحضاريا ولا متلا بالأخطاء كما تمتلئ كتبنا بها مهما تحررنا ودققنا ومحصنا.

وقد نقلت الكاتبة عن د. أكرم ندوى الهندي المسلم أنه ينبغي مواجهة القرآن مباشرة دون أن نشغل أنفسنا بما كتبه الفقهاء والمفسرون حوله توضيحا وشرحا. وقد سمعنا هذا الكلام أيضا من جمال البناء الذي يقصد إهمال كلام العلماء حول كتاب الله تماما ودخول كل من هب ودب على الكتاب المجيد دون أدوات تساعد على فهمه. فإن كان د. أكرم ندوى يجري في ركاب البناء فهذا ضلال علمي مبين. أما إن كان مقصده أن الواجب علينا، بعد الاطلاع على ما قاله الفقهاء والمفسرون في كتاب الله، الاجتهاد في ألا يقف ما قالوه حائلا بيننا وبين كتاب الله فلا نزيد عن تكرير ما قالوه بعجزه وبجبره ولا نأتى بشيء جديد أو صحيح، ويكون ما وصلنا إليه هو مجرد اجترار لما قيل من قبل مهما يكن خاطئا أو ضعيفا فأنا حيثذ معه، ولكن بشرط أن يكون الشخص أهلا لهذا الأمر علما وعقلا وإخلاصا. ويمكننى

أن أضرب مثالا على ما أقول. فلقد غبر على زمان كنت أردد فيه ما درسته في الفقه الشافعي وأنا ولد صغير في الأزهر من أن المسح بالتراب على اليدين ينبغي أن يكون إلى المرفقين قياسا على التوضؤ مع أن آيتي التيمم تتكلمان عن مسح اليدين لا غير دون أن تحددا ذلك بكلمة "إلى المرفقين"، التي وردت في آية الوضوء. كذلك كنت أتصور أن التيمم في السفر لا يصح إلا إذا عدم الماء مع أن الآية لا تقول ذلك بل تسوق السفر والمرض وعدم الماء أسبابا لثلاثة تحيز التيمم، وإلا لأشارت إلى عدم الماء وحده دون النص على السفر. وقد نبهني إلى ذلك ما كتبه الشيخ محمد عبده والشيخ شلتوت في هذه النقطة، وألفت ما كتبه مقنعا أشد الإقناع، فأخذت به من يومئذ.

وأيا ما يكن الأمر فهل القرآن وحده ينفرد بهذا الذي قالته المؤلفة الأمريكية عن اختلاف الناس في فهمه؟ أبدا، بل هذا يصدق على كل كتاب: سواء كان كتابا دينيا كالكتاب المقدس، وهو كتاب الأمة التي تنسب المؤلفة إليها، أو أي كتاب آخر. وعندنا مثلا، في مجال الأدب والنقد، وهو مجال تخصصي الأكاديمي، ما قاله أرسطو حول "التطهير"، الذي تقوم به المسرحيات بالنسبة للمشاهدين. لقد اختلف النقاد ومؤرخو الآداب في تفسير هذه الكلمة على مدى القرون. كما أخطأ المترجمون العرب القدماء فهم كلامه في كتابه: "فن الشعر" عن المأساة والملهاة في المسرح ظنا منهم أنه يعنى المديح والهجاء في الشعر الغنائي، الذي لم يكن العرب يعرفون من الشعر غيره. وهو ما ترتب عليه أن كتب ابن رشد كلاما عجيبا غريبا ما أنزل الله به من سلطان في ذلك الموضوع، وجعلته أنا محورا من محاور كتابي: "ابن رشد - نظرة مغايرة" حيث أوضحت التخييط الفاحش الذي تحببته الفيلسوف القرطبي لعدم تأنيه أو إيماله مبدأ التشكك فيما لا يحسنه ولا يعرف عنه شيئا واندفاعه في هوج وثقة في غير موضعهما مرافقا أرسطو على كل ما قاله رغم أنه لا يعرف عمّا كان الفيلسوف الإغريقي يتحدث، فأثنى بالعجب العجائب مما كان كفيلا بأن يتجنبه لو اعتصم بالثبوت والتنبيه إلى أنه يقدم على أمر ليس له فيه غير ولا نفي ولا إثارة من علم.

واختلف محمود شاكر وطه حسين وعبد الغنى الملاح وأنا حول نسب المتنبي: فطه حسين يزعم أنه أتى إلى الدنيا ثمرة اعتداء من أحد الجنود القرامطة على أمه. وشاكر يقول إنه ابن لأحد العلويين، وهو ما مد عبد الغنى الملاح خيطه إلى النهاية مدعيا، إى والله، أنه ابن المهدي المنتظر ذاته. أما العبد لله فلم ير ما يدعوه إلى تنكب ما قاله القدماء من أن أباه كان سقاء. وقد بينت، في كتابي: "المتنبي - دراسة جليدة لحياته وشخصيته"، تهافت ما قاله كل من طه حسين وشاكر والملاح وصلابة ما ذكره القدماء في

هذا السبيل. كما اختلف النقاد ومؤرخو الأدب حول عقيدة المتنبي، فزعم لويس ماسينيون أنه قرمطي، وصال وجال وأتى بها حسب براهين قاطعة على زعمه هذا، وتابعه على هذا الزعم بعض الكتاب العرب، وهو ما حفزني على معاودة فتح ذلك الملف، فكانت الثمرة كتابا في ذلك الموضوع نَقَى بكل قوة وثقة واطمئنان قرمطية الشاعر الكبير اعتمادا على تحليل مرهق ومنطقي للظروف التاريخية والنصوص الشعرية والترجمات التي تركها لنا القدماء للرجل مما يجده القارئ في كتابي: "المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام للويس ماسينيون - ترجمة وتعليق ودراسة إبراهيم عوض".

وغير خاف الاختلاف حول مضمون رواية "وليمة لأعشاب البحر"، التي أثارَت ضجة مصمة في تسعينات القرن المنصرم، وانقسم النقاد حولها: فَمَنْ كان على شاكلة حيدر حيدر في اتجاهه السياسي والأيدولوجي دافع عن الرواية زورا وبهتانا مدعيا أنها لا تعادي الإسلام بل تدعو إليه وتعلو من شأنه، بينما رأى نقاد آخرون منهم العبد لله أنها تعادي الله ورسوله والإسلام وتتطاول على الذات الإلهية وتتجرأ على عِزِّ النبي الكريم وأن ما يقال عكس ذلك هو هراء في هراء، وقدموا الشواهد القاطعة على صدق ما يقولون.

ومنذ عدة أشهر وقع لي بحث عن معلقة امرئ القيس تناوَلها فيه صاحبه طبقا لأحد المناهج النقدية الأخيرة، فرأى فيها محاولة من الملك الضِّلِيل للتعبير عن شعوره بالذنب تجاه أبيه، الذي كثيرا ما عصاه ودار على حل شعره وراء الغيد الحسان في صحبة الصعاليك الذين لا يناسبونه ولا يناسبهم، وللتعبير كذلك عن رغبته في التطهر من ذلك الإثم الملح على ضميره كما يقول البحث. ومن ثم فقد فسر الكلام عن المطر والسيل في المعلقة المذكورة على أنه رمز إلى حرص الشاعر على ذلك التطهر. وفاته بكل بساطة أن القصيدة إنما قِلت أيام صعلكة الشاعر وجريه مع نزواته إلى آخر مدى تحديا لرغبة أبيه الملك في أن يتصرف ابنه تصرف أبناء الملوك، أي قبل مقتل الأب. وبالتالي فلا شعور بالإثم ولا يحزنون. وهذا هو السياق التاريخي الذي كان على الباحث استصحابه لدن كتابته بحثه، لكنه لم يفعل، بل انطلق مفتونا بالمنهج النقدي الجديد الغريب الاسم، فوقع فيما وقع فيه من غلطة بلقاء لا تغتفر، مثلما وقع فيها من راجعوا له البحث عند نشره في إحدى المجلات المحكمة، إذ لم ينتبهوا إلى ما صنعه الباحث فبرده عن هذا الذي صنع ويطلبوه بإعادة كتابة البحث من جديد أو الانصراف عنه إلى غيره من البحوث المجدية.

كما قد فات الأستاذ الباحث أن القصيدة نفسها تحتوى على ما يدل على أن الشاعر، حين نظمها، كان مبتهجا بسلوكه مثلنذا بإباحيته وخروجه على العرف والتقاليد مفاخرا بمغامراته المفحشة مع الفتيات وبالحصان الذى يركبه ويعتقد أنه أفضل حصان فى العالم، مثلما غاب عنه أنها لا تأتى على سيرة الأب ولا مقتلته ولا التأثم جراء ذلك بكلمة واحدة من قريب أو بعيد. ثم هل كان الوثنيون فى بلاد العرب قبل الإسلام يعرفون معنى التطهر على هذا المنوال؟ لقد كان كل ما فعله امرؤ القيس عندما بلغه مقتل أبيه على يد رعاياه، وكان الشاعر وقتئذ يشرب الخمر، هو أن استمر يشرب تلك الليلة قائلا: "ضعنى صغيرا، ومَحَلِّى دمه كبيرا! اليوم خمر، وغدا أمر!"، ثم ترك الشراب بعد تلك الليلة إلى أن مات وهو عائد من عند ملك الروم، الذى كان قد قصده ليعينه على أخذ الثأر لأبيه من قتلته. وكان العرب فى مثل تلك الحالة يحرمون النساء والاغتسال على أنفسهم إلى أن يدركوا ثأرهم. فكما يرى القارئ كان الأمر يجرى عند العرب على خلاف ما ظن الباحث. بل إن حقن الشاعر على أبيه وتحمله إياه المسؤولية هو أكبر برهان على أنه لم يكن يشعر بأى إثم يدعو به إلى التطهر، إذ كان المخطئ فى نظره أبوه لا هو. وهذا كله إنما يدل على أن العبرة فى التأليف والكتابة لا مجرد استخدام المناهج النقدية الجديدة بل حسن التأتى للموضوع والإخلاص لأصول البحث العلمى. ومع هذا فيحسب للباحث أنه، حين لفتُ نظره، خلال اتصائه بى هاتفيا من خارج البلاد، إلى الغلطة العنيفة التى سقط فيها، لم يكابر بل أقر بأنها قلة خبرة منه.

فإذا ما انتقلنا إلى الكتاب المقدس استطعنا أن نجد فيه التوحيد مثلما نجد فيه تعدد الآلهة والقول بأن هناك بشرا يتسبون إلى الله بوصفه أباهم. كما نقابل فيه أشخاصا يصفهم ذلك الكتاب بالتقوى والبر، ويراهم آخرون زناة فسقة مجرمين دياثية. وكلهم تقريبا أنبياء ورسل. كما نراه متناقضا فى تصوير العلاقة بين بنى إسرائيل والله رب العالمين: فهم أحباؤه خلقهم لنفسه شخصا، وفى ذات الوقت نقرأ من لعناته عليهم وسبابه لهم ما لا يمكن أن يصدر إلا عن عدو مضطغن حاقد لا من أب على أبنائه أو حاكم على شعبه. ودعنا من التناقضات الحسائية والتاريخية والعقلية التى لا يمكن أن تنجبر أبدا مهما بُذِلَتْ فيها الجهود وتضافرت فى رقتها عبقرية العبقرين كما هو الحال فى ذلك الملك الذى مات وعنده أربعون عاما ليتولى عقب موته ابنه، الذى كان يبلغ من العمر آنذاك اثنين وأربعين عاما. إى والله!

أما بالنسبة إلى الأنجيل فقد اختلف النصارى فرقا وأحزابا يكفر بعضهم بعضا، وكل فرقة تتكى على نصوص الإنجيل. فما العمل فى هذا؟ كما كان ملوك أوربا وقساوستها يعتمدون عليها فى تألههم

واستبدادهم على عكس ما يقال الآن من أن الرحمة بالشعوب وحكمها بالديمقراطية ينبعان من تلك الأناجيل نفسها. وهناك من الغربيين من يكذب بوجود المسيح، ومنهم من يتهمه بالدجل والشعوذة وترتيب الأمور مع بعض تلاميذه بحيث تبدو للسذج المغفلين معجزات عجيبة، ومنهم من اتهمه بالشذوذ الجنسي، ومنهم من يقول إنه قد تزوج مريم المجدلية. وهناك كذلك من يؤكد أنه نبي السلام والرحمة والمحبة، ومن يرى أنه قد أتى لينشر العداوة والحصام والكراهية بين الناس بل بين أبناء البيت الواحد. ومنهم من يرى أنه عصبي شديد الانفعال هجام شتام يثور ويسب لأنفه سبب، ومنهم من يراه على العكس من هذا وديعا مسالما يتصح أتباعه بإدارة الخلد الأيسر لمن يصفعهم على خدهم الأيمن. وهو نفسه يقول في الأناجيل إنه ما جاء لينقض الناموس، الذي أتى به موسى، لنفاجأ به عقيب ذلك ينقض على ذلك الناموس تبديلا وإلغاء. وكل هذا وكثير غيره إنما يستند القائلون به إلى نصوص الأناجيل ذاتها.

وفي موضع آخر من الكتاب تسأل الكاتبة الأمريكية د. أكرم الندوى عن المراد بـ "المغضوب عليهم والضالين" في قوله تعالى في سورة "الفاتحة": "اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" لتعرف كيف ينظر الإسلام إلى اليهود والنصارى. ترى هل تظن أن الإسلام يمكن أن يقر بصحة ما عليه الفريقان؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد دق مسامير نعشه في الحال. ذلك أن الإسلام قد أتى، ضمن ما أتى من أجله، لتوضيح الأخطاء العقيدية والتشريعية والمتصلة بسير الأنبياء عندهم، وإلا ما أدانهم وشدد النكير عليهم. إلا أن ذلك شىء، والتفكير في إكراههم على تغيير ما يؤمنون به شىء آخر لم يفكر الإسلام فيه لأنه ضد مبادئه العظيمة من ترك كل أهل دين وما يدينون به دون التدخل في شؤون ضمايرهم انطلاقا من دعوته الملحة إلى حرية الاعتقاد والدين. وقد لخصت السيدة باور رأى د. أكرم الندوى في أن "المغضوب عليهم والضالين" ليسوا هم اليهود والنصارى بالذات بل أى مسلم ينحرف عن صراط المتقين.

وكنت، قبل معرفتى بكتاب المؤلفة بأسابيع، قد سجلت فهمى لذلك الموضوع في كتاب لى ذكرت فيه أنى أؤثر القول بأنهم كل من تبين له أن محمدا رسول الله رب العالمين ثم عاند وتمرد وكفر، أو عصى ونجبر وسام البلاد والعباد سوء الطغيان والعذاب والاستبداد واجتيال الأموال. وهؤلاء أوسع من أن ينحصروا في أهل الكتاب، بل يدخل فيهم الوثنيون والمجوس وعبدة الجهادات وعبدة البشر وعبدة الحيوانات والملاحدة، وكذلك العصاة المجرمون والمنافقون ممن يتسبب زورا وميتا إلى دين

محمد. وفي عصرنا هذا يمكن أن نضيف الماركسية والوجودية والنازية والفاشية، ومن أديان القدماء البوذية والكونفوشيوسية والشتوية.

فكل من يتحقق من غير المتسبين إلى الإسلام أن الإسلام هو الدين الحق، ثم يتعمى عن ضيائه الباهر ويكفر بنيه وكتابه ويعاديه فهو من المغضوب عليهم والضالين حتى لو لم يكن يهوديا أو نصرانيا. أما قصر التفسير على اليهود والنصارى فينبغي النظر إليه على أنه من باب التمثيل ليس إلا. وقد يكون السبب في ذلك أن الإسلام في عمره الباكر لم يجد في طريقه سوى هاتين الديانتين اللتين عاداته واصطدمتا به وحاولتا استئصاله، فكان من الطبيعي أن تتبادرا إلى ذهن مفسرينا الأوائل رضي الله عنهم. نعم ليس الغضب والضلال مقصورين على غير المسلمين مثلما أن الهدى والرضا ليسا منحصرين فينا نحن أتباع محمد عليه السلام. ألم يكن بين الأمم السابقة مؤمنون مطيعون مستقيمون ينصاعون لما يقوله رسلهم ويلتزمون به ويتمسكون به؟ أليس من بين المسلمين من يشايخ أعداء وطنه ودينه، ومن يعمل بعكس تعاليم الإسلام عمدا وعن سبق إصرار وترصد؟ أليس بين المسلمين من يعيش هملا لا يعرف لحياته معنى ولا لوجوده غاية، فهو يأكل ويشرب ويتناسل ليس إلا، ويؤثر ما هو عليه من جهل وفوضى وقبح وتشوه وإجرام وتسبب وتبلة ولا مبالاة وتمرد على القانون وبذاءة وقذارة وتنانة، على العلم والنور والنظام والانضباط وحساسية الشعور والاهتمام واليقظة والجمال والرقى والنظافة وطيب الرائحة، ويكره كل من يحاول مديده إليه لانتشاله من تلك الظلمات المترابكة التي يعشقها عشقا ويزدوب فيها هياما وغراما؟ أليس بين المسلمين لصوص عتاة يخلسون من المال العام الملايين والمليارات ويتركون أهمهم تنضور جوعا وعريًا وبلا مسكن يليق بالآدميين؟ أليس بين المسلمين طغاة مجرمون سفاحون سفاكو دماء متغطرسون متآلهون تافهون لا يرحمون شعوبهم ولا يفكرون في ترقيتها والأخذ بيدها في مدارج الحضارة والتقدم، بل يعسفون بها عسفا ويعصرونها عصرا ويقتلون منها من يقتلون دون مبالاة بالعواقب ويأخذونها في مغامرات شيطانية إلى الدمار والخراب بغير حسيب أو رقيب، ويمصون دماءها بلا شفقة أو رحمة؟ أليس بين المسلمين ثعالب منافقة خبيثة اتخذوا الدعوة الدينية محترفا يأكلون به الدنيا أكلًا مكًا، فهم يبالون الظالمين ويضللون الجماهير ويشغلونهم بالتفاهات والشكليات والبهلوانيات وتفصيل الشعر حتى لا يعرفوا شيئا عن الدور الحضارى العظيم الذى يقوم به الإسلام وتنقل به الأمم التى تتخذة وتتجهج سبيله من الفقر إلى الغنى،

ومن ظلمات الجهل المتراكبة إلى ضياء العلم الباهر، ومن التبلد إلى التوثب، ومن استعذاب الظلم والاستبداد إلى التلذذ بطعم الحرية والمجاهدة في سبيل نيلها.

ولا أتصور إلا أن هؤلاء داخلون مع المغضوب عليهم والضالين، فإن الله سبحانه لم يكتب النجاة في الآخرة للإنسان لمجرد أنه قد نطق بالشهادتين. وإلا فما أسهل الإسلام والإيمان! وما أرخصه على كل من هب ودب! إلا أنه لا بد من التمييز بين غضب وغضب، وبين ضلال وضلال. فهناك درجات ودركات لكل شيء في هذا الوجود، وعلى رأسه الحساب الإلهي. ثم لقد أطلق القرآن القول إطلاقاً، فذكر: "المغضوب عليهم والضالين"، ولم يقل: "اليهود والنصارى". ترى ما الذي منعه من تعيينهم بأسمائهم التي نعرفها بدلا من هذا التعميم؟ إنه دائما ما يذكرهم بـ "اليهود والنصارى" حين يريد التفصيل، و"أهل الكتاب" حين يريد جمعها معا. فلم تأتي نحن ونحدد، وقد أطلق هو الكلام؟

كذلك فإن "الفاتحة"، التي ورد فيها ذكر "المغضوب عليهم والضالين" قد نزلت في مكة مبكرا جدا قبل أن يصطدم الإسلام باليهود أو النصارى، بل قبل أن يبرز في حياة الإسلام اليهود والنصارى، فكيف يهاجمهم الإسلام قبل تجريبه إياهم وظهور عداوتهم وبغضهم له؟ كما أن "الفاتحة" بطبيعتها سورة تجريدية، فهي تخلو من القصص والجدال والتفاصيل، وتكفي بمناجاة الله حمدا واستعانة وطلب هداية، ولا تتحدث عن أحداث أو أشخاص، ومن ثم كان غريبا القول بأنها تدين اليهود والنصارى بوسم أولئك بـ "المغضوب عليهم"، وهؤلاء بـ "الضالين".

إلا أن المؤلفة لم تسترح إلى تفسير د. ندوى، وظلت تنقب في التفاسير والدراسات القرآنية المكتوبة بالإنجليزية حتى وجدت ما كتبه فضل الرحمن، وهو كاتب إصلاحى مسلم، من أن النجاة في الآخرة، حسبما تنص الآية ٦٢ من سورة "البقرة" لا تقتصر على المسلمين فحسب بل تشمل معهم الصابئين واليهود والنصارى متى آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات، فعندئذ شعرت بالراحة العميقة ورجعت إلى ما كان عليه رأيها في الإسلام من أنه دين واسع الأفق. وهذا ما كتبه عن تلك المسألة:

"I sat with my tower of tafsirs, finger-scanning index columns for "Al-Fatiha" and for "Quran—attitudes to Jews and Christians." I found some comfort in an introductory text by Fazlur Rahman, a great twentieth-century Muslim reformist. In Major Themes of the Quran, he cites a verse from the second sura: "Those who believe [Muslims], the Jews, the Christians and the Sabaeans—whosoever believe in God and the Last Day and do good deeds, they shall have their reward from their Lord, shall have nothing to fear, nor shall they come to grief." Ultimately, concludes Rahman, these words have an "obvious meaning," which is simply that those "from

any section of mankind—who believe in God and the Last Day and do good deeds are saved.” There. It was ultimately about belief in God, and being good. A flood of relief. That I could do. I regained my faith in Islam as being a force for harmony between faiths”.

والحق أن لو كان الأمر كذلك ما كان هناك معنى لمجىء محمد ودعوته إلى الإسلام ولكذب القرآن نفسه بنفسه كما قلت، إذ يكفي أن يكون الشخص يهوديا أو نصرانيا أو صابيا كي ينجو. والصواب أننا ينبغي أن نرقم الآية التي تشير إليها الكاتبة: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" على النحو التالي: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". أى أن عندنا صنفين من الناجين يوم القيامة: المسلمين، الذين عبر عنهم القرآن بـ "الذين آمنوا"، ثم عندنا اليهود والنصارى والصابئون إذا كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات. فأما عمل الصالحات فلا مشكلة فيه، لكن المشكلة كلها تكمن في معنى الإيمان بالله واليوم الآخر هنا.

ستقول لى: وكيف ميّزت بين الفريقين على هذا النحو؟ فأجيبك أنه لا يغفل أن يقول القرآن عن قوم إنهم "آمنوا"، أى آمنوا بالله واليوم الآخر، ثم يدور على عقبيه مشرطا أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر، إذ هو شرط لا معنى له لأنه متحقق في وصفهم بـ "الذين آمنوا". كذلك أرجوك أن تتمعن في الآيات التالية من سورة "النساء": "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أَنْ يَفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"، ولسوف ترى بنفسك أن من لا يؤمن ولو بنبي واحد هو كافر في نظر الإسلام حتى لو آمن بسائر الأنبياء الآخرين. فما بالك إذا كان النبي المكفور به هو محمدا عليه السلام؟ ومعنى هذا أن اليهود والنصارى ليسوا من المؤمنين بالله ورسله. وبالمثل أرجوك أن تقرأ الآية التالية من سورة "الأنعام"، والكلام فيها عن القرآن: "وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ". وهذا منطوق النص، أما مفهومه فهو أن من لا يؤمن بالقرآن ليس مؤمنا بالآخرة في نظر الإسلام. فهل في هذا ما يعيب الإسلام؟ أبدا، فكل دين يرى أنه هو المذهب الصحيح، وإلا لترك كل أهل دين دينهم ولم يتدينوا بشيء!

وهناك حل آخر يتمثل في قوله تعالى من سورة "الأنعام": "وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا" وفي قوله عز شأنه: "لا يَكْفُرُ اللَّهُ تَنفُسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا" بما يعنى أن الحساب يوم القيامة سيكون بناء على مدى اجتهاد الشخص وإخلاصه في البحث عن الدين الصحيح ومدى مساعدة الظروف أو معاكستها له. وعلى هذا فمن يبحث ويجتهد ثم لا تتضح له الصورة على حقيقتها فالله سبحانه عاذره. ومن اتضح له الصورة ثم عاند وتمرد وأغلق قلبه عن نور الإسلام وكثر بمحمد فهو في النار. أما من لم يسمع عن الإسلام ونبه بتاتا، ومن ثم لم يؤمن به، فهل تظن أن الله سوف يحاسبه على ما هو خارج وسعه وفوق طاقته؟ وبالمثل من لم يكن عنده من العقل ما يستقل به ويعرف أن ما يقال له عن محمد عليه السلام ودينه من الاتهامات الكاذبة كلام زائف مبطل فإن الله سبحانه وتعالى يأخذ وضعه هذا في الحسبان. وبهذه الطريقة ينحل هذا الإشكال. وبهذا نرى مدى سماحة الإسلام وتفهمه لحال البشر وضعفهم ومحدودية قدراتهم وضغط الظروف القاسية عليهم.

أكرم ندوى

يدور الكلام في هذا الفصل حول ما ذكرته الكاتبة في الفصل الخاص بتعريف القراء بالدكتور أكرم ندوى، الذى توجد تقاطعات بين حياتى وحياته، وإن كان الفارق الزمنى بيننا من ناحية الميلاد بعيدا، إذ ولد عام ١٩٦٤م بينما ولدت أنا عام ١٩٤٨م، فهو فى سن قطاع كبير من تلاميذى، كما أن الفارق الجغرافى بين بلدينا أشد بعدا، فهو من الهند، وأنا من مصر. أما التقاطعات فهى أن كلينا ريفى قروى، وكلينا تعلم تعليما إسلاميا فى صغره، فقد حفظت القرآن فى الكتاب، وانتقلت حين بلغت الثانية عشرة إلى المعهد الدينى بطنطا، وإن كنت قد تركت الأزهر بعد حصولى على الإعدادية وحولت أوراقى إلى المدارس. وبالمثل تلقى هو تعليما دينيا، إلا أنه ظل يتلقى هذا اللون من التعليم. وبالمناسبة فإنى، رغم تركى الأزهر، قد عدت فى قسم اللغة العربية بآداب القاهرة إلى دراسة اللغة العربية والتفسير والحديث والتاريخ الإسلامى وما إلى ذلك مما له أشد الارتباط بالدين. كما درس كلانا اللغة الفارسية، إلا أننى قد أهملتها بمجرد تخرجى من الجامعة فنسيت كل ما تعلمته منها، وحين عدت إلى تعلمها من جديد على نفسى فى لندن بعد حصولى على الدكتوراة من جامعة أكسفورد أواسط عام ١٩٨٢م طوال الشهرين اللذين عقبا ذلك، واستطعت التحدث بها بشيء من السهولة فسرعان ما أهملتها فور رجوعى من بريطانيا. والطريف أننى شرعت بعد ذلك فى تعلم الألمانية أنا وزوجتى فى معهد جوته بوسط القاهرة، لكننى للأسف قد أهملتها عند مغادرتى مصر للعمل سنة ١٩٨٩م بجامعة أم القرى بالسعودية رغم أنى آنذاك كنت أقرأ بشيء غير قليل من السهولة ترجمات القرآن بها.

كذلك ذكرت المؤلفة أن د. ندوى لم يكن مبهورا بما يراه فى أكسفورد من جمال الطُّرُز المعمارية وأبراج الكنائس وخضرة الأفنية المشدبة وما إلى ذلك، إذ كانت نزعته عملية. ولعل، وأنا هناك، كنت إلى حد ما مثله. لا أقصد أنى لم أكن أقدر ذلك، بل كنت أتقبله كأمر واقع لا أقف أمامه طويلا، فهو مبذول فى كل مكان. إلا أننى بعد عودتى ومقارنتى بين ما خلفته ورائى من نظافة ونظام وجمال واتساق وخضرة وتنسيق فى كل شيء وبين القوضى والقبح والقذارة والضوضاء والتشويه الذى يطبع جميع مناحى حياتنا فى بلادنا بطابعه البشع صرت أتحرق شوقا إلى هذا الذى كنت أعيش وسطه دون أن أقدر النعمة العظيمة التى كنت فيها كما كان ينبغى أن أقدرها. ومن الواضح أن بعض الناس، حين يتعودون على الجمال والنظام، لا يعودون يتبنهون كثيرا إليه، اللهم إلا إذا حُرِموا ووجدوا أنفسهم محوطين بنقيضه، فعندئذ تبدأ حسرتهم. وقد أكون أنا من هذا الصنف من الناس. إننى هنا لأعلى من شأن

بريطانيا على حساب مصر، لكننى أغلى واقعهم على واقعنا، الذى صنعناه بأيدينا ونشقى به ونظل نشكو منه ليل نهار مع أن الحل فى أيدينا، لكن دون أن نحاول التغيير، وهو ليس بالمستحيل، وإن كان يتطلب جهدا وصبرا وتخطيطا وعزما وطول بال مما لا نريد أن نفعل شيئا منه كراهية، فيما يبدو، لأى شىء جميل، إذ من الواضح أننا فقدنا القدرة على تذوق الجمال أو الهفو إليه. نعم فى الغرب أشياء بديعة، وعندنا أشياء زفت وقطران، ونستطيع أن نجعل بلادنا فى نظافة بلاد الغرب وجمالها وروعها بل أفضل، لكننا نبدو وكأننا قد امْتَصَصْنَا حضاريا كما يَغْصُرُ عود القصب تماما ولا يعود صالحا لأى شىء فيزترى به فى أكوام القمامة. ربما يبدو كلامى هذا قاسيا، لكن المتدبر المتعقل سوف يوافقنى عليه أو على كثير جدا منه. أكتب هذا وأنا مرور حزين على بلادى وأمتى وحاضرنا وبماضينا، وعلى مستقبلنا القريب على الأقل. ولكن ما العمل؟

وبالمثل أتفق والدكتور ندوى حول رفض الفتوى القائلة بعدم تعليم النساء القراءة والكتابة لمنعهن من تحيير الخطابات الغرامية. ليس ذلك فقط، بل إنى أرى مثل تلك الفتوى مناقضة لما يقوله الإسلام ورسول الإسلام، الذى حض على العلم ومجده وحث المسلمين والمسلمات جميعا على وجوب طلبه. وهل هناك علم بدون قراءة وكتابة؟ ألم تكن بعض زوجات الرسول يقرأن ويكتبن؟ هل قال الرسول يوما إن القراءة والكتابة مجرمتان على النساء؟ هل قال بوجوب لزوم النساء حالة الأمية التى نزلن بها من بطون أمهاتهن؟ ألم يقسم القرآن بالقلم؟ أم تراه أقسم بأقلام الرجال فقط، واستثنى الأقلام النسائية من ذلك؟ وهل القراءة والكتابة خطابات غرامية وحسب؟ أليس فى القراءة والكتابة قرآن وأحاديث وشعر وأدب وطب وفقه وكيمياء وفيزياء ورياضيات؟ هل البنات فى المدارس يتعلمن كتابة الخطابات الغرامية؟ ثم ماذا فى الخطابات الغرامية بين المرأة وزوجها مثلا إن غاب عنها وسافر فى تجارة أو طلب علم أو علاج أو حتى إن خاصمها أو خاصمتها وغلبها الشوق إلى بيتها وأرادت العودة إلى دفة أحضان زوجها؟ يا عالم! يا هوه!

إن هذا يذكرنى بطبيب شاب أزهرى قريبا لى من الريف حديث عهد بالتخرج من الجامعة كنت أتحدث معه فى منتصف ثمانينات القرن الماضى عن وجوب زواجه، فقال إنه يريد أن يتزوج من فتاة أمية. فرددت مصدوما: بعد الشر! ولماذا أمية يا شيخ؟ فقال: حتى لا تكون عندها الفرصة لكتابة الخطابات الغرامية. فقلت له: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ومن قال إنها لا بد أن تكتب خطابات غرامية؟ ثم هل الفتاة الأمية لا تجرى فى دمائها الشهوة والعاطفة كما تجرى فى دماء المتعلمة؟ وهل الأمية

أقدر على ضبط غرائزها ومشاعرها من التي تقرأ وتكتب؟ أليس للفتاة الجاهلة فم تستعمله في توصيل رسائلها الغرامية إن عذمت القدرة على الكتابة؟ أليس للفتاة الجاهلة أذنان كأذنى الحمار تستطيع أن تستقبل بهما الرسائل الغرامية إن عذمت القدرة على القراءة؟ إن المتعلمة على الأقل تتعلم في المدرسة كم آية قرآنية مع كم حديث شريف، فضلاً عن أنها تتعلم الصلاة في دروس مادة الدين، أما الجاهلة فلا تعرف إلا الثروة مع أمها حول الزريبة والخيز والطحين والجلّة والفرن والكانون. فهل أنت تفضل هذا على ذاك؟ وكيف ستفاهمان، وأنت طيب، وهى جاهلة محدودة الأفق؟ ثم اقترحت عليه أن يتزوج إحدى بنات فلان الفلاني، وبيته مقابل لبيتهم عبر المصرف. وقلت له ضاحكاً: ما عليك إلا أن تقطع المصرف بمياهه العطنة وما فيه من قاذورات وثُغَيَات سباحة إلى بيت جاركم في البر الآخر وتدخل عليهم وملابسك تشرّ ماءً وسخاً عطناً، فيكون هذا دليلاً ملموساً على أنك تريد بحرقّة الإصهار إليه، وأنت غاوي، والغاوي يتقطّ بطاقته. ثم تركت الأمر عند هذا الحد لأعلم بعد فترة أنه خطب كبرى بنات ذلك الجار، وعزّم البلدة كلها في الفرح إلا العبد لله رغم أنى صاحب الاقتراح ورغم قرابتنا. أليست هذه بالله عليكم خيبة، وخيبة ثقيلة؟ أنا غلطان! يا ليتنى تركته يتزوج فتاة جاهلة! منه لله!

وبالمناسبة لا أحب أن تفوتني الإشارة إلى أن اسم أنجي الشيخ، وهو مُزْمَل، يذكرني باسم أول شاب مسلم قابلته في لندن أول يوم لي هناك صيف ١٩٧٦ م، إذ كنت قد نزلت بيتاً من بيوت الشباب لأقضي فيه ليلتي لقاء خمسة جنهيات إسترلينية، وما إن وضعت شنتلي في الغرفة المخصصة لي حتى سألت فتاة الاستقبال عن الطعام لأنني كنت جائعاً، فقالت إنهم لا يقدمون سوى الفُطُور والميت. وعلى أن أدبر أمرى بالبحث عن أى محل لا يزال مفتوحاً بعد الخامسة والنصف أشتري منه شيئاً يؤكل، وهو ما يمكنني أن أجده إذا ما ذهبت إلى الشارع الرئيسي مروراً بالمسجد. وما إن سمعت كلمة "مسجد" حتى قلت في نفسي: جاءك الفرج يا مشتهي الطعام! فقد كانت إنجليزيتي ضعيفة جداً آنذاك لأنني إنما درست الفرنسية في المدرسة والجامعة في مصر، وتوقعت أن أجد عوناً في المسجد على نحو أو على آخر. وقد وجدت هناك الشاب الذي أومأت إليه آنفاً، وكان نيجيري الأصل فيما أذكر، واسمه مُدْثِر أحد أسماء نبينا محمد عليه الصلاة والسلام مثل "مزمّل". والاثنان اسما سورتين قرآنيتين متاليتين تتحدثان عن النبي عليه السلام في أبكر مرحلة من مراحل الوحى. وقد حل لي مدثر مشكلة الطعام، إذ قدم لي في المسجد طبقاً شهياً من البامية بالسّمك، إلى جانب الأرز الأصفر، وإصبع موز هو أكبر إصبع رأيته في حياتي آنذاك. ومن يومها وأنا أفضل هذا النوع من الموز.

وفي عام ١٩٨٩م ذهبت إلى السعودية للعمل بجامعة أم القرى - فرع الطائف، وهناك قرأت بالمصادفة إعلاناً في الصحف عن حاجة مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية إلى مشرفي رسائل جامعية محليين ليرعوا الطلاب المنتسبين من منازلهم إلى المركز، فراسلتهم في المعهد فاختراروني للإشراف على باحث فلسطيني، وكانت الرسالة عن د. غازي القصيبي ناقد أدبي. وكنت قد أصدرت كتاباً كبيراً من ٦٠٠ ص بعنوان "أدباء سعوديون" احتل القصيبي فيه قريبا من مائة صفحة، فكان مرجعا لذلك الباحث الذي كتب رسالة قوية في موضوعه. وفي ذلك الوقت تقريبا التحق د. أكرم الندوى بالمركز المذكور.

على أن المشابهة لا تتف عند هذا المدى، بل تمضي أبعد من ذلك. فقد تعرض الندوى، عند تقدمه لشغل وظيفة أستاذ بالمركز، لسؤال من مديره عن موقفه من قضية سلمان رشدي وكتابه عن الآيتين الشيطانيتين بغية استطلاع طمّعه ومعرفة اتجاهه الفكري. وكنت في ذلك الحين قد أصدرت كتاباً لي عن ذلك الموضوع. كما أنني قد تعرضت، حين تقدمت لشغل وظيفة مشابهة بكلية التربية بالطائف، لسؤال مشابه عن نجيب محفوظ وموقفه من فوزه بجائزة نوبل في ذلك الحين. فكان جوابي أن محفوظ، شئت أم أبيتاً، ينتمي لنا ونتمى له، وهو ابن العروبة والإسلام بغض النظر عن السبب الذي دفع الأكاديمية السويدية إلى إعطائه جائزتها السنوية في الأدب، ومن ثم ينبغي لنا أن نفرح بحصوله على تلك الجائزة التي تأخرت عنه سنوات طويلاً، إذ هو بكل يقين أفضل من بعض من فاز بها. كما أن فوزه بالجائزة فخر لنا نحن العرب والمسلمين. وأحسب أن الأستاذ الذي سألتني لم يخطر له أن يسمع هذا الجواب من متقدم لشغل وظيفة في الجامعات السعودية في الوقت الذي كان هناك حظر على أعمال محفوظ في معظم دول العالم العربي بما فيها المملكة؟ ومع هذا فقد ظهرت علائم الارتياح عليه رغم أنه متخصص في الدراسات الإسلامية لا الأدبية. وقد أعربت عن رأيي في عبقرية نجيب محفوظ وتفوقه على كثير من نظرائه في آداب العالم الأخرى في أكثر من كتاب لي.

أما د. أكرم ندوى فكان رده على السؤال الخاص بموقفه من رواية سلمان رشدي والتظاهرات المشتعلة التي كانت تعج بها بريطانيا هو أنه ينبغي تجاهل الرواية تماماً كأنها لم تكن، وأن التظاهر لا يفيد بشيء، فאלله ورسوله لن يؤذيها هذا الكتاب، أما المسلمون فإن تلك المظاهرات تؤذيهم بما وقع فيها من أعمال شغب وحرق للكتاب سواءً صورتهم في أعين الرأي العام البريطاني. وكان المفروض، على العكس من ذلك، أن يتهبلوا تلك الفرصة ويقوموا بتصحيح صورة الإسلام المشوهة في الغرب. ومن

جهتى فأننا أدين التظاهرات العنيفة و حرق الكتب، وأرى مثله أنه كانت هناك فرصة أمام المسلمين لتوضيح جوانب العظمة في الإسلام، ولكنى لست مع تجاهل الكتاب ولا مع القول بعدم إيذاء الكتاب لله ورسوله. نعم، إن الله فوق الأذى، لكن المعنى هنا على المجاز، وقد قال الله تعالى في سورة "الأحزاب": "إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وأعد لهم عذاباً عظيماً"، كما قال في سورة "التوبة" عن المنافقين: "ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون: هو أذن". ثم كيف يطلب الندوى من المسلمين إهمال كتاب رشدى وأمثاله في الوقت الذى لا يهمل هو فيه الرد على من يقولون بوجوب ارتداء الرجال غطاء الرأس في الصلاة أو حرمة تقصير المرأة المسلمة شعرها كما سوف نرى لاحقاً؟ أترى هاتين المسألتين وأشباههما أهم من الرد على سلمان رشدى؟ إن هذا لعجيب!

ومن ناحية أخرى فأننا مع التظاهرات السلمية التى يعبر بها المسلمون عن ضيقهم بما يسىء إلى دينهم. ذلك أن المسلم لا يمكن أن يصمت إزاء ما يوجّه من أذى إلى دينه، وإلا تبلدت مشاعرنا مع الوقت، وتجبرأ عدونا على النيل من مقدساتنا مطمئناً إلى أننا سوف نصمت ولا نبالي، علاوة على أن الصمت يترك أثراً ضاراً شديداً للضرر بنفوس الضعفاء منا، فيختل إيمانهم مع الأيام. وعلى الكاتبين من أمثالنا أن يكتبوا مفندين ذلك السخف ومجهضين العدوان الموجه لديننا ونبينا وربنا وكتابه. وقد وضعتُ كتاباً درستُ فيه الرواية من ناحية الأسلوب والبناء والتاريخ والجغرافيا وما فيها من بداءات وألفاظ غارية ومنقّرة تثير الاشمئزاز. ولعلّ أول من صاغ المصطلح الموازى للكلمة الإنجليزية الدالة على ذلك، وهو مصطلح "الخُرْنية" في مقابل "Scatology". كما أرجو أن أكون أول من حلل لغة رشدى في روايته، وهو ما استغرق خمسين صفحة بالتهام والكمال من الكتاب. وقد ألفتُها رواية متهافة سخيفة مفعمة بالبذاءات والقاذورات والتفايات والتجديفات، وعملاً مفككاً من الناحية الفنية لم تستطع بهلوانيات صاحبه أن تنقذه من هذا التفكك وتلك التفاهة.

وليس في التظاهر في بريطانيا أم الديمقراطية من عيب أو حرج. فليتظاهر المسلمون إذن معبرين عن موقفهم دون عنف أو تحطيم أو فوضى أو إحراق كتب. وهم في هذا لا يأتون عملاً شاذاً ولا غريباً، فالتظاهر عند البريطان أمر اعتيادى كالأكل والشرب والتنفس يلجأون إليه كلما هم أن يعربوا عن موقفهم في قضية عامة. وتسلّهم في هذا كمثل الغربيين جميعاً. أم ترى التظاهر حلالاً زلالاً لهم، وحراماً علينا دون البشر جميعاً؟ ألم يقتل الرسول: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيذان؟ وبطبيعة الحال لا يصح أن يغير المسلم منكراً بيده إذا كان

المنكر أمرا عاما تنظمه الدساتير والقوانين، لكنه يستطيع بكل يقين وبكل سهولة أن يغيره بلسانه في مثل تلك القضية عن طريق الهتاف والانتظام في مسيرة احتجاجية، إذ القانون في صف المسلمين في تلك الحالة، وما عليهم سوى أن يتفقوا على ميعاد التظاهرة وحجمها ونظامها ويبلغوا بذلك السلطات البريطانية، وهي من جانبها تؤمن التظاهرة وتحمّيها وترافقها طوال خط سيرها حتى تنتهي فعاليتها فينصرف كل إلى حال سبيله، وقد أدى واجبه نحو دينه واحترم البلد الذي يعيش فيه والقانون الذي يستظل بمظلته، وكان الله يحب المحسنين. أم ترى د. ندوى يريد أن يكتم أفواه المسلمين بالذات حتى لا يعبروا عن أفكارهم ومواقفهم؟ فلمَ يا ترى؟

نعم أعرف أن من المسلمين من يرى مثله إهمال الرواية وعدم الانشغال بها بأي حال بحجة أن الرد في مثل تلك الحالة من شأنه نشر السّباب الموجه إلى الدين والرسول على نطاق أوسع ولفت النظر إليه بحيث يتنبه إليه من لم يكن واعيا به. وعوضا عن أن نكون قد أطفأنا النار نزيدها اشتعالا والتهابا. لكن هذا إنما يصح لو كانت الرواية مجرد حديث جرى بين اثنين مثلا في غرفة مغلقة لم يطلع على ما جرى فيها أحد ثالث. أمّا، وهي عمل منشور على نطاق واسع طُبِعَتْ منه نسخ بمئات الآلاف، وحيطّ بدعاية رهيبة، فلا يصلح معها السكوت لأننا لو سكتنا عن الرد عليها لفسّر صمتنا بأنه عجز عن المواجهة، وثبّت التهم الماثرة فيها على الإسلام ونيه. ومن ثمرة هذا أن يشك كثير من المسلمين في أمر دينهم. أي أننا، بدلا من أن نجنبهم الفتنة طبقا لمنطق الداعين إلى الصمت والإهمال، قد عرّضناهم لها أيا تعريض. ثم إن منهج القرآن الكريم في هذا الموضوع هو منهج الصراحة والمواجهة وعدم الصمت. فما من كلمة وجهها الكفار أو اليهود أو النصارى أو المنافقون إلى النبي أو دينه إلا انبرى كتاب الله يرد عليها ويفندها ويسخر من أصحابها. وكان الرسول من جهته أيضا يفعل هذا. بل إنه عليه الصلاة والسلام كان يستعين بحسان وابن رواحة وكعب بن مالك في الدّبّ عنه وعن دينه. ولو كانت خطة السكوت هي الخطة السليمة لكان عليه الصلاة والسلام أول من يتهجها.

والواقع أن أي كتاب عدائي ضد الإسلام هو بمثابة قبلة لا بد من تفكيكها قبل أن تنفجر في الوجوه، وهذا يكون بالرد عليه وإظهار عواره من خلال الكتب والدراسات التي تُظهِر أخطاء ذلك الكتاب وتبين بالحجة والبرهان والمنطق العلمي الصارم أنه كتاب تافه متهاق حتى تطمئن النفوس إلى دينها فلا تنزع عقيدتها. وأخيرا هل ينتهج الغرب هذا السبيل في التعامل مع الدعاية المضادة لسياساته؟ إنهم في الغرب يستيقنون الأحداث ويخططون لمواجهة ذلك قبل أن يندبوا. ولهم في ذلك

خطط وبرامج شيطانية تدل على يقظة لخصومهم وعمل دءوب على إفشالهم قبل أن يفكروا بمجرد تكبير في مناوأتهم. فلم يقل لنا نحن بالذات إن التجاهل هو الوسيلة المثلى لمواجهة أمثال رشد ورواية .

وهنا أود أن أتريث قليلا أمام نقطة تتصل بهذا الموضوع، وهى عزو د. أكرم الندوى الفتوى التى أهدر بها الخمينى دم رشدى إلى دوافع سياسية، إذ كان الخمينى، كما يقول، قد باء بكراهية المسلمين حول العالم بعدما كانوا متحمسين له فى بداءة أمره، فأراد أن يسترد شعبيته المتقلصة من خلال فتوى تُظهره بمظهر المدافع عن الإسلام والرافض لأية إساءة توجّه إليه. وأنا معه فى أن الفتوى لا معنى لها، ولكن باعتبار مختلف. فالفكر لا يواجه إلا بالفكر. ثم إن رشدى رعية بريطانية، وليس لنا عليه من سلطان. فهل نحب أن نتصرف الدول الأخرى مع رعايا بلادنا بنفس الطريقة؟ كذلك من المعروف أن بريطانيا، بل والغرب كله، سوف يضربون نطاقا من الحماية حول سلمان رشدى يجعل الوصول إليه شبه مستحيل، وهو ما حدث، إذ لم تستطع يد أن تنال منه منالا. ثم انتهى الأمر تماما مع الأيام ولم يعد هناك إهدار لدمه.

وقد غاب عن د. ندوى، فى تفسيره لإصدار تلك الفتوى، أن رشدى قد صور الزعيم الإيرانى تصويرا بشعا، إذ رسمه على هيئة وحش خرافى بشع يبعث على النفور والاشمئزاز. ذلك أن رواية سلمان رشدى تتألف من أربع قصص لا تربط أية منها بالقصص الأخرى صلة فى أو مضمونية البتة. وتدور القصة الثانية من هذه القصص الأربع حول إمام يعيش فى لندن عيشة متقشفة بحيث لا يوجد فى المبنى الذى يشغل هو وأتباعه ثلاثة طوابق منه خمر ولا قمار ولا تزد ولا حتى صور، اللهم إلا صورة امرأة فى غرفة نوم الإمام العجوز. وهذا الإمام يمجد الماء، ويلعن صاحبة الصورة محتسية الخمر ودماء البشر: الإمبراطورة الإيرانية، ويلعن كذلك أغاخان، ويعلن أنه عندما يتصر الماء سوف تسيل الدماء. ويبرز رشدى أثناء ذلك كيف أن كل ما يقوله الإمام فى غرفته المغلقة الشديدة الحرارة إنما هى أوامر تتحكم فى مصائر الآخرين.

وهو يصف الإمام بالضخامة وعدم الحركة قائلا إنه "حَجَرَ حَى". ثم يمضى قائلا إن التاريخ هو علو الإمام ولعبته، وإنه يرى فى "التقدم والعلم وحقوق الإنسان" ثلاث أكاذيب كبيرة، وإن العلم فى نظره ليس سوى وهم لأن خلاصة العلم موجودة فى القرآن، وليس هناك ما يمكن أن يضاف إليه بعد انتهاء الوحي على ماهوند. وينطق المؤلفُ بلاألا المؤذَنَ مخاطبا الجموع بصوت هادر: الموت للإمبراطورة والنيذا! أحرقوا كل الكتب، واستمسكوا فقط بالكتاب الذى أنزله جبريل على ماهوند،

والذى يفسره لكم إمامكم. ويسخر المؤلف من الإمام بقوله إنه يحرك العالم، لكنه هو لا يتحرك، وإن لحيته تبلغ الأرض، وتطيرها الريح في كل اتجاه. ويصوره وقد تلعغ بتلك اللحية وأرسلها على كتفه، ثم طار في الجو ودار قليلا قبل أن يستقر على كتفى جبريل فاريشتا منشبا "برائته" في رقبته. وفي أثناء ذلك تظهر ساقا الإمام المغزليتان، وقد غطاها شعر وحشى كثيف. وفي مشهد آخر نراه يتحول إلى وحش يرقد في الفناء الأمامى للقصر وقد فتح فمه مثائبا، وأخذ يتلعغ الجموع التى تعبر بوابة القصر. وهنا يبدأ عصر "اللاوقت".

وأول ما يلفت النظر فيما يخص الإمام هو ذلك التصوير الهزلى المؤلم المهين الذى لا بد أنه كان أحد الأسباب الرئيسية وراء فتواه بإهدار دم سلمان رشدى، إذ ليس من السهل أن يقال عن زعيم روحى وسياسى له فى قلوب الملايين من أتباعه ما نعرفه من الحب والإجلال: إنه حجر حى، وإن له ساقين كالمغزلين يغطيها شعر وحشى كثيف، ويراثن ينشبهها فى رقة جبريل فاريشتا، وإنه لطول لحيته قد تلعغ بها وأرسلها على كتفيه، وإن حاجبيه يرفرفان فى الهواء كأنهما رايتان. إن هذه ليست صورة إنسان بل وحش أسطورى آت من خارج الزمن. فهذه الحواجب المرفرفة وتلك السيقان المغطاة بالشعر الكثيف تدل على أن صاحبها لا يشعر بمرور الزمن. وقد ذكر المؤلف صراحة أن الإمام قد استحال فى نهاية القصة وحشا فاغرا فاه وشرع يتلعغ الجموع. كما ذكر بصراحة أيضا أنه، بانتصار الإمام، قد ابتدأ عصر "اللاوقت". إن سلمان رشدى يريد أن يقول إن هذا الرجل لا يصلح أن يكون زعيما روحيا، بل هو وحش مفترس، وإنه لا يستطيع أن يقيم دولة عصرية، فدعوته تتجاهل التاريخ والتطور وظروف البيئة ومتغيرات الزمان والمكان، ولا تعترف بشيء اسمه العلم أو التقدم أو حقوق الإنسان. والآن هل كان أكرم ندوى قد قرأ الرواية؟ لا أدرى. ثم هل كان هذا رأيه الحقيقى أم هل أراد أن يريح نفسه من النقاش الذى يمكن أن يضيع عليه فرصة الانخراط فى التدريس بمركز أكسفورد المذكور؟

وقد احتارت الكاتبة فى تصنيف د. ندوى كما احتار، طبقا لكلامها، كل من حاول من معارفها هذا التصنيف: سواء كان المصنّف مسلما أو غير مسلم، شرقيا أو غربيا. فهو فى نظر البعض سلفى، وفى نظر البعض الآخر منفتح. وهو فى نظر هؤلاء متشدد، وفى نظر أولئك متساهل. وهو فى نظر طائفة محب لدينه، وفى نظر طائفة أخرى متابع للغرب على ما يريد بالمسلمين من تفسخ وابتعاد عن دينهم. أما هو فيقول إنه مستقل لا ينتمى إلى جماعة أو اتجاه بعينه، ويؤثر الانتساب فقط للإسلام فى وقت كان على كل مسلم فى بريطانيا أن يجدد موقفه فيعتزى إلى هذه الجماعة أو تلك، وإلا ضاع وطارده التهم من الجميع.

والحقيقة أن هذا يصيب كل من سار على درب الاستقلال. وقد عانيت وأعاني من هذا أنا أيضا، فلا أذكر أنني فكرت يوما في الانضمام إلى جماعة أو حزب، إذ لا أجد نفسي إلا في فرديتي على ما في الفردية من عيوب أراها تتضاءل بجوار الانتساب إلى هذه الجماعة أو إلى ذلك الحزب. فهناك من يتهمني بالانغلاق بعد كل ما كتبه عن حرية الفكر والضمير. ومع هذا فإنني في ذات الوقت أحب أن يكون الناس جميعا مسلمين رغم معرفتي بأن هذا مستحيل بناء على أن الله قد خلق البشر، كما قال في كتابه المجيد، مختلفين. وهناك من يتهمني بعكس ذلك. كما أنني لا أبتاطأ شعرة واحدة في الرد على من يهاجم الإسلام أو يسوء فهمه وينشر سوء فهمه على الناس بل أنبرى له وأعزى نقاط ضعفه بالعقل والمنطق والوثائق والشواهد.

وهناك من يرى أنني معتزلي مع أنني انتقدت المعتزلة كثيرا. وهناك من قد يظن أنني آخذ صف بنى أمية ضد الحسين، وجوابي هو أن ظُفر قدم الحسين برقة يزيد. ولعن الله من قتل الحسين وحرص عليه ورضى به. إن قلب المسلم ليشعل نارا كلما فكر فيما حدث آنذاك، إلا أن الحسين لم يسلك سبيل النجاح السياسي منذ البداية، فكانت النتيجة هي فاجعة كربلاء. فمن الواضح أنه لم يكن خبيرا في ميدان السياسة ودهاليزها وما تحتاج إليه من دهاء، فدارت الدائرة عليه وخلق مقتله بين المسلمين ميراثا من الضغائن والعداوات. وهناك من يظنني كذا، وهناك من يظنني كذا، ولكني أقول دائما: إنني مسلم، وكفى. وإذا صح ما نسمعه من أن الإيرانيين نهضوا في العقود الأخيرة نهضة صناعية قوية فهذا يحسب لهم رغم إنكارنا على الشيعة في ذات الوقت تنطعمهم في موقفهم من الصديق والفاروق وابتئيها وحرصهم على إخراج زوجات النبي كلهن تقريبا من دائرة أهل البيت مع أنهم يدخلن فيها بكل جدارة، وبنص القرآن؟ ألم تقل الملائكة لسارة زوجة يعقوب: "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت"، فجعلوها من أهل البيت كما نرى؟ ألم يخاطب الله سبحانه زوجات النبي في الآيتين ٣٢-٣٣ من سورة الأحزاب "بوصفهن من أهل البيت فقال: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلََّا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا" * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا"؟ اللهم إلا إذا مزقنا رباط الآيات وفككناها لتذهب منا شئز مذكر كما يفعل مفسرو الشيعة تخلصا من دخول نساء النبي عليه السلام في أهل البيت.

ويا ليتهم قد وقفوا هنا، بل مَضَوْا بكل أسف يخرجون معظم الصحابة من الدين ولم يَنْقُوا به إلا على من رافأ عليا كرم الله وجهه. ولو جرينا على هذا النهج لأمكن إخراج جميع المسلمين من دينهم، إذ مَنْ مِنَ الناس لم يخرج في هذا الأمر أو ذاك على ما تقتضيه أوامر الإسلام أو نواهيه؟ كذلك فالخوارج محقون في القول بأن الحكم لا يورث، بل هو شورى بين المسلمين. صحيح أن الأمر في التاريخ قد جرى على خلاف ذلك. بيد أننا إنما نتحدث فيما ينبغي أن يكون لا فيما وقع وكان. لكنني مع هذا لست مع الخوارج في تنطعهم وخروجهم على علي بن أبي طالب والعيب عليه والظن السيء فيه وفي دينه وتصورهم أنهم يفهمون الإسلام خيرا منه، وأنهم أعظم تدينا منه. خيبة الله على التنطع والغباء وضيق الأفق.

ولو حاولت الآن أن أعرف كيف تم اعتاقي من شريعة المذاهب لكان أول ما ينبغي أن أذكره وأذكره هو وعيى لأول مرة في الثانية عشرة أن قرينتا تدين فقها بالمذهب الشافعي. كان ذلك حين تقدمت إلى المعهد الأحمدي بطنطا في العام الدراسي ٥٩-١٩٦٠م، إذ رأيتهم يذكرون في أوراقى الرسمية أنني شافعي المذهب. وهذا مسجل أيضا في الشهادة الإعدادية التي حصلت عليها من المعهد المذكور والتي كانت آخر عهدي بالأزهر. أما القرية المجاورة لقرينتا فما لكبة. وكان لكل مذهب كتابه الفقهي الذي ينفسه الطلاب المستنبون إليه. وقد تبنت أن صيغة التشهد عند أهل القرية المجاورة تختلف في بعض الكلمات عن صيغتنا. كذلك أذكر، وأنا في الإعدادية، أنني صليت المغرب ذات مرة خلف طالب من دار العلوم، فكنت أقرأ الفاتحة بعد أن ينتهي هو من قراءتها في الوقت الذي لم يترك هو مسافة زمنية بين الفاتحة والسورة القصيرة التي كان يقرأها في الركعتين الأولىين بعدها. وقد سألتني بعد الصلاة باستنكار عن الحكمة من قراءة الفاتحة وأنا مأموم، فقلت له: لأن قراءتها أساسية في الصلاة بحيث تبطل إذا لم أفعل. فأفهمني أن قراءة الإمام في الركعات الجهرية تجزئ عن المأموم، فلم أقنع. لكنني عرفت عقيها أنه حنفي المذهب. فكان هذا درسا لي في اتساع الأفق ما دامت المذاهب مختلفة في بعض التفاصيل، وكلها مقبولة عند الله. وحين دخلت الجامعة قرأت عند الشيخ محمد عبده وغيره أن التيمم يجوز لمطلق السفر سواء وجد الماء أو عدم رغم ما كنت أعرفه من الفقه الشافعي أنه لا بد من انعدام الماء في السفر حتى يصح التيمم. لكنني عندما تفكرت في الأمر ألفتيت محمد عبده أصح فهما للمسألة.

وفي هستجز بالملكة المتحدة كنت أسكن مع أسرة بريطانية، ومعنا شاب إيراني أرسله أبوه ليتعلم الهندسة هناك. ورغم أنه لم يكن يصلى أو يصوم فقد عرفت منه أن شيخ المسجد عندهم في إيران قد علمهم أن التيمم يكون بالمسح على الوجه واليدين فقط دون أن نصل بالمسح إلى المرفقين. وفي البداية بدلى الأمر غريبا، إذ كان كتاب الفقه الشافعى الذى درسته في الأزهر يقيس مسح اليدين في التيمم على غسل اليدين إلى المرفقين في الوضوء. لكن سرعان ما ألفت الآية لا تقول شيئا من ذلك. إنها هو فهم بعض الفقهاء. ولما ذهبنا للحج للمرة الثالثة، أيام كنت أعمل بترية الطائف في النصف الأول من تسعينات القرن المنصرم أردنا أن نعرف تفصيل شعائره في المذاهب المختلفة، فتيين لنا أن هناك من لا يوجب المييت بمنى ومن لا يوجب تحديد رمى الجمار بالزوال، فأخذنا بهذا وذلك تيسيرا على أنفسنا ومن معنا من النسوة والأطفال. بل كنت أقوم نيابة عن كل أفراد أسرتي برمى الجمار وقَسَّ غِلِّي كله في اللعين ابن اللعين... وبهذا انهدم الاستمساك الأعمى بمذهب بعينه في الفقه. وعلى نفس الشاكلة سار الأمر معى في المذاهب الكلامية، وبخاصة عندما كنت بصدد تأليف كتابي عن مذاهب التفسير ومناهجه، إذ انبسط أمامي الآراء المختلفة للمذاهب الإسلامية والفرق الكلامية في تفسير كتاب الله، فصرت لا أبالي بأى الآراء أخذت ما دمت مقتنعا به وبقبله تفسير الآية دون تمحك أو تمحل. بل كثيرا ما يكون لي تفسيرى الخاص بالنص مؤسسا على الدليل الصلب والشواهد الكافية والروح العامة للدين.

وهكذا يرى القارئ أننى مسلم، وكفى. لكن هل معنى هذا أننى أمثل الإسلام الصحيح مائة في المائة؟ أكون مغرورا إن قلت: "نعم" رغم تصورى أننى أفهم الإسلام فهما سليما. لكنى مع هذا أعرف أنه ما من إنسان يمكنه أن يمثل فكرة ما تمثيلا دقيقا تام الدقة، إذ هناك دائما فجوة بين النظر والعمل، وفجوة أخرى بين الحقيقة وتصورنا لها. إننا جميعا ندندن حولها، أما هى فمثبتة امرأة فاتنة الجمال مخفية خلف نقاب، فضلا عن أننا لا نستطيع الكلام إليها. ومع اجتهدنا في معرفة ملامحها لا نستطيع الادعاء بأننا متأكدون من تلك الملامح. وإنى لعل يقين من أنه سوف يأتى اليوم الذى يتقدنى فيه المتقدمون قليلا أو كثيرا حسب اتجاه كل ناقد. ولماذا أقول: "سوف"، وأنا من الآن أسمع أصواتا انتقادية لا ترى لي فضلا كبيرا ولا صغيرا في دراساتي وبحوثي؟ وهكذا يرى القارئ أن هناك تقاطعات متعددة بيني وبين د. ندوى. إلا أننى أختلف عنه في أنه، كما يصف نفسه، لا يستطيع الغضب إلا إذا بذل جهدا في أن يغضب، وذلك من كثرة ما اجتهد وهو شاب في تعويد نفسه الهدوء والسكينة حتى نجح في ذلك، وهو ما أفقر أنا إليه، إذ إنى عصبي المزاج. وليس معنى هذا أننى نارى الطبع، بل معناه أننى كما أرضى

أغضب، وكما أنفعل تمر على أوقات أكون فيها هادئا ساكنا. لكنه في كل الأحوال يتميز على هذه الفضيلة. كما يتميز، طبقا للكلامه، بمراعاته المستمرة لما كان يفعله رسول الله في حركاته وسكناته مما ليس فرضا على المسلم الالتزام به، وإن كان الأفضل التزامه. فأنا مثلا حين أدخل المرحاض قد أستعيز بالله من الخبث والخبائث، وقد أنسى فلا أهتم بذلك...

وقد ذكرت الكاتبة، بناء على ما أخبرها به أكرم ندوى، أنه قد أثار غبارا كثيفا جراء إفتائه في بريطانيا بأن ارتداء الرجال للطاقيّة خلال الصلاة غير وجوبى، بل مجرد عادة محلية عند الهنود المسلمين وأمثالهم، ولا علاقة له بقبول الصلاة أو عدم قبولها البتة. وهو كلام صحيح تماما دون أى نقاش. والرأس ليست داخله في عورة الرجل بأى حال. وأقصى ما تبلغه العورة الذكورية أثناء الصلاة في المذاهب الفقهية الإسلامية هو المساحة التى تقع بين السرة والركبة. فأين هذا من الرأس حتى يظن الظالمون أن تغطيتها جزء من شعائر العبادة؟ بل إن هناك من يقصر عورة الرجال في الصلاة على السوأتين ليس إلا. وأيا ما يكن الحال لقد كان ينبغى أن يطالب المعارضون الرجل بالدليل الذى يستند إليه وألا يحولوا الحجة قبة. والملاحظ أن جماهير المسلمين، بتأثير من الوعاظ والدعاة الشيعيين التافهين المتنطعين الذين يبحثون عن جماهيرية زائفة أو الذين يعملون بوحى من ترتيب خارجى يصب في مصلحة أعداء الإسلام عن طريق شغلهم بالتفاهات عن لباب الدين وجوهره الأصيل، قد حولوا الدين إلى طقوس وأشكال وممارسات فولكلورية مضحكة، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا. وقد كنت، في صباى وشبابى أيام صعودى المنبر لأخطب الناس يوم الجمعة متصورا، مُحققا منى وخُرَقا، أن لدى ما يمكننى أن أفيد به الناس في دينهم وديناهم، أضع على رأسى طاقيّة أو أعصبتها بمنديل، وإلا تعرضت للاحتجاج والنكير وظنّ من يصلّون خلفى أن صلاتهم باطلة. وكنت، حين أصنع ذلك، إنها أجارى الجوّ لا غير. والآن، بعدما عقلت وأفقت من أوهامى السابقة، لم أعد أصعد منبرا ولا أفكر في وعظ أو دعوة. وماذا أستطيع أن أفعل، والعوام المسلمون يظنون أنهم أعرف منك بالدين وأقوم سيلا وأهدى منهجا، ويفهمونها وهى طائفة؟ وبالمناسبة فالدكتور ندوى يرتدى في الصور التى رأيتها له على المشباك طاقيّة فوق رأسه وملابس بلاده رغم فتواه بصحة الصلاة من دون غطاء رأس. وقد كنت وأنا طفل وصبى بالقرية ألبس أيضا طاقيّة، لكن من طراز مختلف، ثم لما كبرت قليلا خلعتها ولم أعد إليها بعد هذا.

كذلك أثار د. ندوى عليه مسلمى بلاده فى بريطانيا حين بين لهم أن قص المرأة المسلمة شعره متى أرادت لا غبار عليه ولا حرج فيه، إذ كيف يقول ذلك والمرأة الغريبة تقص شعرها؟ أفيريد من المسلمين أن يتشبهن بالغربيات الكافرات؟ والحق أننى، حين أقرأ أمثال تلك الحكايات، تشتعل النار فى عقل ونفسى وأتساءل: أية لؤثة اعترت العقل الإسلامى حتى وصل إلى هذه الدرجة من التساخف؟ وقد سبق أن أثار الشيخ محمد عبده هوجة هائلة عندما أفتى منذ أكثر من قرن بجواز لبس المسلم القبعة فى الصلاة. ترى ما وجه الخطأ فى أن تقص المرأة المسلمة شعرها مثل المرأة الغريبة؟ أهى تشبه بها فى الانحلال الجنسى مثلاً أو فى الكفر والإلحاد؟ أبداً. ثم إن المرأة الغريبة تأكل وتشرب وتنام وتمشى وتطبخ وتتكلم مع زوجها وتمارس الجنس معه وتربى أولادها وتتعلم وتقرأ وتكتب، فهل يحرم على المسلمة أن تفعل ذلك تأيماً بنفسها عن تقليدها؟ كذلك فالمرأة الغريبة تضع الطعام حين تأكل فى فمها، وتتففس حين تنففس من منخريها، وتسمع بأذنيها وتبصر بعينيها، فهل يتوجب على نظيرتها المسلمة أن تقلب أمرها رأساً على عقب توخياً لمخالفتها، فتسمع بفمها وتأكل بعينيها وترى بأذنيها ولا تمشى على قدميها بل على رأسها وتتففس من منخر واحد فقط مع سد الفتحة الأخرى بالأسمنت والرمل والزلط اتباعاً للمثل القائل: المنخر الذى يبيء لك منه الريح، سُدّه لتستريح؟ ألا إن هذا هو العجب العجيب.

ومع هذا فقد اضطرد. ندوى إلى الاستشهاد بما صنعه نساء النبى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم من قصهن لشعورهن. وهذا هو الحديث كما وجدته فى "صحيح مسلم": "كَانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذْنَ مِنْ رُءُوسِهِنَّ حَتَّى تَكُونَ كَالْوُفْرِ". وكان يكفى أن يقول للمتنتهين إن الدين لم يتعرض لذلك الأمر بخير أو شر، فهو إذن باقٍ على جليته جرياً وراء القاعدة الفقهية التى تقول: ما سكت عنه الشرع فهو عفو. أى أنت فيه بالخيار، ولا إثم عليك: فَعَلْتَهُ أَوْ لَمْ تَفْعَلْ. لكن إياك، عزيزى القارئ، والظن بأن المسألة قد حُلَّتْ هكذا، فهذا هو ذا شيخ مظمطم يزيد المسألة تعقيداً وإرباكاً وتفصيلاً وتفصيلاً كأنه إزاء فتح عكا، إذ يقول ما نصه: "قص المرأة شعر رأسها إن كان على وجهه يشبه أن يكون كراس الرجال فإن هذا حرام ولا يجوز، بل هو من كبائر الذنوب لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لعن المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء. وأما إن كان على وجهه يخالف ما يكون عليه من شعر رؤوس الرجال فإن المشهور من مذهب الخنابلة رحمهم الله أن ذلك مكروه. وذهب بعض أهل العلم إلى جواز ذلك محتجاً بما يروى عن أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أنهن كن يقصصن رؤوسهن بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يكون كالوفرة. ولكن أُجِيبَ عن

ذلك بأنهم يفعلون هذا من أجل أن يعلم عزوفهن عن الأزواج لأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته لا يحل لأحد أن يتزوجهن كما قال الله تعالى: "ولا يحل لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً. إن ذلكم كان عند الله عظيماً". وقول السائلة إنها لا تريد التشبه ينبغي أن يعلم أنه إذا حصلت المشابهة حيث لا تحل فإنه لا يشترط فيها القصد لأن المشابهة صورة شيء على شيء فلا يشترط فيها القصد. فإذا وقعت المشابهة على وجه محرّم فإنها ممنوعة سواء قصد ذلك الفاعل أم لم يقصده. وكثير من الناس يظنون أن المشابهة المحرمة لا تكون محرمة إلا بالنية والقصد. وهذا خطأ، بل متى حصلت صورة المشابهة المحرمة كانت محرمة سواء قصد الفاعل هذه المشابهة أم لم يقصدها".

لقد سد سيدنا الشيخ، كما نرى، كل المنافذ وخنقنا خنقاً دون أية بارقة من الأمل في التنفيس عنه. ثم انظر تنطعه حين يقول إن أمهات المؤمنين إنما قصصن شعورهن كي يعلم الناس أنهن لا يفكرن في الزواج. الله أكبر! وكأنهن إذا لم يفعلن ذلك سوف يتوافد الخطاب على الأبواب طالين أيديهن. ترى ماذا يمكن أن يقال لهذا التنطع؟ أيمن أن يدور في عقل صحابي أن يفكر مجرد تفكير في التقدم لخطبة أية من أمهات المسلمين؟ إن هذا خروج ساطع على نهى القرآن المجيد للمسلمين أن يتزوجوا نساء النبي رضى الله عنهن بعده. بل كيف ظنت أمهات المؤمنين أن الزواج بهن بعد وفاة الرسول جائز فأحبين من ثم أن يقطعن الطريق على كل من يخطر له ذلك؟ وعلى كل حال كيف يشغل الشيخ وأمثاله أنفسهم بهذا الأمر إلى هذا الحد المعنت، وهو لا يقدم ولا يؤخر، إذ المرأة المسلمة التي تقص شعرها إما أن تكون من اللاتي يغطين رؤوسهن طبقاً لأمر الدين في مسألة التحجب أو لا: فإن كانت الأولى فالعبرة في أنها تلتزم أمر ربها ورسوله فتغطي شعرها حتى لا يراه غير المحارم، ومن ثم لا تكون متشبهة بالمرأة الغريبة، إذ المرأة الغريبة لا تعرف شيئاً اسمه التحجب. ولا يهم بعد ذلك ما تفعله المسلمة بينها وبين زوجها وسائر محارمها، إذ هي حرة آنذاك ما دامت لا تنكشف على غير المحارم. وإما أنها لا تلتزم بأمر دينها فيما يخص تلك المسألة، فهي تكشف رأسها وشعرها أمام غير محارمها، وفي هذه الحالة تكون آثمة لتعرية هذا الجزء من رأسها لا لقصها شعرها، إذ العبرة كما قلنا بالتزام الواجب لا بممارسة المباح الذي يحق لها أن تفعله أو لا تفعله. ومن هنا نرى أن المسألة لا تعدو أن تكون زويدة في فنجان. أرايتم الآن لماذا تخلف المسلمون وما زالوا يزدادون تخلفاً؟ ذلك أنهم شغلوا أنفسهم وعقولهم وحياتهم كلها بهذه التوافه، وتركوا أهل الغرب يركبونهم ويضربونهم بنعالهم لما يرونه من ضعفهم وهوانهم وتخلفهم وعجزهم عن مجاراتهم واعتمادهم في كل شيء تقريباً عليهم بالإضافة إلى الفروق الهائلة الشاسعة التي

تفصل بين الغربيين في الساء السابعة ومعظم المسلمين في الحضيض فيما يخص أمور الدنيا من قوة وصناعة وعلم ونظام ونظافة وتخطيط وإتقان وحرص على أن يكون كل شيء يخصهم جميلا معجبا وممتعا وطموح إلى المعالي والتفوق والسيادة.

ومن مظاهر هذا التساخف في السنوات الأخيرة بمصر، حسبا لاحظت، انتشار عبارة "إن شاء الله" لدى الحديث عن الماضي أو الحاضر أو الوضع الدائم الذي لا يتغير، كقولهم مثلا: أتيت الأسبوع الماضي من القرية إن شاء الله، أو أنا أقطن حدائق القبة إن شاء الله، أو أنا هذا العام في السنة الثالثة إن شاء الله، أو أنا فلان الفلاني إن شاء الله، أو اسمي كذا إن شاء الله. ثم زادوا في الطنبور نعمة فقالوا: فلان المرحوم إن شاء الله، أو المغفور له بإذن الله. وكأنك هنا تسوق خبزا ولا تدعو الله أن يغفر لفلان أو يرحم فلانا. وغاب عن المنتنعين قول الرسول: "إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكبر له"، "لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت. ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له". فإذا كان هذا هو قول الرسول فهل بعد قول الرسول قول؟ خيبة الله على التنطع والمنتنعين! والمضحك المبكى في الأمر أنك حين تقول لأحد هؤلاء المنتنعين: لماذا تقول في هذا السياق: "إن شاء الله"؟ يجيبك وهو يظهر التقوى والورع والوقار مع أن كل ما فيه ينضح بالغباء والجهل والبلاهة: إنى أقدم المشيئة اتباعا لأمره تعالى: "ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله"، فأقوم أنا بهجوم مضاد من جانبي قائلا: لكن ذلك إنما يتعلق بما سوف يحدث غدا. فيقول في تنطع لا يحتمل: "للمزيد من التحرز". ألا تعسا للأغبياء المغفلين!

وكنا، ونحن في بريطانيا في سبعينات القرن الماضي، نتلقى بين الحين والحين مطبوعات صغيرة ترشد المسلم إلى كيفية تحرى الطعام الحلال. وهو أمر طيب ومشكور، لكن بعض المسلمين كانوا يغالون مغالاة سمجة كأن يحرموا شراء اللحم من الجزارين البريطانيين، فيقال لهم إن طعام أهل الكتاب حلال لنا، لتأتى الإجابة على نحو لا يتوقعها أى عبقرى لأنها لا يمكن أن نخطر إلا لذهن يريد التضيق والتأكيد على عباد الله متلذذا بذلك تلذذا مرضيا، إذ تقول الإجابة: أليست السكين التى يقطع لك بها الجزار الإنجليزي لحم البقر أو الجاموس أو الغنم الذى تظنه حلالا بلالا هى نفس السكين التى يقطع بها لربائته غير المسلمين لحم الخنزير. وأضحك من أعماق قلبى قائلا لنفسى: فعلا، فأتنا هذه، بل فأتنا سيدنا النبى، الذى لم يذكرها فى أحاديثه. لكن بالله ألم يكن سيدنا محمد عليه السلام يعلم ذلك، ورغم هذا أحل طعامهم لنا؟ ثم هل سيأكل المسلم اللحم الذى اشتراه دون أن يفصله؟

ويدعو د. ندوى طلابه، الذين يعقد لهم دروسا خاصة يعلمهم فيها أمور دينهم والذين يفدون عليه رجالا ونساء وشبابا وفتيات من كل أنحاء بريطانيا، إلى الاعتماد على أنفسهم في التفكير والتحليل والتفسير والرجوع مباشرة إلى القرآن والحديث ذاتهما دون أن يتركوا أقاويل الفقهاء والمفسرين تتدخل بينهم وبين هذين المصدرين فتعرقلهم عن تشغيل عقولهم. وأحاول أنا في محاضراتي محاولات مضيئة تحريك عقول طلابي وطالباتي، الذين تعودوا على الدروس الخصوصية حيث يحفظهم المدرس الخاص الفئات الضئيل الذي لا يعرف هو نفسه غيره، فيحفظونه ويرددونه كما هو دون تفكير بل دون فهم في كثير من الأحيان وينجحون في الامتحان محرزين درجات عليا لم تكن نحن نحصل عليها رغم أننا كنا أفضل تعليما وأعكف على العلم وأقرأ للكتب حتى إن أوائل الجمهورية في القسم الأدبي في امتحان التوجيهية على أيامي مثلا كانوا لا يتجاوزون منتصف الثمانين بالمائة على حين يقتربون الآن من النهاية الكبرى في الدرجة، وحتى إنني أنا الذي أحرزت المركز الأول في مادة اللغة العربية في التوجيهية في منتصف ستينات القرن الماضي لم أحصل على أكثر من ٤٦ درجة من خمسين بينما نظيري الحال يحصل بكل سهولة على الدرجة النهائية.

بيد أن طلبتي عموما يكرهون هذا الاتجاه ولا يقبلون على المحاضرات كما أتوقع رغم تصفيقي لمن أشعر أن عنده شيئا مهما ضؤل، ومكافأتي بالحلوى والفيلوس والكتب من يشاؤك في المحاضرة بالسؤال والجواب على ما أطرحه من أسئلة والثناء الجلم عليه، وتكريري القول بأنني أستفيد من كل طالب وأتعلم منه ومن أسئلته وأن كثيرا من كسبي قد تم تأليفها انطلاقا مما يثار في المحاضرات وأنتى لست سوى طالب علم مثلهم رغم ما قرأته من آلاف الكتب وألفته من عشراتها ورغم سنوات عمرى التى تشارف السبعين. بل إن بعضهم يقول لى بصراحة تامه كلما حدثهم عن وجوب القراءة خارج الملخصات والرجوع بأنفسهم إلى الكتاب الذى ألفتهم لهم والذهاب إلى المكتبة للاستزادة من العلم: إنهم يكرهون القراءة، ويصيبهم الصداق كلما فتحوا كتابا. وعشا أفهمهم أنه لا تحضر ولا تقدم ولا قوة ولا سعادة حقيقية بدون القراءة. وعشا أقص عليهم آيات القرآن وأحاديث الرسول حول أهمية القراءة وتحصيل العلم فى الإسلام من مثل وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم تواضعا له وإكراما، واستغفار الأسماك فى البحار من أجله، وإعلاء شأنه على العابد، ومساواته بالمجاهد فى سبيل الله. كما أنتى أجتهد بكل طاقتى فى تشجيعهم على التفكير المستقل، لكن دون أن يهملوا ما قاله العلماء بل لا بد من عودتهم إليه وقتله بحثا وتقليبا ثم التفكير بعقولهم هم بعد أن تكون قاماتهم قد طالت جراء وقوفهم فوق جهود

أولئك العلماء العباقر، الذين دائما ما أقول لطلابي إننى على استعداد لأن أجلس فى تواضع تام عند أقدامهم وتقبلها مع احتفاظى بفكرى مستقلا تمام الاستقلال رغم هذا.

وهذه نقطة الخلاف فى هذا الموضوع بينى وبين د. الندوى. فهو يريد من طلابه، كما فهمت من كلام كارلا باور الصحفية الأمريكية مؤلفة الكتاب الذى بأيدينا، أن يقصدوا إلى القرآن رأسا دون التعرّيج على ما قاله العلماء، مهملين تلك الغنيمة الباردة التى أتتهم جاهزة لمعونتهم، فكأنه يريدهم أن يبدأوا من نقطة الصفر مع أن العلم ككل شىء فى الدنيا تراكمات وطبقات: كل طبقة منه تضيف شيئا. ومن شأن الاطلاع على تلك التراكمات، التى صنعتها العقول الكبيرة، أن يزيد علمك بالنص القرآنى غنى، وشعورك بقدرتك على الفهم اتساعا وعمقا، وحريتك على الانتقاء والاختيار قوة واستحصادا. ثم أنت بعد ذلك بالخيار: تستطيع أن تختار أحد الآراء أو أن تؤلف بين هذا أو ذاك أو ذلك منها أو أن تختط طريقا جديدا. وسوف يساعدك على هذا تحقّقك بنفسك من خلال هذه الخطوة أن الآراء كثيرا ما تختلف وتتفاوت فى تفسير النص القرآنى بما يعزز عندك ميلك إلى الاستقلال ما دام ذلك النص من الاتساع والعمق بهذه الدرجة. أما البدء فى كل من مرة من جديد دون الاطلاع على ما قاله السابقون فيجردك من هذه الفرصة العظيمة ويوقفك وحيدا أمام النص دون معونة من أحد. فكيف تواتى الإنسان نفسه على إدارة ظهره لهذا كله؟ وإذا كنا نحن الأساتذة بسننا الكبيرة وتجربتنا الطويلة ولغتنا التى تعمّقنا وتخصّصنا فيها نحرص، عند دراسة القرآن، أشد الحرص على الاطلاع على أكبر قدر من التفسير فما أحرى الطلاب أن يفعلوا ذلك حتى لا يضلوا أو على الأقل: حتى لا تفوتهم تلك الفوائد العظيمة. وإذا كان محمد عبده، كما قال هو نفسه، قد رجع إلى عدد من كتب التفسير لمعرفة وجه الصواب فى حكم التيمم فى السفر ليشهى إلى رأى غير ما عليه جمهور المفسرين، إذ يقول بجواز التيمم فى السفر حتى لو توافر الماء، فما بالنا بطلابنا بصغر سنهم وقلة اطلاعهم، وبخاصة إذا كانوا طلابا غير عرب كما هو الحال مع طلاب د. ندوى؟ ولكن ثمرة كلامى مع طلابى، فيما أرى، ضئيلة مزعجة الضلالة. وعشا أفهمهم أن الحساب سيكون عسيرا يوم القيامة على كل من كان فى استطاعته أن يقرأ ويتفكّر ولم يفعل. فإذا صح ما تقوله الكاتبة عن تحمس طلاب أكرم ندوى لطريقته وانطلاقهم فى القراءة والاستقلال الفكرى تبعاً لتوجيهاته كان د. الندوى أفضل حظا منى رغم أنى أجد طريقتى أحرى بأن تقودنا إلى ما لا يستطيع الإنسان وحده أن يلتقطه من جواهر الأفكار، إذ إن طلابه يشنون عليه وعلى منهجه فى التدريس كثيرا أمامها. أما أنا فالذين يحبون محاضراتى من طلابى قلة فيما أعرف.

لكن لا ينبغي أن ننسى الفارق الكبير بين بريطانيا ومصر في الفترة الحالية التعيسة من تاريخ العرب والمسلمين. ولا ننس أيضا أن د. الندوى، من خلال ما فهمته من ترجمة الكاتبة له، أطول بالا منى وأصبر وأهدأ طبعاً وأقل عصبية. صحيح أن من طلابى من يقول لك عنى: إن طريقة تعليم هذا الدكتور لنا طريقة ممتازة، وإننا قد صرنا نقرأ بفضل استحثائه إيانا ونُخسه لنا، لكنهم فيما أتصور قليلون جدا. ولكن قرائى على المشباك (النّت) كثيرون، أو بالأحرى: كانوا كثيرين، وإن تقلصوا بعد ثورات الربيع العربى، التى فشلت كلها تقريبا حتى الآن. لقد فهمت من كلام كارلا باور أن طلابه وطلباته هؤلاء فى بريطانيا هم بَلَدِيّوه وبلدياته، أى من جنوب قارة آسيا، بيد أنه لا ينبغي أن يغيب لحظة واحدة عن الخاطر رغم هذا أنهم يعيشون فى بريطانيا، فضلا عن أنهم قد حصلوا على شهادات جامعية، فهم خريجون لا طلاب ليسانس وبكالوريوس صغار قليلو الخبرة والتجربة والثقافة. كما أنهم يقبلون على دروس الدكتور الدينية برغبة شخصية منهم، فهم محبون لما يسمعون، إذ الكلام هنا عن دروس الشيخ غير الرسمية لا التى يلقبها فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. أما عندنا فحين أدخل قاعة المحاضرة فى الجامعة فكانى قد أقبلت على عشة فراخ: هيصة وزمبليطة ومشيا فوق البنشات وأوراقا وأكياسا فارغة هنا وهناك، فضلا عن تناثر علب المشروبات ولقائف الساندوتشات فى كل مكان، مما يضيق صدرى رغم ما أزدده بينى وبين نفسى وأنا فى طريقى إلى القاعة من وجوب التحلّى معهم بالضرب وطول البال، فأجدنى غصبا أنفعل وأصر على تنظيف المكان حتى لو اكتفوا بإزاحة الزبالة من فوق البنشات إلى ما تحت أقدامهم بعيدا عن عيني فقط. ناهيك عن سرعة مللهم ونفورهم من أى شىء جاد وانصرافهم فى أول فرصة عن متابعة ما نقول عبثا بالمحمول أو مسارة مع زملائهم أو سرحانا منهم مع لاشىء.

إلا أننى لا أفهم موقف د. ندوى من الأمر التالى، فقد اتصلت به أسرة مسلمة فى بريطانيا فرعة أشد الفزع لاكتشافهم أن ابنتهم العزبة حامل، فكان رأيه أن الله هو الذى يحاسب الخطاة فى الآخرة (إلى هنا ولا خلاف بيننا فى أن الله هو الذى سوف يحاسب الفتاة ويحاسب البشر جميعا فى الآخرة)، وأن الأهل عليهم مساندة ابنتهم لا الحكم عليها (الجزء الأول من هذا الكلام أفهمه وأقبله، ولكن الجزء الأخير غير واضح، إذ ما معنى الحكم عليها هنا؟ إذا كان يقصد حكم الأسرة عليها بالقتل وتنفيذ هذا القتل كما نسمع أحيانا عن بعض المسلمين المقيمين بأوروبا غسلا للشرف الملطخ فأننا أيضا معه لأن هذه مهمة السلطات لا الأهل. أما إذا كان يقصد ألا تحكم الأسرة عليها بأنها أئمة فهذا ما لا أوافق عليه.

لقد أثمت البنت فعلا، وإن لم يعن هذا أن الله سوف يعاقبها في الآخرة بالضرورة، فقد يتوب عليها ويردنا نحن في النار لدواع يعلمها هو وحده). لكن أكرم ندوى صمت عن الحد الذي يطبق في هذه الحالة، مما قد يظهره بأنه لا يعتقد في الحدود.

لا أقصد أن الأسرة يجب عليها إخبار السلطات حتى تطبق على ابنتهم العقوبة التي حددها الدين، إذ البنت وأهلها يعيشون في بريطانيا حيث لا شريعة ولا يحزنون، بل حيث الحرية في أمور الجنس بعد البلوغ. بل إنى لأحبذ الأخذ في هذا الموضوع بما قاله الرسول لرجل رأى زانين فجاء متحمسا يخبره بما شاهد، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال له: هلا سترتها بثوبك؟ وجاءه ذات مرة أحد المسلمين يقر بأنه زنى، فأخذ يسأله: لعلك قَبَلْتَ؟ لعلك فَاخَذْتَ؟ هل أنت مجنون؟ وهو ما أفهم منه أنه عليه الصلاة والسلام يومئ من طَرْفٍ خفى أن ينصرف الشخص ويتوب إلى الله وينتهى الأمر عند هذا الحد بدلا من توقيع الحد، والحد شديد. وهناك واقعة أخرى، إذ جاءته صلى الله عليه وسلم امرأة تعترف بأنها اجترحت الزنا، فكان أن أجل الكلام في أمرها إلى أن تضع حملها، فلما وضعت عادت إليه فكان أن طلب منها أن تذهب فترضع وليدها إلى أن يحين وقت فطامه. والملاحظ أنه لم يقل لها مثلا: "لا تَنْسَى أن تأتى حتى أوقع بك الحد" أو يكلف أحدا من حوله بمتابعة موضوعها واستدعائها حين تفطم وليدها كي يحدها، بل اكتفى بصرفها من حضرته، فكانت تعودى من تلقاء نفسها في كل مرة بغية تلقى العقاب، وهنا لم يجد صلى الله عليه وسلم في نهاية الأمر بدا من الأمر بحدها قاتلا ما معناه أنها قد تابت توبة تكفى أهل الأرض جميعا. ولا أظنه كان يطلبها لو لم تأت من تلقاء نفسها. كما أن عُمر رضى الله عنه قد هدد أسرة كانت لها ابنة عملت ما عملته هذه الفتاة وحُدَّت في الإثم الذي اجترحته، ثم تقدم شاب لخطبتها فارتبكت الأسرة وفكرت في أن تخبر الخاطب بما حصل، لكنهم قبل تنفيذ ما اعترضوه أرادوا أن يستشيروا عمر، فكان أن أَمَرَهُم بالستر على الفتاة وتزويجها زواج المُخَصَّنة مهددا بإيهاهم بالعقاب لو خالفوا عن هذا.

فكان ينبغي أن يتطرق د. ندوى إلى هذه الجوانب! ثم شيء آخر شديد الأهمية والخطر. ألا وهو: ما مصير الجنين الذى في بطن الفتاة؟ ماذا سيفعلون به؟ أسيركونه حتى ينزل؟ أم هل سيجهضون الفتاة؟ وإذا كان إجهاض فما حكمه؟ وإذا تركوه حتى يرى نور الحياة فإلى من سينسبونه؟ هل سيرضى الشاب الذى زنا بالبنت أن يتزوجها ولو مؤقتا فيعزى إليه المولود وتتحل المشكلة الخاصة بالولد؟ أم هل سيكون نذلا جانا كما يحدث كثيرا في مثل تلك الحالة ويرفض إصلاح غلطته تاركا شريكته

المسكينة لمصيرها التعميس؟ لقد ترك د. أكرم كل ذلك وحصر نفسه في أن الأسرة لا ينبغي أن تحكم على البنت وأن عقاب الأئمة الصغيرة سيكون فقط في الآخرة. ربما لم يكن في ذهن الدكتور سوى المجتمع البريطاني حيث لا يجد الشعب ولا السلطات ولا القانون أى ضير في زنا فتاة أو إجهاضها لنفسها أو في نسبة الولد الذى سيأتى. لكن هل الدنيا كلها بريطانيا؟ وماذا عن الجالية الهندية أو الباكستانية المسلمة هناك؟ كيف ستواجهها البنت دون شعور بالعار والشنار بسبب الولد الذى ستضعه دون أن يغزى إلى أبيه؟ وماذا سيكون موقفهم من الولد المحمول به، وبخاصة حين يكبر ويريد أن يتزوج إحدى بناتهم مثلاً؟

ومما أجدنى لا أتفق معه فيه أيضاً بوجه عام قوله إن المسلمين الذين يشغلون رأى العام بما تكتبه الصحف عنهم يركزون على الرسول كزعيم سياسى، بينما هو فى المقام الأول معلم يحذر الناس من الجحيم ويعمل على إنقاذهم منه. فهو لم يكن يدعو الناس إلى حيازة السلطة أو إلى إنشاء حكومة إسلامية، بل كان يعلمهم شيئا واحدا هو كيفية نجاتهم من النار بالتزامهم الخطة التى وضعها الله لهم. كما أنه عليه السلام لم يكره أحدا على تغيير معتقده، بل كان الإيذان عنده يقوم على الفهم والاعتناع لا الإجبار. كما كان يعرف حدوده كزوج فلم يمل على أية من زوجاته كيف تتصرف. وبالمثل كان يعرف حدوده مع الآخرين فلم يكن يتدنس إلى قلوبهم ليطلع على ما فيها ولا كان يسمح للآخرين بأن يفعلوا ذلك. ولا شك أن الرسول قد أُمِرَ فى القرآن مرارا وتكرارا ألا يتدخل بين ضمير الشخص وربه، فهو ليس بحفيظ ولا مسيطر ولا وكيل على أحد، بل مجرد بشير ونذير، وليس نذيرا فقط كما هو واضح من كلام أكرم ندوى. وهذا فى الفترة المكية، أما فى المدينة فقد اختلف الوضع، إذ صارت هناك دولة تعمل على تطبيق الإسلام حتى لا يبقى مجرد دعوة فى الهواء لا يأخذها الناس مأخذ الجد، وأصبحت هناك علاقات سياسية مع غير المسلمين تنظمها المعاهدات والاتفاقيات، وأضحت هناك معارك وحروب داخلية وخارجية، وأمست هناك مؤسسات إدارية تنظم حياة المسلمين الشخصية والاجتماعية والأخلاقية طبقا لأوامر القرآن ونواحيه. فقول د. ندوى إن الرسول فى كل أطوار حياته لم يكن سوى معلم يعمل على إنقاذ الناس من النار فى الآخرة هو كلام غير منضبط ولا مقبول.

بل إن القرآن، حتى فى مكة حيث لم يكن هناك سوى الدعوة والدعوة وحدها، لم يصفه بأنه نذير فحسب، بل قال: "بشيرا ونذيرا". أما إن كانت هناك بعض الآيات التى يقول فيها صلى الله عليه وسلم عن نفسه: "إنها أنا نذير مبين" فهناك آيات أخرى تركز فقط على التبشير. وكيف يكون النبى مجرد نذير،

والقرآن والحديث مفعمان بالكلام عن الجنة أيضا وأوصافها وما فيها من وجوه النعيم المختلفة؟ كما أن الله غفور رحيم أكثر منه معاقبا جبارا، ورحمته سبقت غضبه، والحسنة في الإسلام بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة بينما السيئة بمثلها لا غير، بل كثيرا ما تُنَحَّى فلا تُذَكَّر يوم الحساب. لكل هذا وغيره أجدني مستغفرا ما قاله أكرم ندوى في هذا المضمار استغفرا شديدا. الواقع أن كلام د. ندوى في هذا الصدد لا يعنى سوى أن الرسول لم يكن يجد أمامه طوال الوقت أينما اتجه غير المشركين والمنافقين واليهود والنصارى، ولهذا كان كلامه كله إنذارا، وكأنه لم يكن هناك مؤمنون على الإطلاق يستحقون الطمأنة والتبشير. ترى هل هذا معقول؟ ثم من يا ترى كان يرفع الشعار التالى: "بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا" ويوصى أتباعه به دائما؟ أليس هو الرسول صلى الله عليه وسلم؟

وقد سبق أن قالت كارلا باور إن لشخصية الرسول عليه السلام جوانب مختلفة، وإن كل واحد من الذين كتبوا عنه قد ركز على الجانب الذى يرضيه أو يهيمه: فهو رب أسرة، وهو زعيم سياسى، وهو قائد عسكري... إلخ. فلو قال د. ندوى إنه يركز على الرسول كمعلم، دون أن يخرج الجوانب الأخرى من الاعتبار، لفهمتم موقفه، لكن كلامه يعنى أنه ينكر قيام الرسول بإنشاء حكومة إسلامية أصلا. أفلم يكن الرسول هو حاكم دولة المدينة أولا ثم العرب جميعا بعد ذلك في آخر حياته؟ ألم يكتب صحيفة المدينة كى ينظم علاقة طوائفها بعضها ببعض بوصفهم مواطنى الدولة الجديدة التى كان هو حاكمها؟ ألم يكن يقرم بالقضاء بين مواطنى تلك الدولة؟ ألم يكن يجيش الجيوش ويقود المعارك؟ ألم يكن يقوم بتوزيع الغنائم والأنفال والصدقات؟ ألم يستقبل وفود العرب؟ ألم يرسل الولاة والعمال لتدبير شؤون المناطق البعيدة عن المدينة من البلاد؟ ألم يبحث بسفرائه إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الإسلام؟ ألم يشر المسلمين بفتح فارس والروم والاستيلاء على القسطنطينية والانتصار على الأديان جميعا مع تحذيرهم في ذات الوقت مخاطر الترف والانشغال الضار بالدنيا؟ أم تراه صلى الله عليه وسلم قد أخطأ حين أقام دولة ولم ينتبه أحد منا إلى ذلك الخطأ حتى جاء د. ندوى فنهبنا إليه؟ ألم يسر الصحابة على نهج الرسول فيحافظوا على الدولة التى أنشأها ثم زادوا فمدوا حدودها شرقا وغربا وشيئا؟ أم تراه هم أيضا قد أخطأوا كما أخطأ الرسول؟ ثم إذا لم يقيم المسلمون حكومة إسلامية فكيف يمكنهم أن يأمروا على أنفسهم وعلى دينهم في دولة لا يحكمونها هم؟ ومن يضمن لهم أنهم لن يمتنعوا من ممارسة دينهم أو يعتقلوا أو يقتلوا أو يعذبوا؟ ولو لم يكن الرسول حاكما في المدينة وكان عليها ابن أبى بن سلول مثلا، ثم أراد هذا المنافق سجن الرسول أو طرده من المدينة، فإذا كان الرسول فاعلا؟

ولقد ترك الرسول مكة هو وأتباعه حين وجد ألا مستقبل لهم هناك نظرا للتضييق البشع الذي كان يضيقه عليهم أهلها، فهل كان المفروض أن يظل عليه السلام متنقلا في بلاد العالم مهاجرا من وجه الإجماع والطفانيان بدلا من أن يفكر في الحل الناجع الشافي الذي يمكن أن يضع نهاية لكل تلك المتاعب، وهو إقامة دولة إسلامية؟ ونحن نعرف أن الإسلام ليس مجرد نظام أخلاقي كالنصرانية مثلا يمكنه أن يتعايش مع الأوضاع السائدة في المجتمع دون أن يعنى نفسه بتغييرها، بل هو دين شامل أتى بنظام خاص به في السياسة والاقتصاد والأخلاق والعبادات لا بد أن يطبق. وأخيرا فكللام د. ندوى هنا يذكرنا بما جاء في كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ الأزهرى على عبد الرازق، ذلك الكتاب الذى أقام العالم الإسلامى ولم يقعه من يوم صدر منذ نحو قرن حتى الآن، والذى يقول بعض من كتبوا عنه إن صاحبه قد عاد عن رأيه الذى عرضه في هذا الكتاب قبل وفاته، وبعض آخر إنه ليس مؤلفه الحقيقى بل شخصا آخر أراد أن يتخفى وراء شيخ معمم حتى يكون لوقع كلامه في العقول والنفوس تأثير كبير.

على أن هذا شىء، وانتهاج البعض سياسة العنف في سبيل الوصول إلى سدة الحكم شىء آخر مختلف تماما، وبخاصة حين لا يكون هؤلاء المتحمسون مستعدين للقيام بمهام الحكم مكتفين بما هم عليه من غشم وسذاجة وجهل سياسى يتهى دائما بهم وبالبلاد التى وصلوا لحكمها نهايات مأساوية، إن لم تكن غاية كثير منهم هى السيد والتسلط والتجبر باسم الإسلام، والإسلام منهم براء. لقد ظل الرسول يدعو قومه في مكة بالحسنى حتى أمسى طريق الدعوة مسدودا انسدادا بشعا، فهاجر إلى المدينة حيث وجد استقبالا كريما، وترحيا من أهلها نبلا، واستعدادا للعمل تحت رئاسته زعيما سياسيا، وقائدا عسكريا، وقاضيا شرعيا. ولو كانت الانقلابات وسيلة مقبولة إسلاميا لانتهجها الرسول والمسلمون في أم القرى بدلا من هجر مراتع صباهم وممتلكاتهم وأقاربهم ومغانى ذكرياتهم بكل ما يعنيه هذا من إيلاام نفسى شديد وخسارة مالية فظيعة. أما في المدينة فاختلف الأمر. ولو وجد صلى الله عليه وسلم الجوفى يشرب مثله في مكة تلبدا وغيوما وانسداد أفق ما هاجر إليها، فضلا عن أن يفكر في إكراه أهلها على قبوله حاكما. فيمكنك القول، وأنت مطمئن، إن الرسول قد حاز زعامته السياسية والدينية بما يشبه الديمقراطية، إذ حين رفضه المكيون ترك لهم البلد مهاجرا إلى يثرب، التى قبلها أهلها زعيما وقائدا بعمل حريتهم وإرادتهم.

ثم ما العمل أمام قوله تعالى في النصوص التالية: "وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ"، "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا بِمَا فِي شَجَرِ بَيْنِهِمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْأَلُوكَ تَسْلِيمًا"، "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ. قُل: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ"، "وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ. هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ"، "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ"، "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ"، "بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ"، "كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؟ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ"، "مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ"، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا. وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يَغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ"، "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا"، "إِنَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ"، "فَبِأَرْحَمِهِ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقُلُوبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ. فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"، "وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ... إلخ؟ ولا داعي للاستشهاد في هذا المجال بأحاديث النبي، فهي كثيرة ومعروفة.

ومن بين ما قالته كارلا باور أيضا في كتابها الذي نحن بصده إن التاريخ ليس نسخة واحدة، بمعنى أنه إنما يعتمد على من يرويها، ومن ثم تعدد رواياته بتعدد أصحابها حسب اتجاه كل واحد منهم. إلى هنا أنا معها، وإن كان هناك دائما من يحرصون بأقصى طاقاتهم على أن يذكروا الحقيقة كما بلغتهم مهم كلفهم ذكرها من أثمان وتضحيات. ثم ضربت مثلا على ما تقول من النساء المحدثات اللاتي كشف عنهن د. أكرم الحجاب في عمله الضخم المكون، كما قرأنا، من أربعين مجلدا، وإن لم يظهر منه سوى مجلد واحد، بعدما ظللن وقتا طويلا بعيدات عن الأعين والأذان لا يحس بهن ولا بوجودهن أحد، وكأنها لم يعرف تاريخ الإسلام أن هناك نساء محدثات بالألوف، مضيئة أن الأمر كان كذلك لأن التاريخ الإسلامي إنما رواه الرجال. وهنا أحب أن أعترض على طريقة تفكير الكاتبة المعوجة، إذ كيف تتهم الرجال بإخفاء دور النساء في مجال علم الحديث، والرجال هم، وهم وحدهم، الذين كتبوا عنهن وترجموا لهن ومدحوهن وأكبروا من شأنهن وذكروا ما لهن من فضل على الرجال وأبرزوا تلمذة كثير من

الرجال لهم، إذ لا أعرف معجماً أو موسوعة في القديم كتبها امرأة عن بنات جنسها من المحدثات أو من غير المحدثات؟ وأكرم ندوى، الذى كشف الحجاب عن هؤلاء النسوة كما تقول، أليس أحد الرجال؟

وقد فاتت الكاتبة أيضاً أن السبب الذى منع هؤلاء النسوة من الاشتهار شهرة المحدثين الرجال كما لك والبخارى ومسلم والترمذى مثلاً أنهم لم يتركوا وراءهم كتباً حديثة كالتى تركها هؤلاء المحدثون، فضلاً عن أن هناك من الرجال المحدثين آلاف مجهولين لا يعرفهم أحد مثلاً أن هؤلاء النسوة غير معروفات لأنهم لم يتركوا خلفهم كتباً تخلدهم كما فعلت كتب الصحاح والمسانيد وأنها لأصحابها. فهل تقول إن أمهاتهم أو زوجاتهم أو أخواتهم أو بناتهم هن المسؤولات عن هذا؟ كما فات المؤلفة كذلك أن أولئك النسوة المحدثات قد تَلَقَّينَ تشجيعاً ودعمًا من آبائهن أو أزواجهن أو إخوتهن، وإلا لما استطعن، اللهم إلا فى حالات نادرة أو شاذة، أن يطلبن الحديث فيتعلمنه ويعلمنه بدورهن للرجال والنساء.

وهنا مجال للكلام عن التقاطع بين جهود الرجل العلمية وما بذلته أنا كذلك من جهود فى إبراز دور المرأة فى مجال العمل العقلى. فقد أُسِّدَ لى، وأنا بالدوحة أعمل بجامعة أوائى القرن الحالى، تدريس مقرر الشر العربى الحديث، فحاولت فى الفصل الأول من الكتاب الذى عكفت أوانذاك على إعداده أن أتحدث عن الجديد الذى انفرد به هذا الشر عن نظيره القديم، فوجدت ضمن ما وجدت أن المرأة العربية الحديثة قد دخلت ذلك الميدان، الذى لم أجد فى حدود علمى واجتهادى أنها قد ولجته قديماً رغم أنه كان هناك محدثات كثيرات، وفقهات وشاعرات أيضاً. وقد أنفقت أياماً وليالى أقرأ تراجم النساء المسلمات فى كل ما وجدته فى مكتبة جامعة قطر من موسوعات ومعاجم، فلاحظت أن كثيرات منهن كن محدثات، وكان هذا من الوضوح البارز بمكان مكن. وهو ما رصدته د. الندوى أيضاً. وللأسف لم أعلم وقتها بصنيع د. الندوى بل ولا بالندوى نفسه.

وهذا ما سجلته عن هذا الموضوع فى الكتاب المذكور، وهو بعنوان "المرأة ناثرة": "ويدخل فى مظاهر التطور الذى لحق بالشر العربى الحديث أيضاً مشاركة المرأة فى الكتابة الشعرية. لقد كان بين نساء العرب القدماء شاعرات منذ الجاهلية، وإن كان عددهن وإنتاجهن قليلاً جداً بالنسبة للرجال وأشعارهم، إذ كانت المرأة لا تزيد فى شعرها عادة عن بعض الأبيات أو المقطوعات والقصائد، ولم يمر بى فى قراءتى فى أدبنا القديم أنه كان لامرأة ديوان شعرى كامل حاشا الخنساء. لقد كان هناك مثلاً

جليلة بنت مُرّة وليلى الأَخيلية ورابعة العدوية ونَزْهُونَ الغرناطية وولادة بنت المستكفي، إلا أن ما وصلنا عنهن من الشعر قليل قليل قليل. أما في الشر فقد حاولت أن أستعرض ما في ذهني من أسماء الجنس اللطيف، غير أني لم أوفق إلى تذكر شيء. لقد كانت هناك محدّثات وفقهات مثلاً، أما أدبيات يكسب الشر رسالة أو مقامة أو حكاية فلا. لكن الوضع قد اختلف في العصر الحديث، الذي سمع منذ فترة مبكرة انطلاق أصوات المصلحين الداعين إلى تحرير المرأة من قيودها والعناية بتعليمها. بدأ هذا رفاة الطهطاوي رائد النهضة الثقافية الحديثة. وفي بداية القرن العشرين أصدر قاسم أمين كتابه: "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، اللذين أقاما الدنيا ولم يقعداها منذ ذلك الحين. وكانت هناك أصوات أخرى في مصر وفي غير مصر كلّها تعطف على المرأة وتدعو إلى احترام إنسانيتها وإعطائها نفس الفرص التي يتمتع بها الرجال.

وكان من ثمرة هذا أن دخلت المرأة المدرسة ثم الجامعة بعد ذلك، وخرجت إلى الدنيا ولم تعد قعيدة المنزل، وعملت مع الرجل في كل المؤسسات والمصالح، وأصبحت هناك نساء كاتبات مثلاً هناك رجال كتاب، فرأينا عائشة التيمورية الشاعرة المعروفة تكتب الرواية، ومَلَك حَفْنَى ناصف تدبج المقالات وتلقى الخطب، ومضى زيادة تخطب وتكتب نثراً وجدانياً مجتّحاً وتبادل الرسائل مع بعض مشاهير الأدباء كالعقاد وجبران، وبنت الشاطيء تمارس الكتابة الإصلاحية والنقد الأدبي والإبداع القصصي والترجمة الذاتية والغيرية وتلقى المحاضرات في الجامعة، ومثلها في ذلك سهير القلماوي، وكذلك نعمات أحمد فؤاد ولطيفة الزيات ورضوى عاشور. وهذا الكلام يصدق على البلاد العربية الأخرى كفلسطين، التي يمكن أن نذكر منها كلثوم عودة وسلمى النصر ونجوى قعوار وأسمى طوبى ووداد سكاكيني وعنبرة سلام الخالدي وفدوى طوقان وسميرة أبو غزالة وامثال جويدي وثريا ملحس، وسوريا ولبنان حيث ظهرت وردة اليازجية ونديمة المتقاري وألفت إدلبى وسلمى الكزبري وضياء قصبجي ونجاح العطار وشينة شعبان ومارى عجمى ونازك بيهم وروز غريب وليلى البعلبكي وغادة السمان وليلى عسيران، والعراق، ومنها بولينا حسون ومليحة إسحاق ونازك الملائكة وعاتكة الخزرجي وليمة عمارة وديزى الأمير وسليمة خضر وسهيله الحسيني. كما نستطيع أن نضيف إلى هذه الأسماء ليلي أمين دياب وآسيا جبار وزهور ونيسى (من الجزائر)، وباحثة الحاضرة (ملكة الفاسي) وفاتة تطوان وأمنة اللوة وفاطمة الراوي وخناتة بنونة (من المغرب)، وزينب الكعك وناجية ثامر وعروسية النالوتي وهند عزوز وحياة بنت الشيخ (من تونس)، وزعيمة الباروني وحيدة العنبري وجميلة الزمرلي

(من ليبيا)، وزينب الكردي وشرقية الراوى ودُرّر (من السودان)، وخديجة السقاف ورقية الشيب ولطيفة السالم وسميرة بنت الجزيرة العربية وصفية عنبر (من السعودية)، وزهرة المالكي ودلال خليفة وكلثم جبر وهدى النعيمي وشمة الكواري (من قطر)، وخولة القزويني ومنيرة الفاضل ومعصومة المطاوعة (من البحرين)، وسلمى مطر سيف وليل أحمد ومريم فرج وأمنية بو شهاب (من الإمارات)، وأمل عبد الله وشفقة زوقري ورمزية الأرياني وأمل اللوزي وبلقيس الحضرائي (من اليمن)، وزكية بنت سالم العلوي وبدرية الوهيبي (من عمان). بل لقد أصدرت المرأة العربية المجلات ورأست تحريرها، وأورد أنيس المقدسى في كتابه: "الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث" بضع عشرات من المجلات التي كان يتولاها عدد من النساء العربيات في مصر والشام وأمريكا فقط حتى عام ١٩٥٥ فحسب".

الإسلام عند أكرم ندوى

ومما قاله د. أكرم ندوى أيضا واستغربته المؤلفه كثيرا أن المسلم ينبغي أن يرضى بواقعه وأن يكف عن التذمر والشكوى، فالهم أن يتمسك بالتقوى. وقد ضرب على ذلك بعض الأمثلة منها أنه لا يصح أن تشتكى المسلمات في فرنسا منع السلطات الفرنسية لهن من التحجب وألا يتوقفن طويلا أمام السفور المفروض عليهن في الأماكن العامة، فمنع التحجب لا يعوقهن أن يكن مسلمات تقيات. والمسلم في أوروبا يستطيع أن يمارس التقوى مهما كانت الظروف لأن أحدا لن يمنعه ذلك. فليس شرطا أن يعيش المسلم في ظل حكومة إسلامية لكي يمارس التقوى، التي يراها د. ندوى أهم شيء في حياة المسلم... وهكذا.

ولا شك أن التقوى هي مدار الأمر كله في الإسلام. وهناك في هذا الصدد حديث بديع أحفظه منذ كنت صيا في المرحلة الثانوية: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا (ويشير صلى الله عليه وسلم إلى صدره)". وثم حديث آخر يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى". وحديث ثالث: "ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقّر في القلب وصدقه العمل"... كذلك فالإسلام أولويات، وليس أمرا سهلا. وأذكر أنني اختلفت مع زملاء بعثى إلى بريطانيا صيف ١٩٧٦م حين كنا نتلقى دروس اللغة الإنجليزية في أحد المراكز البريطانية بالقاهرة استعدادا للطيران إلى بلاد جون بل، فكان رأيي أن القراءة أهم كثيرا من نوافل الصلاة. وكان بعض زملائنا يقولون بالعكس، فأستغرب محاولا أن أفهمهم أن القراءة فريضة، أما النوافل فنوافل. ولكن الأمور كانت معكوسة في أذهانهم. والغريب أنهم كانوا متخصصين في العلوم الطبيعية، فكنت أتصور أنهم ينبغي أن يكونوا أسبق منى في هذا الاتجاه، ولكن "طَلَعَ نَقْبِي عَلَى سُوءَةٍ".

فأنا مع د. ندوى حين يقلل من شأن اللحية والنقاب مثلا إذا لم يراعِ المتنحى أو المستتبه أصول الجيرة والزمانة وما تقتضيه من التبسم في وجوه من حولنا. وكثيرا ما أستغرب كيف أن أول شيء يصنعه كثير من "التائين" هو إطلاق اللحية أو الانتقاب، ثم هم بعد ذلك يجرون على ما كانوا يجرون عليه قبل التوبة من ضيق أفق وكسل وتبلد ويكش وقسوة وركون إلى الجهل ونفور من القراءة. كما أنني أضيق صدرا حين أرى طلابي وطالباتي الحريصين على مثل تلك الأشياء لا يتميزون في خلق أو علم أو عمل عمن حولهم ممن هم في عرفهم وعرف الناس من حولهم أقل لدينا، إذ أحيانا ما أشير إلى طالب

ملتج أو طالبة متتقة طالبا إجابة سؤال طرحته أو مشاركة في مناقشة فكرة عرضتها، لكن أفاجأ بهزة من الرأس معناها: ليس في أدمغتنا شىء نشارك به. أى أنها لم يقرأ مثلها لم يقرأ الآخرون، ولم يهتما بالإنصات إلى ما يقوله الأستاذ مثلها لم يهتما الآخرون، ولا يريان للعلم أية قيمة مثلها لا يرى له الآخرون، فأغضب وأتساءل: فما فائدة اللحية إذن والنقاب؟ فهما يظنان أنه متى التحى الشاب أو انتقبت الفتاة فقد حازا الإيذان من جميع أطرافه. وعبنا أفهمهما بأن أهم شىء في حياتهما وحياة أمثالهما من الطلاب والطالبات هو العلم. فإذا ما قصرا فإن دخول اللجنة يصير صعب المئال جدا. ولكن لا حياة لمن تئادى. ومع ذلك فآه ثم آه ثم آواه إذا ما تحدثت عن عدم وجوب إطلاق اللحية أو ارتداء النقاب! ذلك أنها يتحولان مفتتين من الطراز الرفيع ومجادلين على أحسن ما يكون.

لكنى لست مع . ندوى في عدم اعتراض الشخص على واقعه وظروفه. إن هذا الإنكار الذى يقلل من شأنه ويدعو إلى التخلص منه هو بداية التغير إلى الأحسن. ولست أدرى كيف يتوقع الدكتور من شخص ما أن ينشط لتغير واقعه دون أن يتألم من هذا الواقع ويشكوه ويعترض عليه. إن مثل ذلك الاعتراض ليس إثمًا يخشى لأنه ليس اعتراضا على قضاء الله وقدره. إنه تطلع إلى قضاء وقدر آخر، فنحن طوال الوقت بين أفضية الله ننتقل من قضاء منها إلى قضاء آخر، ولا يمكننا الخروج عنها مهما فعلنا ونفعل. وكما أن المريض يضيق بمرضه ويجهد في التخلص منه واسترداد ثوب الصحة والعافية فكذلك كل متألم من ظروفه السيئة لا حرج عليه أبدا في الضيق بها والرغبة في استبدالها، بل يجب عليه ذلك. وأنا إذن مع كارلا باور فيما قالت عن الثقافة التى تربت عليها والتي تُشدد من كل شخص أن يعمل طوال الوقت على تجاوز ذاته وواقعه إلى ما هو أفضل، وأن يبذل كل ما لديه من طاقات ومواهب في تقديم الجديد، وإلا أسيئت الحياة وتعطنت كما هو حال المسلمين عموما اليوم في كل مناحى الحياة تقريبا. وبهذه الروح تقدم الغرب وسبق العالم في الصناعة والزراعة والعلم والقوة. وقد كنت أعيب في شبابه الأول بعض فلاسفة الأمريكان حين أراهم يرفعون شعار النفعية (البراجماتية) بمعنى أن مقياس صدق فكرة ما هو أن تكون نافعة، أى يمكن تحويلها أولا إلى واقع، وأن تكون مفيدة لا مجرد شقشقة باللسان أو كلام نظرى لا يترتب عليه شىء، ظنا منى أن الحق حق مهما تكن النتيجة. لكنى صرت أكثر ميلا إلى هذا الرأى بعدما رأيت كثيرا من المسلمين يضيعون وقتهم في محاولة إثبات صحة شىء ما دون أن تكون لذلك أية ثمرة في الواقع، ومن ثم يظل حال المسلمين كما هو إن لم يزدد سوءا.

وعلى هذا ينبغي أن تسعى المسلمة التي تعيش في الغرب ويجبرونها على السفر في الأماكن العامة إلى الحصول على حقها في أن ترتدى ما تشاء ما دام هذا الذي ترتديه لا يؤذى أحدا. أما قوله إن تلك المسلمة تستطيع أن تكون تقية في بيتها فهو كلام في الهواء، إذ الحجاب إنما جُعل للأماكن العامة لا للبيت حيث تكون المرأة عادة مع زوجها وأولادها أو مع أبيها وإخوتها، وهي لا تحتاج إلى مثل ذلك الحجاب في تلك الظروف. وأمامها وأمام أهلها القضاء أو الضغط السياسي عن طريق توظيف الأصوات الإسلامية والمتعاطفة معها أو الكتابة في الصحف أو الظهور في برامج التلفاز أو المذيعات لعرض وجهة نظر الإسلام أو التظاهرات. أما الاستسلام فلا أوافق د. أكرم عليه، فإن الاستسلام يغري الغربيين بمزيد من الضغط على المسلمين إلى أن ينسلخ المسلمون عن دينهم تماما. ولنا فيما حدث بالاندلس عبرة، وأي عبرة. أما إذا لم تستطع تلك المسلمة بعد ذلك كله شيئا فهي معذورة عند الله. أقول هذا وأنا أعرف أن الحجاب ليس بكل تلك الأهمية التي يعلقها عليه المسلمون في الوقت الذي لا يقرأون ولا يعملون بكل طاقتهم ولا يحسنون تأدية ما يعملون أو يتقنونه ولا يهتمون بجمال أو نظام أو نظافة على وجه العموم ولا يبتكرون شيئا ولا يكتشفون قانونا من قوانين الكون بل يعيشون عالة في ذلك على الغرب. أما الذين يقولون يرجع المسلمون من البلاد الأوربية إلى بلادهم فلنا عندهم سؤال: ترى ما الذي دفعهم إلى المجيء إلى تلك البلاد؟ أليس هو الفقر والاستبداد والتضييق الذي يجدونه في بلادهم؟ ولا يقل أحد من فضلكم إنه لا يوجد فرق بين ما أقوله وما يقوله أكرم ندوى. ذلك أن كلامه يعنى الاستسلام المبذئ، أما كلامي فيعنى أن يبذل المسلم جهده، كل جهده، في تغيير ما يتعرض له من تضييق وإجحاف ولا يسكت ما دام هناك باب.

أما قوله إن المهم هو التقوى فأية تقوى يمكن أن تبقى بعد اقتطاع الدين جزءا جزءا، إذ من يضمن لنا أن الرضا بذلك الظلم لن يترك مع الأيام أثره في نفس المسلم المضطهد تصاغرا وذلة وتباعدا عن مظاهر الدين وشعاراته ورموزه، ثم عن عباداته وعقائده بعد ذلك؟ إن الغربيين لا يسكتون عما يحسبونه حقا من حقوقهم، بل يناضلون دونه. وكلام السيدة باور يصب في هذا الاتجاه. فلم يريد د. ندوى من المسلم أن يفرط في حقوقه منذ اللحظة الأولى بحجة أن المهم هو شعوره بالتقوى؟ وهل كل هم المسلم هو أن يعبد الله في السر وعلى خوف ورعب؟ لماذا؟ إن الغرب يصم أسماع الدنيا تفاخرا بديمقراطيته وليبراليته، فلم لا نضعه أمام ادعاءاته تلك ونحاكمه إليها؟ إننى لا أحب الصدام بين المسلمين وبين الدول الغربية التي يعيشون فيها، لكننى أيضا لا أحبذ أن يعيشوا هناك أذلاء. والغرب

يقيم الدنيا ويقعدها قعقة ودمدمة من أجل الأقليات التي تعيش في العالم الإسلامي. فلماذا يضيق صدره عندما يطالب المسلمون فيه ببعض ما يطالب هو به هؤلاء في بلاد الإسلام؟

إن المسألة ليست مسألة زى فحسب، إذ هناك أيضا بناء المساجد، الذى ترفضه أو تقيم دونه العقوبات بعض الدول الغربية، وإذا رضيت بيناتها اعترضت على إنشاء المآذن، بل وعلى الأذان نفسه، في الوقت الذى تدق فيه النواقيس الكنسية كما يجب أصحابها. مرة أخرى لا نريد الصدام بل نريد نيل الحقوق، وليس شرطا أن تُنال دفعة واحدة بل يمكن أن يتم الأمر تدريجيا وقليلًا قليلًا. ولو كان الزوج مثلا اتبعوا خطة د. ندوى ما كان أوباما وصل إلى رئاسة أمريكا ولكانوا لا يزالون يقتلون في الشوارع الآن ويمنعون دخول المطاعم والمدارس والكنائس التى يستخدمها البيض. ولقد نادى أحد المرشحين للرئاسة الأمريكية منذ أيام بالتضييق على المسلمين في أمريكا وأعدا أنه سوف يطبق ذلك متى ما نجح في الانتخابات الرئاسية هناك، لكنه تحت الضغط من جانب المسلمين وغيرهم داخل أمريكا وخارجها اضطر إلى التراجع والاعتذار. فأى الخطتين أفضل وأكرم وأدنى إلى العدل والإنصاف؟ خطة أكرم ندوى الداعية إلى التهقير والرضا بالإجحاف أم خطة التمسك بالحقوق التى كفلها القانون لكل المواطنين والمقيمين في الولايات المتحدة؟ إن تمسك المسلمين بقوانين البلاد في الدفاع عن حقوقهم هو التقوى في أكرم صورها وأبعدها عن إثارة المشاكل وأكفلها لتجنب الصدام مع السلطات أو أى طيف آخر من أطراف الأمة. أما د. ندوى فينادى بتقبل المسلمين الهوان والظلم والإجحاف والتمييز العنصرى والدينى.

لكن من ناحية أخرى ينبغي أن يعمل المسلم على منافسة مواطنى البلد الغربى الذى يعيش أو يقيم فيه في بلوغ الخيرات، فيحرص على أن يكون لديه عمل، وعمل يدر عليه دخلا كبيرا يضمن له حياة كريمة. كذلك عليه أن يلتزم قيم الإسلام الحضارية من صدق ووفاء بالوعد والعهد، وإتقان للعمل الذى يؤديه مهما كان نوعه، وتشغيل لمخه دائما ابتكارا واختراعا وتوصلا إلى الجديد المفيد، وحرص على الجمال والنظام والتخطيط والذوق الكريم واللباقة العالية. وإذا كان الغربى يعمل هذا ويتمسك به لدنيا يصيبها، وما هذا بالقليل، فعلى المسلم أن يعمل هذا لدنياه وآخرته، أى احتراماً للقانون ومراعاة الله المطلع على كل شئ، والذى يحب لعبده أن يعيش متحضرا راقيا متفوقا كريما متعاوناً مع من حوله على الخير والنفع. وهذه هى التقوى كما أفهمها لا تطويل اللحى ولا تقصير الثياب

ولا تنقيب الوجه ولا كثرة التمتمة وترديد الصيغ الدعائية التى لا تؤدى إلى شىء لفارقتها أهم ضمان لاستجابتهما من الله، وهو العمل والاجتهاد.

التقوى فى الإسلام، كما أفهمها، هى الحضارة، الحضارة النظيفة التى تحوطها العفة والتواضع والإيمان بالله والعمل على نيل مرضاته، بخلاف الحضارة الغربية التى لا تضع العفة والتواضع والإيمان برب الحياة فى ذهنها، فتجد أهلها يشربون الخمر ويزنون ويلوطون ويضاجعون الحيوانات ويتكبرون على الأمم الأخرى ويضعون العراقيل فى طريق انعتاقها من الاستبداد والاستعمار والتخلف ويتحكمون بالآخرة والألوهية والنبوة والدين. أما غير ذلك فتضييع وقت وهلس سوف يحاسبنا عليه رب العالمين فى الدنيا تخلفا وهوانا وذلة، وفى الآخرة جحيما متسعرا أعده سبحانه لمن ضيعوا حياتهم ورَضُوا بالهوان كما يفعل كثير جدا منا نحن المسلمين. وليس معنى هذا أن المسلمين كلهم لا يشربون الخمر ولا يزنون ولا يلوطون مثلا، بل معناه أن الغربيين لا يجدون فى ذلك معابة ولا خروجا على القانون ولا يتواصون بتركه ولا يتعرضون لمن يفعله بالنصح فضلا عن الإنكار، أما نحن فمن يفعل ذلك منا يأثم ويشعر ضميره بالوخز الأليم ولا يساعده المجتمع ولا يفلت من القانون. ونرجو ألا يأتى اليوم الذى نلحق فيه بالغرب فى هذا الاتجاه بدل أن يتحول هو ناحية العفة والتواضع والإيمان.

لقد كفلت الديمقراطية الغربية للشواذ حق ممارسة شذوذهم والتظاهر ضد أى قانون يضيق عليهم ولو بعض التضييق، بل إن بعض الدول الغربية تميز زواج المثليين، فلماذا تنكر على المسلمين ممارسة حقهم فى أن تغطى نساؤهم رؤوسهن؟ أذكر أنه، حين أثير موضوع الحجاب فى فرنسا منذ بضع عشرة سنة، أن استُثِنَت الطاقية اليهودية والصليب النصرانى رغم أنها رمزان دينيان، ورفض غطاء الرأس للمرأة المسلمة، ولكنهم أجازوا للمسلمة أن تضع على ثيابها ما يسمى: "كف فاطمة"، أى خمسة وخمسة، التى يتقى بها العوام أذى العين حسب اعتقاداتهم. فانظر هذا التنطع: يميزون أن تمارس المسلمة السخافات، ويرفضون لها الالتزام بالواجبات رغم أن استعمال المسلمة للطرحة مثلا لتغطية الرأس لا يختلف فى شىء عن وضع الفرنسية الإيشارب لتغطية شعرها. فلماذا إذن هذه التفرقة؟ يقولون إن علمانية الدولة ترفض استعمال الإشارات والرموز الدينية لأن من شأنها إثارة التعصب. لكنهم يتجاهلون عن عمد أن كف فاطمة أقرب إلى الإشارة الدينية، بينما غطاء الرأس ليس إشارة ولا رمزا بل واجبا تأثم المرأة المسلمة إذا ما أهملته كما تأثم بالكذب وترك الصلاة، وإلا كان من حق الدولة العلمانية أن تمنع الناس الصلاة والصيام والحج أيضا. وإذا كانت تلك الدولة ترى فى الطرحة رمزا دينيا

إذن فمن واجبه أن تهدم أبراج الكنائس أيضا لأنها من الرموز الدينية الفاقعة التي تخزق العين ويراهها الناس من بعيد ولا يخططون أبدا مرماها ومغزاها. أليس كذلك؟ إن الدولة العلمانية، بهذه الطريقة، تتدخل في الشؤون الدينية لبعض رعاياها مع أنها، حسبها هو مفروض في العلمانية، لا علاقة لها بالدين من قريب أو من بعيد، إذ تترك الناس يباشرون تلك الأمور بأنفسهم دون تدخل من جانبها لا بخير ولا بشر.

وقد كان محمد أركون ممن استعانت بهم الدولة الفرنسية آنئذ لتسويق تلك التفرقة في المعاملة بين المسلمين وغيرهم. وها هو ذا أكرم ندوى يتدخل مبررا ذلك الصنيع، ولكن على أساس آخر، ولكن الغاية عند الاثنين واحدة. إن المسلم مطالب بتغيير المنكر بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه. فأما باليد فلا تجوز مخالفة قوانين البلاد والقفز فوقها. لكن إذا تعرض المسلم في الشارع مثلا أو في بيته لما يهدد حياته أو ماله فمن حقه الدفاع عن نفسه وعدم ترك المهاجم يسرقه أو يقتله أو يحرق بيته ويمضي لحال سبيله بجريمته ليمارس هو التقوى بعد موته في الوقت الضائع بعد أن يصير عظاما وترابا، مع أن التقوى تقتضيه الدفاع عن نفسه وعدم ترك المجرم يمضي خفيها هائنا سعيدا بما صنع. أما باللسان فبالكتابة في الصحف والخطابة في المتدييات واستعمال لعبة السياسة من خلال التصويت مثلا لمن يقف مع حقوق المسلمين من المرشحين للرئاسة أو لتمثيل الدائرة والاستعانة بالصحفيين والكتاب والسياسيين المتعاطفين معهم. أما د. ندوى فيقفز مرة واحدة وإلى الأبد إلى ما بعد التغيير بالقلب محرقا المراحل الثلاث كلها دفعة واحدة فذة لا مشنوية فيها، أي بممارسة العبادة فقط في البيت. إنه لم يقل حتى بالتجاء المسلم إلى الاحتفاظ بغضبه في قلبه، بل بالضرب صفحا عن الأمر برؤيته كأنه غير موجود قائلا إن المهم هو ممارسة التقوى. فأية تقوى يا ترى سوف تبقى بعد ذلك كله؟

وبمناسبة ما نحن فيه هناك من الأوروبيين من يزعم أن المسلمين في البلاد الغربية يريدون أن يطبقوا الشريعة فيها. وهو زعم خبيث فوق أنه كاذب، فالمسلمون لا يطبقون كثيرا من أحكام الشريعة في بلاد الإسلام الأصلية مع أنهم يشكلون الأغلبية الساحقة فيها بل قد ينفردون بها وحدهم تقريبا، فكيف يقال ذلك عن بلاد يعيشون فيها لاجئين أو باحثين عن الرزق ويشكلون مع مسلميها الأصليين أقلية غير ذات أنياب، فضلا عن أنهم من الضعف بحيث إن أقصى أمانهم أن يجدوا مكانا يصلون فيه ولو كان مكن سيارات كما يحدث في كثير جدا من أماكن الصلاة حتى إن بعض القساوسة في تلك البلاد يسمحون لهم أحيانا بالصلاة داخل الكنيسة متأسين، عن وعى أو بغير وعى، بنينا عليه السلام

حين سمح لنصارى نجران بالصلاة في مسجده بالمدينة حسيا جاء في بعض الروايات، وسمح للأجاش باللب فيه بالدرق والحراب، وعائشة تنظر معه إليهم وتستمع بلعهم. وإلى جانب هذا كله فإن الدول الغربية هي أقوى دول العالم في عصرنا الحالى. فكيف بالله عليكم يمكن أن يتصور متصور مهما كان خياله نشيطا وملتها أن المسلمين في بلاد الغرب يمكن أن يفرضوا الشريعة على أهل تلك البلاد غير المسلمين؟

إن هذه المزاعم السخيفة توهم من يسمعوها ولا يعرف الحقيقة أن المسلمين في تلك البلاد لهم من القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية والإدارية والثقافية والعلمية، ولهم فوق هذا من مساندة الدول الكبرى، ما يستطيعون به تحقيق المستحيل وفرض إرادتهم على الأغلبية الكاسحة من غير المسلمين في أى بلد أوربي يقطنونه وإقامة دولة إسلامية تطبق الشريعة. وهذا، كما يرى القارئ، منتهى السخف والاستبلاء. والذين يشيعون هذا يعلمون تمام العلم أنهم يكذبون ويخدعون جماهير بلادهم حتى تمنع في كراهية المسلمين والتضييق عليهم ليركوا البلاد ويرحلوا. وعلى كل حال فالإسلام لا يعرف أسلوب الانقلابات العسكرية والقفز فوق كرسى الحكم بالقوة ما دامت الأغلبية لا توافق عليه. ودليلنا ما صنعه النبی في مكة حين ترسبت قريش خلف وثنيها في عناد وثبث رافضة دين الحق، إذ لم يفكر عليه السلام في القيام بانقلاب يصل به إلى سدة الحكم مباغته وغصبا وجبرا، بل إنه لم يرض لأصحابه أن يدخلوا في صدام مع المشركين المعتدين موصيا إياهم بالصبر الجميل، ومفضلا الهجرة إلى يثرب مع من آمن به على البقاء مرفوضا من أغلبية أهل مكة بعدما تبين له أنهم لن يترزحوا عن شركهم وينصتوا لدعوة الإسلام. وهو، عندما هاجر إلى المدينة، لم يفرض نفسه على أهلها، بل هم الذين دعوه إليهم وأكدوا له أنهم سوف يؤمنون به ويحمونه ويدافعون عن دعوته، علاوة على أنهم قد قبلوه زعيما لهم ورَضُوا بأن يحكمهم.

فوصوله صلى الله عليه وسلم إلى الحكم لم يكن بالقوة الجبرية بل بالرضا والقبول التامين. وهذه هي الديمقراطية في أنقى صورها. أما إن كان هناك من يفجر القنابل أو يقتل الناس في بلاد الغرب فإن سائر المسلمين يرفضون صنيعه رغم أن الأوربيين قد ساموهم ولا يزالون يسومونهم العذاب والإهانة عن طريق مباشر أو غير مباشر. نقول هذا مع ما نعرفه من أن هؤلاء المفجرين للقنابل في أوربا قد يكونون صناعة مخبرية غربية للتمهيد لتقنين بعض السياسات الظالمة المجحفة بالمسلمين والعالم الإسلامى. إن المسلمين، رغم أكثريتهم في الحبشة مثلا ولبنان، لم يفكروا في الوصول إلى الحكم عن

طريق القوة. كما أنهم في كثير من البلاد الأفريقية يشكلون نسبة عالية جدا من السكان، ومع هذا لم يفكروا في السيطرة على البلاد بالعنف. ولبنان والحبشة والبلاد الأفريقية لا تعد شيئا من حيث القوة والمنعة بجانب بلاد الغرب. فكيف يقال إنهم يعملون على تطبيق الشريعة هناك؟ إن هذا هو الهزل المبين!

ونقل الآن تلخيصا لما قالته وزيرة الخارجية الأسبانية السابقة آنا بالاسيو عن سياسة الغرب تجاه دول العالم الثالث وتعصيدها للحكام المستبدين الذين يقتلون شعوبهم ويزجون بأحرارهم في المعتقلات ويزنلون بهم أشد ألوان البطش والجبروت. وعنوانه: "الغرب يرضى بحكام الزنا" نقلا عن جريدة "المصريون" الضوئية بتاريخ الثلاثاء، ٨ ديسمبر ٢٠١٥: "عندما سُئِلَ الرئيس الأميركي فرانكلين د. روزفلت عن الدعم الأميركي للطاغية السع السمعة أناستاسيو سوموزا في نيكاراغوا قال: "ربما يكون ابن زنا، ولكنه ابنا من ذلك الزنا". وسواء كان هذا التعليق الساخر الذي جاء على لسانه ملفقا أو لم يكن فإنه يلخص نهجا غربيا قديما في قسم كبير من العالم، وهو النهج الذي ارتكزت إليه السياسة الخارجية الأمريكية طَوَالَ فترة الحرب الباردة. هكذا كتبت آنا بالاسيو وزيرة الخارجية الإسبانية سابقا والمحاضرة في جامعة جورج تاون في تحليلٍ نشره موقع "قنطرة" الألماني قائلة: "يبدو أن ميلا جديدا أكثر إزعاجا ظهر مؤخرا مع استعداد زعماء الغرب ليس فقط للرضا بأبناء الزنا الذين تولد لهم ممارساتنا نحن، بل بأى ابن زنا قادر على فرض الاستقرار بأى ثمن. وهى عقلية مغرية، ولكنها خطيرة".

وترى آنا بالاسيو أن الحكم الرشيد وليس الاستبداد هو المفتاح إلى الاستقرار على الأمد البعيد. وتحذر زعماء الغرب من تكرار السقوط في فخ الحرب الباردة حين كانوا يرَضُّون بالطغاة مقابل تأمين الاستقرار بأى ثمن. وتابعت: "كان المفترض أن تكون التجربة سببا في دفع زعماء الغرب في الاتجاه المعاكس. فمع مرور الوقت أثبتت المحسوبة الواقعية ظاهريا خلال الحرب الباردة أنها بعيدة كل البعد عن المثالية. بل وفي العديد من الحالات (شاه إيران، ولون نول في كمبوديا، وأوجستو بينوشيه في تشيلي، وموبوتو سيسيه سيكو، على سبيل المثال لا الحصر) أدى ذلك النهج إلى انعدام الأمن وتفشى الفوضى في الأمد البعيد".

على أن هذا لا يعنى ألا يدعو المسلمون هناك مَنْ حوَّهم من الغربيين وغيرهم إلى دينهم. فكل إنسان يجب أن يتابعه الناس على ما هو عليه من دين أو فلسفة أو مذهب سياسى. فطَرَهُ الله التى خلق

الناس عليها لا تبديل لخلق الله. والغرب يقوم بدعاية هائلة لتسويق أسلوبه في الحياة وإقناع الناس في مختلف أرجاء العالم بأن سياسته هي أفضل السياسات وأنه صاحب رسالة عالمية للبشر جميعا. وهو يدعو بتلك الدعاية بكل الطرق والوسائل والأساليب، ويتفق في ذلك الميزانيات الضخام. والإسلام الآن يجد طريقه في غير عسر بالمقارنة بذى قبل حين كان المسلمون الغريون قليلين جدا حتى إننى شُذِفت حين علمت أن أحد أحوال الفيلسوف والسياسى البريطانى الشهير برتراند راسل كان مسلما، ويخاصة أن أسرة راسل هي من علية القوم، فقد كان منها رئيس وزارة قبل ذلك. أما الآن فهناك مسلمون غريون دبلوماسيون وسياسيون وفنانون وكتاب وصحافيون ورياضيون وأساتذة جامعات ومستشرقون، وبعضهم كان يناهض الإسلام ويناصبه العداء قبل، لكن الله أتى به طائعا مختارا إلى دينه. وعلى المسلمين في الغرب أن يكونوا مثالا كريما لدينهم، وهذا وحده كافٍ لإقناع الناس بحسن الدين الذى يتبعونه، ولا يمجوهم كثيرا إلى الدعاية المكلفة.

إن في الغريين، رغم عيوبهم الجسيمة، فضائل جمّة. ولا شك أنهم قد ورثوا عن أجدادنا الكثير من العلم والفن والذوق والتحضر والنظافة والنظام بعدما كانوا مثالا على الهمجية والتوحش. لكن أن نسلب عنهم فضائلهم ونذهب فتغنّى بما ليس فينا فهذا كلام فارغ ولا يؤدي إلا إلى مزيد من تخلفنا وتأخرنا. ذلك أن التغيير إنما يبدأ من يوم أن تشعر بأن وضعك سيئ وأن هناك من هو أحسن منك. والمقال التالى مثال على ما أخشاه من خداع النفس الذى يمارسه بعض المسلمين مع أنفسهم متوهمين أنهم حازوا وما زالوا يحوزون كل الفضائل وأن الغرب مجرد سارق لا فضل له فيما أبدعته وتبدعه يدها. نعم لقد أخذ عنا الغريون الكثير، بيد أننا قد أخذنا بدورنا عن غيرنا الكثير أيضا، وأضفنا إليه وطورناه وصححنا ما فيه من عوج وأخطاء واستدركنا عليه وقفزنا بهذا كله قفزات هائلة في مضمار الحضارة. وهو ذاته ما عمله الغريون حين أخذ منا ما أخذ. فكيف ننكر عليهم فضائلهم ونغتهم محاسنهم؟ إنهم يصنعون معنا نفس الشيء فينكرون على حضارتنا أصالتها، فنغضب بحق لهذا، فلا ينبغى لنا من ثم أن نفعله معهم. ليس هذا فحسب بل إن كاتب المقال لا يريد الإقرار بأننا نحن الذين قرّطوا في تفوقهم بتخليتنا عن القيم الحضارية الإسلامية الجليلة من عمل وإبداع ورجولة وتحمل مسؤولية وعلم وذوق وجِدْ وصبر واستعداد لمواجهة المخاطر في شجاعة وقدرة عارمة على التضحية، جاعلا كل عيوبنا من صنع الغريين. ولنفترض أن كلامه صحيح فما الذى يعنيه هذا؟ يعنى أننا بلغنا من الضعف

والهوان والتبльд والجبن والانكباب على التفاهات والانشغال بالشهوات الحسد الذى يملك الغرب من هزنا والتكليل بنا، ونحن نخط فى ذل عميق محيط.

وهذا نص المقال، وهو لعبد الراضى الزناتى، وعنوانه: "ماذا خسر المسلمون بسقوط الأندلس؟"، وقد نقلته عن جريدة "المصريون" الصادرة يوم الأحد ٢٠ ديسمبر ٢٠١٥: "نشر فريق عمل "رؤية" ونشطاء صفحة "المسلمون فى الأندلس" حملة جديدة للتعريف بخسائر المسلمين بعد سقوط الأندلس، وجاءت هذه الحملة تحت مسمى "ماذا خسر المسلمون فى الأندلس؟" حيث نشر نص بيان للحملة جاء فيه: "فى ذكرى التمكين الذى حدث لنصارى أوروبا الغربية على أرض الأندلس، وفى ذكرى ضياع ركن مهم فى خارطة الأمة الإسلامية، لن أتوج السطور بما خسره بل بما ربحه قطاع أوروبا من تراجعنا، وما خسره العالم أجمع بعد ذلك الريح المغشوش. مرت قرون؟ نعم. نعلم كم هى؟ نعم. نحصى رقم الذكرى ونقوله بسلاسة وطلاقة؟ نعم. ثم ماذا؟ ثم انتكاسة وخمول وغشاوة نجح الغرب فى وضعها على بصيرتنا قبل أبصارنا، ونحن مستسلمون! فى الحملات التى سبق وأعدتنا لها بفضل الله عرضنا الكثير عن فضل الأندلس على الإسلام والمسلمين. فمؤكد أن هذا الفضل حرك تلك الأمم الغربية الراكدة من الدونية السحيقة إلى قمة الفوقية. بعيداً عن سرديات التاريخ الحقيقية والمزيفة وأوهام الواقع التى ستغدو تاريخاً ويكتب قريباً وفقاً للهوى أيضاً مسئولية على قبلكم جميعاً أن نعرف ما الموقع الذى نحيا فيه والصورة الذهنية الثابتة عند الغربى عنا. نعم ثابتة. وما إن تتحرك جموع حتى من أبنائهم لتعديلها حتى تندلع الحرب، الحرب التى أشعلوها لانتزاع فضل الإسلام على العالم لينسب لهم.

إذن المعضلة التى تؤرقهم هى "انتزاع نسب". وهل نجحوا؟ نقولها وبكل ثقة: لا، ونكررها. لو نجحوا لما دامت حروبهم علينا بهذه القسوة والدموية حتى الآن. الجاهل حينما يتحدى العاقل أول ما يهاجمه به هو قوته العضلية قبل فكره. وهذا ما حدث مع المجتمع الأوروبى. توجهوا بالحرب وجمعوا القاصى والدانى من جياعهم أصحاب الأبدان حتى دانت لهم الأرض، وما إن تمكنوا حتى برحوا يستخدمون "عقولهم" الفارغة لتمتلى بحكمة المسلمين وعلومهم. ما نحن فيه مرحلة مؤقتة من الكساد والتراجع وبطالة العقل قبل الأيدى، أى تعطيل عطاء الإسلام للزمن. وهذه بداية الخطوة التى يريدونها، لكنها لم تكتمل بعد. إذن أماننا فرصة لإفسادها عليهم. إن العالم اتخذ من فشل المسلمين الأخير اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً دليلاً يبيناً على عدم صلاح الإسلام لقيادة المسلمين بل والعالم كله!

ومن هنا وجه أبناءنا إلى أحضان الغرب ليستمد منه ناسيا أن كل هذا ميراث إسلامي مسلوب. وبدا طريق التبعية رائجًا وناجحًا، وله مردود قصير الأجل. المهم أن الختم النهائي في ورقة العلم والتحرك والتاريخ بحرف لاتيني، وبمسمًى أعجمي!

في الثقافة المعمارية لا تتهاوى الأبنية مرة واحدة، بل هناك تنبيهات يراها صاحب الملك قبل الترميم. في الأندلس قبل اكتمال احتلالها تهاوت مدن وأرسلت النذير للأخري لتأخذ الحيطه والحذر. لكن هذا لم يحدث! الغرب لم يعرف الإسلام بعد بالصورة الكاملة الصحيحة. فمنذ ظهوره واتساع رقعة وهم يتخذون منه موقفًا عداثيًا رسخ في عقول أجيالهم رغم أنه المرشح الوحيد لوراثته الإنسان الغربى والشرقى والمناسب لقيادة البشرية في هذا العالم المادى الخاسر. خسارة العالم كل يوم تتزايد وتتجدد بخسارة المسلمين لمواقعهم وخسارة الشعوب لعطاء الإسلام. خلف جبال البرانس أعطت الأندلس الإسلامية الكثير، وذلك بشهادة مؤرخيهم بأن الغرب كان يمكن أن يكون أحسن حالًا لو تم دمج بـ "الإمبراطورية الإسلامية القوية" في أوائل العصور الوسطى. يكفيها الإدريسي والخازن، اللذان سبقا نيوتن في القول بالجاذبية، وابن النفيس، الذى سبق هارفى في معرفة الدورة الدموية، وابن مسكويه، الذى سبق داروين في القول بالتطور، وابن خلدون، الذى سبق لامارك في القول بأثر البيئة على الأحياء. أضف إلى ذلك التأثير الأخلاقى والاجتماعى والقيم الرشيدة والنبوغ العمرانى والفلكى. إن كانت تلك الأمة قد كتب لها الغرب قصر الأجل في العطاء، فكيف لو امتد؟ روى الإمام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لينقض الإسلام عروة عروة. فكلما انتقضت عروة يشبث الناس بالتى تليها. وأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن نقضًا الصلاة". أدرك الغرب جيدًا هذا المعنى، فكان إسقاط الخلافة في كل مرحلة هى بغيتهم: بداية من سقوط الخلافة العباسية والأندلسية، وآخرهن الخلافة العثمانية. لم تكن جهود محاربتهم أحادية. لذلك ما إن تفتز جهة كافرة من العالم حتى تنشط أخرى. بعدما فازوا بالأندلس قامت الراهبة الأرثوذكسية في الشرق الأوروبى هى الأخرى وحاربت مسلمى القوقاز والبلقان وقطعت عنهم أوامر الصلة المتينة بالدولة العثمانية وسقطت الخلافة. وأيد ربع مسلمى هذه الأمة في أقل من نصف قرن! وفي تلك الأثناء ظهرت "الصهيونية"، التى اعتبرت اليهود قومية بدون وطن وحمّلت أمم العالم مسئولية إيجاد هذا الوطن، واختارت فلسطين لذلك.

وحركت مجربات التاريخ المادى بعضا رؤوس أموالها ضاغطة بكل ما لديها من قوة على أمة الإسلام لتناسبها مع الواقع الروحى والإنسانى المرفوض عندهم! ففى فرنسا "إحدى رؤوس

الإرهاب بالقرن العشرين والحالي" عام ١٩٨١ تمكن اليهود من إصدار قانون ينص على عدم التشهير بأى شخص بسبب انتمائه إلى عرق معين أو أمة أو جنس أو دين. أى أن من يكشف حقائق الصهيونية يتهم باللامسامية! وهذا لا يطبق مع المسلمين إلى اليوم! وظهرت محاولات إسلامية جادة مخلصة للنهوض بالمجتمع الإسلامى مرة ثانية بعد الانفتاح الغربى المزيف، وحوربت جميعها. ومنها من نجح في التغيير البسيط، ومنها من لم يكتب له البقاء في ظل التناقض والدونية التى ملأت المجتمعات الإسلامية. لذلك ليس من الصدق أن أصنف أمتى بأنها متخلفة كما يقول الغرب ولا أن أدرجها تحت مسمى "العالم الثالث". التصنيف ينبع من الحقيقة. وما تخلفت أقوام وأمم إلا لأن دولا أخرى كانت تنمو على حسابها. فدول العالم الثالث تخلفت نتيجة لاستغلال وسلب العالم الأول. الأمة الإسلامية تحتاج اليوم لجيل أتقى عن مساكنة الدنيا من أجل الآخرة، جيل يعلم أن تقصيره في الجهاد أضاع انتصارات أمتة وأوقفها، فصار واجبا عليه تغيير القيادة الإنسانية المادية الحالية لأن سنة الله في أرضه أن يحكم هذا الدين. فالعقيدة الإسلامية عقيدة استعلاء تجبر المسلم أن يكون عزيزا واثقا مجتذبا في غير ابتداع. فأمته خير أمة أخرجت للناس، ويجب أن تكون خير أمة تقود.

إن إنكار فضائل الغرب مضیعة للوقت وطمس لمعالم الطريق. إن في الغرب عيوباً قاتلة، ولكن فيه محاسن جمة من ينكرها فكأنها يضع يده على عينه في عز ظهيرة الصيف كيلا ترى نور الشمس الباهر. ولا يضير الشمس أن يحجب إنسان عن نفسه ضياءها الغامر بل إنه هو المضير. ولا بد أن نستفيد من تجربة الغرب ونأخذ منه محاسنه وعلومه وفنونه ونظافته ونظامه وتوثب عقله وفكره واعتزازه بنفسه وحرصه على استقلاله ونشاطه وحيويته وتخطيطه ويقظته لخصومه لا يغفل عنهم طرفه عين بل يضع الخطط لمواجهة لعشرات السنين القادمة... وهكذا. ونحن حين نفعل هذا إنما نستعيد فضائل ديننا. ومن ثم يمكننا، متى ما أخلصنا النية وصفينا العزم من الغش والدخل، أن نسامت الغريين ثم أن نتفوق عليهم لأنهم إذا كانوا يعتمدون في تقدمهم على العقل وحده فنحن نعلم على العقل وعلى الدين معاً، وإذا كانوا يعملون من أجل الدنيا وحدها فنحن نعمل من أجل الدنيا والآخرة جميعاً، مما من شأنه أن يجعل اتباعنا أقوى وأكثر حيوية وأطول بالاً وأعظم ثماراً. أما إن لم نستطع فلنضعن في أفواهنا حذاء قدياً ونسكت بل نخرس ولا نقول بعد اليوم: إنا مسلمون نسير على سنة محمد. فمحمد لم ينجب أبناء كسالى كذايين يقولون ما لا يفعلون ويخونون أنفسهم ولا يستحون ويهملون عقولهم في تحد صريح للقرآن والحديث ثم يظنون أنهم متدينون.

هذا، وما دامت كارلا باور تكثر من الحديث عن الجنس اللطيف وحقوق النساء في الحضارة الغربية فينبغي أن نعرض هنا لما يقوله ديننا في هذا الموضوع. وعلى المسلم، سواء كان يعيش في بلد إسلامي أو في الغرب، أن يلتزم بقيم دينه وفاء منه أولاً لهذا الدين، وثانياً لكيلا يعطى أحداً من غير المسلمين فرصة للإساءة إلى الإسلام ظلماً. فما هو موقف الإسلام من المرأة؟ من المعروف مثلاً أن بعض العرب في الجاهلية كانوا يثدّون بناتهم، أى يقتلونهن صغيرات، خوفاً من الفقر والعار. وفي مواضع متعددة من القرآن الكريم آيات تتناول هذا الموضوع وتنتهى عنه وتجرمه وتتساءل بأى ذنب تُقتل تلك المسكينة التى لا حول لها ولا طول وتُحرّم حق الحياة، وتسفّه العقلية المتخلفة التى تُقدّم على ذلك السلوك الوحشى الممجى، وتصف ما كان يعترى بعض العرب من الشعور بالعار حين يسمع أن زوجته قد أنجبت له بنتاً، بما يعنى أن تلك الظاهرة كانت متجذرة في بعض القبائل العربية قبل الإسلام، فتزل القرآن يحذر من هذا الفعل الإجرامى الأثم: "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"، "وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ" * "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ" * "يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"، "أَمْ اتَّخَذَ عَمَّا يُخْلَقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ" * "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ" * "أَوْ مَنْ يَشَاءُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ". وفي الحديث الشريف: "مَنْ وَلَدَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يَشْهَدْهَا وَلَمْ يَهْنَأْ وَلَمْ يُوَثِّرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ". وفي الحديث أيضاً أن من وأد بنتاً دخل النار. وهو ما يدل على بشاعة تلك الجريمة اللاإنسانية من جهة، وعلى رحمة الإسلام بالبنات وعطفه عليهن واحترامه لهن وعدم التفرقة بينهن وبين الأولاد الذكور من ناحية أخرى.

وبالمناسبة ليس العرب هم الأمة الوحيدة التى عرفت الوأد، بل عرفته أمم أخرى. وهو حتى الآن لا يزال يمارس في أماكن مختلفة من العالم. وفي موسوعة "الويكيبيديا" مثلاً أن الإجهاض بسبب جنس الجنين (وأد البنات) ما زال يمارس حتى الآن في مناطق تقوم فيها العادات والتقاليد والثقافة المحلية بتفضيل الذكور على الإناث كما هو الحال في بعض المناطق من جمهورية الصين الشعبية وكوريا وتايوان وباكستان والهند والفوقاز. وتضيف "الويكيبيديا" أن وأد البنات والأطفال عموماً ما زال يحدث الآن بالصين مثلاً بسبب تحديد النسل أو الفقر، وكذلك في المجتمعات المحافظة حين لا يكون

الحمل شرعياً. بل إن الإجهاض الأنثوى قد انتشر الآن في بعض المناطق في العالم بسبب القدرة على معرفة نوع الجنين قبل الولادة من خلال الأشعة التلغرافية فوق الصوتية.

كذلك لا يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى في الاحتفال بالمولود، أى الحقيقة، بل كلا المولودين مرحّب بهما دون أى تمييز، ويقام لهما نفس الاحتفال دون زيادة أو نقصان. ومن الأمور التى تلفت النظر أن النبى محمد لم يعيش له أى طفل ذكر. وقد لفت هذا انتباه القرشيين الكفار فعبروه بذلك ونيزوه بـ "الأبتر"، أى المقطوع الذيل. يقصدون أنه لن يبقى له ذكر في الدنيا لأنه ليس له أولاد ذكور يحملون اسمه، بل سينقطع ذكره بمجرد موته. إلا أن القرآن قد رد على ذلك التصور الجاهلى المتخلف بأن من يكره الرسول ويتمسك بتلك المفاهيم الجاهلية المهترئة إنما هو "الأبتر"، بما يدل على أن الأمر لا يعتمد على إنجاب الذكور أو الإناث، إذ لا فرق في الإسلام بين النوعين كما رأينا، بل على الإنجازات التى يقدمها الشخص لأسرته ووطنه والإنسانية جمعاء. قال تعالى: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ".

وفي الإسلام أنه إذا ربي الأب ثلاث بنات أو بنتين أو حتى بتاً واحدة وزوجها فإنه يدخل الجنة. وهذا يدل على مدى اهتمام الإسلام بالأنثى ورحتها والعطف عليها وإيلائها وضعاً متميزاً لما فيها من ضعف بالنسبة إلى الذكر بوجه عام. ومن ذلك أيضاً أن أحد الصحابة جاء النبى وسأله: أى الناس أحق بصحبتي يا رسول الله؟ فقال له: أمك. فأعاد القول ثلاث مرات، وفي كل مرة كان الجواب هو "أمك"، إلى أن جاءت الرابعة، فكان الجواب في هذه المرة فقط أن أحق الناس بصحبته هو أبوه. ويؤكد هذا الموقف الأثر المشهور الذى يقول إن "الجنة تحت أقدام الأمهات"، وهى عبارة لها مغزاها الواضح العظيم.

وفي الزواج لا يصح أن تُكره الفتاة على الزواج عن لا تحب، وليس من حق أبيها ولا أمها ولا أى شخص آخر قرّضه عليها مهما تكن الظروف. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع: "أشيروا على النساء في أنفسهن. فقال (أحد الصحابة): إن البكر تستحى يا رسول الله. قال: الثيب تُعرب عن نفسها بلسانها، والبكر رضاهاً صماتها". وفي الحديث أيضاً: "لا تُنكح البكر حتى تُستأذن، ولا الثيب حتى تُستأمر. فقيل: يا رسول الله، كيف إذن؟ قال: إذا سكّكت". ومعنى الحديث واضح شديد الوضوح، وهو أن زواج الفتيات أمر خاص بهن في المقام الأول، فلا بد من استشارتهن وعدم تزويجهن من غير إذنهن. وليس معنى تفسير سكوت الفتاة في هذا السياق برضاها عن الزواج أنه ينبغي

تفسيره في كل الأحوال على هذا النحو، فقد يكون سكوت الفتاة في بيثة أخرى لونا من الخوف أو الخجل من الرفض الواضح. ومن ثم كان لابد من مراعاة السياق في كل حالة، أما الحديث الشريف فيتحدث عما كان معروفاً عن نفسية الفتاة آنذاك. وفي البيثة المصرية الآن صارت الفتاة في معظم الحالات تعبر عن رأيها في هذا الموقف بكثير من الشجاعة، وبخاصة بينها وبين أمها أو أختها مثلاً. وكان الرسول أول من طبق هذا المبدأ مع بناته جميعاً، فلم يحدث أن فرض على أيتها زوجاً لا تحبه. وقد وَقَعَ على أيامه صلى الله عليه وسلم أن "جاءت فتاة إلى عائشة فقالت: إن أبى رَوَّجنى ابن أخيه ليرفع من خَيسِيَّتِهِ، وإنى كرهت ذلك. قالت: اقعدى حتى يجيىء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاذكرى ذلك له. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك له، فأرسل إلى أبيها، فجاء أبوها وجعل الأمر إليها. فلما رأت أن الأمر يُجْعَلُ إليها قالت: إني قد أجزْتُ ما صنع أبى. إني إنما أردت أن أعلم هل للنساء من الأمر شيء أم لا".

وهنا يجب القول بأن الإسلام يعطى المرأة الحق في مَهْرٍ يدفعه لها الرجل حتى تصح أن تكون زوجة له، وهذا يختلف عن النظام الذى تعرفه أوربا مثلاً، والذى بمتقاضه تَحْمِلُ الزوجة إلى بيت الزوجية مبلغاً من المال حسب مقدرتها أو مقدرة أمرتها المالية. ومن الممكن، إذا لم يكن الزوج المسلم غنياً، أن يقدِّم لزواجه مهراً في حدود طاقته دون تثريب عليه. وقد قال الرسول ذات مرة لأحد أصحابه حين رآه عازماً على الزواج دون أن يكون قادراً على دفع مهر ذى قيمة: "التَّيْسُ ولو خاتماً من حديد". وقال لصحابي آخر يعانى من ضيق ذات اليد، وقد أتى إليه يريد أن يزوجه امرأة معينة: "زَوِّجْكِها بما معك من القرآن". كما أن الإسلام يوجب على الزوج الإنفاق على زوجته وعلى أبنائه، فضلاً عن دفع الديات والغرامات، على حين تُعْفَى هى تماماً من المشاركة في النفقات الأسرية، اللهم إلا إذا شاءت ذلك من تلقاء نفسها. ويظل مأها مكتوباً باسمها تنصرف فيه بحرية تامة دون أن يكون للزوج حق التدخل فيما تفعل.

وفي الميراث يخصص الإسلام للمرأة نصيباً مما يتركه الأب أو الأم وبعض الأقارب الآخرين رغم أنها لا تتحمل شيئاً من تكاليف الإنفاق كما رأينا. ويظن بعض الناس أن المرأة ترث دائماً نصف ميراث الرجل، وهذا غير صحيح على إطلاقه، بل هو غير صحيح إلا في أربع حالات فقط في مقابل حالات كثيرة ترث فيها المرأة أكثر مما يرث الرجل. وهذه هى الحالات الأربع: عند وجود أولاد للمتوفى: ذكوراً وإناثاً لقوله تعالى: "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ"، وعند

التوارث بين الزوجين إذ يرث الزوج من زوجته ضِعْف ما ترثه هي منه لقوله تعالى "وَلَكُمْ يَصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ". كما يأخذ والد المتوفى ضِعْف الوالدة إذا لم يكن لابنها وارث، فيأخذ الأب الثلثين وزوجته الثلث. وبالمثل يأخذ والد المتوفى ضعف ما تأخذه الوالدة إذا كان عند ابنها المتوفى ابنة واحدة، إذ للبت النصف، بينما تأخذ الأم السدس، ويأخذ الأب السدس، والباقي تعصيباً.

وفي المقابل نجد أن الإسلام قد وهب المرأة في كثير من الأحوال من الميراث مثل الرجل: في حالة وجود أخ وأخت لأم في إرثهما من أخيهما إذا لم يكن له أصل من الذكور ولا فرع وارث، فلكل منهما السدس. وإذا توفى الرجل، وكان له أكثر من اثنين من الإخوة أو الأخوات، فإنهم يأخذون الثلث بالتساوي. وفيما بين الأب والأم في إرثهما من ولدهما إن كان له ولد أو بتان فصاعداً، ففي هذه الحالة "لَأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ" (النساء / ١١)... بالإضافة إلى حالات ست أخرى مشابهة. وهناك حالات خمس أعطى الشرع فيها المرأة أكثر مما أعطى الرجل، وحالات خمس أخرى ترث فيها المرأة، ولا يرث الرجل شيئاً، وهو ما يجده القارئ مفصلاً في كتب الميراث. وعلى هذا فيما يتردد على ألسنة الناس من أن الإسلام يعطى المرأة من الميراث دائماً نصف ما يعطيه الرجل هو كلام غير صحيح. وعلى الناحية الأخرى نجد أن المرأة في كثير من الحضارات تُحرَّم من الميراث تمام الحرمان. ومن المعروف أن المرأة تتعرض للضرب في كل حضارات العالم منذ أقدم العصور حتى الآن بما فيها الدول المتقدمة ثقافياً وصناعياً واقتصادياً كأمريكا وفرنسا وبريطانيا، مثلها في ذلك مثل دول العالم الثالث سواء بسواء، رغم إيقاف العمل بالقانون الذي كان يبيح للرجل في أمريكا وبريطانيا مثلاً أن يضرب زوجته لتأديبها. ورغم أن هناك زوجات كثيرات يضربن أزواجهن لأن هذه المسألة الأخيرة لا تشكل ظاهرة. فما موقف الإسلام من قضية ضرب الرجل لزوجته؟ بوجه عام لا يحب الإسلام أن يضرب الرجل زوجته أو يهينها. وقد شدد الرسول في ذلك إذ يقول: "لا يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ ثُمَّ يَجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ". ولم يحدث قط أن ضرب صلى الله عليه وسلم أياً من زوجاته. بل إنه لم يضرب أية خادمة عنده. وأقصى ما قاله لإحداهن حين أخرجه عن بعض جُلْمه إنه لولا خوفه من الله وسؤاله له يوم القيامة لأوجعها بالسواك الذي في يده. فعن أم سلمة زوجته رضي الله عنها: "دعا النبي

صلى الله عليه وسلم وصيفة له، فأبطأت عليه، فقال: لولا مخافة اللوم يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك".

وفي القرآن آية يخطئ بعض الناس فيظنون أنها توجب ضرب النساء لأنها تستخدم فعل الأمر، جاهلين أن الأمر كثيرا ما ينصرف إلى أغراض بلاغية أخرى غير الإيجاب، فيكون للإباحة أو تقرير الواقع مثلا. وعلى أية حال هناك طائفة من النساء طُبِعْنَ على الشكاسة والتمرد والمعصية، فماذا يفعل الرجل مع الواحدة من هؤلاء؟ يبين القرآن أنه ينبغي أن يبدأ بعظها، فإذا لم تستجب فيمكنه أن يهملها في الفراش، فإذا استمرت في الشكاسة والعصيان فهل هناك ما يضمن ألا تفلت منه أعصابه فيضربها، وهو المسؤول عن البيت؟ لكن من الممكن جدا أن ترفض الزوجة أن يضربها زوجها، وهذا حقها. وفي هذه الحالة إما أن تطيعه وتنبذ أسلوب العصيان والتمرد ويعود الصفاء إلى الحياة الزوجية، وإما أن تطلب منه تسريحها بإحسان وتخلع نفسها منه، ويذهب كل منهما إلى حال سبيله يجرب حظّه مع شريك آخر، إذ لا يصلح أن تمضى سفينة الحياة الزوجية في مثل هذا البحر المضطرب. قال تعالى: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِأَنفُسِهِمْ وَمِنَ أَمْوَالِهِمُ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ نُسُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِئِدَا إِصْلَاحًا يَوْفِقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا"، "وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا".

أما القول بأنه "Selon le Coran, les femmes doivent être frappées, battues ou corrigées, c'est au choix"، حسبا جاء في عنوان مقال منشور على المشباك (الإنترنت)، فإنه غير صحيح، إذ إن صيغة الأمر في الآية ليست للوجوب كما وضحتنا، بل مجرد مقترحات يمكن أن يأخذ بها الزوج أو لا يأخذ، وتقبلها الزوجة أو ترفضها، حسب طبيعة كل حالة على حدة. كما أن قول كاتب المقال إن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها أدنى من الرجل بسبب "الخطيئة الأصلية" هو كلام عار عن الصواب جملة وتفصيلا، إذ ليست في الإسلام خطيئة أصلية أساسا على عكس الحال في اليهودية والنصرانية، علاوة على أن الأكل من الشجرة المحرمة في الجنة لا ينسب في الإسلام إلى حواء دون آدم بل إلى الاثنين جميعا، وإن أضيف نسيان التحذير الإلهي من تذوق الشجرة رغم ذلك إلى "آدم"، الذي

يمكن أن يكون المقصود به الجنس البشرى كله لا آدم وحده. ليس ذلك فقط، بل إن القرآن لَيُنصّ على أن ذلك الخطأ قد تمت مغفرته وانتهى الأمر إثر توبة الاثنين مما فعلا. أما أن المرأة أدنى من الرجل فالاثنتان متساويان في الإنسانية، وإن كانت لكل منهما خصائص تميزه عن الآخر رغم اشتراكهما في تلك الإنسانية. كما أن قِوامة الأسرة، أى رئاستها، هى من حق الرجل، وإن لم يمنع أن تكون بعض النساء أقوى من الرجل شخصية، إلا أن القاعدة العامة لا ينقضها استثناء هنا أو هناك. وبمناسبة ما نحن فيه نجد د. نوال السعداوى، في كتابها: "الأنثى هى الأصل"، تورد رأى فرويد وعدد كبير من علماء النفس الغربيين في هذا الموضوع يرون أن المرأة مازوكية بطبيعتها، أى تحب الإيلام والإذلال. بل إن المرأة نفسها، كما تقول هى، قد تنخدع وتظن أنها تحب الإيلام والإذلال، وتقع نفسها بذلك حتى تقتنع أو تكاد.

فهذا هو الإسلام من واقع نصوصه. أما ما عداه فهو ثقافة البيئة التى أتى منها الشخص وليست ثقافة الإسلام، الذى يسىء إليه أحيانا بعض المسلمين كما يسىء إليه غير المسلمين، وربما أشد منهم أحيانا، من خلال خلطهم عاداتهم وتقاليدهم به والزعم بأنها هى الإسلام رغم ما تتسم به من تخلف ولاإنسانية. فإذا عدنا من جولتنا إلى أكرم ندوى ومترجمته وما كتبه عنه وعن أسرته ألفتنا زوجته سيدة غير متعلمة ولا تعرف الإنجليزية رغم أنها تعيش في أكسفورد ورغم أن بناتها يتعلمن في المدارس والجامعات البريطانية ويتحدثن لغة جون بُل بطلاقة. بل إن إحدى بناتها أخبرت كارلا باور خلال زيارتها الأولى لهم في بيتهم بأكسفورد أن أمها لا تتابع ما يقوله الأب في محاضراته ولا تفهم منها شيئا لأنها بالإنجليزية. وقد كنت أنتظر من الشيخ، وهذا موقفه من المرأة واجتهاده في تجلية مكانتها المتقدمة في الحضارة الإسلامية وإلقاؤه الضوء على مشاركتها الرجل في التعلم والتعليم حتى إنه هو نفسه قد استطاع أن يترجم للنساء المحدثات في التاريخ الإسلامى في عشرات المجلدات كما قرأت، وإن كانت تلك المجلدات لا تزال كلها تقريبا مخطوطة، أن تكون أم أولاده أحسن ثقافة من هذا. لكن توقعى ضاع في الهواء. ولا أدري لماذا لم يأخذ الدكتور بيدها فيعلمها الإنجليزية ويرتقى بمستواها الثقافى حتى تكون على الأقل مرآة تعكس صورة المرأة المسلمة التى يلح عليها دائما، فيأخذ الغربيون ما يقوله في هذا الصدد بمزيد من الثقة والتصديق والاطمئنان، ودعنا من أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. الواقع أننى لا أستطيع أن أفهم موقفه هذا. لقد قرأت أن زوجته تؤدى عملا تجاريا نافعا، لكن كان الأمر يكون أفضل كثيرا لو تعلمت بعد زواجها بعض ما كان قد فاتها تعلمه في صباها وشبابها قبل

الزواج، على الأقل: كى تكون قريبة من عقله وتشاركه اهتماماته وتبادل معه الحديث فيها ولا تكون هناك فجوة ضخمة بينهما. لكنه، فيما يتعلق ببناته، قد علمهن كلهن تعليما جامعا وترك لهن الحرية فى الزواج فلم يفرض عليهن من يريد.

وقد دار حوار بين بنت الشيخ الكبرى والمؤلفة حول بعض الأفكار التى رأتا أن الإسلام لا يتفق فيها والحضارة الغربية: فعلى سبيل المثال كانت كارلا باور ترى أن جسدها هو ملك لها، أما بنت الشيخ فقالت إنه ملك لله. والواقع أن كلا الرأيين صحيح، فمن جهة نجد أن الله هو الذى أعطانا، وبين لنا كيف نعامله فلا نزنى مثلا ولا نفرط فى الطعام والشراب أو نحرمه الحق فى الغذاء الكافى، ونُعنى به إذا ما أصابه مرض... إلخ. والمسلم مطالب بمراعاة أوامر الله ونواهيه بشأنه. لكن هذا لا ينبغى أنه جسد الشخص وليس جسد أحد آخر. ولو كان الله لا يريد لنا الشعور بأن جسدنا يتمى إلينا ويخصنا فلم خلقنا أصلا؟ لكنى لست مع الغربيين فى أن الجسد، ما دام يخصنا، فمن حقنا أن نصنع به ما نشاء. نعم، المسلم يستطيع من الناحية الواقعية أن يصنع بجسده ما يريد مثل الغربى سواء بسواء، لكنه من الناحية الأخلاقية لا ينبغى له أن يخرج على أوامر الدين ونواهيه. ومن ثم لا يصح أن يزنى الإنسان أو يلوط أو يشرب الخمر أو يرهق نفسه أكثر مما يطيق فيجوع نفسه أو لا يأخذ كفايته من النوم مثلا. أما الغربى فإنه لا يؤمن بالله ولا يضع أوامر الله ونواهيه فى اعتباره على الإطلاق، وأما المتدينون فى الغرب، وهم قليلون، فإن تدخل الدين فى حياتهم لا يبلغ الوضع الذى نعرفه فى الإسلام. كذلك فالغربى، كما تقول الكاتبة، يضع فى ذهنه أنه صاحب مصير نفسه. وهو ما اختلفت فيه السيدتان. وأنا لست مع الصحفية الأمريكية. لا أقصد ما أعتقد من الإيذان بأن الله هو المتحكم فى كل شىء وأنه ما من شىء فى الوجود إلا وهو سبحانه وتعالى خالقه، وما من شىء آتبه أو أتركه إلا وقد شاء المولى عز وجل، وإن لم يمنع هذا فى نفس الوقت أن تكون لى مشيئى الصغيرة المحدودة داخل تلك المشيئة التى شاءت أن تكون لى أنا أيضا مشيئى الخاصة منحة منها وتفضلا وكرما. بل لا أراعى المؤلفة على عقيدتها بناء على أن الإنسان، مهما أوتى من القوة واستقلال الإرادة والعلم والتخطيط والسلطان، لا يستطيع التحكم فى كل شىء يخصه أو يخص غيره. ومن جهة أخرى فإنى قريب جدا من الشيخ، الذى يرى الله فى كل شىء حتى فى كوب الشاي، إذ هو خالق الشمس والقمر والماء والهواء والتراب وغير ذلك مما لا يمكن أن ينمو الشاي بدون، فضلا عن أنه عز وجل هو خالق نبات الشاي نفسه. وإنى لأشكره سبحانه على كل شىء أصنعه بما فى ذلك اغتسالى وارتدائى ملابسى وحلقى ذقنى ووضعى بعض قطرات الكولونيا تحت

إيطى وعلى خديّ وانتهائى من قضاء الحاجة وخروجى للتمشية ليلا وانتهائى من وضع أسئلة الامتحان وطبعها وفروغى من تصحيح إجابات الطلاب عليها، وإن كنت لا أردد دائما الأذكار المحفوظة بل أعبر عن مشاعرى بما يحضرنى من كلام بسيط أخطب به الله مباشرة كأنى أكلم صديقا لصيقا.

نعم لست مع الصحفية الأمريكية فيما ترى، وأجد أن الواقع يوافقنى تماما فيما أقول. فمثلا فى الامتحان المدرسى هل التلميذ هو صاحب مصيره بالكلية؟ ألا يتوقف الأمر، إلى جانب إرادته الخاصة، على لوائح المدرسة، وعلى الوقت الذى كان متاحا له للاستذكار، وعلى البيئة التى تعلو من شأن العلم أو تحط من قدره فتستحثه إلى التعلم أو تنفّره منه، وعلى صحته أو مرضه، وعلى ظروفه العاطفية، وعلى ذكائه أو غيائه، وعلى أسرته ووضعها المادى والاجتماعى والعلمى، وعلى زملائه، وعلى أساتذته ومستوى معرفتهم ومهارتهم فى التدريس، وعلى الدولة التى ينتمى إليها، وعلى الكتب التى قرأها، وعلى قدرته فى العكوف على العمل والتركيز فيه... إلخ مما ليس فى يده أو ليس فى يده تماما على الأقل؟ إن الإنسان ليس إلهًا، بل هو جُزْءٌ ضئيل فى الكون، وهو يتعرض فى كل لحظة إلى تأثيرات الأشياء والقوانين والناس من حوله مثلما يتعرضون هم إلى تأثيرات آتية منه ومن الأشياء والقوانين إليهم. الله وحده هو صاحب كل مصير، أما نحن فبكل تأكيد لنا إرادة ورأى وموقف يختلف من شخص لآخر، لكنه ليس العامل الوحيد فى توجيه حياتنا. أنا أؤمن بحرية الإرادة، لكن ليس على نحو مطلق، إذ هناك إرادات الآخرين، والأشياء والقوانين المساعدة والمعوقة فى ذات الوقت. ومن جماع هذا كله وتفاعل هذا كله بعضه مع بعض يتكون مصير الشخص. فهو إذن له دخل فى هذا المصير، لكنه دخل محدود. بل إن الإرادة الإنسانية التى تتفاعل مع تلك العوامل المذكورة تتأثر بدورها بتلك العوامل مثلما تؤثر هى فيها. فكيف يغفل الغربى عن هذه البديهة الواضحة وضوح الشمس سواء كان مؤمنا بوجود الله أو لا؟ ومع ذلك فهذا النصيب المحدود للإرادة البشرية، عن طريق التعاون بين إرادات البشر، يثمر من الإنجازات كل عجيبٍ شاذٍ عما نراه حولنا فى كل المجالات.

وهناك أيضا ما قالته كارلا باور عن التنافس الحاد والرغبة فى التفوق اللذين تقوم عليهما الثقافة الغربية والأمريكية بالذات مما لم يلق رضا أكرم ندوى. وأنا معها فيما قالت، وأرى أن هذا هو أحد أسس الحضارة. فبدون التنافس والرغبة فى التفوق لا أدرى كيف يمكن أن ترتقى البشرية. وفى القرآن الكريم: "فاستبقوا الخيرات". وأى خيرات أفضل من خيرات الإبداع والاكتشاف والعمل على تسهيل الحياة

وإشاعة أسباب الرضا والسرور وتخفيف الويلات والآلام؟ إن الطبيب الذى يسهر لعلاج مريض أفضل عند الله عن يقضى ليله يتفعل. ومثل الطبيب فى ذلك العالم فى معمله يجرى التجارب، والصانع أمام آتته ينتج ما يحتاجه الناس ويجوده ويتقنه، ورب البيت فى مطبخها تعد الطعام اللذيذ لزوجها وأولادها، والمدرس فى الفصل ينور أدمغة تلاميذه، والشرطى فى الشارع يراقب استتباب الأمن ويخيف المجرمين واللصوص والقذلة والمشاغبين المدمرين ويمنعهم من ارتكاب جرائمهم، والبائع فى دكانه يوفر حاجات الخلق من طعام وشراب وملابس وأدوات منزلية، ومشرف المكتبة ينظم الكتب ويعاون القراء على العثور على ما يريدونه منها... إلخ. لقد أودع الله النفوس البشرية الرغبة فى التنافس والتفوق على الآخرين والسعادة بذلك، فمن غير المعقول أن يغضبه سبحانه ذلك الميل ويؤثر عليه الصمت والسكون. "سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ"، "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ". ومن حق المفلح الذى أنجز شيئا أن يفرح بإنجازه، على ألا ينسى شكر ربه على هذا التوفيق. أما القول بأن الشاء على الأبناء حين يتفوقون هو إفساد لهم كما يقول د. ندوى فأغرق فى الوسوسة لا أوافق عليه. لقد كان الرسول يثنى على أى صحابى يتميز فى مجاله ويطلق عليه لقباً يدخل على قلبه السرور: عَمِلَ هَذَا فِى الْمِيدَانِ الْعَسْكَرِىِّ مَعَ خَالِدٍ، وَعَمِلَ فِى مِيدَانِ الْإِبْدَاعِ الشَّعْرِىِّ مَعَ حَسَّانَ، وَعَمِلَ فِى مِيدَانِ الْإِعْتِقَادِ مَعَ أَبِي بَكْرٍ... وهكذا. بل ما من عمل طيب إلا صورته القرآن والحديث تصويراً يدخل البهجة على قلب فاعليه. فلم تنتكب هذا بحجة أنه يفسد الأبناء؟

يقول الرسول على سبيل المثال فى خديجة عليها رضوان الله: "صَدَّقْتَنِي حِينَ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنَى بِهَا حِينَ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقْتُ مِنْهَا الْوَلَدَ"، ويقول فى أبى بكر: "لَوْ كُنْتُ مُتَخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَإِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ"، ويقول فى عمر: "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَفْرُقُ مِنْكَ يَا عُمَرُ"، ويقول لحسان بن ثابت يستحثه للرد على سباب شعراء المشركين: "أَهْجُهِمْ وَرُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ"، ويقول للنابغة الجعدي إعجاباً بشعره: "لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكَ"، ويقول فى عثمان: "إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَسْتَحْيِ مِنْ عُثْمَانَ"، ويقول فى على يومَ خيبر: "لَأَعْطِينَ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..." ادعوا علياً، ويقول فى بلال بن رباح لزوجه: "مَا حَدَّثَكَ بَلَاءٌ عَنْ فَقْدِ صَدَقَتِكَ، بَلَاءٌ لَا يَكْذِبُ، لَا تُغْضِي بَلَاءًا فَلَا يَقْبَلُ مِنْكَ عَمَلٌ مَا غَضِبَ عَلَيْكَ بَلَاءٌ". وفى السبطين الكريمين: "الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ..." إلخ. والإنسان ليس ملاكاً قد ملئ زمبركه ثم ترك يعمل الخير

ويتجنب الشر بهذه الطريقة إلى الأبد، بل هو لحم ودم وأعصاب، وملل وانتعاش، وبأس وأمل، وخوف وطمئنان، وهو يحتاج إذا ما ركب الملل أو ضاقت كوة رجائه أن نشجعه ونحفزه على عمل الخير. وأكرم ندوى ذاته خير مثال، فلا شك أنه كان يعلم أن السيدة باور في كتابها الخالي لا بد أن تثني عليه في بعض المواقف على الأقل، وهو ما فعلته. فلماذا لم يقل لها: إياك أن تثني عليّ. بل لقد أبرز هو نفسه من أمور حياته ما يبعث على الافتخار كحفظه أسانيد الحديث مثلاً، وذكره مزية الصبر التي يتحلى بها وكيف اكتسبها بالمران حتى إنه، كما يقول، ليجتاح إلى بذل جهده كي يغضب.

وعلى نفس الشاكلة أجدني أتفق مع الاحتفال بما يسمى بـ "أعياد الميلاد"، وأختلف مع من يحملون عليه. فأمّا أكرم ندوى فيقول إنه عبارة عن جرد حسابي بالأعوام التي مرت من عمر الإنسان، ولا معنى له. وقطاع كبير من المسلمين يراه مخالفة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليس للمسلمين سوى عيد الفطر وعيد الأضحى، فكيف نأتى نحن في آخر الزمان ونخترع عيد الميلاد؟ والحق أن الاحتفال بأعياد الميلاد ليس مجرد جرد حسابي للأعوام التي مرت من عمرنا، بل هي فرصة لشكر الله على نعمة الحياة التي وهبها لنا سبحانه وتعالى وعلى مرور عام جديد من عمرنا، ولانتزاع فرصة من بين أنياب الزمن الضنين للاجتماع والسمر والابستمتاع بالأكل والشرب والهدايا وبما إلى ذلك. والحياة صعبة على الناس جميعاً، والعقلاء هم من يبحثون عن أسباب السعادة فيها ولو بملقاط. وهذه متعة بريئة حلال زلال بلال ليس فيها ما يغضب الله ورسوله.

أما أن للمسلمين عيدين اثنين لا غير فهذا راد على من يحاولون أن يعيشوا الماضي الوثني وأيامه النحسات من القبور، وإلا فقد كان النبي مثلاً ينصح المسلمين ليلة الدخلة بالغناء للعروس. كما احتفل أهل المدينة به عليه السلام وهو داخل يثرب مهاجراً إليهم وعتّوا له، فلم ينكر عليهم. وبالمثل تقبل تقبلاً كريماً أن تحتفى بعودته من إحدى الغزوات امرأة نذرت أن تضرب له بالدف تعبيراً عن فرحتها برجوعه سالماً. وفي الإسلام احتفال بشيء قريب من هذا، وهو احتفال العقيقة عند ولادة طفل جديد، إذ يفرّق الطعام والمال على الفقراء والمساكين. وإذا كانت كلمة "عيد" تشير عند بعض المسلمين الحساسة فلنُسَمَّه: "يوم الميلاد" على طريقة كامل الشناوى حين ألف قصيدة جميلة خاطب فيها عيد ميلاده قائلاً: "عُدَّتْ يا يوم مولدى * عُدَّتْ يا أيها الشقى" جرياً على الترجمة الحرفية لاسم تلك المناسبة بالإنجليزية: "birthday". وكفى الله المسلمين شر النذور من أعياد الميلاد! إن الإسلام ليس دين النكد، بل دين الأفراح الحلال باعتدال! ومن هنا سرّنا أن يقيم د. ندوى احتفالاً لابنته حيناً أتمت حفظ

القرآن، وإلا فبالمنطق الآخر يمكننا أن نشير اعتراضاً من مثل "أليس الاحتفال بذلك مجرد جرد لإنجازات الشخص لا يفيد؟".

كذلك لا أرى مسوغاً لاعتراض د. ندوى على أن تصبغ ابنته الكبرى شعرها. ذلك أنه لم يجد أى نكير فى أن تقص المسلمة شعرها كما تصنع الغربية، فلم الاعتراض على تلوين الشعر ابتغاءً للتجديد وطرداً للملل؟ وما دام زوجها يحب هذا وهى تحبه، وليس فيه ضرر ولا إساءة إلى أحد فلم الاعتراض؟ والمضحك فى الأمر أن ابنته، حين لم تعجبها فتواه، ذهبت إلى شيخ آخر أفتاها بالإباحة، فصبغت شعرها بناء على ذلك التحليل. ومبعث الضحك فى الأمر أنها كانت تبحث عن مبرر لصبغ شعرها، الذى اعترفت تلوينه فى كل الأحوال، فلما لم تجده عند أبيها قصدت شيخاً آخر أعطاها ما تريد، ولو كان الشيخ الجديد قد أفتاها بفتوى والدها لكانت بحثت عن شيخ ثالث... وهكذا. أى أنها كانت ستصبغ شعرها أياً كان الوضع، وتريد فقط تبريراً خارجياً رغم أن الأمر لا يستحق كل هذه الضجة. وهى فى كل حال سوف تغطى شعرها، ومن ثم فصبغ الشعر سيكون لها ولزوجها فقط، وهو شئ يسرها ولا يضرها ولا يضر أحداً آخر غيرها، فضلاً عن أنه لا يوجد نص بتحريمه.

وبالعودة إلى أصل المسألة نقول إن بعض المسلمين يحبون التضييق والتأكيد على عباد الله، فيحرمون كل شئ دون مسوغ سوى مزاجهم السوداء. ولقد قال د. ندوى حسياً روت عنه الكاتبة الأمريكية: ما أسهل القول بأن هذا أو ذاك أو ذلك حرام! لكن العبرة بتسهيل الحياة لا بتعقيدها. فلم يا ترى نسى هذا المبدأ هنا؟ وقد وردت روايات بأن الرسول والصحابة كانوا يخضبون لحاهم، فلم لا تخضب المرأة شعرها؟ أم لا بد أن يكون لها لحية حتى تستطيع أن تمارس الخضاب؟ سهلة! نركب لها لحية حتى لا يغضب المنتطعون! وبالنسبة لقد أفنى بعض الفقهاء القدماء بأنه يحرم على المرأة التى تنبت لها لحية أن تزيّلها. إى والله! أرايتم إلى أى مدى بلغ تنطع المنتطعين؟ إن اللحية من علامات الذكورة، فلم ينكر هؤلاء على المرأة أن تتخلص من هذه السمة الذكورية؟ ألا يرددون دائماً بمناسبة وغير مناسبة حديث رسول الله القائل: لعن الله المشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال؟ أم تراهم يقولون بأن مشابة النساء للرجال مَرَضِيَّة بل حتمية متى جاءت على غير إرادة الشخص؟

المحدثات

"المحدثات" معجم كبير يقع في بضع عشرات من المجلدات حول النساء المسلمات اللاتي اشتغلن بالحديث الشريف ألفه د. أكرم ندوى حسيا ذكرت كارلا باور مؤلفة الكتاب الذى نحن بصددده، وإن لم يصدر منه سوى المجلد الأول. وقد استوقفنى ما قاله د. ندوى عن ظروف تأليف ذلك الكتاب الضخم لما فيه من عبر، إذ ذكرت كارلا باور أنه كان يراجع بعض الكتب القديمة، فلفت نظره كثرة النساء المحدثات، فقام فى خاطره أن يكتب فى هذا الموضوع متوقعا أن تكون ثمرة ذلك كتيبا صغيرا لن يضم أكثر من بضعة عشر اسما. بيد أنه مع التقلب والتغير ألغى الموضوع يتسع وينداح حتى بلغ كل تلك المجلدات بعد أن رجع إلى ما لا يحصى عددا من الكتب والمخطوطات باللغات التى يعرفها مستعينا فى الحصول على تلك الكتب والمخطوطات من مظاتها بالأصدقاء والعلماء فى عدد من بلاد العالم هنا وهناك. وأود أن أقف عند قوله إن كتابته فى ذلك الموضوع قد تمت بالمصادفة المحضة. فكم من الكتب والدراسات فى تاريخ التأليف لدى كل الأمم قد تمت بنفس الطريقة. بل قد يكون السبب كلمة طائفة ليست لها فى ذاتها قيمة كبيرة. ولو كان لى أن أستشهد بأمرى فإننى أتذكر مثلا كيف أن كتابى عن "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين"، الذى تسبب فى إيذاء لى لم يقع من قبل ولا من بعد، بدأ حين سمعت بمؤتمر سينعقد فى طنطا عام ١٩٨٦م عن مصطفى صادق الرافعى. ولست أدري الآن بالضبط سر اهتمامى آنذاك بقضية المعركة التى ثارت فى منتصف عشرينات القرن الماضى بين الرافعى وطه حسين بالذات. إلا أنى لم أتخيل أن أكتب أكثر من صفحات معدودات فى الموضوع، ومع هذا فقد انبسط الأمر فى يدى وأثمر كتابا كاملا مفصلا كان من نتيجته ما كان من أذى غليظ جلف وقع على سوف أشكو أصحابه إلى المولى يوم القيامة وأطلب منه أن يأخذ لى حتى كاملا منهم. والعجيب أننى لم أحضر المؤتمر أصلا رغم أنى كنت قد بعثت بالبحث إلى عميد كلية الآداب بطنطا، الذى كان يشرف على المؤتمر.

وقد كان هذا الكتاب باكورة أعمال أخرى لى عن الشعر الجاهلى وشعرائه، فأصدرت بعد ذلك مثلا كتابى عن النابغة الجعدي وكتابى عن عنتر بن شداد وترجمتى لبحث مرجليوث عن ذلك الشعر مع تعليقات غزيرة ودراسة موسعة لنظريته العجيبة التى بسطها فى ذلك البحث زاعما أن الجاهلية لم تكن تعرف شعرا البتة وأن كل ما ينسب إليها من أشعار وشعراء قد اخترع فى العصر العباسى اختراعا. وما أصدرته فى هذا الصدد أيضا كتابى: "فصول من ثقافة العرب قبل الإسلام"، ذلك الكتاب الذى ألفته

ليكون مرجعا بين يدي طلاب السنة الأولى بالقسم، وحدث قبل إصدار طبعته الثانية أن طالبا من طلاب الدراسات العليا لدينا قابلني وأنا داخل محاضرة الفرقة الأولى في هذا الموضوع قد استسمحتني الحضور مع الطلاب لأن أستاذ المادة التي أتى إلى الكلية لحضورها في السنة التمهيدية للماجستير اعتذر عن عدم الحضور في ذلك اليوم، ويريد أن يستفيد شيئا بدلا من عودته بخفي حنين. وما إن شرعت أتحدث في الموضوع حتى طلب الإذن بالكلام فأذنت له، فأشار فجأة إلى ما يقوله ابن سلام من أن شعر عاد وثمود هو شعر منحول لأن عادا وثمود قد استؤصلتا استئصالا كما ذكر القرآن المجيد، ومن ثم لم يكن هناك من يروي لنا أشعارهما. وأغلب الظن أنه إنما أراد أن يبرهن لي على اهتمامه العلمي وعلى أن لديه شيئا يستطيع أن يقوله في ذلك الموضوع.

لكنني بمجرد أن سمعت كلامه سألته: هل تظن أن هودا وصالحا رسولَي عاد وثمود قد أُهلِكَا ضمن من أُهلِكَ منهم؟ فقال: لا. فأتبعته بسؤال آخر: وهل تظن أن الله سبحانه قد أهلك من آمن بهما من عاد وثمود؟ قال: لا. فطلبت من معه مصحف من الطلاب أن يفتح على سورة "هود" لاحتوائها على أكبر قدر من تفاصيل تلك القصة. وأخذت المصحف المفتوح على الآيات المذكورة، فألفيتها تشير إلى أن الله قد نجى كلا من النبيين مع من آمن به. فقلت للطلاب إن بعض هؤلاء المؤمنين يمكن أن يكونوا قد رَوَوْا أشعار تلك القبيلتين، وإن كلام ابن سلام في ذلك لا حجة فيه، وإن لم تكن تلك الأشعار صحيحة بالضرورة. ثم مرت الأيام، ففكرت في سياق آخر أن أراجع ما قاله ابن سلام في مقدمة كتابه: "طبقات الشعراء" عن قضية الانتحال لأجد أن كثيرا جدا مما قال لا يثبت على محك البحث العلمي، فأثبت هذا في دراسة مفصلة لي بينت فيها الأسباب الوجيهة التي حملتني على مخالفة الرجل رغم تلقى الباحثين بوجه عام لما قاله بالقبول واعتباره مثالا على الاعتدال في تناول تلك القضية. وهذه الدراسة موجودة في الفصل الأول من كتابي: "الأدب العربي - نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة"، وعنوانه: "ابن سلام والشك في الشعر الجاهلي".

ومما ألفته من كتب لم يكن في ذهني أن أولفها كتابي عن بشار بن برد، وهو يزيد على ٤٠٠ صفحة، ويشتمل على مباحث لم تخاطبني من قبل على بال ولا تطرق، في حدود علمي، أحد إليها رغم أن المصادفة وحدها هي التي بعثتني على تأليفه. ذلك أنني، أثناء إعارتي إلى جامعة أم القرى بالطائف في النصف الأول من آخر عقود القرن العشرين، كنت أحاضر الطلاب في موضوع لا أذكره الآن، لكن من المؤكد ألا علاقة له بالشاعر العباسي، فاتهمه أحد الطلاب بالزندقة، فقلت: لا أظن أنه كان زنديقا،

إنما كان سفيها أو شيئا من هذا القبيل. ثم وجدت نفسى وقد أقبلت على ديوانه والمصادر والمراجع التى تناولته بالدراسة، ومنها بعض كتب المستشرقين، ووضعت كتابى الكبير عنه. وكان الطلاب فى المحاضرة المذكورة أيضا قد عرجوا على ابن المقفع ورموه بذات التهمة جراء معارضته القرآن الكريم طبقا لما هو شائع، فبينت لهم أن كتب الرجل التى بين أيدينا تخلو، فيما أعرف، من تلك الزندقة. ثم شرعت أبحث عن كتاب الطباطبائى الذى حققه المستشرق جويدى وأصدره فى أواخر عشرينات القرن العشرين، والذى يتهمه فيه بأنه قد عارض القرآن، واستشهد ببعض ما كتبه فى تلك المعارضة حسب دعواه. إلا أننى لم أجد سوى كتاب د. عبد اللطيف حمزة عن ابن المقفع، وفيه بعض النصوص القليلة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع. وظللت كلما واتتنى فرصة أسأل عن الكتاب عند الأصدقاء وفى المكتبات العامة وعلى المشباك، إلى أن أمدنى به صديق لم ألقه حتى اليوم لأنه يقيم منذ وقت طويل خارج البلاد، وكان أحد الأصدقاء المشتركين قد عرفنى به على البعد، فاستعنت به على توفير نسخة من الكتاب المومل إليه، فأقمت لى نسخة ضوئية بعثت إليها عن طريق البريد الإلكتروني من سويسرا، بالإضافة إلى حصولى من مصر على طبعة جديدة بتحقيق جديد غير تحقيق المستشرق جويدى المذكورة، مما حفزنى على دراسة تلك التهمة، فطلعتُ وجُلُتُ فى المصادر والمراجع القديمة والحديثة لآتهى إلى أن تهمة الزندقة لا تثبت على الكاتب الكبير، ووضعت بحثا طويلا من عشرات الصفحات فى هذه المسألة نشرت على المشباك أولا ثم أعدت نشره فى كتابى: "دراسات فى اللغة والأدب والدين"، الذى صدر منذ نحو مستين.

كذلك ما زلتُ أذكر تلك المحاضرة التى كنت ألقياها بين العصر والمغرب فى أحد الأيام من خريف سنة ١٩٨٩م على طلاب قسم اللغة العربية وآدابها فى كلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة حين قام طالبٌ ممن لا يكتفون بالسماع السلبي لما يقوله الأستاذ، فعلق على ما كنتُ كُتبتُه عن الدكتور طه حسين فى كتابى: "معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين" قائلا: يبدو لى أنك قد ظلمت الدكتور طه فى اتهامك إياه بأنه أخذ نظريته التى تشكك فى الشعر الجاهلى وشعراته من المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث. وكعادتى فى مثل تلك الظروف توقفت قليلا وأنا أبتسم للطلاب قبل أن أرد عليه بما يشبه الإلهام: غريبة! كيف فاتنى أن أرجع لما كتبه الدكتور طه فى كتابه "قادة الفكر" عن الشاعر الإغريقى هوميروس صاحب الإلياذة قبل أن أضع كتابى هذا؟ ثم أردفت قائلا: أرجو منك أن تنزل فوراً فتستعير ذلك الكتاب من مكتبة الكلية وتحضره لى حتى نستكمل النقاش فى مكتبى،

إذ يغلب على ظني أن طه حسين قد تطرق إلى الحديث عن الشعر الجاهلي في أول فصول ذلك الكتاب الذي كنت قرأته من زمن غير قريب، وأريد أن أرى ماذا قال في ذلك الموضوع. ولم يكذب الطالب خبيرا، فما إن انتهت المحاضرة وعدت إلى مكتبي وبرفتي بعض الطلاب المتحمسين لمتابعة النقاش حتى وجدته يتظرني وفي يده الكتاب المستعار. فشكرته وأخذته منه وشرعت أقلب صفحات الفصل المشار إليه، ولم يطل بنا الانتظار، فقد وقعتُ على نصٍّ مهمٍّ جدا للدكتور طه يقول فيه إنه ما كانت الحضارة الإسلامية، التي ظهر فيها مَنْ ظهر مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال، لِيُوجَد لو لم توجد البدوة العربية التي سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم. هكذا بالنص. فأريتُ النصَّ للطلاب ثم شفعتُ ذلك، وأنا أضحك، بسؤال الطالب الذي فجَّر المسألة قائلا: "أوما تزال عند اتهامك لي بأنني ظلمت طه حسين؟ إن هذا الكتاب، كما يتضح من مقدمته، قد صدر قبل ظهور البحث الذي وضعه مرجليوث عن الشعر الجاهلي بأسابيع قليلة جدا مما يدل على أن الدكتور طه لم يكن، حتى ظهور دراسة مرجليوث، يشك أدنى شك في صحة الشعر الجاهلي أو في وجود شعرائه. ثم إنه لم يكتف بذلك، بل ها هو ذا يؤكد أنه لولا وجود ذلك الشعر ما وُجدت الحضارة الإسلامية. وهو كلام كبير وخطير!".

وبعدها بقليل فوجئت بعبد الرشيد صادق محمودي، الذي كنت قد رددتُ عليه في كتابي المذكور بأن الدكتور طه لا يمكن أن يكون قد استقى شكه في الشعر الجاهلي من الكاتب الفرنسي إرنست رينان كما يدَّعي هو، فوجئت به يكتب في شهر سبتمبر بـ "الأهرام" ثلاث حلقات يتناول فيها ما قلته عنه معززا رأيه السابق في الموضوع ببراهين ظنَّها مفحمة مما دفعني إلى التعليق على ما كتب، مستشهدا في تعليقي، ضمن ما استشهدتُ، بما قرأته مع طلابي من كلام الدكتور طه في كتابه "قادة الفكر"، ثم أرسلتُ الجزء الأول من هذا التعليق للصحيفة مع أحد الأشخاص، لكن الرسول عاد وأخبرني، والعهد عليه، بأنه قد فهم من كلامهم أنهم لا ينوون أن ينشروا ما بعثتُ به إليهم. وكنت أستعد في ذلك الحين للسفر إلى السعودية مُعازًا إلى جامعة أم القرى بالطائف فانشغلت بتجهيز أوراق السفر وما إلى ذلك عن متابعة الأمر. وها هي ذى السنون تدور، وأسافر في إعارة أخرى إلى جامعة قطر أول القرن الحالي، ويشير بعض الكتاب في إحدى الصحف الضوئية هذه القضية فأعيد كتابة البحث مرة أخرى ثم نشرته على المشبك أولا ثم بعدها بعدة أعوام ضمته كتابي السابق الذكر: "دراسات في اللغة والأدب والدين" تحت عنوان "نظريّة طه حسين في الشعر الجاهلي سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وفي العام الماضي في مادة "أعمال السنة" سألتني، خلال إحدى المحاضرات، طالبة ذكية يبدو أنها قرأت في كتاب السباعي يومي: "تاريخ الأدب العربي" عن غياب الأمثال في صدر الإسلام والعصر الأموي، فقالت: هل اختفت الأمثال من الأدب العربي بعد العصر الجاهلي يا دكتور؟ فقلت لها ضاحكا: لقد تصادف أن فكرت في هذا السؤال وأنا أحلق ذقني صباح اليوم. ثم وعدتها بمتابعة البحث في تلك القضية، وانتهيت بعدها بيومين إلى كتابة نحو سبع صفحات في ذلك الموضوع استشهدت فيها بعدد كبير من الأمثال التي تعود إلى ذينك العصرين، ونشرتها أولا في المشبك بعنوان "والأساتذة أيضا يستفيدون من طلابهم" ثم ضمتها كتابي عن "تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي"، وأعطيت الطالبة مكافأة تشجيعا لها ولزملائها على التفاعل الإيجابي مع المحاضرة وإخراجها لهم من حالة الصمت واللامبالاة التي يعتصم بها الأغلبية الساحقة من الطلاب والطالبات للأسف.

ومن هذا المثل والأمثلة الآتفة الذكر وغيرها مما لم أتطرق إليه هنا يتبين أن المصادفات والكلمات العابرة كثيرا ما تقودنا إلى كتابة الأبحاث والدراسات والكتب الهامة في الموضوعات المختلفة. ودائما ما أقول لطلابي: "اسألوا واطرحوا ما لديكم من موضوعات ولا تخافوا. وحتى لو بدت لكم أسئلتكم أو تعليقاتكم غير ذات قيمة فهي أفضل من الصمت، لأننا كثيرا ما نستفيد منها إذ تحرك أذهاننا وتدفعنا إلى البحث والكتابة. فلا تحرمونا هذه النعمة". وها هو ذا. أكرم ندوى يعترف بأن المصادفة وحدها كانت وراء وضعه للمعجم الهائل الضخامة عن النساء المحدثات في الإسلام. وطبعاً حين نقول: "مصادفة" إنها تجري على ظاهر الأمر، أما في الحقيقة فلا مصادفة ولا مجنون، إذ كل شيء يسير على قوانين الكون التي بثها الله فيه منذ خلقه سبحانه وتعالى، فكل شيء بنظام دقيق، وإن بدا للعين العجلى أنه مصادفة. وقد استغربت ضاحكا أن يسمى د. ندوى هذا الأمر مصادفة، وهو الذي يرى الله في كل شيء حتى في كوب الشاي الذي يصنعه ويحتسيه، مما أثار استعجاب كارلا باور، التي تكفي في مثل هذه الحالة بشرب الشاي والاستمتاع به والاستغراق فيه دون أن تتطرق إلى ما وراء ذلك أبدا.

وأذكر في هذا الصدد أنني، وأنا في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية بمدرسة الأحمدية بطنطا، كنت أتمنى الإحاطة بتاريخ الأدب العربي متصوراً أن الأمر سهل ميسور تمام اليسر، إذ يتلخص في أن أراجع جيداً الكتب التي درسناها خلال تلك المرحلة بسنواتها الثلاث، فهي تغطي عصور الأدب العربي كلها وترشد القارئ بشواهد من الشعر والنثر على ما تقول. وكنت أظن أن هذا هو كل شيء. ثم أهملت الأمر ودخلت الجامعة ودرست تاريخ الأدب العربي من جديد، ولكن بتوسع أنساني أمنيته

القديمة، إذ ألفت أن تحقيق تلك الأمانة صعب جدا بعدما شاهدت ضخامة كتب د. شوقي ضيف التي يؤرخ بها لبعض عصور ذلك الأدب. ثم تخرجت وانشغلت برسائليّ العلميتين للحصول على الماجستير والدكتورية. ثم عدت من بريطانيا وحللت للطلاب عشرات القصائد القديمة والحديثة وبعض الروايات، ولكن دون أن أفكر بتاتا في تحقيق أمنيّتي البعيدة رغم ما كنت أقرؤه من كتب كثيرة في التاريخ لأدبنا العربي ورغم ما ألفت من كتب حول الشاعر الفلاني والكاتب العلاني والموضوع الترتاني في القديم والحديث. إلا أنني في العام الماضي طُلب مني أن أدرس لبعض الطلاب الغانين شيئا عن تاريخ ذلك الأدب، فكتب عدة صفحات قليلة جدا عن العصر الجاهلي والإسلامي، لكنني وجدت أنه لا بد من اختصار تلك الصفحات القليلة جدا لأن معرفتهم بالعربية شديدة الضيق. بيد أنني ما إن انتهيت من الفصل الدراسي الأول حتى صبح مني العزم على أن أتابع الكتابة في الموضوع وفي نيّتي أن أغطي عصور الأدب العربي كلها في نحو ٣٠٠ ص على أقصى تقدير. بيد أن الأمر اتسع علّي، فقلت في نفسي: فلتمض في الطريق حتى آخره رغم أنني لست ممن يصبرون على الإنجازات العلمية التي تستغرق وقتا طويلا وتصدر في أجزاء.

ومع هذا نجحت في إصدار الجزء الأول من ذلك التاريخ، وهو يغطي العصر الجاهلي وعصر الحضرة والعصر الإسلامي والعصر الأموي. وكنت سعيدا به رغم ما فيه من عيوب شأن كل جهد إنساني. إلا أنه لا يخلو من بعض الميزات التي يتفرد بها. ومنها مثلا النظرة المختلفة التي نظرت بها إلى بعض المسائل الهامة فيه كالقول مثلا بأن عبد الحميد الكاتب لا يدين بشيء يذكر إلى الأدب الفارسي، بل يكاد ينحصر دينّه في الأدب العربي، والتطرق كذلك إلى تفنيد الحماقة التي سولت للويس شيخو الزعم بأن هذا الشاعر أو ذاك أو هذا أو ذلك أو هذلك نصراني مع أنه ليس له بالنصرانية صلة من قريب أو من بعيد بل مسلم من ساسه لراسه. كما اتبعت تقسيما يختلف إلى حد ما عن التقسيمات التي تجرى عليها كتب تاريخ أدبنا في ترتيب مادتها... وهكذا. ثم أتبعته بإعداد الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي، وهو عن العصر العباسي كله من أوله حتى سقوط بغداد. وأرجو أن أتمكن من إخراجه قريبا بمشيئة الله.

ومن العبر التي يستنبطها المرء من كلام كارلا باور كذلك أن الدعاية الواسعة هي السبب في انتشار العلم بكتاب د. ندوى رغم أنه لم يصدر منه سوى جزء واحد. لقد سارعت الصحفية المذكورة إلى كتابة مقال للتعريف بالكتاب في إحدى كبريات الصحف الأمريكية، وكان هذا كافيا لإثارة الاهتمام

بذلك العمل. ولو لم تكتب عن الكتاب ما عرف الناس به على هذا النطاق الواسع، والواسع جدا. والغرب، حين يشغل آتته الإعلامية لتسويق شيء أو شخص، فقل: يا رحمن يا رحيم! إن كل شيء يتبدل، فإذا المجهول يصير شمسا ساطعة يراها حتى الأعمى. أما إذا كان لهم موقف سلبي منه فإنهم يتجاهلونه تماما ويصدرون أوامرهم لرجلهم في كل مكان بالصمت التام نحوه، فلا كلمة ولا همسة ولا حتى إشارة. ولأمر ما أقبل الغرب على تشجيع العلم بهذا الكتاب، فكان ما كان. لا أقصد أن مثله ينبغي التعمية عليه، فلست من أنصار التجاهل لأي كتاب يصدر في أي مكان بالعالم. وأنا دائما ما أقتحم الأبواب المغلقة وأقرأ كتب المستشرقين والمبشرين وأكتب عنها وأجدها تنشط ذهني وتبعثني على التعمق في الموضوع الذي طرفته لأعلم وجه الحق فيه. وكم أفدت من تلك القراءات! وكم وضعت من كتب وبحوث جراء اطلاعي عليها ورغبتني في أن تكون هناك وجهة نظر أخرى تعادلها! فما بالنا إذا ما كان مؤلف الكتاب المذكور عالما مسلما حتى لو اختلفنا معه، وهو ما لا أظنني أختلف معه في هذه القضية فيما أتصور. لكن يبقى مجال العبرة واضحا، وهو أنهم في الغرب قد تحمسوا لذلك الكتاب، وأرادوا الاستفادة منه لمصلحتهم بغض النظر عن غاية مؤلفه في حد ذاتها. والرجل، على كل حال، إنما نقل ما وجدته في كتب التاريخ والتراجم والمعاجم الإسلامية ورتبه وصنفه ووضع بين أيدينا غنيمة باردة لمن يريد العلم والدراسة والتحقيق باذلا في ذلك جهدا كبيرا على مدى ثماني سنوات فيما قرأت، فهو إذن جهد مشكور مقدور لا ريب في ذلك، وإن لم نر من الكتاب حتى الآن، كما قلت، سوى المجلد الأول.

وحتى يتبين دور الدعاية في التعريف بشيء أو شخص وتلميحه ووضع في بؤرة الضوء الساطع ألقت النظر إلى أن هناك كتباً أخرى سبقت كتاب أكرم ندوى، لكن الكثيرين لا يعلمون عنها شيئا حتى ليخيل لمن لا يعلم أن كتاب الرجل هو الأول والوحيد في بابهِ. فقد تحدثت كتب تراجم أهل الحديث عن النساء المحدثات كـ "تهذيب الكمال" للزمزى، و "تهذيبه" للحافظ ابن حجر، و "تقريب التهذيب" له أيضا، و "الضوء اللامع" للسخاوى، و "تراجم المحدثات من التابعيات ومروياتهن في الكتب الستة" لعالية عبدالله محمد بالطور الأستاذة المساعدة بكلية إعداد المعلمين بمكة، و "جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف" للدكتور محمد بن عزوز، و "دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى" لآمال قرداش بنت الحسين، و "جهود المرأة في رواية الحديث (القرن الثامن الهجري)" لصالح يوسف معتوق، و "عناية النساء بالحديث النبوي" لمشهور بن حسن آل سلمان، بالإضافة إلى كتب في

التراجم النسائية بوجه عام يجد فيها الباحث كلاما عن نساء محدثات، مثل "تراجم النساء في تاريخ دمشق لابن عساكر"، و"تراجم شهيرات النساء" لعل بن محمد بن جميل المعافري المالقى إمام قبة الصخرة في القدس أيام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، و"جامع أخبار النساء من سير أعلام النبلاء للذهبي" لخالد بن حسين، و"أعلام النساء" لعمر رضا كحالة... إلخ. ومع هذا فلا بد من التنبيه إلى أن كتاب د. ندوى، حين يطبع، سوف يكون أكبر كتاب في موضوعه في نطاق علمي.

إلا أنني لست أفهم ما ذكرته الصحفية الأمريكية كارلا باور من أن د. أكرم ندوى كان نافرا من التعريف بنفسه وبكتابه. ذلك أن هذا يتعارض وما يهدف إليه أى كاتب من انتشار أفكاره وإقبال الناس عليها. فكيف يمكن أن يتم ذلك دون التعريف به وإلقاء الضوء عليه؟ ثم كيف اتفقا على أن تزور قرينته بالهند وتكتب عنه وعن أهله ومرباه ومنشئه إذا كان ينفر من الكلام عنه؟ بل كيف رضى بأن تكتب عنه ذلك الكتاب المثير الجذاب؟ بل كيف أنشأ أو رضى بأن ينشأ له موقع ضوئى يتحدث عنه وعن محاضراته وكتبه ويعرف الناس به ويإنجازاته؟ الحق أن هذا لا يتسق وذاك. وما دنا بصدد الحديث عن موقعه فقد دخلته مرة واستمتعت بالاستماع إليه والتعرف إلى صوته وطريقته في المحاضرة وكيفية إشارته بيده كما نفعل جميعا حين نتكلم، وبخاصة في وسائل الإعلام أو في مواجهة الجمهور، فألفيته هادئا يجرى على وتيرة واحدة في الإلقاء ويحتفظ صوته غالبا بنفس طبقة دون انفعال أو أداء مسرحي يلفت النظر ويشد المشاهدين، فذكرنى هذا بما قاله عن نفسه من أنه قد عود نفسه الهدوء والصبر حتى إنه ليجد صعوبة في أن يغضب.

وقد غبطته على طلابه وقد جلسوا أمامه وعلى قمطر كل منهم كُوتِيَّةٌ يسجل عليه ما يريد من ملاحظات، وقد أثاروا البصر إليه على عكس طلابنا، الذى يمسون بمحاميلهم لا يتركونها أبدا ولو تحت الطاولة وكأنهم أطفال صغار لا يطيقون مفارقة أمهاتهم، ويعبثون بها في أمور السخف نفورا من العلم والإنصات إلى العلم ونجنا للصداع وخوة الدماغ التى تصيب كل من يفكر أو يقرأ أو يستمع إلى من يتحدث في العلم، ذلك الجذام الذى يفرون منه كما يفرون من الأسد. وقبل أن أغادر هذه الفقرة أود أن أشرح كلمة "كوتيب"، التى قصدت بها اللاب توب، فصغرت كلمة "كاتب"، التى أطلقها على جهاز الكمبيوتر. وقد اتنتى هذه الكلمة اليوم لأول مرة وأنا ذاهب على قدمي بعد الظهر إلى الجامعة، وكنت أمشى في شارع جانبى قليل بلوغى ميدان القبة، وساعتنا المحمول في أذننى أستمع في ذات الوقت إلى إحدى الأغاني تسلية للنفس وصرفا لها عن القبح المنتشر في كل مكان، وكنت أدير في نفسى عبارة

للتعبير عن غَبْطَى للرجل بسبب طلابه ولا بُتُوباتهم، فقلت: عيب أن أعجز عن افتراع كلمة لترجمة اللاب توب، فوجدتني أقول بعد ثوان من التجارب: "كوتيب" تصغيرا لكلمة "كاتوب" التي افترعتها بدورها منذ سنوات بدلا من "حاسوب" مع أني لم أستطع قبلا التوصل إلى تلك الكلمة بهذه السلامة.

وسوف أسوق الآن بعض ما قيل في تراثنا عن المحدثات والفقيهات مما استعان به أكرم ندوى في معجمه الكبير الذي يضم ترجمة ٨٠٠٠ امرأة مسلمة عالمة في الحديث وحده قابلات للزيادة حسبا قرأنا، مما يرد على الدعوى المنتشرة على نطاق واسع بين من لا يعرفون الإسلام على حقيقته، وهي أن دين محمد والنسوة العالمات نقيضان لا يجتمعان أبدا، بل إما الإسلام وإما النسوة العالمات. وستكون تلك التراجم مأخوذة من كتابي "الجواهر المضية في طبقات الحنفية"، و"سير أعلام النبلاء": ففى كتاب "الجواهر المضية في طبقات الحنفية" لعبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشى نقرأ ما يلى في ترجمة بعض المحدثات والفقيهات اللاتي خصص لهن د. أكرم ندوى كتابه المذكور: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى أنشأ الخلق من آدم وحواء، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. وصلى الله وسلم على النبى الأسمى خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء. هذا كتاب أذكر فيه من وقع لى من العلماء النساء من أصحابنا، ولم يقع لى إلا القليل جدا. ولا شك أن مبنى حال النساء على الستر، ولذلك أُمِرَتْ بالقناعت فى الصلاة وستر أعضائها وترفع يديها إلى منكبيها لا أذنيها وتجلس فى الصلاة متوركة يخرج رجلها اليسرى من تحت وركها اليمنى ولا تحافى بطنها فى السجود بل تلصق بطنها إلى فخذيها ما استطاعت وتجمع يديها إلى بطنها، وليس عليها رَمَلٌ من الطواف ولا سعى بين الميلىن الأخضرين ولا ترفع بالتلبية صوتها. فإن أَمَتْ بنساء تقف وسطهن. وليس عليهن حضور الجماعات: الشابة بينهن والعجوز على الخلاف المعروف، ولا تسافر إلا مع زوج أو محرم. وهن ممنوعات أيضا من الخلوة بالأجنبى. وهذه الأشياء كلها مانعة لهن من التعليم والتعلم، اللهم إلا أن يكون الواحدة منهن فى قعر بيتها مستغنية بعلماء بيتها كزوج وعم وأخ وخال وجد وأب إلى غير ذلك من الإلزام. وسيأتى فى ترجمة فاطمة السمرقندية بنت محمد بن أحمد بن أبى أحمد صاحب "التحفة" وزوج أبى بكر بن مسعود صاحب "البدائع" أن الفتوى كانت تخرج من بيتها، وعليها خطها وخط أبيها وزوجها. وقد بلغنا عن بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد أنه فى الغالب لا تخرج فتوى من بيت إلا وعليها خط صاحب البيت وابنته وامراته أو أخته إلى غير ذلك من الإلزام.

وهذا وقت الشروع: خديجة بنت محمد بن أحمد أبو رجاء القاضي الجوزجاني. تفقهت على أبيها، وتقدم. قال الحاكم في تاريخ نيسابور: عاشت أكثر من مائة سنة، وكانت تحسن العربية والكتابة. وسمعت من أبي يحيى البزار: ماتت سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة. رحمها الله تعالى.

ست الوزراء ابنة العلامة مفتي المسلمين عماد الدين محمد بن عبد الكريم بن عثمان. عُرف بـ"ابن السماع". تقدم مولدها في سنة تسع وخمسين وستائة بعد وقعة عين جالوت. كتبت وقرأت القرآن وحفظت شيئاً كثيراً من فقه أبي حنيفة وتفقهت على والدها، واعتنى بها أبوها وأسمعها من إسماعيل بن الروحي وغيره. وماتت في شوال سنة ست وثلاثين وسبعائة بأرض المرة.

طاهرة بنت أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان التنوخية من بيت العلم والفضل والدين. وهذا النسب كله علماء فضلاء تقدم كل واحد في بابهِ. تفقهت طاهرة على أبيها وروت عنه وحكت أن وفاة أبيها أحمد بن يوسف في سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة. ذكرها الخطيب. رحمها الله تعالى.

فاطمة بنت أحمد بن علي الإمام مظفر الدين صاحب "البدائع" في أصول الفقه و"مجمع البحرين" في الفقه. تقدم. وفاطمة هذه تفقهت على أبيها وأخذت عنه "مجمع البحرين" في الفقه. رأته بخطها، وهو تعليق حسن. رحمها الله تعالى.

فاطمة بنت محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي مؤلف "التحفة". تقدم. وهي زوجة الإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني صاحب "البدائع". تقدم في الكُنَى. تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه: "التحفة". قال ابن العديم: حكى والدي أنها كانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وكان زوجها الكاساني ربما يهيم في الفتيا، فترده إلى الصواب وتعرفه وجه الخطاء، فيرجع إلى قولها. قال: وكانت تفتي، وكان زوجها يحترمها ويكرمها. وكانت الفتوى أولاً يخرج عليها خطها وخط أبيها السمرقندي، فلما تزوجت بالكاساني صاحب "البدائع" كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة. قال داود بن علي أحد فقهاء الحلاوية بحلب: هي التي سنت النطر في رمضان للفقهاء بالحلاوية. كان في يديها سواران، فأخرجتهما وباعتهما وعملت بالثمن القُطُور كل ليلة، واستمر على ذلك إلى اليوم. قال ابن العديم: أخبرني الفقيه أحمد بن يوسف بن محمد الأنصاري الحنفي قال: كان الكاساني عزم على العود من حلب إلى بلاد زوجته حين حثته على ذلك. فلما علم الملك العادل نور الدين محمود استدعاه وسأله أن يقيم بحلب، فعرفه السبب وأنه لا يقدر أن يخالف زوجته ابنة شيخنا، فاجتمع رأى الملك وزوجها

الكاسانى على إرسال خادم بحيث لا تحتجب منه ويخطبها عن الملك في ذلك. فلما وصل الخادم إلى بابها استأذن عليها، فلم تأذن له واحتجت وأرسلت إلى زوجها تقول له: يَتَدَّ عهدك بالفقه إلى هذا الحد؟ أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إلى هذا الخادم؟ وأى فرق بينه وبين غيره من الرجال في جواز النظر؟ فعاد الخادم وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك نور الدين في خطبتها، فأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن ماتت، ثم مات زوجها الكاسانى بعدها ودفن عندها على ما قدمناه في ترجمته رحمه الله تعالى".

ومن "سير أعلام النبلاء" للذهبي تقتطف الترجمتين التاليتين عن اثنتين من أولئك المحدثات: "بنت سعد الخير الشیخة الجليلة المسندة أم عبد الكريم، فاطمة بنت المحدث التاجر أبى الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصارى البلسنى. مولدها بأصبهان في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. وسمعت حضوراً في الثالثة من فاطمة الجوزدانية جملة من "المعجم الكبير"، وحضرت ببغداد في سنة خمس وعشرين على هبة الله بن الحصين، وزاهر بن طاهر، وأبى غالب بن البناء. وسمعت بعد من أبيها، ومن هبة الله بن الطبر والقاضى أبى بكر ويحيى بن حبيش الفارقى ويحيى بن البناء وأبى منصور القزاز وإسماعيل السمرقندى وعدة. وأجاز لها خلق. وحدثت بدمشق وبمصر. تزوج بها الرئيس زين الدين بن نجية الواعظ، وسكن بها بدمشق ثم بمصر، ورأت عزاً وجاهاً. حدث عنها أبو موسى بن الحافظ وعبد الرحمن بن مقرب ومحمد بن محمد بن الوزان الحنفى ومحمد بن الشيخ الشاطبى والحافظ الضياء وخطيب مردى وعبد الله بن علان وخلق سواهم. وروى عنها بالإجازة الحافظ زكى الدين عبد العظيم، وقال: توفيت في ثامن ربيع الأول سنة ستائة. قلت: عاشت ثمانياً وسبعين سنة، وأجازت لشيخنا أحمد بن أبى الخير سلامة.

كرامة أم الكرام بنت أحمد بن محمد المروزية: الشیخة العالمة الفاضلة المسندة أم الكرام كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية المجاورة بحرم الله. سمعت من أبى الهيثم الكشميهنى "صحيح البخارى"، وسمعت من زاهر بن أحمد السرخسى وعبد الله بن يوسف بن بامويه الأصبهاني. وكانت إذا روت قابلت بأصلها. ولها فهم ومعرفة مع الخير والتعب. روت "الصحيح" مرات كثيرة، مرة بقراءة أبى بكر الخطيب في أيام الموسم، وماتت بكراً لم تتزوج أبداً.

على أن هناك كتباً أخرى في موضوعات مشابهة في اتجاهها العام لكتاب الندوى منها على سبيل التمثيل كتاب "تحرير المرأة في عصر الرسالة" لعبد الحليم أبو شقة، وهو دراسة عن المرأة جامعة

لنصوص القرآن الكريم وصحيح البخارى ومسلم. وقد انقسم العلماء حوله كالعادة إلى مؤيد ومعارض. فأما المؤيدون فأمرهم معروف، إذ هم يوافقون المؤلف على ما وصل إليه ونفضه بين أيديهم. وأما المعارضون المنكرون فلعل من الممكن التمثيل لهم بما كتبه سليمان بن صالح الخراشي في نقد ذلك الكتاب. ونبدأ أولاً بنقل هذا النص من كتاب عبد الحليم أبو شقة، وهو خاص بحجاب المسلمة:

"أدلة خصوصية الحجاب بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، وخصوصية حجاب نساء النبي في ضوء أصول الفقه: الحجاب يعنى شيئاً يحجز بين طرفين فلا يرى أحدهما الآخر، ولا يمكن أن يعنى لباساً يلبسه إنسان لأن اللباس، أيا كان قدره ونوعه ولو ستر جميع بدن المرأة حتى وجهها، فلن يمنع المرأة أن ترى الناس من حولها، ولن يمنع الناس أن يروا شخص المرأة. والحجاب الوارد في قوله تعالى: "فاسألوهن من وراء حجاب" هو الساتر الذى يكون في البيت ويرخى ليفصل بين مجلس الرجال ومجلس النساء. الاحتجاب هو منع نساء النبي صلى الله عليه وسلم من لقاء الرجال الأجانب دون حجاب والابتعاد بشخصهن تماماً عن أبصار الرجال. أما الستر الكامل للبدن مع الوجه عند الخروج للحاجة فإنه بديل مؤقت عن الحجاب. وهو، أى تغطية البدن كاملاً مع الوجه، من خصوصيات نساء النبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذه الحالة نساء النبي صلى الله عليه وسلم يلبسن اللباس الشرعى، ولا يسمى: حجاباً.

تاريخ نزول آية الحجاب: إن نزول آية الحجاب كان على الأرجح في ذى القعدة سنة خمس من الهجرة كما أورد صاحب "الطبقات الكبرى". وقد اشترطنا في النصوص التالية أن يكون مما وقع بعد تلك السنة، وذلك للدلالة على أن الحجاب، بمعناه الأصيل كما بينا، لم يفرض على غير نساء النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية، وأن عامة الصحابيات لم يحتجبن ولو من قبيل الاقتداء حيث فقهن خصوصية الحجاب بنساء النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا مجال للاقتداء بهن رضى الله عنهن في أمر خصصن به.

الدليل الأول: قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ لَهُ إِنَّمَا هِيَ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَأْذِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْخَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنَاجُواهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا * إِنْ تَبَدَّلُوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي

أَبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا" (سورة الأحزاب / ٥٣ - ٥٤). الآية تتحدث صراحة عن
بيوت وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وليس بيوت وأزواج عامة المسلمين...

وهكذا نلاحظ أن الله تعالى استثنى نساء النبي صلى الله عليه وسلم من الاحتجاب، وذلك في
قوله تعالى: "لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ
أَخَوَاتِهِنَّ..." بينما استثنى محارم نساء المسلمين من إخفاء الزينة فحسب، وذلك في قوله تعالى: "وَلَا
يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ....". وما يؤكد أن هذه الآية، أى آية الحجاب، تثبت خصوصية الحجاب
بأمهات المؤمنين عدم ذكرها "بعولتهن"، الذين ورد ذكرهم في آية سورة "النور" حيث الخطاب فيها
لعامة النساء، ولكل واحدة "بعل"، أما في حالة أمهات المؤمنين، والحجاب خاص بهن، فلا مجال
لذكر "بعولتهن" لأن هن جميعا بعلا واحدا، وهو النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا كان يفهم الخطاب
الموجه لنساء النبي صلى الله عليه وسلم على أنه "لجميع النساء" فَلِمَ جاء لفظ "ونساء المؤمنين" في آية
الجلاليل؟ فمجرد ذكر "نساء النبي" يكفى لأن "الحكم" عام...

الدليل الثاني: مقدمات فرض الحجاب. أولا: عمر يشير على رسول الله بحجب نسائه: عن
عمر رضى الله عنه قال: ... قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين
بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب (رواه البخارى). الحديث ينص على أن عمر رضى الله عنه
قال لرسول الله: "احجب نساءك"، ولم يقل: "مُر نساء المؤمنين بالحجاب". وذلك أن عمر وقع في
قلبه نفرة من اطلاع الرجال على الحرم النبوى، وذلك لأنه يدخل عليهن البر والفاجر. فرسول الله بيته
مفتوح لكل الناس، أما بيوت المسلمين فإنما يدخلها عادة الأقارب والأصدقاء، ومن إليهم من الموثوق
بهم. ثانيا: عمر، حرصا منه على الحجاب، يعلن تعرفه على سودة عند خروجها...

الدليل الثالث: معقبات فرض الحجاب - عمر ينكر على سودة أم المؤمنين خروجها بعد فرض
الحجاب. عن عائشة قالت: خرجت سودة، بعدما ضرب الحجاب، لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا
تحفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تحففين علينا. فانظري كيف
تخرجين. قالت: فانكنأت راجعة، ورسول الله في بيتي. فدخلت فقالت: يا رسول الله، إنى خرجت
لبعض حاجتى، فقال لى عمر كذا وكذا... فقال: إنه أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن (رواه البخارى

ومسلم)... إن عمر لم ينكر على نساء المسلمين أن يخرجن لحاجتهن بعد نزول آية الحجاب، وقد كن جميعاً يخرجن للبراز حيث لم يكن كُتُفٌ في البيوت، وإنما أنكر على سودة أم المؤمنين فحسب، وذلك لعلمه أن الحجاب خاص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، حجاب شخصهن وليس أبدانهن، ولأنه ظن أنه ينبغي أن يطرد في كل الظروف، فنزل الوحي باستثناء الخروج للحاجة من وجوب حجب الأشخاص.

الدليل الرابع: اختصاص لفظ "الحجاب" في "صحيح البخاري ومسلم" بأمهات المؤمنين...
الدليل السادس: رفض الإذن لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بعد فرض الحجاب بالمشاركة في الجهاد والإذن لعامة النساء... الدليل السابع: حج أمهات المؤمنين معتزلات الرجال بينما عامة النساء يخالطن الرجال... والأحاديث تفيد تميز حج نساء النبي صلى الله عليه وسلم بسبب اختصاصهن بالحجاب، فيحتجبن عن الرجال قدر الإمكان ويظفن بالليل متكررات ومعتزلات عن الرجال بينما عامة النساء يظفن بالليل والنهار ويستلمن الحجر الأسود إذا تيسر لهن ذلك ويخالطن الرجال خلال مناسك الحج، مع العلم أن حجة النبي صلى الله عليه وسلم كانت سنة ٩هـ. الدليل الثامن: كرائم الصحابيات يُلَقِّنَ الرجال دون حجاب، أي دون ساتر يفصل بين الرجال والنساء...

من أقوال الفقهاء في خصوصية الحجاب بنساء النبي صلى الله عليه وسلم: ١ - قال أبو داود بعد إيراده قول رسول الله لزوجتيه أم سلمة وميمونة عند دخول بن أم مكتوم: "احتجبا منه. أفعمياوان أنتما؟" وهذه لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة. ألا ترى اعتداد فاطمة بنت قيس عند ابن أم مكتوم؟ وقد قال النبي لفاطمة: اعتدّي عند بن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده. ٢ - قال الأثرم: قلت لأبي عبد الله (يعني الإمام أحمد بن حنبل): كأن حديث نيهان: "أفعمياوان أنتما؟" لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وحديث فاطمة بنت قيس: "اعتدّي عند بن أم مكتوم" لسائر الناس؟ قال: نعم. ٣ - قال ابن قتيبة: ونحن نقول إن الله عز وجل أمر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بالاحتجاب إذ أمرنا ألا نكلمهن إلا من وراء حجاب فقال: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ..." وهذه خاصة لأزواج رسول الله كما خصص بتحرير النكاح على جميع المسلمين. ٤ - أورد النووي في شرحه لـ "صحيح مسلم" قول القاضي عياض: فَرَضَ الحجاب مما اختص به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف لشهادة ولا غيرها، ولا يجوز لهن إظهار أشخاصهن، وإن كن مستترات، إلا ما دعت إليه

الضرورة من الخروج للبراز. وقد كن إذا قعدن للناس جلسن من وراء حجاب، وإذا خرجن حجبن وسترن أشخاصهن. ولما توفيت زينب رضى الله عنها جعلوا لها قبة فوق نعشها تستر شخصها... ٥- المهلب: ... الحجاب إنما هو في حق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة. ٦- قال ابن بطال: ... إن نساء المؤمنين ليس عليهن من الحجاب ما يلزم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. ٧- قال القرطبي تعليقا على حديث "أفعمياوان أنتما؟": ... هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة نهبان مولاها، وهو ممن لا يحتج بحديثه. وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب كما أشار إليه أبو داود وغيره من الأئمة. ٨- عَنْ مُجَاهِدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا" قَالَ: أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِنَ الْحِجَابُ. ٩- أخرج الطبري عن قتادة في قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَى قَوْلِهِ: "غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّهَا" قال: غير متحنيين طعمامه، ولكن إذا دُعِيتُمْ فادخلوا، فإذا طَعِمْتُمْ فانتشروا. قال: كان هذا في بيت أم سلمة رضى الله عنها. أكلوا ثم أطالوا الحديث، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخرج ويدخل ويستحى منهم، والله لا يستحى من الحق. "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ". قال: بلغنا أنهم أُمِرْنَ بالحجاب عند ذلك. "لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ" قال: فُرِخَصَ لهن ألا يجتنبن من هؤلاء... ١٥- قال الطاهر بن عاشور: وهذه الآية هي شارعة حكم حجاب أمهات المؤمنين، وقد قيل: إنها نزلت في ذى القعدة سنة خمس.

وبهذه الآية مع الآية التى تقدمتها من قوله: "يا نساء النبي، لستن كأحد من النساء" تحقق معنى الحجاب لأمهات المؤمنين المركَّب من ملازمتهن بيوتهن وعدم ظهور شئ من ذواتهن حتى الوجه والكفين. وهو حجاب خاص بهن لا يجب على غيرهن. وكان المسلمون يقتدون بأمهات المؤمنين وَرَعًا. وهم متفاوتون في ذلك على حسب العادات...

ونضيف هنا أنه لو كان الاحتجاب الدائم فضيلة تميز مجتمع المسلمين لاتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الترتيبات التى تحقق هذه الفضيلة، مثل وضع ساتر بين صفوف الرجال و صفوف النساء في المسجد. تخصيص مكان بعيد عن مجلس الرجال لاستفتاء النساء وعرض قضاياهن على رسول الله صلى الله عليه وسلم. تخصيص وقت لطواف الرجال وآخر لطواف النساء. وأخيرا لو كان الحجاب فضيلة ومكرمة لعامة النساء لما رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لأم حرام أن تخرج مع المجاهدين في البحر وتنال الشهادة في سبيل الله.

والخلاصة أن المرأة المسلمة عندما تتحجب احتجاباً دائماً يكون ذلك محاولة منها لمشاركة نساء النبي صلى الله عليه وسلم في ميزة لمن وتطاولا منها إلى مقام أمهات المؤمنين، والله تعالى يقول في حقهن: "يا نساء النبي، لستن كأحد من النساء". ولا بد أن نفرق بين حكم التزام الحجاب والامتناع عن الزواج بعد وفاة الزوج بصفة دائمة اقتداءً بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، وبين حكم الاحتجاب والترمل في ظرف ما لمصلحة ما. ذلك لأن الأمر الأول فيه اعتداء على شرع الله حيث أوجبنا ما لم يوجب وحرمانا ما لم يحرم، أو حيث ندبنا أنفسنا لما لم يندبنا إليه وكرهنا ما لم يكره لنا. أما الأمر الثاني ففيه إعمال لشرع الله. وهو داخل في دائرة المباح الذي وسع الله علينا فيه: نأخذ منه وندع دون حرج، ونختار حسب ما نرى من مصلحة في كل ظرف من الظروف...".

وفي نقد الكتاب المذكور يقول الخراشي مثلاً، وهو عالم سعودي: "يقول أبو شقة (١٦/٢): "إن لقاء النساء والرجال بأدابه الشرعية هو ما يمكن أن نطلق عليه حسب التعبير الشائع الآن: "الاختلاط المشروع"، وهو ظاهرة صحية"! ولا أدري كيف تعامى أبو شقة عن الأدلة الكثيرة التي هي في الكتاب وفي "الصحيحين" تحرم الاختلاط الذي يدعو إليه ومن يتابعه من المستترين. ومن ذلك قوله تعالى: "وإذا سألتهم عن متاعاً فاسألهم عن وراء حجاب. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم". وإن زعم أن هذه الآية خاصة بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم فقد أوقع نفسه في زلة عظيمة، إذ كيف تكون زوجاته صلى الله عليه وسلم محتاجات لهذا الحجاب لطهارة قلوبهن، ولا يحتاجه غيرهن من النساء؟ وهل هذا إلا دليل على تفضيل النساء الأخريات على زوجاته صلى الله عليه وسلم؟ فهل يقول بهذا أبو شقة ومن معه؟ ثم إنه من المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومن الأدلة الصريحة على تحريم الاختلاط الذي يدعو إليه أبو شقة وأحزابه حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق: "استأخرن، فليس لكن أن تحققن الطريق. عليكن بحافات الطريق". أخرجه أبو داود بسند صحيح. ومعنى "تحققن" أى تتوسطن. وقد كان من سته صلى الله عليه وسلم أنه يمكث قليلاً عند انتهاء الصلاة هو وأصحابه حتى تذهب النساء. أخرجه البخارى. قال الحافظ ابن حجر في "الفتح" (٣٣٦/٢): "وفي الحديث كراهة مخالطة الرجال للنساء في الطرقات فضلاً عن البيوت". والعامل لو تأمل لعلم أنه ليس هناك شيء اسمه: "اختلاط مشروع، وآخر غير مشروع".

كما يتوهم أبو شقة ومن معه مهما جعل له من الضوابط الموهومة التي لا حقيقة لها على أرض الواقع، بل يدرك سذاجتها وسخفها عامة الناس قبل علمائهم.

٢- من انحرافات في كتابه أنه، كما سبق، يضحك ويهول من دلالة بعض الأحاديث ويلويها لتدل على أمور عظيمة لا يقول بها مسلم يعظم شرع الله. أ- ومن أمثلة ذلك ما ذكره في كتابه (٦٥/٢) تعليقا على حديث أمره صلى الله عليه وسلم أن يحضر النساء والفتيات والحائض صلاة العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين، بعد أن ذكر هذا الحديث ضمن أحاديث "الترويح" قال: "نعم يخرجن لأن الأمر ليس أمر صلاة وحسب، إنها هو احتفال إسلامي كبير يقام في مكان فسيح يتسع لأكثر عدد ممكن من أهل المدينة! فالأمر عند أبي شقة ليس أمر صلاة كما هو عند المسلمين، إنها هو ترويح واحتفالات! بل لا تستغرب إن قال: حضور مباريات ومهرجانات رياضية وفنية! فكلامه تمهيد لمثل هذه الأمور. نعوذ بالله من مرض القلوب. ب- ومن أمثلة ذلك أيضا أنه جاء إلى حديث رؤية عائشة وهي في بيتها، وبيتها يطل على المسجد، والنبي يسترها، إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب، جاء إلى هذا الحديث وطوّعه لهواه قائلا (٦٥/٢): "نحسب أنه من الطبعي أن يكون بعض فتيات ونساء المدينة قد شاهدن تلك الألعاب"! واستنبت بعقله وخياله الواسع: "هل يبعد، والأمر كذلك، أن يصل إلى سمع بعض نساء المؤمنين خبر هذا اللعب؟ وهل يبعد، وقد وصلهم الخبر، أن يسعين للنظر إلى لعب الأحباش ويشتركن في هذا الاحتفال الكبير؟" فانظر كيف أقام الخيالات والأحكام على نظر عائشة إلى الحبشة من نافذة بيتها المطل بالمسجد، والنبي مع ذلك يسترها! ج- اختار أبو شقة للمرأة أن تكون عاملة نظافة! (٣٤٧/٢) محتجا بحديث المرأة السوداء التي كانت تنظف مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي مسترة، تطوعا واحتسابا.

٣- اختار للنساء أن تستقبل إحداهن في بيتها "العمال الذين يقدمون لإصلاح أو صيانة بعض أدوات المنزل" (٧٠/٢). ولا أدري أين ذهبت أحاديث تحريم الخلوة بالأجنبية. ٤- اختار للرجل أن يصفح النساء (٩٢/٢-٩٣) رغم أنه قد ذكر حديث "لأن يقطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له" وحديث "لا أمس أيدي النساء"! ولكنه تأولهما وألغى دلالتها كشيوخه القرضاوى. نعوذ بالله من مُشاقّة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٥- ومن أعجب اختيارات الرجل اختياره (٢٥٨/٢) جواز أن تقبّل المرأة رأس الضيف! واسمع قوله متعجبا: "إن هذا المستوى من الرعاية الحانية وما يتخلله من قرب ولمس للبدن مشروع ما

دامت الفتنة مأمونة. ولا تؤمن الفتنة هنا عادة إلا في حالات خاصة كما هو واضح من النصوص. وهذه الحالات تتدرج تحت ظاهرة اجتماعية مشهودة تعين على أمن الفتنة وتشجع على قبول هذا المستوى من الرعاية الحانية. هذه الظاهرة تشير إلى أن طول العشرة بين المسلمين الصالحين تولد في نفوس المتعاشرين مشاعر خاصة نبيلة تَضُمُّ معها الشهوة. وما كان لهذه المشاعر أن تولد لولا طول العشرة... ومع هذه المشاعر تخف الشهوة الفطرية نحو الجنس الآخر حتى تكاد أن تنمحى! قلت: فلا أدرى هل يقول بهذا من يتابع أبا شقة ويشى على كتابه؟ قد يقال: إن الرجل احتج بحديث أم حرام التي كانت تغلى رأس النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في "البخارى"، فأقول: قال النووي في "شرح مسلم" (٥٧/١٣): "اتفق العلماء على أنها كانت عَظْمًا له صلى الله عليه وسلم! فهل غاب هذا الاتفاق عن أبي شقة حتى ذهب بتصديق من الأقوال الشاذة ما يحلل به ما حرم الله اتباعا لهواه وتساهله في أمر النساء والغيرة؟ ويشهد لهذا الاتفاق ما سبق من النصوص الصريحة في عدم جواز مس المرأة.

٦- اختار أبو شقة للنساء أن يعملن "مضيفات"! (٣٤٨/٢) متجاهلا أحاديث تحريم سفر المرأة إلا مع ذى محرم. وهى في "الصحيحين"، أى على شرطه! ٧- أما في أمور السياسة فقد توسع أبو شقة توسعا فاحشا كشيخه القرضاوى "فترض" على المرأة حق الانتخاب (٤٤٢/٢)، و"فترض" عليها (٤٤٣/٢) الانضمام إلى الأحزاب والقوى السياسية! ولا أدرى إلى ماذا تدعو هذه الأحزاب والقوى؟ إن كانت تدعو إلى حكم الإسلام فيما بالها أصبحت "أحزابا" ولم تصبح "حزبا" واحدا كما أراد الله؟ و"فترض" عليها أبو شقة (٤٤٥/٢) المشاركة في التعبير عن الرأى في القضايا العامة سواء بالكتابة أو التظاهر أو الإضراب! و"فترض" عليها (٤٤٦/٢) قبول الترشيح للمجالس النيابية! ثم نقل عن شيخه القرضاوى ما يؤيد به مفسده السابقة ليؤد الاثنان بإثم من يتابعهما من النسوة المغرَّرين.

٨- لكى يهون أبو شقة معصية "الاختلاط"، ولكى يشجع المرأة ويغريها على ملاقة الرجال قال، ويشس ما قال (٢١/٣): "نحب أيضا أن نلفت الانتباه إلى أهمية دور الإلف والعادة في الصلات الاجتماعية، فإن الإلف يعين على تخفيف الحساسية عند رؤية الجنس الآخر. وذلك مما يجعل الأمر هينا نوعا عند الطرفين. فالمرأة إذا لم تعود وتألف لقاء الرجال فلا بد أنها تشعر بحساسية وحرص بالغ إذا دعت الحاجة إلى لقاء الرجال، وسيشعر بالحرص أيضا زوجها أو أبوها أو أخوها. وعندها يفضل الجميع، دفعا للحرص، التضحية بالحاجة وما وراءها من خير مهما كانت أهمية تلك الحاجة، ومهما كان قدر الخير الذى وراءها سواء للمرأة أو للمجتمع. وكذلك الحال مع الرجال. فالذى تعود منهم وألف

لقاء النساء والاجتماع بهن عند الحاجة بين حين وآخر لن يحس في دخيلة نفسه ما يمكن أن يحسه رجل آخر لم يألف ذلك، ثم دعت الحاجة إلى لقاء النساء". قلت: صدق الله إذ يقول: "ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما".

٩- اعترف أبو شقة على استحياء بأن لقاء المرأة بالرجال قد يحدث ميلا للجنس الآخر لا مفك من ذلك. ولكنه هوّن من هذا الأمر وعده أمرا فطريا لا حرج منه! يقول أبو شقة (٥٤/٣): "إن قدرا من الميل والأنس والاستراحة للحديث والكلام يحدث عادة بصورة عفوية نتيجة لقاء الرجل المرأة. أى أنه يحدث دون قصد لأنه أمر فطرى ابتلى الله به بنى الإنسان. فإذا لم يسترسل كل منهما فى مشاعر الميل والأنس وشغلها الأمر الجاد الذى التقيا من أجله، عندئذ فلا حرج على المؤمن والمؤمنة، ولكن عليها ضبط مشاعرهما وتوجيه اهتمامهما إلى تحقيق الهدف من المشاركة واللقاء" قلت: ولا أدري ما هو هذا الأمر الجاد الذى التقيا عليه!

١٠- يسخر أبو شقة كثيرا فى كتابه من الحجاب الذى أمر الله به النساء، ويحاول كغيره من مثبى الفتن أن ينفرهن منه. وكفى بهذه السخرية بأحكام الله وشرائعه إثمًا مبينا. يقول أبو شقة (٢٠٣/٣) بأن المسرفين "ألزموا المرأة بستر وجهها دائما، وفى ذلك تضيق على ما منحها الله من قوة الإبصار وتضييق حريتها فى تنفس الهواء" قلت: تأمل قوله: "دائما" والذى يعرفه كل مسلم أن المرأة لا تستر وجهها إلا عند الرجال الأجانب، وهذا الأمر لمن تأمله لا يمثل سوى جزء يسير من حياتها، فكيف يكون "دائما"؟ ثم، وهذه هى الطامة، أنت تقر فى (٢٩٥/٤) بأن نساء النبى صلى الله عليه وسلم من الواجب عليهن تغطية وجوههن، وهو إجماع، فيلزمك أن تقول بأن الله قد "ضيق عليهن قوة الإبصار التى منحهن وتنفس الهواء"؟ ألا ما أعظمه من قول!

١١- هوّن أبو شقة كثيرا من أمر غيرة المؤمنين على محارمهم ولا مهم على ذلك، وأحاله إلى "مزاجهم الشخصى"! يقول أبو شقة (٢٠٧/٣): "زاد طغيان الغيرة حتى وصل الأمر فى بعض المجتمعات المسلمة إلى أن يغار الرجل من مجرد رؤية الناس وجه أمه أو أخته أو زوجته"!

١٢- تابع أبو شقة الألبانى فى اختياره للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب. إلا أنه لم يرضه رأى الألبانى بل زاد عليه انحرافا وألغى بعض شروط الحجاب الشرعى التى ذكرها الألبانى بأدلتها لأنها لم توافق هواه. وتوضيح ذلك أن الألبانى جعل للحجاب الشرعى هذه الشروط: استيعاب جميع

البدن إلا ما استثنى. ألا يكون زينة في نفسه. أن يكون صفيقا لا يشف. أن يكون فضفاضاً غير ضيق. ألا يكون مبخرًا مطيباً. ألا يشبه لباس الرجل. ألا يشبه لباس الكافرات. ألا يكون لباس شهرة.

أما أبو شقة (٣٠/٤) فاختزل هذه الشروط في خمسة، وهى: "ستر جميع البدن عدا الوجه والكفين والقدمين. التزام الاعتدال في زينة الثياب والوجه والكفين والقدمين. أن يكون اللباس والزينة مما تعارف عليه مجتمع المسلمين. أن يكون اللباس مخالفاً في مجموعه للباس الرجال. أن يكون اللباس مخالفاً في مجموعه لما تتميز به الكافرات". فليتة إذ اختار كشف الوجه التزم بالشروط الأخرى للحجاب القائمة على الأدلة، ولم يتخترع شروطاً من عنده ليضل بها النساء ويفتن بها أبناء المجتمع. فمعنى قوله أن للمرأة أن تلبس الثياب الشفافة والثياب الضيقة والثياب المطية أمام الرجال لأنه حذف جميع هذه الشروط! وقد صرح ببعض هذا (٧٧/٤) بقوله: "لا حرج على المرأة أن تلبس ما يصف بعض أعضائها ذات العظام البارزة كالرأس والكفين والقدمين والكعبين وما جاورهما من أسافل الساقين!"

١٣- ليت أبا شقة، عندما اختار كشف وجه المرأة، اكتفى بأدلة الألباني، ولم يتحفنا بخيالاته الواسعة واستنباطاته العجيبة! ومن ذلك قوله (١٠٣/٤) تعليقا على حديث فاطمة بنت قيس التى أمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم: "وبالتأمل يبدو أن المرأة جاءت سافرة الوجه، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جمالها ما جعله يعجل بترشيحها لتكون حليبة أسامة بن زيد! فالرجل "تخيل" ثم "حكم"! ومثله قوله تعليقا على حديث المرأة التى مر عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى عند قبر ولدها (١١٧/٤): "والظاهر أنه إنما عرفها من سفور وجهها"! ومثله قوله تعليقا على حديث "من نذرت أن تحج صامته" (١١٩/٤): "نحسب أن المرأة كانت سافرة الوجه، ورأها الصديق صامته"! ومثله قوله تعليقا على استفتاء إحدى النساء لعمر رضى الله عنه (١١٩/٤): "نحسب أنه، أى الراوى، عرف ذلك، أى أنها شابة، بسبب سفور وجهها"! إلى غير هذا من الاستنباطات العجيبة القائمة على خيال واسع لم يحظ به أحد من العلماء!

١٤- يقول أبو شقة (١٥٢/٤) مروجاً لكشف الوجه بين المسلمات: "كشف الوجه يعين على تعارف الأقارب وذوى الأرحام وتواصلهم: فيتعرف الشاب على بنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات، وتتعرف الفتاة على أبناء أعمامها وعماتها وأخوالها وخالاتها. وأيضا يتعرف الشاب على زوجات الأعمام والأخوال، وتتعرف الفتاة على أزواج العمات والخالات، وكذلك يتعرف الرجل على أخوات زوجته وتتعرف المرأة على إخوة زوجها. أما إذا عم ستر الوجه وتبعه الاحتجاب من كل

الرجال غير المحارم فكيف يتواصل ويتوآد الأقارب وذوو الأرحام؟ كيف يعود بعضهم بعضا عند المرض؟ كيف يودع بعضهم بعضا أو يستقبل بعضهم بعضا عند السفر؟ هل يذهب الرجل ليصل ابنة عمه أو خاله المتزوجة فيلقى زوجها ويجالسه ويتبادل معه المشاعر النبيلة، ولا يلقى ابنة خاله، وهى المقصودة بالزيارة والصلة والمودة؟! وكأن المقصود بصلة الرحم عند أبى شقة هو تأمل وجوه الأجنيات ليتحقق ذلك! أما السلام والسؤال عن الحال فلا يكفى!

١٥- ويستمر أبو شقة في ترويح "سفوره" بين نساء المسلمين، ولكن هذه المرة بكذبة كبرى لا تخفى على أحد. يقول (١٥٦/٤): "إنه مع كشف الوجه يظل الإنسان، سواء أكان قويا أو ضعيفا، مرتبطا من حيث الشهوة بالجنس الآخر. أى يظل الميل الفطرى الذى خلقه الله يجرى فى مجراه الطبيعى ولا ينحرف هذا الميل إلى الجنس نفسه. وإذا كان الأقرباء مع المجاهدة يكونون فى الحالين فى أمان من الزلل فهم قلة عادة، والكثرة هم الضعفاء. وهؤلاء فى حال كشف الوجه قد يقعون فى شىء من اللطم، وقد يصل الأمر إلى فعل الفاحشة فى أحيان قليلة، لكنهم يظلون مع الفطرة دائما. أما فى حال ستر الوجه حيث تسد كل السبل لرؤية الجنس الآخر فإنهم يتجهون غالبا إلى الجنس نفسه، إذ كل السبل مفتوحة دون قيود. وهذا أمر مشاهد معروف فى عصرنا وفى كل العصور. وقد أدركت ذلك بنفسى، فقد خالطت نوعين من المجتمعات: أولهما، حيث المرأة مكشوفة الوجه وتشارك بأقدار فى الحياة الاجتماعية، كان عدد الشباب المنحرف إلى الجنس نفسه قلة نادرة. وثانيهما، حيث المرأة ساترة الوجه منعزلة تماما عن مجتمع الرجال، كانت كثرة من الشباب منحرفة إلى الجنس نفسه!" قلت: تأمل هذه القرية ما أعظمها! فلا أدري كيف يستغفل أبو شقة قارئه ويدغدغ عواطفه بهذه الأكاذيب؟ وإلا فإنه يعلم، وأصبح الجميع يعلم والله الحمد، أن المجتمعات الإباحية التى لا تكفى بكشف الوجه فقط يتشر بينها الشذوذ أكثر من غيرها حتى إنها اضطرت إلى أن تسن قوانين وشرائع لهذا الشذوذ. ومن أراد أن يعرف شيئا عن الأرقام والحقائق المروعة التى يعيشها الغرب فليرجع إلى كتب محمد رشيد العويد، وكتاب "عندما اعترفت أمريكا بالحقيقة" ترجمة الدكتور محمد البشر، وغيرها من الكتب والمجلات التى كشفت هذا الأمر. بل لو قيل بأن السفور والإباحية هما سبب الشذوذ لكان هذا القول أولى بالقبول لأن الرجال يكونون قد ملوا من النساء ورؤيتهن حتى ثملوا، فلجأوا إلى غيرهن. وما مجتمع قوم لوط عنا ببعيد. ولكنها الأكاذيب والأضحوكات لترويح السفور ونشر الفتنة. نسأل الله العافية.

تناقضات أبى شقة: من الأمور المستقرة عند العلماء أنه ما من إنسان يأتي بقول يخالف للكتاب والسنة إلا وتجد التناقضات في قوله ذلك، فهذه سنة مطردة في كل من خالف الحق... وهذا ما وجدته في كتاب أبى شقة مصداقا لذلك الأمر المستقر والسنة المطردة. وإليك شيئا منه: التناقض الأول أنه، كما سبق، قرر بأن الاختلاط "المشروع" وكثرة لقاء المرأة بالرجل يزيل الحرج عنها ويجعل الأمر عاديا لا فتنة فيه... إلخ. ثم تجده (٣٣/٣) يعلق على حديث "خير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها"، الذي أخرج به علماء الأمة ممن ينكر الاختلاط، يعلق بقوله: "ابتعاد النساء عن الرجال مما يعين على خلوص القلب للعبادة والذكر" فنقول: كيف يكون الاختلاط في خارج العبادة مرغبا فيه ولا يثير شيئا، وأما في العبادة فإنه يشغل الإنسان بالوساوس والخطرات؟! كان العكس أولى، ولكنه التناقض. التناقض الثاني أنه في (٧٠-٦٦/٤) ذكر نصوصا تفيد وجوب ستر ساقى المرأة، فاختر أن المرأة تستر سوقها لا أقدامها! ثم ذكر في (٧١/٤) حديث أم سلمة المشهور: "من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"، فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: "يرخينه شبرا". فقالت: إذن تنكشف أقدامهن؟ قال: "فيرخينه ذراعا لا يزدن عليه". فلما رأى أنه يخالف رأيه المنكوس قال: "هذه الأحاديث تشير إلى ستر القدمين. ولكن إذا تأملناها في ضوء حديث هاجر وأسماء اللذين سبق ذكرهما تبين أن المقصود ستر ما فوق القدمين من أسافل الساقين" فتأمل هذا التناقض والفقه العجيب! الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجه أم سلمة من أفصح العرب، وهى تقول له "إذن تنكشف أقدامهن"، وأبو شقة يقول: بل ما فوق أقدامهن! والغريب أن ذراعا من الثياب يسحب على الأرض لا يستر أسفل الساقين عند أبى شقة! التناقض الثالث أنه يتبجح في مقدمة كتابه بأنه سيعتمد على نصوص "الصحيحين" فقط، وأنه يدعو إلى "أن تكون الفتوى مصحوبة بالدليل من كتاب أو سنة" (٥٠/١)، ثم تجده في (٧٧٢/٤) عند اختياره جواز أن تلبس المرأة ما يصف حجم بعض أعضائها كما سبق يقول مستدلا: "إن عامة الصالحات من نساء الأتراك في عصرنا يبدو شيء من أسافل سوقهن مما يلى الكعبين، لكنه مغطى بجوارب سميقة، وذلك دون إنكار من العلماء" فأين الدليل من الكتاب والسنة؟ التناقض الرابع أنه يقول في (٢٩٥/٤): "نحن لا ننكر وقوع ستر الوجه بنقاب من بعض المؤمنات على عهد النبى صلى الله عليه وسلم"، ثم تراه، كما سبق، يسخر من الحجاب وستر الوجه وأنه يمنع المرأة من التنفس! فلا أدري أنت أرفق بالنساء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى، بحسب اعترافك، قد أقر المؤمنات

على تغطية الوجه؟! لا مفر لك إلا أن تعترف بتناقضك أو أن تصرح بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقر المرأة على العنت والظلم لنفسها! ".
.

خصصت الكاتبة الأمريكية فصلا كاملا للسيدة عائشة رضى الله عنها بعنوان " The Little Rosy One : الحَمِيرَاء " بدأته بإظهار الإعجاب الكبير بثقافتها وإحساسها بذاتها وتعمقها في الدين وأستاذيتها لعدد من الصحابة والتابعين، ناقلة عنها اعتزازها بأنها الوحيدة بين نساء النبی التي نزل الوحي عليه وهو في بيتها. كما أشارت إلى عصبية مزاجها قائلة إنها تسأبت هي وصفية بنت حُيَيّ أم المؤمنين، إذ مَبَّتْ أبا صفية، فَرَدَّتْ صفية بسبب أبي بكر بدورها. كما وصفتها صحفيتا الأمريكية بأنها قد تزوجت النبی صغيرة في التاسعة أو العاشرة من عمرها، وأنها كانت ضد التقليل من شأن المرأة. فهذه أربعة أمور أثارها كارلا باور: فأما تزوج السيدة عائشة رضى الله عنها النبی عليه السلام وعندها تسع سنين، وهو ما أخبرتنا الكاتبة بشعورها بالاشمئزاز في البداية حين قرأته، فقد اختلفت حول ذلك الآراء: فمن العلماء المسلمين من قَبِلَ هذا الكلام، ومنهم من ارتفع بعمرها عند دخول النبی بها إلى ١٤ عاما أو نحو ذلك كالعقاد في كتابه: "الصديقة بنت الصديق"، ومنهم من تأخر بعمرها عند الدخول إلى حوالي العشرين كما هو الحال فيما كتبه د. شوقي ضيف في "سيرة خاتم المرسلين". ولكل أدلته ووجهة نظره. وقد ارتأى عدد من الكتاب الغربيين أن زواج الفتيات في سن صغيرة في البيئة العربية في ذلك الوقت كان أمرا اعتياديا ليس فيه أية مؤاخذه، وأن الفتاة الصغيرة آنذاك من الممكن جدا أن تكون زوجة صالحة ناضجة بما فيه الكفاية.

وأيا ما يكن الوضع فقد كانت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، رضى الله عنها وأرضاها، مخطوبة قبل ذلك إلى جُبَيْر بن مطعم بن عَدِيّ. أى أنها كانت على وشك الزواج منه. وهذا يدل على أن الرسول لم يأت أمرا جديدا، فضلا عن أن يكون غريبا على عائشة وأهلها أو على المجتمع العربي في ذلك الحين. كما أن أبا بكر هو من استعجل النبی بالدخول بها. ثم إن من اقترحها على النبی امرأة لا رجل، ومعنى هذا أنها كانت ناضجة للزواج حتى إن المرأة التي اقترحتها لم تجد في ذلك ما يمكن أن يكون محل استغراب بلّة انتقاد، كما أننا لم نسمع أحدا آنذاك لا من المؤمنين ولا من المنافقين ولا من اليهود أو النصارى إنكارا للأمر ولا بلغنا من كلامها هي صاحبة الشأن ما يمكن أن يشير إلى أنها كانت تعيسة أو مستنكرة لما حدث على عكس ما تقول كذبا شيرى جونز صاحبة رواية "The Jewel of Medina" على لسان عائشة وبعض من حولها من النسوة كأمها وأختها مثلا. وفوق هذا كان زواج النبی بها زواجا سعيدا موفقا تمام التوفيق، إذ كان كلا الزوجين يحب رفيق حياته حبا جما، ولم تتخط عائشة حدودها يوما

مع النبي لفارق السن بينهما، بل كانت تجله وتهابه وتعمل له ألف حساب وحساب رغم معرفتها بغلاوتها عنده وشعورها بجهاها وتدلها عليه في الأوقات التي يحسن فيها التدلل. كما كانت، من فرط حبها له وهيامها به، تغار عليه أشد الغيرة حتى إنها، لما شعرت ذات ليلة بمغادرة الرسول القراش وهو عندها في ليلتها بعد أن ناما، قامت تتبعه في الظلام خشية أن يكون قد ترك فراشها وذهب لوالدة أخرى من ضرائرها، ولم تشعر بالراحة إلا حين تيقنت أنه إنما ذهب للدعاء لموتى المسلمين في البقيع. بل لقد بلغت بها الغيرة عليه ذات مرة أن تمنّت لو نهشت قدمها عقرب حتى تستريح من برحاء الغيرة على الرسول: "عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، تنظرين وأنظري؟ فقالت: بلى. فركبت، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى جمل عائشة، وعليه حفصة، فسلم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافترقت عائشة. فلما نزلوا جعلت رجلها بين الإذخر وتقول: "يا رب، سألني على عقربا أو حية تلدغني"، ولا أستطيع أن أقول له شيئا". ومن الأحاديث التي تحدثت عن غيرتها العنيفة عليه الحديث التالي: "قالت: رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من جنازة من البقيع، فوجدني وأنا أجدُ صداعاً، وأنا أقول: وارأساه! قال: بل أنا، يا عائشة، وارأساه. قال: وما ضرّك لو ميتٌ قَبِل، فغسلتُك وكفّنتُك وصليتُ عليك ودفنتُك؟ قلتُ: لكأنني بك والله لو فعلتُ ذلك لَرَجَعْتُ إلى بيتي فَعَرَّسْتُ فيه ببعضِ نساك!".

وكان النبي صلى الله عليه وسلم تندها ذات ليلة، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت عائشة يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصفحة ثم جعل يجمع فيها العظام الذي كان في الصحفة، ويقول: غارت أمكم. كما تعترف بغيرتها الشديدة من خديجة المتوفاة رضى الله عنهما: "ما غرّت على امرأة لرسول الله كما غرّت على خديجة لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وثنائه عليها".

وكان صلى الله عليه وسلم يحبها بدوره ويعتز بها ويقدر جهاها وذكاها ويستطيب دلالها، لكن هذا كله لم يجرّنها عليه ولم يجعله يتنازل لها في شيء من أمور الدين أو العرف الكريم كما صنع سليمان مثلاً حسب رواية الكتاب المقدس إذ تزوج امرأة وثنية على خلاف أوامر الرب لبنى إسرائيل وتركها تعبد الأوثان في بيته بل لقد أمر بصنع تلك الأوثان. ومن ذلك أنها، حين ألقت ذات مرة يكثر من ذكر خديجة بعد وفاتها بأعوام ويعتز بذكراها ويكل من له صلة بها، ردت بناء على مقتضيات الفطرة النسوية

قائلة: "والله لقد أبدلك الله خيرا منها"، فكان جوابه شديدا غاية الشدة حتى لقد تركت هذا الموضوع فلم تفتحه بعد ذلك قط، إذ قال لها: "والله ما أبدلني الله خيرا منها. لقد آمنتُ بى حين كفر الناس، وصدقتنى حين كذبنى الناس، وواستنى بياها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء". على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل تقبلت بليها تام، دون نبسة شفة بل دون خلجة من خلجات الشعور، تحريم القرآن لزواجها هى أو أية من أمهات المؤمنين بأحد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد عاشت بعده عشرات السنين دون أن تفتح فمها بكلمة فى هذا الموضوع على أى نحو من الأنحاء رغم أنه لم يكن لها منه ولد يمكن أن يشغلها عن الزواج بعده صلى الله عليه وسلم ولا كانت كبيرة السن حتى يقال إنها برمت بالحياة الزوجية فلم تشأ أن تكرر التجربة بعده ولا ترك لها من المال والقصور ما يعوضها عن ذلك.

وهذا دليل عظيم على شدة حبها له صلى الله عليه وسلم خلافا للسفهاء الذى يشيرون هذا الموضوع كل حين متهميه صلى الله عليه وسلم بالفظاظة لزواجه من فتاة صغيرة. بل إن هناك دليلا آخر على استمرار شدة تعلقها به صلى الله عليه وسلم بعدما جربت العيش معه، وهو أن الوحي نزل يوما يخبر نساء النبى بين البقاء معه على ما كن يعشنه فى بيته من شظف العيش أو مفارقتها إلى حياة أرفه، ففضلن كلهن، بما فيهن بل على رأسهن عائشة، أن يبقين زوجات له. بل لقد كان لعائشة موقف مميز فى هذا الصدد، إذ عرض عليها النبى أن تستشير أبويها قبل القطع برأى فى هذا الموضوع، فرفضت رفضا باتا أن تؤخر إعطاء رأيها وأعلنت فى الحال أنها تتمسك به تمسكا وثيقا. وأظن هذا كفيلا وحده بقطع ألسنة المتنطعين السفهاء الذين يطنطنون بالزراية عليه لزواجه منها، وكأنه قد أخذها عتوة من أبويها أو خدعها بالمال يسكتها عن اعتراضها أو كان زوجها فظا كرهت العيشة معه بعدما بَلَّتْ وعرفت حقيقته وتبين لها أنه لا يصلح لها أو تصلح له!

وهناك أدلة أخرى تبرهن على حبها له وسعادتها به ومعه، إذ كانت تسابقه فيسبقها مرة، وتسبقه أخرى، فيتندران بهذا التفاوت فى الحفظ. ولو كانت نافرة منه ترى أن زواجها به بلاء تعيس لما كانت استجابت لمثل تلك التسلية ولأعرضت عنه وأظهرت تبرمها به أو اعتلت بأية علة تريجها من الظاهر بالسعادة فى غير سعادة. بل لقد أتاحت لها ولأهلها فرصة للترافع عن هذا الزواج، الذى لم يثمر ولدا أو بنتا تملأ عليها حياتها وبينها، حين وقعت حادثة الإفك، وظهرت على النبى علامات الحيرة وتركها تذهب لبيت أهلها يعرضونها من تعب ألم بها أو انذاك، ولم يتخذ موقف المدافع عنها قبل أن ينزل

الروحى بتبرئتها، وهو ما ألمها أشد الألم. ومع هذا فقد عادت عائشة إلى بيت الزوجية السعيد بعد أن انقشعت الغيمة السوداء التى كدرت الجميع. ترى ألو كانت تزوجته على غير إرادتها أكانت ترجع إليه بعد الذى حدث؟

وقد أثارَت الصحفية الأمريكية هذه المسألة مرارا وألحت عليها وذكرت أن مستمعى محاضرات الشيخ من الشبان والشابات ظلوا يسألونه: كيف نشرح لغير المسلمين زواج عائشة فى تلك السن الصغيرة؟ وقد رد الشيخ، حسب كلامها، بأن الثقافات تختلف فيما بينهما، وعلى كل أصحاب ثقافة أن يفهموا وضع أصحاب الثقافات الأخرى. وقد أوما فى هذا السياق إلى الزواج المبكر جدا فى أوربا قبل عدة قرون حين كان المجتمع زراعيا ولم يكن هناك تعليم جامعى ولا وظائف ينتظر الشبان والشابات الحصول عليها قبل أن يفكروا فى الزواج، وهو ما وافقته عليه، ولكنها كانت تريد منه أن يدين زواج الأطفال مطلقا. إلا أنها ظلت وراءه هى وطالبتان طبييتان من طلابه يكررن على مسامعه ألوان الأذى الجسدى والنفسى الذى يهيب الفتيات الصغيرات إذا تزوجن قبل نضوجهن حتى سلّم برأيهن وغير ما كان يقوله من قبل من أنه يكفى أن تكون البنت التى يراد تزويجها قد بلغت المحيض وألا تُكرَه على الزواج ممن لا تريد. وأضيف بدورى أن الغريبتين قد قنتوا اللواط والسحاق وبهاتين ألوان الشذوذ، ويظنون أنه ليس من حق أحد أن يعقّب على أوضاعهم المائلة هذه. فكيف تشغل أنفسنا بهم إلى هذا الحد؟ ولقد تزوج يوسف النجار من مريم حسينا يقول تاريخهم المقدس وقد بلغ الثمانين، بينما هى قد نخطت العاشرة بقليل. فليشرحوا لنا هذه أولا. كما انشغلت منذ بضعة عشر عاما بهذا الموضوع فوجدت أن الأمريكيات فى بدايات القرن العشرين كن يتزوجن فى سن قريبة من السن التى يقال إن عائشة تزوجت فيها. كذلك فإن كثيرا من جداتنا قد تزوجن فى مثل تلك السن الصغيرة.

وأذكر فى هذا السياق، وإن لم يكن متصلا بموضوعنا الحالى تمام الاتصال، أن مدرستى الأمريكية التى كانت تعطينى دروسا خصوصية فى اللغة الإنجليزية أول مقدمى إلى أكسفورد قد فتحت موضوع تعدد الزوجات معى ذات مرة، فسألتها بإنجليزيتى المضعضة: أليس ذلك أفضل مما يصنعه كثير من رجالكم إذ يارسون التعدد، ولكن فى الخفاء وفى قذارة وانحطاط؟ فحياتهم لزوجاتهم معناها أنهم يجمعون بين أكثر من امرأة فى وقت واحد. أما نحن فنمارس ذلك علنا وفى نظافة وتقاء. فوافقتنى فى الحال، لم تعد إلى فتح الموضوع ثانية طيلة استمرار الصلة بيننا أنا وزوجتى وبينها هى وهو جلاس ولدها الظريف الحى الذى كان مبعث شد وجذب بينها وبين صديقة مشتركة لنا أسكتلندية اسمها ماريان،

وهي سيدة كبيرة نوعا في السن كانت تعيب على دو جلاس وضعه قرطا في إحدى أذنيه، فكان هذا يؤلم أمه، التي ترى في ذلك تدخلا مزعجا في شؤون ابنها الوحيد من زوج سابق. ويمكنني أن أضيف كذلك أن القانون في الغرب يسمح للولد والبنت أن يمارسا الجنس بحرية دون أى تثريب بعد السادسة عشرة، وأن كثيرا من الأولاد والبنات لا ينتظرون هذه السن بل يفعلون ما يحلو لهم قبل ذلك متى أرادوا، وكثيرا ما يريدون لأن ضغط الشهوة الجنسية عنيف، والمجتمع لا يعرف شيئا اسمه الحرام والحلال، ومن ثم لا يبالي كثير من الصبيان والصبايا بالقانون وتحكماته. وقد أشار د. ندوى إلى هذا بدوره وفضل عليه ألف مرة الزواج المبكر، الذى يضمن للطفل المولود في تلك الحالة أبا وأسرة على العكس مما يحدث في الغرب حيث تُترك الأمهات الصغيرات دون آباء لأطفالهن يرعونهم ويفضون عليهم الختان.

وفي امتدى "أتباع المرسلين" قرأت المقال التالى لمن تلقب بـ "مسلم وأفتخر". وهأنذا أسوقه هنا مع حذف بعض العبارات القليلة التى لا تقدم ولا تؤخر. والمقال عبارة عن إيراد شبهة لشخص غير مسلم مع الرد عليها: "يدعى المسلمون أن زواج رسول الإسلام من عائشة وهى بعمر تسع سنوات كان زواجا مباحا لكون الفتيات في المناطق الحارة من العالم يبلغن سن البلوغ بسرعة بسبب العوامل المناخية والعرقية... إلخ. يمكننا أن نوافق على تلك النقطة حيث إن العلم قام بإثباتها، ولكن السؤال الخطير هنا هو: ما هو الدليل على أن عائشة بلغت سن الزواج؟ فكون الفتيات يبلغن بسرعة في تلك المنطقة، هذا لا يعنى أن كل الفتيات تنطبق عليهن نفس القاعدة، فربما تبلغ فتاة ولا تبلغ أخرى. ولكن ما الدليل على أن عائشة نفسها قد وصلت سن البلوغ؟ لقد حاول المسلمون بكل طاقاتهم أن يدافعوا عن زواج رسول الإسلام من فتاة تبلغ من العمر تسع سنين عن طريق تبرير ذلك ببلوغ الفتيات سن البلوغ بسرعة، ولكنهم لم يجلبوا دليلا واحدا حتى على بلوغ عائشة سن الزواج، مما يعنى أن الاتهام لا يزال قائما".

وصاحب هذه الشبهة يظن أنه قد أحرص المسلمين وعلماءهم بكلامه هذا، فهو يتفق مع المسلمين في نقطة البلوغ المبكر للفتيات القاطنات بالمناطق الحارة أو بسبب العوامل العرقية لأن العلم أثبت ذلك، ولكنه يطلب من المسلمين أن يجلبوا دليلا على بلوغ السيدة عائشة في حد ذاتها، رضى الله عنها وأرضاها. ونقول لصاحب هذه الشبهة العقيمة: الدليل على بلوغ السيدة عائشة رضى الله عنها سن الزواج: قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: إِذَا بَلَغَتِ الْجَارِيَةُ تِسْعَ سِنِينَ فَهِيَ امْرَأَةٌ. إذن من

الشرح أعلاه يتضح لنا أن السيدة عائشة، رضى الله عنها، قد بلغت سن النضج، وقد أدركت أنها تمر بتحولات البلوغ في هذه المرحلة من العمر، فهي إذا امرأة بالغة مناسبة للزواج...

والآن بعد أن عرفنا بالأدلة العلمية نتقل الى الأدلة العقلية. أولاً: أن فكرة زواج النبی من عائشة لم تكن فكرته هو شخصياً، وإنما جاء الاقتراح عن طريق امرأة اسمها خولة بنت حكيم لتوكيد وتقوية الصلة مع أحب الناس الى النبی وأقربهم اليه، وهو سيدنا أبو بكر الصديق والد عائشة. فقيام امرأة باقتراح فكرة هذا الزواج دليل كاف على أن مثل ذلك الزواج كان مجارياً للعرف والعادات في ذلك المجتمع وأن المرأة في ذلك الزمن لم تكن ترى فيه انتهاكا لحقوقها أو سلباً لإرادتها كما تروج لذلك بعض الأقلام السامة. ثانياً: إذا كان هذا الزواج غريباً فلماذا لم يتخذ كفار قريش خريجة ضد النبی لإثبات كذب نبوته؟ طبعاً لأنه كان شيئاً عادياً جداً ومتعارفاً عليه في ذلك الوقت. ثالثاً: العباقرة والجهابذة الذين يتقدون زواج النبی محمد بعائشة لماذا لا يتقدون حالات كثيرة مماثلة في عصره من زواج مبكر من كفار تزوجوا بفتيات في سن مبكرة بل وسبقوا نبي الإسلام إلى ذلك؟ فإذا كان قصدهم نقد العلاقة بين رجل كهل وفئة صغيرة فقد كان من الواجب عليهم أيضاً الحديث عن حالات مماثلة حدثت في عهد سيدنا محمد. ولكن الاسلام ونييه هما المستهدفان بالتشويه. رابعاً: لا يمكن الحكم على زيجة مبكرة تمت منذ ١٤٠٠ سنة بقوانين القرن الحادى والعشرين لأنهم لم يعرفوا جزيرة العرب في ذلك الزمان. والحكم على عادة مارسها مجتمع شرقي قبل أربعة عشر قرناً لن يكون دقيقاً ومنصفاً إذا صدر من الثقافة الغربية العلمانية في القرن الحادى والعشرين لأنهم يصعب عليهم فهم وإدراك العقلية والمبادئ الشرقية والعربية في القرن السادس بصورة كاملة ودقيقة، وذلك بسبب الفارق الزمني الشاسع بين الحضارتين والفارق الفكرى والثقافى والجغرافى الكبير بينهما. خامساً: المستشرق الانجليزى بُوذِل، بعدما زار الجزيرة العربية، عاد من زيارته يقول: "كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذى تنموه نساء العرب. ومثل هذا الزواج ما زال عادة آسيوية وشرق أوروبية، وكذلك كان طبيعياً في إسبانيا البرتغال حتى سنين قليلة".

الأدلة التاريخية: الزواج في سن مبكرة كان موجوداً في أوروبا نفسها، ولا يوجد دليل أفضل على لك من زواج الملوك والحكام في القرن الثانى عشر في سن صغيرة من أجل إنشاء تحالفات تضمن استمرار السلام. وهكذا كانت الإمبراطورة الطفلة أنيس في فرنسا زوجة لاثنتين من الأباطرة بيزنطيين: الإمبراطور ألكسيوس كمنثوس الثانى والإمبراطور أندرونيكوس كمنثوس الأول على

التوالى. وحسب ويليام صور (William of Tyre) فإن أنياس كانت فى الثامنة من عمرها عند وصولها إلى القسطنطينية فى حين أن ألكسيوس كان قد بلغ ثلاثة عشر عاما. وبالإضافة إلى هذا فإن زوجة ألكسيوس كمنتوس الأول كانت ابنة اثنتى عشر ربيعا عند زواجها وأصبحت إمبراطورة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة، وأما أميرة بيزنطا ثيودورا زوجة مانويل فقد كانت فى الثالثة عشرة من عمرها عندما تزوجت بأمر القدس بلدوين الثالث، وتزوجت مارغريت ماريا هنجاريا من إيزاك أنجلوس الثانى فى عمر التاسعة.

لم يكن عمر أنياس فى ذلك العصر أمرا غير مألوف خاصة أنه كان من المتعارف عليه آنذاك أن يجتمع العريسان الجديدان فى القسطنطينية فى بيت الشريك ذى المكانة الاجتماعية العالية. ومع ذلك فقبل أن يكمل ألكسيوس عامه الثالث كإمبراطور نصب ابن عم أبيه أندرونيكوس نفسه إمبراطورا مشاركا (ولد سنة ١١١٨. أى أنه كان فى الخامسة والستين من العمر) وانتزع منصب ألكسيوس بالقوة ثم تزوج أنياس رغم الخمسين سنة التى كانت تفصل بينهما. وهذا يظهر بوضوح أن زواج الفتيات فى سن مبكرة برجال تجاوزوا الستين من العمر كانت عادة سائدة فى أوروبا بين الطبقات الحاكمة نفسها. فما بالك بعامه الشعب؟ لا شك إذن أنها كانت سائدة لدى عموم الناس فى أوروبا نفسها، وذلك بعد أكثر من خمسة قرون من زواج النبى محمد بعائشة.

الأدلة من كتب ورجال دين يهود و نصارى: الديانة اليهودية تسمح بزواج الطفلة عندما تتجاوز الثالثة بيوم واحد. يخبرنا التلمود بأن البنت تكون مهية للزواج وجاهزة للوطء فى سن ثلاث سنوات. وهو مباح لليهودى بشكل عام. فعلى سبيل المثال لا الحصر نقرأ فى التلمود، سانهدرين الصحيفة ٥٥ العمود ب، فى سياق يتكلم عن حد الزنى مع النساء والحيوانات وعن اللواط: "تعال اسمع! بنت ثلاث سنوات ويوم واحد، تُزَوَّج وتُجَامَع". ٢- سفر "الملوك الأول"، الإصحاح الأول الفقرات ١-٣: "و شاخ الملك داود وتقدم فى الأيام، وكانوا يدرثونه بالثياب، فلم يدفأ، فقال له عبيده: ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء. فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع فى حضنك قيداً سيدنا الملك. ففُتِّشوا على فتاة جميلة فى جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أيشيج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك". وكم يسهل الاستنتاج من هذا الاقتباس أن النبى داود فى عمر متقدمة جدا، بل هو شيخ هرم أصابه البرد، ولكن مع ذلك بحثوا له عن فتاة عذراء تصغره بعشرات السنين لتدفئه! والواضح أن هذه الآيات تحمل معانى جنسية، فهى تتحدث عن تدفئة النبى داود بواسطة فتاة جميلة تحضنه وتضطجع فى حضنه ليدفأ حسب

تعبير الآيات! فلماذا لا ينظر المحرضون ضد الإسلام إلى هذا السلوك، ويعتبرونه اغتصاباً وهو ساجن جنسياً؟ العذراء مريم تزوجت في سن الثانية عشرة. والأدلة كثيرة جداً من كتب رجال الدين النصارى. استثنى الحاخامات لأنفسهم الوطء للبنات من الأمم دون سن الثلاث سنوات. فقد أتى لنا التلمود على لسان الحاخامات بأن الكتاب قد أحل للكهنة الوطء لمن هى دون الثلاث سنوات، واستشهدوا بنصوص سفر "العدد" / ٣١: ١٧-١٨، وفسروها كذلك. وعلى الرغم من أن نص سفر "العدد" يتكلم عن البنات المسييات فإن الحاخامات أباحوا لأنفسهم بنات الأمم المتحولات لليهودية بشكل عام حتى وإن لم يكن من سبباى الحروب. فقرأ فى التلمود يشاموت/ الصحيفة ٦٠ العمود ب: "قال الراباى شمعون بن يوحاى: المهتدية دون سن الثلاث سنوات ويوم واحد حلال للهكنوت (للكاهن) كما قيل: "وكل طفلة من النساء اللاتى لم يعرفن مضاجعة رجل، أبقوهن حيات لكم". وبالتأكيد كان فتحاس معهم".

كما توجد مادة فى النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا" عنوانها: "List of youngest birth mothers" تذكر حالات من أرجاء العالم المختلفة كإنجلترا وروسيا وأوكرانيا وبلجيكا وأسبانيا وسويسرا والولايات المتحدة والهند والصين وماليزيا والفلبين وإيران والسنگال وناميبيا وجنوب أفريقيا وكولومبيا والأرجنتين والمكسيك والبرازيل وشيل لبنات أنجبى فى الخامسة من أعمارهن فصاعداً. ويقول محمد كرد على فى آخر فقرة من الفصل المسمى: "غاياتى من سياحاتى" بالجزء الأول من "مذكراته" عن مشاهداته الأوربية فى العقود المبكرة من القرن الماضى: "للحرارة والبرودة والبعد من سمت الشمال والغرب من الجنوب دخل كبير فى تكوين الرجال والنساء. فالشابة فى بلاد الإنجليز لا تبلغ الخُلم قبل الثامنة عشرة على حين ترى فى جنوبى إيطاليا جَدَّة لا تتجاوز سنها الخامسة والعشرين". وقرأت فى باب "بلوغ الصبيان وشهادتهم" من "كتاب الشهادات" فى "صحيح البخارى": "قال الحسن بن صالح: أدركت جارةً لنا جدَّة بنتَ إحدى وعشرين سنة".

أما استتباب السيدة عائشة والسيدة صفية فقد ظننتُ فى البداية للوهلة الأولى أن صاحبة الكتاب تقصد ما كان يقوله بعض أمهات المؤمنين لصفية حين تدب الغيرة بينهن وبينها، إذ يناديها قائلات: يا يهودية بنت يهودين! لكننى وجدت العبارة الإنجليزية لا تعنى هذا بل تعنى بصريح القول أن عائشة سبت أبا صفية، فسبت صفية أباهاردا على ذلك. وقد استغربت هذا الخبر أشد الاستغراب، وبخاصة أنى لا أذكر أنى قابلته من قبل. ومع هذا فقد رحت أبحث عنه فى المظان المتخلفة، فلم أعثر عليه ولا

حتى بين الأحاديث الضعيفة في موقع "الدرر السنية"، الذي يكاد يضم جميع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم وجدته أخيراً في مقال بأحد المواقع الإسلامية استشهد به كاتبه ضمن ما استشهد به من أحاديث وروايات، مع وجود التعليق التالي عليه بالهامش: "هذا الحديث لم نجد له تحريجا في الكتب التسعة". وهذا نصه: "عن ابن أبي عَون قال: قالت عائشة: كنت أستب أنا وصفية، فسببت أباهما، فسببت أبي، وسمعه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فقال: "يا صفية، تسيين أبا بكر؟ يا صفية، تسيين أبا بكر؟". وقد أكد هذا التعليق شعوري قبل ذلك تجاه هذه الحادثة، إذ إنني في الواقع لا أستطيع أن أقبل وقوع الاستتباب بين الضَّرتين الكریمتين على هذا النحو. فصفية لم تكن لتنسى إسلامها فتسبب أبا بكر انتصاراً لأبيها، الذي تركت دينه ولم ترافقه على عداوة رسول الله، بل أفشت له عليه السلام ما كان يكنه الأب والعم له ولدينه من عداوة وبغضاء ويدبران من مؤامرات ضده عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك لست أتصور أن الرسول، بافتراض حدوث التسبب، يمكن أن ينحاز لعائشة ضد خصمتها، وهي البادئة بالسب، مهما يكن إعزازه للصدِّيق. فهذا ليس طبع النبي عليه السلام. كما أن صفية، حين تتحرش بها إحدى ضراتها جراء ما تعرفه من غيرة النساء، كانت تذهب فتشكو ذلك للنبي متألمة ولا ترد عليها بشيء. وأخيراً فإني أستغرب سكوت د. أكرم ندوى على هذا الحديث الغريب.

ومع هذا كله فلا مناص من التنبيه إلى الفرق بين ما علقت به كارلا باور على الحادثة وما قالته مريم جميلة، وهي يهودية أمريكية مثلها، وكانت على صلة قوية بأبي الأعلى المودودي العالم الباكستاني المسلم مثلاً أن كارلا باور على صلة قوية بأكرم ندوى العالم الهندي المسلم، وإن كانت مريم جميلة قد أسلمت بينما باور لم تسلم. ذلك أن جميلة، التي أسلمت قد نالت من السيدة حفصة حين قالت للسيدة صفية رضي الله عنها: "يا يهودية بنت يهوديين"، إذ وصفتها بحدّة الطبع وسلاطة اللسان، بينما اكفّت كارلا باور بإيراد رواية الاستتباب دون أن تنال من عائشة أو حتى تنحاز إلى صفية. وقد قرأتُ ما قالته مريم جميلة في كتابها: "Islam versus Ahlul-Kitab" حين كنت أقطن بلندن في عامي الأخير في بريطانيا (٨١-١٩٨٢م) كنوع من التغيير بعد خمس سنوات قضيتها مقيماً بأكسفورد حيث تقع جامعتي. وكنت استعرت الكتاب من أحد المساجد بشرق العاصمة البريطانية قريبا من مسكني، وقد علقتُ تعليقات كثيرة عليه بقلم الرصاص مخالفا مؤلفته، وبخاصة في تطالها إلى الدخول بين اثنتين من زوجات النبي الذي خلّفت ديانتها وراءها وآمنت به كما صنعت السيدة صفية رضوان الله عليها. لقد كان ينبغي أن تبقى على الحياد بين أمتي المؤمنين لا تنحاز لأية منهما، فضلا عن أن تتناول عليها. إنني

أكبر السيدة صفية غاية الإكبار رضى الله عنها، بيد أنى أعرف عقارب الغيرة بين الضرائر وما يمكن أن تؤدى إليه. وقد انتصف النبي لها، فكان يجب على جميلة أن تتبعد. وهذا نص ما خطته فى كتابها المذكور:

"In the Mishkat-ul-Masabih there is a Hadith where Anas reported that Hafsa (another of the Prophet's wives, the daughter of Hazrat Umar and noted for quick temper and sharp tongue), taunted Safiyya because of her Jewish origin. When Safiyya came to the Prophet weeping, he comforted her by saying, "You are certainly the daughter of a Prophet and now you are the wife of a Prophet so what has she to boast over you?" The Prophet then rebuked Hafsa and reminded her to fear Allah. (Tirmidhi, Nisai)".

وأما قول عائشة إنها زوجة الرسول الوحيدة التى نزل الوحي عليه فى فراشها ففى تصورى أنها تقصد به الزوجات اللاتى كانت تشاركهن الرسول ولا تدخل فيهن خديجة، وبخاصة أنها هى نفسها قد روت عنها هذا الحديث: "كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بَغَارٍ حَرَاءٍ يَتَحَنَّنُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِي أَلَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فُجَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ حَرَاءٍ...". ففى هذا النص، على الأقل، نقرأ أنه كان يأتيه الوحي وهو نائم. وذلك بطبيعة الحال فى غرفة فراشه هو وخديجة.

كما أن قوله تعالى: "يا أيها المزمل" و"يا أيها المدثر" قد نزل عليه وهو نائم فى غرفة فراشها أيضا كما هو واضح من النص، إذ كان مزملا ومدثرا فى الفراش فرقا من أثر اللقاء الأول له مع الوحي فى غار حراء كما يقول الحديث التالى عن جابر بن عبد الله: "سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَى الْقُرْآنِ أَنْزَلَ قَبْلُ؟ قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. فَقُلْتُ: أَوَ "اقْرَأْ"؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ: أَى الْقُرْآنِ أَنْزَلَ قَبْلُ؟ قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. فَقُلْتُ: أَوَ "اقْرَأْ"؟ قَالَ جَابِرٌ: أَحَدُنَا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "جَاوَرْتُ بِحَرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلَتْ فَاسْتَبَطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَتَوَدَّيْتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرِ أَحَدًا، ثُمَّ نَوْدَيْتُ، فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرِ أَحَدًا، ثُمَّ نَوْدَيْتُ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ (يعنى جبريل عليه السلام)، فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: "دَثِّرُونِي"، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَى مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَيَا بَنِيكَ فَطَهِّرْ".

ويبقى التقليل من شأن المرأة، الذى وقفت عائشة ضده بقوة. وقد استشهدت الكاتبة بموقف أم المؤمنين رضى الله عنها من القول بفساد الصلاة فى الحديث التالى: "يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ

والمرأة"، إذ إنها، طبقا لحديث آخر، قد ذُكرَ عندها أن الصلاة يقطعها الكلبُ والحمارُ والمرأة، "فقالت: شبهتمونا بالحمير والكلاب؟ والله لقد رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم يصلي، وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة، فتبدلوا الحاجة، فأكره أن أجلس فأوذى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنسل من عند رجله". وهناك رواية أخرى لهذا الحديث: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي صَلَاتَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنَا مُعْتَزَّةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، وَأَنَا مُضْطَجِعَةٌ عَلَى فِرَاشِهِ الَّذِي يَرْقُدُ عَلَيْهِ هُوَ وَأَهْلُهُ".

وبالمناسبة فقد روى عن ابن عباس حديث آخر يدل على أن مرور الحمار بين يدي المصل لا يفسد عليه صلاته: "كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَذَكَّرْنَا مَا كَانَ يَقْطَعُ الصَّلَاةَ، فَقَالُوا: الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَقَدْ جِئْتُ أَنَا وَغُلَامٌ مِّنْ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ مُتَرَدِّفَيْنِ عَلَى حِمَارٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي بِالنَّاسِ فِي أَرْضٍ خَلَاءٍ، فَتَرَكْنَا الْحِمَارَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جِئْنَا حَتَّى دَخَلْنَا بَيْنَهُمْ، فَمَا بَالِي بِذَلِكَ". وبالمثل روى ابن عباس ما يؤكد أنه ما من شيء من هذه الأشياء الثلاثة تقطع الصلاة أصلا: ذُكرَ عند ابن عباس "يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ". قَالَ: بَشِمَا عَدَلْتُمْ بِامْرَأَةٍ مُّسْلِمَةٍ كَلْبًا وَحِمَارًا. لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَقْبَلْتُ عَلَى حِمَارٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي بِالنَّاسِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ قَرِيبًا مِنْهُ مُسْتَقْبِلَةً نَزَلْتُ عَنْهُ وَخَلَيْتُ عَنْهُ وَدَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاتِهِ، فَمَا أَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ وَلَا تَهَانِي عَمَّا صَنَعْتُ. وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي بِالنَّاسِ، فَجَاءَتْ وَلِيدَةٌ تَحْمِلُ الصُّفُوفَ حَتَّى عَادَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا أَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ وَلَا نَهَاها عَمَّا صَنَعْتُ. وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، فَخَرَجَ جَذَى مِنْ بَعْضِ حِجَرَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَهَبَ يَجْتَازُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَفَلَا تَقُولُونَ: الْجَذَى يَقْطَعُ الصَّلَاةَ؟"، وإن قال الشيخ أحمد شاكر إن "إسناده ضعيف". وفي حديث آخر إسناده صحيح: "ذُكِرَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا يَقْطَعُ الصَّلَاةَ؟ فَقَالُوا: الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِلَيْهِ يَضَعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ. وَمَا يَقْطَعُ هَذَا، وَلَكِنَّهُ يَكْرَهُ". وهناك هذا الحديث أيضا: "قِيلَ لَابْنِ عُمَرَ: إِنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ بَنَى أَبِي رِبْعَةَ يَقُولُ: يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يَقْطَعُ صَلَاةَ الْمُسْلِمِ شَيْءٌ". وأنا مع ابن عمر رضى الله عنه. وربما كان المقصود مثلا، ولا أجزم بهذا، أن الحديث الذي يتكلم عن قطع الكلب والحمار والمرأة للصلاة يضرب بعض الأمثلة لما يشتت ذهن المصل لا لما يفسدها فعلا فلا تُقبل أصلا.

على أن ليس هذا هو الحديث الوحيد الذى صححته عائشة رضى الله عنها، فقد روى أيضا: "لَمَّا مَاتَتْ أُمُّ أَبَانَ بِنْتُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ حَضَرَتْ مَعَ النَّاسِ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، فَبَكَى النِّسَاءُ، فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: أَلَا تَنْتَهَى هَؤُلَاءِ عَنِ الْبُكَاءِ؟ إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَدْ كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ ذَلِكَ، فَنَخَرَجْتُ مَعَ عَمْرٍو، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبِدَاءِ إِذَا رَكْبٌ، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مِنَ الرِّكْبِ؟ فَذَهَبْتُ، فَإِذَا هُوَ صُهِيبٌ وَأَهْلُهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا صُهِيبٌ وَأَهْلُهُ. فَلَمَّا دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ، وَأَصِيبَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جَلَسَ صُهِيبٌ يَبْكِي عَلَيْهِ وَيَقُولُ: وَاجِبَاءُ! وَاصِبَاءُ! فَقَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَبْكِ، فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ. قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ: أَمَا وَاللَّهِ مَا تَحْدِثُونَ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الْكَاذِبِينَ، وَلَكِنَّ السَّمْعَ يَخْطِئُ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ لَمَّا يَشْفِيكُمْ: "أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى". وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ". وَأَنَا مَعَ الْقَوْلِ بِأَنْ بُكَاءَ أَهْلِ الْمَيِّتِ الْمُسْلِمِ لَا يُوْدَى إِلَى تَعْذِيبِهِ أَوْ يَزِيدُهُ عَذَابًا. كَيْفَ، وَاللَّهِ سَبْحَانَهُ عَادِلٌ رَحِيمٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوَاخِذَ بَرِيئًا بِذَنْبٍ غَيْرِهِ؟ اللَّهُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ أَوْصَاهُمْ بِأَنْ يَعْمَلُوا مَنَاحَةَ مِنْ أَجْلِهِ يَنْشُرُونَ بِهَا ذِكْرَهُ بِهَا وَيُفَاخِرُونَ بِهِ مَثَلًا.

وقد رجعت إلى مسند عائشة عند أبى داود، فعثرت أيضا على الأحاديث التالية التى تصلح للاستشهاد بها بنحو أو آخر على ما تقوله كارلا باور من وقوف عائشة رضى الله عنها ضد تحقير شأن المرأة: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ بَعْضَ نِسَائِهِ وَهُوَ صَائِمٌ. وَتَبَسَّمَ. "لَعِبَ السُّودَانُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَانِى، فَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِ عُنْتِى. فَلَمَّ أَرَلُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ حَتَّى كُنْتُ أَنَا الَّتِى انْصَرَفْتُ"، "كُنْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعْتَسِلُ مِنَ الْإِجْدِ كِلَاتَا مِنِّهِ"، "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا ضَرَبَ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً"، "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجَاوِرُ فِي الْمَسْجِدِ فَيَخْرُجُ إِلَى رَأْسِهِ، فَأَعْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ"، "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَائِشَةُ يَغْتَسِلَانِ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ كِلَاهُمَا يَغْتَرِفُ مِنِّهِ"، "كُنْتُ أَلْعَبُ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنِّبَاتِ، فَيَجْنُ صَوَاجِبِى فَيَتَّقِمُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَخْرُجُ، فَيَدْخُلُنَّ عَلَى".

وفي ذلك الفصل أيضا تعرضت الكاتبة لحادثة الإفك. وهي معروفة للجميع، فلا لزوم لتفصيل القول فيها. ولكنى أحب أن أتناول النقطة التالية: هل اجترحت عائشة في هذه الواقعة ما لا يليق بامرأة كريمة كما يقول بعض من لا يؤمنون بنبوة محمد من ملاحدة ومستشرقين ومبشرين؟ وقبل أن أعرض لهذا الموضوع أحب أن أعلق على ما جاء في كلام د. ندوى متصلا بموقف عائشة حين نزلت تبرئتها من السماء في بيت أبيها، وطلبت منها الأم أن تقوم فتشكر زوجها على ما انتهت إليه الأمور، إذ كان رد عائشة أنها سوف تشكر الله وحده. لقد فهم د. ندوى أن نظرتها إلى الأمر كانت أكبر من أن تحصر الأمر في الزوج، فارتقت إلى أفق أعلى هو الأفق الإلهي. ولست أريد أن أجادل في هذا، فعائشة سيدة مؤمنة ذكية تقية حرة بأن تتطلع هذا التطلع. لكن لا ينبغي أن ننسى حزنها وغضبها جزاء ما تركته الشائعات من أثر في نفسية الرسول حتى لقد تحير وصار يسأل من حوله عن رأيه فيها، بل سألها هي أيضا عما إذا كان قد فرط منها شيء فتستغفر الله عليه، على حين كانت هي بطبيعة الحال تريد أن يسارع إلى تبرئتها للوهلة الأولى دون أن يلتفت إلى ما يقال. فلما لم يفعل، وترك الأمور تمضي في طريقها شهرا، كان رد فعلها على النحو الذي رأينا. هكذا أقرأ الواقعة، ولأمانع أن نضيف إليها ما قاله أكرم ندوى. ومن الناحية الأخرى لقد كان تصرفه صلى الله عليه وسلم في غاية الحكمة والنبل رغم كل شيء. ولو كان غيره مكانه لاختل توازنه تماما وأقدم من التصرفات على كل شنيع ولطلق زوجته أو لقتلها أو في أقل تقدير: ضربها ضربا مبرحا وفضحها في العالمين. وهنا أحب أن أقول كلمة شغلتنى طويلا قبل ذلك، وهي: أين يبدأ الوحي؟ وأين ينتهى التفكير المحمدي في أمور حياته صلى الله عليه وسلم؟ أتصور الأمر كما يلي: لقد اختاره الله على عينه سبحانه، فكان ذكيا أريبا حكيما عميقا منظم التفكير بارع التخطيط، لكنه في نهاية المطاف بشر له حدود طاقته وقدراته لا قبل ذلك، تبدأ معونة السماء له فتدخل تدخلها والمرسلون. وهنا، أى عند انتهاء حدود طاقته وقدراته لا قبل ذلك، تبدأ معونة السماء له فتدخل تدخلها استثنائيا. هذا هو تصوري في خطوطه العامة. لكن الأمر لدى عائشة قد اتخذ منحى مختلفا. لقد رأت أن كرامتها وحبها للرسول وإعزازها لها كان ينبغي أن يحسم المسألة لصالحها منذ الوهلة الأولى غير دارية في عز محبتها أنه هو أيضا قد عاش محنة لا تقل بل تزيد هولا عن محبتها وأنه، رغم نبوته ورسالته، بشر يتعرض لما يتعرض له البشر من قلق وحزن وحيرة وترقب. والمهم أنه لم يقدم على أى تصرف لا يليق بالرجل النبيل رغم كل هذا.

كذلك قال أكرم ندوى ما يفهم منه أن على الزوج غسل الأطباق والطبخ وما إلى ذلك، أما الزوجة فمهمتها تربية الأولاد. وأرى أن هذا إبعاد في النجعة ومغالاة سخيفة. ذلك أن النزعة النسوية هذه الأيام تنظر إلى قيام المرأة بمثل تلك الأعمال بوصفها إساءة لها وحطاً من قدراتها ومواهبها، فيأتى الندوى ليقول العكس حتى يثبت أنه مسلم عصرى. لا شك أن الرجل الكريم لا يجد حرجاً في مساعدة زوجته في عملها. ولقد كان الرسول، كما نعرف جميعاً، يجلب شاته ويرتق نعله ويكون في خدمة أهله وما إلى هذا. لكن لا أظن أنه عليه السلام كان يعمل هذا دائماً بانتظام بينما تكفى عائشة مثلاً أو حفصة بالجلوس والنظر إليه وهو يؤدي هذا العمل. لقد وزع الندوى الاختصاصات، وجعل اختصاص المرأة تربية الأولاد، وكأن الأب لا يستطيع التربية، أو على الأقل: لا يستطيع أن يقوم بنصيب فيها. ثم إنه إذا كانت المرأة تربي الأطفال ولا يبذل الأب جهداً في هذا السبيل، وهو غير صحيح، فإن الأب من ناحية أخرى يعمل خارج البيت ويجرى ويفتح الدم من أجل توفير رزقه ورزق أسرته. ومن هنا نرى وجه المغالاة في كلام د. ندوى، الذى لو كان صحيحاً لرأينا الصحابة أول من يطبقونه، ولكان الله ورسوله قد أمروهم بهذا. لكنهم لم يطبقوا شيئاً من ذلك ولا أمرهم القرآن والحديث بمراعاته. إن كلام الدكتور ندوى يعود بنا على نحو ما إلى ما كان يقوله بعض الفقهاء القدماء من أن دور المرأة ينحصر في إمتاع الرجل جنسياً، أما أعمال البيت فليست بواجبة عليها. وقد أشارت كارلا باور نفسها إلى هذا فيما بعد، وهذا نص كلامها: "One jurist went so far as to write that marriage "is a contract whose object is... dominion over the vagina" وهذا يبيع النسويون قائلين: "كيف لا تَرَوْنَ في المرأة سوى متعة الجسد؟". حيرتمونا، حيركم الله! بل إن الأحاديث لتتكلم عن قيام زوجات النبى والصحابة بالطبخ والغسل والعجن والتمريض وما إلى هذا بسبيل.

تعالوا نقرأ هذه الأحاديث مثلاً: فقد دخل النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم على ابنة عمه أم هانئ بنت أبى طالب فسألها الطعام، فأجابته أن ليس لديها سوى كسرة يابسة وخل، فقال: "قَرِّبِيه". فهو إنما طلب الطعام من أم هانئ لا من أجد رجال البيت. ومثله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هلُمى أم سليم. ما عندك؟ فأنت بالخبز، فأمر رسول الله فُقَّتْ، وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته". "عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قربت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جنباً مشوياً، فأكل منه". "أتى جابر بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليه. قال جابر: فرأيت في وجه

رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرا، وما أحسبه تغير إلا من الجوع، فقلت لامرأتى: هل عندك من شئ؟ قالت: والله ما لنا إلا هذا الداجن وفضلة من زاد نعلل بها الصبيان. فقلت لها: هل لك أن نذبح هذا الداجن، وتضعين ما كان عندك، ثم نحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: أفعل ما أحييت من ذلك. قال: فذبحت الداجن، وصنعت ما كان عندها، وطحنت وطبخت، ثم تَرَدْنَا فِي جَفَنَةِ لَنَا، فوضعت الداجن ثم حملتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي حادثة الإفك سأل النبي عليه السلام بُرَيْرَةَ جارية عائشة عن أمرها فأجابته قائلة: "ما رأيتُ أمرا أكثرَ مِن أنها جاريةٌ حديثةُ السنِّ تنامُ عن عجيبِ أهلِها، فتأتى الدَّاجِنُ فتأكلُه". "كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التى النبي صلى الله عليه وسلم فى بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلَقى الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة، ويقول: غارت أمكم. ثم حبس الخادمَ حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها، فدفَع الصحفة الصحيحة إلى التى كُسِرَتْ صحفتها، وأمسك المكسورة فى بيت التى كُسِرَتْ".

وعن عبد الله بن بسر: "قال أبى لأُمِّى: لو صَنَعْتَ طعامًا لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فصَنَعْتُ ثريدةً، وقال بيده هكذا يقلُّلُها، فانطلق أبى فدعا رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على ذروتها ثم قال: خُلُوا بِاسْمِ اللهِ. فَأَخْلَوْا مِنْ نَوَاحِيهَا. فَلَمَّا طَعِمُوا دَعَا لَهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُمْ وَبَارِكْ لَهُمْ فِي رِزْقِهِمْ". وقالت امرأة من بنى أسد: "كُنْتُ عِنْدَ زَيْنَبَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَحْنُ نَضِيعُ ثِيَابًا لَهَا بِمَغْرَةٍ، إِذْ طَلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمَّا رَأَى الْمَغْرَةَ رَجَعَ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ زَيْنَبُ غَسَلَتْ ثِيَابَهَا، وَوَارَتْ كُلَّ حُمْرَةٍ، فَجَاءَ فَدَخَلَ". وعن أسماء بنت عميس: "لَمَّا أَصِيبَ جَعْفَرُ وَأَصْحَابُهُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ دَبِغَتْ أَرْبَعِينَ مِيتَةً وَعَجَنْتُ عَجْنِي وَغَسَلْتُ بَنِي وَدَهْنَتُهُمْ وَنَظَفْتُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَيْتَنِي بِنِي جَعْفَرٍ. قَالَ: فَأَتَيْتُهُ بِهِمْ، فَشَمَّمَهُمْ وَخَرَفْتُ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: بَابِي أَنْتَ وَأُمِّى! مَا يَبْكِيكَ؟ أَلْبَلَّغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ أَصِيبُوا هَذَا الْيَوْمَ. قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصْبَحُ، وَاجْتَمَعَ إِلَى النِّسَاءِ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: لَا تَغْفُلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا، فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ". وعن سلمة الهذلي "أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ دَعَا بَهَاءَ مِنْ عِنْدِ امْرَأَةٍ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدِي إِلَّا فِي قَرْبَةٍ لِي مِيتَةٌ. قَالَ: أَلَيْسَ قَدْ دَبِغْتِهَا؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ دَبَاغَهَا ذِكَاثُهَا". "دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَأَنَا ابْنُ ثَمَانَ سِنِينَ، وَكَانَ أَبِي تُوفًى،

وَتَزَوَّجَتْ أُمِّي بِأَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ إِذْ ذَاكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ، وَرُبَّمَا بَشْنَا اللَّيْلَةَ وَاللَّيْلَتَيْنِ بَغِيرَ عَشَاءٍ، فَوَجَدْنَا كَفًّا مِنْ شَعِيرٍ، فَطَحَّشْتُهُ وَعَجَّشْتُهُ، وَخَبَزْتُ مِنْهُ قُرْصَيْنِ، وَطَلَبْتُ شَيْئًا مِنَ اللَّبَنِ مِنْ جَارَةِ لَهَا أَنْصَارِيَّةٍ، فَصَبَبْتُ عَلَى الْقُرْصَيْنِ، وَقَالَتْ: اذْهَبْ فَادْعُ بِأَبِي طَلْحَةَ تَأْكُلَانِ جَمِيعًا. فَخَرَجْتُ أَشْتَدُّ قَرَحًا لِمَا أُرِيدُ أَنْ أَكُلَ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا وَأَصْحَابِهِ، فَدَنَوْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي تَدْعُوكَ. فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: قُومُوا. "خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ فَقَالَتْ لَهُ: مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يَرُدُّ وَلَكِنِّي امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنْتَ رَجُلٌ كَافِرٌ، وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ. فَإِنْ تُسَلِّمَ فَذَلِكَ مَهْرِي لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَاسْلَمْ، فَكَانَتْ لَهُ، فَدَخَلَ بِهَا، فَحَمَلَتْ فَوَلَدَتْ غَلَامًا صَبِيحًا. وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَحِبُّه حُبًّا شَدِيدًا، فَعَاشَ حَتَّى تَحْرَكَ فَمَرِضٌ، فَحَزَنَ عَلَيْهِ أَبُو طَلْحَةَ حُزْنًا شَدِيدًا حَتَّى تَضَعُضَعَ. قَالَ: وَأَبُو طَلْحَةَ يَغْدُو عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُروحُ، فَرَاحَ رَوْحَةٍ، وَمَاتَ الصَّبِيُّ، فَعَمَدَتْ إِلَيْهِ أُمُّ سُلَيْمٍ فَطَيَّبَتْهُ وَنَظَّفَتْهُ وَجَعَلَتْهُ فِي مُخَدَّعِنَا، فَأَتَى أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: كَيْفَ أُمْسَى بَنِي؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ! مَا كَانَ مِنْذُ اشْتَكَى أَسْكَنَ مِنَ اللَّيْلَةِ. قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ وَسُرَّ بِذَلِكَ. فَقَرَّبَتْ لَهُ عَشَاءَهُ، فَتَعَشَّى، ثُمَّ مَسَتْ شَيْئًا مِنْ طَيِّبٍ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ حَتَّى وَقَعَ بِهَا. فَلَمَّا تَعَشَّى وَأَصَابَ مِنْ أَهْلِهِ قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، رَأَيْتَ لَوْ أَنَّ جَارًا لَكَ أَعَارَكَ عَارِيَةً فَاسْتَمْتَعْتَ بِهَا ثُمَّ أَرَادَ أَخْذَهَا مِنْكَ أَكُنْتَ رَاذِيًا عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: إِي وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ لَرَاذِيًا عَلَيْهِ. قَالَتْ: طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُكَ؟ قَالَ: طَيِّبَةً بِهَا نَفْسِي. قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَارَكَ بَنِي وَمَتَّعَكَ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ قُبِضَ إِلَيْهِ، فَاصْبِرْ وَاحْتَسِبْ. قَالَ: فَاسْتَرْجَعَ أَبُو طَلْحَةَ وَصَبَرَ. "جَاءَتِ النِّسَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ الرُّجَالُ بِالْفَضْلِ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. أَفَمَا لَنَا عَمَلٌ نَدْرِكُ بِهِ عَمَلَ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِنْهُنَّ إِحْدَاكُنَّ فِي بَيْتِهَا تَدْرِكُ عَمَلَ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... إلخ.

ولو تركت نفسي للرغبة في الضحك والتهكم لقلت: لم يبق إلا أن ينادى د. ندوى بأن يعمل الرجل عن كاهل زوجته بل عن بطنها ورحمها عبء الحمل والولادة والإرضاع، وتقوم هي بالغزو والزراعة والتجارة مع بقاءه هو في المنزل يطبخ ويغسل ويكوى ويرتق فتوق الجوارب، وبالمرة: يزجج حاجبيه، ويضع الكحل في عينيه، ويتكسر في صوته ومشيته، ويتفخ خديه! ولا يستغرب أحد من هذا الاقتراح التهكمي، فقد رأينا من بنات حواء من تستغرب استخدام ضمير المذكر لله سبحانه وتعالى وتدعو إلى نسبة الأبناء في الأوراق الرسمية إلى أمهاتهم، ومن تغضب لأنها ليس لها عضو كعضو

الرجل، ومن تنادى بإلغاء الزواج بين الرجال والنساء اكتفاء بالزواج المثل مع الاستعاضة بالتناسخ عن الحمل والولادة الطبيعيين.

أما كلام د. ندوى الذى يقرر فيه أن أحدا لا ينبغي أن يسيطر على أحد في البيت فتجاهل لما ينبغي أن تقوم عليه الأسرة من وجود من يرأسها شأنها شأن أية مؤسسة اجتماعية أخرى. وهذا ما يسمى بـ "قوامة الرجل"، وهى مذكورة في القرآن. صحيح أن الرئاسة ليس معناها الاستبداد والاستعباد والقسوة والتعسف، لكن ليس معناها أيضا أن يركب كل من في البيت دماغه ولا يستمع إلى ما يقوله الأب تحت هذه الحجة. والواقع أن د. ندوى، فيما أحس، قد وقع تحت ضغط النزعة النسوية في الغرب، فأراد واعيا أو غير واع أن يقول إنه هو أيضا بل الإسلام كله نسوى النزعة. الحق أن الإسلام ينصف المرأة ويحترمها ويغض وقوع الظلم عليها وأكل حقه والخشونة معها وعدم الالتفات لما فيها من رقة وضعف. لكنه في ذات الوقت لا يرضى أبدا الإجحاف السخيف بالرجل والجحف عليه.

ومن هنا لا أستطيع أن أرافي د. ندوى على ما يقول في هذا الصدد رغم حبي للمرأة أمّا جدة وعمّة وخالة وأختا وبنتا وحبيبة وزوجة وزميلة وجارة وتلميذة، ورغم أنى لا أستطيع تخيل الدنيا طرفة عين بدونها، إذ الحياة تصير صحراء محرقة لو خلت منها، فهى الورد والعطر والأحلام والرقّة والعذوبة والجمال. الواقع أن هذا التخاذل لها بدون وجه حق ليس سوى تمخّل ماسخ. ذلك أن أى شىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. نعم إن للشعراء الحق في تصويرها ملاكا مرفرف الجناح، لكن هذا إنما يليق بدولة الشعر والفن، أما في دنيا الواقع فتحن بحاجة ماسة إلى الحكمة والاعتدال والانضباط، وإلا تميّعت الأمور، والعياذ بالله!

وقد انتهت الصحفية الأمريكية شيرى جونز في روايتها المنحطة: "The Jewel of Medina" إلى أن الخبز كان من اختصاص المرأة المسلمة كما في كل بلاد العالم، إذ وصفت يدئ أم رومان زوجة أبى بكر على لسان عائشة ابتها بأنهما قويتان بسبب السنين التى قضتها في عمل الخبز. كما تتحدث عن الاستقاء من البئر بوصفه عملا نسائيا. وهناك الطبخ أيضا. وذكرت على لسان عائشة أنها كانت تعجن الخبز وتغزل الصوف وتنسج الملابس. فكيف فات هذا د. ندوى؟ وقد انتهت إلى هذا انطلاقا من شعورها الفطرى، إذ هى امرأة، والمطبخ هو مملكة المرأة في كل الأمم والحضارات على مر التاريخ. أما صلة الرجل به فأمر ثانوى، اللهم إلا إذا كان هناك احتراف للطبخ وما إلى ذلك في الفنادق والمؤسسات الكبرى، إذ الرجل هو الذى يتولى أمر هذه المهمة حيثئذ. وهى من المفارقات الطريفة. وفي أوروبا الحالية

نرى السيدات هن اللاتي يتولين الشؤون المنزلية من طبخ وغسل وتنظيف للبيت وما إلى هذا، مع مساعدة الرجال هن في بعض الأحيان، إلا أنها مساعدة على الهامش في العادة. وكاتب هذه السطور قد يغسل الأطباق أحيانا، أو يعد الأطباق الخفيفة كالسلطة مثلا والبيض المسلوق. لكن ذلك كله يتم على سبيل الاستثناء كما قلنا. والزوجة لا ترحب بذلك إلا في النادر، وتضيق عادة ضيقا كبيرا إذا ما أردت الاستغناء عنها في تجهيز طعامي، وترفضه بشدة، وترى فيه مساسا بها. وهي متعلمة تعليما عاليا وحاصلة على الماجستير، وكانت توشك أن تحصل على الدكتوراه لولا بعض الظروف التي صرفتها عن إتمامها. كما أنها تحب القراءة، وكانت تنسخ لي كتيبي إلى وقت قريب، وتبدي رأيها فيما تقرأه عند تبينه. وأحيانا ما أنزل على رأيها فأغير فيها ككتب بناء على ملاحظاتها.

وهنا نصل إلى واقعة الإفك ذاتها. ومن أعداء محمد صلى الله عليه وسلم من يزعمون أن عائشة قد زلت في تلك الحادثة. بل إن بعض الملاحدة الوضاعاء الخبثاء من ذوى الخلفيات الإسلامية ليتظاهرون بالثناء عليه صلى الله عليه وسلم لسعة صدره ومرونته التي تبدت في إعادته عائشة بعد الذي اجترحته. الأخية الله على كل عديم الرجولة. أو محمد يفعل كما يفعلون هم؟ إن عائشة من بيت كريم، وأبوها هو من هو؟ وزوجها نبي عظيم أو على الأقل عند من لا يؤمنون بنبوته: زعيم كبير، فكيف ترضى لها مكانتها الاجتماعية أن تنزل إلى هذا الدرك الأسفل من الأخلاق في بلاد تققدس العرض كل هذا التقديس، فتجلب على نفسها وزوجها وأبيها وقومها العار والخسران وتمرغ أنوف الجميع في الرغام إلى الأبد؟

وقرأت لأحد الملاحدة السافلين وصفا لما تخيل المجرم أنه قد حدث بين صفوان وعائشة بالتفصيل وكان ذلك الديوث كان حاضرا هناك وسجل المشهد البورنوجرافي. ونقول هؤلاء وأمثالهم من كل دنس لثيم: إننا هنا، أيها السفهاء الأذنياء، مع عائشة لا مع نسوتكم اللاتي لا يعرفن الشرف والنبيل والوفاء مثلهن في ذلك مثل أزواجهن. وأخيرا نحن هنا في بلاد العرب في القرن الخامس الميلادي، وفي مجتمع مسلم، لا في أوروبا العصرية المنفلتة العيار في دنيا الجنس والشهوات. كذلك نحن هنا أمام عائشة لا الأميرة ديانا، التي ظهرت في التلفاز تحكى خيانتها بالتفصيل لزوجها مع بعض ضباط القصر الملكي في بريطانيا دون أن تحس بذرة من الحياء، ورغم هذا تعاطف كثير من الشعب البريطاني معها أشد التعاطف. وهو ما صنعه أيضا زوجها، فظهر في التلفاز يتحدث عن خيانتها لها، وباء مثلها بالتعاطف من شعبه. ولا ننس أيضا أن عائشة لم يسبق أن بدا منها قبل ذلك ما يومى إلى استعداد

لمغامسة مثل ذلك الصنيع ولا عشر معشاره ولا واحد على الألف ولا على المليون منه. فكيف يتهاوى البناء الشامخ المشمخر دفعة واحدة على غير انتظار، وبغير مقدمات؟

وهناك زوج عائشة. فإذا كانت تؤمن به نيبا كما هو الواقع فكيف أقدمت على هذا التصرف المجنون بل الاتحاري، وهي تدرك بلا شك أن السماء لن تسكت على هذه الخيانة فترضى للرسول الكريم أن يحتفظ بها زوجة بعد الذي حدث؟ أما إن قلنا إنها لم تكن تؤمن به وزلت فعلا كما يدعى المتخرسون فلماذا استمرت معه باقى عمرها بل وقبلت تحريم القرآن زواجها هي وسائر أمهات المؤمنين بعده عليه السلام تمام القبول والرضا، وكان باستطاعتها الهرب إلى أرض الروم مثلا والاستمتاع بحياتها هناك بعيدا عن الإسلام وزوجها النبی المزيف، أستغفر الله، وبخاصة أنها، كما يزعم الكذابون أعداء الإسلام، قد تزوجته غصباً زواجاً انتهك طفولتها وبراءتها؟ لقد كانت علائم التزق والتهور حرية أن تظهر في سلوكها بعدما رأت زوجها لا يبالي بما صنعت ويعيدها إلى بيته وكأنها لم تجترح شيئا. بل أكان صفوان بن المعطل يبقى يوما واحدا مؤمنا بمحمد حتى لو جشمه هذا الأمر الفرار من بلاد العرب كلها بعد أن تبين له أنه نبى مزيف يختلق الوحى يبرئ به زوجته الخائنة، ويقول في حقه: "ما علمتُ عنه إلا خيرا"، "والله إن علمتُ عنه سوءاً قط؟" لقد استمر صفوان على إيمانه بمحمد واشترك في الغزوات كلها في حياته وفي الفتوح الكبرى بعد عامته حتى وافته منيته في سميساط على شاطئ الفرات في عهد معاوية بعد أن اندقت رجله في الحرب، فظل يقاتل حتى مات. ترى أهذا تصرف رجل فعل هذا الذى يتقوله عليه المتقولون الخراصون؟ ثم إن صفوان لم تعلق به من قبل الإفك ولا من بعده ذرة رية. فكيف يمكن أن يجترح مثل ذلك الفعل مع زوجة نبيه؟

أما محمد فإن كان نيبا حقيقيا فيرتب على هذا أن ما جاء به عن براءتها من الإثم هو الحق الذى لا مزية فيه. وأما إن كان نيبا زائفا فكيف يقدم على تبرئها وهو يعلم أنها قد خانت، مما يترتب عليه أن تنظر هي إليه بعين الاحتقار؟ بل كيف يمكن أن يزول عنه القلق والتحير دفعة واحدة بعد نزول نص التبرئة فلا يعتريه الشك في زوجته مرة أخرى بعد هذا ولا يفتح معها هذا الموضوع ولو في عبارة عابرة؟ نحن نعرف أن الشك في مثل تلك الحالة لا يزول مرة واحدة إلى الأبد، بل يذهب ويعود، ويذهب ويعود كما هو الملاحظ في سيكولوجية الشك والشاكين، اللهم إلا إذا تبين صلى الله عليه وسلم تيقنا تاما ونهائيا ببراءة زوجته، وهو ما لا يمكن أن يكون إلا بكلمة من عند الله.

وآخر ما قيل في مسألة الإفك على نطاق واسع من قِبل أعداء محمد ودينه ما كتبه الصحافية الأمريكية شيرى جونز في روايتها: "The Jewel of Medina"، التي قرأتها بأخرة فألفيتها تندهدى إلى مستوى من الانحطاط لا يليق إلا بكتابتها المفضوحة التي تظن أن عائشة يمكن أن تسير سيرة أمثالها وتمشي على حل شعرها مثل معظم الأمريكيات والأوربيات اللاتي لا يحكمهن عرف كريم ولا دين قويم ولا يبالين إلا بأجسادهن وشهواتهن ولا يعرفن شيئا اسمه العفة والحرص على العرض والسمعة. ويكفى أن تقرأ السطور الأولى من الرواية السفيهة الساقلة حتى تعرف طبيعتها دون أن تكملها. لقد صورت الكاتبة السيدة عائشة عند وصولها إلى يثرب وقد ركبت خلف صفوان ولقت ذراعيها حول خصره وأسندت خدها إلى كتفه وسقط خمارها عن رأسها فبدا شعرها مهفهفا فوق وجهها، ووقف أهل المدينة كلهم على بكرة أبيهم رجالا ونساء وأطفالا ينظرون إليها مسددين كلهم نحوها إصبع الاتهام حقيقة لا مجازا، بل لقد بصق بعضهم في الأرض غضبا واحتقارا، بينما رسول الله واقف عاجز لا يقول شيئا، والصديق ترتعد شفتاه كأنها يوشك أن يبكي.

وهذا كله كذب: فلا صفوان كان راكبا معها بل كان يمشى أمام الركوبة يشدها من خطامها، ولا كانت الدابة التي تركبها حصانا كما زعمت بل جملا، ولا أهل المدينة كلهم اتهموها بل أفراد قليلون منهم، ولا تم الاتهام علنا بل كان المرجفون ينشرونه في الخفاء شأن كل متخرص كذاب، ولا جرؤ أحد منهم أن يقول شيئا في عائشة أمام النبي عليه السلام، ولا انتزاع خمار عائشة حتى بدا شعرها مهفهفا وكأنا أمام فلم من أفلام الإغراء، ولا وصلت عائشة وصفوان إلى المدينة بل لحقا بالجيش أثناء توقفه في الطريق، ولا علمت عائشة بشيء من الإفك إلا بعد حدوثه بزمان على عكس ما تدعى كاتبة الرواية على طريقة الفضائح الأمريكية، إذ أجرت الحكاية على لسان أم المؤمنين ذاتها بدءا بالمنظر الرهيب في بداية الأمر، وهو المنظر الذي فرغنا منه لتونا.

وهذه مجرد عينة صغيرة جدا من الأخطاء الفاحشة التي تعج بها الرواية: فمن ذلك مثلا زعم كاتبة الرواية على لسان عائشة أن زوجة أبيها القديمة كان تنادى أمها: "ذرة"، أى البيغاء، ثم تشرح ذلك بأنها هي اللفظة التي تطلق على الزوجة المنافسة. وهذا يذكرنا بقولهم: "سمك، لبن، تمر هندي!"، إذا ما علاقة "الذرة"، أى البيغاء، بالـ "صرة"، وهى الزوجة حين تشترك مع نساء أخريات في زوج واحد؟ واضح أنها خلطت في أمرين: الأول خلطها بين الدال والضاد من جهة، ثم خلطها بين "الصرة" الكلمة العامية و"الصرة" النطق الفصحى لها. ومن تلك الأخطاء المضحكة خلطها بين العرب والترك، إذ تراها

تتكلم عن "الحريم"، أى المكان المخصص للنساء فى البيت بعيدا عن الضيوف. وهذه لفظة لم تكن عرفت بعد فى ذلك العصر ولا بعده بقرون. كما تستخدم للزوجة الكبرى فى بيت أبى بكر اسم "خاتون"، وهى لفظة أخرى لم تعرف إلا بعد قرون أيضا. وبالمثل لم يكن يوجد فى مكة فى ذلك الحين اسم "فايزة"، التى كانت تسمى به إحدى النساء المكيات فى الرواية، فضلا عن أن تقلب الرواية الاسم إلى "فازية" فى كل مرة. كذلك فامرأة أبى بكر التاجر المكى الثرى لا يمكن أن تذهب بنفسها لاستقاء الماء من زمزم عند الكعبة فى حين زوجها قادر على إحضار خادمة لها تقوم بمثل تلك الأشغال الشاقة التى لا تليق بسيدة تنتمى إلى بيت عز كبيت الصديق.

وهذه هى قصة الإفك كما رواها البخارى فى "صحيحه" لا الذى يهرف به التعمساء السفهاء الحقراء: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أفرغ بين أزواجه، فأيتهنَّ خرجَ سهمها خرجَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه. قالت عائشة: فأفرغَ بيننا فى غزوة غزاها، فخرجَ فيها سهمى، فخرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزلَ الحجاب، فكُنْتُ أُحْمَلُ فى هَوْدَجِي وأنزلَ فيه، فبرزنا حتى إذا فرغَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفلَ، ودنونا من المدينة قافلين، آدَنَ ليلة بالرحيل، فقمْتُ حين آدَنُوا بالرحيل فَمَتَّيْتُ حتى جاوزتُ الجيشَ. فلما قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إلى رَحْلي، فَمَتَّسْتُ صدرى، فإذا عَقْدُلى مِنْ جَزَعِ ظَفَّارٍ قد انقطع! فَرَجَعْتُ فالتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسْنِي ابتغَاؤُهُ. قالت: وأقبلَ الرَّهْطُ الذين كانوا يَرْحَلُونَ لى، فاحتملوا هودجى فَرَحَلوه على بعيرى الذى كُنْتُ أركبُ عليه، وهم يخسبون أنى فيه. وكان النساءُ إذ ذاكَ خِفَافًا لم يَبْلُغْنَ، ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ، إنما يَأْكُلْنَ العَلَقَةَ مِنَ الطعامِ، فلم يَسْتَكْبِرِ القَوْمُ خِفَةَ الهَوْدَجِ حينَ رفعوه وحملوه، وكُنْتُ جاريةَ حديثَةِ السنِّ، فبعضوا الجملَ فساروا. وَوَجَدْتُ عِقْدِي بعدما استمرَّ الجيشُ، فحِثْتُ منازِلَهُمْ، وليس بها منهم داعٍ ولا مجيبٌ، فَبَيَّعْتُ منزلى الذى كُنْتُ فيه، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونى فيرجعون إلى. فبينما أنا جالسةٌ فى منزلى، فرأى سوادُ إنسانٍ نائمٍ، فعرَفْنى حين رَأْنى، وكان رَأْنى قبلَ الحجابِ. فاستيقَظْتُ باسترجاعِهِ حينَ عَرَفْنى، فَخَمَرْتُ وجهى بجلبابى. والله ما تكَلَّمْنَا بكلمةٍ ولا سَمِعْتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعِهِ، وهوى حتى أناخَ راحلته فوطئَ على يدها، فَمَتَّْتُ إليها فركبْتُها، فانطلقَ يَقودُ بى الراحلةَ حتى أَتَيْنا الجيشَ مُوْغِرِينَ فى نَحْرِ الظَّهْمِيرةِ وهم نَزُولٌ. قالت: فهِلَكَ مَنْ هَلَكَ. وكان الذى تَوَلَّى كِبَرَ الإفكِ عبدُ الله بنُ أُبَيِّ بنِ سلُولٍ. قال عروة: أَخْبَرْتُ أَنَّهُ كان يَشَاغُ وَيَتَحَدَّثُ به عنده، فيقرُّه وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ.

وقال عروة أيضا: لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثه وحمته بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصابة كما قال الله تعالى. وإن متوَلَّى كثير ذلك يقال له: عبد الله بن أبي بن سلول. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عنها حسان وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي
ليرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة: فقد منّا المدينة، فاشتكت حين قديمت شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك. وهو يريني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى. إنما يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول: كيف تيكُم؟ ثم ينصرف. فذلك يريني ولا أشعر بالشئ حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناسيع، وكان متبرّنا، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا. قالت: وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا. قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثه بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: يس ما قلت! أتسيين رجلا شهيدا بدرا؟ فقالت: أي هتاه، أولم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك. قالت: فازدذت مرضا على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: كيف تيكُم؟ فقلت له: أتأذن لي أن أتى أبوي؟ قالت: وأريد أن أشتقن الخبر من قبلكها. قالت: فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: يا أمّاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بُنتي، هوئي عليك. فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله! أوقد تحدثت الناس بهذا؟ قالت: فبكيك تلك الليلة حتى أصبخت لا يرقأ لي دمع ولا أكحل بنوم، ثم أصبخت أبكى. قالت: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبت الوحى، يسألها ويستشيرها في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك، ولا نعلم إلا خيرا. وأما علي فقال: يا رسول الله، لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير. وسلي الجارية تصدّقك. قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببريرة، فقال: أي ببريرة، هل رأيت شيئا يرييك؟ قالت له ببريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت

عليها أمراً قط أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن فتأكله.
 قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر،
 فقال: يا معشر المسلمين، من يعتذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى؟ والله ما علمت على أهلى إلا
 خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلى إلا معى. قالت: فقام سعد بن
 معاذ أخو بنى عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذرك: فإن كان من الأوس صرئت عنه، وإن كان
 من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه
 من فخذيه، وهو سعد بن عباد، وهو سيد الخزرج. قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتلته
 الحمية، فقال لسعد: كذبت! لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله. ولو كان من رهطك ما أحببت أن
 يقتل. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عباد: كذبت! لعمر الله لا تقتله، فإنك
 حتماً تقابلهم عن المنافقين. قالت: فثار الحيان: الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله صلى
 الله عليه وسلم قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكوا
 وسكت، فبكت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواى عندى، قد
 بكيت ليلتين ويوماً، ولا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى إنى لأظن أن اليكأ فالق كبى. فبينما أبواى
 جالسان عندى وأنا أبكى، فاستأذنت على امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكى معى. قالت:
 فيينا نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلم ثم جلس. قالت: لم يجلس عندى
 منذ قبل ما قبل قبلها، وقد لبت شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء. قالت: فشهد رسول الله صلى الله
 عليه وسلم حين جلس ثم قال: أما بعد، يا عائشة، إنه بلغنى عنك كذا وكذا: فإن كنت بريئة فسيبرئك
 الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه.
 قالت عائشة: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة،
 فقلت لأبى: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى فيما قال. فقال أبى: والله ما أدرى ما أقول
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت لأمى: أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قالت
 أمى: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من
 القرآن كثيراً: إنى والله لقد علمت: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به. فلئن
 قلت لكم: "إنى بريئة" لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمرى، والله يعلم أنى منه بريئة. لتصدقننى.
 فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. ثم

تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيءَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِرَأْيِي. وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَخِيَا يَتَلَّى. لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِي بَأْمِرٍ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يَبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا. فَوَاللَّهِ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبَرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَلَّرُ مِنْهُ الْعَرَقُ مِثْلَ الْجَمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَابٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، أَمَّا وَاللَّهِ فَقَدْ بَرَأْتُكَ. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قَوْمِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لَا أَحُدُّ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ..." العشر الآيات. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بِرَاءَتِي. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَكَانَ يَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ بِنِ اثْنَتَيْ لِقْرَائِيهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لَا أَتَّفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ أَنْ قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: "وَلَا يَأْتَلِ أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ..." إِلَى قَوْلِهِ: "غَفُورٌ رَحِيمٌ". قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النِّفَقَةَ الَّتِي يَنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَتْرَعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لَزَيْنَبَ: مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي. وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ. قَالَتْ: وَطَفِقْتُ أَخْتُهَا تُحَارِبُهَا، فَهَلَكْتُ فِيمَنْ هَلَكَ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هُذُلَاءِ الرَّهْطِ. ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنْ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَتِفِي أَنْتَى قَطُّ. قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

هَذَا، وَلِلشَّيْخَةِ مَوْقِفٌ مِنْ عَائِشَةَ غَيْرِ كَرِيمٍ، بَلْ لَهَا عِنْدَهَا ثَارٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْسَى أَوْ يُتَنَاسَى مِنْذُ وَقَفْتُ ضِدَّ عَلِيٍّ فِي مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ. وَهُمْ لَا يَفْلَتُونَ أَيْةَ فُرْصَةٍ تَسْنَحُ دُونَ أَنْ يَسِيئُوا إِلَيْهَا إِسَاءَةً شَدِيدَةً. وَعَلَى رَأْسِ تِلْكَ الْفُرْصِ حَادِثَةُ الْإِفْكِ، الَّتِي سَتَجُولُ مَعَ بَشَائِهَا فِي بَعْضِ تَفَاسِيرِ الْقَوْمِ. وَفِي آيَاتِ الْإِفْكِ، الَّتِي يَعْرِفُ الْقَاصِي وَالِدَانِي أَنَّهَا نَزَلَتْ تَبَرُّةً لِلْسَيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا مِمَّا يَهْتَبُ بِهِ فِي قِصَّةِ ضِيَاعِ الْعِقْدِ الَّذِي فَقَدْتَهُ فِي الصَّحْرَاءِ مَرَّجَعَهَا هِيَ وَالنَّبِيُّ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، نَرَى الْقَمِيَّ مِثْلًا يَصْرِفُ الْقِصَّةَ عَنْ حَقِيقَتِهَا حَتَّى لَا يَضْطَرَّ هُوَ وَأَمْثَالُهُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِأَيِّ فَضْلٍ لَهَا. وَأَيُّ فَضْلٍ أَعْظَمَ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي ظَلَّتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ تَبَاهِي بِهِ نَظِيرَاتِهَا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ

تبرئتها من فوق سبع سموات؟ ولا ننس أن لعائى صلة بالقصة، إذ لما استطلع النبى رآه حين دارت الشائعات فى أرجاء المدينة كان رده حسبا تحكى لنا الروايات أن النساء كثير. صحيح أنه رضى الله عنه لم يلوث لسانه بقالة سوء فى سيدة كريمة لم يلحظ عليها أية ريبة، إلا أنه لم يراع مدى وقع الكلمة على نفسها، إذ كان كل هم إراحة الرسول من القلق الذى كان يعانیه، فظن أن الرسول إن نفى يده منها واقترب بغيرها فقد أراح نفسه. فبعض علماء الشيعة يقولون قصة الإفك من فضل يزين عرضها وكرامتها إلى منقصة تنال منها، إذ زعموا أن الآيات المذكورة إنما نزلت لإدانة عائشة بسبب اتهامها لمارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله فى سمعتها وسلوكها.

ولنقرأ ما كتبه القمى فى تفسير قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ". قال: "أما قوله: "إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم" فإن العامة رَوَوْا أنها نزلت فى عائشة وما رُميت به فى غزوة بنى المصطلق من خزاعة. وأما الخاصة فإنهم رَوَوْا أنها نزلت فى مارية القبطية وما رمتها به عائشة والمنافقات. حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن على بن فضال قال: حدثنا عبد الله بن بكير عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليهما السلام يقول: لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه حزنا شديدا، فقالت عائشة: ما الذى يمزكك عليه؟ فما هو إلا ابن جُريج. فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليا وأمره بقتله، فذهب على عليه السلام إليه ومعه السيف. وكان جريج القبطى فى حائط، وضرب على عليه السلام باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب. فلما رأى عليا عليه السلام عرف فى وجهه الغضب فأدبر راجعا ولم يفتح الباب. فوثب على عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولى جريج مدبرا. فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة، وصعد على عليه السلام فى أثره. فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء. فانصرف على عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إذا بعثنى فى الأمر أكون فيه كالمسهار المحمى فى الوبر أم أثبت؟ قال: فقال: لا بل تثبت. فقال: والذى بعثك بالحق ما له ما للرجال ولا ما للنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذى يصرف عنا سوء أهل البيت".

وبادئ ذى بدء نلفت النظر إلى كلمتى "العامة" و"الخاصة" فى النص السابق: فالعامة هم أهل السنة، والخاصة هم المتشيعون. ومغزى إطلاقهما واضح لا يحتاج منى إلى أى شرح، فهما تتكلمان من

تلقاء نفسيهما. كذلك نلفت النظر إلى وضع الكاتب لعائشة مع المناققات في خاتمة واحدة واتهامهن جميعا بنفس الجرم، ألا وهو قذف مارية في عرضها. وثالثا لا أتصور أبدا النبي يخرج على مبدأ التثبت قبل إيقاع العقوبة بالمتهم فلعله برىء، إذ تقول الرواية إنه عليه السلام ما إن سمع التهمة من ضرة في ضرتها حتى بادر بإرسال علي لقتل جريج دون أن يكلف نفسه أن يسألها ولو عن مصدر الخبر. ورابعا كيف يأمر بقتل جريج ويترك شريكته في الإثم ما دام قد صدق أن الأمر وقع كما قالت عائشة فيما نُسب لها زورا وبهتاناً؟ ولقد كان النبي يترث أشد التريث في مسائل الزنا وعقوبته حتى إنه إذا أتاه شخص وأقر من تلقاء نفسه بمواقعة تلك الفاحشة كان يراجعه مرارا ويفتح له الباب بعد الباب لعله يرجع ويتوب ولا يعود لذلك أبدا. بل إنه كان يستحب السر في تلك الأمور ولا يرتاح لمن يأتيه شاهدا على أحد بالزنا قائلا له: لو سترتها بثوبك لكان أفضل. فكيف يسارع هنا إذن إلى الأمر بتوقيع العقوبة على متهم دون أن تثبت من التهمة المنسوبة له، بل دون أن يعطيه الفرصة للدفاع عن نفسه؟ والعجيب أنه، حسب تلك الرواية، قد غير موقفه بعد هذا حين استفسر منه علي عما ينبغي أن يصنع في مثل تلك الحالة، إذ قال له: عليك أن تثبت. وكأنه ليس هو الذي بعثه ليقول جريحا قتلا ثم إن موقفه من اتهام عائشة في عرضها قد اختلف عن ذلك اختلافا تاما، فلم يسارع بعقابها رغم أن الشائعات التي تلوك سيرتها كانت تتطاير في أرجاء المدينة. كذلك كيف نسى ملففو القصة أن عائشة وأباها متَّهَمَان عند رسول الله حسبا يفترون عليهما، لعن الله كل كذاب أشر؟ ترى كيف صدق الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه البساطة امرأة يزعم الشيعة أنها منافقة بنت منافق؟ أعوذ بالله، وأستلعه على من يقول على أم المؤمنين الأفاويل. كذلك كيف يرمى جريج نفسه من فوق النخلة دون أن تنكسر أضلاعه؟ بل كيف يفكر في الرمي بنفسه من فوقها أصلا ويقدم على ذلك الخطر الفظيع؟ وأغرب من هذا أن تمر الرواية على حادثة السقوط من فوق النخلة دون أن تعلق بكلمة واحدة على ما حدث له من جرائه!

وقبل ذلك كله كيف يريدنا هؤلاء أن نتجاهل قصة الإفك الحقيقية التي تورط فيها حسان ومسطح بن أثانة وجمته بنت جحش وابن أبي سلول وغيرهم وما يتصل بذلك من قصص معروفة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ؟ ليس أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن عائشة لم تُتَّهَم أصلا، ومن ثم فالسؤال هو: من يا ترى صاحب قصة الإفك الأخرى التي اتُّهمَت فيها عائشة؟ ليس أمامنا في هذه الحالة إلا أن نقول إنه فريق يعبّل عائشة ويريد أن يقول إن الله برأها من فوق سبع سماوات كي يكون ذلك شرفا لها. لكن هل يعقل أن يقدم من يعبّلون عائشة على رميها أولا في عرضها حتى يتسنى لهم

الزعم بأن السماء قد برأتها؟ ذلك أمر لا يدخل العقل. وإما أن عائشة قد اتَّهِمَتْ فعلا في عرضها. فهل يعقل، والأمر هذا، أن يتجاهل القرآن المسألة وكأنها لم تقع فلا يتكلم عنها؟ ذلك أيضا أمر لا يمكن أن يتقبله العقل. كما أننا حين ننظر في آيات سورة "النور" الخاصة بقضية الإفك نرى أن الكلام من أوله إلى آخره إنما يستخدم ضمير جماعة الذكور بما يدل على أن المتهمين هم رجال أو خليط من رجال ونساء على الأقل، لا جماعة من النساء فقط هن عائشة والمنافقات كما تزعم الرواية الأثمة. وفوق ذلك فالقرآن يشير إلى "زعيم" رجل لا إلى "زعيمة" امرأة لتلك الفرية: "والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ". ثم لقد أرسى القرآن الحكم الشرعي في تلك الظروف، وهو الإتيان بأربعة شهداء، فكيف تجاهل النبي هذا كله وبعث عليا في الحال ومعه السيف كي يقتل جريحا دون توافر أربعة شهود؟

لهذا نجد رواية أخرى لتلك القصة عند القمي في تفسير قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (الحجرات / ٦)، إذ أضاف الكلام التالي: "فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: ما شأنك يا جريح؟ فقال: يا رسول الله، إن القبط يَحْبُونَ حشمتهم ومن يدخل إلى أهاليهم، والقبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين. فبعثنى أبوها لأدخل إليها وأخدمها وأونسها". وهو كلام يدابر العقل، إذ معناه أن الرسول لم يكن يعرف كل تلك المدة لم جاء جريح مع مارية من مصر، وأن جريحا كان يخدم مارية طوال الوقت ويدخل عليها ويخرج ويقضى لها مطالبها دون علم الرسول. ومعناه قبل ذلك أن القرآن يتهم رسول الله بأنه قد أقدم بجهالة على معاقبة جريح وكاد أن يصبح نادما على ما فعل لولا لطف الله الذي أراد أن يكشف حقيقة أمره وبراءته بوقوعه الدَّارِئِي من فوق النخلة. ثم إن الرواية تذكر أن أباه هو الذي أرسل جريحا هذا في رفقة ابنته، مع أننا نعرف أنها لم تكن فتاة حرة، بل جارية أرسلها المقوقس لأبوها. فهذه ثغرة خطيرة في الرواية تحطمها تحطيمًا. كما أن المقوقس لم يرسل مارية وحدها، بل أرسل سيرين أيضا، وهى التى أهداها الرسول لحسان بن ثابت، فلماذا لم نسمع أن سيرين كان يصاحبها رجل محبوب كجريح يقوم على شؤونها؟ كذلك هناك صعود جريح النخلة، وهو ليس حَلًا لأنه لا يستطيع أن يبقى فوقها إلى الأبد، وإن كان صعوده على كرم الله وجهه النخلة وراءه أبعث على الاستغراب والتعجب، إذ ما الداعي له، وجريح لا يمكن أن يطول مكثه هناك، بل لا بد أن يتزل، وبسرعة. على الأقل حين يقرص بطنه الجوع، أو يحتاج إلى النوم أو قضاء الحاجة. كما أن صعوده النخلة يذكرنا بما يفعله الشرير عادة في الأفلام، إذ يتسلق برجا أو سطح حجرة فوق أعلى المنزل أو صارية سفينة مثلا، مع أن أقل تفكير من جانبه كفيل

بأن يباعد بينه وبين اللجوء إلى هذا الحل المضحك لأنه لا يمكنه البقاء هناك إلى آخر العمر. وعادة ما تكون نهايته فوق الموضع المرتفع الذى التجأ إليه نهاية مأساوية كما يعرف مشاهدو الأفلام والمسلسلات.

ومع هذا كله فإن إصرار القمى على تلويث صحيفة عائشة يدفعه إلى المضى في غيه والقول بأن الله إنما أراد أن يظهر براءة جريج على يد على. أى أنه سبحانه قد دبر اندفاع على بالسيف يريد الإجهاز على جريج في هوج ودون تبصر أو محاكمة بناء على تكليف رسول الله له بذلك لا لشيء إلا لكي يثبت براءة المصرى المسكين! وهو ما يعنى أن الأقدار قد جهزت عليا لتصحيح الخطأ الذى كاد أن يقع فيه النبى عليه السلام، أستغفر الله، وإن قال بعضهم إن الرسول كان يعرف براءة مارية منذ البداية وإنه إنما أمر عليا بقتله تظاهرا بذلك ليس إلا كي يوقظ ضمير عائشة حين ترى رجلا بريئا يوشك أن يقتل ظلماً وافتراء. أى أنهم يريدوننا أن نصدق هذا التوجيه السخيف الذى يقول إن النبى قد أقدم على ترويع جريج المسكين على هذا النحو الشنيع الذى كان يمكن أن ينتهى نهاية مأساوية ففترهق روح الرجل جراً سقوطه من فوق النخلة لا لشيء سوى إيقاظ ضمير عائشة، وهو ما يذكرنا بالمثل الشعبى القائل: جاء يكحلها فأعماها! وهكذا يتخبط بعض علماء الشيعة لمجرد الرغبة الأثيمة لتشويه أخلاق عائشة ورميها بالفسق، أستغفر الله. كذلك فالآيات تتحدث عن شائعات تجوب أنحاء المدينة من لسان إلى لسان، على حين أن روايتنا هذه لا تتحدث إلا عن عائشة وحدها، وإن ذُكرت "المنافقات" على سبيل "بزو العتب" كما نقول في مصر لا غير، وإلا فلماذا لم تظهر في الصورة أولئك المنافقات اللاتى لا أحسب القمى وأضرابه إلا يقصدون بهن بعض زوجات رسول الله الأخريات، وبالذات حفصة كراهية منهم للفاروق رضى الله عنه؟

ثم ما موقع الآية التالية من السياق هنا: "وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفِرُوا لِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"؟ إنها، فيما نعرف جميعا، إنما نزلت لتحض أبا بكر على الاستمرار في معاونة بعض أقربائه الفقراء الذين اشتركوا في نشر الإشاعات ضد ابنته الكريمة الطاهرة العفيفة والذين أقسم في حُمو غضبه أن يتوقف عن الإنفاق عليهم. أما على رواية "الخاصة" فكيف نفهمها؟ لقد أورد القمى في تفسيره لها ما يلى: "في رواية أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السلام في قوله: "وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" وهى قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، "والمساكين والمهاجرين في سبيل الله

وليغفوا وليصفحوا"، يقول: يغفو بعضهم عن بعض ويصفح، فإذا فعلتم كانت رحمة من الله لكم. يقول الله: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم؟". وهو تكلف بل تنطع، فإن القرآن لا ينزل بتحسين القلوب على قرابة رسول الله، وكأنهم جماعة من الشحاذين مع أنهم لا تجوز عليهم ولا لهم الصدقات أصلا. كما أن أمر القرآن بالعفو والصفح عن آل رسول الله ليس له من معنى إلا أنهم مشاغبون مستفزون للآخرين وأن على المسلمين الإغضاء والتجاوز عن هذا الشغب والاستفزاز. ترى هل يصح مثل هذا التفسير؟ لكن المفسر الشيعي يمزق الآية كما نرى كي يسلم له ما يريد، وهيهات! وأخيرا وليس آخرا فإن الآية الأخيرة في آيات الإفك تقول بصريح العبارة: "الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"، وهو ما لم يلتفت المدلسون المقفرون إلى أنه ثناء على عائشة وكل زوجات الرسول، إذ تنفى الآية الكريمة أن تكون أى من أمهات المؤمنين خبيثة من الخبيثات، وتؤكد على العكس من ذلك أنهن طيبات طاهرات لأنهن زوجات الرسول الطيب الطاهر.

هذا، ولم يورد الطوسى في تفسير الآية إلا أنها في تبرئة عائشة، وإن أورد الكلام مختصرا، ومن بين ما قاله أن "الآية دالة على كذب من قذف عائشة وأفك عليها. فأما في غيرها إذا رامها الانسان فإننا لا نقطع على كذبه عند الله، وإن أقمنا عليه الحد، وقلنا: هو كاذب في الظاهر، لأنه يجوز أن يكون صادقا عند الله. وهو قول الجبائي". أما الطبرسى، وهو مثل الطوسى لم يورد إلا الرواية التى نعرفها، فقد فصل القول فيها تفصيلا وأتى بالقصة كلها كما هى في كتب السيرة والأحاديث، ولم يتطرق إلى ذكر سبب النزول الشيعي المزعوم الذى يحول هذه المكرمة إلى مذمة في حق السيدة عائشة فيتهمها بالنفاق ويعيبها بالعمل على تمزيق الأعراض الطاهرة النظيفة! وأما الجنايذى فقد ذكر أولا سبب النزول المعروف لنا باختصار قائلا: "قد نُقِلَ في تفاسير الخاصة والعامة أَنَّ الآيات نزلت في عائشة"، إلا أنه قد أورد عقب ذلك أيضا قصة اتهام مارية القبطية رضى الله عنها مع قوله إن هذا ما ترويه الخاصة. وواضح من كلامه مدى الارتباك عندهم في هذه الآيات واضطرابهم ما بين قول الحقيقة ورغبة بعض مفسريهم في عدم ترك الفرصة دون الإساءة إلى الصديقة بنت الصديق! وينقل الكاشانى الروایتين جميعا سائرا على خطأ القمى مع التركيز على كل ما يسىء إلى بنت الصديق! ويبقى الطباطبائي، الذى يورد الروایتين جميعا ويناقشهما بالتفصيل موازنا بينهما مستشكلا على ما يراه باعثا على الاستشكال في كل منهما، وإن فهم من كلامه في النهاية أنه مع رواية عائشة للقصة، تلك الرواية التى تقول إن بعض

المنافقين وبعض المسلمين الذين اتخذوا بهم قد ولغوا في عرضها رضى الله عنها، إلا أنه لم يكن حاسم
الوضوح تماماً في موقفه.

النساء في الإسلام

هذا الفصل يدور حول بعض الموضوعات التي تتعلق بالنساء: الحجاب والميراث والضرب وما أشبه. فأما فيما يتعلق بالحجاب فيقول د. أكرم ندوي إن ارتداء الحجاب ينبغي أن يترك للمرأة نفسها: إن شاءت ارتدته، وإن لم تشأ فهي حرة. وقد ذكر النبي أنه لا يجوز، متى بلغت المرأة المحيض، أن يظهر منها سوى وجهها وكفيها. وذلك حينما شاهد أسماء بنت أبي بكر تلبس ثيابا شفافة، فبان عليه الغضب، إذ "إن أسماء بنت أبي بكر... دَخَلَتْ على النبي في لباس رقيق يَشْفُ عن جسمها، فأعرض النبي عنها وقال: "يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يَصْلُحْ أن يَرى منها إلا هذا وهذا". وأشار إلى وجهه وَهَّيْه". فهل المقصود مما يقوله الرسول عما يجب على المسلم فعله أو الانتهاء عنه أن يسمع المسلم ما قاله نبيه فقط ثم هو بالخيار بعد ذلك، وكأن الرسول لم يقل شيئا؟ إذن ما فائدة مجيئه بالإسلام إذن؟ أتراه جاء تسديدا للخانات فحسب، ثم لا حرج على المسلمين إذا لم يفعلوا ما أمرهم به أو يتهوا عما نهاهم عنه؟ أيقف الأب مثلا موقفا سليما من ملابس زوجته وبناته فلا ينطق بكلمة سواء تحجبن أو لم يتحجبن؟ وأين ذهب إذن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدرجاته الثلاث بدءا من التغيير بالأيدي، ومرورا بالتغيير باللسان، وانتهاء بالتغيير بالقلب؟ أنهمل هذا كله ويلوذ الآباء والأزواج والعلماء والسلطات بالصمت تاركين الأمر لهوى البنت أو الزوجة أو الأم مثلا، وكان الله يحب المحسنين؟ هل أنت نصوص القرآن والحديث لسماعها فقط دون العمل بها بحيث إذا ألفينا من حولنا خرجوا على تعاليم الإسلام سكتنا فلم نقل أو نفعل شيئا؟

وسر تعجبي هنا هو أن ملابس المرأة لا تخصها وحدها بل تترك أثرها فيمن يراها. فإذا كانت متبرجة أثارت الفتن والشهوات، وهذا يؤدي إلى معاناة الرجال، والشباب منهم بوجه خاص. صحيح أن الرجل عليه الاعتصام بالعفة والتهديب والخلق الكريم، بيد أنه بحاجة في ذات الوقت إلى ما يساعده على ذلك لا إلى ما يدمر له أعصابه ويستثيرها بشكل خطر. أنا أعرف أن هذا الأمر ليس من أركان الإسلام كالإيمان بالله وبالرسول والصلاة والصيام والزكاة والحج، لكن أثره وخطره رغم ذلك كبير. إن نصوص الشريعة بالنسبة إلى المسلم هي كالقوانين بالنسبة إلى غير المسلم، فهل يجوز أن ينص القانون على شيء ثم لا تحاسب الدولة من يكسر ذلك النص؟ هل يمكن أن يقول القانون مثلا إن استعمال زمامة السيارة ممنوع، ثم يسمع الشرطي زمامير السيارات في كل مكان فلا يهتم ولا يلتفت بحجة أنه لا ينبغي أن يجبر الناس على شيء؟ إن الضمير الإنساني، بل والضمير الحيواني أيضا إن صح التعبير، إنما

يتكون من تلك الضغوط والإلحاحات والخوف من ألم العقاب، فإذا تركنا الجبل على الغارب انتهينا بالآيهم أحد بأداء واجب أو ترك حرام. والله قد خلق جنة ونارا، فهل نقول له: لم خلقت يا الله الجنة والنار، ولم تترك الناس تتصرف بمزاجها؟

أما قول ندوى إن مظاهر التقوى لا تجعل من الإنسان شخصا تقيا فأنا معه قلبا وقالبا في هذا، لكننا هنا لا نتحدث عن التقوى بل عن أخطار التبرج. وهل يمكن أن يجادل الخارج على القانون قاضيه في المحكمة بأن مراعاة القانون لا تجعل من الشخص مبيحاً حقاً للقانون، ومن ثم فلا حرج عليه إذا كسره؟ إن معظم الناس يراعون القانون دون أى شعور بالاحترام أو التبرجيل بحيث لو أتيت لهم فرصة الخروج عليه في أمان لما تلكأوا هنيهة واحدة. فليكن! المهم مراعاة القانون حتى تصبح حياة الناس أيسر وأكثر راحة. وقد قيل: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. والقانون، متى طُبّق، كفيل بتأديب من لم تؤدبه أمه وأبوه. والناس تنصاع للقانون خشية العقاب المالى والبدنى. ومن هنا أرانى لا أهتم كثيرا بقول د. ندوى: "Governments couldn't legislate their citizens into submission"، إذ المهم أن ينصاع الناس للقانون، ثم سواء بعد هذا كرهوه أو أحبوه. وبطبيعة الحال أنا أفضل الانصياع عن اقتناع، لكنى في نفس الوقت أعى أن انتظار هذا اللون من الانصياع من كل الناس أو حتى من معظمهم هو تضييع للوقت في غير طائل.

ولكى أضع حدا للجدال أقول إن الرسول الذى قال: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا (ويشير إلى صدره)" هو نفسه الرسول الذى قال أيضا إن المرأة متى بلغت المحيض لم يحل لها أن تبدى شيئا من جسدها أمام الرجال سوى الوجه والكفين. فهل كان الرسول لا يعرف أن التقوى ليست في الملبس بالضرورة؟ ومع هذا فإذا التزمت المسلمة عن طيب خاطر بالوصايا الخاصة بملابس النساء ورأت ذلك من مقتضيات الإيمان فإن الملابس في هذه الحالة تكون دليلا على التقوى. وإلا فهل المتقية هى التى تكشف عن جمالها وفتتها؟ إن من تكشف عن جمالها وفتتها لا تتحل بالتقوى لأنها عاصية لله ورسوله ومحادة لتشريع الأمة التى تنمى إليها أو على الأقل: غير مبالية به.

إن التقوى هى أمر خاص بين الله وصاحبها، أما الالتزام بالشرعة فهذا هو ما نستطيع التعامل معه. فمثلا في بريطانيا تسمع كل واحد يقول للآخرين في أى تعامل بين اثنين: "شكرا". وهذا ما يهمنى، ثم سواء بعد ذلك أقالها من قلبه مخلصا أم قالها من طرف اللسان. المهم أنه قالها، وأن قولها يضيف على

التعامل اليومي نعومة وسلاسة يفتقر إليها التعامل في بلاد أخرى لا تعرف كيف تقول: شكرا. كذلك هناك في بلاد الغرب من يتبرعون بالثروات الهائلة للمؤسسات العامة والخيرية، وقد يكون هذا لونا من الاستعراض. فليكن! المهم أن المجتمع قد استفاد، أما فيما بينه وبين الله فلنتركه لله سبحانه لأنه ليس من اختصاصنا. ومن هنا ترانى كلما هاجم بعض الناس الراقصات اللاتى يقمن في رمضان مأدبة الرحمن قائلين إنهن يبغين الشهرة، وإن فلوسهن مكتسبة من الحرام، كان جوابي: فأما النية من وراء مأدب الرحمن فلنتركها لله. المهم أن يجدد الفقراء طعاما شهيا مخدوما طيلة هذا الشهر. وإلا فأين التقيات؟ ما بالهن لا يقمن مأدب الرحمن كهذه تدخل البهجة على قلوب المسحوقين؟ ربما لم تكن التقيات بهذا القدر من الغنى الذى يمكنهن من صنع مثل تلك المأدب. وإذن فلندع المستطيع يطعم من لا يستطيع توفير الطعام. ويوم القيامة يجازى الله كل إنسان بما يرى سبحانه. ثم إن هذه الفلوس الحرام هى من حق الفقراء العاجزين ذهبت بطريق الخطأ إلى هازات أو ساطهن.

كذلك أنا مع كارلا باور في تعجبها من النساء اللاتى يرتدين مثلا طرحة يغطين بها شعرهن، وفي ذات الوقت يلبسن سراويل محزقة. وسر تعجبها هو هذا التناقض بين مراعاة الحجاب بالنسبة لغطاء الرأس واللامبالاة به بالنسبة للسراويل. لكنى رغم هذا أرى أن "قضاء أخف من قضاء" كما يقول العامة. فقد كانت أجساد الشباب ملتهبة على الدوام في ستينات القرن الماضى، ونفسياتهم مضطربة، وضمايرهم تلذعهم دائما حين كانت الفتيات يلبسن الميكروجيب والمينى جيب ويكشفن عن أذرعهن وصدورهن وشعورهن ويتفتنن في تجميل أنفسهن وتسعير الفتنة عند الرجال والشبان، وما من مغيث. فلا شك أن ما تفعله بعض البنات والنساء اليوم من الالتزام بالحجاب في بعض النواحي وإهماله في بعض النواحي الأخرى أخف وطأة، والله العظيم، مما كان متشرا آنذاك ويمزق أعصاب الشباب تمزيقا. ومع هذا فأنا دائم الانتقاد للمتحجبات والمتقبات اللاتى لا أجدهن أنشط من غيرهن في طلب العلم ولا يترددن على المكتبة ولا يكتبن على القراءة ولا يستعملن عقولهن في التفكير فيما يدرسن ولا يشاركن في المحاضرة بسؤال أو جواب ولا يناقشن، متسائلا في مرارة وغيظ: أتى تدين هذا الذى يدفعكن إلى التزام الحجاب والنقاب ولا يدفعكن إلى تثقيف عقولكن وأذواقكن؟ ثم أقول للطلاب والطالبات في حب لهم وغضب منهم في ذات الوقت: أنظنون أن اللجنة سهل دخولها لمن لا يقرأون ولا يفكرون ولا يهتمون بتحصيل العلم ولا يحضرون الدروس ولا يمتنعون عن إلقاء القمامة وتشويه كل ما تناله أيديهم وإشاعة الفوضى والإزعاج في كل مكان؟ إن اللجنة إنما يدخلها الراقون المتحضرون. أقصد

الرقى والتحضر الإسلامى الملتزم بالصلاة والصوم والزكاة والقراءة ورهافة الذوق والعطف على الفقراء والمسحوقين...

أما الجلف الغبى الذى يرفس النعمة فلا يتهز وجوده فى المدرسة أو الجامعة ليقرأ ويتعلم ويصقل ذهنه ويصفى ذوقه فلا أدرى كيف يمكن أن يدخل الجنة. ثم أضحكهم قائلاً: إنكم لو دخلتم الجنة لقلبتموها ضجيجاً وأكوام زباله وخناقات على التفاهات وكسلا وتبلدا. فهل هذه هى الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين؟ لكنهم يستمرون فى سرحانهم عنى ولا مبالاة بهم بما أقول حتى إننى لاستغرب جداً إذا ما كتب أحدهم على صفحتى فى الفيس بوك مثلاً إنه يحبنى ويحب محاضراتى وإنه قد استفاد منها وإنه أحب القراءة من كثرة إلحاحى عليها ونخسى إياهم من أجل تحبيبهم فيها، وأعد ذلك مجرد مجاملة لأن الثمرة التى أجنيتها آخر العام فى أوراق الإجابة ثمرة هزيلة معطوبة لا تصلح فى الواقع لشيء ذى قيمة. لكنى، رغم هذا كله وأكثر من هذا كله، أعود فأقول: إن هذا لا يعنى أن نهمل أمر ملابس المرأة مثلاً، ففشلنا فى جانب من جوانب التدين لا يعنى أن نعممه على كل الجوانب.

أما النقاب فلا أحبه، وإن كنت لا أتدخل فى شأن من ترتديه، فالمسألة مسألة حرية شخصية. إلا أننى فى ذات الوقت لا أفهم ولا أقبل إهمال المتقبة لقيم دينها الأساسية كالقراءة وتغذية العقل وتعهد الذوق بالترقية ومراعاة اللياقة العالية فى التعامل مع الآخرين والاهتمام بالمظهر والملبس بحيث تكون نظيفة ومهندمة بقدر الإمكان. نعم على المتقبة أن تعرف أن الانتقاب فى ذاته لا يعنى شيئاً، إذ المهم مبادئ الإسلام العظيمة التى من شأنها نقل صاحبها من الممجية والتوحش، أو على أقل تقدير: من التخلف والتقهقر، إلى أعلى درجات الرقى والتحضر. إن أمة تبرقش شوارع كثير من البلاد التى تنتمى إليها أكوام القاذورات والفضلات، وتعطر أجواءها التنانث والروائح الكريهات، وتطرب الأذان فى أرجائها أبواق السيارات المزعجات وتسأب المخلوقات، وتتسم مواعيد أهلها بالخلف والخذاع، ومعاملاتهم بالفهولة والبكش، يجب أن نخجل من نفسها حين تظن أنها أمة متدينة لمجرد أن نساءها مستنابت ورجالها ملتحنون، وهواتفها المحمولة تردد النغمات الدينية كلما طُلبت أرقام أصحابها، وأن الناس متى تكلموا عن وقوع شيء فى الماضى قالوا وهم يسبلون أعينهم: وقع هذا الأمر الأسبوع الماضى إن شاء الله. فإذا أبدت استغرابك من هذا التنطع أجابك المتحدث بوقار زائف بأنه يجب أن يقدم المشية. ثم يتلو عليك قوله تعالى: "ولا تقولنَّ لشيء: "إنى فاعلٌ ذلك غداً" إلا أن يشاء الله". فإذا ما قلت له: إن الآية تقول: "غداً"، أى أن الكلام فى الآية عن المستقبل لا الماضى ولا حتى الحاضر، رد

عليك بمزيد من السخف: لكن هل هناك شك في أن كل شيء يتوقف على المشيئة. ترى ماذا يمكن أن تقول لمثل هذا الخفيف العقل؟ ألا خيبة الله على الغباء وأهله!

وقد لفت نظري مع هذا ما قرأته من أن د. أكرم، حين رأى ابنته ذات يوم منتقبة، كان كل همه أن يتأكد من أنها قد ارتدته من تلقاء نفسها لا انصياعاً لأحد آخر. وكنت أحب لو أنه أفهمها حكم النقاب ومدى أهميته أو عدم أهميته في الإسلام، على الأقل: أسوة بما يقوله في دروسه من أن هناك فرقاً بين الإسلام وتشريعاته من جهة وبين العادات المحلية من جهة أخرى، إذ لا يعقل أن يهتم بتوضيح ذلك للآخرين ويترك ابنته دون توضيح. كما يفهم من كلامه أيضاً أنه فوجئ بها منتقبة وهو ينتظرها بالسيارة لينقلها إلى حيث هي ذاهبة. فهل يعقل أن تتخذ الابنة قراراً كهذا بغتة حتى ليفاجأ أبوها بذلك وهو ينتظر في السيارة خروجها من البيت؟ إن مثل تلك الأمور تسببها مناقشات وحوارات ولا تبنت في رؤوسنا فجأة على هذا النحو. كما أن قول كارلا باور إن الابنة كانت ترتدي النقاب أو تهمله حسب المنطقة التي تكون فيها من لندن: فإن كان سكان تلك المنطقة من المتسامحين مع النقاب انتقبت، وإلا طرحته. ذلك أن الأمر لا يستأهل كل هذا الاضطراب والحيرة. أما قولها إنها كانت تجد فيه راحة نفسية وشعوراً بالخصوصية لأن أحداً لا يراها فهل يستحق في تلك الحالة كل ذلك الاهتمام؟

وبالنسبة لميراث المرأة فقد سارعت كارلا باور إلى القول بأن المرأة ترث دائماً نصف ما يرثه الرجل، وإن كانت قد ذكرت أيضاً التوضيح الذي يساق عادة لتعليل هذا التفاوت بين الميراثين، وهو أن الرجل ينفق ماله على متطلبات الأسرة في حين تحتفظ المرأة بها كاملاً دون أن تتجشم شيئاً منه تجاه أفراد أسرتها. وهو ما أكدته لها د. أكرم وزاد فأخبرها أنه هو الذي ينفق على أسرته دون أن يمد يده لشيء مما تكسبه زوجته من أعمال الخياطة بل دون أن يسألها عن أي شيء يتصل به، وإن كان يعلم أنها أحياناً ما تبعث به إلى أسرتها في الهند. وذلك احتراماً منه لتعاليم الإسلام في هذا الصدد. لكن لا بد أن نبين أن ميراث المرأة ليس دائماً نصف ميراث الرجل كما تظن كارلا باور وكثير من الناس، إذ كل ما يعرفونه هو قوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم: للذكر مثل حظ الأنثيين"، غافلين عن أن هذا النص إنما يتعلق بتوزيع ميراث الأبناء من آبائهم وأمهاتهم لا غير، وأن هناك نصوصاً أخرى في القرآن والحديث تبين أن تقسيم الميراث يتفاوت باختلاف وضع كل حالة من حالاته. فما يظنه إذن بعض الناس من أن المرأة ترث دائماً نصف ميراث الرجل هو ظن غير صحيح إلا في أربع حالات فقط في مقابل حالات كثيرة ترث فيها المرأة أكثر مما يرث الرجل، وحالات أخرى يعطى الإسلام المرأة فيها مثل الرجل، إلى جانب

حالات خمس تأخذ فيها أكثر مما يعطى الرجل، وحالات خمس أخرى تترث فيها، ولا يرث الرجل شيئا، وهو ما يجده القارئ مفصلا في كتب الموارث. وعلى هذا فما يتردد على ألسنة الناس من أن الإسلام يعطى المرأة من الميراث دائما نصف ما يعطيه الرجل هو كلام غير دقيق. وعلى الناحية الأخرى نجد أن المرأة في كثير من الحضارات تُحرَم من الميراث تمام الحرمان.

هذا في الميراث، أما في القوامة فيقول د. ندوى إن المرأة يمكن في الإسلام أن تكون عالمة ومفتية أو تعمل في أى عمل آخر، أما في البيت فللرجل القوامة، بمعنى أنه هو الذى يتكفل بمصاريف الأسرة وتحقيق متطلباتها. إلا أنه يسارع إلى القول بأن القوامة لا تعنى أن الرجال أفضل من النساء، إذ الإسلام يسوى بين الطرفين يوم القيامة. والحق أن بعض ما قاله الندوى صحيح، فالحساب سيكون واحدا للجميع دون محابة للرجل ضد المرأة بتاتا. وهو ما يترتب عليه أن الرجل يمكن جدا أن يُقذَف به في النار وتذهب زوجته إلى الجنة مثلما يكون العكس. كما يؤكد الإسلام أن الذكر والأنثى قد خُلِقا من نفس واحدة لا أن الرجل خُلِق أولاً ثم خُلِقت المرأة من أحد ضلوعه.

أما قوله إن الإسلام لا يفضل الرجل على المرأة فمن الواضح أنه يتجاهل قوله تعالى: "الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ..." . إن كثيرا من النسويات والنسويين يعلنون تأخير المرأة عن الرجل بأن الرجل قد قمعها بقوته العضلية. ورغم أننا لا نسلم لهم هذه الحجة، لأن كثيرا من الناس رجالا ونساء يسودون جماعاتهم التى يتمون إليها رغم وجود من هم أقوى منهم عضليا، فلا جدال مع ذلك في أن التفوق العضلى ميزة ينفرد بها الرجل ويتفوق بها على المرأة. فلو افترضنا أن النوعين متساويان في سائر صفاتها تمام التساوى كان معنى ذلك أن في الرجل شيئا يزيد به على المرأة ويعطيه من ثم حق الصدارة. ثم هناك سؤال غاية في الأهمية هو: متى يا ترى تم اختطاف الرجل سيادة المرأة على الأسرة؟ ولأى سبب؟ هل كانت المرأة قبل ذلك أقوى من الرجل عضليا، ومن ثم استطاعت أن تقهره آنذاك، إلى أن جاء وقت ضعفت فيه عضليا وقوى هو فانتزع منها الزعامة؟ فهل كانت المرأة كذلك فعلا في يوم من الأيام؟ فما الدليل؟ وكيف تم هذا؟ ومتى؟ ثم إذا كانت المرأة الآن قد نالت حقوقها التى كانت محرومة منها قبلا فهل صارت عضليا أقوى من الرجل بحيث أكرهته على تسليمها حقوقها دون مشاكسة؟

إن د. نوال السعداوى، في كتابها: "الأنثى هى الأصل"، تنقل عن أحد العلماء أن المرأة البدائية كانت أقوى من الرجل جسدا. لكن هذا رجم بالغيب ليس عليه دليل، وهذا العالم نفسه يقول إننا لا

نملك شيئا عن تلك المرحلة، فكيف عرف إذن ما يزعمه عن التفوق الأنثوى على الرجل آنذاك جسدياً؟ ثم كيف يا ترى تغلب الرجل على المرأة، وقد كانت أقوى منه؟ هل عبث أحد بالتركيب البيولوجي للرجل والمرأة؟ لكن هل كان العلم في تلك المراحل البدائية السحيقة من تاريخ البشرية متقدماً إلى هذا الحد؟ بل هل كان هناك علم أصلاً في ذلك الزمان؟ ولنفترض أنه كان هناك علم متقدم يستطيع أن يتلاعب في بيولوجيا النوعين، فكيف استطاع الرجال أن يفعلوا ما فعلوا بحيث يتخلصون من ضعفهم ويصنعون هم الأقوياء بدلاً من النسوة؟

وإذا كان جون ستيوارت ملّ مثلاً، في كتابه: "The Subjection of Women"، ينكر أن يكون للتفوق العضلي أية قيمة في هذا السبيل بحجة أن الفيل أقوى عضلياً من الإنسان، ومع هذا فليست قوة عضلاته ميزة يمتاز بها عليه، فالرد سهل جداً لمن يريد. فنحن لا نقول إن الرجل لا يملك مثل الفيل سوى القوة العضلية، ثم تفوق المرأة عليه بعد ذلك بعقلها كما يتفوق الإنسان على الفيل بعقله، نحن لا نقول هذا، وإلا لكانت المرأة تلقائياً هي صاحبة القوامة مثلاً أن الإنسان هو الذي يقود الفيل حسبما يريد ويستخدمه في أعماله لا العكس رغم تفوق الأخير على الأول في الحجم والقوة الجسدية. ذلك أن العبرة في تلك الحالة بالفكر والذكاء والدهاء والتخطيط، بخلاف الأمر في المقارنة بين الرجل والمرأة، اللذين لو قلنا قَرَضاً بتساويهما التام في العقل والذكاء والاختراع والإبداع وسائر الصفات المعنوية لبقى أن الرجل يمتاز عليها بالقوة العضلية، وهذا عاملٌ مرجّحٌ شديد الأهمية، إذ هو في نظر النسويين والنسويات السبب في سيدها عليها منذ فجر التاريخ حتى عصرنا هذا، وليس ذلك بالشئ القليل. ومن النسويين والنسويات من يؤكدون أنه ليس هناك أي دليل علمي على أن المرأة أقل من الرجل عقلياً ولا فيسولوجياً.

ونبدأ بالتفوق العضلي، فهل تفوق الرجل على المرأة في هذه الناحية أمر يمكن السفسطة فيه؟ هل تستطيع المرأة أن تحمل من الأثقال ما يحمله الرجل؟ هل تستطيع أن تسوق الحافلة والقطار والطائرة والغواصة والرافعة ووابور الزلط، أو على الأقل: هل تستطيع أن تسوقها بنفس الكفاءة التي يسوقها بها الرجل؟ ترى هل يمكنها أن تحارب كما يحارب هو، وتخوض المعارك الطاحنة كما يخوض هو، وتطلق المدافع والصواريخ وتلقى بالقنابل كما يفعل هو؟ ترى هل يمكنها تكسير حجارة الجبال كما يكسر هو؟ وهل يمكنها أن تشتغل بإنتاج الفرقى والمدفونين تحت الأنقاض كما يشتغل هو؟ ثم هل لها من الإنتاج الفكري والأدبي مثل ما له هو؟ بل هل اشتهرت بالطباخة وتصميم الأزياء على مستوى العالم كما اشتهر

حالات خمس تأخذ فيها أكثر مما يعطى الرجل، وحالات خمس أخرى تراث فيها، ولا يراث الرجل شيئا، وهو ما يجده القارئ مفصلا في كتب المواريث. وعلى هذا فما يتردد على السنة الناس من أن الإسلام يعطى المرأة من الميراث دائما نصف ما يعطيه الرجل هو كلام غير دقيق. وعلى الناحية الأخرى نجد أن المرأة في كثير من الحضارات تُحرّم من الميراث تمام الحرمان.

هذا في الميراث، أما في القوامة فيقول د. ندوى إن المرأة يمكن في الإسلام أن تكون عالمة ومفتية أو تعمل في أى عمل آخر، أما في البيت فللرجل القوامة، بمعنى أنه هو الذى يتكفل بمصاريف الأسرة وتحقيق متطلباتها. إلا أنه يسارع إلى القول بأن القوامة لا تعنى أن الرجال أفضل من النساء، إذ الإسلام يسوى بين الطرفين يوم القيامة. والحق أن بعض ما قاله الندوى صحيح، فالحساب سيكون واحدا للجميع دون محابة للرجل ضد المرأة بتاتا. وهو ما يترتب عليه أن الرجل يمكن جدا أن يُقَدَف به في النار وتذهب زوجته إلى الجنة مثلما يكون العكس. كما يؤكد الإسلام أن الذكر والأنثى قد خُلِقا من نفس واحدة لا أن الرجل خُلِق أولًا ثم خُلِقَت المرأة من أحد ضلوعه.

أما قوله إن الإسلام لا يفضل الرجل على المرأة فمن الواضح أنه يتجاهل قوله تعالى: "الرجال قَوَّامون على النساء بما فَضَّلَ اللهُ بعضَهُم على بعض..." . إن كثيرا من النسويات والنسويين يعللون تأخير المرأة عن الرجل بأن الرجل قد قمعها بقوته العضلية. ورغم أننا لا نسلم لهم هذه الحجة، لأن كثيرا من الناس رجالا ونساء يسودون جماعاتهم التى يتتبعون إليها رغم وجود من هم أقوى منهم عضليا، فلا جدال مع ذلك في أن التفوق العضلى ميزة ينفرد بها الرجل ويتفوق بها على المرأة. فلو افترضنا أن النوعين متساويان في سائر صفاتها تمام التساوى كان معنى ذلك أن في الرجل شيئا يزيد به على المرأة ويعطيه من ثم حق الصدارة. ثم هناك سؤال غاية في الأهمية هو: متى يا ترى تم اختطاف الرجل سيادة المرأة على الأسرة؟ ولأى سبب؟ هل كانت المرأة قبل ذلك أقوى من الرجل عضليا، ومن ثم استطاعت أن تقهره آنذاك، إلى أن جاء وقت ضعفت فيه عضليا وقوى هو فانتزع منها الزعامة؟ فهل كانت المرأة كذلك فعلا في يوم من الأيام؟ فما الدليل؟ وكيف تم هذا؟ ومتى؟ ثم إذا كانت المرأة الآن قد نالت حقوقها التى كانت محرومة منها قبلا فهل صارت عضليا أقوى من الرجل بحيث أكرهته على تسليمها حقوقها دون مشاكسة؟

إن د. نوال السعداوى، في كتابها: "الأنثى هى الأصل"، تنقل عن أحد العلماء أن المرأة البدائية كانت أقوى من الرجل جسدا. لكن هذا رجم بالغيب ليس عليه دليل، وهذا العالم نفسه يقول إننا لا

نملك شيئاً عن تلك المرحلة، فكيف عرف إذن ما يزعمه عن التفوق الأنثوي على الرجل آنذاك جسدياً؟ ثم كيف يا ترى تغلب الرجل على المرأة، وقد كانت أقوى منه؟ هل عبث أحد بالتركيب البيولوجي للرجل والمرأة؟ لكن هل كان العلم في تلك المراحل البدائية السحيقة من تاريخ البشرية متقدماً إلى هذا الحد؟ بل هل كان هناك علم أصلاً في ذلك الزمان؟ ولنفترض أنه كان هناك علم متقدم يستطيع أن يتلاعب في بيولوجيا النوعين، فكيف استطاع الرجال أن يفعلوا ما فعلوا بحيث يتخلصون من ضعفهم ويصيرون هم الأقوياء بدلاً من النسوة؟

وإذا كان جون ستوارت ملّ مثلاً، في كتابه: "The Subjection of Women"، ينكر أن يكون للتفوق العضلي أية قيمة في هذا السبيل بحجة أن الفيل أقوى عضلياً من الإنسان، ومع هذا فليست قوة عضلاته ميزة يمتاز بها عليه، فالرد سهل جداً لمن يريد. فنحن لا نقول إن الرجل لا يملك مثل الفيل سوى القوة العضلية، ثم تفوق المرأة عليه بعد ذلك بعقلها كما يتفوق الإنسان على الفيل بعقله، نحن لا نقول هذا، وإلا لكانت المرأة تلقائياً هي صاحبة القوامة مثلما أن الإنسان هو الذى يقود الفيل حسبما يريد ويستخدمه في أعماله لا العكس رغم تفوق الأخير على الأول في الحجم والقوة الجسدية. ذلك أن العبرة في تلك الحالة بالفكر والذكاء والدهاء والتخطيط، بخلاف الأمر في المقارنة بين الرجل والمرأة، اللذين لو قلنا قَرَضاً بتساويهما التام في العقل والذكاء والاختراع والإبداع وسائر الصفات المعنوية لبقى أن الرجل يمتاز عليها بالقوة العضلية، وهذا عاملٌ مرجّحٌ شديد الأهمية، إذ هو في نظر النسويين والنسويات السبب في تسيده عليها منذ فجر التاريخ حتى عصرنا هذا، وليس ذلك بالشئ القليل. ومن النسويين والنسويات من يؤكدون أنه ليس هناك أى دليل علمي على أن المرأة أقل من الرجل عقلياً ولا فيولوجياً.

ونبدأ بالتفوق العضلي، فهل تفوق الرجل على المرأة في هذه الناحية أمر ممكن السفسطة فيه؟ هل تستطيع المرأة أن تحمل من الأثقال ما يحمله الرجل؟ هل تستطيع أن تسوق الحافلة والقطار والطائرة والغواصة والرافعة ووابور الزلط، أو على الأقل: هل تستطيع أن تسوقها بنفس الكفاءة التى يسوقها بها الرجل؟ ترى هل يمكنها أن تحارب كما يحارب هو، وتحوض المعارك الطاحنة كما يخوض هو، وتطلق المدافع والصواريخ وتلقى بالقنابل كما يفعل هو؟ ترى هل يمكنها تكسير حجارة الجبال كما يكسر هو؟ وهل يمكنها أن تشتغل بإنتاج الغرقى والمدفونين تحت الأنقاض كما يشتغل هو؟ ثم هل لها من الإنتاج الفكرى والأدبى مثل ما له هو؟ بل هل اشتهرت بالطباخة وتصميم الأزياء على مستوى العالم كما اشتهر

هو؟ وهل تؤدي كل العمليات الجراحية كما يؤدي هو؟ فلماذا إذن المناطحة والمعاندة، وكأنتا في حرب عوان بين الرجال والنساء، ولستا في مجال تعاون وتناصح واحترام متبادل؟ وعلى هذا فلست أرى وجهة في الاعتراض على أن يكون للرجل حق القوامة بل ينبغي أن تشاركه المرأة في هذا أيضا. ذلك أن كل مؤسسة لا بد لها من رئيس ترجع إليه الأمور في نهاية المطاف. وليست الأسرة بدعا في هذا، وكما أنه لا يصح أن يقول المرؤوسون في أية مؤسسة إنهم ينبغي أن يشتركوا جميعا في رئاستها لأنهم لا يقبلون أن يكون هناك رئيس عليهم فكذلك لا يصح أن يقال هذا عن قوامة الأسرة. ويشير د. ندوي في هذا الصدد إلى أن تقسيم القوامة بين الرجل والمرأة يشبه أن يكون هناك حاكمان للبلد الواحد، مما لا يقول به أحد لأنه يفسد ولا يصلح. ولكن لا بد للرجل أن يستشير زوجته ويستأنس برأيها مع هذا.

وعن تفضيل الرجل في القرآن على المرأة درجة تؤكد د. أمينة ودود في كتابها: "Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective" أن هذه الدرجة ليست حقا مطلقا لكل الرجال في كل العصور وفي كل الظروف، بل هي في الطلاق فقط، بمعنى أن الرجل من حقه تطليق زوجته دون حاكم أو مساعدة، على حين لا يحق للمرأة الحصول على الطلاق إلا من خلال قاض. ولكن فاتها أن الرجل لا يطلق امرأته إلا بعد أن يعظها ويهجرها في المضجع ويوسط بينهما من أهله وحكما من أهلها. علاوة على أن من حق المرأة أن تخلع نفسها، وهو ما يساوي الطلاق، دون شرط الرجوع إلى القاضي. ثم إن الكلام في الآية مطلق وغير مقيد بالطلاق لا لفظا ولا سياقاً. ثم ماذا نصنع بقوله تعالى: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"؟ كذلك هناك الأحاديث التي تتحدث عن فضل الرجل على المرأة والتشديد على طاعتها له وما إلى ذلك مما أوردنا بعضه في هذا الفصل.

وتضيف ودود أن هناك تفضيلات مختلفة في القرآن منها تفضيل البشر على جميع المخلوقات، وبعض الجماعات على بعض، وبعض الأفراد على بعض، ومنها أيضا تفضيل بعض الرسل على بعض. وهي ترى أن هناك شرطين لتفضيل الرجال على النساء: أن يكون الرجل فعلا أفضل من المرأة في الواقع، وأن ينفق عليها. فإذا انخرم أحد الشرطين أو كلاهما لم تعد هناك أفضلية. كما تشرح التفضيل بأن الله قد أعطى الذكر في الميراث ضعف ميراث الأنثى في الأسرة الواحدة، وهو تفضيل مادي، وإن لم يكن كل الرجال يحصلون على ضعف النساء. ومعنى هذا أن ذلك التفضيل المادي ليس مطلقا. وعندها أن الرجل إنما يحصل على ميراث مضاعف لينفق على الزوجة. فإذا لم ينفق فلا فضل ولا تفضيل. وبالمثل

تنفى أن يكون الرجل مفضلاً بالفطرة على المرأة من ناحية القوة أو العقل لأنه ليس في النص ما يدل على تفوقه جسدياً أو ذهنياً. لكن ألا يكفى التاريخ والواقع المشاهد الذى يقول بأجلى بيان وأفصح لسان إن للرجال أقوى جسدياً من النساء؟ أترى في هذا شك أو جدال؟ ألا يكفى التاريخ والواقع الحى شاهداً على أن الرجل متفوق عقلياً على المرأة؟ وإلا فأين عدد المفكرات أو الفيلسوفات أو الشعاعرات أو المخترعات المساوى لعدد نظرائهن من الرجال؟ بل أين عدد مصمحات الأزياء والطباخات المشهورات وشاعرات المراثى المساوى لعدد نظرائهن من الرجال؟ ثم تمضى الكاتبة قائلة إن الآية لا تقول بأفضلية الرجال على النساء بل بأفضلية بعض الرجال على بعض النساء. تقصد أن القرآن يقول: "بما فضل الله بعضهم على بعض"، وهو تفسير غريب يدل على جهلها باللغة العربية بل باللغة عموماً أو على تدليسها وانحيازها، إذ إن هذا التركيب يدل على أفضلية الرجال على النساء، وإلا فلماذا جعل الله القوامه للرجال على النساء بإطلاق ما دام الفضل منحصر في بعضهم فقط بما يدل على أن بعض النساء بالتالى أفضل من بعض الرجال، مما كان يستلزم أن يقول القرآن مثلاً: "والنساء أيضاً قوامات على الرجال بما فضل الله به بعضهن على بعض"؟ ولقد ترجمت الآية بناء على هذا الفهم الجاهل أو العايب للقرآن. ثم لماذا خاطب الله الرجال محمداً هم الخطوات التى ينبغى هم اتباعها عند نشوز المرأة وقبل اللجوء إلى الطلاق بما فيها الضرب، ولم يصنع ذلك مع الجنس اللطيف، إلا أن يكون السبب هو أن الرجال قوامون على النساء وأن الله قد فضلهم عليهن؟

وهى ترفض أن يكون معنى قوله عز شأنه: "الرجال قوامون على النساء" هو أنهم مكلفون بهن، إذ المرأة، كما تقول، لا تفقد حرمتها وتصرفها في نفسها إلا في حالة الجنون فقط. كما تؤكد عدم دلالة الآية على تفوق الرجل المطلق على المرأة، بل على أن دوره هو الإرشاد والرعاية الأخلاقية. لكن إذا كان الأمر كذلك أليس معناه أن الرجل متفوق على المرأة بحيث يوكل له هذا الإشراف وتلك الرعاية؟ ثم تتساءل: هل كل الرجال قوامون على كل النساء؟ وجوابها أن الرجل قوام على زوجته فقط، وترفض أن يكون الرجال في المجتمع كله قوامين على النساء جميعاً بعكس ما يقوله بعض العلماء حسب كلامها. ثم تمضى فتقول إن إنفاق الرجل على زوجته هو للتخفيف عنها كى تنهض بمهمة الحمل والولادة والرضاعة والرعاية، تلك المسؤولية العظيمة التى تحتاج إلى ذكاء وقدرة على التحمل. فإنفاق الرجل على المرأة مسؤولية في مقابل مسؤولية أخرى شديدة الأهمية، مسؤولية لا يستطيع أحد أن يقوم بها سوى المرأة. وعلى هذا فهل، إذا كانت المرأة عاقراً، تستحق أن يظل الرجل قواماً عليها؟ وماذا لو كان

دخل الرجل وحده لا يكفى للقيام بحاجات الأسرة كما فى كثير من المجتمعات المعاصرة؟ وماذا لو كان الرجل عاجزا عن إعالة الأسرة كما فى أمريكا فى عصر العبودية حينما كانت المرأة الأمّة هى التى تعمل وتعمل سائر الأسرة؟ كل هذه المشاكل غير قابلة للحل كما تقول إذا نظرنا إلى آية "النساء" من زاوية ضيقة. ومن هنا تؤكد أنه لا بد من مراجعة فهمنا للقرآن فى ضوء المتغيرات المستجدة. لكن فأت ودود أنه كان هناك نساء يعملن فى عصر الرسول، فضلا عن أن كل امرأة كانت تقوم بأعمال البيت، وقد تشارك فى تمريض جرحى الحروب وسقى الجنود، ومع ذلك لم يقل الرسول ولا أحد منهم بما تقول به ودود.

وبالنسبة إلى النشوز تؤكد كاتبتنا أن آية سورة "النساء" التى نحن بصددّها: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِأَنفُسِكُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصِقُوا قَانِتَاتٍ حَافِظَاتٍ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ نَشُوزُهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا" لا تطلب من المرأة أن تطيع زوجها، إذ إن كلمة "قانتات" لا تدل على ذلك، بل تستعمل للذكر والأنثى على السواء، وتشير إلى سمة من سمات المسلم والمسلمة فيما يخص علاقتها بالله، ومنها أن يتعاونوا معا وأن يخضعوا لله سبحانه، أما الطاعة بين البشر فلها كلمة أخرى. وعلى هذا فما دام النشوز يقع من الطرفين فلا معنى أن نفسره بأنه عصيان الزوجة كما تقبل. وهى ترى أن الحل الأول حسب اقتراحها، أى التفاهم بين الزوجين وحدهما أو بمساعدة حكّمين، هو الأفضل لأن النشوز مذكور فى الحالين: حالة الرجل وحالة المرأة. لكن قد فاتها أنه لا يوجد وعظ من المرأة للرجل فى آية "النساء" التى تتحدث عن خوف المرأة من نشوز زوجها عليها أو هجرانها له فى المضجع. بل إن الرسول ليدّين المرأة التى تستعصى على رجلها.

وعودة إلى كارلا باور وكتابتها عن د. أكرم ندوى نراها تقول إنه قد بقى أمامها مناقشة أشد النقاط إثارة للجدل فيما يتصل بحقوق النساء. وإنى لأستغرب أشد الاستغراب فيم كل هذا الاهتمام بجداول تلك الصحفية للدكتور أكرم ندوى. إنها لن تُسلم ولا تنوى أن تسلم أبدا، فموقفها من هذا الأمر واضح لا يحتمل لبسا. إذن فماذا تريد؟ والجواب هو أنها تريد تغيير موقف ندوى كى يتلاءم مع وجهة النظر الغربية، وهى تسلك إلى هذه الغاية كل السبل الممكنة. وإلا فكيف فاتها، وهى الواسعة الأفق التى تحترم التعددية كما تلح دائما على القول، أن الأمم تختلف فى أديانها وأنظمتها الفكرية والتشريعية؟ وكيف تتصور أن الغرب هو المقياس الصحيح المطلق للصحة فى كل شىء؟ ولماذا هذا

الإلحاح على تغيير التشريع الإسلامي في الوقت الذي لا تحاول أبداً الاقتراب من مخازي الغرب في تعامله معنا ومع غيرنا حتى في مجال حقوق الإنسان وحقوق النساء بالذات؟ من يا ترى يغتصب نساء المسلمين في العراق مثلاً؟ أليسوا هم الأمريكان؟ ومن مكّن لإسرائيل اغتصاب فلسطين والاعتداء على حرارتها فيمن اعتدى اليهود عليهم سجنًا وقتلاً واغتصاباً وبقرًا للبطون وتعذيباً للذرية؟ أليس الأمريكان في طليعة من يعضد اليهود ويحميهم حتى من صدور أية إدانة في المؤسسات الدولية رغم ما نعرفه من أن أمثال هذه الإدانات لا قيمة لها ولا يترتب عليها شيء؟ ومن يعتدى على المسلمات في شوارع أمريكا؟ أليسوا هم المواطنون الأمريكان؟ وهذه مجرد أمثلة قليلة تافهة، وإلا فسيُجلّ مخازي أمريكا في تعاملها مع المسلمين محشوّ بكل ما هو مجرّم وحشّي. فلماذا تصمت المؤلفة عن هذا الجانب من أمورهم معنا ومع نساتنا، وتروح تجادل في كل شيء وتشكك في كل شيء يختص بالإسلام، والشيخ مُسلم نفسه لمجادلاتها وتشكيكاتها وكأنها تملك مقياس الصواب والخطأ المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ وليس لهذا كله سوى مغزى واحد، وهو أننا ضعفاء، ونمثل الحائظ المائل في ساحة العلاقات الدولية، ومن ثم نحرّو كاتبتنا على التعامل معنا بهذه الطريقة.

أما الموضوع الذي ترى الكاتبة أنه أشدّ الموضوعات إثارة للجدل فهو الآية التي تتعرض لضرب النساء. ومن المعروف أن الرجال في كل حضارات العالم منذ أقدم العصور حتى الآن بها فيها الدول المتقدمة ثقافياً وصناعياً واقتصادياً كأمريكا وفرنسا وبريطانيا قد يضربون زوجاتهم رغم إيقاف العمل بالقانون الذي كان يبيح للرجل في أمريكا وبريطانيا مثلاً أن يضرب زوجته لتأديبها، إلى جانب أن هناك بطبيعة الحال زوجات يضربن أزواجهن. وقد قرأت منذ عدة أيام عن زوج أمريكي ظلت زوجته تضربه وتبنيه حتى تحطم قوس صبره، فقتلها. فما موقف الإسلام من قضية ضرب الرجل لزوجته؟ بوجه عام لا يحب الإسلام أن يضرب الرجل زوجته أو يبينها. وقد شدد الرسول في ذلك إذ يقول: "لا يُلْدُ أحدكم امرأته جَلْدَ العبد ثم يجامعها في آخر اليوم". ولم يحدث قط أن ضرب صلى الله عليه وسلم أياً من زوجاته. بل إنه لم يضرب أية خادمة عنده. وأقصى ما قاله لإحدى الخادِمات حين أخرجته عن حِلْمه إنه لولا خوفه من الله وسؤاله له يوم القيامة لأوجعها بالسواك الذي في يده. فعن أم سلمة زوجته رضي الله عنها: "دعا النبي صلى الله عليه وسلم وصيفة له، فأبطأت عليه، فقال: لولا مخافة اللوم يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك".

وفي القرآن آية يخطئ بعض الناس فيظنون أنها إيجاب لضرب النساء لأنها تستخدم فعل الأمر، جاهلين أن الأمر كثيرا ما ينصرف إلى أغراض بلاغية أخرى غير الأمر، فيكون للإباحة أو تقرير الواقع مثلا كما في قول أحدنا لصديقه وهو يقدم له بعض التفاح: "كل تفاحا"، إذ ليس معنى هذا أنه يأمره أمرا لا يحصى عنه بأن يأكل التفاح الذي يقدمه له، بل المقصود أن هذا تفاح، وأن بمستطاعه الأكل منه، وأن الأكل منه يدخل على قلبه بهجة. وقد يكون الصديق مع هذا صائنا أو ممنوعا من أكله بأمر الطبيب أو ممن ينفرون منه، ومن ثم لا يمكنه أن يطعمه. ولا تثريب على أى منهما في شئ: لا العارض الذي أمر ولا المعروض عليه الذي اعتذر. وعلى أية حال هناك طائفة من النساء طُبِعْنَ على الشكاسة والتمرد والمعصية، فماذا يفعل الرجل مع الواحدة من هؤلاء؟ يبين القرآن أنه ينبغي أن يبدأ بعظها، فإذا لم تستجب فيمكنه أن يهملها في الفراش، فإذا استمرت في الشكاسة والعصيان فهل هناك ما يضمن ألا تفلت منه أعصابه فيضربها، وهو المسؤول عن البيت؟

وفي كتابها: "الأنتى هي الأصل" تردد. نوال السعداوى رأى فرويد وعدد كبير من علماء النفس الغربيين الذين يرون أن المرأة مازوكية بطبيعتها، أى تحب الإيلام والإذلال. وأقترح ترجمة هذا المصطلح بـ "الاستلامية"، أى الرغبة في الألم والبحث عنه والتلذذ به. بل إن المرأة نفسها، كما تقول السعداوى، قد تتخدد وتظن أنها تحب الإيلام والإذلال، وتقع نفسها بذلك حتى تقتنع أو تكاد. وأنا لست ممن يعتقدون بهذه الدعوى، وإن لم يمنع ذلك من وجود طائفة من الجنس اللطيف تستعذب هذا الشعور. على أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة المتعمقة والمتجردة من أى رأى مسبق. وهناك خلاف بين العلماء حول هذا الموضوع: فبينما يرى البعض أن المرأة مازوكية بطبعها وتحب تعذيب نفسها في سبيل مرضاة الآخرين كأعضاء الأسرة مثلا يرى بعض آخر أن الأمر في حقيقته لون من التضحية والتفانى في تأدية الواجب. ويمكن القارئ الرجوع مثلا إلى مقال في "النيويورك تايمز" بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٨٥م لجلين كولينز Glenn Collins عنوانه: "Women and Masochism: Debate".

Continues.

إن نوال السعداوى تزعم أن الرجال يكرهون المرأة. والحق أنهم لا يكرهونها ولا يكرهون إعطاءها حقها من الاحترام، بل كل ما هنالك أنهم يكرهون المناطقة من بعض النساء وجنوحهن إلى التمرد والعصيان في كل صغيرة وكبيرة. ومعروف أن معظم الرجال يشاورون نساءهم، إن لم يكن عن مبدأ فعلى الأقل نزولا على الطبيعة البشرية التى تحب أن تحس بأنها ليست وحيدة في مواجهة الظروف

الصعبة والمربكة، وترغب في الاستئناس بها عند الآخرين القريبين منهم من رأى. إلا أن بعض النساء يردن المناكفة، وهذا مما لا يساعد سفينة الزواج على الإبحار الهادئ. وإلا فكيف عاشت المرأة مع الرجل منذ الخليقة؟ أو كانت حياتها كلها تعاسة وشقاء وكربا أسود؟ لا نكران أنه كان هناك، وسوف يظل دوماً هناك، مشاكل بين الطرفين سواء عملت المرأة خارج البيت أو بداخله. ترى أنتخلو المجتمعات الغربية من المشاكل بين الرجل وزوجته؟ ألم يتفش الطلاق في تلك المجتمعات؟ ألم تكثر الأمراض النفسية؟ ألم يظهر الاغتصاب ويتشتر؟ ألا يضرب كثير من الرجال الغربيين زوجاتهم؟ ترى لماذا فشل مثلاً برتراند رسل عدة مرات في الزواج وعرف العلاقات الغرامية حتى مع المتزوجات رغم كل التقدمية في فكره وفكر زوجاته وعشيقاته في مجال الجنس؟ ولماذا كان هربرت جورج ويلز يخون زوجته مع سكرتيرته كلما خلا عليها البيت؟ ولماذا خان كل من الأمير تشارلز والأميرة ديانا الآخر، واعترفاً بذلك في التلفاز على الملأ في جميع أرجاء العالم دون أدنى إحساس بالخجل ولا مراعاة لوضعهما السياسى والاجتماعى ولا مبالاة بمشاعر أطفالهما؟ ولماذا هذه الفضائح الجنسية في كل مكان بالمجتمعات الغربية؟ ولماذا هذا التفكك الأسرى الواسع النطاق؟ ولماذا كل هذا القلق؟ ولماذا ارتفاع نسبة الانتحار؟

لكن من الممكن جداً مع هذا كله أن ترفض الزوجة ضرب زوجها لها، وهذا حقها. وفي هذه الحالة إما أن تطيعه وتبذل أسلوب العصيان والتمرد ويعود الصفاء إلى الحياة الزوجية، وإما أن تطلب منه تسريحها بإحسان وتخلع نفسها منه، ويذهب كل منهما إلى حال سبيله يجرب حظاً مع شريك آخر، إذ لا يصلح أن تمضى سفينة الحياة الزوجية في مثل هذا البحر المضطرب. قال تعالى: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِأَنفُقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ نَشُوزُهُنَّ نِعَظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِن أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً * وَإِن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً"، "وَإِن امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا". أما القول بأن القرآن يوجب ضرب المرأة لإصلاحها فإنه غير صحيح، إذ إن صيغة الأمر في الآية ليست للوجوب، بل هى مجرد مقترحات يمكن أن يأخذ بها الزوج أو لا يأخذ، وتقبلها الزوجة أو ترفضها، حسب طبيعة كل حالة على حدة. إن قوامه الأسرة، أى

رئاستها، هي من حق الرجل، وإن لم يمنع أن تكون بعض النساء أقوى من الرجل شخصية، إلا أن القاعدة العامة لا ينقضها استثناء هنا أو هناك.

وهنا تذكر كارلا باور ما قاله د. ندوى من أن الضرب في الآية المذكورة هو الضرب كما نعرفه، فكان ردها: إذن فلا يمكن أن يمكن أن يكون معناها النصح والوعظ ولا ترك البيت والذهاب بعيدا عنها؟ وقد جاءها رده الحاسم بأن الضرب يعنى الضرب، وإن لم يكن هو الحل المثالي، إلا أن للضرورة أحكاما. وهو ما سبق أن قلته آنفا. كما أشار إلى أن التأديب ينبغي ألا يتم حين يكون المؤدّب غاضبا، وإلا فهو لا يؤدّب بل ينفس عن غضبه، كما أن الضرب لا يصح أن يؤلم ولا أن يؤذي، إذ هو مجرد رمز على رفض السلوك المعوج، ومن ثم اقترح بعض الفقهاء، كما يقول، استعمال السواك مثلا في الضرب كما هدد الرسول إحدى خادماته يوما حين أخطأت في بعض تصرفاتها وظهر منها نوع من اللامبالاة، وإن لم يفعل ما هدها به رغم ذلك. أما بالنسبة لزوجاته فلم يحدث أن لجأ إلى ضرب أية منهن، منها المسلمين أنه خيرهم، وفي ذات الوقت هو خيرهم مع زوجاته بما يعنى أن عليهم احتذاء سلوكه في هذا السبيل. ثم يمضى أكرم ندوى قائلا إن ما نسمع عنه من ضرب بعض الرجال المسلمين لزوجاتهم ضربا مبرحا وإيلامهن وإيذائهن جسديا ونفسيا ليس من الإسلام في شيء، بل هو مجرد تنفيس عن غضب الزوج أو تعبير عن غطرسته أو انتقام لكبريائه. وقد أكد الشيخ ندوى للصحفية الأمريكية أنه لم يحدث قط أن ضرب امرأته أو أحدا من أولاده.

أما تساؤل كارلا باور: "ألا يمكن أن يمكن أن يكون معنى الضرب في الآية المذكورة هو النصح والوعظ أو ترك الزوج للبيت والذهاب بعيدا عن زوجته المتمردة؟" فلا بد له من إيضاح. ذلك أن بعض المتسيين إلى الإسلام في الغرب، وبخاصة في أمريكا، قد فسروا تحت ضغط من الجو العام هناك الضرب بأنه ترك البيت والمضى بعيدا عن الزوجة. ومن قالوا بذلك لالة باختيار الإيرانية التي قامت بترجمة القرآن إلى الإنجليزية بتكليف من بعض جهات النشر هناك رغم ضعفها الشائن المزرى في لغة الضاد. كما رددته د. أمينة ودود أيضا في كتابها السالف الذكر، وقد أشارت كاتبتنا إلى هذه الأخيرة بإعجاب لدورها في تفسير القرآن تفسيراً جديدا يتلاءم وأوضاع القرن الحالى كما ذكرت. إن د. ودود تميم معنى الضرب فتقول إنه قد يعنى ضَرْب المَثَل أو الضرب في الأرض. وهي تفسره بهذه الطريقة كى تصل إلى القول بأنه لا يجوز للرجل أن يضرب زوجته مهما كانت الأحوال بينهما. وهذه الطريقة لا تصل بنا في أية كلمة إلى شيء صحيح لأنه ما من كلمة إلا ولها عدة معانٍ يحدد السياق المعنى المراد منها في كل

حالة. ولا يمكن أن يكون معنى الكلمة في سياق الآية التي نحن بصدددها هو ضرب المثل أو الضرب في الأرض. وتقفز أمينة ودود بعد ذلك إلى القول بأن الآية لا تحيز الضرب بل تضع قيودا عنيفة على تلك العادة المنتشرة آنذاك.

بيد أن الأمر يحتاج إلى مزيد توضيح، إذ لا ينبغي أن يفهم القارئ من كلامنا هنا أننا نحجب إهانة النساء. لقد شرع الله تأديب الرجل لزوجته، ولكن أية زوجة تلك التي نزل من أجلها هذا التشريع؟ لا أظن أن ودود ولا غير ودود تستطيع أن تنكر أن هناك زوجات عنيدات يتزعن نحو التمرد والمخالفة لما يقوله أزواجهن دون أن يكون قد وقع منهم ما يدفعهن إلى هذا. فماذا يفعل الزوج في هذه الحالة؟ إن الأمر أولا بيد الزوجة: فإذا ما أنقلع عن هذا العناد والتمرد وإما أن تطلب من زوجها أن يسرحها بإحسان. أما أن تظل ترهقه بالعصيان والتشامخ ثم لا تريد هي ولا تريد سيداتنا النسويات أن يقوما زوجها فهو أمر لا يمكن فهمه ولا بلعه. كما أن التأديب يمثل الخطوة الثالثة السابقة على الأخيرة في سلسلة العلاجات التي يستطيع اللجوء إليها قبل الطلاق لا قدر الله، لا الخطوة الأولى على ما يظن الناس، وبخاصة غير المسلمين، الذين يضربون زوجاتهم، إلا أن أحدا لا يتناول هذا الموضوع إلا للتنشيع على الإسلام فقط.

وفوق هذا فقد حذر النبي أتباعه من المسارعة إلى ضرب الزوجات أو تجاوز الحد في ذلك، موضحا أن هذا بوجه عام أمر لا يليق، بمعنى أنه علاج لا ينبغي اللجوء إليه إلا عند الضرورة القصوى حين تنسد كل الأبواب، ولا يعود هناك مفر من ولوجه. وهو في هذا يجرى على سنة الإسلام في كل أمر، ألا وهي أنه لا يعطى أحدا صكا على بياض، بل لا بد لكل شيء من ضوابط تحكمه وتنظمه وتعاذل فيه الحقوق بالواجبات، والقانونيات بالإنسانيات... وهكذا. وقد شدد الرسول في ذلك فقال: "لا يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، ثُمَّ يَجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ". وقال: "استوصوا بالنساء خيرا، فإنما هن عَوَانٌ عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح. فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا"، "أيها الناس، إن النساء عندكم عَوَانٌ أخذنوهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله"، وأوصى بالصبر عليهن وتحمل نزقهن بقدر الإمكان: "إن المرأة خُلِقَتْ من ضلع. فإن ذهبَتْ تقوّمها كسرّتها، وإن تدّعَها ففبيها أود وبلغة"، "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي. ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم"، "اتقوا الله فيما ملكت أيانكم. اتقوا الله في الضعيفين: المرأة الأرملة، والصبي اليتيم". ولم يحدث أن ضرب صلى الله عليه

وسلم أيا من زوجاته. والملاحظ أن د. أمينة ودود تكثر من الحديث عن عنف الأزواج المسلمين تجاه زوجاتهم، ولا تذكر أبدا ما هو منتشر في المجتمعات الأوروبية من عنف عنيف تجاه النساء، وكأن الضرب سمة إسلامية لا يعرفها الغربيون أبدا.

أما لالة بختيار، التي تصدت أو بالأحرى: طُلِبَ إليها أن تتصدى لتفسير القرآن، فقد اعترض عليها بعض من حاوروها بأنها لا تحسن اللغة العربية، فكان جوابها أنها تتقن العربية القديمة، وأنها من ثم تستطيع أن تفسر القرآن. فتعالوا إلى ما قالته عن منهجها في التفسير لنرى هل هي تقول الحق أو لا. لقد ذكرت أن منهجها في ترجمة القرآن الكريم يتلخص في الاستعانة بمعجم "مد القاموس" للمستشرق البريطاني إدوارد وليم لين بحثا عن معاني الآيات في ذلك المعجم كلمة بعد كلمة بغية تقريب النص القرآني إلى القارئ الإنجليزي المعاصر. فهل هذا يكفي أولا؟ وهل هذا هو السبيل لذرك تلك الغاية ثانيا؟ وللجواب عن السؤال الأول أقول بملء فمى إن ما ذكرت السيدة بختيار أنه هو المنهج الذي اعتمدته في ترجمتها للقرآن المجيد لا يكفي بناتا. ذلك أن الترجمة ليست نقل ألفاظ سائبة من لغة إلى لغة، بل الترجمة نقل النص كله متاسكا. والنص ليس كلمات مفردة فقط، بل هو أيضا عبارات وتراكيب وصور وظلال وشيات وإيقاعات وتناغمات وفقرات. إنه كل متكامل شديد التعقيد... فكيف بالله يكفي أن تضع أمامها معجم لين، مهما كانت عبقرية مؤلفه، وتنظر فيه معاني الكلمات القرآنية كلمة كلمة على انفراد، ثم تقول إنها قد قامت بترجمة النص القرآني؟

ثم إن لين ذو أسلوب قديم، ولا يمثل ما يكتبه إغراء للقارئ المعاصر لكي يمضي في القراءة. وفوق هذا فما من معجم إلا وهو يبعث بالعيوب ونواحي النقص التي لا بد من الاستعانة عليها بأكثر قدر من المعاجم الأخرى. وأنا مثلا، رغم أنني لا أتصدى لمهمة مثل تلك التي تصدت لها بختيار أو أريد منها أن تتصدى لها لغرض في نفس يعقوب، لأكدس عندي مئات المعاجم الورقية والضوئية لهذا السبب، إذ كثيرا ما لأجد طلبتي في أحد القواميس فأبحث عنه في قاموس آخر أو أكثر حتى أجد شفاء نفسي. فكيف تظن بختيار أن معجما واحدا يكفي لمهمتها تلك الثقيلة؟ على أن هذا لا يزال غير كافٍ، إذ يجب على المفسر أن يرجع إلى كتب اللغة من نحو وصرف، وإلى الأشعار الجاهلية والإسلامية، وإلى كتب الحديث والتفسير والبلاغة، وإلى كتب أسباب النزول... ولا ينبغي أن ننسى الاستعانة بالتراجم القرآنية السابقة حتى نعرف ماذا قال الآخرون في هذه الآية أو تلك، وإلا أفنتظن بختيار أنها بنت بجَدَّتْها أو أنها أول من ترجم القرآن الكريم إلى غير العربية؟

ولنأخذ واحدا مما صَرَّبْتَهُ من أمثلة على طريقتها في الترجمة، وهو كلمة "اضربوهن" في قوله تعالى: "وَاللَّائِي تَحَاوُونَ تُشْرِكْنَ نُسُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ"، التي تقول تعليقا عليها إنها لا تتصور أن الله، الذي تحبه كما تقول، يمكن أن يوافق على ضرب الزوجات، وإنها لهذا أخذت تبحث وتتقصى معاني تلك الكلمة حتى استطاعت، من خلال معجم لين، أن تضع يدها أخيرا على المعنى الصحيح الذي فات جميع المفسرين واللغويين على مدار الأربعة عشر قرنا الماضية، وهو "الذهاب بعيدا"، بمعنى أنه إذا لم يفلح الرغظ ولا الهجر في المضجع مع الزوجة الناشز فليذهب الزوج بعيدا عنها، وإن لم يتحدد بختيار للأسف مدى ذلك البعد، وهو ما من شأنه أن يربكنا نحن الأزواج المؤذنين الذين نريد أن نضرب زوجاتنا: أهو يا ترى ترك الزوج للمنزل والبحث عن فندق يقيم فيه أم البيات على الرصيف المجاور أم الذهاب إلى ألاسكا والعيش هناك مع الإسكيمو حتى يضمن أنه سيكون بمنجاة من النكد الذي تسود به زوجته عليه حياته والذي لا يستطيع أن يعمل لزوجته شيئا حياله غير أن يأكل بعضه بعضا قهرا وغما وغیظا؟

إننا نقول: ضرب فلان فلانا، ونقصد أنه انهال عليه بالكف أو بالعصا مثلا. ونقول: ضرب فلان النقود، أى سَكَّها. ونقول: ضرب أحماسا لأسداس، والمعنى: تحير واضطرب. ونقول: ضرب فلان لفلان موعدا، معنى: حدد وقتا للقائه. ونقول: ضرب الله على أذنيه، فيكون المقصود أنه أنامه نوما عميقا فلم يحس بشيء. ونقول: ضرب له طريقا، بمعنى شقه له. ونقول: ضرب فلان على الكرم، ومعناه أن الكرم طبيعة فيه وليس شيئا مكتسبا. وضربت على فلان الذلة، والمعنى: أحاطت الذلة به من كل جانب فلا يقدر على التخلص منها. ونقول: ضربت عليه الجزية، أى فُرِضَتْ. ونقول: ضرب الفحل الناقة: لَقَّحها. ونقول: ضرب فلان الخيمة، بمعنى: نصبها. ونقول: ضرب فلان عن فلان صَفْحًا، والمعنى: انصرف عنه أو أهمله. ونقول: ضرب فلان لفلان سهما في ثروته، أى خصص له نصيبا منها. ونقول: ضرب فلان في سبيل الله: جاهد. ونقول: ضرب الدهر بين فلان وفلان: فَرَّقَها. وكذلك نقول: ضرب فلان في الأرض، والمقصود ارتحل وذهب بعيدا... إلخ. وهذا هو المعنى الذي أخذت به بختيار من بين كل تلك المعاني وغيرها لترجمة قوله تعالى: "واضربوهن". فهل هذه ترجمة صحيحة؟ هل قولنا: "اضرب فلانا يا فلان" معناه: اتركه واذهب بعيدا عنه؟ الحق أن هذا هو الهزل بل الدجل بعينه، إذ إن ذلك المعنى لا يأتي من كلمة "ضرب" وحدها، بل من عبارة "ضرب في الأرض" كلها. أما "ضرب فلان فلانا" فلا يمكن أن يكون له معنى غير أنه قرعه بيده أو بعصا مثلا. وقد ترجم لين في معجمه

المذكور هذا الفعل مجرداً بـ "strike, beat, smite, hit"، وهو نفس ما قلناه. ولو كانت اللغات تؤخذ بتلك الطريقة التي تمشى عليها السيدة بخيار فقل على الترجمة السلام.

ثم كيف يدل قوله: "اضربوهن" على الذهاب بعيداً؟ إن لدينا في الآية الكريمة فعلاً متعدياً ومفعولاً هو الضمير "هُنَّ" العائد على الزوجات. ومعنى هذا أن الضرب يقع على الزوجات. فكيف يكون المعنى: اذهبوا بعيداً؟ لو كان قد قيل مثلاً: "اضربوا عنهن" لأمكن التمثل والقول بأن أصل الكلام: "اضربوا في الأرض بعيداً عنهن" بعدما حُذِفَ منه شبه جملة "في الأرض"، أو أنه "اضربوا عنهن صفحاً" بمعنى: لا تبالوا بما يفعلنه واصفحوا عنهن. أما وهناك مفعول به مباشر فالمعنى: اضربوهن الضرب المعروف وألموهن عقاباً لمن على نشوزهن وعدم رجوعهن عن أسلوب العناد والتكيد دون داع بعدما نصحتهم وهجرتم في المضجع وصبرتم وصابرتن، ولم يبق أمامكم إلا أن تطلقوا من أجنابكم أو تشعلوا النار في أنفسكم. أما لالة بخيار أو من كتب لها الترجمة فيخلط بين عيوشة وأم الخير، وهو ما لا يصح ولا يصلح. وإلا فلتُرنا هي أو هو أو هم شاهداً من لغة العرب على أن "ضرب فلان فلانا" معناها: "ذهب بعيداً".

كذلك فسبب نزول الآية يدل على أن المعنى الذي رفضته لالة بخيار هو المعنى الصحيح. جاء في "أسباب النزول" للواحدي: "وَقَدْ رَوَى عَنْ مُقَاتِلٍ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ فِي سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرٍو، وَكَانَ مِنَ الثَّقَلَاءِ، وَفِي امْرَأَتِهِ حَبِيبَةَ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ. وَذَلِكَ أَنَّهَا تَشَرَّتْ عَلَيْهِ، فَلَطَمَهَا، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا مَعَهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَفَرُسْتُه كَرِيمَتِي، فَلَطَمَهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِنَقْتَصَّ مِنْ زَوْجِهَا. فَانْصَرَفَتْ مَعَ أَبِيهَا لِنَقْتَصَّ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ازْجِعُوا. هَذَا جِبْرَائِيلُ أَتَانِي، وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. فَتَلَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: أَرَدْنَا أَمْرًا، وَأَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا. وَالَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرٌ". وفي "أسباب النزول" للسيوطي: "أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: جاءت المرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تستعدي على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القصاص. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". وأخرج ابن جرير عن طريق الحسن، وفي بعضها أن رجلاً من الأنصار لطم امرأته فجاءت تلتصق القصاص، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم بينهما القصاص، فتزلت "ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وخيه"، ونزلت "الرجال قوامون على النساء". وأخرج نحوه عن ابن جريج والسدي. وأخرج ابن مردويه عن علي قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله، إنه ضربني فأثر

في وجهي. فقال رسول الله: ليس له ذلك. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". فهذه شواهد يقوّي بعضها بعضاً".

كذلك من الأدلة على صحة هذا المعنى بل على أنه هو وحده التفسير الصحيح ما ورد عن النبي في هذا الموضوع، إذ نصّح المسلمين بقوله: "ألا عسى أحدكم أن يضرب امرأته ضرب الأمة؟ ألا خيركم خيركم لأهله"، "أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد: يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره؟". وليس هناك تناقض بين القرآن والحديث: فالقرآن إنما جوّز الضرب ولم يوجبه. وفرق بين تجويز الشيء وجعله واجبا مفروضا: هذا أولا. وثانيا إن القرآن حين شرع الضرب إنما شرعه بعد استفاد كل الأساليب الأخرى من وعظ ومخاصمة وما إلى ذلك. فماذا يفعل الرجل بعد هذا كله؟ أما إذا كانت المرأة لا تريد أن تعامل بهذه الطريقة فهذا حقها، ولكن عليها ألا تنشر على زوجها أو أن تخلع نفسها منه. ومن ناحيته هو فإما أن يقبل التعايش معها على نشوزها وعدم رجوعها عن العصيان الذي لا مسوغ له، وإما أن يطلقها. وإذا أثرت هي الخلع أو الطلاق على أن يؤديها زوجها في حالة نشوزها فهي وما اختارت. أما الحديث فيوضح للمسلمين أن تجويز الضرب ليس معناه أنه هو الحل الأمثل، بل عليهم أن يعرفوا أنه لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى وأنه كالطلاق: بغض رغم مشروعيته.

وأخيرا فقد اختتمت كارلا باور كلامها مؤكدة أن د. أمينة ودود هي أول صوت نسائي يقتحم ميدان التفسير القرآني. نعم تؤكد ذلك رغم أن ودود لم تكتب تفسيراً للقرآن بل وضعت بعض الدراسات التي تلم ببعض الموضوعات القرآنية. ولأهمية هذا الموضوع أود أن أنقل المقال التالي الذي يتعرض لموضوع المرأة المفسرة. يقول الباحث الموريتاني محمد السالك محمد فال في مقال له بعنوان "المرأة والتفسير: الحاضر الغائب" نشره في "ملتقى أهل التفسير": "تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الهام الذي لعبته المرأة المسلمة في إثراء المعرفة الإسلامية بشكل عام، وتفسير القرآن الكريم بشكل خاص. ولن نوغل في التعريف بالإضافة المشهودة التي قدمتها المرأة المسلمة فيما يخص العلوم الإسلامية الأخرى من فقه وعلم منطق ورواية حديث وحفظ للمتون وإفتاء وتدريس بأكبر منارات المعرفة في البلدان الإسلامية حتى لا تقع في التفريع المخل والتكرار الممل. ولكننا سنحاول سبر أغوار الإضافة النسائية لعلم التفسير، ليس فقط لشرف هذا الأخير وأهميته ومكانته الرائدة ضمن المعارف الإسلامية، ولكن أيضا للإجابة على تساؤلات ملحّة وجوهرية حول ذكوريته المطلقة والتي أفضت في كثير من الأحيان بالعديد من المغالين من دعاة التحرر إلى اعتباره علما باطرياركيا بامتياز.

ولمجانفة التبريرات اللامنهجية التى دأب عليها العديد من الباحثين فى هذا المجال والتى لا تعدو كونها أحيانا مجرد اعتراضات عمياء تفتقد إلى التأصيل المنهجى والقراءة الجادة للمعطيات العلمية والتاريخية فى الموروث التفسيرى فإننا فى هذا العمل المتواضع سنحاول رصد وتقييم المشاركة النسائية فى هذا الحقل والأسباب التى أدت إلى وصفه بالذكورى. هذا بالإضافة إلى تقديم نماذج معاصرة لمفسرات مسلمات يفند وجودهن الدعاوى والاعتراضات التى لطالما وجهت لهذا الثغر المعرفى الهام.

يشكل علم التفسير الحجر الأساس للمعرفة الإسلامية نظرا لارتباطه الوثيق بالقرآن العظيم، الذى هو معين هذه الأمة المصون ورافدها المغدق ومعجزتها الأزلية. "وعلم التفسير يعتبر بحق أرفع العلوم الإسلامية قدرا وأعلالها شأنًا. دونه كل علم من العلوم الإسلامية على اختلاف أنواعها وتنوع مقاصدها. وتلك حقيقة برهانها قائم لا ينكره إلا من ينكر ضوء الشمس". وكلمة "التفسير"، كما أورد ذلك الزركشى ونقله عنه صاحب "الإتقان"، تطلق فى اصطلاح المعنيين به على "العلم الذى يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه وإستخراج أحكامه وحكمه". وهو علم يحوى جوانب عويصة تتطلب العلم بالرواية الماثورة عن النبى والاستنباط بالدراية والفهم القويم للخطاب الشرعى. فكلام الله سبحانه وتعالى، كما ورد عن ابن عباس، جاء على أربعة أوجه: "وجه تعرفه العرب فى كلامها، وتفسير لا يغدر أحد بجهلته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله". ولما كانت هذه هى حال التفسير فلقد كان الرسول الكريم هو المفسر والمبين الأول للقرآن الكريم وأحكامه. كما كان الصحابة رضوان الله عليهم جميعا تلاميذ مدرسة النبوة، يحفظون ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم، ويتباينون فى ذلك الحفظ والفهم للآيات القرآنية فى أحكامها، وناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها، مطلقها ومقيدها... إلخ. فعن مسروق قال: "جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذا، يعنى الغدير. فالإخاذا يروى الرجل، والإخاذا يروى الرجلين، والإخاذا يروى العشرة، والإخاذا يروى المائة، والإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم". وكان من أغزر رجالات التفسير من الصحابة علما وفضلا عبد الله بن عباس حبر الأمة وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وعلى بن أبى طالب وغيرهم من صحابة النبى.

واتسعت رقعة التفسير لتشتمل فى عصر التابعين مدارس عدة فى كل من مكة والمدينة والعراق. ومن أشهر رجالها سعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وعكرمة مولى ابن عباس وزيد بن أسلم وأبو العالية وعلقمة بن قيس ومسروق والأسود بن يزيد والحسن البصرى... إلخ. ونصل عصر التدوين حيث

تتري وتكثر التصانيف في التفسير، فنجد أنفسنا أمام رجالات جُدد كالطبري والنيسابوري والحاكم وابن مردويه، وغيرهم كثير.

ولعل القارئ يقف الآن متسائلا عن العلاقة التي تربط إسهابنا في ذكر رجالات التفسير من الصحابة والتابعين وغيرهم بموضوع الدراسة الذي يتمحور حول دور المرأة المسلمة في هذا الميدان المعرفي الهام. لكننا نرد عليه منبهين إلى الدور الخطير الذي لطالما لعبه السرد التاريخي الإقصائي في طمس معالم المشاركة الهامة التي قامت بها المرأة المسلمة في هذا المجال. فمعظم المصادر التاريخية التي تتعرض لهذا الموضوع تغض الطرف عن الإسهامات النسائية الهامة. وتنعكس هذه النظرة الإقصائية التي تستبعد الإضافات النسائية من خلال عناوين بعض المؤلفات حول هذا العلم من كتب وتراجم ومعاجم وقواميس تُعنى بالتفسير والمفسرين. فدانما ما يجد الباحث عناوين من قبيل "التفسير ورجاله"، "التفسير والمفسرون"، "معجم المفسرين". وهى عناوين، وإن كانت تختمل لغويا أن تكون النساء داخلات ضمن ماتشملة من تتبع لأقطاب هذا العلم ونتائجهم الوافر، إلا أنها تعكس الصورة النمطية السائدة عن عدم أهلية المرأة للولوج إلى هذا الحقل المعرفي الهام واعتباره مجالا ذكوريا بامتياز.

ومن هذا المنطلق تفرض علينا الدقة العلمية والإنصاف أن نرجع إلى الوراء قليلا لنؤكد على أن مدرسة التفسير الأولى والتي احتضنها بيت النبوة كانت قد خرجت أيضا نساء كان لهن قسط وافر من العلم، وإشراقات هامة في مجال تفسير القرآن الكريم. فلا أحد يمكن أن ينكر ما لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من مرويات في التفسير، فهي تعد بحق "أفقه نساء الأمة". بلغت مروياتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٢١٠ حديثا منها ١٧٤ حديثا متفقاً عليها عند الشيخين، وانفرد البخارى بـ ٥٤ حديثا، ومسلم بـ ٦٩ حديثا. وكان من تلامذتها عدد كبير من الصحابة أخذوا عنها العلم كعبد الله بن عباس وابن عمر، وعبد الله وأخوه عروة بن الزبير... إلخ.

كما كان لأم المؤمنين أم سلمة مرويات في التفسير ومواقف مع التنزيل تعكس روح النضج الفكرى وعناية المرأة المسلمة بالنص القرآنى في علاقته بالمتلقين من الجنسين. لقد كانت رجاحة عقل أم سلمة واهتمامها بالواقع التطبيقي للتنزيل سببا مباشرا لنزول بعض الآيات القرآنية. "فعن عمرو بن دينار عن سلمة، رجل من آل أم سلمة، قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء! فأذن الله تعالى: "فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى... إلى آخر الآية". وهذا البعد التنزيل الذي ينطوى على جانب هام، وهو الإجابة المباشرة على تساؤلات أم

سلمة الوجهية، بلغت انتباهنا ليس فقط إلى الدور المعرفي الهام والفاعل الذي كانت تلعبه المرأة المسلمة في مدرسة النبوة، بل وأيضا إلى تأييد الوحي القرآني لهذا الطرح الفكري السليم والتناضح والذي ينم عن روح أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها روح تساؤلية نقدية لا تستسيغ الابتلاع أو التقليد الأعمى.

وكان لأخريات من أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابيات والتابعيات أدوار هامة في رواية التفسير وحفظ ما أُرث عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال. ولعل الأجواء السياسية المشحونة التي عَقَبَتْ مقتلَ ثالث الخلفاء الراشدين، وتحديد الدور الذي لعبته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في موقعة الجمل، كانت من ضمن الأسباب التي أدت إلى عزوف المرأة المسلمة عن الاهتمام بالشأن العام خصوصا فيما يتعلق بالسياسي في علاقته بالديني. هذا عدا عن الأولويات الاجتماعية والثقافية للمرأة المسلمة كزوجة وأم. وهي أولويات لطالما جعلت اهتمامها ينصب على الشأن الداخلي أو البيتي من تنشئة وتربية وتعليم.

لقد صار علم التفسير بدءا من عصر التدوين حكرا على الرجال بشكل جلي. ولا شيء أدل على ذلك من مجموع التفاسير التي بين أيدينا اليوم. فبالرغم من تعدد التفسير وألوانه ومذاهبه ومناهجه واختلافه باختلاف الفرق الإسلامية التي عُرِفَتْ منذ بدايات القرنين الثاني والثالث الهجريين ظل هذا الميدان مجالا ذكوريا بامتياز. فرواد مدرستَي التفسير الشهيرتين: مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرأى كانوا جميعهم رجالا. فكان من أشهر رجالات الأولى ابن جرير الطبري والسمرقندي والثعلبي والحافظ بن كثير والسيوطي والثعالبي وغيرهم، بينما انفردت الأخيرة بأسماء لامعة من أمثال فخر الدين الرازي واليضاوي والنسفي وأبي حيان والنيسابوري وغيرهم. ولم يتوقف الأمر على جملة التفسير المأثور والتفسير بالرأى الجائز بل تعداه إلى تفاسير المعتزلة والمتصوفة والفلاسفة وغيرهم، فسقطت أسماء لرجالات كالزحشرى والقاضى عبد الجبار وابن سينا وابن عربى وآخرين ممن لاحصر لهم من المفسرين الذين نَحَوْا مناحى عدة في هذا المجال المعرفي الهام. والملفت للانتباه هنا هو الغياب التام لأية تفاسير مكتوبة تعود إلى نساء مسلمات.

وزادت حدة هذا العزوف من طرف المرأة المسلمة عن حقل التفسير في القرون المتعاقبة الأخرى ليس فقط نتيجة لما سبق ذكره من أولويات عائلية جعلت جل اهتمامها ينصب على تكوين الأسرة ورعايتها بل وأيضا لعوامل اجتماعية وثقافية أخرى منعتها من الحصول على التعليم والتأطير اللازم للانخراط في العلوم الدينية بشكل عام، والعناية بالنصوص الشرعية بشكل خاص. وظل التفسير إلى

فترات قريبة ذلك الميدان الذكوري المغلق. وهو أمر شمل العديد من الأقطار الإسلامية، فذاغت في مصر تفاسير لجهاينة وعلماؤه من أمثال الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وسيد قطب والغزالي والشعراوي، وغيرهم كثير، ناهيك عما أُلّف في أقطار أخرى من العالم الإسلامي كالسعودية وإندونيسيا وباكستان والهند والمغرب والسودان وموريتانيا... إلخ.

لكن السؤال الذي دائما ما يطرح نفسه على المتبع لهذا التراث الضخم والموروث العظيم هو: أين هي مشاركة المرأة المسلمة ضمن هذا التاج العلمي الزاخر؟ لقد كان هذا التساؤل الأخير الدافع الأول وراء بحثي استطلاعي وجزدي جاداً لكعب التفسير وتراجم المفسرين ركزت عليه هذه الدراسة في سبيل الوصول إلى مساهمة نسائية مكتوبة في هذا المجال. وتكشف التجربة التفسيرية النسائية الأولى في العالم الإسلامي، وهذا باعتبار ما هو مدون ومنشور، مع عالمة من الهند تسمى: زيب النساء عالمكير. ولقد أتى ذكر هذه الأخيرة في معجم قيم للدكتور عادل نويهض تطرق فيه بشكل مقتضب لإضافتها الهامة حيث يقول: "زيب النساء بنت الشاه محي الدين أورنك زيب عالمكير سادس أبطرة المغل في الهند (١٦٨٥-١٧٠٧م) أديبة شاعرة من آثارها "زيب التفاسير" في تفسير القرآن". وبعد تتبعي لهذا التفسير الذي يغزى لهذه العالمة الجليلة وجدته أنه في حقيقة الأمر لا يعدو كونه ترجمة لتفسير فخر الدين الرازي: "مفاتيح الغيب"، ولكنها تظل محاولة محمودة وهامة تعكس اهتمام المرأة بهذا الجانب من العلوم الشرعية.

وكان من أوائل التفاسير النسائية الجادة أيضا ما أثير عن عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي)، فلها تفسير رائع ذو طابع أدبي يسمى بـ "التفسير البياني للقرآن الكريم". وبالرغم من كون بنت الشاطي قد ألّفت كتباً عدة تُعنى بالقرآن: "القرآن وقضايا الإنسان"، "الإعجاز البياني للقرآن الكريم" إلا أن التفسير البياني للقرآن الكريم يعتبر بحق أول تفسير نسوي للقرآن الكريم. ولعل ما يشوب هذا الإنجاز العظيم لبنت الشاطي هو كونه ليس تفسيراً شاملاً حيث يركز فقط على أربع عشرة سورة من جزء "عَم" متناولا إياها بالشرح والتفصيل والتطبيق الدقيق لمنهج أستاذ المفسرة وزوجها الشيخ المجدد أمين الخولي.

وجاءت التجربة التفسيرية النسائية المتكاملة مع الداعية الإسلامية والمجاهدة زينب الغزالي الجليل حيث صدر لهذه الأخيرة سنة ١٩٩٤ تفسير بعنوان "نظرات في كتاب الله". وهو تفسير جميل جليل تنتهج فيه الداعية النهج الدعوي الإصلاحى الذى يجعل من القرآن دستوراً للأمة وطريقاً إلى

تقدمها وسط ما تعانیه من تهقير وركود. وصدر هذا التفسير في مجلدين فسرت خلالها الداعية القرآن كاملا. وتتابع الإضافات النسائية في مجال التفسير فوافق الأزهر الشريف على صدور تفسير للداعية فوقية إبراهيم الشرييني بعنوان "تيسير التفسير"، وهو أيضا تفسير كامل للقرآن الكريم صدر سنة ٢٠٠٨، وجاء في أربعة مجلدات. وأكثر ما يميز تفسير الأستاذة فوقية الشرييني هي طريقتها التبسيطية الراقية التي تصل إلى المسلم العامى دون أن يؤثر ذلك على رصانته وحصافته من الناحية اللغوية وموسوعيته وراثته من الناحية العلمية.

وفي العام ٢٠١٠ أيضا وافق مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف على طبع وتوزيع تفسير يعود لصاحبته الداعية والوجه الإعلامى المعروف كريمان حمزة. وتفسير السيدة كريمان حمزة، الذى يحمل اسم "اللؤلؤ والمرجان في تفسير القرآن"، يعتبر أيضا إضافة نسائية هامة إلى هذا الحقل المعرفى. وجاء تفسير الداعية في ثلاثة مجلدات فسرت خلالها الداعية القرآن كاملا. ويتميز تفسير "اللؤلؤ والمرجان" بسماة هامة أبرزها تركيزه على تبسيط معانى القرآن وتقديمها بأسلوب سلس ومشوق يتجنب التعقيدات والمحاججات التى قد تدخل القارئ متاهات هو فى غنى عنها. كما ينحو هذا التفسير منحى اجتماعيا تحاول الداعية عن طريقه تقديم رؤية إصلاحية شمولية للنهوض بالمجتمعات الإسلامية من خلال التمسك بروح القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

كما يوجد تفسير آخر عثرتُ عليه حديثا بعنوان "المبصر لنور القرآن" للداعية الفلسطينية السيدة نائلة هاشم صبرى صدر عام ٢٠٠٣. وهو تفسير هام وعميق رجعت فيه المفسرة إلى العديد من كتب التفسير القديمة كـ "جامع البيان" للطبري و"الدر المنثور" للسيوطي و"البحر المحيط" لأبى حيان و"مفاتيح الغيب" للرازي، وأيضا إلى تفاسير حديثة مثل "فتح القدير" للشوكاني و"روح المعانى" للألوسى. وكما هو ملاحظ فلقد اعتمدت المفسرة منهجا يمزج بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى المحمود، فكانت تفسر القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة والسلف. كما يلاحظ أن المفسرة "كانت تبدى اهتماما بقضايا المرأة فى ثنايا الآيات الخاصة بها كالزواج والطلاق والإيلاء والحيض وغير ذلك".

وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة حول الإسهام النسوى الهام فى مجال تفسير القرآن الكريم تجدر بنا الإشارة إلى أن هذه التفاسير النسائية لم تُتناول بعدُ بالبحث الجاد والتمحيص من طرف الدارسين والأكاديميين من أصحاب التخصص نظرا لأسباب عدة بعضها قد يعود إلى جدتها وظهورها الخجول فى الساحة العلمية، وبعضها الآخر ربما يرجع إلى النظرة المجتمعية الدونية للتأج المعرفى النسوى

بالمقارنة مع ما هو متوفر ومطروق لجهابذة رجالات التفسير. ومن هنا نرجع لتؤكد على أهمية هذه الإضافة النسائية القيمة وعلى الدور المنوط بالباحثين في استكشاف هذه التفسيرات وتبويبها بالتحليل والتقيب خصوصا في ظل ما يطرح حديثا من نظريات وفرضيات حول أنثوية التفسير.

ويمناسبة الكلام عن أنثوية التفسير أحب أن أذكر أنى وضعت كتابا منذ عدة سنوات رددت فيه على ما كانت د. أسما بارلس قد كتبه في دراستها المسماة: "Believing Women in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an" من أن التفسيرات القرآنية كلها تعكس وجهة النظر الرجالية وتنحاز لهم وتظلم النساء ظلما شديدا، وأنها قد كتبت كتابها هذا لتصحيح ذلك الخطأ. وقد بدلى أن أبعث بنسخة ضوئية من كتابي المذكور للدكتور بارلس كنوع من التواصل بين أهل العلم ولتعريفها بكتاب يعرف الناس بها ويناقش آراءها، فجاءتنى منها رسالة تسألنى تلخيص ما جاء في كتابي المذكور، فكان هذا دليلا آخر على أنها لا تعرف العربية غير ما كنت قد لاحظته قبلا من أنه لا يوجد بين مراجع كتابها أى شىء مكتوب بلغة الضاد. فلخصت لها في عدة جمل بالإنجليزية الفكرة العامة لكتابي، شافعا التلخيص بأنها، فيما هو واضح، لم تدرس اللغة العربية. فما كان منها إلا أن قالت ما معناه أننى لا أحسن فهم الإنجليزية. وانتهى التراسل بيننا عند هذا الحد بعدما لمسْتُ ضيق صدرها من ملاحظة بسيطة كهذه لا تسمى إليها بحال. أما خلاصة كتابي التى أرسلت بها إليها حسب طلبها منى فهى أنه إذا صح ما تقوله من أن التفسيرات القرآنية جميعا إنما تعكس وجهة النظر الرجالية نظرا إلى أن أصحابها رجال فمن السهل تماما على الرجال أن يردوا عليها بأن تفسيرها هى أيضا لبعض النصوص القرآنية في كتابها المشار إليه لا بد أن يعكس شخصيتها النسائية. فكان هذا سببا آخر لغضبها الذى منعنى من المضى في مراسلتها ما دامت شديدة الحساسية إلى هذا الحد.

ومما قلته في مقدمة كتابي السطور التالية: "وفي الكتاب الذى في أيدينا الآن وجهة نظر في تفسير القرآن جديدة وغريبة، إذ ترى المؤلفة أن التفسيرات القرآنية تعكس منذ نشأتها حتى الآن فكر الرجال، ولا تهتم بالنساء ولا بحقوقهن أو وجهة نظرهن، مما أدى إلى القول بأشياء فيها ظلم للمرأة، ثم نسبتها للإسلام رغم أنها ليست من الإسلام فى شىء. ولهذا نراها قد سميت كتابها: "نسخ التفسير البطرياركي للقرآن"، أى نسخ التفسير الأبوى. والمقصود به التفسير الذكوري أو الرجولى، على اعتبار أن التفسير يعكس، فيما يعكس، النوع الذى يتسمى إليه صاحبه من ذكورة أو أنوثة، وهو ما يهمنى هنا في المقام الأول. وقد أقبلتُ بعقل مفتوح على الكتاب، الذى أرادت فيه صاحبتة أن تعالج التفسير القرآنى من

وجهة نظري نسوية فأتت بآراء لم يسبق للمفسرين ببعضها عهد، متصورة أنها بذلك تحقق الحق وتبطل الباطل، باطل الرجال بطبيعة الحال، فقرأته ثم ناقشت أهم ما فيه، فوجدتني أوافق المؤلف في أمور، وأختلف معها في أمور: اختلافا هادئا أو شديدا حسب الأحوال... وأرجو ألا أكون قد أخطأت كثيرا، وإن كان عذري في كل حال أنني بذلت كل ما عندي من جهد في القراءة والفهم والدرس، وهو ما أرجو أن يكون شافعا لي عند الله وعند القراء الأعزاء. وأنا، بعد هذا وقبل هذا، بَشَرٌ لا أدَّعي لنفسى شيئا سوى أنني أجتهد ولا ألو."

عُمْرَة أَكْسُفُورْدِيَّة

ذَكَرْنِي كَلَامُ بَاوَر فِي الْفَصْلِ السَّابِعِ مِنْ كِتَابِهَا، وَعنوانه "A Pilgrim's Progress"، عَنْ قَلَقِ الْأُمَمَاتِ الْذَاهِبَاتِ لِتَأْدِيَةِ الْعِمْرَةِ عَلَى أَطْفَالِ الرُّصْعِ الَّذِينَ يَصْطَحِبُونَهُمْ مَعَهُنَّ، ذَكَرْنِي بِخَوْفِي عَلَى سُلُوكِ الصَّغِيرَةِ حِينَ كُنَّا نَسْتَعِدُّ لِأَدَاءِ الْحِجَّةِ الثَّانِيَةِ، فَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَمْرُضَ هُنَاكَ، فَضْلًا عَنْ الْحَرِّ. لَكُنَّا تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ بَعْدَ أَنْ طَعَّمْنَاهَا. ثُمَّ مَرَّ الْحِجَّ دُونَ حَدُوثِ أَيْةٍ مُشَاكِلٍ سِوَى أَنْ ابْنِي قَدْ دَخَلْتُ فِي أَمْحَصٍ قَدَّمَهُ قِطْعَةً مِنْ زُجَاجَةٍ مَكْسُورَةٍ اضْطَرَّتْنِي إِلَى تَرْكِ زَوْجَتِي وَابْنَتِي وَأَخَذَهُ فِي سَيَارَتِي إِلَى مَسْتَشْفَى الْمَلِكِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَيْثُ عُيِّنِي بِهِ الْأَطْبَاءُ وَخَاطَبُوا لَهُ الْجَرْحَ، وَكَبَّ اللَّهُ لَهُ السَّلَامَةَ. وَقَدْ ذَكَرْتُ الْكَاتِبَةَ أَنَّ ابْنَةَ الشَّيْخِ قَدْ أَخَذَتْ مَعَهَا وَاقِيَاتٍ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ الْمَكِيَّةِ. وَهَذَا يَذَكِّرُنِي أَيْضًا بِمَا فَعَلْتُهُ فِي الْحِجَّةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ، إِذْ جَهَّزْتُ بَعْضَ الْبَخَاخَاتِ الْبِلَاسْتِيكِيَّةِ الَّتِي كُنْتُ أَمْلؤها بِالْمَاءِ وَأَرُشُ مِنْهَا بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ عَلَى وَجْهِ الصَّغِيرَةِ وَرَأْسِهَا وَعَلَى زَوْجَتِي وَابْنَتِي وَابْنِي وَعَلَى أَنَا أَيْضًا وَمَنْ حَوْلَنَا مِنْ رَاكِبِي السَّيَارَةِ فِي الطَّرِيقِ مِنَ الْمَزْدَلْقَةِ إِلَى مَكَّةَ، وَرَبِّمَا أَيْضًا أَثْنَاءَ الطَّوَافِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، الَّذِي كُنَّا نَقُومُ بِهِ فِي الدُّورِ الْعُلْوِيِّ حَيْثُ الْمَسَافَةُ أَطْوَلُ مِنْهَا فِي الدُّورِ الْأَرْضِيِّ، فَكُنَّا نَجْرِي أحيانًا حَتَّى لَا نَسْتَغْرِقَ وَقْتًا طَوِيلًا فِي تِلْكَ الشَّعِيرَةِ. وَأَعْجَبْنِي، مِنْ ابْنَةِ الشَّيْخِ الَّتِي وَضَعَتْ كِتَابًا إِرْشَادِيًا لِرَفَقَاءِ الْعِمْرَةِ، تُصَحِّحُهَا لَهُمْ أَنْ يَضَعُوا ثِقَتَهُمْ فِي اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَيَتَأَسَّوْا بِهَاجِرِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ عِزَّلٍ حِينَ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَتْرَكَ صَغِيرَهَا فِي حَرِّ الصَّحْرَاءِ الْفَلَّاحِ بِحُشَا عَنْ مَاءٍ تَطْفِي بِهِ عَطَشَهُ جَاعِلَةً كُلَّ ثِقَتِهَا فِي رَبِّهَا وَسَائِرَةِ عَلَى الرَّمَالِ الْمَلْتَهَبَةِ أَثْنَاءَ ذَلِكَ. وَنَحْنُ الْبَشَرُ نَحْتَاجُونَ إِلَى التَّطَلُّعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالثَّقَةِ فِيهِ حَتَّى تَهْدَأَ عُثَاظُنَا وَيَخْفَ قَلْقُنَا وَيَنْزَاحَ عَنَّا الْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالضِّيقُ، وَإِنْ كَانَتِ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ ضَعِيفَةً بِطَبِيعَتِهَا أَمَامَ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ. كَمَا أَعْجَبْنِي فِي الشَّيْخِ تَنْبِيْهِهِ عَلَى الْمَشَارِكِينَ فِي الْعِمْرَةِ، الَّتِي كَانَ يَقُودُهَا وَيُرْشِدُ أَفْرَادَهَا، بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَطُولِ الْبَالِ وَعَدَمِ الْاسْتِسْلَامِ لِلتَّنَفُّعِ وَالْجَوَّارِ بِالشُّكْوَى لِغَيْرِ اللَّهِ. أَقُولُ هَذَا لِأَنِّي أَنَا نَفْسِي أَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ النَّصِيحَةِ.

لَكُنِّي لَا أَتَّفَقُ مَعَ ابْنَةِ الشَّيْخِ تَمَامًا فِيْمَا قَالَتْهُ عَنْ تَصَرُّفَاتِ النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَفِي الدَّكَائِكِ. صَحِيحٌ أَنَّ بَيْنَ الْمُعْتَمِرِينَ وَالْحُجَّاجِ مَنْ لَا يَرَاعُونَ الْبَلَاءَةَ أحيانًا وَلَا النِّظَامَ وَلَا النِّظَافَةَ، لَكِنْ لَيْسَ إِلَى الْخُدِّ الَّذِي صَوَّرْتُهُ. أَمَّا فِي الْمَحَلَّاتِ فَالْبَالِغُونَ يَتَسَمَّوْنَ بِصَبْرٍ طَوِيلٍ، فَهَمُّ عَادَةٍ مِنْ غَيْرِ السَّعُودِيِّينَ، وَهَؤُلَاءِ حَرَصَاءُ عَلَى أَلَّا يَأْتُوا مِنَ الْأَمْرِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي طَرْدِهِمْ مِنَ الْعَمَلِ. وَنَادِرًا مَا خَرَجْتُ مِنْ أَحَدِ الْمَحَلَّاتِ هُنَاكَ وَأَنَا غَاضِبٌ أَوْ سَاخِطٌ. وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ وَجْهُ الشُّبْهِ الْوَحِيدِ

القوى بين السعودية وبريطانيا. كذلك لم يعجبني إلحاح ابنة الشيخ في كيبها الإرشادي على وجوب التجرد التام من كل ما ليس له صلة مباشرة بالعمرة: فلا ينبغي التطلع مثلا إلى زخارف المسجد الحرام أو المسجد النبوي ولا إلى الساعة المكية الكبيرة التي ليس كمثلها ساعة في العالم ارتفاعا، ولا ينبغي فتح التلفاز ولا الالتفات إلى المولات التجارية... إلخ. ذلك أن الإنسان محتاج إلى ما يسر عليه العبادة. والنفس الإنسانية ذات مطالب شتى. وليس على صاحبها من بأس إذا أجمَّها بشيء من التسلية ينشدها في التلفاز، وبخاصة أن التلفاز السعودي هو آخر شيء في الدنيا يمكن أن يلهي المشاهد حقا عن العبادة، فهو جافٌ إلى حد كبير، وليس فيه على أية حال برامج خارجة مما يمكن أن تجده في تلفازات البلاد الأخرى.

وإذا كان الله سبحانه يمنّ على عباده بأنه كتب عليهم الحج "ليشهدوا منافع لهم" من تجارة أو رحلة أو ممارسة وظيفية، "ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام"، فضلا عن تقديمه المنافع على ذكر اسمه تعالى، فكيف يصح أن يصل بنا التخرج إلى الحد الذي نمنع فيه المعتمرين من الاهتمام بالزخارف التي في مسجدتي مكة والمدينة وبرج الساعة المكية ومشاهدة التلفاز؟ الواقع أنني لا أفهم أن يقضى الإنسان عامة ليله ونهاره في العبادة بمعناها المباشر لا يفكر ولا ينظر في شيء آخر. إن هذا الذي تحذر منه ابنة الشيخ هو في أسوأ حالاته من الأمور الحلال، مثله مثل الأكل والشرب. فالحمد لله أنها لم تنصحهم بترك التفكير في الأكل والشرب والنوم والتنفس أيضا. أقول هذا على سبيل المداعبة لا التهكم. وما كتبه ابنة الشيخ هو مغالاة في تصور مفهوم العبادة. وماذا في أن ينظر المعتمر إلى الساعة المكية مثلا ويعجب بها ويتلذذ بمنظرها؟ هل هي امرأة سوف تفتنه وتعديل به عن سواء الصراط؟ هل الزخارف الخطية والتلوينات الجميلة في المسجد الحرام والمسجد النبوي سوف تخرجه عن الملة؟ إن الديني والديني ليتجاوران ويتكاملان في ديننا العظيم، فلا ينبغي إفساد أمور المسلمين بهذه الطريقة من فضلكم. وأتصور أن طراءة العمر وقلة الخبرة وضعف الإيمان بالدين والإتيان من بلد غير إسلامي وراء هذا التشدد الذي لا لزوم له. ولكن كان ينبغي أن ينبها والدها إلى ذلك.

إن مثل تلك الأشياء من شأنها أن تساعد المعتمر على راحة الأعصاب، وإلا فما شعوره لو لم يكن المسجد بهذا الجمال المعباري؟ وقد قيل بحق: "رَوَّحُوا عَنْ الْقُلُوبِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَمِيَتْ". ثم إن التفكير فيما حولنا والعمل على ترقية أذواقنا هو لون من ألوان العبادة في الإسلام:

العبادة بمعناها الواسع. وعلى أية حال ليس في المسجد الحرام ولا مسجد النبی صور ولا تماثيل ولا عزف على الأرغن ولا غناء كما في الكنائس الغربية، التي تحولت الآن إلى مجرد تحف معمارية وصار الناس هناك بوجه عام لا يقصدونها إلا للمتعة الفنية. بل لقد وصل الأمر إلى حد أن صور الشيطان مجسما على واجهة كنيسة كانتربري في بريطانيا عاريا كما ولدته أمه (تري هل ولِدَ الشيطان حقا؟ وهل كانت له أم؟)، وله مثل ما للإنسان. ولما أبدیت لمورين مدرّستا في فيرذر إيديوكيشن كوليدج بأكسفورد، وكانت ترافقنا في الرحلة إلى الكنيسة المذكورة في أواسط سبعينات القرن الماضي، امتعاضی من تصوير الشيطان على هذا النحو الذي لا يتناسب أبدا مع المكان كان ردها على أن هذه هي طبيعة الفن الحديث، الذي لا ينبغي أن يصدنا عنه مثل تلك الاعتبارات. الله أكبر! ثم كانت الطامة الكبرى حين صار القساوسة يمارسون اللواط، ولا يتكر عليهم أحد. بل صار اللواط مقننا كلون من ألوان الزواج. وطبعا هذا أيضا من متطلبات الفن الحديث!

وقد لفت نظري أن ابنة الشيخ قد أوردت في كتيبها الإرشادي الحديث الشريف الذي يقول: "أحبّ البقاع إلى الله المساجد، وأبغضها إلى الله الأسواق" على سبيل تحذير رفقاءها المعتمرين من الانشغال بالأسواق. وهذا لون من الاستشهاد بالحديث في غير محله، وإلا لقد كان النبي يرتاد الأسواق، وهو ما أخذه المشركون عليه في مكة: "وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟". فهل ينبغي أن نصطنع وجهة نظر المشركين؟ ثم ماذا في الأسواق من ضرور لا يمكن مواجهتها وتستلزم البعد عن تلك الأماكن؟ إنها أماكن للبيع والشراء، فهل يجب على المسلم ألا يبيع أو يشتري؟ فكيف يحصل على طعامه وشرابه وملابسه وأثاثه وكتبه إذا كان عليه تجنب الأسواق؟ ومن أين كان النبي والصحابة يحصلون على حاجات معيشتهم؟ من القضاء الخارجي؟ إن الحياة لتقف تماما بدون الأسواق. فهل يرضى أحد بهذا؟ إن الحديث إنما ينبه المسلم إلى عدم الاستغراق في الجدال والمساومة والضيق، وإلى حرمة ما يمارسه بعض التجار من تطفيف الكيل والميزان والغش مثلا، وإن كان هناك من رواد السوق من لا يقلون عن التجار الغشاشين بل يفوقونهم، إذ يطوفون بأرجاء السوق يشحتون أو يسرقون. ومن هنا وجدناه صلى الله عليه وسلم يدعو بالرحمة للشاري والبائع السّمحّين. ولو كانت الأسواق شرا كما فهمت السيدة من الحديث لما دعا لها الرسول، مما يدل على أن العبرة بالنية والسلوك. ولو كانت الأسواق شرا لكان اقتصاد البلاد جميعا على وجه الأرض شرا في شر. ألا يقال: تسعة أعشار الرزق في التجارة؟ فهل يعقل هذا؟

ثم إن الأسواق ليست كلها بيعا وشراء، فهناك من يتهزها ليدعو إلى فكرة أو نحلة، وهناك ألعاب وتَسَالٍ للأطفال. وقد كنت أنا وزوجتي وطفلانا نشعر بسعادة بالغة ونحن ذاهبون إلى السوق معا يوم الأربعاء على حدود أكسفورد من وراء النهر على الأقدام من شمال المدينة لعدة كيلومترات إذا كان الجو غير مطير أو بارد. وكثيرا ما اشتريت كتباً رخيصة من هناك، ومنها نسخة ضخمة مذهبة من الكتاب المقدس مفعمة بالصور والخرائط والتعليقات. وما زالت عندي حتى الآن، وأنا فخور بها، وقد حصلت عليها من بائع في ذلك السوق ظللت أساومه على ثمنها وأنا أضحك أسابيع عدداً حتى أعطينيها ضاحكا في آخر المطاف برخص التراب، فقلت له وأنا مستغرق في الضحك: "منك الله. كان من الأول!". طبعاً لم أقل له هذا بالضبط بل بمعناه العام. وكان النبي عليه السلام يدعو أحيانا إلى دينه هناك. ليس في سوق أكسفورد طبعاً بل في أسواق مكة كما لا أحتاج إلى أن أقول. وكان بعض الحنفاء من قبله يفعلون هذا، وهو ما ذكره عليه السلام في بعض أحاديثه. ثم إن هذا الأمر الذي حذر منه الرسول عليه السلام ليس خاصا بالأسواق وحدها، بل يمكن أن يشرّكها فيه المسجد ذاته لو كانت النية سيئة. ألا تذكرون مسجد الضرار، الذي بناه المنافقون في المدينة، وكيف حرم الله على الرسول الصلاة فيه لأنه لم يبنَ بنية العبادة بل لحُوك المؤامرات ضد الإسلام؟ ألا يضيع على المسلم صلاته وصيامه إن كان يريد بهما التفاق؟ بل إن الهجرة نفسها قد تذهب هدرًا إذا كان الدافع لها شيئا من أمور الدنيا أو امرأة يغنى المهاجر نكاحها كما تَبَّهنا الرسول عليه السلام.

ولا ننس أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام كان تاجرا فترة طويلة من حياته ويغشى الأسواق لا مشتريا فقط بل بائعا أيضا. ومثله كثير جدا من الصحابة، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف، الذي صار في فترة قصيرة من أغنى أهل المدينة لبراعته في التجارة حتى لقد رفض أن يأخذ شيئا من أخيه الثيربي طبقا لمبدأ المواخاة الذي اعتمده النبي بين الأنصار والمهاجرين غيب الهجرة، مفضلا أن يذهب إلى السوق ويتاجر، فبارك الله له في نشاطه وصار من عداد كبار الأغنياء بجده وكده. فماذا نقول في ذلك؟ ثم من أين اشترت ابنة الشيخ ورفقاء رحلتها أغراضهم التي يحتاجونها في رحلتهم العبادية ذاتها من حقائب وملابس وأدوية؟ أليس من الأسواق؟ أم إن الأسواق البريطانية خير، وأسواق السعودية شر؟ بالمناسبة فإن البيع والشراء في بريطانيا من أمتع وأسلس ما يكون، وقلما يفقد البائع أو الشاري أعصابه. وكما قلت فالسعودية لا تختلف كثيرا عن بريطانيا في ذلك. وأخيرا كيف تنتعش الحياة الاقتصادية في السعودية إذا أخذ الحجاج والمعتمرون بكلام السيدة الكريمة؟ هل تريدن يا سيدتي أن

تخربى بيوت الناس هناك ويتحول السعوديون إلى متسولين؟ ثم من أين يحصل الحجاج على الأضاحى؟ أليس من الأسواق؟ وماذا سيقول أقارب المعتمرين والحجاج إذا رأوهم قد عادوا من السعودية: يداً قُدام، ويداً وراء، دون أن يحضروا لهم سبحة أو طاقية على سبيل التذكار؟ لسوف يتقاطع الناس ولا يكلم بعضهم بعضاً في هذه الحالة لأنه ليس كل الناس متقشفين مثلك يا سيدتى. بارك الله فيك! أكتب هذا وأنا أغالب الضحك لأن المسلمين موعودون بمن ينكد عليهم حياتهم ويضيق ما وسعه الله لهم ويحول الحلال "حراماً" أو في أحسن الأحوال: "مكروها". لا أراكم الله "مكروها" في "سوق" لديكم!

أما بالنسبة للحرارة التى قاستها جماعة المعتمرين هناك فأذكر أننى وأسترتى، بعد أن عملنا عمرة ذات مرة في تسعينات القرن البائد من رمضان وركبنا السيارة متجهين إلى الطائف حيث كنت أعمل في كلية التربية هناك، كان الجو لا يطاق حرارة، فعرجت على دكان اشترت منه مياهاً وطلبت من زوجتى وابنتى وابنى أن يفطروا لأن معاناتهم قد وصلت إلى الذروة وخشيت أن يغشى عليهم، وبقيت أنا أقاسى الحر والعطش وحدى وأتصبر. وهو ما ذكرنى بدوره بأيام المراهقة حين كنت في المرحلة الإعدادية، ويكون الجو فائق الحرارة، والعطش يلهب حلقي في عز الظهيرة، والشيطان "ابن اللذينة" يوسوس لى، وأنا وحدى لا يرانى إنسان، أن أشرب ماء بحجة أننى ما زلت صغيراً، والصيام ليس فرضاً على من هو فى سننى. لكنى بطريقة أو أخرى استطعت التماسك رغم المعاناة الشديدة. هل كان هذا إيماناً قوياً من جانبى؟ لا أظن. لقد حدث الأمر هكذا، والسلام. أنا طبعاً كنت وما زلت أخاف الله وأضعه دائماً فى خاطرى، ولكن فى تلك الأيام لم يكن تدينى متوهجاً، ولا حتى الآن "بينى وبينكم". ومرة أخرى كنا فى مكة، وكان اليوم جمعة، ونزلنا فى حديقة قريبة من أحد المساجد، وكانت سخونة الهواء رهيبية تلفح وجوهنا كأنها من فيج جهنم، فقلت لأولادى: هذه، فيما أنصو، ريح السموم، التى قرأنا عنها ولم نخبرها من قبل. ولا حتى من بعد. فتركنا مكة وعدنا أدرجنا إلى الطائف بعد صلاة الجمعة هرباً من هذا الحر اللاهب الذى يكاد يشوى الوجوه. وكنت أقول لزملائى السعوديين ضاحكاً: لقد كنا فى جهنم! فعلق بعضهم بقوله: أستغفر الله. أتقول عن مكة ذلك؟ قلت وما زلت أضحك: لم أقل عن مكة شيئاً، بل الكلام عن الجو. الله يهديك منك له. لا تُوقعوننا فى الغلط!

ولا بأس أن أعرج هنا على ما قالته بنت الشيخ الندوى من أن الصيام فى السعودية أثناء العمرة كان شديد الصعوبة، فعقبت كارالا باور بأن الصيام فى كمبردج أيام اعتكفت مع الشيخ وزملائه فى

المسجد هناك كان لا يقل صعوبة لا بسبب الحر بل لأنه يستغرق ١٨ ساعة، وهو ما ذكرني كذلك بصيامنا في أكسفورد، إذ كنا في الصيف، وكان الامتناع عن الطعام والشراب يمتد ما بين الثانية والنصف بعد منتصف الليل تقريبا إلى نحو التاسعة والنصف من ليل اليوم التالي. ولا أذكر أننا شعرنا هناك بالعطش قط رغم أننا كنا نقضي ساعات طويلة بعد الظهر سائرين بين الحقول ومخترقين القرى حول أكسفورد، وفي يدي كتاب ومذياع فتحت على الموجة القصيرة لألتقط إذاعة القاهرة وصوت العرب وأستمع إلى ما تبثانه من أغاني وأخبار وأنا أطلع الكتاب أو أدفع طفلينا على أية أرجوحة تقابلنا في القرى التي نمر بها.

شيء آخر أراني أختلف فيه مع بنت أخرى من بنات الشيخ، إذ قالت إنها لم تبك أمام قبر الرسول على عكس كثير من الحجاج الآخرين، خوفا منها أن تقع في الشرك، الذي هو في الإسلام ظلم عظيم. وأنا لا أستطيع أن أفهم ولا أقبل هذا المنطق رغم أنني مثلها لم أبك عند قبره صلى الله عليه وسلم حين زرته، وقد زرته ثلاث مرات. فأين الشرك في هذا البكاء؟ هل البكاء عبادة حتى يقال إن الذي يبكي من الفرحة لدن قبره عليه السلام إنما يعبد؟ هذه مغالاة غير مفهومة ولا مقبولة. كما أنني، وإن كنت لا أزور قبور من يسمون بـ"الأولياء"، لا أفسق أو أبدع من يزور القبور لمجرد الزيارة، اللهم إلا إذا كان يعتقد في أن الميت المزور يتوسط له عند الله. فما الموتى إلا بشر انتهى أمرهم على الأرض، ولم يعودوا يستطيعون شيئا لأنفسهم، فما بالتنا بغيرهم؟ أما زيارة قبر النبي، حتى لو كانت هي السبب الوحيد في رحلة الشخص إلى المدينة، فما الذي فيها من خطأ حتى يقيم بعض الناس، ومنهم د. أكرم ندوي، الدنيا جواها؟ إن مثل تلك الزيارة هي تعبير عن الحب له صلى الله عليه وسلم. وبالمناسبة فإني لا أفكر أبدا في القيام بزيارة كهذه باعتبارها الغاية الوحيدة لي من السفر إلى هناك، فالنبي عليه السلام ساكن على الدوام عقل وقلبي وضميري، فلست محتاجا إلى شد الرحال إلى قبره. إنني أحبه حبا جما، ومعجب به غاية الإعجاب لما كان يتمتع به من عبقرية وعظمة وجلال وقدرة هائلة على التخطيط والتنظيم ومخاطبة الناس وكسبهم إلى صفه وبراعته في تغيير معتقداتهم وتصرفاتهم وتحويلهم من حال إلى حال وذوقه الراقى وسلوكه السامي التهذيب، ونجاحه العظيم في تحويل مجرى الحضارة البشرية وتاريخ العالم بأقل التكاليف وأسرع الوتائر، كل ذلك بالحب والثقة والأمل المتوهج دائما، وبالرحمة والمغفرة واللطف الجميل، وبالخزم والنفس الطويل والتخطيط الواعي المحسوب، مع رعاية السماء له طوال الوقت وفي كل المواضع. وهذا وحده يكفيني. لكنني مع هذا لا أدين من ينحو في هذه المسألة

نحوًا يختلف عن نحوى. وقد كان الرسول يزور المقابر ويدعو لأهلها، وقد يقوم من رقاذه ويرتدى ملابسه ويقصد مضاجعهم ويطلب لهم من ربه الرحمة. وحين أكون في القرية قد أعرج على الجبان وأقصد قبر أبى وأمى وأقف عليهما وأدعو لهما في حنان غامر وعطف كبير، فقد تركانا ونحن صغار زُغِب الحواصل. وقد بهرنى ما كتبه أستاذى د. شوقى ضيف في كتابه: "معى" من كلام رائع بديع عن زيارته قبر والديه وقراءته الفاتحة لهما كلما ذهب إلى قريته قريبا من دمياط.

ومن أقواله صلى الله عليه في قضية القبور ما قاله عليه السلام في الحديث التالى: "كُنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فنزل بنا ونحن قريبٌ من ألف راکبٍ فصلَّ بنا ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه، وعيناه تذرفان، فقام إليه عمرُ فقذاه بالأب والأم وقال: ما لك يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إني استأذنتُ في الاستغفارِ لأُمى، فلم يَأذنْ لى، فدمعتُ عيني رحمةً لها من النار. وإني كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عن ثلاث: عن زيارة القبور. فزُوروا، ولتُرْزَكم زيارتها خيرا. وإني كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث. فكلُّوا وأمِسُّوا ما شِئْتُمْ. وإني كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عن الأُشْرى في الأوعية. فاشربوا في أى وعاءٍ شِئْتُمْ، ولا تشربوا مُسْكِرًا"، وإن لم يمنعنى الحديث الشريف من التساؤل عن السبب في عقاب السيدة أمنة، وهى من أهل الفترة. وعلى أية حال فالعبرة، بالنسبة لزيارة القبور، فيما يسكن القلب من عقيدة ومشاعر. فهل يذهب الإنسان إلى القبر وهو يعتقد في ضر صاحب القبر ونفعه له؟ فهذا مرفوض تماما ولا سبيل إلى قبوله، أما إن كان الحب والرغبة في الدعاء واستدرا العظة هو دافع الزيارة فأهلا وسهلا ومرحبا. ترى لماذا نضيق على عباد الله واسعا، والدنيا بطبيعتها مزعجة؟ فهل نزيدها إزعاجا؟ ثم إن أوامر الدين ونواهيه ليست لوائح عسكرية تطبق دون فهم وكأن الإنسان آلة لا تعى ما تفعل ولا تفهم له مغزى أو مرمى ولا تربطه بغيره من اللوائح والقوانين ولا تنظر إليه في ضوء السياق والظروف. إن الإسلام دين عظيم، وهذا التطبيق الآلى له يفسده إفسادا شنيعا. وبمناسبة ما نحن فيه فقد صرت أخذ بمبدأ التيسير في الدين، وبخاصة في العبادات. فالدين يسر لا عسر، وما جعل الله عليكم في الدين من حرج، ويسرُوا ولا تُعسِّرُوا، وما يفعلُ الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وإن المنيب لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. لقد أتى الدين لتيسير الحياة لا لتعقيدها، ولوضع الإصر عن أكافنا وكواهلنا لا لتحميلنا المزيد من الإصر. والرسول محمد إنما أتى رحمة لا نقمة للعالمين.

وفي هذا الفصل أيضا تشير الكاتبة إلى ما صنعه الشيخ أكرم ندوى حين سافر لأداء الحج قبل ذلك وحن وقت رمى الجمرات، وكان معه أبواه، فقرر أن يؤجل رمى الجمار إلى ما بعد الظهر تحاشيا

المسجد هناك كان لا يقل صعوبة لا بسبب الحر بل لأنه يستغرق ١٨ ساعة، وهو ما ذكرني كذلك بصيامنا في أكسفورد، إذ كنا في الصيف، وكان الامتناع عن الطعام والشراب يمتد ما بين الثانية والنصف بعد منتصف الليل تقريباً إلى نحو التاسعة والنصف من ليل اليوم التالي. ولا أذكر أننا شعرنا هناك بالعطش قط رغم أننا كنا نقضي ساعات طويلة بعد الظهر سائرين بين الحقول ومخترقين القرى حول أكسفورد، وفي يدي كتاب ومذياع فتحت على الموجة القصيرة لألتقط إذاعة القاهرة وصوت العرب وأستمع إلى ما تبثانه من أغاني وأخبار وأنا أطلع الكتاب أو أدفع طفلينا على أية أرجوحة تقابلنا في القرى التي نمر بها.

شيء آخر أرأني أختلف فيه مع بنت أخرى من بنات الشيخ، إذ قالت إنها لم تبك أمام قبر الرسول على عكس كثير من الحجاج الآخرين، خوفاً منها أن تقع في الشرك، الذي هو في الإسلام ظلم عظيم. وأنا لا أستطيع أن أفهم ولا أقبل هذا المنطق رغم أنني مثلها لم أبك عند قبره صلى الله عليه وسلم حين زرتة، وقد زرتة ثلاث مرات. فأين الشرك في هذا البكاء؟ هل البكاء عبادة حتى يقال إن الذي يبكي من الفرحه لدن قبره عليه السلام إنما يعبد؟ هذه مغالاة غير مفهومة ولا مقبولة. كما أنني، وإن كنت لا أزور قبور من يسمون بـ"الأولياء"، لا أفسق أو أبدع من يزور القبور لمجرد الزيارة، اللهم إلا إذا كان يعتقد في أن الميت المزور يتوسط له عند الله. فما الموتى إلا بشر انتهى أمرهم على الأرض، ولم يعودوا يستطيعون شيئاً لأنفسهم، فما بالناس بغيرهم؟ أما زيارة قبر النبي، حتى لو كانت هي السبب الوحيد في رحلة الشخص إلى المدينة، فما الذي فيها من خطأ حتى يقيم بعض الناس، ومنهم د. أكرم ندوي، الدنيا جراًها؟ إن مثل تلك الزيارة هي تعبير عن الحب له صلى الله عليه وسلم. وبالمناسبة فإني لا أفكر أبداً في القيام بزيارة كهذه باعتبارها الغاية الوحيدة لى من السفر إلى هناك، فالنبي عليه السلام ساكن على الدوام عقلي وقلبي وضميري، فلست محتاجاً إلى شد الرحال إلى قبره. إنني أحبه جاًجاً، ومعجب به غاية الإعجاب لما كان يتمتع به من عبقرية وعظمة وجلال وقدرة هائلة على التخطيط والتنظيم ومخاطبة الناس وكسبهم إلى صفه وبراعته في تغيير معتقداتهم وتصرفاتهم وتحويلهم من حال إلى حال وذوقه الراقى وسلوكه السامى التهذيب، ونجاحه العظيم في تحويل مجرى الحضارة البشرية وتاريخ العالم بأقل التكليف وأسرع الوتائر، كل ذلك بالحب والثقة والأمل المتوهج دائماً، وبالرحمة والمغفرة واللفظ الجميل، وبالحزم والنفس الطويل والتخطيط الواعى المحسوب، مع رعاية السماء له طوال الوقت وفي كل الموضع. وهذا وحده يكفيني. لكنى مع هذا لا أدين من ينحوف في هذه المسألة

نحوًا يختلف عن نحوي. وقد كان الرسول يزور المقابر ويدعو لأهلها، وقد يقوم من رقاذه ويرتدى ملابسه ويقصد مضاجعهم ويطلب لهم من ربه الرحمة. وحين أكون في القرية قد أعرج على الجبان وأقصد قبر أبي وأمي وأقف عليهما وأدعو لهما في حنان غامر وعطف كبير، فقد تركنا ونحن صغار زُغب الحواصل. وقد بهرنى ما كتبه أستاذي د. شوقي ضيف في كتابه: "معى" من كلام رافع بديع عن زيارته قبر والديه وقراءته الفاتحة لهما كلما ذهب إلى قريته قريبا من دمياط.

ومن أقواله صلى الله عليه في قضية القبور ما قاله عليه السلام في الحديث التالي: "كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلّى بنا ركعتين ثمّ أقبل علينا بوجهه، وعيناه تذرفان، فقام إليه عمرُ ففدّاه بالأب والأم وقال: ما لك يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إني استأذنتُ في الاستغفار لأُمّي، فلم يأذن لي، فدمعت عيني رحمة لها من النار. وإني كنتُ نبيّكم عن ثلاث: عن زيارة القبور. فزوروها، ولتزدكم زيارتها خيرا. وإني كنتُ نبيّكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث. فكلوها وأمسكوا ما يشتم. وإني كنتُ نبيّكم عن الأشرية في الأوعية. فاشربوا في أي وعاء يشتم، ولا تشربوا مُسْكِرًا"، وإن لم يمتنعني الحديث الشريف من التساؤل عن السبب في عقاب السيدة آمنة، وهي من أهل الفترة. وعلى أية حال فالعبرة، بالنسبة لزيارة القبور، فيما يسكن القلب من عقيدة ومشاعر. فهل يذهب الإنسان إلى القبر وهو يعتقد في ضرر صاحب القبر ونفعه له؟ فهذا مرفوض تماما ولا سبيل إلى قبوله، أما إن كان الحب والرغبة في الدعاء واستدرا العظة هو دافع الزيارة فأهلا وسهلا ومرحبا. ترى لماذا نضيق على عباد الله واسعا، والدنيا بطبيعتها مزعجة؟ فهل نزيدها إزعاجا؟ ثم إن أوامر الدين ونواهيه ليست لوائح عسكرية تطبق دون فهم وكأن الإنسان آلة لا تعي ما تفعل ولا تفهم له مغزى أو مرمى ولا تربطه بغيره من اللوائح والقوانين ولا تنظر إليه في ضوء السياق والظروف. إن الإسلام دين عظيم، وهذا التطبيق الآلي له يفسده إفسادا شنيعا. وبمناسبة ما نحن فيه فقد صرت آخذ بمبدأ التيسير في الدين، وبخاصة في العبادات. فالدين يسر لا عسر، وما جعل الله عليكم في الدين من حرج، ويسرّوا ولا تعسّروا، وما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. لقد أتى الدين لتيسير الحياة لا لتعقيدها، ولوضع الإصر عن أكافنا وكواهلنا لا لتحميلنا المزيد من الإصر. والرسول محمد إنما أتى رحمة لا نقمة للعالمين.

وفي هذا الفصل أيضا تشير الكاتبة إلى ما صنعه الشيخ أكرم ندوي حين سافر لأداء الحج قبل ذلك وحين رمى الجمرات، وكان معه أبواه، فقرر أن يؤجل رمي الجمار إلى ما بعد الظهر تحاشيا

للزحام الشديد الذى يمكن أن ينتج عنه وفيات. وهو ما حدث ذلك العام حيث كانت حصيلة الموت بين رماة الجمار تسعة عشر حاجا. وقد قابلتنى هذه المشكلة فى أول حج لنا، إذ أصرت زوجتى أن تخوض التجربة بنفسها ردا على اقتراحى أن أقوم أنا برمى إبليس اللعين نيابة عنها وعن البنت والولد خوفا عليهم من التدافع الخطر. ثم جاءتنى بعد الانتهاء من رمى اليوم الأول وأخبرتني أنها سقطت جراء التدافع، ولولا أن أحد رفقاتنا فى الرحلة مديده فى اللحظة المناسبة وانتشلها من سقطتها لكانت قد ضاعت تحت الأقدام. ثم أعلنت أنها ستزول على اقتراحى فى اليومين التاليين. الحمد لله. ولكن ألم يكن الأفضل الانصياع إلى الاقتراح منذ البداية بدلا من تعريض أنفسنا للهلاك؟ ألم يقل سبحانه وتعالى: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"؟ وهى حتى الآن تتهمنى بالتسهيل الشديد لأمر الدين حين أخبرها مثلا وهى مريضة أنها يمكنها أن تصل فى أى اتجاه حتى لا تفسد العملية التى أجرتها فى العمود الفقرى بكثرة الالتفات والتحريك يمينا وشمالا وهى راقدة أو جالسة، قائلا لها: "ولله المشرق والمغرب. فأينما تَوَلَّوْا فَمُ وَجْهُ اللَّهِ". إن مراعاة القبلة واجب مطلوب ليس هناك معذرى عنه، لكنه لا ينبغى أن يتم على حساب سلامة الإنسان. ثم أذكرها بحادثة رمى الجمار ضاحكا، فنسكت.

وفى الحج الثانى كنا أكثر ميلا إلى التيسير، فأحضرنا أنا وزميل مصرى اتفقنا على أن نحج أسرتانا معا كتاب "فقه السنة" للسيد سابق وراجعنا اختلاف أحكام الفقهاء فيما يتعلق بشعائر الحج لناخذ بالأيسر تجنباً لتحميل أنفسنا وزوجتينا وأولادنا مزيدا من الإرهاق فى الحج. ومن بين ما أخذنا به من تيسير عدم وجوب المبيت بمنى. وهذا نص ما وجدناه فى الكتاب المذكور متعلقا بحكم هذه الشعيرة، وقد جاء تحت عنوان "المبيت بمنى": "البيات بمنى واجب فى الليالى الثلاث أو ليلتى الحادى عشر والثانى عشر عند الأئمة الثلاثة. ويرى الاحناف أن البيات سنة. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إذا رميت الجمار فبِتْ حيث شئت. رواه ابن أبى شيبة. وعن مجاهد: لا بأس بأن يكون أول الليل بمكة، وآخره بمنى، أو أول الليل بمنى، وآخره بمكة. وقال ابن حزم: ومن لم يبيت ليلالى منى بمنى فقد أساء، ولا شئ عليه. واتفقوا على أنه يسقط عن ذوى الاعذار كالسقاء ورعاة الابل، فلا يلزمهم بتركه شئ. وقد استأذن العباس النبى صلى الله عليه وسلم أن يبيت بمكة ليلالى منى من أجل سقايته، فأذن له. رواه البخارى وغيره. وعن عاصم بن عدى أنه صلى الله عليه وسلم رَخَّصَ للرَّعَاء أن يتركوا المبيت بمنى. رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذى."

ولم نلتزم هذه المرة بما يقوله فقهاء السعودية من أن رمى الجمار يجب أن يتم قبل الزوال، وذلك هرباً من الزحام والتدافع وما يمكن أن ينتج عنه من سقوط البعض تحت الأقدام فترّص ضلوعه أو يهلك غاماً. فكنا نذهب قبيل الغروب ل نرمي الحصيات في دقائق معدودات ثم نعود دون أية معاناة أو زحام أو ببطء. بل إنني ذهبت مرة لرميها ليلاً. وكنت أنوب عن أسرّتي في رجم إبليس اللعين. وكنا نردد ما قاله الرسول عليه السلام لكل من سأله عن كيفية تأدية هذه الشعيرة أو تلك من شعائر الحج ووقت أدائها، إذ كان يرّد عليه قائلاً: افعل، ولا حرج. ثم أتذكر قوله تعالى: "ما جعل عليكم في الدين من حرج"، "يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر". وأستغرب أشد الاستغراب كيف عقّد بعض الفقهاء أمور الدين وضيقوا على عباد الله وعملوا على سد كل ثغرة يمكن أن تهب منها نسمة ملطّفة. وتراهم حين يظهرون في التلفاز مرددين كلاماً محفوظاً بارداً دون أى انفعال، فيخيل إليك أنهم آلات مسيرة لا إرادة لها فيما تقول ولا تميز عندها لما تسوقه من أحكام، ظنا منهم أن الدين هو مجرد نصوص عليهم حفظها ليدخلوا بها الامتحان ويبرهنوا للممتحنين أنهم يحفظونها جيداً.

وعن رمى الجمار ووقته يقول السيد سابق: "أصل مشروعيته: روى البيهقي عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لما أتى إبراهيم عليه السلام المناسك عرض له الشيطان عند جرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساءخ في الأرض. ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصيات حتى ساءخ في الأرض. ثم عرض له عند الجمرة الثالثة، فرماه بسبع حصيات حتى ساءخ في الأرض". قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشيطان ترجون، وملة أياكم تتبعون. قاله المنذرى. ورواه ابن خزيمة في "صحيحه" والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

حكّمته: قال أبو حامد الغزالي رحمه الله في "الإحياء": وأما رمى الجمار فليقصد الرامي به الانقياد للامر، وإظهار اللرق والعبودية، وانتهاضاً لمجرد الامثال من غير حظ للنفس والعقل في ذلك. ثم ليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس، لعنه الله تعالى، في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعضية. فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له، وقطعاً لأمّله. والجمار التي تُرمى ثلاث كلها بمنى، وهى: ١- جمرة العقبة على يسار الدخول إلى منى. ٢- الوسطى بعدها، وبينهما ٧٧ و ١١٦ متراً. ٣- والصغرى، وهى التى تلى مسجد الحيف. وبين الصغرى والوسطى ٤ و ١٥٦ متراً. فإن خطر لك أن "الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه، وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان"، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، وأنه هو الذى ألقاه في قلبك لينتّر عزمك في الرمي،

ويجبل إليك أنه لا فائدة فيه وأنه يضاهي اللعب، فلم تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير والرمي، فبذلك تُرغم أنف الشيطان. واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى في العقبة، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقسم به ظهره، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الامر من غير حظ للنفس فيه.

حكمه: ذهب جمهور العلماء إلى أن رمي الجمار واجب وليس بركن، وأن تركه يجزئ بدم لما رواه أحمد ومسلم والنسائي عن جابر رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة على راحلته يوم النحر ويقول: "لتأخذوا عني مناسككم، فإنني لا أدري لعل لا أحج بعد حجتي هذه". وعن عبد الرحمن التيمي قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نرمي الجمار بمثل حصى الحذف في حجة الوداع. رواه الطبراني في الكبير بسند، ورجاله رجال الصحيح.

قدر كم تكون الحصة؟ وما جنسها؟ في الحديث المتقدم أن الحصى الذي يرمى به مثل حصى الحذف. ولهذا ذهب أهل العلم إلى استحباب ذلك. فإن تجاوزوه ورمى بحجر كبير فقد قال الجمهور: يجزئه ويكرهه. وقال أحمد: لا يجزئه حتى يأتى بالحصى على ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، ولنتيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك. فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص الأزدي عن أمه قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في بطن الوادي، وهو يقول: "يا أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضا. إذا رميتكم الجمرة فارموا بمثل حصى الحذف". رواه أبو داود. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هات، ألقط لي". فلقطت له حصيات هي حصى الحذف. فلما وضعتهم في يده قال: "بأشال هؤلاء. وإياكم والغلو في الدين. فإنما أهلك الذين من قبلكم الغلو في الدين". رواه أحمد والنسائي، وسنده حسن. وحمل الجمهور هذه الأحاديث على الأولوية والندب. واتفقوا على أنه لا يجوز الرمي إلا بالحجر، وأنه لا يجوز بالحديد أو الرصاص ونحوهما. وخالف في ذلك الأحناف، فجوزوا الرمي بكل ما كان من جنس الارض حجرا أو طينا أو أجرا أو ترابا أو خزفا، لأن الأحاديث الواردة في الرمي مطلقة. وفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته محمول على الأفضلية لا على التخصيص. ورجح الأول بأن النبي صلى الله عليه وسلم رمى الحصى، وأمر بالرمي بمثل حصى الحذف، فلا يتناول غير الحصى، ويتناول جميع أنواعه.

من أين يؤخذ الحصى؟ كان ابن عمر رضي الله عنهما يأخذ الحصى من المزدلفة، وفعله سعيد بن جبير وقال: "كانوا يتزودون الحصى منها"، واستحبه الشافعي. وقال أحمد: خذ الحصى من حيث شئت.

وهو قول عطاء وابن المنذر لحديث ابن عباس المتقدم وفيه: "أَلْقَطُ لِي"، ولم يعين مكان الالتقاط. ويجوز الرمي بحصى أخذ من المرمى مع الكراهة عند الحنفية والشافعية وأحمد. وذهب ابن حزم إلى الجواز بدون كراهة فقال: ورمى الجمار بحصى قد رُمِيَ به قبل ذلك جاتز، وكذلك رميها راكبا. أما رميها بحصى قد رُمِيَ به فلائنه لم يَنُتَ عن ذلك قرآن ولا سنة. ثم قال: فإن قيل: "قد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حصي الجمار: ما تُقْبَلُ منه رُفِعَ، وما لم يُقْبَلْ منه تُرِكَ، ولولا ذلك لكان هضابا تسد الطريق" قلنا: نعم، فكان ماذا؟ وإن لم يقبل رمى هذه الحصاة من عمرو فسيقبل من زيد. وقد يتصدق المرء بصدقة فلا يقبلها الله منه، ثم يملك تلك العين آخر فيتصدق بها فقبل منه. وأما رميها راكبا فلحديث قدامة بن عبد الله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى جمرة العقبة يوم النحر على ناقة له صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا "إليك، إليك".

عدد الحصى: عدد الحصى الذى يرمى به سبعون حصاة، أو تسع وأربعون. سبع يرمى بها يوم النحر عند جمرة العقبة، وإحدى وعشرون فى اليوم الحادى عشر موزعة على الجمرات الثلاث، تُرمى كل جمرة منها بسبع. وإحدى وعشرون يرمى بها كذلك فى اليوم الثانى عشر والثالث عشر. فيكون عدد الحصى سبعين حصاة. فإن اقتصر على الرمي فى الأيام الثلاثة، ولم يرم فى اليوم الثالث عشر جاز. ويكون الحصى الذى يرميه الحاج تسعا وأربعين. ومذهب أحمد: إن رمى الحاج بخمس حصيات أجزأه. وقال عطاء: إن رمى بخمس أجزأه. وقال مجاهد إن رمى بست فلا شئ عليه. وعن سعيد بن مالك قال: رجعنا فى الحجة مع النبى صلى الله عليه وسلم، وبعضنا يقول: رميت ست حصيات، وبعضنا يقول: رميت سبع حصيات، فلم يعب بعضنا على بعض.

أيام الرمي: أيام الرمي ثلاثة أو أربعة: يوم النحر، ويومان أو ثلاثة من أيام التشريق. قال الله تعالى: "واذكروا الله فى أيام معدودات: فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى".

الرمي يوم النحر: الوقت المختار للرمي يوم النحر وقت الضحى بعد طلوع الشمس، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنراهما ضحى ذلك اليوم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدّم النبى صلى الله عليه وسلم صَعَقَةَ أهله، وقال "لا ترموا جمرة العقبة حتى تطلع الشمس". رواه الترمذى وصححه. فإن أخره إلى آخر النهار جاز. قال ابن عبد البر: أجمع أهل العلم أن من رماها يوم النحر قبل المغيب فقد رماها فى وقت لها، وإن لم يكن ذلك مستحبا لها. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان النبى

صلى الله عليه وسلم يسأل يوم النحر بمنى فقال رجل: رميتُ بعد ما أمسيت. فقال: "لا حرج". رواه البخارى.

هل يجوز تأخير الرمي إلى الليل؟ إذا كان فيه عذر بمنع الرمي نهارا جاز تأخير الرمي إلى الليل لما رواه مالك عن نافع: أن ابنة لصفية امرأة ابن عمر نفست بالمزدلفة، فتخلفت هى وصفية حتى أتتا منى بعد أن غربت الشمس من يوم النحر، فأمرهما ابن عمر أن ترميا الجمرة حين قدمتا، ولم ير عليهما شيئا. أما إذا لم يكن فيه عذر فإنه يكره التأخير، ويرمى بالليل، ولا دم عليه عند الأحناف والشافعية ورواية عن مالك لحديث ابن عباس المتقدم. وعند أحمد: إن أخر الرمي حتى انتهى يوما النحر فلا يرمى ليلا، وإنما يرميها في الغد بعد زوال الشمس.

الترخيص للضعفة وذوى الاعذار بالرمي بعد منتصف ليلة النحر: لا يجوز لأحد أن يرمى قبل نصف الليل الأخير بالإجماع. ويرخص للنساء والصبيان والضعفة وذوى الاعذار ورعاة الابل أن يرموا جمرة العقبة من نصف ليلة النحر. فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل أم سلمة ليلة النحر، فرمت قبل الفجر ثم أفاضت. رواه أبو داود والبيهقى، وقال: إسناده صحيح لا غبار عليه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن النبى صلى الله عليه وسلم رخص لربة الابل أن يرموا بالليل. رواه البزار، وفيه مسلم بن خالد الزنجى، وهو ضعيف. وعن عروة قال: دار النبى صلى الله عليه وسلم إلى أم سلمة يوم النحر، فأمرها أن تعجل الإفاضة من جمع حتى تأتى مكة، فتصل بها الصبح، وكان يومها، فأحب أن ترافقه. رواه الشافعى والبيهقى. وعن عطاء قال: أخبرنى مخبر عن أساء أنها رمت الجمرة. قلت: إنا رمينا الجمرة بليل. قالت: إنا كنا نصنع هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. رواه أبو داود. قال الطبرى: استدلل الشافعى بحديث أم سلمة وحديث أساء على ما ذهب إليه من جواز الإفاضة بعد نصف الليل. وذكر ابن حزم أن الإذن فى الرمي بالليل مخصوص بالنساء دون الرجال: ضعفاؤهم وأقوياؤهم فى عدم الإذن سواء. والذي دل عليه الحديث أن من كان ذا عذر جاز أن يتقدم ليلا ويرمى ليلا. وقال ابن المنذر: السنة ألا يرمى إلا بعد طلوع الشمس كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز الرمي قبل طلوع الفجر لان فاعله مخالف للسنة. ومن رماها حيثئذ فلا إعادة عليه إذ لا أعلم أحدا قال: لا يجزئه. رمى الجمرة من فوقها: عن الأسود قال: رأيت عمر رضى الله عنه رمى جمرة العقبة من فوقها. وسئل عطاء عن الرمي من فوقها، فقال: لا بأس. رواهما سعيد ابن منصور.

الرمى في الأيام الثلاثة: الوقت المختار للرمى في الأيام الثلاثة يبتدئ من الزوال إلى الغروب. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم رمى الجمار عند زوال الشمس أو بعد زوال الشمس. رواه أحمد وابن ماجه والترمذي، وحسنه. وروى البيهقي عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول: لا نرمى في الأيام الثلاثة حتى تزول الشمس. فإن آخر الرمي إلى الليل كره له ذلك، ورمى في الليل إلى طلوع شمس الغد. وهذا متفق عليه بين أئمة المذاهب سوى أبي حنيفة، فإنه أجاز الرمي في اليوم الثالث قبل الزوال لحديث ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إذا انتفخ النهار من يوم النَّفَر الآخر حَلَّ الرمي والصَّدر."

وما معنا في تيسير العبادات خطر على بالي الآن نقاش جرى بيني وبين زميل سورى كان معنا بتربية الطائف آنذاك، وما زالت تربط بيننا صداقة قوية حتى إنه حين يزور مصر لا بد أن نتقابل. وكنا واقفين أمام الكلية بعد صلاة المغرب، ويبدو أننا كنا في الفصل الصيفي، ولا أدري الآن لماذا عرج بنا الحديث إلى صلاة المسافر والمقيم معا. فكان من رأيي أنه يصح أن يؤم أى منهما الآخر في الصلاة. أما هو فخالقنى قائلا: بل لا بد أن يكون المسافر هو الإمام، وعند تسليمه بعد الركعة الثانية قَصْرًا يكمل المقيم صلاته أربع ركعات. وكان دليله قول الرسول: إنما جُعِلَ الإمام ليؤتمَّ به. فقلت له: ولكن هذا الحديث يخدمني أنا أيضا. فقال: كيف؟ قلت له: لأنه طبقا لهذا الحديث على المأموم الذى يصلى خلف المسافر أن يسلم هو أيضا مع تسليم الإمام ما دام الإمام إنما جُعِلَ ليؤتمَّ به. لكنه لم يقتنع، وأنا أيضا تمسكت برأىي، ليأتيني في اليوم التالى قائلا إن هناك فعلا فقهاء يرون صحة إمامة المقيم في هذه الحالة. فقلت له: "الحمد لله". وقد قلت ما قلت لأن المسافر والمقيم كليهما يتجهان لربهما، فأيهما كان الإمام فهو جائز، مثلما درست وأنا ولد صغير أنه يجوز مثلا صلاة الظهر خلف إمام يصلى العصر...

وقبل هذا بوقت طويل حين كنت بالمرحلة الجامعية فأسهر إلى وقت متأخر، وأصحو لصلاة الصبح حاضرا لأفاجأ أن الشروق قد أزف، ولم يعد متبقيا عليه سوى دقائق قليلة لا تسمح بالذهاب إلى حمام المدينة الجامعية والتوضأ والصلاة قبل خروج الوقت، فكنت أكفى بالتيمم وأصلى حامدا لله أن وفقنى لأداء الصبح حاضرا فلا يلذعنى ضميرى سائر الأسبوع وربما الشهر لضياغ الصلاة منى. وعندما عرف بعض الأصدقاء بذلك أبدؤا استغرابهم بل إنكارهم. وحجتهم أن الماء متوافر، فلماذا التيمم، وهو إنما شرع لعدم وجود الماء؟ فأجيبهم: بل شرع تفاديا لضياغ وقت الصلاة حاضرا. فيصرون على رأيهم، فأقول لهم: لو كان الأمر كما تقولون لكان ينبغى أن يؤجل عادم الماء الصلاة لحين

توافره. فيقولون في دوران داخل حلقة مفرغة: لكنه بهذا ستفوته الصلاة أداء. فأقول لهم: وهذا ما أقوله لكم من الصبح، لكنكم ترفضون. وإذا كان الشيء بالشئ يذكر فقد كان ضميري يلذعني عندما تفوتني الصبح أداء في قطار رحلة السد العالي في آخر سنة لنا بالمرحلة الثانوية، إذ كنت أستيقظ من نومي فأجد الماء بالقطار قد نَفِدَ، فأنظر إلى قرص الشمس وهو يرتفع من الأفق الشرقي وأنا لم أَصَلْ الصبح، إذ كنت أقيس القطار على المنزل، وأرى أنه لا تيمم بل وضوء. ولو كنت قد اتسع أفقى آنذاك لتيممت لسببين: عدم وجود الماء حتى لو كنت مقيما وموجودا في منزلي. ثم السفر لأن السفر في حد ذاته مبيح للتيمم مطلقا عند بعض الفقهاء المحدثين، وهو ما أراه التفسير الصحيح لآية سورة "النساء" الخاصة بذلك الموضوع، إذ أفهمها على النحو التالي تبعا لطريقة التقييم التي أتبعها في كتابة الآية: "وإن كنتم ١ - مرضى أو ٢ - على سفر أو ٣ - جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا". ذلك أن عدم الماء يميز التيمم حتى في الحَصَر، فمن باب الأولى في السفر، ولا معنى من ثم للنص مرة أخرى على عدم وجود الماء في السفر. كذلك أصيب جلد يدي بالتشقق والخشونة في تلك الرحلة جراء تعرّضى للهواء داخل القطار وفي أماكن المبيت التي كنا ننام فيها في سوهاج وأسوان. وعندما وصلت طنطا عائدا من تلك الرحلة كان جلدي يؤلمني جدا ألما جسديا ونفسيا، فلم أشأ أن أتوضأ في الهواء الطلق حتى لا يزداد النطين يَلَنَةً، وأجلت المغرب لحين الوصول إلى البيت حيث المكان مغلق وأستطيع أن أجفف يدي في الحال. ولو كنت متسع الأفق لتيممت، فهذا الذي كنت فيه هو المرض بعينه. ولكن على من ترتل مزاميرك يا داود؟ لقد كنت صيبا غِرًّا آنذاك!

كذلك كنت، قبل تلك السنة، كثيرا ما أجمع بين أكثر من صلاة، مع الشعور الخفيف في نفس الوقت بالذنب طبقا لما قرأناه في كتب الفقه عن وجوب تأدية كل صلاة في ميعادها حسب ترتيب أوقات الوجوب والفضيلة والكراهة... أما في إجازة آخر العام للسنة الثانية الثانوية فقد تحولت أموري تحولا كبيرا بحيث لم أعد أُقَدِّم قَطُّ على تأخير الصلاة إلى ميعاد الصلاة التالية، وبخاصة صلاة الصبح، التي كنت حريصا على الاستيقاظ من أحلى نومة لتأديتها، اللهم إلا إذا راحت على نومة وقمت بعد شروق الشمس رغم ما اتخذته من احتياطات للقيام قبله. وظللت هكذا أنظر إلى الأمر إلى أن وجدت عالما فاضلا كبيرا من علماء الدين يؤجل الظهر ذات مرة إلى ما بعد عودته إلى بيته ودخول وقت العصر لانشغاله في إلقاء حديث له بالإذاعة رافقته فيه في بداية سبعينات القرن الماضي، مما أثار استغرابي بل

وإنكارى أيضا. ثم قرأت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتردد بالصلاة، وهو ما فهمت وقتذاك خطأ أن المقصود به تأدية صلاة الظهر في آخر وقتها وتأدية صلاة العصر في أولها. ثم ذهبت إلى السعودية للعمل بترية الطائف أول تسعينات القرن المنصرم، ودارت ذات مرة مناقشة بيننا في القسم ذكر فيه بعضنا أنه لا بأس إذا ما جمع أحدهم في الحضر إذا كان هناك ما يشغله. وأضاف آخر أن هذا ممكن حتى لو لم يكن هناك ما يشغله بشرط ألا يتخذ ذلك عادة له، ليضيف ثالث أن ذلك جائز حتى لو صار عادة. ورغم أنني حتى الآن لم أفعل ذلك قصدا سوى مرتين أو ثلاث فإني لم أعد أشعر بالفرع إذا ما ألفتيت غيرى يفعله، بل أراه رخصة من الله لعباده حتى لا يعتتهم، إذ قد خلقهم ضعفاء ووَضَعَهُمْ في كَبَدٍ، فهو أعلم بحقيقة أمرهم، ويعاملهم برحمته وفضله. ويدخل في هذا أنني، لو حدث على ندرة أن تأخرت الآن في النوم إلى ما بعد الشروق لحبى للسهر والقراءة والكتابة ليلا ونومى متأخرا جدا من ثم، لم أعد أشعر بالإنثم العنيف الذى كان يسم يومى بل أسبوعى بل شهرى كله وأنا شاب صغير، بل أصلى الصبح وأستغفر الله، ويتهى الأمر، وبخاصة أنني لا أتعمد ذلك أبدا، بل أستعين دائما بالمنبه أضعه بجوار السرير. وهو نادرا ما يخذلنى، بل هو لا يخذلنى البتة. إنها يأتى الخذلان من جانب ضعفى ولزهاقى كما شرحت. ويدخل في هذا أيضا أنني أقصر الصلاة وأجمع بين الرباعيتين في أى سفر دون النظر إلى مسافته على عكس ما تعلمناه في الفقه الشافعى من أنه لا بد ألا يقل السفر في هذه الحالة عن ثمانين كيلومترا تقريبا.

وهذا ما قرأته في "تفسير المنار" لمحمد رشيد رضا بخصوص هذه المسألة: "الأستاذ الإمام: المعنى أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثا أصغر أو مُلَامِسِ النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط. هذا ما يفهمه القارئ من الآية نفسها إذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القرآن بجعلها بالتكلف حجة له منطبعة عليه. وقد طالعت في تفسيرها خمسة وعشرين تفسيرًا فلم أجِد فيها غناء ولا رأيت قولاً فيها يسلم من التكلف، ثم رجعت إلى المصحف وحده فوجدت المعنى واضحا جليا. فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه وأظهره، وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية: مفرداتها وأساليبها إلى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظى أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة... إلى آخر ما أطال به في الإنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباعا ظاهرا سائما من الركاة وضعف التأليف والتكرار التى يتنزه عنها أعلى الكلام وأبلغه.

وإذا كان رحمه الله قد راجع خمسة وعشرين تفسيرًا رجاء أن يجد فيها قولًا لا تكلف فيه فأنالم أراجع عند كتابة تفسيرها إلا "روح المعاني"، وهو آخر التفاسير المتداولة تأليفًا، وصاحبه واسع الاطلاع، فإذا به يقول: "الآية من معضلات القرآن". والله إن الآية ليست معضلة ولا مشكلة، وليس في القرآن معضلات إلا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات، وعند من اتخذوا المذاهب المحدثه بعد القرآن أصولًا للدين يعرضون القرآن عليها عرضًا، فإذا وافقها بغير تكلف أو بتكلف قليل فرحوا، وإلا عدوها من المشكلات والمعضلات. على أن القاعدة القطعية المعروفة عمن أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم وعن خلفائه الراشدين رضى الله عنهم أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأن حكم الله يلتبس فيه أولًا: فإن وجد فيه يؤخذ، وعليه يعول ولا يحتاج معه إلى مأخذ آخر، وإن لم يوجد التمس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. على هذا أقر النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا حين أرسله إلى اليمن، وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين. وقد رأى القارئ أن معنى الآية واضح في نفسه لا تكلف فيه ولا إشكال والله الحمد.

سيقول أدياء العلم من المقلدين: نعم إن الآية واضحة المعنى كاملة البلاغة على الوجه الذى قررتم، ولكنها تقتضى عليه أن التيمم في السفر جائز ولو مع وجود الماء. وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا. فكيف يغفل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين، ويعقل أن يخالفوها من غير معارض لظاهرها أرجعوها إليه؟ ولنا أن نقول لمثل هؤلاء، وإن كان المقلد لا يحتاج لأنه لا علم له: وكيف عَقِلَ أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف مُعْضِلًا مُشْكِلًا؟ الخطأ على الفقهاء لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، وهو الموافق للملتزم مع غيره من رخص السفر التى منها قصر الصلاة وجمعها وإباحة الفطر في رمضان. فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر في ترك الغسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام في نظر الدين؟ أليس من المجرب أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد للماء في هذا الزمان الذى سهلت فيه أسباب السفر في قطارات السكك الحديدية والبواخر؟ أفلا يتصور المنصف أن المشقة فيها أشد على المسافرين على ظهور الإبل في مفاوز الحجاز وجبالها؟ هل يقول منصف إن صلاة الظهر أو العصر أربعًا في السفر أصعب من الغسل أو الوضوء فيه؟ السفر مظنة المشقة يشق فيه غالبًا كل ما يؤتى في الحضر بسهولة، وأشق ما يشق فيه الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضرًا مستغنى عنه.

وأضرب لهم مثلاً هذه الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام. فإن الماء فيها كثير دائماً، وفي كل باخرة منها حمامات، أى بيوت مخصوصة للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد، ولكنها خاصة بالأغنياء الذين يسافرون في الدرجة الأولى أو الثانية. وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر عليه معه الاغتسال أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر. فإذا كانت هذه السفن التى يوجد فيها من الماء المعد للاستحمام ما لم يكن يوجد مثله في بيت أحد من أهل المدينة زمن التنزيل يشق فيها الاغتسال أو يتعذر فما قولك في الاغتسال في قطارات سكك الحديد أو قوافل الجمال والبغال؟ ألا إن من أعجب العجب غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة في عبارة القرآن، التى هى أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر في رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام، واحتمال ربط قوله تعالى: "فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً" بقوله: "وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ" بعيد بل ممنوع البتة كما تقدم. على أنهم لا يقولون به في المرضى لأن اشتراط فقد الماء في حقهم لا فائدة له لأن الأصحاء مثلهم فيه، فيكون ذكرهم لغواً يتزه عنه القرآن. ونقول إن ذكر المسافرين كذلك فإن المقيم إذا لم يجد الماء يتيمم بالإجماع. فلولا أن السفر سبب للرخصة كالمرض لم يكن لذكره فائدة. ولذلك عللوه بما هو ضعيف متكلف: أنها نزلت في بعض أسفار النبي صلى الله عليه وسلم، وقد انقطع فيها عَقْدُ لعائشة، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم على التماسه والناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأغلظ أبو بكر على عائشة وقال: حَبَسَتْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فنزلت الآية. فلما صَلَّوْا بالتيمم جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول: ما أكثر بركتكم يا آل أبى بكر! رواه الستة. وفي رواية: يرحمك الله تعالى يا عائشة! ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجاً.

فهذه الرواية، وهى من وقائع الأحوال، لا حكم لها في تغيير مدلول الآية ولا تنافي جعل الرخصة أوسع من الحال التى كانت سبباً لها. ألا ترى أنها شملت المرضى، ولم يذكر في هذه الواقعة أنه كان فيها مرضى شق عليهم استعمال الماء على تقدير وجوده، وليس فيها دليل على أن كل الجيش كان فاقداً للماء ولا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل التيمم فيها خاصاً بفاقدى الماء دون غيرهم؟ ومثلها سائر الروايات المصرحة بالتيمم في السفر لفقد الماء التى هى عمدة الفقهاء. على أنها منقولة بالمعنى، وهى وقائع أحوال مجملة لا تنهض دليلاً، ومفهومها مفهوم مخالفة، وهو غير معتبر عند الجمهور، ولا سيما في معارضة منطوق الآية. وإننا نرى رخصة قصر الصلاة قد قُيدَتْ بالخوف من فتنة الكافرين كما سيأتى في

هذه السورة، ونرى هؤلاء الفقهاء كلهم لم يعملوا فيها بمفهوم هذا الشرط المنصوص الذى كان سبب الرخصة. أفلا يكون ما هنا أولى بالألا يشترط فيه شرط ليس في كتاب الله؟ وروى في سبب النزول أيضًا أن الصحابة نالتهم جراحة وإبتلوا بالجناية، فشكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت. وروى أيضًا أنها نزلت فيمن اغتسل في السفر بمشقة، وسيأتي. وإذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد بطلت كل تلك التشديدات التى توسعوا في بنائها على اشتراط فقد الماء. ومنها ما قالوه من وجوب طلبه في السفر وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث. وأذكر أننى، عندما كنت أدرس "شرح المنهاج" في فقه الشافعية، قرأت باب التيمم في شهرين كاملين لم أترك الدرس فيها ليلة واحدة. فهل ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد الصحابة تكلم في التيمم يومين أو ساعتين؟ وهل كان هذا التوسع في استنباط الأحكام والشروط والحدود سعة ورحمة على المؤمنين أم عسرا وحرجا عليهم، وهو ما رفعه الله عنهم؟".

وعما له اتصال بموضوعنا أن أهل الريف لم يكن لديهم حتى وقت قصير مضى حمامات يغتسلون فيها، بل كان على الرجال والشبان إذا أرادوا الاستحمام لأى غرض من الأغراض، وبخاصة الاغتسال للصلاة، أن يذهبوا إلى حمام المسجد القريب، وليس فيه سوى الماء البارد بطبيعة الحال، كما أن نافذته مفتوحة يندفع منها الهواء. وكان كثير ممن يستخدمون المسجد لهذا الغرض عند صلاة الفجر يصاب بنزلة برد عقب ذلك. وما أدراك ما نزلة البرد وما تسببه من معاناة وآلام، وبخاصة في تلك الأيام التى لم يكن كثير جدا من الناس يستطيعون شراء الدواء؟ أليس من الفقه السليم اكتفاء الشخص في مثل تلك الحالة بالتيمم كيلا يصاب بالبرد ويتعذب؟ يقول الله سبحانه وتعالى: "ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وكان الله شاكرا عليما". وهناك في هذا الصدد حديث يعرض لحالة تجرى في نفس الاتجاه، وهو "أن رجلا أجنب في شتاء فسال، فأمر بالغسل، فاغتسل فمات، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هم؟ قتلوه! قتلهم الله (ثلاثا). قد جعل الله الصعيذ (أو التيمم) طهورا". فالإسلام لا يعرف التشدد لغير معنى، ولا يرضى أبدا بالأذى ينزل على إنسان بسبب الوضوء أو الغسل. فقد شرع التيمم، ضمن ما شرع، لهذا الغرض.

ولنتوسع بعض الشيء في الكلام عن التيسير في أمور الدين، وليكن كلامنا هذه المرة في موضوع الطلاق، وهو من الأمور التى تشغل بال الناس كثيرا، وعلى وجه الخصوص عوام الناس، الذين يكثر بينهم التلفظ بالطلاق عما لا على بطلان، ويرجعون إلى من يتصورون أن من حقه إرجاع الزوجة إليهم في

مقابل مال يأخذه المفتي الجاهل: فمثلاً نقرأ في كتاب "فقه السنة"، ضمن ما نقرأ، كلاماً عن طلاق الهازل يختلف عما يردده الناس من أن الزواج والطلاق يقعان ولو كان المتلفظ بهما هازلاً غير جاد. وهذا هو: "طلاق الهازل: يرى جمهور الفقهاء أن طلاق الهازل يقع، كما أن نكاحه يصح، لما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ". وهذا الحديث، وإن كان في إسناده عبد الله بن حبيب، وهو مختلف فيه، فإنه قد تقوى بأحاديث أخرى. وذهب بعض أهل العلم إلى عدم وقوع طلاق الهازل منهم الباقر والصادق والناصر. وهو قول في مذهب أحمد ومالك، إذ إن هؤلاء يشترطون لوقوع الطلاق الرضا بالنطق اللساني، والعلم بمعناه، وإرادة مقتضاه. فإذا انتفت النية والقصد اعتبر اليمين لَعْنُوا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: "وَأِنْ عَزَّمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ". وإنما العزم ما عزم العازم على فعله، ويقتضى ذلك إرادة جازمة بفعل المعزوم عليه أو تركه. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات". والطلاق عمل مفتقر إلى النية، والهازل لا عزم له ولا نية. وروى البخارى عن ابن عباس: إنها الطلاق عن وطء."

وهناك لون آخر من التطليق يظن كثير من الناس أنه يقع لا محالة، وفاتهم أن ثم رأياً بعدم وقوعه لأنه يخالف حكمة الشرع. وهو ما يتضح لنا من مطالعة النص التالى الذى يتناول الطلاق الشئى والطلاق البدعى. وما زلنا مع "فقه السنة": "طلاق السنة: هو الواقع على الوجه الذى ندب إليه الشرع، وهو أن يطلق الزوج المدخول بها طليقة واحدة في طهر لم يمسه فيها، لقول الله تعالى: "الطلاق مرتان: فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان". أى أن الطلاق المشروع يكون مرة يعقبها رجعة، ثم مرة ثانية يعقبها رجعة كذلك، ثم إن المطلق بعد ذلك له الخيار بين أن يمسكها بمعروف أو يفارقها بإحسان. ويقول الله تعالى: "يا أيها النبى، إذا طلقتم النساء فطلقوهن لِعَدَّتِهِنَّ". أى إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن مستقبلات العدة. وإنما تستقبل المطلقة العدة إذا طلقها بعد أن تطهر من حيض أو نفاس، وقبل أن يمسه. وحكمة ذلك أن المرأة إذا طُلِّقَتْ وهى حائض لم تكن فى هذا الوقت مستقبلات العدة، فتطول عليها العدة لأن بقية الحيض لا يحسب منها، وفيه إضرار بها. وإن طُلِّقَتْ فى طهر مسها فيه فإنها لا تعرف هل حملت أو لم تحمل، فلا تدري بم تعتد: أتعتد بالأقراء أم بوضع الحمل؟ وعن نافع بن عبد الله بن عمر رضى الله عنه "أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم: "مُرَّةٌ فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر. ثم إن شاء أمسك بعد ذلك، وإن شاء طلق قبل أن يمس. فتلك العدة التي أمر الله سبحانه أن تطلق لها النساء". وفي رواية أن ابن عمر رضى الله عنه طلق امرأة له، وهى حائض، تطليقة، فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم. فقال: "مُرَّةٌ فليراجعها، ثم ليطلقها إذا طهرت، أو وهى حامل". أخرجه النسائي ومسلم وابن ماجه وأبو داود. وظاهر هذه الرواية أن الطلاق في الطهر الذى يعقب الحيضة التى وقع فيها الطلاق يكون طلاق سُنَّة لا بِدْعَة. وهذا مذهب أبى حنيفة، وإحدى الروایتين عن أحمد، وأحد الوجهين عن الشافعى. واستدلوا بظاهر الحديث وبأن المنع إنما كان لأجل الحيض. فإذا طهرت زال موجب التحريم. فجاز الطلاق فى ذلك الطهر كما يجوز فى غيره من الأطهار. ولكن الرواية الاولى التى فيها "ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر" متضمنة لزيادة يجب العمل بها. قال صاحب "الروضة الندية": "وهى أيضا فى الصحيحين". فكانت أرجح من وجهين. وهذا مذهب أحمد فى إحدى الروایتين عنه، والشافعى فى الوجه الآخر، وأبى يوسف ومحمد.

أما الطلاق البِدْعى فهو الطلاق المخالف للمشروع: كأن يطلقها ثلاثا بكلمة واحدة، أو يطلقها ثلاثا بمفرقات فى مجلس واحد كأن يقول: "أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق"، أو يطلقها فى حيض أو نفاس، أو فى طهر جامعها فيه. وأجمع العلماء على أن الطلاق البدعى حرام، وأن فاعله آثم. وذهب جمهور العلماء إلى أنه يقع، واستدلوا بالأدلة الآتية: ١ - أن الطلاق البدعى مندرج تحت الآيات العامة. ٢ - تصريح ابن عمر رضى الله عنه، لما طلق امرأته وهى حائض وأمر الرسول الله صلى الله عليه وسلم بمراجعتها، بأنها حُسيبت تلك الطلقة. وذهب بعض العلماء إلى أن الطلاق البدعى لا يقع، ومنعوا اندراجه تحت العمومات لانه ليس من الطلاق الذى أذن الله به، بل هو من الطلاق الذى أمر الله بخلافه. فقال: "فطلقوهن لعدتهن". وقال صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضى الله عنه: "مُرَّةٌ، فليراجعها". وصح أنه غضب عندما بلغه ذلك، وهو لا يغضب مما أحله الله. وأما قول ابن عمر: "إنها حُسيبت" فلم يبين من الحاسب لها، بل أخرج عند أحمد وأبى داود والنسائي "أنه طلق امرأته وهى حائض، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يرها شيئا". وإستناد هذه الرواية صحيح، ولم يأت من تكلم عليها بباطل. وهى مصرحة بأن الذى لم يرها شيئا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يعارضها قول ابن عمر رضى الله عنه لأن الحجة فى روايته لا فى رأيه. وأما الرواية بلفظ "مُرَّةٌ، فليراجعها" ويعتد بتطليقة فهذه لو صحت لكانت حجة ظاهرة. ولكنها لم تصح كما جزم به ابن القيم فى

"الهدى". وقد روى في ذلك روايات في أسانيدھا مجاہیل وكذابون لا تثبت الحجة بشئ منها. والحاصل أن الاتفاق كائن على أن الطلاق المخالف لطلاق السنة يقال له: طلاق بدعة. وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن كل بدعة ضلالة".

ولا خلاف أيضا أن هذا الطلاق مخالف لما شرعه الله في كتابه وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر. وما خالف ما شرعه الله ورسوله فهو ردٌ لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد"، وهو حديث متفق عليه. فمن زعم أن هذه البدعة يلزم حكمها، وأن هذا الأمر الذي ليس من أمره صلى الله عليه وسلم يقع من فاعله ومقيد به، لا يقبل منه ذلك إلا بدليل. وذهب إلى هذا: ١- عبد الله بن معمر. ٢- سعيد بن المسيب. ٣- طاووس من أصحاب ابن عباس. وبه قال خلاص بن عمرو وأبو قلابة من التابعين. وهو اختيار الإمام ابن عقيل من أئمة الحنابلة وأئمة آل البيت والظاهرية، وأحد الوجهين في مذهب الإمام أحمد. واختاره ابن تيمية".

ومما يربك الناس أيضا الطلاق ثلاث مرات بلفظة واحدة. يقول السيد سابق تحت عنوان "عدد الطلقات": "وإذا دخل الزوج بزوجه ملك عليها ثلاث طلقات. واتفق العلماء على أنه على الزوج ألا يطلقها ثلاثا بلفظ واحد أو بألفاظ متتابعة في طهر واحد. وعللوا ذلك بأنه إذا وقع الطلقات الثلاث فقد سد باب التلافي والتدارك عند الندم وعارض الشارع، لانه جعل الطلاق متعددا لمعنى التدارك عند الندم. وفضلا عن ذلك فإن المطلق ثلاثا قد أضر بالمرأة من حيث أبطل حليتها بطلاقه هذا. وقد روى النسائي من حديث محمود بن ليث قال: "أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا، فقام غضبان فقال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟ حتى قام رجل فقال: يا رسول الله: أفلا أقتله؟". قال ابن القيم في إغاثة اللهفان: "فجعله لاعبا بكتاب الله" لكونه خالف وجه الطلاق وأراد به غير ما أراد الله به، فإنه تعالى أراد أن يطلق طلاقا يملك فيه رد المرأة إذا شاء، فطلق طلاقا يريد به ألا يملك فيه ردها. وأيضا فإن إيقاع الثلاث دفعة مخالف لقول الله تعالى: "الطلاق مرتان". والمرتان والمرات في لغة القرآن والسنة، بل ولغة العرب، بل ولغة سائر الأمم، لما كان مرة بعد مرة. فإذا جمع المرتين والمرات في مرة واحدة فقد تعدى حدود الله تعالى وما دل عليه كتابه. فكيف إذا أراد باللفظ الذي رتب عليه الشارع حكما ضد ما قصده الشارع". وإذا كانوا قد اتفقوا على الحرمة فإنهم اختلفوا فيما إذا طلقها ثلاثا بلفظ واحد: هل يقع أم لا؟ وإذا كان يقع فهل يقع واحدة أم ثلاثا؟ فذهب

جمهور العلماء إلى أنه يقع. ويرى بعضهم عدم وقوعه. والذين رأوا وقوعه اختلفوا: فقال بعضهم إنه يقع ثلاثا. وقال بعضهم: يقع واحدة فقط. وفرق بعضهم فقال: إن كانت المطلقة مدخولا بها وقع الثلاث، وإن لم تكن مدخولا بها فواحدة.

استدل القائلون بأنه يقع ثلاثا بالأدلة الآتية: ١- قول الله تعالى: "فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ". ٢- قول الله تعالى: "وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً". ٣- وقول الله تعالى: "لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ". فظواهر هذه الآيات تبين صحة إيقاع الواحدة والثنتين والثلاث لأنها لم تفرق بين إيقاعه واحدة أو ثنتين أو ثلاثا. ٤- وقول الله تعالى: "الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ: فإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعُ بِإِحْسَانٍ". فظاهر هذه الآية جواز إطلاق الثلاث أو الثنتين دفعة أو مفرقة، ووقوعه. ٥- حديث سهل بن سعد، قال: "لما لاعن أخو بنى عجلان امرأته قال: يا رسول الله، ظلمتها إن أمسكتها. هي الطلاق، هي الطلاق، هي الطلاق". رواه أحمد. ٦- وعن الحسن قال: حدثنا عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته تطليقة، وهي حائض، ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين أخريين عند القرأين، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن عمر، ما هكذا أمرك الله تعالى! إنك قد أخطأت السنة. والسنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قُرء. وقال: فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فراجعتها. ثم قال: إذا هي طهرت فطلق عند ذلك أو أمسك. فقلت يا رسول الله: أرايت لو طلقته ثلاثا أكان يحل لي أن أراجعها؟ قال: لا. كانت تبين منك. رواه الدارقطني. ٧- وأخرج عبد الرزاق في "مصنفه" عن عبادة بن الصامت قال: طلق جدى امرأة له ألف تطليقة، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فقال له النبي: "ما اتقى الله جَدُّكَ. أما ثلاث فله، وأما تسعمائة وسبع وتسعون فعدوان وظلم. إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له". وفي رواية: "إن أباك لم يتق الله فيجعل له مخرجا. بانث منه بثلاث على غير السنة. وتسعمائة وسبع وتسعون إثم في عنقه". ٨- وفي حديث ركانة أن النبي صلى الله عليه وسلم استحلفه أنه ما أراد إلا واحدة. وذلك يدل على أنه لو أراد الثلاث لوقع. وهذا مذهب جمهور التابعين وكثير من الصحابة وأئمة المذاهب الأربعة. أما الذين قالوا بأنه يقع واحدة فقد استدلوا بالأدلة الآتية: أولا ما رواه مسلم أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تُجْعَل واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وصلوا من خلافة عمر؟ قال: نعم. وروى عنه أيضا قال: كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وستين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر بن الخطاب: إن الناس

قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة. فلو أمضيناه عليهم؟ فأمضاه عليهم. أي أنهم كانوا يوقعون طلاقه بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات. ثانياً عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: طلق ركانة امرأته ثلاثاً في مجلس واحد، فحزن عليها حزناً شديداً. فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف طلقته؟ قال: ثلاثاً. فقال: في مجلس واحد؟ قال: نعم. قال: فإنما تلك واحدة. فأرجعها إن شئت. فراجعها. رواه أحمد وأبو داود.

وقال ابن تيمية (ج ٣ ص ٢٢ "فتاوى"): وليس في الأدلة الشرعية: الكتاب والسنة والاجماع والقياس ما يوجب لزوم الثلاثة له. ونكاحه ثابت ييقن، وامرأته محرمة على الغير بيقين، وفي إلزامه بالثلاث إباحتها للغير مع تحریمها عليه، وذريعة إلى نكاح التحليل الذي حرّمه الله ورسوله. ونكاح التحليل لم يكن ظاهراً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه، ولم ينقل قط أن امرأة أعيدت بعد الطلاق الثالثة على عهدهم إلى زوجها بنكاح تحليل. بل لعن النبي صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له... إلى أن قال: وبالجملة فما شرعه النبي صلى الله عليه وسلم لأمة شرعاً لازم لا يمكن تغييره، فإنه لا يمكن نسخ بعد رسول الله. وقال تلميذه ابن القيم: قد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن الثلاث كانت واحدة في عهده وعهد أبي بكر رضي الله عنه وصدرًا من خلافة عمر رضي الله عنه، وغاية ما يقدر مع بعده أن الصحابة كانوا على ذلك، ولم يبلغه. وهذا، وإن كان كالمستحيل، فإنه يذلل على أنهم كانوا يفتنون في حياته وحياة الصديق بذلك. وقد أفتى هو صلى الله عليه وسلم. فهذه فتواه وعمل أصحابه كأنه أخذ باليد، ولا معارض لذلك. ورأى عمر رضي الله تعالى عنه أن يحمل الناس على إنفاذ الثلاث عقوبة وزجراً لهم لئلا يرسلوها جملة. وهذا اجتهد منه رضي الله عنه غايته أن يكون سائغاً لمصلحة رآها. ولا يجوز ترك ما أفتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عليه أصحابه في عهده وعهد خليفته. فإذا ظهرت الحقائق فليقل امرؤ ما شاء. وبالله التوفيق. وقال الشوكاني: وقد حكى ذلك صاحب "البحر" عن أبي موسى، ورواية عن علي عليه السلام وابن عباس وطاووس وعطاء وجابر وابن زيد والهادي والقاسم والباقر وأحمد بن عيسى وعبد الله بن موسى بن عبد الله، ورواية عن زيد بن علي. وإليه ذهب جماعة من المتأخرين منهم ابن تيمية وابن القيم وجماعة من المحققين، وقد نقله ابن مغيث في كتاب "الوثائق" عن محمد بن وضاح، ونقل الفتوى بذلك عن جماعة من مشايخ قرطبة كمحمد بن بقي ومحمد بن عبد السلام وغيرهما. ونقله ابن المنذر عن أصحاب ابن عيسى كعطاء

وطاؤوس وعمر وابن دينار، وحكاه ابن مغيث أيضا في ذلك الكتاب عن علي رضي الله عنه وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف والزبير.

وهذا هو المذهب الذى جرى عليه العمل أخيرا فى المحاكم. فقد جاء فى المادة ٣ من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ما يلى: "الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة يقع واحدة. أما حجة القائلين بعدم وقوع الطلاق مطلقا فإنه طلاق بدعى، والطلاق البدعى لا يقع عند هؤلاء، ويعتبر لغوا. وهذا المذهب يخكى عن بعض التابعين. وهو مروي عن ابن علي وهشام بن الحكم، وبه قال أبو عبيدة وبعض أهل الظاهر. وهو مذهب الباقر والصادق والناصر وسائر من يقول بأن الطلاق البدعى لا يقع لأن الثلاث بلفظ واحد أو ألفاظ متتابعة من جملة. وأما الذين فرقوا بين المطلقة المدخول بها وغير المدخول بها فهم جماعة من أصحاب ابن عباس وإسحاق بن راهويه".

والذى دفعنى إلى هذا الاستطراد هو ما لاحظته على كلام ابني الشيخ من التشدد فى غير مستوجب للتشدد، فأردت أن أعدل هذا الميل وأرسخ فى عقل القارئ ووجدانه أن الإسلام دين الاعتدال والتوازن والرحمة والعقل والمنطق وأنه، فى الوقت الذى يتغيا فيه المثالية، لا يتنكر للواقعية ولا يتجهم للقطرة البشرية، فضلا عن أنه لا يجذ أبدا إعنات الناس بل التيسير عليهم فى معيشتهم بكل ما يمكن ما دام هذا التيسير لا يحل حراما ولا يحرم حلالا. وهو ما لاحظت أن د. ندوى نفسه يسير عليه فى محاضراته حسبا ذكرت الكاتبة الأمريكية مؤلفة الكتاب، وإن كنت وجدته يغلو فى ذلك بعض الشيء. إن ديننا دين عبرى عظيم ليس له مثيل بين الأديان، لكن أتباعه قَصَّروا به فى القرون الأخيرة تقصيرا بشيعا وأسأوا إليه وجلبوا عليه التشنيعات والزرايات بتساخفهم وقَلْبهم أوضاع الأولويات، فتراهم يتشددون ويتنطعون فى غير موجب للتشدد، بل فيما قد يكون مناقضا للدين الصحيح، فى الوقت الذى يهملون جوهر الدين وأساسياته إهمالا بشعا، مما أدى وما زال يؤدى إلى تخلفهم وجهلهم وضعفهم وذلتهم وقذارة بلادهم إلا فيما ندر ووحشية أحوالهم وقبح كل شىء تقريبا من حولهم، بينما هم راضون تمام الرضا عن أنفسهم أو على الأقل: غير واعين بما هم فيه من تشويه وفوضى وقبح واختلال حال، على حين يظن بقية العالم أن هذا هو ما يأمرهم به الدين، مع أن الدين منه ومنهم براء.

وأخيرا فإن عنوان الفصل الحالى هو نفسه عنوان رواية "The Pilgrim's Progress" لجون بانيان، وهو واعظ بريطانى حر عاش فى القرن السابع عشر ووضع روايته وهو فى السجن عقابا له على ممارسة الخدمة الكنسية من دون رخصة والقيام بها خارج الكنيسة. وقد ترجمت الرواية إلى أكثر من

٢٠٠ لغة، ولم يحدث أن تَفِدَّت قط منذ صدرت لأول مرة. وتدور الرواية حول رحلة يقوم بها شخص اسمه: "نصراني" تهدف إلى تخلصه من آثامه بغية دخول الفردوس. وأسماء الشخصيات والمواضع أسماء رمزية: فهذا الشخص اسمه نصراني، وذاك إنجيلي، وذلك معرفة، وذا عنيد، وذياك مرن، وهذه عينا الخفاش، وتلك لامبالية. وهذا الموضع مدينة الدمار، وذلك وادي الهوان... إلخ.

أهل الكتاب

نحن الآن في الفصل الثاني عشر من كتاب كارلا باور، وهو عن "عيسى ومريم والقرآن". وهذا الفصل يحتوي على طائفة من القضايا الهامة، لكنني لن أقف إلا عند القضايا التي أرى أنها بحاجة إلى التعليق عليها. ومن هذه الأشياء التي تستحق الوقوف إزاءها قول أكرم ندوى للصحفية المذكورة: "When it comes to Jews and Christians, we respect them, because of their scriptures"، ومعناه أننا نحن المسلمين نحترمهم بسبب كتابهم المقدس. وهى عبارة تحتاج إلى تدخل لفض ما يمكن أن يكون فيها من اشتباك. فلا ريب أن المسلم يحترم اختيار كل إنسان، إذ ليست مشكلتنا مع عقيدته بل مع موقفه منا ومن عقيدتنا: فإذا اكتفى بممارسة دينه ومراعاة عقيدته والالتزام بشعائره فأهلاً وسهلاً. والقرآن يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً وتكراراً إنه لا سلطة له على المشركين، ولا ينبغي أن يفكر في السيطرة عليهم، وإنه ليس عليهم بحفيظ ولا وكيل. فما بالنا باليهود والنصارى؟ ونحن نعلم أن الرسول عليه السلام، عقب هجرته إلى المدينة، كتب صحيفة دستورية تنظم العلاقة بين طوائفها المختلفة من مسلمين ويهود وغيرهم، ولم يقل لليهود: "عليكم أن تدخلوا الإسلام، وإلا فلا موضع لكم بيننا"، بل تقبلهم واحترم وجودهم ولم يتدخل بينهم وبين دينهم في قليل أو كثير. كما ساهم الإسلام: "أهل الكتاب" لأن لهم كتاباً "سماوى الأصل"، مفرّقا، كما يشير د. ندوى، بينهم وبين الوثنيين، وإن عاد الدكتور بعد قليل مؤكداً أن القرآن لا يمكن أن يقبل بينوة عيسى لله سبحانه لأن هذا شرك، والله يمكن أن يغفر أى خطيئة ما عدا خطيئة الشرك: "No, Akram continued, Jesus could not be the son of God, because God could never have partners. "The Quran is uncompromising: nobody is to be worshipped other than Allah. Allah can forgive any other sin, other than shirk. There is no softness there: the only people who are never forgiven are the people of the shirk".

وهنا يأتى دورى في الكلام تعقيباً على ما قاله د. أكرم حتى لا يفهم خطأ. لقد قلت عن كتاب اليهود والنصارى إنه سماوى الأصل. والمقصود التوراة والإنجيل، وهما الوحيان اللذان نزلا على موسى وعيسى. لكن هل الكتاب المقدس الذى فى أيدي اليهود والنصارى الآن هو ذلك الوحي المشار إليه؟ لقد أكد القرآن أن العبث والتبديل قد اعترى الكتابين المذكورين. ومن ثم فإن الخمسة الأسفار الأولى من العهد القديم، تلك الأسفار التى تسمى عند اليهود بـ "التوراة"، وكذلك الأنجيل الأربعة التى يضمها العهد الجديد مع نصوص أخرى ليسا هما التوراة والإنجيل اللذين نؤمن نحن بهما. فالتوراة

والإنجيل وحى سماوى، أما الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد فهو تاريخ لبني إسرائيل ولعيسى عليه السلام ككتبه أيد بشرية، وفيه بعض من ذلك الوحي المشار إليه، لكنه لا يتطابق معه بحال، بل فيه نقوص وزيادات وإحلالات وتغييرات وأهواء وسهو ونسيان... وهنا ينبغي أن نفرق بين أمرين: احترامنا لاختيار اليهود والنصارى الدينى وإيمانهم بالكتاب المقدس الذى بين أيدينا الآن، وإيماننا نحن بسماوية هذا الكتاب. نعم إن فيه أشياء تشبه تماماً أو تشبه كثيراً ما يقوله القرآن. لكن فيه في ذات الوقت أشياء أخرى تناقض ما جاء في كتابنا. فينبغي أن نكون على ذكر من ذلك حين نقرأ العبارة الماضية التى اقتبسناها من كلام الشيخ. ذلك أن العهد القديم مثلاً يتحدث عن أبناء الله وبنات الناس. كما يصور نوحاً عليه السلام سكيراً يبلغ به السكر أن ينطرح على الأرض عرياناً تماماً فيدخل عليه ابنه ويرى سوأته. أما إبراهيم فيحكى الكتاب المقدس عنه أنه تخلى عن زوجته لأبيمالك دون أن يحاول مجرد الدفاع عنها أو إخبار الملك بأنها زوجته بل أسلمها إليه ومضى منشغلاً بها أفاءه عليه الملك من مواشى. وعندنا لوط عليه السلام، الذى يقول العهد القديم عنه إن ابنتيه سقتاه ذات مرة خمرًا ونامتا معه الواحدة بعد الأخرى وحملتا وأنجبتا منه. وبالمثل يتحدث العهد القديم عن موسى على أنه، حين قتل المصرى، إنما قتله عن عمد وسبق إصرار لا عن خطأ وغير قصد كما جاء في القرآن المجيد. وبالمثل يتحدث عن هارون على أنه هو الذى صنع العجل الذهبى لبني إسرائيل كي يعبدوه. وفي ذلك الكتاب أيضاً أن داود قد زنى بامرأة جاره وقائد جيشه، ثم زاد فدبر مؤامرة تخلص بها من القائد المخلص الأمين ليخلو له وجه الزوجة الزانية، التى تزوجها وأنجب منها سليمان، وأن سليمان قد ساعد زوجاته الوثنيات على عبادة الأصنام في قلب بيته. وفي العهد الجديد أن المسيح عليه السلام قد صُلب وقُتل على الصليب على العكس تماماً مما يقوله القرآن الكريم.... وهكذا.

وفي ضوء ما سبق يسهل علينا أن نفهم الأحاديث التالية، وهى تتعلق بموضوعنا الحالى: فعن جابر بن عبد الله "أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ أتى النّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بكتابٍ أصابه من بعضِ أهلِ الكتابِ فقرأه على النّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: فغضب وقال: أَمْتَهُوْكَونَ فيها يا ابنَ الخطأِ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً. لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبروكم بحقِّ فتكذبوا به أو يباطل فتصدّقوا به. والذى نفسى بيده لو أن موسى

كان حياً ما وِسَّعه إلا أن يَتَّبَعَنِي". وعن ابنِ عباسٍ قال: "لَمَّا أَرَادَ اللهُ أن يرفعَ عيسى إلى السَّماءِ خرَجَ إلى أصحابِهِ، وفي البيتِ اثنا عشر رجلاً منَ الحواريين، فخرَجَ عليهم من عَيْنٍ في البيتِ ورأسُهُ

طر ماء، فقال: إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اثْنَيْ عَشَرَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي. ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يَلْقَى عَلَيْهِ شَيْءٌ يُتَلَّ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي؟ فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سَتًا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِس. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، بَامَ الشَّابِّ، فَقَالَ: اجْلِس. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا. فَقَالَ: أَنْتَ ذَاكَ. فَأَلْقَى عَلَيْهِ بِهَ عَيْسَى، وَرَفَعَ عَيْسَى فِي رُوزْنَةٍ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ. قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَخَذُوا الشَّيْبَةَ تَلَوْهُ ثُمَّ صَلَّبُوهُ. فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثًا: فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: كَانَ هُوَ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ. فَهَؤُلَاءِ الْيَهُودِيُّونَ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ هُوَ. وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ. فَتَظَاهَرَتْ كَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَتَقَتْلُوهُمَا، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: "فَأَمَنْتَ نَفْسًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ"، يَعْنِي الطَّائِفَةَ الَّتِي آمَنْتَ فِي زَمَنِ عَيْسَى، "وَكَفَرْتَ طَائِفَةً"، يَعْنِي الَّتِي كَفَرَتْ زَمَنِ عَيْسَى، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي زَمَنِ عَيْسَى بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ دِينَهُمْ عَلَى دِينِ الْكَافِرِينَ".

وَفِي أَحْدَاثِ آخِرِ الزَّمَانِ يَقُولُ حَدِيثٌ آخَرُ إِنَّ الْعَرَبَ سَيَكُونُونَ يَوْمَئِذٍ قَلِيلِينَ، "وَأِمَامُهُمْ رَجُلٌ بِالْحَجِّ، فَيَبْنِي أِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يَصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحُ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحِ، فَرَجَعَ ذَلِكَ أِمَامٌ يَنْكُصُ يَمْشِي الْقَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عَيْسَى، فَيَضَعُ عَيْسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمَ قَصِلْ، فَيَنْبِهَا. أَوْ قِيَمْتَ. قِيَصَلِّي بِهِمْ أِمَامُهُمْ، فَإِذَا انْصَرَفَ قَالَ عَيْسَى: افْتَحُوا الْبَابَ. فَيَفْتَحُونَ، وَوَرَاءَهُ الدَّجَالُ مَعَهُ بِعُونَ أَلْفَ يَهُودِي كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلَّى وَسَاجٍ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، يُطْلَقُ هَارِبًا، فَيَذِرُكَ عِنْدَ بَابٍ لَدَى الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ، فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَتَوَقَّى بِهِ يَهُودِي إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، لَا حَجَرٌ وَلَا شَجَرٌ وَلَا حَائِطٌ وَلَا دَابَّةٌ إِلَّا الْغَرَقَدَةُ، هِيَ مِنْ شَجَرِهِمْ لَا تَنْطِقُ، إِلَّا قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ الْمُسْلِمَ، هَذَا يَهُودِي، فَتَعَالَ أَقْتُلْهُ. فَيَكُونُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ فِي أُمْنِي حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا يَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَذْبَحُ الْخَزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَتْرَكُ الصَّدَقَةَ، لَا يَسْعَى عَلَى شَأٍ وَلَا بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشُّحُنَاءُ وَالتَّبَاعُضُ، وَتُنَزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ، حَتَّى يَدْخُلَ الْوَلِيدُ فِي الْحَيَةِ، فَلَا تَضُرُّهُ، وَتَضُرُّ الْوَلِيدَةَ الْأَسَدَ فَلَا يَضُرُّهَا، وَيَكُونُ الذَّنْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتَمْلَأُ رُضْ مِنَ السَّلَامِ كَمَا يَمْلَأُ الْإِنَاءُ مِنَ الْمَاءِ، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً فَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ رَايَهَا".

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ نَقَرْنَا مَا يَلِي: "أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعَ، أَنْتَ تَعَجِبُهُ، فَتَنْهَسُ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ

الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر. خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته. نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد ساءك الله: عبداً شكوراً. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي. نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات... نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برساليته وبكلامه على الناس. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها. نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً. اشفع لنا. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله (ولم يذكر ذنباً). نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم. فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً للرب عز وجل، ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك. سل تعطه، واشفعُ تشفع. فارفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب".

ولدى الحديث عن واقع المسلمين اليوم يقول أكرم ندوى إن المسلمين لم يعودوا يهتمون بغير مظاهر الإسلام دون روح. وهنا أحب أن أضيف أنهم أيضا لا يهتمون بكل مظاهر الإسلام بل ببعضها فقط، وهو البعض الذى لا يقدم ولا يؤخر كثيرا بل إن بعض هذا البعض لا يقدم لا كثيرا ولا قليلا. فمثلا الحجاب مظهر من مظاهر الإسلام، وهو مظهر مطلوب لأنه يصون المرأة، ويحمى الرجال من الفتنة. أما اللحية فليست لها تلك الأهمية. وهناك مظاهر مطلوبة أشد الطلب، ولا وجود لها رغم ذلك فى حياة كثير من المسلمين الحاليين ولا اهتماماتهم. فالنظافة والنظام والجمال والهدوء أشياء نفتقدها فى كثير من بلاد المسلمين. أما قول د. ندوى إن الإسلام لا يهتم بانتساب الشخص إلى الدين فلست أوافقه عليه. فالانتساب يحيط بنا من كل جانب: فعلى سبيل المثال قد خلقنا الله، كما جاء فى كتابه الكريم، شعوبا وقبائل لتعارف. ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك مصرى وشامى وعربى وفارسى ويمنى وحجازى... إلخ. وفى بعض الغزوات كان المحاربون المسلمون يؤرَّعون فى أماكن المعركة تبعا لقبائلهم استشارة لغيرتهم على شرف القبيلة التى يتمى إليها كل منهم فلا ينكصون ولا يهربون ولا يجبنون، بل يقاتلون قتال الأبطال المغاوير. والعبرة ليست بالانتساب أو عدمه بل بإخلاص القلب وتصفية النفس. ولأمر ما قال المسلمون: بلال الحبشى، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى، ومارية القبطية، وأبو عطاء السندى. وبعد الإسلام لم تعد النسبة تقتصر على القبيلة بل شَرَكها الإقليم أو البلد الذى نشأ فيه الشخص أو اشتهر، فقليل: الحسن البصرى، والإمام البخارى، والترمذى، والنسائى، والجوزجاني. وكان العرب يحرصون على حفظ أنسابهم، فلم يحرم القرآن ذلك، بل ألفينا كتاب السيرة يعدون آباء الرسول عليه السلام إلى الجد العشرين حسبا كنا نحفظ سلسلة نسبه الشريف ونحن صغار. ولقد كان الرسول يتحدث فى غير قليل من الأحيان عن قبيلته قريش. كما كان صلى الله عليه وسلم يشى على الأقوام الذين يتمى إليهم أصحابه: فعن أبى هريرة "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: "وَأِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ". قال: فكانَ سلمانُ إلى جنبِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضربَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فخذه فقال: هذا وقومُ. والذى نفْسِي بيده لو كان الإيمانُ منوطًا بالثريا لتناولهُ رجالٌ من فارس". وعنه أيضا أن رسول الله قال: "أتاكم أهل اليمن. هم أرق أفئدة وألين قلوبا. الإيمانُ يمان، والحكمةُ يمانية". كما أن الإسلام حريص على تمييز البشر بانتساباتهم الدينية: يهود ونصارى ومجوس وصابئة ومسلمون. ثم ها هو ذا.

أكرم يتسبب إلى "ندوة العلماء" فيقال: "ندوى". إذن فلا عيب في الانتساب، سواء كان انتساباً إقليمياً أو قبلياً أو دينياً، والعبرة بالإخلاص أو عدمه.

وهنا أهتبل الفرصة لأبدى تعجبي من خمس الكاتبة الأمريكية لأن يشهد الشيخ ندوى لليهود والنصارى بالإيمان ويؤكد أنهم ناجون يوم القيامة. ذلك أنها لا تؤمن بأى دين حسب كلامها، فلم إذن تُعنى نفسها كل هذه التعنية لإثبات أن الإسلام يتسامح مع أهل الكتاب؟ أريد أن أقول: إن الإسلام في نظرها لا يقدم ولا يؤخر، بل الأديان جميعاً عندها لا تقدم ولا تؤخر، فعلام إذن هذى الضجة الكبرى؟ علاماً؟ ثم إن تصورهما بأن الإسلام يقول بنجاة من لا يؤمن به معناه بكل بساطة أنه لا لزوم له ما دامت الأديان السابقة عليه تكفى. أليس كذلك؟ ومعناه بالتالى أن القرآن والنبي يكذبان حين يؤكدان أن من لا يؤمن برسالة محمد كافر ومن أهل النار. أليس ذلك كذلك؟ ثم لماذا لا تذهب فتستفتى القساوسة والحاخامات في مصيرنا نحن المسلمين وفي نبينا عليه السلام؟ نعم لماذا كل هذه الاستماتة من أجل الحصول على فتاوى من الشيخ تناهض الإسلام؟ إن السيدة الصحفية تريد منا أن نعطي شهادة بالنجاح والنجاة لمن يشتمون نبينا ويشنون على دينه وأتباعه المؤامرات الدنيئة؟ إن هذا تكذيب منا لنبينا وديننا لا مشوية فيه.

ورداً على تأكيد الشيخ بأنه لا بد، للنجاة يوم القيامة، من الإيمان بمحمد ودينه تقول إن ثمة مسلمين تقدمين يؤمنون، على العكس من ذلك، بأن اليهود والنصارى ناجون في الآخرة، مستشهدين على ذلك بقوله تعالى: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة"، "لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً". وهذا استدلال في غير موضعه. صحيح أن الناس مختلفون، لكن ليس معنى هذا أن كل صاحب نحلة أو دين أو فلسفة ناج يوم القيامة. كما أن اختلاف الناس في الشرعة والمنهاج ليس معناه أن كل شرعة أو منهاج صحيحة. إن الناس مختلفون ذكاءً وغباءً، وتهذيباً وجلافةً، وعلماً وجهلاً، وجمالاً وقبحاً، وحماسة وحكمة... إلخ، بيد أن هذا لا يمكن أن يعنى أن الذكى والغبى، أو العالم والجاهل مثلاً سيان. كذلك قد خلق الله الجراثيم والميكروبات والفيروسات والعقارب والثعابين والضباع والفهود والبراغيث والبراكين والتسوناميات والطواعين، فهل معنى هذا أن الأضرار التى تسببها هذه الأشياء هى والمتع التى تأتى من البرود والرياحين والأدوية والماء الزلال والعسل واللبن والدفء والنسيم العليل سواء بسواء؟ فهذا مثل هذا. وإلا فلِمَ تقصر كارلاً باور النجاة من غير المسلمين على اليهود والنصارى دون

عبدة البقر مثلاً وعبدة الشياطين وعبدة الجعارين وعبدة البشر وعبدة الفروج، ما دامت النجاة في نظر الصحفية الأمريكية لا تحتاج أكثر من العمل الصالح؟

ومن أولئك المسلمين التقدميين الذين يفسرون القرآن تفسيراً حلميتشياً، حسباً أشارت كارلا باور في هذا الفصل، د. أواميد صافي (Omid Safi) الأستاذ الجامعي الأمريكي ذو الأصل الإيراني الذي يدعى أن القرآن لا يقبل من أية طائفة، بما فيها المسلمون أنفسهم، أن تقول باحتكار الحقيقة. ولكن أين في القرآن هذا يا ترى؟ إنه موجود، حسب هذا الزعم، في قوله تعالى: "وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى! تلك أمانيتهم. قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". فهل في الآية ما يدل على صحة هذا التدليس الرخيص؟ إن القرآن إنما يسخر من زعم كل من اليهود والنصارى أنهم هم وحدهم أهل الجنة. فكيف يترتب على تلك السخرية باليهود والنصارى أن يزعم زاعم بأن القرآن يؤكد أن المسلمين ليسوا هم وحدهم الذين سيدخلون الجنة؟ إن معنى هذا الزعم، إن صح، وهو لا يمكن أن يصح، أن اليهود والنصارى سوف يدخلون الجنة. كل ما في الأمر أنهم لن يدخلوها وحدهم بل سيشرّكهم غيرهم من الطوائف. أي أنهم داخلون الجنة في كل الأحوال. فهل يمكن أن يقول القرآن هذا؟ الواقع أن ذلك هو المستحيل بعينه. لماذا؟ لأن الله يقول بصريح العبارة: "إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون: "نؤمن ببعض ونكفر ببعض"، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقا. وأَعْتَدْنَا للكافرين عذاباً مُهِيناً". وهذه الآية قد نزلت في أهل الكتاب كما هو معروف. وهي واضحة الدلالة على أنه لا بد من الإيمان بمحمد شرطاً لدخول الجنة، إذ محمد نبي من الأنبياء، والإيمان بكل الأنبياء شرط محتوم لدخولها. فانظر كيف يكون التدليس على أصوله! وانظر كيف تقول الآية إن دخول اليهود والنصارى الكافرين بمحمد وبالإسلام لا يمكن أن يكون، فيأتي الأستاذ الإيراني زاعماً أنهم سوف يدخلون الجنة.

ثم ما قول صحفيّتي يا ترى في الإسرائيليين وما يصنعونه بالفلسطينيين من "أعمال صالحة" كل يوم منذ عشرات السنين بدءاً بقتلهم واعتقالهم وتفجير بيوتهم وطردهم من بلادهم وسرقة حقولهم وتمزيق أشلاء أطفالهم والاعتداء على أعراض نسائهم وبقر بطون الحوامل منهم وحصارهم وختنهم بمعونة الدول الكبرى الإجرامية، وعلى رأسها أمريكا، وتمرير عيشتهم على الدوام؟ وما قولها أيضاً في "الأعمال الصالحة" التي يَبْشِمُ منها الهنود الحمر على أيدي الغزاة الأوربيين أصحاب رسالة الرجل الأبيض حتى ماتوا من البَشْم وانقرضت ملاينهم بعد الأفاعيل الشيعة التي صبوا فوق رؤوسهم مما

يُجْعَلُ مِنْهُ إِبْلِيسُ ذَاتَهُ؟ وَلِمَاذَا يَأْتِي تَحَارِبَ أَمْرِيكَا الْيَسَارَ وَالْإِسْلَامَ مِثْلًا؟ لِمَاذَا لَا تَتْرَكُهَا فِي حَالِ سَيْلِهَا احْتِرَامًا لِمَبْدِئِ التَّعَدُّدِيَّةِ الْعَقَائِدِيَّةِ؟ لَقَدْ تَعَلَّمْنَا مِنْ أَمْرِيكََا، وَمِنْ أَمْرِيكََا وَحْدَهَا، مَعْنَى الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، الَّتِي تَقُومُ عَلَى تَدْمِيرِ عَقَائِدِ الْآخَرِينَ وَاقْتِصَادِهِمْ وَثَقَافَتِهِمْ دُونَ الدُّخُولِ فِي مَعْرَكَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ. فَلِمَاذَا الْحَرْبُ الْبَارِدَةُ يَا صَحْفَتِنَا؟ وَلَمْ لَا تَسْتَغْنُونَ عَنْهَا بِالتَّعَدُّدِيَّةِ الَّتِي فَلَقْتِ بِهَا أَدْمَغْتِنَا بِطُولِ الْكِتَابِ وَعَرَضَهُ؟ أَمْ هِيَ يَا تَرَى لَنَا، وَلَنَا وَحْدَنَا؟ أَلَا إِنْ مَا كَتَبْتَهُ بَابُورَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي فِي أَيْدِينَا الْآنَ لَهُوْ جُزْءٌ مِنَ الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، وَلَكِنَّهَا حَرْبٌ بَارِدَةٌ بِأَسْلُوبِ أَتْشَوِي نَاعِمٍ. وَلَقَدْ سَبَقَ أَنْ سَمِعْتُ بِنَفْسِهَا مَا قَالَهُ لَهَا أَهْلُ قَرْيَةِ الشَّيْخِ فِي الْهِنْدِ عَنْ تَعَاطُفِهِمْ مَعَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ وَغِيظِهِمْ مِنْ انْحِيَاظِ أَمْرِيكََا لِلصَّهَابِيَّةِ الْمَجْرِمِينَ، فَلَمْ يَعْجِبْهَا الْكَلَامُ، وَسَرَّعَانَ مَا انْتَقَلَتْ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَاعْتَبَرَتْ هَذَا الْمَوْقِفَ مِنْ بَلَدِي الشَّيْخِ وَأَقَارِبِهِ بِمَجْرَدِ اسْتِعْرَاضِ كَلَامِي لَيْسَ إِلَّا. كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا" يَشْبَهُ مَا يَقُولُهُ الْقُرْآنُ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعٍ مِنْهُ مِنْ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَهْدِي مِنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَفِي ذَاتِ الْوَقْتِ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ إِنَّهُ سَوْفَ يَحَاسِبُنَا عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِنَا وَأَقْوَالِنَا وَمَوَاقِفِنَا بِمَا يَفِيدُ أُنْمَا ذُووْ مَشِيئَةٍ وَاخْتِيَارٍ فِي الْهَدْيِ وَالضَّلَالِ، وَلَسْنَا آلَاتٌ تُحَرَّكَ يَمِينًا وَيسَارًا دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا كَلِمَةٌ فِي مَصِيرِهَا. أَمَا قَوْلُهَا إِنْ الْأَمْرُ يَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ "سَوْقًا حَرًّا لِلْمَعْتَقِدَاتِ وَالْأَدْيَانِ" فَهِيَ ظَرَفَةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ لَا أَقْدَرُ عَلَيْهَا!

إِلَّا أَنْ مَا قَالَهُ د. نَدَوِي مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَا فَتَحَ عَقْلَهُ لِلْإِسْلَامِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْهِ هُوَ كَلَامٌ يَحْتَاجُ إِلَى مَرَاجَعَةٍ. لَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ نَفْسَهُ إِنَّ الْمُجْتَهِدَ قَدْ يَصِيبُ، وَقَدْ يَخْطِئُ. أَيْ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ ضَمَانٌ مُطْلَقٌ بِالصَّوَابِ، إِنَّمَا هِيَ اجْتِهَادَاتٌ وَمَحَاوَلَاتٌ مَعَ الْأَمَلِ فِي التَّوْفِيقِ. وَهَذَا يُمْكِنُ أَنْ نَجِدَ بَابًا لَهُوْ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ الْبَحْثِ وَالتَّقْصِي وَالتَّجَرُّدِ الْمَخْلَصِ وَالدَّابِّ فِي السَّعْيِ وَرَاءَ الْحَقِيقَةِ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ مِمَّنْ اجْتَهَدُوا فَأَخْطَأُوا الْهَدَفَ. لَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَعْلَمُ مَدَى اسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْغُفْرَانِ وَالْمَسَاحَةِ أَوْ لَا. أَمَا نَحْنُ فَيَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ قُدْرَتَنَا وَحُدُودَنَا وَلَا نَفْتِشَ عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ كَمَا تَرِيدُ مَنَا كَارِلَا بَابُورَ أَنْ نَفْعَلَ. يَقُولُ تَعَالَى: "وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا". لَكِنْ هَذَا لَا يُلْغِي الْمَبْدَأَ الْعَامَّ الَّذِي يَنْصُصُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَرْطًا لِلنَّجَاةِ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَتْهُ تِلْكَ الرِّسَالَةُ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَغْشَى عَقْلَهُ فَيَمْنَعُهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ بِشَأْنِهَا وَشَأْنِ صَاحِبِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ سَبَقَ أَنْ فَصَلْتُ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي عِدَّةٍ مِنْ كِتَابِي الَّتِي نَشَرْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ. وَأُظَنُّ أَنَّ كَارِلَا بَابُورَ تَدْخُلُ فِيمَنْ أَتَيْتُ لَهُمُ الْفُرْصَةَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ، مِنْ خِلَالِ مَحَاوِرَاتِنَا الَّتِي لَا تَنْتَهِي مَعَ الشَّيْخِ النَّدَوِيِّ

وتفصيلها كل صغيرة وكبيرة في القرآن والحديث بحيث لا يمكن الزعم بأن هناك ما غشّى على عقلها وحجب عنها رؤية الحقيقة. ومع هذا فإنني أحس أنها لم تكن يوماً من الساعين لمعرفة تلك الحقيقة بل لسوق الشيخ بالخنجل والمنجل لقول ما تريده مما ينشر الاضطراب في مفاهيم المسلمين ويعكر صفو عقيدتهم. أليس الأمريكيان هم أصحاب فكرة "الفوضى الخلاقة"؟ لكن هل رأى أحد منا يوماً فوضى خلاقة؟ أرجوكم وألحف في الرجاء أن تدلونى على أراضى تلك الفوضى الخلاقة الأمريكية حتى أذهب إليها وأملّي العين من منظرها، ولكم منى جزيل الشكر وخالص الدعاء!

والملاحظ العجيب أن د. ندوى لم يخطر له قط أن يناقشها في توجهها الدينى والسياسى بنفس الأسلوب الذى تناقشه بل ترهقه به، وكأنها ليس عندها شيء يمكن أن يكون محل انتقاد أو حتى ملاحظة عابرة لأن كل ما لديها كامل ليس فيه عيب. ومع هذا نراه يلج على واجب المسلمين في دعوة الآخرين إلى الإسلام. بل إنه ليصل إلى هذا الذى قلته آنفاً بقوله إن هناك أملاً في نجاة من توصل إلى الإيمان بالله وحده باجتهاده الخاص لعدم وجود أى مسلم حوله يمكن أن يستعين به، ومن ثم مات على اعتقاده ذاك دون أن يدخل دين محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يعرف أن هناك ديناً اسمه "الإسلام" ولا أن هناك كتاباً اسمه "القرآن". وهو ما علقت عليه كارلا باور مداعبةً بها معناه أنه لو كان هناك بصيص من أمل في نجاة غير المسلمين فلربما كان من نصيب أحد الناسكين، أى العباد المنعزلين عن الناس وعن الحياة ولا يتصلون بأحد ولا يعرفون شيئاً مما يدور حولهم: "In other words, among non-Muslims, only a hermit might have a shot at salvation. In the Sheikh's estimation, if one knew about the Prophet Muhammad's message and turned away from it, even if one turned toward another faith, one cannot be a true believer".

وبمناسبة كلام د. أكرم عن وجوب قيام المسلمين بالدعوة إلى دينهم أحب أن ألفت الانتباه إلى أن الدعوة الكلامية رغم أهميتها تحتاج إلى دعوة فعلية تدعمها وتجعل تأثيرها أقوى وأنجع وأيسر. والمقصود بالدعوة الفعلية أن يكون الداعية في فكره ومشاعره وأخلاقه وتصرفاته متبعاً لما يقوله الإسلام، وإلا فما معنى أن أدعو الآخرين إلى شيء أنا أول من يهمل الأخذ به؟ فعلى من يدعو الأوربيين مثلاً ألا يكون أقل منهم فكراً وعلماً وذوقاً وسلوكاً قوياً. ذلك أن النتيجة المترتبة على إهمال الداعية لتعاليم الإسلام هي تشكك المدعويين في صدق ما يقال لهم عن عظمة هذا الدين، إذ سوف يكون أول سؤال، وهو سؤال منطقي ووجيه: إذا كان دينكم بهذه العظمة وذلك الجمال الذى تصفونه به فلماذا لا تظهر عليكم حلاوته وإشراقته إذن؟ الواقع أنه من الصعب على عموم الغربيين الإصاحبة إلى

دعوة الإسلام بسبب تردى حال أهله بوجه عام، وبالذات في مجال النظافة والجد والاجتهاد والتفكير المستقل المبدع والسياسة حيث يسود الاستبداد بينهم وتقمع الحريات وتهان الكرامات. ومن الصعب بوجه عام على أى متقدم متحضر أن يطيع من هو أقل منه تحضرا وتقدما.

لقد كنت أنا وزميل لى بالجامعة، ونحن لا نزال ننقل خطواتنا الأولى بها، نتناقش يوما حول برتراند راسل ولماذا لم يسلم، وماذا سيكون مصيره يوم القيامة حين يذهب للقاء ربه وهو لم يقتنع بالإسلام؟ كان ذلك بمناسبة ظهور ترجمة سيرته الذاتية في مصر في تلك الأيام وانشغال الرأى العام المثقف بها. وكان رأى أنه ربما لم تتح له فرصة لمعرفة الإسلام، فهو من بيئة أوربية تؤمن عموما بما يقوله المستشرقون والمبشرون عن ديننا ورسولنا وكتابنا عما لا يساعد على إيقاظ الذهن والتفكير في طبيعة ذلك الدين الحقيقية والتعرف إلى محاسنه عند كثير من الناس. وكان رأى زميلى أنه سوف يعاقب لأنه لم يدخل الإسلام. فقلت إن أمثاله إنما يعرفون الإسلام من خلال كتابات المستشرقين والمبشرين المعادية المتحاملة. كما أن الفجوة الحضارية بين الغرب وبيننا تجعل تواضع الغربيين أمرا شديدا الصعوبة. ثم اتضح لى بعد ذلك أن راسل له كتاب في تاريخ الفلسفة الغربية: "A History of Western Philosophy" يشتمل على فصل ضاف عن الإسلام. كما علمت أيضا أنه كان له خال مسلم، وأنه كان لا يستلطف هذا الخال، الذى ذكر في ترجمته الذاتية أنه كانت تشب بينه وبين خال له آخر قسيس مجادلات حادة.

ومثل راسل في ذلك هربرت جورج ويلز العالم الطبيعى والروائى والمؤرخ المعروف، الذى كتب، في تاريخه الموجز للعالم: "A Short History of the World"، فصلا غير قصير عن الإسلام أثنى فيه على النبى في بعض الأمور، وانتقده انتقادا شديدا في ذات الوقت في بعض الأمور الأخرى. ولم يكن سهلا على واحد مثله، فيما أتصور، النجاة التامة من تأثيرات الوسط الذى نشأ فيه والثقافة التى تلقاها والقيم التى يعتز بها، فضلا عن انتائه إلى أكبر إمبراطورية في العالم وقتئذ يخضع بل يخضع لها كثير من بلاد العرب والمسلمين خنوعا تاما حتى لقد عاب النبى عليه السلام من الناحية الجنسية متجاهلا أنه كان صلى الله عليه وسلم مثال العفة والطهارة، أما هو فلم يكن مستقيم الأخلاق، إذ كان يخون امرأته مع سكرتيرته في مكبه ومعمله لدن غياب الزوجة. وهو ما استغربه أشد الاستغراب. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد هاج المسلمون في بريطانيا والهند وغيرها من البلاد التابعة للتاج البريطانى احتجاجا على صدور ترجمة ذلك الكتاب في الهند باللغة الهندوستانية. فكانت هناك تظاهرات عنيفة وحرق

لنسخة منه في لندن غضبا لما كتبه مؤلفه عن الرسول الكريم. وكان ذلك في أواخر ثلاثينات القرن المتصرم.

على أن ليست النفوس البشرية قطعية واحدة بل تختلف فيها بينها اختلافا شديدا، ودائما هناك لكل قاعدة شواذ. ومن هذا الوادى الشاعر والأديب والفيلسوف الألماني جوته، الذى سبق ويلز وراسل بوقت طويل والذى تعرف إلى الإسلام من خلال بعض الترجمات الأوربية لكتابه المجيد، فأحبه وأحب رسوله وكتب عنهما وعن الشعر العربى بإعجاب وانبهار. بل هناك من يقول إنه كان فى الواقع مسلما. وقد صرح بأنه إذا كان الإسلام هو ما يعرفه مما قرأه فى القرآن، فكلنا مسلمون كما قال. وهذا ما ينطبق على الساسة والمفكرين والفلاسفة والفنانين والصحافيين والرياضيين الذين يعتقدون الإسلام هذه الأيام رغم الحملات العاتية التى تشن فى الغرب على هذا الدين ورغم الكراهية والعداء اللذين يحظى بهما الإسلام وأتباعه هناك، بل رغم الأوضاع المزرية التى تسود بلاد المسلمين ولا تجعلهم موضع جاذبية. ولا شك أن هذه الظروف والعوامل المعاكسة تحسب فى صالح أولئك المتحولين رغم ذلك إلى الإسلام.

وإذا صح ما تقوله كارلا باور عقيب ذلك عن د. ندوى: "But still, even many Muslims seemed to be ignoring Muhammad's teachings, said the Sheikh. It was simply human nature to focus on the most recent prophet: "The Jews took Musa to be more important than the religion of Ibrahim," he noted. "The Christians ignored earlier Prophets, and now the Muslims are ignoring the teachings of the other Prophets in favor of Muhammad" من أنه يأخذ على المسلمين إهمالهم تعاليم الأنبياء السابقين ويدينهم جراء ذلك بشدة فلست أوفقه عليه. ذلك أن تعاليم نبينا قد تضمنت تعاليم الأنبياء السابقين عليه وزادت عليها زيادة كبيرة. ومن ناحية أخرى فإن تعاليم أولئك الأنبياء صلوات الله وسلاماته عليهم قد ضاعت لأن الكتب التى فى أيدي اليهود والنصارى قد تم العبث بها كما يقول القرآن الكريم. وفى كل الأحوال فإن المسلم يطالعها ويعرفها على وجهها الصحيح من خلال قراءته للقرآن أو من خلال ما يقوله علماء الإسلام، وإن كان ذلك فى خطوطها العامة. وبالمثل لا ينبغي أن يغيب عن فطنة الشيخ أن كثيرا من تشرعات الأنبياء السابقين قد نسخها الإسلام، فلا لزوم لشغل العقل المسلم العادى بها. أما العلماء فهم لا يكفون عن قراءة الكتاب المقدس ويقارنون بينه وبين القرآن. كذلك لا أدرى كيف فات الشيخ موقف النبى من عمر مثلا حين رآه ينشغل بورقة من التوراة، إذ غضب منه قائلا: "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ لو كان موسى حيا لما وسعه إلا أن يتبعنى". وبالمثل فإننى أستغرب أن ينسى الشيخ

أكرم ندوى أن النبي محمدا ليس نبيا عاديا. إنه نبي عبقرى عملاق: "فُضِّلْتُ على الأنبياء بسبب: أُعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأُحِلَّتْ لى الغنائم، وجُعِلَتْ لى الأرض طهورا ومسجدا، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بى النبىون". ولو أجرينا مقارنة بين محمد وسائر الأنبياء لهالنا الفرق بين دينه وأديانهم. المسلمون إذن يؤمنون بالأنبياء السابقين وكتبهم ويحلوونهم ويعرفون أن إيمانهم لا يصح إلا بتصديقهم واحترامهم. وكلام الشيخ فى هذا المجال يشبه ما يمكن أن يقوله بعضهم من أن الحاصل على درجة الدكتورية ينبغى أن يرجع إلى مطالعة كتب المرحلة الابتدائية والإعدادية، وإلا لم يكن دكتورا. ترى كيف يكون ذلك، والكتب التى يقرؤها الآن تشتمل على كل ما سبق من كتب مدرسية بسيطة موسعا مفصلا معمقا مواكبا لنضجه مناسبا لخبرته وعقله الكبير؟ والواقع أن المشكلة إنما تكمن فى جهل المسلمين بدينهم وعدم إدراكهم قيمة الكنوز العبقريّة التى يتضمنها بسبب انشغالهم باللحى والنقاب وتقصير الثياب والإيمان بالعين والحسد إيانا مرضيا يشل العقل. فينبغى التركيز على ذلك الجانب.

كذلك تظن الكاتبة أن قوله تعالى من سورة "العنكبوت": "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم. وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون" يعضد ما تقوله من أن أهل الكتاب ناجون يوم القيامة. ولا أدرى ما العلاقة بين هذه الآية وما تقوله الكاتبة من دعواها أن القرآن يشتر غير المسلمين بالنجاة فى الآخرة، تلك الآخرة التى لا تؤمن بها الكاتبة، ومع ذلك تشغل نفسها بها كل هذا الشغلان مما يثير الريبة فى أمرها كله. إن الآية الكريمة تنهى المسلمين عن جدال أهل الكتاب بخشونة أو غلظة. كما تأمرهم بإبراز ما يتميزون به عن وعلى أهل الكتاب، وهو إيمانهم بكل الأوحاء السماوية فى الوقت الذى لا يؤمن أهل الكتاب بالوحى القرآنى، ناهيك عن أن الوحى السماوى الذى نزل على نبييهما قد لحقه العبث. فهل يجد القارئ فى الآية ما توهنا الكاتبة أنها تتضمنه؟ لا ثم لا ثم لا. إن الإسلام يدعو دائما إلى التعايش السلمى بين أصحاب الديانات المختلفة. لكن المشكلة تكمن فى أنهم لا يريدون أن يروا الإسلام أمام أعينهم لأنه قذى لها. فالكاتبة إذن تقلب الأمر رأسا على عقب وتبذل دائما جهدها لإيهام القارئ أن المشكلة فى المسلمين لا فى أهل الكتاب. وهى منها خطة غير كريمة!

كذلك فالإله الذى يؤمن به اليهود أو النصارى يختلف عن مفهوم الإله فى الإسلام: الإله فى اليهودية هو إله بنى إسرائيل وحدهم، فهو حكر عليهم. وفى النصرانية هو أقنوم من أقانيم ثلاثة: الأب

والابن والروح القدس. أما في الإسلام فهو رب العالمين من مسلمين ويهود ونصارى ومجوس ومشركين. كما أنه واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وهو لم ولا ولا يمكن أن يتجسد أو يموت أو يصلب. وإذا كان الرسول قد كتب صحيفة للتعایش السلمي والتعاون بين مواطني المدينة أول مهاجرة إليها فإن ذلك لا يعنى بتاتا أنه يقر بصحة دين اليهود والنصارى كما تريد منا الكاتبة أن نؤمن، بل يعنى أن الإسلام يحترم اختيارات الآخرين ويكفلهم إلى ضمايرهم وإلى الحساب الإلهي يوم القيامة. أما هنا فالأرض تسع من الأحبة ألقا. وليس في صحيفة المدينة ما يشير ولو من بعد بعيد إلى أن الإسلام يعد أهل الكتاب في التوحيد مثل المسلمين. نعم هم كالمسلمين، لكن ليس في التوحيد بل في حق الحياة آمنين مطمئنين. وللأسف سرعان ما أثبت اليهود أنهم ليسوا مستعدين للتعاون مع أحد، وأنهم ينظرون في أعماق قلوبهم على الغدر والخيانة، مما يدل على أن المشكلة، كما قلنا، ليست في الإسلام كما تعمل الكاتبة على إيهام قرائها بل في غير المسلمين. وهو ما لا تريد أن تتطرق إليه، محاصرة الإسلام والمسلمين طوال الوقت بهدف الإيهام بأن المشكلة فيه وفيهم وليست في مكان آخر ولا في ناس آخرين. صحيح أن القرآن يأمر المسلمين بالقول بأنهم يؤمنون بالذي أنزل إليهم وإلى أهل الكتاب معا، لكن ينبغي ملاحظة أن الكلام هو عما "أنزل" إليهم لا عما "في أيديهم". فهناك فرق ضخم وهائل بين هذا وذاك كما هو واضح مما تتجاهله الكاتبة دائما لغرض بل لأغراض وأغراض في نفس كارلا باور.

وهنا تذكر كارلا باور أنها قابلت كاتبة سينائية آتية من تل أبيب، ودار بينهما حوار حول موقف الإسلام من أهل الكتاب أرادت باور خلاله إقناع السيدة الأخرى بأن الإسلام في ذاته لا يعادى السامية، فردت عليها الكاتبة السينائية الآتية من تل أبيب بأن القرآن يصم اليهود بأنهم قردة وخنازير. تريد أن تقول: إن القرآن يعادى السامية بما لا يمكن تأويله أو تبريره. والواقع أن الإسلام قد أشار فعلا إلى أن الله قد جعل من بعض من لعنهم الله وغضب عليهم قردة وخنازير، وذكر أنهم ممن اعتدوا على السبت. وكان ذلك بعدما مد يده لهم وكتب صحيفة بينهم وبين المسلمين ساوى فيها بين الطرفين وأرسى أسس التعاون بينهما، فما كان من يهود سوى الغدر والخيانة بألوانها المختلفة، وعلى رأسها تحالفهم مع كفار قريش حين أتوا لتدمير الإسلام في غزوة الخندق كما هو معروف، قائلين لهم إن وثنيهم أفضل من الدين الذي أتى به محمد. وبلغ من وقاحة يهود أنهم كلما سمعوا أذان الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا وشبهوا النداء إلى عبادة الله بصوت الحمير مع أن الذي كان ينادى للصلاة هو بلال بصوته الندى الحنون، ورغم الأثر الجميل الذي يتركه الأذان في الأذان والنفوس كما شهد بذلك عدد

من غير المسلمين ممن سمعوه حسبا حكى العقاد في كتابه عن بلال رضى الله عنه، وحسبا قص علينا كل من رشيد رضا وعبد المجيد دربابادى مثالا عند تفسيره لتلك الآية، فضلا عن قولهم عن الله سبحانه متهمين: "إن الله فقير، ونحن أغنياء"، و"يد الله مغلولة". وقد رد الشيخ أكرم ندوى على ذلك الكلام بأنه خاص بطائفة معينة من اليهود في القديم في إيلات أرادت التحايل على حرمة العمل يوم السبت، أما باقى اليهود في تلك المدينة ممن لم يخرقوا حرمة السبت فلم يتعرض لهم القرآن بشيء. وهو ما علقت عليه كارلا باور قائلة إنها، لو لم يكن جواب د. ندوى على الهاتف، لاحتضنته (من الفرحه طبعاً لا لسبب آخر، والعياذ بالله. فالشيخ ليس وسياً). والحمد لله أن الحوار بينهما كان على الهاتف لا مواجهة، وإلا لشاكت بشرتها الأمريكية الرقيقة لحية الشيخ الهندية الخشنة، وأذنتها! ونحن لا يرضينا أذيتها أبداً.

كما لا يصح إغفال أن القرآن لم يصف من أشار إليهم بأنهم قرودة وخنازير، بل حكى ما وقع لهم. وفوق هذا لم يقل إن هذا هو ما حصل لهم، بل تساءل: هل ينبغى أن أنبئكم به؟ وهذا كل ما هنالك، فضلا عن أن كثيرا من المفسرين يقولون بأن طباعهم صارت تشبه طباع القرودة والخنازير لا أنهم صاروا قرودة وخنازير فعلاً. لكن كيف تستغرب السيدة التل أبيبية الأمر، وما هو ذا العهد القديم ذاته يصم بنى إسرائيل جميعاً بما يعتبر كلام القرآن هذا معه بمثابة المداعبة والتبذيل؟ ومعروف عن اليهود أنهم دائماً ما يبوؤون بكراهية الأمم التى يعاشرونها حتى لقد صار هناك مصطلح يختص بدراسة طبيعة ذلك التوتير الذى يشيره وجود اليهود فى أى مكان يحملون فيه، وهو مصطلح "المسألة اليهودية".

وقد ظهرت كتب متعددة تناول ذلك الموضوع من أشهرها الكتاب الذى ألفه كارل ماركس اليهودى، وأكد فيه أن المال هو إله إسرائيل الذى لا ينبغى فى نظرهم أن يوجد معه إله آخر، وأن القومية الخرافية لليهودى هى قومية التاجر الذى لا يعرف سوى المال بشكل عام. وهناك أيضاً هيجل ونيتشة وكازنتزاكى وبرونو باور وجان بول سارتر. وعن كتب عنهم صارخا شاكيا لم يترك منقصة ولا خيانة إلا اتهمهم بها الروائى الروسى الأشهر ديستوفسكى. وغريب أن تحول الدول الغربية، التى طالما أنزلت باليهود الولايات جزاء وفاقاً على مؤامراتهم على شعوبها وعلى اقتصاداتها، مدافعة عن اليهود ومتخذة منهم أداة للتكامل بالمسلمين وإيقانهم أسرى الضعف والتخلف بدءاً من التهام معظم فلسطين وتقتيل أهلها وتهجيرهم من بلادهم وهدم بيوتهم على رؤوسهم أمام أنظار العالم جميعها دون أن يتحرك أحد ولا حتى لقول كلمة حق، إلى غير ذلك من ألوان العسف والنكال. وقد وصل التجبر اليهودى فى

العقود الأخيرة من عصرنا هذا إلى الحد الذي ظلوا يضغطون معه حتى صدرت القوانين التي تمنع أى مفكر أو مؤرخ أو سياسى من مراجعة ما يقوله اليهود عما وقع لهم فى ألمانيا المحتلة بعُجره وبُجره، وإلا كان مصيره السجن والغرامة المالية الخائفة. إلا أننا نعتقد أن ذلك لن يدوم إلى الأبد. والأمـر مرهون بيقظة المسلمين وشعورهم بكرامتهم ورغبتهم الحقـة فى استعادة حقوقهم المهضومة، وإلا فهم لا يستحقون الحياة، ولَبَطْنُ الأرض حينئذ خير لهم من ظهرها!

وها هو ذا القانون الحربى الذى ينظم معارك اليهود مع خصومهم كما جاء فى سفر "الثنية" من العهد القديم مما يعطينا فكرة سريعة عن مشاعر اليهود تجاه بقية البشر: ^{١٠} "وَحِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، ^{١١} فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَبِاسْتِعْبَادِكَ. ^{١٢} وَإِنْ لَمْ تُسَالِكَ، بَلْ عَمِلْتَ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. ^{١٣} وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلَيْكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. ^{١٤} وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ. ^{١٥} هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمَدِينِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ هُنَا. ^{١٦} وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلَاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يَعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَصِيبًا فَلَا تَسْتَبِقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، ^{١٧} بَلْ تَحْرِمُهَا تَحْرِيمًا: الْحَشِيشَ وَالْأُمُورِينَ وَالْكَتْنَانِيَيْنِ وَالْفِرَزِيِّينَ وَالْحَوِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ" كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ، ^{١٨} لِكَيْ لَا يَعْلَمُوكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا حَسَبَ جَمِيعِ أَرْجَائِهِمِ الَّتِي عَمِلُوا لِأَهْلِهِمْ، فَتُخْطِئُوا إِلَى الرَّبِّ إِلَهُكُمْ". ولا أدرى كيف سكت د. أكرم ندوى فلم يشر إلى أى شىء من هذا كله وظل راضيا باحتلال ذلك الرُّكْبَنِ الضيق الذى وضعته فيه كارلا باور لا يصنع شيئاً سوى الدفاع، مع أننا نعرف أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم، وبخاصة إذا كان المهاجم على حق، وهجومه سهل ميسور على مَدِّ أصابعه لو أراد.

والآن مع آيات القرآن التى تشير إليها الكاتبة الإسرائيلية، وهى موجودة فى سورة "المائدة": "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا الدِّينَ اتَّخِذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخِذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْفِقُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ". وهذا سبب نزول تلك الآيات حسبما جاء فى تفسير القرطبي: "قال الكلبي: كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت

اليهود: قد قاموا لا قاموا. وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا. وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم. فمن أين لك صباح مثل صباح العير؟ فما أجبه من صوت! وما أسمع من أمر! وقيل: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون تجهيلا لأهلها، وتنفيرا للناس عنها وعن الداعي إليها. وقيل: إنهم كانوا يرون المنادى إليها بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها، جهلا منهم بمتزلتها. فنزلت هذه الآية، وأن معنى قوله تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ" أنهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القباح. روى أن رجلا من النصاري، وكان بالمدينة، إذا سمع المؤذن يقول: "أشهد أن محمدا رسول الله" قال: حرق الكاذب. فسقطت في بيته شرارة من نار وهو نائم فتعلقت بالبيت فأحرقته وأحرق ذلك الكافر معه. فكانت عبرة للخلق، "والبلاء موكَّل بالمنطق". وقد كانوا يمهلون مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى يستفتحوا فلا يؤخروا بعد ذلك. ذكره ابن العربي.

ثم هاهي ذى عينة صغيرة من النصوص الكتابية التي تصم اليهود بكل نقیصة ونسمع فيها دمدمة غضب الرب عليهم كالرعد القاصف: فمن سفر "إشعيا" مثلا: "رُؤْيَا إِشْعِيَاءَ بْنِ أَمُوصَ، الَّتِي رَأَاهَا عَلَى يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ، فِي أَيَّامٍ عُرْيَا وَيُونَامَ وَآحَازَ وَجَزَقِيَا مُلُوكَ يَهُوذَا: ١٢ اِسْمَعِي أَيُّهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْفَى أَيُّهَا الْأَرْضُ، لِأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ: ١٣ وَتَشَأُّنُهُمْ، أَمَّا هُمْ فَعَصَوْا عَلَى ١٤ الثَّوْرِ يَغْرِفُ قَانِيَهُ وَالْحِمَارُ مَغْلَفَ صَاحِبِهِ، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلَا يَعْرِفُ، شَعْنِي لَا يَفْهَمُ. ١٥ وَبَلِّ لِلْأُمَّةِ الْحَاطِئَةِ، الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الْإِنِّمِ، نَسْلَ فَاعِلِ الشَّرِّ، أَوْلَادِ مُفْسِدِينَ! تَرَكُوا الرَّبَّ، اسْتَهَانُوا بِقُدُوسِ إِسْرَائِيلَ، ارْتَدُّوا إِلَى وَرَاءِ. ١٦ هَعَلَى مَ تَضْرِبُونَ بَعْدُ؟ تَزْدَادُونَ زَيْفَانَا! كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ، وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ. ١٧ مِنْ أَسْفَلَ الْقَدَمِ إِلَى الرَّأْسِ لَيْسَ فِيهِ صِحَّةٌ، بَلْ جُرْحٌ وَأَحْبَاطٌ وَضَرْبَةٌ طَرِيَّةٌ لَمْ تُعْصَرْ وَلَمْ تُعْصَبْ وَلَمْ تُلَيَّنْ بِالزَّبْتِ. ١٨ بِلَادُكُمْ خَرِبَةٌ. ١٩ مُدُنُكُمْ مَحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرْضُكُمْ تَأْكُلُهَا غُرْبَاءُ قُدَامَكُمْ، وَهِيَ خَرِبَةٌ كَانَتْ لِبِلَالِ الْغُرْبَاءِ. ٢٠ فَبَقِيَتْ ابْنَةُ صِهْيُونَ كَمِظْلَةٍ فِي كَرَمٍ، كَخَيْمَةٍ فِي مَفْتَأٍ، كَمَدِينَةٍ مُحَاصَرَةٍ. ٢١ لَوْلَا أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا بَقِيَّةً صَغِيرَةً، لَصَرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ.

١١ اِسْمَعُوا كَلَامَ الرَّبِّ يَا قُضَاةَ سَدُومَ! أَصْغُوا إِلَى شَرِيعَةِ إِلَهِنَا يَا شَعْبَ عَمُورَةَ: ١٢ اَلْإِلَهَادَا لِي كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. اَلْمَحْمُتُ مِنْ مَحْرَقَاتِ كِبَاشٍ وَشَحْمِ مُسَمَّنَاتٍ، وَبَدَمِ عُجُولٍ وَخِرْفَانٍ وَثِيُوسٍ مَا أَسْرُ. ١٣ جَيْمًا تَأْتُونَ لِتُظْهَرُوا أَمَامِي، مَنْ طَلَبَ هَذَا مِنْ أَيْدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دُورِي؟ ١٤ لَا تَعْمُدُوا تَائِنُونَ بِتَقْدِمَةِ بَاطِلَةٍ. الْبُخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِي. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنَدَاءُ الْمُخْفَلِ. لَسْتُ أُطِيقُ الْإِنِّمَ

وَالْأَغْتِكَافَ. ^{١٤} رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ تَغْضَتُهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَى ثِقَلًا. مَلِئْتُ حَمَلَهَا. ^{١٥} أَفَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيْدِيَكُمْ أَسْتُرْ عَيْنِي عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثُرْتُمْ الصَّلَاةَ لَا أَسْمَعُ. أَيْدِيَكُمْ مَلَأَتْهُ دَمًا. ^{١٦} اغْتَسِلُوا. تَنْقُوا. اغْرِلُوا شَرَّ أَعْمَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنِي. كَفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. ^{١٧} تَعَلَّمُوا فَعَلَ الْخَيْرِ. اظْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. أَفْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الْإِزْمَلَةِ. ^{١٨} هَلَمْ تَتَحَاجَّجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْفُرُوزِ تَبْيَضُ كَالْفَلَجِ. إِنْ كَانَتْ حُمْرَاءُ كَالدُّودَى تَصِيرُ كَالصُّوفِ. ^{١٩} إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ تَأْكُلُونَ خَيْرَ الْأَرْضِ. ^{٢٠} وَإِنْ أَيْئْتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ بِالسَّيْفِ. لِأَنَّ قَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ. ^{٢١} كَيْفَ صَارَتْ الْقَرْيَةُ الْأَيْمَةُ زَانِيَةً مَلَأَتْهُ حَقًّا. كَانَ الْعَدْلُ يَبِيتُ فِيهَا، وَأَمَّا الْآنَ فَالْقَاتِلُونَ. ^{٢٢} صَارَتْ فِضْطُكَ زَعْلًا وَخَمْرُكَ مَغْشُوشَةً بِهَاءٍ. ^{٢٣} رُؤُوسَاؤُكَ مَتَمَرِّدُونَ وَلَقَعَاءُ اللَّصُوصِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَحِبُّ الرِّشْوَةَ وَيَتَّبِعُ الْعَطَايَا. لَا يَقْضُونَ لِلْيَتِيمِ، وَدَعَوَى الْأَزْمَلَةَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ.

^{٢٤} لِذَلِكَ يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجَنُودِ عَزِيزُ إِسْرَائِيلَ: «آه! إِنِّي أَسْتَرِيحُ مِنْ خُصَمَائِي وَأَنْتَهُمْ مِنْ أَعْدَائِي، ^{٢٥} وَأَرَدْتُ يَدِي عَلَيْكَ، وَأَتَقَى زَعْلَكَ كَأَنَّهُ بِالْبُورْقِ، وَأَنْزِعُ كُلَّ قَصْدِيرِكَ، ^{٢٦} وَأُعِيدُ قَضَائِكَ كَمَا فِي الْأَوَّلِ، وَمُشِيرِكَ كَمَا فِي الْبَدَاءَةِ. بَعْدَ ذَلِكَ تُدْعَيْنَ مَدِينَةُ الْعَدْلِ، الْقَرْيَةُ الْأَيْمَةُ. ^{٢٧} صِهْيُونُ تُقْدَى بِالْحَقِّ، وَتَنْابِئُهَا بِالْبَرِّ. ^{٢٨} وَهَلَاكُ الْمُذْنِبِينَ وَالْخَطَاةِ يَكُونُ سَوَاءً، وَتَارِكُو الرَّبِّ يَفْتَنُونَ. ^{٢٩} لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مِنْ أَشْجَارِ الْبَطْمِ الَّتِي اسْتَهْتُمُوهَا، وَتَحْزُونَ مِنَ الْجَنَائِثِ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا. ^{٣٠} لِأَنَّكُمْ تَصِيرُونَ كَبْطَمَةٍ قَدْ ذَبَلَتْ وَرَقُهَا، وَكَجَنَّةٍ لَيْسَ لَهَا مَاءٌ. ^{٣١} وَيَصِيرُ الْقَوِيُّ مَشَاقَّةً وَعَمَلُهُ شَرَارًا، فَيَخْتَرِقَانِ كِلَاهُمَا مَعًا وَلَيْسَ مَنْ يَطْفِئُ».

وهذا نص آخر، وهو من "مراثي إرميا": كَيْفَ جَلَسْتُ وَخَدَعَهَا الْمَدِينَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّعْبِ! كَيْفَ صَارَتْ كَأَزْمَلَةِ الْعَظِيمَةِ فِي الْأُمَمِ. السَّيِّدَةُ فِي الْبُلْدَانِ صَارَتْ تَحْتَ الْجَزْيَةِ! تَبْكِي فِي اللَّيْلِ بَكَاءً، وَدُمُوعُهَا عَلَى خَدَّيْهَا. لَيْسَ لَهَا مَعَزٌ مِنْ كُلِّ مُحِبِّهَا. كُلُّ أَصْحَابِهَا عَذَّرُوا بِهَا، صَارُوا لَهَا أَعْدَاءً. ^٢ قَدْ شِيتَ يَهُودًا مِنَ الْمَذَلَّةِ وَمِنْ كَثَرَةِ الْعِبُودِيَّةِ. هِيَ تَسْكُنُ بَيْنَ الْأُمَمِ. لَا تَحْمِدُ رَاحَةً. قَدْ أَذْرَكَهَا كُلُّ طَارِدِيهَا بَيْنَ الضِّيَقَاتِ. ^٣ طُرُقُ صِهْيُونِ نَائِحَةٌ لِعَدَمِ الْآتِينَ إِلَى الْعِيدِ. كُلُّ أَبْوَابِهَا خَرِبَةٌ. كَهَشَّتْهَا بَتْنُهُدُونَ. عَذَّرَاهَا مُذَلَّلَةٌ وَهِيَ فِي مَرَارَةٍ. ^٤ صَارَ مُضَايِقُوهَا رَأْسًا. نَجَحَ أَعْدَاؤُهَا لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَذْهَبَ لَهَا لِأَجْلِ كَثَرَةِ ذُنُوبِهَا. دَهَبَ أَوْلَادُهَا إِلَى السَّبْيِ قُدَّامَ الْعَدُوِّ. ^٥ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَنَاتِ صِهْيُونِ كُلِّ بَهَائِثِهَا. صَارَتْ رُؤُوسَاؤُهَا كَأَيَائِلَ لَا تَحْمِدُ مَرْعَى، فَيَسِيرُونَ بِلَا قُوَّةَ أَمَامَ الطَّارِدِ. ^٦ قَدْ ذَكَرْتُ أُورُشَلِيمَ فِي أَيَّامِ مَذَلَّتِهَا وَطَوَّحْتُهَا كُلَّ مُشْتَهَائِهَا الَّتِي كَانَتْ فِي أَيَّامِ الْقِدَمِ. عِنْدَ سُقُوطِ شَعْبِهَا بِيَدِ الْعَدُوِّ وَلَيْسَ مَنْ يَسَاعِدُهَا. رَأَتْهَا الْأَعْدَاءُ. صَحَّجُوا عَلَى

هَلَاكِيهَا. ^٨ قَدْ أَخْطَأْتُ أُورُشَلِيمَ حَظِيَّةً، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ صَارَتْ رَجَسَةً. كُلُّ مُكْرَمٍ مِثْلِهَا يُخْتَرُونَ بِهَا لِأَنَّهُمْ رَأَوْا عَوْرَتَهَا، وَهِيَ أَيْضًا تَنْتَهَدُ وَتَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ. ^٩ نَجَّاسَتُهَا فِي أَذْيَالِهَا. لَمْ تَذْكُرْ آخِرَتَهَا وَقَدْ انْحَطَّتْ انْحِطَاطًا عَجِيبًا. لَيْسَ هَذَا مُعْزَرًا. «انْظُرْ يَا رَبُّ إِلَى مَذَلَّتِي لِأَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ تَعَطَّيْتُ». ^{١٠} «بَسَطَ الْعَدُوُّ يَدَهُ عَلَى كُلِّ مُسْتَهْيَاتِهَا، فَإِنَّهَا رَأَتْ الْأَمَمَ دَخَلُوا مَقْدَسَهَا، الَّذِينَ أَمَرْتُ أَنْ لَا يَدْخُلُوا فِي جَمَاعَتِكَ. ^{١١} «كُلُّ شَعْبِهَا يَنْتَهَدُونَ، يَطْلُبُونَ خُبْرًا. دَفَعُوا مُسْتَهْيَاتِهِمْ لِلْأَكْلِ لِأَجْلِ رَدِّ النَّفْسِ. «انْظُرْ يَا رَبُّ وَتَطَّلِعْ لِأَنِّي قَدْ صِرْتُ مُحْتَقَرَةً».

^{١٢} «أَمَّا إِلَيْكُمْ يَا جَمِيعَ عَابِرِي الطَّرِيقِ؟ تَطَّلِعُوا وَانْظُرُوا إِنْ كَانَ حُزْنٌ مِثْلَ حُزْنِي الَّذِي صُنِعَ بِي، الَّذِي أَذَلَّتْنِي بِهِ الرَّبُّ يَوْمَ حُمُوِّ غَضَبِهِ؟ ^{١٣} «مِنْ الْعَلَاءِ أَرْسَلَ نَارًا إِلَى عِظَامِي فَسَرَتْ فِيهَا. بَسَطَ شَبَكَةً لِرِجْلِي. رَدَّتْنِي إِلَى الْوَرَاءِ. جَعَلَنِي خَرِبَةً. الْيَوْمَ كُلُّهُ مَغْمُومَةٌ. ^{١٤} «شَدَّ نِيرَ ذُنُوبِي بِيَدِهِ، ضَمَّرَتْ، صَعِدَتْ عَلَى عُنُقِي. نَزَعَ قُوَّتِي. دَفَعَنِي السَّيِّدُ إِلَى أَيْدٍ لَا أَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ مِنْهَا. ^{١٥} «كَذَلِكَ السَّيِّدُ كُلُّ مُقْتَدِرِي فِي وَسْطِي. دَعَا عَلَى جَمَاعَةِ لِحْطَمِ شُبَّانِي. دَاسَ السَّيِّدُ الْعَذْرَاءَ بَنَتْ يَهُودًا مِعْصَرَةً. ^{١٦} «عَلَى هَذَا أَنَا بَاكِئَةٌ. عَيْنِي، عَيْنِي تَسْكُبُ مِيَاهًا لِأَنَّهُ قَدْ ابْتَعَدَ عَنِّي الْمُعْزَى، رَأْتُ نَفْسِي. صَارَ بَيْنِي هَالِكِينَ لِأَنَّهُ قَدْ تَجَبَّرَ الْعَدُوُّ».

^{١٧} «بَسَطَتْ صِهْيُونَ يَدَيْهَا. لَا مُعْزَى لَهَا. أَمَرَ الرَّبُّ عَلَى يَغْقُوبَ أَنْ يَكُونَ مُضَايِقُهُ حَوَالِيهِ. صَارَتْ أُورُشَلِيمُ نَجَسَةً بَيْنَهُمْ. ^{١٨} «بَارَ هُوَ الرَّبُّ لِأَنِّي قَدْ عَصَيْتُ أَمْرَهُ. اسْمَعُوا يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ وَانْظُرُوا إِلَى حُزْنِي. عَذَارَايَ وَشُبَّانِي ذَهَبُوا إِلَى السَّبْيِ. ^{١٩} «نَادَيْتُ مُجِيبِي. هُمْ خَدَعُونِي. كَهَنَتِي وَشُيُوخِي فِي الْمَدِينَةِ مَاتُوا، إِذْ طَلَبُوا لِدَوَائِهِمْ طَعَامًا لِيَرُدُّوا أَنْفُسَهُمْ. ^{٢٠} «انْظُرْ يَا رَبُّ، فَإِنِّي فِي ضَيْقٍ! أَحْشَائِي غَلَّتْ. ارْتَدَّ قَلْبِي فِي بَاطِنِي لِأَنِّي قَدْ عَصَيْتُ مُتَمَرِّدَةً. فِي الْخَارِجِ يَنْكُلُ السَّيْفُ، وَفِي الْبَيْتِ مِثْلُ الْمَوْتِ. ^{٢١} «سَمِعُوا أُنِّي تَنْهَدْتُ. لَا مُعْزَى لِي. كُلُّ أَعْدَائِي سَمِعُوا بِبِلَّتِي. فَرَحُوا لِأَنَّكَ فَعَلْتَ. تَأْتِي بِالْيَوْمِ الَّذِي نَادَيْتُ بِهِ فَيَصِيرُونَ مِثْلِي. ^{٢٢} «لِيَأْتِ كُلُّ شَرِّهِمْ أَمَامَكَ. وَافْعَلْ بِهِمْ كَمَا فَعَلْتَ بِي مِنْ أَجْلِ كُلِّ ذُنُوبِي، لِأَنَّ تَنْهَدَاتِي كَثِيرَةٌ وَقَلْبِي مَغْنِيصٌ عَلَيْهِ».

«كَيْفَ غَطَّى السَّيِّدُ بَعْضَهُ ابْنَةً صِهْيُونَ بِالظَّلَامِ! أَلْقَى مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَخَرَّ إِسْرَائِيلُ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَوْطِي قَدَمِيهِ فِي يَوْمِ غَضَبِهِ. ^٢ «ابْتَلَعَ السَّيِّدُ وَلَمْ يَشْفِقْ كُلَّ مَسَاكِينِ يَغْقُوبَ. تَقَضَّى بِسَخَطِهِ حُصُونُ بَنِي يَهُودَا. أَوْصَلَهَا إِلَى الْأَرْضِ. نَجَسَ الْمُلْكَةَ وَرُؤُسَاءَهَا. «غَضِبَ بِحُمُوِّ غَضَبِهِ كُلُّ قَرْنٍ لِإِسْرَائِيلَ. رَدَّ إِلَى الْوَرَاءِ بِيَمِينِهِ أَمَامَ الْعَدُوِّ، وَاشْتَغَلَ فِي يَغْقُوبَ مِثْلَ نَارٍ مُلْتَهَبَةٍ تَأْكُلُ مَا حَوَالَيْهَا. ^٤ «مَدَّ قَوْسَهُ كَعَدُوٍّ. نَصَبَ بِيَعْنَهُ كَمُغْنِصٍ وَقَتَلَ كُلَّ مُسْتَهْيَاتِ الْعَيْنِ فِي خِجَاءٍ بَنَتْ صِهْيُونَ. سَكَبَ كَنَارَ غَيْظِهِ. ^٥ «صَارَ السَّيِّدُ

كَعَدُوا: ابْتَلَعَ إِسْرَائِيلَ. ابْتَلَعَ كُلُّ قُصُورِهِ. أَهْلَكَ حُصُونَهُ، وَأَكْثَرَ فِي بَنَاتِ يَهُوذَا التَّوْحَ وَالْحُزْنَ. ^{١٦} وَنَزَعَ كَمَا مِنْ جَنَّةٍ مَظْلُوتَةٍ. أَهْلَكَ مُجْتَمَعَهُ. أَنْسَى الرَّبُّ فِي صِهْيُونِ الْمَوْسِمِ وَالسَّبْتَ، وَذَكَ بِسَخَطِ غَضَبِهِ الْمَلِكَ وَالْكَاهِنَ. ^{١٧} كَرِهَ السَّيِّدُ مَذْبَحَهُ. رَذَلَ مَقْدِسَهُ. حَصَرَ فِي يَدِ الْعَدُوِّ أَسْوَارَ قُصُورِهَا. أَطْلَقُوا الصَّوْتَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كَمَا فِي يَوْمِ الْمَوْسِمِ. ^{١٨} قَصَدَ الرَّبُّ أَنْ يَبْلِكَ سُورَ بَنَاتِ صِهْيُونِ. مَدَّ الْيَطَّارَ. لَمْ يَزِدْ يَدَهُ عَنِ الْإِهْلَاكِ، وَجَعَلَ الْمِئْرَسَةَ وَالسُّورَ يَتَوَحَّانِ. قَدْ خَرْنَا مَعًا. ^{١٩} تَأَخَّتْ فِي الْأَرْضِ أَبْوَابُهَا. أَهْلَكَ وَحَطَّمْ عَوَارِضَهَا. مَلِكُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا بَيْنَ الْأُمَمِ. لَا شَرِيعَةَ. أَنْبِئَاؤُهَا أَيْضًا لَا يَجِدُونَ رُؤْيَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ. ^{٢٠} شُبُوحُ بَنَاتِ صِهْيُونِ يَجْلِسُونَ عَلَى الْأَرْضِ سَاكِينَ. يَرْفَعُونَ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. يَتَنَطَّقُونَ بِالسُّوْحِ. نَحْنِي عَذَارَى أُورُشَلِيمَ رُؤُوسُهُنَّ إِلَى الْأَرْضِ. ^{٢١} كَلَّمْتُ مِنَ الدَّمُوعِ عَيْنَايَ. غَلَّتْ أَحْشَائِي. انْسَكَبَتْ عَلَى الْأَرْضِ كَيْدِي عَلَى سَخَطِ بَنَاتِ شَعْبِي، لِأَجْلِ غَشْيَانِ الْأَطْفَالِ وَالرُّضْعِ فِي سَاحَاتِ الْقَرْيَةِ. ^{٢٢} يَقُولُونَ لِأُمَهَاتِهِمْ: «أَيْنَ الْخِنْطَةُ وَالْحُمْزُ؟» إِذْ يَغْشَى عَلَيْهِمْ كَجَرِيحٍ فِي سَاحَاتِ الْمَدِينَةِ، إِذْ تُسَكَّبُ نَفْسُهُمْ فِي أَحْصَانِ أُمَهَاتِهِمْ. ^{٢٣} يَبَاذُ أَنْذِرُكَ؟ يَبَاذُ أَحْذَرُكَ؟ يَبَاذُ أَشْهَكَ يَا ابْنَةُ أُورُشَلِيمَ؟ يَبَاذُ أَقَابُكَ فَأَعَزِّيكِ أَيْتَهَا الْعَذْرَاءُ بَنَاتِ صِهْيُونِ؟ لِأَنَّ سَخَطَكَ عَظِيمٌ كَالْبَحْرِ. مَنْ يَشْفِيكَ؟ ^{٢٤} أَنْبِئَاؤُكَ رَأَوْا لَكَ كَذِبًا وَبَاطِلًا، وَلَمْ يَعْلَمُوا إِثْمَكَ لِيُرُدُّوا سِنِيكَ، بَلْ رَأَوْا لَكَ وَجْيًا كَاذِبًا وَطَوَائِحَ. ^{٢٥} يَصِفُّوْكَ عَلَيْكَ بِالْأَيْدِي كُلِّ عَابِرِ الطَّرِيقِ. يَضْفَرُونَ وَيَنْغَضُّونَ رُؤُوسَهُمْ عَلَى بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «أَهْذِهِ هِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّهَا كَمَالُ الْجِبَالِ، تَهْنَأُ كُلُّ الْأَرْضِ؟» ^{٢٦} يَفْتَحُ عَلَيْكَ أَقْوَاهُمْ كُلُّ أَعْدَائِكَ. يَضْفَرُونَ وَيَخْرِقُونَ الْأَسْنَانَ. يَقُولُونَ: «قَدْ أَهْلَكْنَاهَا. حَقًّا إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي رَجَوْنَاهُ. قَدْ وَجَدْنَاهُ! قَدْ رَأَيْنَاهُ». ^{٢٧} فَعَلَ الرَّبُّ مَا قَصَدَ. تَمَّ قَوْلُهُ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مِنْذُ أَيَّامِ الْقِدَمِ. قَدْ هَدَمَ وَلَمْ يَشْفُقْ وَأَشْمَتَ بِكَ الْعَدُوِّ. نَصَبَ قَرْنَ أَعْدَائِكَ. ^{٢٨} صَرَخَ قَلْبُهُمْ إِلَى السَّيِّدِ. يَا سُورَ بَنَاتِ صِهْيُونِ اسْكُبِي الدَّمَاعَ كَتَهْرْتِهَارًا وَلَيْلًا. لَا تُعْطَى ذَاتُكَ رَاحَةً. لَا تُكْفَ حَدَقَةُ عَيْنِكَ. ^{٢٩} قَوْمِي اهْتَظِي فِي اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ الْهَرُوعِ. اسْكُبِي كِيمِيَاهُ قَلْبِكَ قُبَالَةَ وَجْهِ السَّيِّدِ. اذْهَبِي إِلَيْهِ بِيَدَيْكَ لِأَجْلِ نَفْسِ أَطْفَالِكَ الْمُغْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْجُوعِ فِي رَأْسِ كُلِّ شَارِعٍ. ^{٣٠} «أَنْظُرْ يَا رَبُّ وَتَطَّلِعْ بِمَنْ فَعَلْتَ هَكَذَا؟ أَتَأْكُلُ النِّسَاءَ تَمَرُّهُنَّ، أَطْفَالَ الْخِصَانَةِ؟ أَيْقُتِلُ فِي مَقْدِسِ السَّيِّدِ الْكَاهِنِ وَالنَّبِيِّ؟» ^{٣١} اضْطَجَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ فِي الشَّوَارِعِ الصُّبَّانِ وَالشُّبُوحِ. عَذَارَى وَشُبَّانِي سَقَطُوا بِالسَّيْفِ. قَدْ قَتَلْتَ فِي يَوْمٍ غَضَبِكَ. ذَبَحْتَ وَلَمْ تَشْفُقِي. ^{٣٢} قَدْ دَعَوْتَ كَمَا فِي يَوْمِ مَوْسِمِ تَحَارُوفِي حَوَالِي، فَلَمْ يَكُنْ فِي يَوْمِ غَضَبِ الرَّبِّ نَاجٍ وَلَا بَاقٍ. الَّذِينَ حَصَسْتَهُمْ وَزَيَّيْتَهُمْ أَفْنَاهُمْ عَدُوِّي».

ثم هذا نص ثالث، من سفر "هوشع": "قَوْلُ الرَّبِّ الَّذِي صَارَ إِلَى هُوشَعَ بْنِ بِيثْرِي، فِي أَيَّامِ عَزِّيَا وَيُونَامَ وَآحَازَ وَحَزَقِيَا مُلُوكَ يَهُودَا، وَفِي أَيَّامِ يَرْبَعَامَ بْنِ يَوَاشَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ. ^١أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ هُوشَعَ: «أَذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةً زَنَى وَأَوْلَادَ زَنَى، لِأَنَّ الْأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زَنَى تَارِكَةَ الرَّبِّ. ^٢فَذَهَبَ وَأَخَذَ جُومَرَيْنِ دِيبَلَايِمَ، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا، فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «اذْغُ اسْمُهُ يَزْرِعِيلَ، لِأَنِّي بَعْدَ قَلِيلٍ أُعَاقِبُ بَيْتَ يَاهُو عَلَى دَمِ يَزْرِعِيلَ، وَأَيِّدُ مَمْلَكَةَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. ^٣وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنِّي أَكْثِرُ قَوْسَ إِسْرَائِيلَ فِي وَادِي يَزْرِعِيلَ».

^٤ثُمَّ حَبِلَتْ أَيْضًا وَوَلَدَتْ بَنَاتًا، فَقَالَ لَهُ: «اذْغُ اسْمَهَا لُورُحَامَةَ، لِأَنِّي لَا أَعُودُ أَرْحَمُ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ أَيْضًا، بَلْ أَنْزِعُهُمْ نَزْعًا. ^٥وَأَمَّا بَيْتُ يَهُودَا فَأَرْحَمُهُمْ وَأَخْلَصُهُمْ بِالرَّبِّ إِلَهُيهِمْ، وَلَا أَخْلَصُهُمْ بِقَوْسٍ وَبِسَيْفٍ وَبِحَرْبٍ وَبِخَيْلٍ وَبِفَرَسَانٍ. ^٦ثُمَّ قَطَعْتَ لُورُحَامَةَ وَحَبِلَتْ فَوَلَدَتْ ابْنًا، فَقَالَ: «اذْغُ اسْمُهُ لُوعَمَّى، لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ شَعْبِي وَأَنَا لَا أَكُونُ لَكُمْ. ^٧لَكِنْ يَكُونُ عَدَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَمَلِ الْبَحْرِ الَّذِي لَا يَكْأَلُ وَلَا يَعْدُ، وَيَكُونُ عِوَضًا عَنْ أَنْ يَقَالَ هُمْ: لَسْتُمْ شَعْبِي، يَقَالَ هُمْ: أَبْنَاءُ اللَّهِ الْحَيِّ. ^٨وَيَجْمَعُ بَنُو يَهُودَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعًا وَيَجْعَلُونَ لَأَنْفُسِهِمْ رَأْسًا وَاحِدًا، وَيَضَعُدُونَ مِنَ الْأَرْضِ، لِأَنَّ يَوْمَ يَزْرِعِيلَ عَظِيمٌ».

^٩«قُولُوا لِإِخْوَانِكُمْ «عَمَّى» وَلِأَخَوَاتِكُمْ «رُحَامَةَ». ^{١٠}حَاسِبُوا أُمَّكُمْ حَاسِبُوا، لِأَنَّهُمَا لَيْسَتْ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا، لَكِنِّي تَعَزَّلُ زَنَاهَا عَنْ وَجْهَيْهَا وَفَسَقَهَا مِنْ بَيْنِ نَذِييْهَا، لِئَلَّا أَجْرِدَهَا غُرْبَانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيَوْمِ وَلَادَتِهَا، وَأَجْعَلَهَا كَقَفَرٍ، وَأَصِيرَهَا كَأَرْضٍ يَابِسَةٍ، وَأَمِيتَهَا بِالْعَطَشِ. ^{١١}وَلَا أَرْحَمُ أَوْلَادَهَا لِأَنَّهُمْ أَوْلَادُ زَنَى. ^{١٢}«لَأَنَّ أُمَّهُمْ قَدْ زَنَتْ. ^{١٣}الَّتِي حَبِلَتْ بِهِمْ صَنَعَتْ خِزْيًا. لِأَنَّهُمَا قَالَتْ: أَذْهَبْ وَرَاءَ مُحِبِّي الَّذِينَ يَغْطُونَ خُبْرِي وَمَائِي، صُوفِي وَكَتَانِي، زَيْنِي وَأَشْرِيَّتِي. ^{١٤}لِذَلِكَ هَازِنًا أُسَبِّحُ طَرِيقَكَ بِالشُّوْكِ، وَأَنْبِي حَاطِطَهَا حَتَّى لَا تَجِدَ مَسَالِكَهَا. ^{١٥}فَتَسْبُحُ مُحِبِّيَهَا وَلَا تُذَرِكُهُمْ، وَتَنْتَشِ عَلَيْهِمْ وَلَا تَحْجِلُهُمْ. فَتَقُولُ: أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى رَجُلِي الْأَوَّلِ، لِأَنَّهُ جَبِينِي كَانَ خَيْرًا لِي مِنَ الْآنَ».

^{١٦}«وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْ أَنِّي أَنَا أَعْطَيْتُهَا الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيْتِ، وَكَثُرَتْ لَهَا فِضَّةٌ وَذَهَبًا جَعَلُوهُ لِيْعَلْ. ^{١٧}لِذَلِكَ أَرْجِعُ وَأَخْذُ قَمْحِي فِي حَبِيئِهِ، وَمِسْطَارِي فِي وَفْتِيهِ، وَأَنْزِعُ صُوفِي وَكَتَانِي اللَّذَيْنِ لِسَرِّي عَوْرَتِهَا. ^{١٨}وَالْآنَ أَكْشِفُ عَوْرَتَهَا أَمَامَ عِيُونِ مُحِبِّيَهَا وَلَا يَنْقِذُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. ^{١٩}وَأُبْطِلُ كُلَّ أَفْرَاجِهَا: أَعْيَادَهَا وَرُؤُوسَ شُهُورِهَا وَسُيُوتَهَا وَجَمِيعَ مَوَاسِمِهَا. ^{٢٠}وَأُخْرِبُ كَرَمَهَا وَبَيْتَهَا اللَّذَيْنِ قَالَتْ: هُمَا أَجْرَتِي الَّتِي

أَعْطَانِيهَا مُجِبِّي، وَأَجْعَلُهَا وَغَرَا فَيَأْكُلُهَا حَيَوَانُ الْبَرِّيَّةِ. ^{١٣} وَأُعَاقِبُهَا عَلَى أَيَّامِ بَعْلِيمِ الَّتِي فِيهَا كَانَتْ تُبْخَرُ هُمْ وَتَتَرَيْنَ يَخْرَأْنِيهَا وَحُلِيهَا وَتَذْهَبُ وَرَاءَ مُجِبِّيهَا وَتَسْأَلُنِي أَنَا، يَقُولُ الرَّبُّ.

^{١٤} «لَكِنْ هَآنَذَا أَتَمَلَّقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَالْأَطْفُهَا، ^{١٥} وَأُعْطِيهَا كُرْومَهَا مِنْ هُنَاكَ، وَوَادِي عَمُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ. وَهِيَ تُغْنِي هُنَاكَ كَأَيَّامِ صِبَاهَا، وَكَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ^{١٦} وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ الرَّبُّ، أَنَّكَ تَذْعِيبُنِي: رَجُلِي، وَلَا تَذْعِيبُنِي بَعْدَ بَعْلِي. ^{١٧} وَأَنْزِعُ أَسْمَاءَ الْبَعْلِيمِ مِنْ فِيهَا، فَلَا تُذَكَّرُ أَيْضًا بِأَسْمَانِهَا. ^{١٨} وَأَقْطَعُ هُمْ عَهْدًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ حَيَوَانِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَدَبَابَاتِ الْأَرْضِ، وَأَكْثِرُ الْقَوْسَ وَالسَّيْفَ وَالْحَرْبَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَجْعَلُهُمْ يَضْطَجِعُونَ آمِنِينَ. ^{١٩} وَأَخْطُبُكَ لِنَفْسِي إِلَى الْأَبَدِ. وَأَخْطُبُكَ لِنَفْسِي بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالْإِحْسَانِ وَالْمَرَاحِمِ. ^{٢٠} أَخْطُبُكَ لِنَفْسِي بِالْأَمَانَةِ فَتَعْرِفَنِ الرَّبَّ. ^{٢١} وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنِّي أَسْتَجِيبُ، يَقُولُ الرَّبُّ، أَسْتَجِيبُ السَّأَلَاتِ وَهِيَ تَسْتَجِيبُ الْأَرْضَ، ^{٢٢} وَالْأَرْضُ تَسْتَجِيبُ الْقَنَعَ وَالْمِنْطَارَ وَالزَّيْتِ، وَهِيَ تَسْتَجِيبُ يَرْزَعِيلَ. ^{٢٣} وَأَزْرَعُهَا لِنَفْسِي فِي الْأَرْضِ، وَأَزْحُمُ لُورُحَامَةَ، وَأَقُولُ لِلرَّعْمَى: أَنْتَ شَعْبِي، وَهُوَ يَقُولُ: أَنْتَ إِلَهِي.

وَقَالَ الرَّبُّ لِي: «اذْهَبْ أَيْضًا أَحْبِبِ امْرَأَةً حَبِيبَةً صَاحِبَةً وَزَانِيَةً، كَمَحَبَّةِ الرَّبِّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُلْتَمِعُونَ إِلَى إِلَهَةٍ أُخْرَى وَمُحِبُّونَ لَأَقْرَاصِ الزَّيْبِ». «فَاسْتَرَبْتُهَا لِنَفْسِي بِخَمْسَةِ عَشَرَ شَاوِلَ فِصَّةٍ وَبِخُومَرٍ وَلِئِكَ شَعِيرٍ. ^{٢٤} وَقُلْتُ لَهَا: «تَعْمَدِينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً لَا تَزْنِي وَلَا تَكُونِي لِرَجُلٍ، وَأَنَا كَذَلِكَ لَكَ». ^{٢٥} «لَآنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيَقْعُدُونَ أَيَّامًا كَثِيرَةً بِلَا مَلِكٍ، وَبِلَا رَئِيسٍ، وَبِلَا ذُبِيحَةٍ، وَبِلَا تَمَثَالٍ، وَبِلَا أَقْوَدٍ وَتَرَافِيمٍ. ^{٢٦} بَعْدَ ذَلِكَ يَعُودُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَيَطْلُبُونَ الرَّبَّ إِلَهُهُمْ وَدَاوُدَ مَلِكَهُمْ، وَيَفْرَعُونَ إِلَى الرَّبِّ وَإِلَى جُودِهِ فِي آخِرِ الْأَيَّامِ.

اسْمَعُوا قَوْلَ الرَّبِّ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ: «إِنَّ لِلرَّبِّ مُحَاكَمَةً مَعَ سُكَّانِ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ لَا أَمَانَةَ وَلَا إِحْسَانَ وَلَا مَعْرِفَةَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ. ^{٢٧} «لَعْنُ وَكَذِبٌ وَقَتْلٌ وَسِرْقَةٌ وَفَسْقٌ. يَغْتَفِقُونَ، وَدِمَاءٌ تَلْحَقُ دِمَاءً. ^{٢٨} «لِذَلِكَ تَتَوَحَّ الْأَرْضُ وَيَذْبُلُ كُلُّ مَنْ يَسْكُنُ فِيهَا مَعَ حَيَوَانِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، وَأَسْمَاكَ الْبَحْرِ أَيْضًا تَتَسَرَّعُ. ^{٢٩} «وَلَكِنْ لَا يَحَاجِمُ أَحَدٌ وَلَا يَعَاتِبُ أَحَدٌ. وَشَعْبُكَ كَمَنْ يَخَاصِمُ كَاهِنًا. فَتَعْتَرِي النَّهَارَ وَتَعْتَرُ أَيْضًا النَّبِيَّ مَعَكَ فِي اللَّيْلِ، وَأَنَا أُخْرِبُ أَمْكَ. ^{٣٠} قَدْ هَلَكَ شَعْبِي مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ. لِأَنَّكَ أَنْتَ رَفَضْتَ الْمَعْرِفَةَ أَزْفُضَكَ أَنَا حَتَّى لَا تَكْهَنَ لِي. وَلَآنَكَ نَسِيتَ شَرِيعَةَ إِلَهِكَ أَنْتَ أَيْضًا تَبِيكَ. ^{٣١} عَلَى حَسْبِ مَا كَثُرُوا، هَكَذَا أَخْطَأُوا إِلَيَّ، فَأُبَدِّلُ كِرَامَتَهُمْ بِهَوَانٍ. ^{٣٢} يَأْكُلُونَ خَطِيئَةَ شَعْبِي وَإِلَى إِثْمِهِمْ يَجْمِلُونَ نُفُوسَهُمْ.

فَيَكُونُ كَمَا الشَّعْبُ هَكَذَا الْكَاهِنُ. وَأَعَايِفُهُمْ عَلَى طُرْقِهِمْ وَأَرَدُوا أَعْمَاهُمْ عَلَيْهِمْ. ^{١٠} فَيَأْكُلُونَ وَلَا يَشْبَعُونَ، وَيَزْنُونَ وَلَا يَكْتُمُونَ، لِأَنَّهُمْ قَدْ تَرَكُوا عِبَادَةَ الرَّبِّ.

^{١١} الزَّيْنَى وَالْحَمْرَى وَالسَّلَافَةَ تَحْلِبُ الْقَلْبَ. ^{١٢} شَغَبِي يَسْأَلُ خَشْبَهُ، وَعَصَاهُ تُخْبِرُهُ، لِأَنَّ رُوحَ الزَّيْنَى قَدْ أَصْلَهُمْ فَزَنُوا مِنْ تَحْتِ إِلَهِهِمْ. ^{١٣} يَذْبَحُونَ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَيَسْخَرُونَ عَلَى التَّلَالِ تَحْتَ الْبَلُوطِ وَاللَّبْنَى وَالْبَطْمِ لِأَنَّ ظِلَّهَا حَسَنٌ! لِذَلِكَ تَزْنِي بَنَاتُكُمْ وَتَفْسُقُ كَنَاتُكُمْ. ^{١٤} أَلَا أَعَايِبُ بَنَاتِكُمْ لِأَنَّهُنَّ يَزْنِينَ، وَلَا كَنَاتِكُمْ لِأَنَّهُنَّ يَفْسُقْنَ. لِأَنَّهُمْ يَغْتَرُّونَ مَعَ الزَّانِيَاتِ وَيَذْبَحُونَ مَعَ النَّاذِرَاتِ الزَّيْنَى. وَشَغَبٌ لَا يَعْقِلُ يَضْرَعُ. ^{١٥} إِنْ كُنْتُ أَنْتَ زَانِيَا يَا إِسْرَائِيلَ فَلَا يَأْتِمُّ يَهُودًا. وَلَا تَأْتُوا إِلَى الْجِلْجَالِ وَلَا تَضَعُوا إِلَى بَيْتِ آوَنَ وَلَا تَحْلِفُوا: حَيُّ هُوَ الرَّبُّ. ^{١٦} إِنَّهُ قَدْ جَمَعَ إِسْرَائِيلَ كِبْقَرَةً جَاعِيَةً. أَلَا يَرَعَاهُمُ الرَّبُّ كَحَرْوَفٍ فِي مَكَانٍ وَاسِعٍ. ^{١٧} أَفْرَايِمُ مُوثِقٌ بِالْأَصْنَامِ. اثْرُكُوهُ. ^{١٨} مَتَى انْتَهَتْ مُنَادَمَتُهُمْ زَنُوا زَيْنَى. أَحَبَّ نَجَافَتُهَا، أَحَبُّوا الْهَوَانَ. ^{١٩} قَدْ صَرَفَتْهَا الرِّيحُ فِي أَجْنَحَتِهَا، وَخَجَلُوا مِنْ دَبَابِحِهِمْ.

^{٢٠} اِسْمَعُوا هَذَا أَيُّهَا الْكَهَنَةُ! وَانصِتُوا يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ! وَأَصْغُوا يَا بَيْتَ الْمَلِكِ! لِأَنَّ عَلَيْكُمْ الْقَضَاءَ، إِذْ صِرْتُمْ فَخًا فِي مِصْفَاءَةٍ، وَشَبَكَةً مَبْسُوطَةً عَلَى تَابُورٍ. ^{٢١} وَقَدْ تَوَعَّلُّوا فِي دَبَابِحِ الزَّيْغَانِ، فَأَنَا تَأْدِيبُ جَمِيعِهِمْ. ^{٢٢} أَنَا أَعْرِفُ أَفْرَايِمَ. وَإِسْرَائِيلَ لَيْسَ تُخْفِيَا عَنِّي. إِنَّكَ الْآنَ زَيْنَتْ يَا أَفْرَايِمُ. قَدْ تَنَجَّسَ إِسْرَائِيلُ، أَفْعَالُهُمْ لَا تَدْعُهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى إِلَهِهِمْ، لِأَنَّ رُوحَ الزَّيْنَى بَاطِنُهُمْ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الرَّبَّ. ^{٢٣} وَقَدْ أَدْلَتْ عَظْمَةُ إِسْرَائِيلَ فِي وَجْهِهِ، فَيَعْتَرُّ إِسْرَائِيلُ وَأَفْرَايِمُ فِي إِثْمَيْهَا، وَيَعْتَرُّ يَهُودًا أَيْضًا مَعَهُمَا. ^{٢٤} يَذْهَبُونَ بِقَتْمِهِمْ وَيَقْرِهْمُ لِيَطْلُبُوا الرَّبَّ وَلَا يَجِدُونَهُ. قَدْ تَنَحَّى عَنْهُمْ. ^{٢٥} قَدْ عَدَرُوا بِالرَّبِّ. لِأَنَّهُمْ وَلَدُوا أَوْلَادًا أَجْنَبِيَيْنَ، الْآنَ يَأْكُلُهُمْ شَهْرٌ مَعَ أَنْصِبَتِهِمْ.

^{٢٦} اضْرِبُوا بِالْيُوقِ فِي جَبْعَةٍ، بِالْقُرْنِ فِي الرَّامَةِ. اضْرُخُوا فِي بَيْتِ آوَنَ. وَرَأَاكَ يَا بَنِيَامِينَ. ^{٢٧} يَصِيرُ أَفْرَايِمُ خَرَابًا فِي يَوْمِ التَّأْدِيبِ. فِي أَشْبَاطِ إِسْرَائِيلَ أَعْلَمْتُ الْيَقِينَ. ^{٢٨} صَارَتْ رُؤُسَاءُ يَهُودًا كَنَاقِلِ التَّحُومِ. فَاسْكُبْ عَلَيْهِمْ سَخَطِي كَالْمَاءِ. ^{٢٩} أَفْرَايِمُ مَظْلُومٌ مَسْحُوقُ الْقَضَاءِ، لِأَنَّهُ ارْتَضَى أَنْ يَمْضِيَ وَرَاءَ الْوَصِيَّةِ. ^{٣٠} فَأَنَا لِأَفْرَايِمَ كَالْعُثِّ، وَلَيْسَتْ يَهُودًا كَالسُّوسِ.

^{٣١} وَرَأَى أَفْرَايِمُ مَرَضَهُ وَيَهُودًا جُرْحَهُ، فَمَضَى أَفْرَايِمُ إِلَى أَشُورَ، وَأَرْسَلَ إِلَى مَلِكِ عَدُوٍّ. وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفِيَكُمْ وَلَا أَنْ يَزِيلَ مِنْكُمْ الْجُرْحَ. ^{٣٢} لِأَنِّي لِأَفْرَايِمَ كَالْأَسَدِ، وَلَيْسَتْ يَهُودًا كَشَيْبِ الْأَسَدِ. فَإِنِّي أَنَا أَفْقَرُ وَأَمْضِي وَأَخْذُ وَلَا مُنْقِذَ. ^{٣٣} أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي حَتَّى يَجَازُوا وَيَطْلُبُوا وَجْهِي. فِي ضَيْفِهِمْ يَكْتُمُونَ إِلَيَّ.

ثم نص رابع، من سفر "حزقيال": "وَكَانَتْ إِلَى كَلِمَةِ الرَّبِّ قَائِلَةً: ^٦ يَا ابْنَ آدَمَ، عَرَفَ أَوْرُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، وَقُلْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لَأَوْرُشَلِيمَ: تَخْرُجُكَ وَمَوْلَدُكَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكَ أُمُورِي وَأُمُّكَ حِثْيَةٌ. ^٧ أَمَّا مِيلَادُكَ يَوْمَ وَلَدْتَ فَلَمْ تُقَطَّعْ شُرَّتُكَ، وَلَمْ تُغْسَلِ بِالْمَاءِ لِلتَّنْظُفِ، وَلَمْ تَمْلُجْ تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقْمَطْ تَقْمِطًا. ^٨ لَمْ تُشْفَقْ عَلَيْكَ عَيْنٌ لِتَصْنَعَ لَكَ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ لِيَرَقَ لَكَ، بَلْ طَرَحْتَ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكَ يَوْمَ وَلَدْتَ. ^٩ اقْمَرَزْتُ بِكَ وَرَأَيْتُكَ مَدُوسَةً بِدَمِكَ، فَقُلْتُ لَكَ: بِدَمِكَ عَيْشِي. ^{١٠} جَعَلْتُكَ زُبَّةَ كَنْبَاتِ الْحَقْلِ، قَرَبَوْتُ وَكَثُرْتُ، وَبَلَغْتَ زِينَةَ الْأَرْيَانِ. تَهَّدْتُ ذِيَاكَ، وَبَتَّ شَعْرُكَ وَقَدْ كُنْتَ عُربَانَةً وَعَارِيَةً. ^{١١} اقْمَرَزْتُ بِكَ وَرَأَيْتُكَ، وَإِذَا زَمَنُكَ زَمَنُ الْحُبِّ. فَسَطَتْ ذَيْلِي عَلَيْكَ وَسَتَرْتُ عَوْرَتِكَ، وَحَلَفْتُ لَكَ، وَدَخَلْتُ مَعَكَ فِي عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتُ لِي. ^{١٢} فَحَمَمْتُكَ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكَ دِمَاءَكَ، وَمَسَحْتُكَ بِالزَّيْتِ، ^{١٣} وَأَوَّلَبْتُكَ مَطَرَةً، وَتَعَلَّنْتُكَ بِالتَّخْصِي، وَأَزْرَعْتُكَ بِالْكُتَّانِ، وَكَسَوْتُكَ بَرًّا، ^{١٤} وَحَلَيْتُكَ بِالْحُلِيِّ، فَوَضَعْتُ أَسُورَةً فِي يَدَيْكَ وَطَوْقًا فِي عُنُقِكَ. ^{١٥} وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِي أَنْفِكَ وَأَقْرَاطًا فِي أُذُنِكَ وَنَاجَ جَمَالٍ عَلَى رَأْسِكَ. ^{١٦} فَتَحَلَّيْتُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِيَّاسِكَ الْكُتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمَطَرُزُّ. وَأَكَلْتُ السَّمِيدَ وَالْفَسَلَ وَالزَّيْتِ، وَجَهَلْتُ جِدًّا جِدًّا، فَصَلَّحْتُ لِمَمْلَكَةٍ. ^{١٧} وَخَرَجَ لَكَ اسْمٌ فِي الْأُمَمِ بِجَمَالِكَ، لِأَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتَهُ عَلَيْكَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. ^{١٨} فَاتَّكَلْتُ عَلَى جَمَالِكَ، وَزَيَّيْتُ عَلَى اسْمِكَ، وَسَكَبْتُ زَنَّاكَ عَلَى كُلِّ عَائِرٍ فَكَانَ لَهُ. ^{١٩} وَأَخَذْتُ مِنْ ثِيَابِكَ وَصَنَعْتُ لِنَفْسِكَ مُرْتَفَعَاتٍ مُوشَاةَ، وَزَيَّيْتُ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. ^{٢٠} وَأَخَذْتُ أَمْتِئَةً زِينَتِكَ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أُعْطَيْتُكَ، وَصَنَعْتُ لِنَفْسِكَ صُورَ ذُكُورٍ وَزَيَّيْتُ بِهَا. ^{٢١} وَأَخَذْتُ ثِيَابَكَ الْمَطَرُزَّةَ وَغَطَّيْتُهَا بِهَا، وَوَضَعْتُ أَمَامَهَا زِينَتِي وَتَخُورِي. ^{٢٢} وَخُبِرِي الَّذِي أُعْطَيْتُكَ، السَّمِيدَ وَالزَّيْتِ وَالْعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكَ، وَضَعْتُهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُورٍ. وَهَكَذَا كَانَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. ^{٢٣} وَأَخَذْتُ بَيْتِكَ وَبَنَاتِكَ الَّذِينَ وَلَدْنَهُمْ لِي، وَذَبَحْتُهُمْ لَهَا طَعَامًا. أَمْرٌ قَلِيلٌ مِنْ زَنَّاكَ ^{٢٤} أَنْتَكَ ذَبَحْتَ بَنِي وَجَعَلْتَهُمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ هَا؟ ^{٢٥} وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكَ وَزَنَّاكَ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَالِكَ، إِذْ كُنْتَ عُربَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتَ مَدُوسَةً بِدَمِكَ. ^{٢٦} وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شُرِّكَ. وَيَلْ، وَيَلْ لَكَ! يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، ^{٢٧} أَنْتَكَ بَنَيْتَ لِنَفْسِكَ قُبَّةً وَصَنَعْتَ لِنَفْسِكَ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. ^{٢٨} فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتَ مُرْتَفَعَتَكَ وَرَجَسْتَ جَمَالَكَ، وَقَرَّجْتَ بِجُلِيِّكَ لِكُلِّ عَائِرٍ وَأَكْثَرْتَ زَنَّاكَ. ^{٢٩} وَزَيَّيْتُ مَعَ جِيرَانِكَ بَنِي مُضَرِّ الْغِلَاطِ اللَّخْمِ، وَزِدْتِ فِي زَنَّاكَ لِإِعَاظَتِي.

٢٧ فَهَآئِذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي عَلَيْكَ، وَمَنْعْتُ عَنْكَ فَرِيضَتِكَ، وَأَسْلَمْتُكَ لِمَرَامِ مُبِغِضَاتِكَ، بَنَاتِ
 الْفِلِسْطِينِ، اللَّوَاتِي يَجْعَلْنَ مِنْ طَرِيقِكَ الرِّذِيلَةَ. ٢٨ وَزَيْتٌ مَعَ بَنِي أَشُورَ، إِذْ كُنْتَ لَمْ تَشْبَعِي فَرْزَيْتَ
 بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضًا. ٢٩ وَكَثُرَتْ زِنَاكَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَهَذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠ مِمَّا
 أَمَرَضَ قَلْبَكَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتَ كُلَّ هَذَا فَعَلَ امْرَأَةٌ زَانِيَةً سَلِيطَةً، ٣١ يَبْنَانُكَ قُبْتُكَ فِي رَأْسِ كُلِّ
 طَرِيقٍ، وَصُنْعُكَ مَرْتَفَعَتُكَ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقَرَةٌ الْأُجْرَةِ. ٣٢ أَيْتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ،
 تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣ لِكُلِّ الزَّوْائِي يَعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ كُلَّ مُحِبِّكَ هَذَا يَاكَ،
 وَرَشْتِهِمْ لِأَثْرِكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزَّانِيَةِ. ٣٤ وَصَارَ فِيكَ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكَ، إِذْ لَمْ يَزِنْ وَرَاءَكَ،
 بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلَا أُجْرَةً تُعْطَى لَكَ، فَصِرْتَ بِالْعَكْسِ.

٣٥ فَلِذَلِكَ يَا زَانِيَةً اسْمَعِي كَلَامَ الرَّبِّ: ٣٦ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أَتَيْتُكَ مُحَاسِنُكَ
 وَأَنْكَشَفْتُ عَوْرَتِكَ يَزْنَاكَ بِمُحِبِّيكِ وَيَكُلُّ أَصْنَامَ رَجَاسَاتِكَ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكَ الَّذِينَ بَدَلْتِهِمْ لَهَا، ٣٧ لِذَلِكَ
 هَآئِذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتَ هُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكَ
 مِنْ حَوْلِكَ، وَأَكْثِفُ عَوْرَتِكَ هُمْ لِيَنْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكَ. ٣٨ وَأَحْكُمُ عَلَيْكَ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ
 الدَّمِ، وَأَجْعَلُكَ دَمَ السَّخَطِ وَالْعِيرَةِ. ٣٩ وَأَسْلَمُكَ لِيَدِهِمْ فَيَهْدِمُونَ قُبْتُكَ وَيَهْدِمُونَ مَرْتَفَعَاتِكَ، وَيَزْعُمُونَ
 عَنْكَ ثِيَابَكَ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكَ، وَيَزْكُوْنِكَ عُزْيَانَةً وَعَارِيَةً. ٤٠ وَيَضْعِدُونَ عَلَيْكَ جَمَاعَةً،
 وَيَزْجُمُونَكَ بِالْحِجَارَةِ وَيَقْطَعُونَكَ بِسُيُوفِهِمْ، ٤١ وَيَخْرِقُونَ بُيُوتَكَ بِالنَّارِ، وَيَمْجُرُونَ عَلَيْكَ أَحْكَامًا قَدَامَ عُيُونِ
 نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكْفِكَ عَنِ الزَّانَا، وَأَيْضًا لَا تُعْطِينَ أُجْرَةً بَعْدَ. ٤٢ وَأَجِلْ غَضَبِي بِكَ فَتَنْصَرِفْ غَيْرَتِي عَنْكَ،
 فَأَسْكُنُ وَلَا أَغْضَبُ بَعْدَ. ٤٣ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صَبَابِكَ، بَلْ أَسْخَطْتَنِي فِي كُلِّ هَذِهِ، فَهَآئِذَا أَيْضًا
 أَجْلِبُ طَرِيقَكَ عَلَى رَأْسِكَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَلَا تَفْعَلِينَ هَذِهِ الرِّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكَ كُلِّهَا.

٤٤ هُوَذَا كُلُّ صَارِبٍ مِثْلَ يَضْرِبُ مِثْلًا عَلَيْكَ قَانِلًا: مِثْلُ الْأُمِّ بِسَهْلِهَا. ٤٥ إِنَّهُ أَمَّا أَنْتِ، الْكَارِهُةُ
 زَوْجِهَا وَبَنِيهَا. وَأَنْتِ أَخَذْتَ أَخَوَاتِكَ اللَّوَاتِي كَرِهْنَ أَزْوَاجَهُنَّ وَأَبْنَاءَهُنَّ. أَمْكُنْ حُثِيَّةً وَأَبْوَكُنْ أُمُورِي. ٤٦
 وَأَخَذْتُكَ الْكَبِيرَى السَّامِرَةَ هِيَ وَبَنَاتُهَا السَّائِكَةُ عَنْ شِمَالِكَ، وَأَخَذْتُكَ الصَّغْرَى السَّائِكَةَ عَنْ يَمِينِكَ هِيَ
 سَدُومُ وَبَنَاتُهَا. ٤٧ وَلَا فِي طَرِيقِهِنَّ سَلَكْتِ، وَلَا مِثْلَ رَجَاسَاتِهِنَّ فَعَلْتِ، كَأَنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ فَقَطْ، فَكَسَدَتْ
 أَكْثَرُ مِنْهُنَّ فِي كُلِّ طَرَفِكَ. ٤٨ حَتَّى أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنَّ سَدُومَ أَخَذْتُكَ لَمْ تَفْعَلْ هِيَ وَلَا بَنَاتُهَا كَمَا
 فَعَلْتِ أَنْتِ وَبَنَاتُكَ. ٤٩ هَذَا كَانَ إِثْمُ أَخَذْتُكَ سَدُومَ: الْكِبْرِيَاءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخَبِيرِ وَسَلَامُ الْإِطْمِئْنَانِ كَانَ لَهَا
 وَلِبَنَاتِهَا، وَلَمْ تُشَدِّدْ يَدَ الْفَقِيرِ وَالْمُسْكِينِ، ٥٠ وَتَكْبَرْنَ وَعَمِلْنَ الرُّجْسَ أَمَامِي فَزَعَتْهُنَّ كَمَا رَأَيْتِ. ٥١ وَلَمْ

تُخْطِي السَّامِرَةَ نِصْفَ خَطَايَاكَ. بَلْ زِدْتَ رَجَاسَاتِكَ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ، وَبَرَزْتَ أَخَوَاتِكَ بِكُلِّ رَجَاسَاتِكَ الَّتِي
فَعَلْتَ.^{٥٢} فَأَخْبَلِي أَيْضًا خِزْيَكَ، أَنْتِ الْقَاضِيَةُ عَلَى أَخَوَاتِكَ، بِخَطَايَاكَ الَّتِي بِهَا رَجَسْتَ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ. هُنَّ أَبْرَأُ
مِنْكَ، فَأَخْبَلِي أَنْتِ أَيْضًا، وَأَخْبَلِي عَارَكَ بَتِيرِيكَ أَخَوَاتِكَ.^{٥٣} وَأَرْجِعْ سَبِيهَهُنَّ، سَبَى سُدُومَ وَبَنَاتِهَا، وَسَبَى
السَّامِرَةَ وَبَنَاتِهَا، وَسَبَى مَسِييِكَ فِي وَسْطِهَا،^{٥٤} لِيَكُنَّ تَحْمِيلِي عَارَكَ وَتَحْزَى مِنْ كُلِّ مَا فَعَلْتَ بِتَغْزِيَتِكَ
إِيَّاهُنَّ.^{٥٥} وَأَخَوَاتُكَ سُدُومَ وَبَنَاتُهَا يَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ الْقَدِيمَةِ، وَالسَّامِرَةُ وَبَنَاتُهَا يَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ
الْقَدِيمَةِ، وَأَنْتِ وَبَنَاتُكَ تَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِكُنَّ الْقَدِيمَةِ.^{٥٦} وَأَخْنُكَ سُدُومَ لَمْ تَكُنْ تُذَكِّرُنِي فِيمَا يَوْمَ
كِيْرِيَانِكَ،^{٥٧} قَبْلَ مَا انْكَشَفَ شَرُّكَ، كَمَا فِي زَمَانِ تَغْيِيرِ بَنَاتِ أَرَامَ وَكُلِّ مَنْ حَوْهَا، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ
اللَّوَاتِي بِخَيْرَتِكَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.^{٥٨} رَدِّيلْتُكَ وَرَجَاسَاتُكَ أَنْتِ تَحْمِيلِنَهَا، يَقُولُ الرَّبُّ.

٥٩ «لَأنَّه هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: إِنِّي أَفْعَلُ بِكَ كَمَا فَعَلْتُ، إِذَا زِدْتِ بِالْقَسَمِ لِنَكْثِ الْعَهْدِ.
وَلِكَيْ أَذْكُرَ عَهْدِي مَعَكَ فِي أَيَّامِ صَبَاكَ، وَأُقِيمَ لَكَ عَهْدًا أَبَدِيًّا.^{٦٠} فَتَذَكِّرِينَ طُرُقَكَ وَتَحْجَلِينَ إِذَا
تَقْبَلِينَ أَخَوَاتِكَ الْكِبَرَ وَالصَّغَرَ، وَأَجْعَلُهُنَّ لَكَ بَنَاتٍ، وَلَكِنْ لَا بَعْدِيكَ.^{٦١} وَأَنَا أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ،
فَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ،^{٦٢} لِيَكُنَّ تَذَكِّرِي فَتَحْزَى وَلَا تَفْتَحِي فَاكِ بَعْدُ سَبَبَ خِزْيِكَ، حِينَ أَغْفِرُ لَكَ كُلَّ مَا
فَعَلْتَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ».

٦٣ فالكتاب المقدس هو أول كتاب وأكثره معاداة للسامية ما دام شتم اليهود دليلا على تلك المعادة.
على أن العهد القديم لا يكتفى بهذا الشتم المقذع بل يصور أنبياء بنى إسرائيل الكبار قتلة وزناة ومتآمرين
ومناصرين للوثنية في قلب بيوتهم. فهل هناك معاداة للسامية أشد من هذا؟ ولقد شارك النبي يحيى عليه
السلام في هذا الأمر بعبارات يعرفها القاصي والداني كما في النص التالي من "إنجيل متى": "وَفِي تِلْكَ
الْأَيَّامِ جَاءَ يَوْحَنَّا الْمَعْمَدَانُ بِخُرُوفٍ بَرِّيَّةٍ يَهُودِيَّةٍ قَائِلًا: «ثُوبُوا، لِأَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ». ٢٦ فَإِنَّ
هَذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِاشْغِيَاءِ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ
مُسْتَقِيمَةً. ٢٧ وَيَوْحَنَّا هَذَا كَانَ لِيَأْسُهُ مِنْ وَبَرِ الْإِبِلِ، وَعَلَى حَقْوِيهِ مِنْطَقَةٌ مِنْ جِلْدٍ. وَكَانَ طَعَامُهُ جَرَادًا
وَعَسَلًا بَرِّيًّا. ٢٨ حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعُ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَرْدُنِّ، ٢٩ وَاعْتَمَدُوا مِنْهُ
فِي الْأَرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ.

٣٠ فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَالصَّدُوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: «يَا أَوْلَادَ الْآفَاقِي، مَنْ
أَرَأَيْتُمْ أَنْ تَهْتَرَبُوا مِنَ الْغَضَبِ الْآتِي؟ ٣١ فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالْقُوَّةِ. ٣٢ وَلَا تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا
إِبْرَاهِيمُ أَبَا. لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يَقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلَادًا لِإِبْرَاهِيمِ. ٣٣ وَالْآنَ قَدْ وُضِعَتْ

الْقَاسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقَطَّعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. ^{١١} أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِدَاءَهُ. هُوَ سَيَعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَبِالنَّارِ. ^{١٢} الَّذِي رَفَعَهُ فِي يَدِهِ، وَسَيَقِفُ بِيَدِهِ، وَيَجْمَعُ قَمَحَهُ إِلَى الْمَخْرَنِ، وَأَمَّا التَّنُّ فَيَحْرِقُهُ بِنَارٍ لَا تُطْفَأُ.".

وكذلك فعل السيد المسيح إذ وصفهم بها ووصفهم به في النص التالي، وهو من "متى" أيضا:
^{١٣} "حِينَئِذٍ أُخْضِرَ إِلَيْهِ مَجْنُونٌ أَعْمَى وَأَخْرَسُ فَشَفَاهُ، حَتَّى إِنَّ الْأَعْمَى الْأَخْرَسَ تَكَلَّمَ وَأَبْصَرَ. ^{١٤} فَبَيَّتَ كُلَّ الْجُمُوعِ وَقَالُوا: «الْعَلَّ هَذَا هُوَ ابْنُ دَاوُدَ؟» ^{١٥} أَمَّا الْقَرَيْيِسُونَ فَلَمَّا سَمِعُوا قَالُوا: «هَذَا لَا يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ إِلَّا بِعَلَزْبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ». ^{١٦} فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيْتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى ذَاتِهِ لَا يَثْبُتُ. ^{١٧} وَإِنْ كُنْتُ أَنَا بِعَلَزْبُولَ أَخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَنْ يُخْرِجُونَ؟ لِذَلِكَ هُمْ يَكُونُونَ قُضَاةً كُمْ! ^{١٨} وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ اللَّهِ أَخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللَّهِ! ^{١٩} أَمْ كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ الْقَوِي وَيَنْهَبَ أَمْتَعَتَهُ، إِنْ لَمْ يَرْبِطِ الْقَوِي أَوَّلًا، وَحِينَئِذٍ يَنْهَبُ بَيْتَهُ؟ ^{٢٠} مَنْ لَيْسَ مَعِيَ فَهُوَ عَلَيَّ، وَمَنْ لَا يَجْمَعُ مَعِيَ فَهُوَ يَفْرُقُ. ^{٢١} لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ خَطِيئَةٍ وَتَجْدِيفٍ يَغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يَغْفَرَ لِلنَّاسِ. ^{٢٢} وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الْإِنْسَانِ يَغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يَغْفَرَ لَهُ، لَأَنَّهُ هَذَا الْعَالَمُ وَلَا فِي الْآتِي. ^{٢٣} اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ جَيِّدَةً وَثَمَرَهَا جَيِّدًا، أَوْ اجْعَلُوا الشَّجَرَةَ رَدِيَةً وَثَمَرَهَا رَدِيًا، لَأَنَّ مِنَ الثَّمَرِ تُعْرَفُ الشَّجَرَةُ. ^{٢٤} يَا أَوْلَادَ الْآفَاعِي! كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِالصَّالِحَاتِ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْقَلْبَ يَتَكَلَّمُ الْقَلْبُ. ^{٢٥} الْإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنَ الْكَثَرِ الصَّالِحِ فِي الْقَلْبِ يُخْرِجُ الصَّالِحَاتِ، وَالْإِنْسَانُ الشَّرِيرُ مِنَ الْكَثَرِ الشَّرِيرِ يُخْرِجُ الشُّرُورَ. ^{٢٦} وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كُلَّ كَلِمَةٍ بَطَّالَةٍ يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يَعْطُونَ عَنْهَا حِسَابًا يَوْمَ الدِّينِ. ^{٢٧} لِأَنَّكَ بِكَلَامِكَ تَتَبَرَّرُ وَبِكَلَامِكَ تُدَانُ».

^{٢٨} حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْقَرَيْيِسِينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ^{٢٩} فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شَرِيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلَا تُعْطَى لَهُ إِلَّا آيَةُ يُونَانَ النَّبِيِّ. ^{٣٠} لِأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ، هَكَذَا يَكُونُ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الْأَرْضِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ. ^{٣١} رِجَالُ نِينُوى سَيَقُومُونَ فِي الدِّينِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَيَدِينُونَهُ، لِأَنَّهُمْ تَابُوا بِعِمْدَادَةِ يُونَانَ، وَهُوَ ذَا أَكْثَمٍ مِنْ يُونَانَ هَهُنَا! ^{٣٢} مَلِكَةُ التِّيمَنِ سَتَقُومُ فِي الدِّينِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ، لِأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ لِتَسْمَعَ

حِكْمَةً سَلِيانَ، وَهُوَ ذَا أَعْظَمَ مِنْ سُلَيَانَ هَهُنَا! ^{٢٣} إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الْإِنْسَانِ يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، يَطْلُبُ رَاحَةً وَلَا يَجِدُ. ^{٢٤} ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ. فَيَأْتِي وَيَجِدُهُ قَارِعًا مَكْنُوسًا مُرَبَّنًا. ^{٢٥} ثُمَّ يَذْهَبُ وَيَأْخُذُ مَعَهُ سَبْعَةَ أَرْوَاحٍ أُخَرَ أَشْرَ مِنْهُ، فَتَدْخُلُ وَتَسْكُنُ هُنَاكَ، فَتَصِيرُ أَوَاخِرُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ أَشْرَ مِنْ أَوَائِلِهِ! هَكَذَا يَكُونُ أَيْضًا لِهَذَا الْجِيلِ الشَّرِيرِ".

وَمِنْ "مَتَّى" كَذَلِكَ: ^١ حِينَئِذٍ جَاءَ إِلَى يَسُوعَ كَتَبَةٌ وَفَرِيسِيُّونَ الَّذِينَ مِنْ أَوْرُشَلِيمَ قَائِلِينَ: ^٢ "لِمَاذَا يَتَعَدَّى تَلَامِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيُخِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ حِينَ يَأْكُلُونَ خُبْزًا؟" ^٣ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: "وَأَنْتُمْ أَيْضًا، لِمَاذَا تَتَعَدُّونَ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ؟ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْصَى قَائِلًا: أَكْرِمَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يَشْتِمِ أَبَا أَوْ أُمًّا فَلَيْمَتْ مَوْتًا. ^٤ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَتَّبَعُ بِهِ مَتَّى. فَلَا يَكْرِمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. ^٥ فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! يَا مُرَاوُونَ! حَسَنًا تَتَّبَعُ عَنْكُمْ إِسْغِيَاءُ قَائِلًا: ^٦ يَقْتَرِبُ إِلَى هَذَا الشَّعْبِ بِقِيَمِهِ، وَيَكْرَهُنِي بِشَفَتِيهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُتَبَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا. ^٧ وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يَعْلَمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ".

^٨ ثُمَّ دَعَا الْجَمْعَ وَقَالَ لَهُمْ: "اسْمَعُوا وَافْهَمُوا. ^٩ لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْقَلَمَ يَنْجِسُ الْإِنْسَانَ، بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْقَلَمِ هَذَا يَنْجِسُ الْإِنْسَانَ". ^{١٠} حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ تَلَامِيذُهُ وَقَالُوا لَهُ: "أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِيسِيِّينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ تَقَرُّوا؟" ^{١١} فَأَجَابَ وَقَالَ: "كُلُّ عَرْسٍ لَمْ يَغْرُسْهُ ابْنُ السَّمَاءِ وَيَقْلَعُ. ^{١٢} أَتُرَكُّوهُمْ. هُمْ عُمَيَّانَ قَادَتَا عُمَيَّانَ. وَإِنْ كَانَ أَعْمَى يَقُودُ أَعْمَى يَسْقُطَانِ كِلَاهُمَا فِي حُفْرَةٍ". ^{١٣} فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: "فَسَرُّ لَنَا هَذَا الْمَثَلَ". ^{١٤} فَقَالَ يَسُوعُ: "هَلْ أَنْتُمْ أَيْضًا حَتَّى الْآنَ غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ ^{١٥} أَلَا تَفْهَمُونَ بَعْدَ أَنْ كُلَّ مَا يَدْخُلُ الْقَلَمَ يَمْضِي إِلَى الْجُوفِ وَيَنْدَفِعُ إِلَى الْمَخْرَجِ؟ ^{١٦} وَأَمَّا مَا يَخْرُجُ مِنَ الْقَلَمِ فَمِنْ الْقَلْبِ يَصْدُرُ، وَذَلِكَ يَنْجِسُ الْإِنْسَانَ، ^{١٧} لِأَنَّ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شَرِيرَةٌ: قَتْلٌ، زَنَى، فَسْقٌ، سَرَقَةٌ، شَهَادَةٌ زُورٍ، تَجْدِيفٌ. ^{١٨} هَذِهِ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الْإِنْسَانَ. وَأَمَّا الْأَكْلُ بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ فَلَا يَنْجِسُ الْإِنْسَانَ".

وَلِنَسْتَمِعَ إِلَى هَذَا أَيْضًا: ^١ حِينَئِذٍ خَاطَبَ يَسُوعُ الْجَمْعَ وَتَلَامِيذُهُ قَائِلًا: "عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِيسِيُّونَ، ^٢ فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ، وَلَكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لَا تَعْمَلُوا، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ. ^٣ فَإِنَّهُمْ يَخْرِمُونَ أَحْمَالَ ثَقِيلَةً عَمِيرَةَ الْحَمَلِ وَيَضْعُونَهَا عَلَى أَكْتَافِ النَّاسِ، وَهُمْ لَا يَرِيدُونَ أَنْ يَحْمِلُوهَا بِأَصْبُعِهِمْ، ^٤ وَكُلُّ أَعْمَالِهِمْ يَعْمَلُونَهَا لِكَيْ تَنْظُرَهُمُ النَّاسُ: فَيَعْرِضُونَ عَصَائِيَهُمْ وَيَعْظُمُونَ أَهْدَابَ ثِيَابِهِمْ، ^٥ وَيَحْيُونَ الْمُتَكَا الْأَوَّلَ فِي الْوَلَائِمِ، وَالْمُجَالِسَ الْأَوَّلَ فِي الْمَجَامِعِ، ^٦ وَالتَّحِيَّاتِ فِي الْأَسْوَاقِ، وَأَنْ يَدْعُوَهُمُ النَّاسُ: سَيِّدِي سَيِّدِي! وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَا تُدْعَوْنَ سَيِّدِي، لِأَنَّ

مُعَلِّمُكُمْ وَاحِدَ الْمَسِيحِ، وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ. ٩ وَلَا تَدْعُوا لَكُمْ أَبَا عَلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّ أَبَاتَكُمْ وَاحِدَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ١٠ وَلَا تَدْعُوا مُعَلِّمِينَ، لِأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدَ الْمَسِيحِ. ١١ وَأَكْبَرُكُمْ يَكُونُ خَادِمًا لَكُمْ. ١٢ فَمَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَضَعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْفَعُ.

١٣ «لَكِنْ وَبَلِّ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاوُونَ! لِأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ، فَلَا تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ وَلَا تَدْعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ. ١٤ وَبَلِّ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاوُونَ! لَأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الْأَرَامِلِ، وَلِعَلَّيْهِ تَطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ. لِذَلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةَ أَعْظَمَ. ١٥ وَبَلِّ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاوُونَ! لَأَنَّكُمْ تَطْوِفُونَ الْبَحْرَ وَالْبَرَّ لِتَكْسِبُوا دَخِيلًا وَاحِدًا، وَمَتَى حَصَلَ تَضَنُّعُونَهُ ابْنًا لِحَتَمَتُمْ أَكْثَرَ مِنْكُمْ مُضَاعَفًا. ١٦ وَبَلِّ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمَيَّانِ! الْقَائِلُونَ: مَنْ حَلَفَ بِأَهْيَكِلَ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلَكِنْ مَنْ حَلَفَ بِذَهَبِ أَهْيَكِلَ يَلْتَزِمُ. ١٧ أَيُّهَا الْجَهَّالُ وَالْعُمَيَّانِ! أَيُّهَا أَعْظَمُ: أَلَذَّهَبُ أَمْ أَهْيَكِلُ الَّذِي يَقْدُسُ الذَّهَبُ؟ ١٨ وَمَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلَكِنْ مَنْ حَلَفَ بِالْقُرْبَانِ الَّذِي عَلَيْهِ يَلْتَزِمُ. ١٩ أَيُّهَا الْجَهَّالُ وَالْعُمَيَّانِ! أَيُّهَا أَعْظَمُ: أَلْقُرْبَانُ أَمْ الْمَذْبَحُ الَّذِي يَقْدُسُ الْقُرْبَانُ؟ ٢٠ فَإِنْ مَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِكُلِّ مَا عَلَيْهِ! ٢١ وَمَنْ حَلَفَ بِأَهْيَكِلَ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِالسَّكِينِ فِيهِ، ٢٢ وَمَنْ حَلَفَ بِالسَّمَاءِ فَقَدْ حَلَفَ بِعَرْشِ اللَّهِ وَبِالْجَالِسِ عَلَيْهِ. ٢٣ وَبَلِّ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاوُونَ! لَأَنَّكُمْ تُعَشِّرُونَ النَّعْنَعَ وَالشَّيْبَ وَالْكُمُونَ، وَتَرْكُمُ النَّامُوسَ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالْإِيمَانَ. كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلُوا هَذِهِ وَلَا تَتْرَكُوا تِلْكَ. ٢٤ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمَيَّانِ! الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنِ الْبَعُوضَةِ وَيَلْعَنُونَ الْجَحَلَ. ٢٥ وَبَلِّ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاوُونَ! لَأَنَّكُمْ تُنْفُونَ خَارِجَ الْكَأْسِ وَالصَّخْفَةِ، وَهُمَا مِنْ دَاخِلِ تَمْلُوَانِ اخْطَافًا وَدَعَاةً. ٢٦ أَيُّهَا الْفَرِّيسِيُّ الْأَعْمَى! تَنَى أَوَّلًا دَاخِلَ الْكَأْسِ وَالصَّخْفَةِ لِكَيْ يَكُونَ خَارِجَهُمَا».

ليس ذلك فقط بل نقرأ في "Ginzburg's Legends of the Jews, Vol. 6, p.85" أن موسى

قد مسخ بعض الذين اعتدوا في السبت قردة، مسخهم فعلا، لا اعتباريا كما يقول معظم المفسرين المسلمين: "ONE Sabbath breaker was turned into an ape by Moses". وهذا هو النص

كاملا من الكتاب المذكور:

"Legends of the Jews: Moses in the Wilderness [453-462] (which reads: They found Moses in the house of study; this is in agreement with Sifra), and Special. Leg., de Col. Par, 8, describes the episode of the Sabbath breaker in a manner similar to that found in rabbinic sources. According to Tosefta Yebamot 1.10, and parallel passages in Babli and Yerushalmi, the high-priestly family of Caiaphas (KS'p, "ape") hailed from Bet Mekoshesh, "the house of the stick-gatherer". In view of the legend — undoubtedly Jewish — found in Koran 2.60, that Moses transformed the Sabbath breakers into apes, one is inclined to trace some

connection between the Caiafas ("apes") and their place of origin, "the house of the stick-gatherer", the W^{ap}Q being the typical case of the Sabbath breaker. See note 790".

فما القول في هذا؟ هل نقول إن موسى أو الربانيين الذين كتبوا هذا عنه كانوا معادين للسامية؟ وهل تجرؤ السيدة التل أبيبة أو السيدة كارلا باور على مهاجمتهم واتهامهم بتلك التهمة؟ كيف، وهم من بنى إسرائيل ومن كبار رجالهم؟ أم إن الإسلام هو الحائط المائل لكل من هب ودب؟ كذلك جاء في التلمود أن المصريين، عندما كانوا يطاردون العبرانيين، قد مُسِّخُوا قردة وخنازير. فكيف سكنت السيدتان عن هذا الكلام فلم تقيما الدنيا وتقعدها باعتبار هذا القول معادة للمصرية؟ وبالمناسبة فخلال كلام القرآن في سورة "الأعراف" عن المعتدين في السبت من أهل حاضرة البحر الذين كانوا يتحايلون على اصطیاد السمك رغم حرمة ذلك اليوم، والذين أشار إليهم د. أكرم ندوى، لا نجد في القرآن إلا قوله تعالى: "فقلنا لهم: كونوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"، وهو ما يتقارب جدا مع قصة تصوير موسى لبعض المعتدين في السبت قردة حتى لكأنها هي. وأيا ما يكن القول في هذه القضية فقد نزلت هذه الآية في المدينة، واليهود موجودون فيها وسمعوها لأول نزولها وسمعوا المسلمين يرددونها، فلم يفتحوا فمهم بكلمة. ولو كان ما قاله القرآن خطأ لما سكنت يهود، الذين كانوا يتتهزون كل شاردة وواردة كي يسخروا من الإسلام وأتباعه دون أى حياء. فما معنى سكاتهم هذا؟ وبالمثل نقرأ في الكتابات اليهودية قصة تقول إن ثلاثة من بناء برج بابل قد مُسِّخُوا قُرودا: "There was a legend to the effect that of the three classes of men that built the Tower of Babel, one was turned into Apes (Sanh. 109a; compare Yalk., Gen. 62) فكيف نقبل هذه، وندين تلك؟

الإسلام: دين جديد أم لا؟ ودين عدواني أم لا؟

والآن إلى الفصل الثالث عشر: "Beyond Politics". وأول ما يقابلنا منه الحديث عن معنى "الإسلام" في القرآن: أهو دين جديد؟ وهل المسلمون هم أتباعه المختصون به؟ أم إن الإسلام هو مجرد إسلام الوجه لله، والمسلم من يفعل ذلك؟ وتجربنا المؤلف أن أكرم ندوى وافقها على أن المقصود في القرآن هو المعنى الثاني لا الأول. وقد لاحظتُ، عند دراستي للترجمة القرآنية التي قام بها محمد أسد، الصحفي النمساوي اليهودي الذي أعلن إسلامه في عشرينات القرن الماضي في السعودية أيام الملك عبد العزيز آل سعود، أنه يترجم هاتين الكلمتين بنفس المعنى الذي ترجمتهما كارلا باور إليه ووافقها عليه د. ندوى. وإنى لأستغرب ذلك أشد الاستغراب لأن من شأن هذا الفهم الغريب المريب تميع الأمور وتصيير الإسلام الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً هلامياً لا قيمة له ما دامت النجاة مضمونة لكل من يسلم وجهه لله، وما من إنسان حاشا الملحدين إلا وسيقول إنه يسلم أمره لله. أجل سيقول ذلك اليهودي والنصراني والكونفوشيوسي ومن لا يؤمن بأى دين سواى. بل سيقول ذلك عابد البقرة ذاته. أما أن يكون معنى الإسلام هو الدين الذي أتى به نبينا صلى الله عليه وسلم فهذا يستلزم الإيمان به عليه السلام والصلاة والزكاة والصيام والحج على النحو الذى كان صلى الله عليه وسلم يؤدي به هذه العبادات، فضلاً عن الامتناع عن الزنا والخمر والربا والخنزير وغير ذلك من الموبقات، والتألم لما يصيب ذلك الدين من إساءات، والانتفاض للدفاع عنه كلما هدده مهدد.... إلخ.

ولا أدري كيف سارع د. ندوى إلى الموافقة على هذا التفسير العجيب. ترى لو كان الأمر كذلك فلم يشترط القرآن الإيمان بمحمد عليه السلام، ويعد من يرفضه كافراً، ويوم القيامة له عذاب مهين كما جاء في سورة "النساء"؟ ودعنا من الآيات الكثار التي تشدد على الإيمان به صلى الله عليه وسلم وتتوعد من يكذبه وينكر نبوته؟ ولم قامت الحروب عقب وفاته صلى الله عليه وسلم بين المسلمين وكثير من القبائل العربية التي أرادت أن يكون لها نبي من أفرادها أو أن تتحلل من الزكاة مثلاً؟ هل قالوا إنهم لم يعودوا يسلمون أنفسهم لله؟ كلا. فما معنى محاربتهم إذن؟ وما معنى العمل على نشر الإسلام، الذي جاء به محمد منذ أول لحظة أعلن فيها نبوته مروراً بالرسائل التي بعث بها إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الدخول في دينه، وانتهاء بغزوة تبوك، ثم الفتوح العالمية التي قام بها الصحابة بعده عليه الصلاة

والسلام؟ ولماذا يا ترى يعيش أكرم ندوى وأمرته على الطريقة الإسلامية التى حددها القرآن والسنة ولم يكفوا بإسلام أنفسهم لله، وما أسهل ذلك الإسلام؟

ثم لماذا يقال عن الإسلام وحده هذا الكلام العجيب ولا يفكر أحد أن يقوله عن اليهودية أو النصرانية أو عبادة البقر مثلاً؟ ترى هل يقبل اليهودى أن تقول له: دعك من اليهودية لأنها ليست ديناً مستقلاً متميزاً، وتعال نسلم أنفسنا لله ونتخلى عن الإيمان بشعب الله المختار ونأكل الخنزير ولا نهتم بموسى وهارون أو بيت المقدس مثلاً والعودة إليها وطردهم الفلسطينيين المساكين منها وقتل أطفالهم ونسائهم وأبطالهم ونسف بيوتهم على رؤوسهم وسرقة حقوقهم وزيتونهم جراً هذا؟ وما الذى يشغل تلك الصحفية اليهودية فى هذا الموضوع وغيره من الموضوعات التى تفجرها بطول كتابها وعرضه مما يشكك فى كل شىء تقريباً استقر عليه الأمر فى ديننا؟ ترى، إن كانت تحب المسلمين وتعمل لمصلحتهم وتريد أن تعينهم على نيل حقوقهم، فلم لا تترك هذا الأمر، وهى ليست مؤهلة لتناوله ولا يمكنها أن تحسنه أبداً، وتعمل بدلاً من هذا على فضح إسرائيل وأمريكا وتسلط الضوء على المظالم البشعة التى تحيق بالمسلمين، وبالفلسطينيين منهم على وجه الخصوص، على يد أهل وطنها فى أمريكا وأهل دينها فى تل أبيب، وهو الأمر الذى تحسنه أفضل من غيرها وسيكون لكلامها فيه وقع قوى على الغربيين؟ أما مواصلة الحفر حول كل جذور الإسلام وتحته بغية اقتلاعها منع التظاهر بالرغبة فى غميتها فنشكرها عليه ونلتبس منها الإقلاع عنه.

وأغرب من هذا كله، وهو كوثم وحده، أنها تعزو ظهور "أسطورة" صراع الحضارات إلى الإيمان بأن الإسلام دين متميز له شخصيته المستقلة وجماعته المعروفة، وليس مجرد الاستسلام لله، وكأننا نحن الذين اخترعنا تلك الأسطورة لا هم، وكأننا أيضاً نحن الذين نعتدى عليهم منذ قرون. إن المسلمين لم يعرفوا يوماً "صراع الحضارات" على النحو الذى يعرفه الغرب بهدف استئصال الآخرين أو محو هويتهم وإحاقهم به ذيو لا وعبداً حقراء. أجل لم يمح المسلمون أية أمة أو أى دين من على وجه البسيطة كما فعل الغربيون فى الأندلس وأمريكا وأستراليا وفلسطين. لقد فتح المسلمون البلاد ونشروا دينهم، لكن دون إكراه أو خداع، ودون أن يفكروا فى طمس أى دين غير دينهم أو محق أى شعب غير العرب. فانظر كيف تقلب كارلاً باور الأمور وتتحدى المنطق والعقل وصولاً إلى غايتها من التشكيك فى كل ثوابت الإسلام! أما منطقتها العجيب الذى يسرى بين سطورها وتحت حروفها فهو أنه لو تخلى المسلمون عن هويتهم لتركهم الأمريكان فى حالهم ولم يفكروا فى مصارعة حضارتهم. وأنا معها فى أن

تلك سوف تكون النتيجة الحتمية لتخلينا عن هويتنا، إذ لن يكون لنا أوانتد وجود ذو معنى أو قيمة، وسوف نقبل الضرب بالأحذية على رؤوسنا ووجوهنا وأقفائنا دون تذمر أو شكوى بله الدفاع عن أنفسنا أو ديننا. وهذا، فيما يخيل لي بل فيما أرجح بل فيما أنا موقن منه، هو هدف كارلا باور من وراء كل تلك الحقوة الكذابة التي تمارسها علينا على مدى كتابها كله. والملاحظ أن أكرم ندوى يتراجع عما كان يتمسك به من آراء عن الإسلام في عدد غير قليل من الحالات، ويتبنى آراء تلك الصحفية.

وأغرب الغريب أنها توجه كل جهودها نحونا نحن ونحو تغيير معتقداتنا وأصول ديننا، وكأننا نحن المشكلة، رغم أننا المظلومون المضطهدون المسروقون المعتدى عليهم المستنزفة ثرواتهم، في الوقت الذي تترك الأمريكان والأوربيين والإسرائيليين القتل المجرمين في حالهم ولا تحاول التعرض لهم في شيء. لقد اصطنع الأمريكان اصطناعاً أسطورة "صراع الحضارات" كى يبقوا على مجتمعهم متحفزاً مشتعلاً بالبغضاء والكراهية بعدما أسقطوا الشيوعية، فلم يجدوا ما يواجهون نحوه رصاص حقدهم وغلهم سوى الإسلام. لكن كارلا باور تتجاهل هذا كله وتنصحن بالتخلي عن شخصية ديننا والاندماج في الغرب دون تذمر أو سخط، والإكباب على أحذية الأمريكان نلحقها فوق البيعة!

أجل لقد استخدم القرآن المجيد مراراً في الحديث عن منهج الرسل جميعاً كلمة "الإسلام"، إلا أن هذا هو أحد استعمالها فقط، وهو الاستعمال العام، وسببه أن منهجهم جميعاً، عليهم صلوات الله وسلامه، واحد رغم اختلاف شرائعهم في بعض تفاصيلها، أما المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة في القرآن وفي الحديث فهو دين محمد. ونبدأ بالحديث النبوي فنسوق هذه النصوص المشهورة: "بَيَّنَّ الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..."، "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يسلّمه ولا يخذله"، "المسلم على المسلم حرام"، "المسلمون على شروطهم"، "المسلمون تكافأ دماؤهم". أما بالنسبة للقرآن الكريم فإن "الإسلام" في قوله جل جلاله في الآية ١٧ من سورة "الحجرات": "يُمَتُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا. قُلْ: لَا تَمْتُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" لا يمكن إلا أن يكون الدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم.

ومثل ذلك قوله جل شأنه: "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين"، الذي أتى عقب قوله مخاطباً رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام: "قُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ

من ربهم، لا تفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون" مما يدل على أن "الإسلام" في الآية هو دين محمد، وإلا لكانت حاجته لأهل الكتاب لا معنى لها، إذ لو كان "الإسلام" هنا مستعملاً بمعناه العام لكان جوابهم: "ونحن أيضاً مسلمون مثلك سواء بسواء". وبمستطاعتنا أن نستشهد بالآيات التالية أيضاً: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"، "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟"، "ومن أظلم من افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام؟"، "فمن يرِدِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام"، "وَمَا يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا لو كانوا مسلمين"، "إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات... أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً". وفوق ذلك فحين هاجر النبي وأتباعه إلى يثرب وكسب الصحيفة التي تنظم العلاقة بين طوائف المدينة المنورة نراه يسمى أتباعه: "المسلمين" بينما يسمى اليهود بـ "اليهود" ولا يقول عن الفريقين إنها كلاهما مسلم!

وأغرب من ذلك أن د. ندوى يدعو المسلمين إلى الصمت على إهانة القرآن والرسول كما هو الحال في رواية سلمان رشدي والرسوم الكاريكاتورية الدانماركية وغض الطرف عن ذلك والاكتماء بالدعاء لمهينى ديننا العظيم ونبينا الكريم بالهداية مع عدم التظاهر ضدهم أو ضد إجرامهم. وحجته أن القرآن يخلو من الدعوة إلى التظاهر. وهذه حجة ظريفة جداً، فالقرآن أيضاً يخلو من الحديث مثلاً عن السينمات التي يعقدها لطلابها، ترى هل هناك كلام في كتاب الله عن السينمات؟ بل هل توجد فيه تلك الكلمة أصلاً؟ فهل نؤثم الرجل لأنه يفعل شيئاً لم يذكره القرآن؟ ولكن ماذا يقول يا ترى عن أشعار حسان مثلاً التي كان يدافع بها عن الرسول ضد محاولات المشركين واليهود إهانته والنيل منه صلى الله عليه وسلم؟ أو طلب الرسول من حسان وغيره من شعراء المسلمين أن يكفوا ألسنتهم وأقلامهم عن المعتدين ويكفوا بالدعاء لهم كما تصنع أية "ولية ساعة مغربية"؟ ألم ينطلق بعض المسلمين لمعاقبة المجرمين الذين كانوا يهينون المسلمين ونبیهم وأعراضهم ممن لا تستطيع الدولة الوصول إليهم بسلاسة؟ وحين مد أحد المشركين يده في صلح الحديبية وأمسك بلحية الرسول وهو يفاوضه هل سكت المسلمون على هذه الحركة العفوية أم هل انتفضوا وضربوا اليد التي أمسكت باللحية الشريفة وهددوا صاحبها إن عاد لمثلها؟ لقد رأوا في هذا انتقاصاً من مكانته صلى الله عليه وسلم حتى لو لم يكن الانتقاص مقصوداً، فلم يتجاهلوا الأمر ولم يغضوا عليه هوأنا وذلة بل ردوا، وكان ردهم قامعاً خفيفاً.

لا بل إن القرآن نفسه دائما ما يرد على العدوان بمثله فيصف المشركين مثلاً بأنهم كالأنعام بل هم أضلّ، ويقول عن اليهود إنه سبحانه قد جعل منهم القردة والخنازير. فلم ياترى لم يلزم القرآن المسلمين بدلا من ذلك بالدعاء للكافرين؟ والطريف أن د. ندوى بعد قليل سوف يشير إلى سخرية اليهود من صلاة المسلمين في المدينة، لكنه سرعان ما يقفز فوق تلك الحادثة دون أن يذكر الوحي الذي نزل ردا على ذلك الإجماع، وهو قوله تعالى إنه قد جعل منهم القردة والخنازير. فعلام يدل هذا؟ كذلك مما نصح به د. ندوى الشبان المسلمين الغاضبين لنبيهم ودينهم أن يدعوا هؤلاء المعتدين إلى الإسلام. وهذا أمر جميل، لكن فاتته أن دعوة هؤلاء إلى الإسلام تستلزم إقناعهم بأنهم مخطئون فيما قالوه عن الإسلام. فكيف ياترى يتسقى هذا مع نصيحته لأولئك المسلمين الغيورين على دينهم بالصمت وعدم الرد أو المبالاة بها يكتب إهانة للرسول ودينه؟ واضح أن هناك تحبطا واضحا في موقف د. أكرم.

ثم إنه يمضي قائلا إن بريطانيا أعطت المسلمين المقيمين فيها الكثير: أعطتهم ثروتها، وأعطتهم التكنولوجيا. فالمسلمون مجرد آخذين لا يعطون شيئا بالمقابل. وهذا كلام ساذج جدا: فالمسلمون لا يحصلون على صدقات البريطان، بل يعملون كما يعمل غير المسلمين هناك، ويشاركون في كل شيء بدءا من العمل الشاق في حفر أنفاق القطارات تحت الأرض منذ عشرات السنين وانتهاء بالتدريس في الجامعات، كما أنهم يدفعون الضرائب مثلما يفعل غيرهم. أم ترى البريطانى أصدر قانونا بإعفائهم من الضريبة؟ ثم لا ينبغي أن ننسى ما كسحه البريطان من ثروات المسلمين أيام الاستعمار التى امتدت قرونا ولا المساعدات الفعالة والتضحيات الهائلة الحاسمة التى قدمها الضباط والجنود المسلمون أثناء الحرب العالمية لبريطانيا. وفوق هذا فإن البريطانيين فى أية معاهدات اقتصادية بينهم وبين الدول الإسلامية حتى الآن يحصلون على نصيب الأسد.

ولا أدرى لماذا تجاهل الندوى التظاهرات بوصفها مما أعطاه البريطان للمسلمين، ومن حقهم بل من واجبهم احتفال الفرصة والتظاهر حين يكون هناك داع للتظاهر تعبيرا عن مواقفهم السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية ما داموا لا يؤذون أحدا بتظاهرهم أو يوقعون الضرر على أى شيء. أم إنه لا بد أن يأخذ المسلمون على أفئاتهم دون أن ينبسوا ببنت شفة، اللهم إلا بالدعاء لمن ضربهم على قفاهم؟ معنى ذلك هو أن نأخذ من النصارى ما يقوله الإنجيل من مباركة لاعيننا وإدارة خدنا الأيسر لمن صفعنا على خدنا الأيمن بدلا من رد العدوان بمثله أو فى التقليل: الاعتراض على العدوان أو فى أقل القليل: الصياح تعبيرا عن الألم من هذا العدوان، وتركهم يضرّبونا ويهينونا

ويقتلوننا. وهو لون من التخصص لطيف! فمعروف أن الحياة قائمة على التخصص، ويا بخت من بات مغلوبا ومضروبا ومشتوما ومقتولا ومسروقا، ولم يبت غالبا. أى يا بخت من تخصص فى تلقى الضرب والإهانة من غيره وترك التخصص فى إنزال الضرب والإهانة لغيره. وهو مما يغرى المعتدين باستمراء العدوان والتمادى فيه، ويعودنا على الانبطاح وعدم التذمر أو الشكوى أو فتح الفم أصلا. والحق أن مثل تلك الخطة تساعد اللص والقاتل على تأدية مهمته فى سلام واطمئنان وراحة بال دون أن يستعجل فى شىء أو يقلق على شىء. ولو كان المسلمون فى أوروبا وأمريكا انتهجوا هذا النهج لظلوا يسامون أبشع ألوان الخسف والخوان. أما اعتراضهم وفعالياتهم الأخرى ردا على تلك الإهانات والاعتداءات فقد نبهت طوائف كثيرة فى تلك المجتمعات إلى قضيتهم وجعلتهم يعيدون النظر فى الأمر ويقبلون على القرآن المجيد يقرأونه ليعرفوا أصل الحكاية، وهو ما انتهى فى عدد غير قليل من الحالات إلى اعتناق الإسلام.

بل إن بعض الكبار ممن تولى كبر تلك الإهانات قد تحول مسلما بفعل تلك الضغوط المعنوية التى انتهجها المسلمون، ولو كانوا قد أصاخوا السمع لنصيحة أكرم ندوى ما بكت عليهم الساء والأرض ولا أحد من سكان الأرض. ثم هل نسى د. ندوى أن فلسفة الحياة لدى الغربيين تتلخص فى أن القوى يأكل الضعيف؟ فلو استمر المسلمون دور الضعيف لما صح ضمير الغربيين لأن هذا سيكون مصداقا لتلك الفلسفة. أما وقوفهم ضد تلك الاعتداءات فإنه ينبه الغربيين إلى أن المسلمين ليسوا ضعفاء إلى درجة الموت بل هناك بقية من حياة لا تزال تتردد فى أجسادهم وأرواحهم مما يدفعهم إلى معاودة النظر فى فلسفتهم تلك. على أن هذا لا يعنى أن يتفرغ المسلمون للشكوى والتظاهرات، بل عليهم مع هذا كله وقبل هذا كله وبعد هذا كله أن يشاركوا فى خدمة المجتمعات التى يعيشون فيها فيكونوا أحسن العاملين وأتقنهم أداء وأعظمهم إبداعا وأحرصهم على النظافة والنظام واحترام القانون وأكثرهم تعاوناً وأشدهم عطفاً على مستحقى العطف والرحمة. باختصار: عليهم أن يتمسكوا بقيم دينهم. ويدون التمسك بها فإنهم لا يستحقون الاتساع إلى دين محمد عليه الصلاة والسلام.

الواقع أن كلام د. ندوى فى هذه النقطة يذكرنى بما كان يدعو إليه اللورد هتلى الإنجليزى، الذى أعلن تحوله إلى الإسلام فى بدايات القرن العشرين، إذ كان يلح على ألا يفكر المسلمون الذين كانت بريطانيا تحتل بلادهم آنذاك فى الثورة على الإمبراطورية البريطانية، معتبرا ذلك من مفاخر الإسلام، الذى يؤكد هو أنه يرفض تمرد أتباعه على أية دولة تحكمهم مهما كان دينها ومنها صنعت بهم، ويعد ذلك

التمرد أسوأ الآثام التي يمكن ارتكابها. كما يذكرنا بسلام أحمد المتنبئ الهندي القادياني، الذي كان يفاخر بأنه من أخلص رعايا بريطانيا وأنه يدعو المسلمين إلى الخضوع للحكم البريطاني دون تذمر، وحرّم الجهاد على المسلمين في الهند وفي غير الهند حتى لا يفكروا بمجرد تفكير في الثورة على بريطانيا. إنه حلقة في نفس السلسلة، والملامح العامة هي نفس الملامح، والخطوط الأساسية للفكرة هي ذات الخطوط، والسفسطة هي السفسطة، والغاية هي الغاية. ويجد القارئ الكريم أفكار اللورد هيلل في هذا الموضوع في كتابه المشهور: "A Western Awakening of Islam"، أما الهندي ميرزا غلام أحمد، نبي القرن التاسع عشر الكذاب، فمعروفة مواقفه للقاصي والداني، إذ كان حريصاً في كتاباته وفي جميع المناسبات التي تمر به على مهاجمة فكرة الجهاد تقرباً من الإنجليز وتطلعاً إلى الحصول على أموالهم ورضاهم.

أما د. ندوى فيرى أنه لا يصح من المسلم أن يميز بين أخيه المسلم وغير المسلم، فالكل عنده سواء، متناسياً أن معظم كلام الرسول يدور حول المسلم بالدرجة الأولى بما يعنى أن غير المسلم يأتي بعد المسلم، على القاعدة القرآنية التي تقول: "الأقربون أولى بالمعروف". يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه"، "المسلم للمسلم كالبنان: يشد بعضه بعضاً"، "مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"، "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده". على أنى لا أقول إنه لا يصح أن نعطي غير المسلمين شيئاً، بل كل الذي أقوله هو أننا ينبغي أن نبدأ أولاً بالمسلمين مثلما يبدأ غير المسلمين بمساعدة أبناء طائفتهم لا حرج عليهم في ذلك لأن هذا هو الشعور الفطري في مثل تلك الحالة. إن كلام أكرم ندوى أشبه بأن يأتي أحدهم إليه فيقول: "لا يصح أن تميز في التعامل بين أفراد أسرتك وغيرهم في أى شيء". وإذا كان أعضاء حزب العمال مثلاً لا يسوون في التعامل بين منسوبى الحزب وبين أعضاء حزب المحافظين فكيف يطلب أحد من المسلمين ألا يفرقوا في أى شيء بين أبناء دينهم وسواهم؟ إن ثم قيوداً كثيرة تحدد الدائرة التي يتحرك فيها الشخص كالطبقة والدين والقومية والوظيفة والشخصية والجيرة والزمانة والصدقة والقرابة والثقافة وغير ذلك. فمن الصعب جداً قيام تفاهم وارتياح متبادل بين كناس مثلاً ومخرج سينمائي أو بين أستاذ جامعي ومونولوجيست. وبالمثل ليس من السهل أن يكون النصراني على راحته مع مسلم بنفس الدرجة والكيفية التي يكون فيها على راحته مع رجل من أهل دينه. بل إن الصوفي المسلم لا يشعر في صحبة المعتزلي بنفس الدرجة من

الاطمئنان والرضا مع أمثاله من الصوفية. بل إن الأهلاوية لا يجدون أنفسهم في رفقة الزملاوية كما يجدونها في رفقة أنصار ناديتهم.... وهلم جرا.

وبالمناسبة فكلام أكرم ندوى يوحى بأن المسلمين هناك ليسوا بريطانيين. لا يا أخى الكريم، إن كثيرا من المسلمين هناك هم بريطانيون أبا عن جد، وليسوا كلهم ممن هاجروا إليها من الهند أو الباكستان مثلا، فضلا عن أن أولئك المهاجرين الهنود والباكستانيين قد اكتسبوا الجنسية البريطانية، وصاروا بريطانيين، ولا يصح أن يقال لهم إن البريطان أعطوكم التكنولوجيا، إذ هم بريطان أيضا، وهم يشاركون في الإبداع التكنولوجي كسائر أبناء الشعب البريطانى الذى يمثلون جزءا منه. والبريطان لا يتصدقون بجنسيتهم على أحد، بل كل شىء محسوب بالمسطرة والفرجار. كما أنه قد جاء على البريطان يوم كانوا يعيشون فى بلاد المسلمين، ولم يكن يستطيع أحد أن يقول لأى منهم: ثلث الثلاثة كم؟ لأنهم كانوا محتلين مستعمرين بقوة السلاح والعسف والإجرام الذى لا يعرف التفاهم ولا الرحمة. لقد كانوا يعاملون المسلمين بغطرسة وقسوة وغلظة ويسومونهم سوء العذاب والهوان والتحقير. فالهنود والباكستانيون الذين يعيشون فى بريطانيا، مهما يكن فيهم من عيوب وعليهم من ملاحظات، لا يمكن أن يكونوا بالسوء ولا الفظاظة التى كان عليها البريطان أيام كانوا يحتلون بلادهم، ودعك من الإجرام والتوحش اللذين كان البريطان يزاولونها هناك مما لا يمكن أن يدور شىء منه ولو من بعيد بخيال المسلم البريطانى ذى الأصول الآسيوية، بل ولا المسلم البريطانى أبا عن جد.

وبالمناسبة فإنى ممن يعشقون نظافة بريطانيا وديمقراطيتها وعدالتها الاجتماعية وارتقاء مستوى معيشتها ونظامها واستقامة التعاملات فيها واحترام القانون واهتمامها بالعلم والإبداع العقلى والفنى وتجويد العمل وإتقانه وسهر الحكومات على راحة الشعب ومصالحه والامتناع عن عمل أى شىء يمكن أن يتزل به الضرر ويسبب له المعاناة، ولا يسهل على أبدا نكران شىء من حلاوتها وجمالها، وهو ما نلقيه فى كل الدول الغربية واليابان وكوريا الجنوبية، وتشاركها فيه بعض الدول الإسلامية القليلة كماليزيا وتركيا وأندونيسيا مثلا. وليس معنى هذا أن الدول الغربية تخلو من العيوب، والعيوب القاتلة، كالخمر والإباحية الجنسية والشذوذ وانتشار الإلحاد وأكل الخنزير والغطرسة على الشعوب الأخرى والعمل على تأخيرها دائما وسرقة ثرواتها بطرق شيطانية والعدوان عليها بشراسة وهمجية مستغلة الفارق الكبير فى الاستعدادات الحربية بينها وبينهم. وإن ذكرياتى فى أكسفورد ولندن لتلج على إلحاحا عتيفا حتى لأحلم أحيانا بالشوارع التى كثيرا ما ذرعتها أنا وزوجتى وطفلاتنا ندفعها بالتناوب أمامنا وهما

جالسان في كرسيهما المزدوج، وكل شيء حولنا نظيف وجميل ومنظم، والناس جميعا هادئون كل منهم منصرف إلى عمله يؤديه في حب واهتمام. ليس هذا فحسب، بل إنني لأفكر في بريطانيا وأتحدث عنها كما لو كانت وطني الثاني. فأنا حين أقول ما أقول ردا على الندوى لا أقوله من منطلق الكراهية لبريطانيا وأهلها بل من منطلق العدل والفهم السليم والعميق.

ثم يستمر د. أكرم في المغالطة فيقول: "على المسلمين أن يكونوا متسامحين مع أصحاب الأديان الأخرى"، وكأننا نكرههم ونعتدى على حقوقهم ولا نريد لهم الحياة الآمنة. فانظروا واعجبوا. ثم يضرب الأستاذ الدكتور مثلا على ما يريد من المسلمين أن يعملوا فيقول لهم: هل يُقتل من تاجر فتح دكانا يستزق منه أن يصيح في المشرتين ألا يقتربوا من دكانه؟ والسؤال هو: وهل عُهد عن المسلمين أنهم يطردون من يقترب من دينهم يريد التعرف إليه والدخول فيه؟ بل هل هذا هو موضوعنا أصلا؟ لقد كان د. ندوى يتحدث عن الإهانة التي توجه للإسلام والمسلمين ونيهم ورد الفعل الذي ينبغي لهم القيام به، وليس عن رفض المسلمين من يحبون دينهم أو يرغبون في التعرف إليه. لكن د. ندوى يخلط الأوراق فيما هو واضح.

أما الآية التالية من سورة "المائدة": "يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم..." فأنا معه في أنها ليست على إطلاقها بل تعالج موقفا كان اليهود فيه يعادون المسلمين معاداة شنيعة ويضعون أيديهم في أيدي المشركين ويسخرون من عباداتهم... يريد أن يقول إنها لا تريد من المسلمين أن يقاطعوا أهل الكتاب مقاطعة مبدئية، أي لا تريد أن تكون العداوة بينهم وبين أهل الكتاب دائمة لازمة. ولقد كنا في بريطانيا نصاب غير المسلمين وندعوهم إلى بيوتنا، وتعد زوجتي لهم الطعام وتفنن في إعدادة، فنقضي أمسية جميلة معا كنت أزاو لها فيها على راحتي لغتي الإنجليزية ونعيش جوا اجتماعيا لذيذا. وكان بعضهم يرد لنا الدعوة، وبعضهم لا يفعل. ولكني أكذب لو قلت إن الانفتاح بيننا وبينهم كان واسعا، إذ رغم المشترك بين البشر جميعا مما هو إنساني عام هناك اختلافات كثيرة بيننا وبينهم: فهم يشربون الخمر ويأكلون الخنزير ويتراقص الرجال والنساء منهم، ونحن لا نفعل ذلك. وثم قدر من التحرر الجنسي لا يمكننا أن نتعاش معهما كنا متسامحين ومرنين. كما أن هناك اختلافات في الدين والأذواق والسلوك والمواقف من شأنها أن تجعل الاختلاط غير سلس في كل الأحوال. وهم أنفسهم لا يرحبون كثيرا بنا لتلك الاعتبارات ذاتها. ومن ثم أستغرب أن ينادى د. ندوى المسلمين بالانفتاح على البريطانيين تمام الانفتاح. فهذا غير ممكن لا من

جهة المسلمين فحسب بل من جهة غير المسلمين أيضا. وإذا كان هو غير منفتح على إخوانه المسلمين الذين لا يشاطرونه آراءه السياسية والدينية فكيف يتوقع أن يتم هذا بين المسلمين وغير المسلمين في بريطانيا؟

ومن بين مَنْ كُنَّا نُسَرِّ بدعوتنا لهم على العشاء مسرَّ أَدْمَك، التى كانت تعطينى دروسا فى الإنجليزية أول مقدمى أكسفورد، وابنها الشاب الصغير دوجلاس، وماريان السيدة الأسكتلندية التى كانت تصحبنا فى جولات رائعة بسيارتها فنزور معها مكانا يشبه المغارة بعض الشبه كى نمتع أعيننا بزهور البلو بلز (الأجراس الزرقاء)، وتأخذنا فى رحلات قصيرة حول أكسفورد تشرح لنا خلالها كل ما يصادفنا فى طريقنا على نحو شائق جميل. وكان من زوارنا الدائمين مستر نايت، مدرس الإنجليزية الخصوصى لزوجتى، ومصصح رسالة الدكتورى لى، وكان يأخذ جنيتها إسترلينا واحدا فى الحصة، التى لم يكن لها طول محدد، فضلا عن مشاركته لنا فى العشاء. وكانت صحبتة لطيفة تبعث على السرور، وكنا نأنس به، وكان يجلس معنا أطول فترة ممكنة كلما أتى إلينا ليلا، بل كان يشاهد معنا مباريات كأس العالم ١٩٧٨م، وكان بطبيعة الحال يشجع الفرق الأوربية على حين أشجع أنا الفرق اللاتينية دون أن يظهر هو ضيقا من هذا التباين رغم تحزبى الواضح المستفز أحيانا لفرق أمريكا الجنوبية... وهكذا. إذن فليس العبد لله من أنصار مقاطعة غير المسلمين، وبخاصة أن الله، كما أخبرنا فى القرآن المجيد، قد خلق الناس مختلفين، وجعل لكل منا شرعة ومنهاجا. وإنى أفهم الشرعة والمنهاج بمعنى أسلوب الحياة والحضارة. وهذا مظهر من مظاهر الغنى الحياتى الذى جاد به الكرم الإلهى على البشر.

وأحسب أننى منذ وقت بعيد أتصف بشيء من سعة الأفق وأعى أن البشر لا يمكن أن يكونوا على عقيدة واحدة أو دين واحد. وإذا كان أصحاب الدين الواحد مختلفين ومنقسمين فيما بينهم، وإذا كان الفرد الواحد قد يتقلب من مذهب إلى مذهب داخل الدين الواحد، فما بالتأبى لا يشاركونا ديننا؟ لا بد أن يكون الاختلاف أشدَّ وأحدَّ بيننا وبينهم. وإذا كان الله الخالق الرازق قد خلقنا مختلفين كما جاء فى سورة "هود" فكيف نصر على أن يكون الناس جميعا على ملة واحدة؟ هذا غير ممكن. وكنت أحفظ منذ صباى قول سيد الأنبياء: "من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة". بل لست أجد حرجا أى حرج فى تهته أهل الكتاب بأعيادهم مثلما لا يجد بعضهم حرجا فى تهتنا بأعيادنا... وهكذا. وأنا بهذا لا أتمنى أن يثقوا على كراهيتهم أو رفضهم للإسلام بل أتمنى لهم السعادة على مدار العام الجديد. وهذا كل ما هنالك.

وقد دخلت، وأنا صغير بالمعهد الدينى بطنطا، كنيسة فى آخر شارع الحكمة أيام كان شارعاً جديداً، وكانت المناسبة عرساً نصرانياً. كما كنت أشاهد، على أنه أمر عادى، موكب الموتى النصارى يتقدمه القسس والموسيقى النحاسية بشارع القنطرة بوسط المدينة حيث تقع إحدى الكنائس. وكان معى فى المدرسة الأحمدية الثانوية زملاء نصارى يجلسون بجوارنا ونتحدث معاً، وقد تناقش فى الدين دون حساسية على قدر ما أتذكر الآن. وكانت هذه فرصة ليتعرف كل منا على دين الآخر. كما ذهبت ذات مرة مرجعاً من المدرسة، وأنا فى السنة الأولى الثانوية، مع زميل لى نصرانى إلى بيته، فاستقبلتنى أمه استقبالا طيباً، وطلبتُ منهم نسخة من "الإنجيل"، فأعطتنى واحدة أخذت أطلعها فראيت أنها تتكلم عن حكايات وأمور تناولها القرآن، وإن كان الأسلوبان مختلفي الطعم تماماً، فضلاً عن بعض التفصيلات المختلفة هنا أو هناك. ثم فهمت بعد ذلك أن هذا ليس هو "الإنجيل" بل "العهد الجديد"، وهو يضم أربعة أناجيل لا إنجيلاً واحداً علاوة على أعمال الرسل ورسائلهم ورؤيا يوحنا، وأن تسمية "العهد الجديد" تشير إلى كتب بنى إسرائيل التى تشكل "العهد القديم" بمعنى أن هناك عهدين: عهداً قديماً كانت الشريعة فيه متشددة، وعهداً جديداً صارت الشريعة فيه سهلة تركز على الباطن دون الانشغال بالخارج كثيراً، فلم يعد هناك مثلاً رجم للزانى والزانية ولا تحريم للخنزير... إلخ. المهم أن تؤمن يسوع ابنه للآب، أرسله إلى العالم ليكفر عن سيئاته بدءاً بخطيئة آدم الأولى التى تسببت فى إخراجهم من الجنة، وكانت نتيجة ذلك أن مات مصلوباً فداء للبشرية.

وتم نقطة أخرى، فالدكتور ندوى يتحدث عن اليهود والنصارى وكأنهم مسلمون لنا تمام المسألة كلهم أجمعين، وكأنه لا يوجد صليبيون وصهاينة يعادوننا ويؤذوننا وأخذوا فلسطين منا وأعطوها لليهود ظلماً وعدواناً وافتراء على التاريخ والحق، وهو ما تُعتبر معاداة اليهود للنبي والمسلمين فى شرب إلى جانبه شيئاً هيناً لينا، إذ ماذا تساوى تلك العداوة القديمة إزاء التخطيط الدولى الجهنمى الذى يعمل على إبقاء المسلمين متخلفين برزحون تحت نير الاستبداد، الذى يقف معه صليبيو الغرب وصهيونيون إسرائيل؟ وإن لم يعن هذا أن المسلمين أبرياء من المسؤولية، إذ المسؤولية مسؤوليتهم بالدرجة الأولى. وعلى هذا ينبغى ألا نخدع بما قاله أكرم ندوى إذا كان يقصد اليهود والنصارى بإطلاق كما أفهم من كلامه. فهناك فعلاً أهل كتاب لا ضرر من ورائهم، لكن هناك أهل كتاب آخرين يحدون على الإسلام ونيه ومعتقيه حقداً نارياً مدموماً. وهؤلاء ينبغى التعامل معهم بنفس الطريقة التى كان مسلمو المدينة يتعاملون بها مع اليهود آنذاك.

وليس معنى هذا أن نجيبهم من الباب للطاق مباشرة بالكلام القارس أو المواقف العدائية بل أن نكون على حذر فلا نفتح عليهم دون داع ولا تكشف لهم أمورنا ونطلعهم على أسرارنا ولا نصادقهم، وإن لم يكن من الممكن مقاطعتهم تماما، إذ قد يكونون زملاءنا أو رؤساءنا في العمل مثلا. وحين كنت في بريطانيا لم تكن نسأل عن دين التاجر الذي نشترى منه أو سائق سيارة الأجرة التي نركبها أو جارنا الذي نمر به ونحبيه أو الطبيب الذي يعالجنا... إلخ مع معرفتنا أنهم جميعا إما نصارى أو يهود أو لا يؤمنون بدين. وكان الاحترام هو المبدأ السائد في التعامل معهم: هم يحترمونا، ونحن نبادلهم الاحترام. وعلى هذه الشاكلة تمضى الحياة سهلة رهوة سلسلة دون مشاكل تذكر. المهم ألا تنساق إلى التنازل عن ثوابتنا مرضاة لهم أو تقربا إليهم. وبالمثل لا يصح أبدا أن نبادرهم بالظلم أو الإساءة. ثم لا ننس أننا وإياهم يجمعنا بلد واحد لا بد من التكاتف لخدمته إن لم يكن من أجل شيء فمن أجل أن نعيش جميعا فيه عيشا مريحا بل سعيدا.

أما في مصر فلم أميز يوما في التعامل داخل المحاضرات بين طالب مسلم وآخر غير مسلم، فكلهم أمانة في يدي، وكلهم أبنائي. وفي العادة أحرص على ألا تثار في المحاضرة القضايا الخلافية دون مبرر. وأحيانا يأتينا طلاب غير مسلمين من أوروبا وأفريقيا، فنعاملهم على أحسن ما يكون ونبتعد عن مواضيع الخلاف الدينية بقدر الإمكان. وأذكر مرة أنني كنت أحاضر مجموعة من الطلاب الطليان بكليتي منذ ثلاث سنوات، وكانت المحاضرة عن قضية تتعلق بالإسلام ويرد فيها اسم النبي مرارا، فكنت أشفعه بـ "صلى الله عليه وسلم" كما يصنع المسلمون عادة في مثل هذا السياق، ثم جاء دور الحديث على أحد الطلاب الإيطاليين، فسألني: أنا لا أريد أن أقول: "النبي محمد" بل "محمد" فقط، كما لا أريد أن أقول: "صلى الله عليه وسلم"، فهل في ذلك من حرج؟ أجبت: لا حرج على أي نحو. فأنا مسلم، ومن الطبيعي أن أقول ذلك، أما أنت فلا تؤمن بنبوته عليه السلام، ومن ثم لا عليك ألا تقوله. وانتهت المسألة عند هذا الحد. ودائما ما أقول لطلابي المسلمين في المحاضرات: لا بد أن نشغل عقولنا في كل شيء يختص بديننا. ولا يصح أن نخِرَّ ضُيًّا وعُميا ونُكْمًا على ما يقال لنا بما في ذلك كلامي نفسه رغم اعتزازي بفكري وآرائي وما أكتبه في مؤلفاتي وما أقوله في محاضراتي، بل أخضعوا كل شيء للعقل والتحليل بشرط أن تقرأوا كثيرا حتى يكون لتحليلكم وتشغيلكم لعقولكم معنى لا أن تهجموا بجعل على القضايا المثارة قَصُولًا وتَصْلُوا. ودائما ما أؤكد لهم أن ما أقوله أو أكتبه ليس سوى اجتهاد

بشرى يقبل الصواب والخطأ رغم ما بذلته من وقت وتفكير وتحقيق في تحريره. وكما أنى قد أخالف من سبقونى فى بعض ما قالوه فمن الطبيعى أن يخالفنى اللاحقون فى بعض ما أقوله أو أكتبه.

ومما قاله أكرم ندوى ويحتاج إلى مناقشة، ومناقشة عنيفة، طلبه من المسلمين أن يتركوا السياسة ولا يعملوا بها، ففى الإسلام لا يهم أن نبني دولة أو برلمانا بل أن نتجه إلى الله. كما أنه يبغض الشكوى إلى البشر، إذ الشكوى فى رأيه لا تكون إلا لله. والمهم فى الإسلام هو الآخرة لا الدنيا. وهذا الكلام موجود فى الفصل الرابع عشر من الكتاب الذى نحن بصددده. وأول تعليق لى على هذا الكلام هو أنه مما يشلج صدور الدول الاستعمارية المبغضة للإسلام والمسلمين وصدور الحكام المسلمين المستبدين الموالين لأولئك المستعمرين أن ينصرف المسلمون عن الدنيا والسياسة والشكوى مما يقع عليهم من ظلم وإجحاف. إن هذا هو التسليم الكامل لأعدائنا. وهل هناك خبر أكثر إسعادا لهم من أن نترف إليهم البشرى بأننا قد تركنا لهم الجمل بما حمل؟ ثم من قال إن الشكوى لا تكون إلا لله؟ وهل الله سوف ينزل من السماء ليحقق العدل ويزيل المظالم؟ إنه سبحانه وتعالى يقول: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم"، ولم يقل: اتركوهم لأقاتلهم بنفسى وأقتلهم. كما أنه يدين بنى إسرائيل إدانة شديدة حين طالبهم موسى بالدخول على الجبارين فى بيت المقدس فأجابوه بأنهم باقون فى مكانهم حتى ينتهى موسى وربه من مقاتلتهم. وليس لهذا أو ذاك من معنى سوى أن البشر مطالبون بتحقيق أهدافهم بأيديهم. ألم يقل سبحانه: "إن تنصروا الله ينصركم"، "وأقرضوا الله قرضًا حسنًا"؟ ألم يشتغل الرسول بالسياسة؟ ألم يبين دولة؟ ألم ينشئ جيشًا؟ ألم يخزن الأسلحة؟ ألم يحارب؟ ألم يخطط ويناور ويعمل على خداع الأعداء؟ ألم يستمع إلى شكاوى الناس؟ ألم يقض بينهم؟ ألم قال لهم يا ترى: اذهبوا فارفعوا شكاواكم إلى الله؟ ثم لماذا لم يذن أكرم ندوى اغتصاب اليهود بمساعدة البريطان وأمريكا وسائر الدول الغربية لفلسطين وإقامة دولة لليهود على أرضها ظلما وعدوانا؟ ولماذا لم تنبهه الصحفية اليهودية إلى هذا؟ أم إن إقامة الدول حلال للمجرمين، وحرام على أصحاب الأرض إذا كانوا مسلمين؟ ألا إن هذا الشيء غريب ومريب!

والعجيب أن أكرم ندوى يقول إن إبراهيم وعيسى مثلاً لم يهتما بإقامة دولة. والرد سهل بل فى منتهى السهولة، وهو أن محمدا نبينا عمل على إقامة دولة ونجح، وكان الله يوجهه ويباركه ويأمره بكل ما يفعل من أجل إقامة الدولة والحفاظ عليها وتقويتها وتوسعتها. أم يجب أن نكذب القرآن والحديث والسيرة والتاريخ ونقول إنه عليه السلام لم ينشغل أو يشتغل بإنشاء دولة، وإن صحابته قد صححوا،

أستغفر الله، الخطأ الذى وقع فيه فآلغوا كل خطوة اتخذها في هذا المضمار؟ أليس ذلك مما يبعث على القهقهة؟ كما كان داود وسليمان حاكمين على دولة وشعب، فضلا عن دور بعض الأنبياء الآخرين في توجيه الدولة وحكامها. لقد وصلت بالرجل السفسطة إلى الحد الذى قال فيه إن النبى لم يكن يريد احتياز القوة ولا بناء دولة في المدينة، بل القوة هى التى رُميت عليه رميا. إى والله هذا ما يقوله الدكتور. ومع ذلك فلنمش معه إلى باب الدار، ونقول: ترى لو كان احتياز القوة وإقامة الدولة أمرا سيئا أكان الرسول يتهز الفرصة وبعض على القوة بالنواجذ حين أُلقيت عليه ويتوسع فيها ويشيد دولة ويفتح مكة ويمد سلطانه على الجزيرة العربية كلها ويفكر في نشر الإسلام خارجها؟ ثم من يا ترى رمى القوة على الرسول؟ وما الذى أكرمه على قبولها إذا كانت تناقض غاية الدين؟ وهل كان الله سبحانه ليتركه يمضى في هذا الطريق لو كانت القوة والسلطة والدولة شرا كما يزعم د. ندوى؟ فانظروا بالله عليكم إلى هذه السفسطة.

وإذا كانت قوة الغرب شيئا سيئا فلم تركت الهنديا دكتور وأُتيت إلى بريطانيا؟ لا تقل من فضلك إنك أتيت لتدعو الناس إلى الإسلام، فقد كانت الهند بحاجة إلى دعوتك لأن الناس هناك، كما هو واضح من كلامك، لا يفهمون الإسلام على النحو الصحيح، علاوة على أننى لم أسمع بك تدعو البريطان إلى دين محمد بل تحصر نفسك في مخاطبة المسلمين هناك وتدخل معهم في جدالات لا تنتهى وتوزع التقوى على من تحب وتحجبها عن من تحب وتغريهم بالاستسلام والخنوع والمذلة. ترى لم لا تطبق مبدأك في التجاهل الذى تتبعه مع أعداء الإسلام؟ أم إن تخصصك هو فقط في العراك والجدال مع المسلمين؟ ولم لا تترك كُلاً وما يعتقد وتنصرف إلى ممارسة التقوى التى صدَّعت بالحديث عنها أدمغتنا؟ إن التقوى شىء مهم، لكن لا بد من إقامة مجتمع إسلامى له حكومته ونظمه ومؤسساته ككل مجتمع في الدنيا حتى يستطيع المسلمون ممارسة تلك التقوى في حرية وأمان واطمئنان. أم أن الله كسب على المسلمين دون سائر البشر ألا يكون لهم نظام سياسى يتمثل في دولة تكفل لهم الكرامة والعزة والعدالة والسيادة وتساعدهم على انطلاق طاقاتهم ومواهبهم وإحراز الحضارة والتقدم وتهى لهم عبادة الله على نحو مطمئن خال من القلق والخوف؟

الحق أنى لا أكاد أصدق عيني وأنا أقرأ للرجل هذا الكلام. إنه يمين على المسلمين البريطان بما فعلته بريطانيا لهم. ورغم ما قلته عن المغالطة السخيفة في هذا القول فإننى أذكره بأن بريطانيا لم تتبع نصيحته العجيبة هذه بل ناضلت وكافحت حكامها المستبدين حتى تحققت لها الديمقراطية التى تفخر

بها بين دول العالم. فلم يريد أكرم ندوى من المسلمين ألا يتعلموا هذا من بريطانيا وأن يتهجوا بدلا منه نهجا مناقضا للنهج البريطاني؟ أتصور لو كان د. ندوى يعيش في عصر عمر لضربه عمر بالدرة على رأسه حتى أوجعه. لقد صاح رضى الله عنه في المتنطعين بأن الساء لا تمطر ذهباً ولا فضة، كما ضرب رجلا يظهر النسك ويتماوت قائلا له: لقد أمتَّ علينا ديننا، أمتك الله! نعم إن العمل السياسى وحده لا يكفى بل لا بد من الإصلاح الأخلاقى والنفسى أولا حتى تؤتى الديمقراطية (أو فلنقل: الشورى) أكلها فلا يتحول الأمر إلى مجرد مظهر للديمقراطية لا مضمون له كما هو حادث في معظم الدول الإسلامية التى تمتلك برلمانات وتعرف الأحزاب والانتخابات. وبمناسبة ما نحن فيه فإن كاتب هذه السطور لا يخفى عليه أن فى الديمقراطيات الغربية ذاتها قدرا من التدليس والتزييف والضحك على ذقون الجماهير، لكن الديمقراطية رغم ذلك أفضل مليون مرة من الاستبداد وسياسة الكرياج، فضلا عن أن الأحزاب المنافسة لا تترك تدليسات الخصوم وخداعاتهم تمر دون فضحها وهتكها والنيل من مرتكبيها، مما من شأنه أن يقلل تلك الألاعيب إلى أدنى حد. كذلك يلفت النظر نعى د. ندوى على المصلحين الدينيين الذين يهتمون بالسياسة بأنهم إنما يريدون تقليد الغرب. لكن هل تقليد الغرب سئ دائما؟ فلماذا نحن، يا د. أكرم، على المسلمين فى بريطانيا أنها أعطتهم التكنولوجيا وغير التكنولوجيا؟ إن الغرب قد نجح فى التكنولوجيا وغير التكنولوجيا لأنه نجح فى تشييد دول قوية ذات أسس سليمة. فهل نحرر قائلين: لن نقتل الغرب فى بناء دولة؟ ألم يسمع د. ندوى بالحكمة القائلة: الحكمة ضالة المؤمن، يطلبها أنى وجدها؟

الواقع أن البريطان لو جَرَّوْا على هذا النهج لكانوا الآن فى مؤخرة الأمم ولما كانوا يعيشون فى البجوحة التى يجيئونها بل كانوا مثل كثير من المسلمين يؤمسا وشقاء وتحلفا ومذلة. إن فى بريطانيا عيوباً كغيرها من دول العالم، لكن فيها محاسن كثيرة على رأسها تلك الديمقراطية، التى لم تتحقق إلا بالاستغلال بالسياسة والكفاح ضد الاستبداد وبمغامسة الدنيا، التى لا يمكن المسلمين أن يحرزوا الآخرة إلا إذا نجحوا فيها وتبوأوا مكانا عليا. أما ما يقوله د. أكرم فليس من الإسلام فى شيء. إن ما يقوله هو المغالطة بعينها. وهو يرى أن الوقت الذى تنفقته فى المظاهرات والإعداد لها ينبغى أن تنفقته فى الصلاة. الله أكبر! لقد فاتتنا هذه يا شيخنا. ولقد فاتت نينا أيضا، إذ لم يكن ينفق وقته كله للصلاة، وكان يقول لمن يبقى فى المسجد يصل بينما ينصرف أخوه إلى العمل والسعى على المعاش والإنفاق عليه هو أيضا إن أخاه هذا أعبد منه. كما فاته صلى الله عليه وسلم هذا حين أخر صلاة العصر إلى أن يصل هو

والجيش إلى بنى قريظة قبل أن يعلم القرظيون بزحفه نحوهم وقبل أن تبوخ حاسة المسلمين، الذين كانوا منصرفين من غزوة مظفرة كادوا أن يضيعوا فيها بسبب خيانة القُرَظِيِّين لولا ستر الله ورحمته وتدبيره. وكان ينبغي أن يؤجل صلى الله عليه وسلم هذا كله حتى ظهور د. ندوى والاستفادة من نصيحته. وحين تقول الكاتبة له: "لكن هذا سوف يترتب عليه أن تحكم الدول الظالمة العالم" يرد عليها: فليكن. وماذا في ذلك؟ إن تلك الدول لن تحكم العالم في الحقيقة بل الله. أى أن المظالم التي ترتكب في التاريخ الإنسانى كله صاحبها هو الله. أليس هو الذى يحكم في كل الدول؟ لكنه سبحانه وتعالى يقول: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم"، "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير"، "فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين"، "الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص"، "ولمَن التصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل". فهل تراه جل جلاله أخطأ؟ أستغفر الله!

إن أكرم ندوى يغالط فيخلط بين حكم الكون وحكم الدول: إن الله هو حاكم الكون، أما في عالم السياسة فالحكام هم البشر. صحيح أن أمور الكون جمعاء في كل مكان وزمان لا تخرج عن يد الله سبحانه طرفه عين، لكن صحيح أيضا أن الله سبحانه خلق البشر وخلق لهم شيئا من الإرادة الحرة يدبرون بها أمورهم ويصوغونها حسبا يشاؤون فينجحون في أحيان كثيرة. ومن هذه الأمور سياسة الدول وحكمها. ولو قلنا إن الذى يحكم الدول هو الله سبحانه لما كان للحساب معنى، إذ سوف يقال له يوم القيامة: لقد كنتَ سبحانه الحاكم علينا، وهذه هى نتيجة حكمك لنا. فما ذنبنا إذا كنت أنت نفسك جل جلالك لم تستطع أفضل من هذا؟ ثم إذا ما كان الله هو الذى يحكم في كل الدول فلم ترك النبی مكة، وكان يعيش هناك في ظل حكم الله؟ أم ترى حكم الله في يثرب أفضل من حكمه في مكة؟ لكن هل قدرة الله تتفاوت صعودا وهبوطا؟ وحتى لو أغضينا الطرف عن هذا فلنا سؤال هام هو: لماذا يا ترى أمسك النبی بمقاليد الأمور في المدينة ما دام الله هو الذى يحكم هناك؟ أترأه صلى الله عليه وسلم كان يرى أن حكمه للمدينة أفضل من حكم الله عز وجل؟ ونفس الشيء يقال عن فتحه مكة. ألم تكن مكة قبل الفتح تحت حكمه سبحانه وتعالى؟ فلم أثر النبی صلى الله عليه وسلم أن يحكمها هو؟ ألا يرى القارئ مدى سخف ذلك التفكير؟

لقد كنت أظن أن مثل هذا الكلام قد تجاوزه الزمان وتم وضعه في المتاحف كى تتفرج عليه الجماهير بوصفه تحفة من تحف العصور المتخلفة. لكن ها نحن أولاء نرى أنهم قد أعادوه من المتاحف وعرضوه مرة أخرى في واجهات المحلات الفكرية وصاروا يتنادون عليه للضحك به على العامة السذج.

البلهاء. لو أنه قال إن الوصول إلى العدالة السياسية يحتاج إلى ثقافة أعمق وخطوات تحضيرية طويلة وانتفاضة شاملة في الأمة علميا واقتصاديا مثلاً، وإنه سوف تكون هناك حالات فشل وخيبات متعددة قبل الوصول إليها مثلاً وقع في الدول الغربية قبل أن يبلغوا ما بلغوه لضربنا له تعظيم سلام، لكنه يقول كلاماً عجيباً لا يدخل عقل عاقل ولا يتسق مع أى منطق سوى منطق التضليل والاستبلاء. إن النجاح الديمقراطي في بلاد المسلمين لن يتم بين عشية وضحاها بل لا بد له من توضيحات ورفق فكري ونفسي وأخلاقي، وإلا كان الفشل كما حدث في ثورات الربيع العربي حيث كانت الجباهير تظن أن ثروات البلاد سوف تقسم ثانياً يوم عليها بيضة مقشرة ثم تذهب فتغط في النوم دون أن تحمل هم العمل والتعب ووجع الدماغ. ترى إذا كان قد فات الدكتور ندوى التعلم من البريطانيين فكيف فاتة في بلاده أن يتعلم الدرس من عباد البقرة حوله في كل مكان بالهند، فيعرف أن الديمقراطية من السبل الأكيدة إلى التقدم والرفق والسعادة في الدنيا؟ السعادة النسبية بطبيعة الحال، فالسعادة المطلقة ليست من بُنيات ديانا هذه التي يحنها الكبد والكمد والنكد. أما النوم في العسل (أو في المسجد: سيان) فلن يوصل إلا إلى الكوارث والتخلف الغليظ الذي لا براء منه ولا شفاء. إن الله إنما خلقنا لتحقيق ما نريده مما نحن بحاجة إليه لا لنلقى بأمورنا عليه حل وعلا ونذهب نغط في نوم عميق. لقد حصر الله الصلاة في خمس فقط لا يستغرق أداؤها كلها بوضوئها سوى نصف ساعة. ولو كان يريد لنا أن نمضي وقتنا في الصلاة بدل التظاهرات والجهاد ضد الاستبداد والاستعمار لفرض علينا خمسة آلاف صلاة في اليوم ولما استجاب لرجاء نبيه محمد في تخفيضها أبدا وظللنا من يومها لا نفيق من الصلاة، إذ ما إن ننتهي من صلاة حتى ندخل في صلاة، وهكذا دواليك إلى أن نموت: نموت من الحرمان أو من الدوخة من الصلاة.

لكن بعد ذلك كله هل الإسلام دين عدواني يضع نصب عينيه إكراه الناس على اعتناقه وإطراح أديانهم السابقة مستخدماً حد السيف؟ نسمع كثيراً عن آية السيف في سورة "التوبة" وأنها الآية التي تبيح للمسلمين الاعتداء على الآخرين وإجبارهم على الدخول في دينهم. لقد فتحت الكاتبة هذا الموضوع في الفصل الخامس عشر: "War Stories". ونص الآية المذكورة هو: "فإذا نسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد...". وقد علق الدكتور ندوى على الآية بالإشارة السريعة إلى أنها لم تنزل إلا بعدما عمل الرسول مع مشركي مكة كل ما في وسعه من لزوم السلم واحترام المعاهدات التي كانت بينه وبينهم فلم يرعوا وظلوا يضطهدون دينه وأتباعه، وانتهى بهم الأمر إلى خيانة بنود المعاهدة التي وقَّعت في الحديبية وأُسست

للسلم بين الفريقين لمدة عشر سنوات ما إن مر منها عدة أشهر حتى انقضت المشركون فمزقوها بعدوانهم على المسلمين وحلفائهم. إلى هنا، وليس لي أى اعتراض على ما قال الدكتور. لكنه يمضى بعد ذلك قائلاً إن الآيات القرآنية التى سبق نزولها نزول تلك الآية كانت تحض الرسول على الصبر وعدم الرد على العدوان بمثله. وهنا موضع مغالطة بشعة من د. ندوى، وإلا فمتى ياترى نزلت الآيات التالية مثلاً: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ"، "الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ. فَمَنۢ بَغَىٰ عَلَيْكُمۢ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُم"، "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ"، "فَإِن قَاتَلُوكُمۢ فَاقْتُلُوهُم. كَذٰلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ"، "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَمُوهُمۢ فَسَدُّوا النَّوْاقِيَ"، "وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً"، "إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بِنِيٍّ مُّصَوِّصٍ"، "وَكَأَيُّ مَنۢ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا"، "إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُم يَوْمَ التَّقِيۡ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا"..." إلخ؟ لقد نزلت كلها وآيات أخرى تشبهها قبل نزول آية التوبة، ومعنى ذلك أنه كان هناك قتال بين المشركين والمؤمنين قبل تلك المرة، وكذلك بينهم وبين اليهود، وأن القرآن كان يعرض المسلمين ويحثهم على الاستبسال في القتال ويعزيهم حين ينزل بهم قرح. أى أن كلام د. ندوى غير صحيح بالمرة. ثم دعونا من النصوص وتعالوا بنا إلى التاريخ: ألم تكن هناك غزوة بدر وغزوة أحد وغزوة بنى قريظة، فضلاً عن السرايا الحربية فيما بين ذلك؟ أمن المعقول أن د. ندوى يجهل هذا الذى أقول على ذلك النحو الشنيع؟ فلم إذن يتصدى لمعالجة تلك القضايا؟ ومن العجب العاجب أن نرى أكرم ندوى بعد قليل يميز الجهاد ضد أعداء الإسلام متى ما سدوا الطريق ومنعوا دعاة المسلمين من عرض الإسلام على الناس لجذبهم إليه.

أياً ما يكن الأمر فهذا هو شرح الآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى يتخذها أعداء الإسلام دليلاً على أن الإسلام دين القتل والإرهاب وإكراه الناس بالسيف على اعتناقه. ونص الآية هو: "فَإِذَا انشَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ..." والمأمل فيها وفي ألفاظها وأسباب نزولها وسياقها من الآيات التى حولها ومن القرآن كله سوف يتحقق أن ما يقوله أعداء ديننا ليس إلا أباطيل وتدليسات متهافنة. كيف؟ أولاً المشركون فى الآية ليسوا كل المشركين بإطلاق بل طائفة منهم فحسب، إذ إن "أَل" فى الكلمة هى للعهد وليست للجنس ولا للماهية. أى أن المشركين المأمور بقتلهم هم مشركون معينون لا يستغرقون المشركين كلهم جميعاً.

فأى طائفة من المشركين إذن هؤلاء؟ إنهم هم المشركون الذين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة فلم يحترموها وغدروا بهم واعتدوا عليهم وقتلوا فريقاً منهم خيانةً وغيلةً. والدليل على ذلك قوله تعالى عقب هذا: "كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؟ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. إن الله يحب المتقين" * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة؟ يرضونكم بأفواههم، وتأبى قلوبهم، وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله. إنهم ساء ما كانوا يعملون". فالمشركون الذين أمر القرآن المسلمين بقتلهم إنما هم المشركون الخائنون الغادرون الذين أخذوا فريقاً من المسلمين غيلة فقتلوههم رغم ما كان بين الطائفتين من اتفاقيات مغلفة. لقد كان الأمر أمر علاقة بين دولتين لا أمر أشخاص من هنا وأشخاص من هناك. ولا يصلح أن تترك الدول حقها وكرامتها في هذه الظروف دون أن تعاقب الغادرين الخائنين، وإلا انتقض أمرها وطمع فيها كل من هب ودب. وثالثاً لم يحدث في الواقع أن وضع المسلمون هذا الأمر موضع التنفيذ، إذ قد أتى ثمرته بمجرد إعلانه على الملأ، فكف المشركون شرهم عن المسلمين ودخل منهم في الإسلام من دخل. ليس ذلك فقط، بل إن القرآن قد أعطى المشركين المعتدين فترة سماح أربعة أشهر قبل أن تدخل الآية حيز التطبيق يستطيع فيها كل مشرك أن يسيح في البلاد خلالها دون أن يتعرض له المسلمون بأي أذى. بل إن أى مشرك لو استجاز بالمسلمين حيثنذ لوجب على المسلمين أن يجروه بأمر القرآن في هذه السورة ذاتها إلى أن يسمع كلام الله ثم يبلغوه مأمنه في طمأنينة وسلام دون أن يروّعه مجرد ترويع، فضلاً عن أن ينزلوا به أى ضرر.

على أن ليس هذا كل شيء، إذ القرآن يوجب على المسلم أن يعامل، بمتهى البر والإفراط، غير المسلم ما دام لم يقاتله في الدين ولم يعتد عليه أو يخرج ظملاً من وطنه. ثم إن الإسلام يحرم على المسلمين الاعتداء على أى أحد لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، اللهم إلا إذا بُدِئوا بالعدوان الغشوم، فعندئذ من حقهم رد العدوان بمثله. وهذا عما لا يمكن أن يشاح فيه عاقل منصف. فهذا هو تفسير الآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى جعل أعداء الإسلام هجيراً هم التشنّع بها على الإسلام وانهاؤه تدليسا وافتراءً بأنه دين عدوان وإكراه. وهو تفسير يرتكز، كما رأينا، على التحليل اللغوى والسياق القرآنى والمناسبة التاريخية التى ظهر فيها النص. ولولا هذا التحليل والتفسير لظنَّ من لا علم لهم أن ما يردده أعداء الإسلام في هذا المضمار جرّاء امتلاخ الآية من سياقها هو كلام صحيح.

وفي ضوء هذا التحليل ينبغي أن نقرأ صدر سورة "التوبة" بآياته الخمس عشرة كلها لا الآية الخامسة وحدها بعيدا عن سياقها. يقول تعالى: "بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ نَزِرُ الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاصْطُرُّوهُمْ وَأَقْلَبُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوْا لَهُمْ فِي الدِّينِ وَتَفَضَّلْ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشِيتُمْ اللَّهَ فَأَلْحَقْ أَنْ تَنْخَسِيتُمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَإِذَا تَوَلَّيْتُمْ يَأْخُذْكُمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيَذْهَبْ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

وفي النهاية أحب أن أتوقف قليلا إزاء الحكاية التي قصها أكرم ندوى على كارلا باور مفضلا

الصوفي على المجاهد في سبيل الله: "A group of mujahidin on their way to battle stayed overnight at the lodge of some Islamic mystics, or Sufis. In the morning, one young Sufi disciple, awed by the warriors' steeds and swords, went to his sheikh and told him that he was joining the mujahidin. Armed jihad was the easy route, his sheikh warned. Far harder was the struggle to maintain a lifetime of submission to Allah. "It is easy for me to have my neck cut once," the elder explained. "It is hard for me to bow my head all the time, day after day" to bow my head all the time, day after day"

الصوفي يفضل على المجاهد مع ما نعرفه من أن القوى الاستعمارية تشجع دائما الحركات الصوفية

وتحاول بكل ما لديها من وسائل إعلامية أن توهم الجماهير الجاهلة بأن التصوف هو الإسلام الصحيح. وللقوى الاستعمارية كل الحق في هذا الجهد الشيطاني، إذ المتصوفة بوجه عام يعيشون على الخرافة ويروجون لها ويحولون الدين إلى فولكلور مضحك. وهم كسالى من الطراز الأول، ويحبون أن يأكلوا ويشربوا ويسكنوا ويلبسوا دون مقابل. وهل هناك ما هو أنفع وأفيد للأعداء من هذا الضرب من المتدينين الذين يتركون لهم الدنيا يعيشون فيها ما يحلو لهم على النحو الذي يحلو لهم، بل ويتعاونون معهم في خيانة دينهم؟

ولقد درست منذ عدة أعوام هذا الجانب التديني، فألفت نشاط كثير من أصحابه يقوم على الكذب والباطل والتضليل ومحاولة إقناع العامة بأنهم ذوو معجزات وكرامات وأن الذهب يسيل من أطرافهم وهم يتوضأون، وأنهم يطيطون في الهواء، ويمكنهم أن يعيشوا دون طعام أو شراب أية مدة يريدون دون أية مقاساة، ويوجدون في مكانين متباعدين في ذات الوقت، وتطوى لهم الأرض فيقطعون في دقائق ما يأخذ من الآخرين أسابيع وشهوراً، ويمدون أيديهم فيكبشون المال كبشا من الفضاء حولهم، لكنهم لا يبالون به لأنهم غير معنيين بالحياة الدنيا، في الوقت الذي يخرون عليها في الواقع عابدين إياها خاضعين لها خاشعين أمامها خشوعاً جباناً مخزياً. وهناك أيضاً مزاعمهم عن الاتحاد مع الله أو حلوله سبحانه وتعالى فيهم، وحديثهم العجيب عن المدارج الروحية التي يمرون بها حتى يبلغوا ذلك الاتحاد أو هذا الحلول دون أن يعترهم انتكاس أبداً، إذ هم في صعود دائماً. وهو لون سخيف وقاتل من الغرور الروحي. وعدد منهم يدعى أنه بوصوله إلى ذلك المقام السامق قد سقطت عنه الفرائض والمسؤوليات. ومن مضحكات الحشاشين المتصوفين زعم أحد كبارهم المشاهير في تاريخ الإسلام أنه كان يطير من سطح بيته والناس نياماً ويجلس على سن الصاري طوال الليل. يقصد صاري الملقى الذي ينصبه البكاشون أيام الاحتفال بولي المكان. ولكم أن تتخيلوا كيف يجلس هذا الأفاق على سن الصاري! باختصار: لقد وجدت كثيراً من الصوفية يعيشون حياة التنبلة والخدر والبكش والكذب.

وها هو ذا أكرم ندوى يفضلهم على الذين يجاهدون بأنفسهم. لا أقول إن المجاهدين على حق دوماً، ولا أقول إن أسلوبهم صحيح باستمرار، ولا أقول إنهم مستعصون على الخداع والتضليل من الآخرين، وإلا ما استعملتهم أمريكا أكثر من مرة في حرب أعدائها ثم تخلصت منهم بعدما تكون قد استفدت أغراضها من ورائهم فقتلهم أو على الأقل: تطاردهم في كل مكان بالعالم لا تركهم ينعمون

بالراحة لحظة من اللحظات، فضلا عن أنه من السهل اختراق الأعداء لصفوفهم ووصول أعتى المنافقين إلى منصب الرئاسة والتوجيه بينهم ووجود عبّاد الدنيا بين ظَهْرَانِيهِمْ ووقوع كثير منهم في شر غيائهم وتنطعهم، فضلا عن أنه من الممكن أن يكونوا، دون علمهم، أداة في يد أعدى خصومهم بحيث يضحك هؤلاء عليهم فيزينون الشر لهم ويصورونه على أنه خدمة عظيمة للإسلام. كذلك فكلام بعضهم عن المعجزات أو الكرامات لا يدخل العقل كما هو الحال في حديث الضابط الباكستاني الذي التقتة كارلا باور في تحقيق صحفى لجريدتها وتحدث عن قطع رقاب كثير من الروس في أفغانستان على أيدي الملائكة. إن المعجزات خاصة بالأنبياء، وأنا لا أشغل نفسي بأية معجزة لم يذكرها القرآن المجيد. أما إذا كان د. أكرم ندوى يعيب على بعض زعماء المجاهدين أنهم لا يطبقون ما يدعون إليه على أنفسهم وأولادهم فكثير منهم في ذات الوقت يقدم روحه وماله خالصين فداء لدينه ووطنه. وأيا ما يكن الأمر فإن هذا كله لا يقلب الجهاد من ناحية المبدأ عملا شريرا يعاب ويشوّه. كما أن عموم المجاهدين في سبيل الله بكل يقين أفضل ألف مرة من جماهير المتصوفة، الذين يلمّعهم د. ندوى عبثا ودون جدوى. فالفرق بين هؤلاء المتصوفة وبين من يجاهد بحياته في سبيل الله "كالفرق بين السما والعمى" على حد قول العامة عندنا في مصر.

الجحيم الأخرى

ما إن شرعتُ أقرأ في الفصل السادس عشر من كتاب كارلا باور عن أكرم ندوى حتى ضحكت إلى أن فطست، أو على وجه الدقة: إلى أن كدت أفطس. فقد حكى لنا الشيخ أكرم ندوى قصة ظريفة جدا عن شخص طرق عليه الباب ذات صباح، فذهب ليرى من الطارق، ففوجئ بمبشر يقدم له الكتاب المقدس ويعرض عليه الدخول في النصرانية، فبادره الشيخ متسائلا: وماذا إن لم أومن بالنصرانية؟ هل سأدخل النار؟ ليسارع المبشر مطمئنا إياه خشية أن يعيقه الرعب من النار عن اعتناق الدين الجديد، ومن ثم قال له بكل تأكيد: لا، لا، لا تخف. لن تدخل النار. إن الكتاب المقدس لا يقول هذا أبدا. فما كان من الشيخ إلا أن تركه بالباب وعاد إلى داخل البيت وأحضر له نسخة من الكتاب المقدس يمتلكها وفيها خطوط تحت النصوص الكثيرة التي تتحدث عن النار وأهوالها. لقد ضحكت وأنا أتخيل المبشر وقد باغته الشيخ بما ينكر وجوده من النصوص الكتابية زورا وعثا.

وقد سألت المؤلف سؤالا مباشرا: هل هناك فعلا في الآخرة نار حقيقية؟ أم إن الأمر لا يعدو أن يكون مجازا للتعبير عن المتاعب التي سوف يواجهها الشخص هناك؟ وكان جواب الشيخ أن هناك نارا حقيقية لا ريب في هذا، نارا كهذه التي نعرفها. وقد ذكرت المؤلف أن من المفكرين المسلمين من يرى أن هذا كله مجاز. لكنه أصر على رأيه، وكانت هذه من المرات النادرة التي يصصر فيها الشيخ على التفسير الحرفي للقرآن. ويكفي أن نقرأ قوله تعالى عن يوم القيامة: "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ"، وقول الرسول عليه السلام عن الجنة: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، وكذلك الأوصاف التي أدلى بها صلى الله عليه وسلم في أحاديثه المختلفة عن متع الجنة من نساء وطعام وشراب مما يختلف جذريا عما نعهده من أمور الدنيا، حتى يتبين لنا أن الأمر ليس كما يقول الشيخ. وهناك نصوص مثل قوله سبحانه: "ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا"، إذ لا شك أن العمى، بالمعنى الحقيقي، لا يمكن أن يكون في ذاته سببا للعذاب الأخرى كما هو معروف، ولا بد من ثم أن يكون الكلام على المجاز، والمقصود الكفر والانحراف الأخلاقي. كذلك فالبشر لا يأكلون النار، ومع هذا نقرأ في القرآن قوله عز شأنه: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ". وبالمثل هناك في قوله تعالى: "كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله" مجاز، إذ الحرب لا تحتاج إلى نار بالضرورة. ومثله قوله جل جلاله: "قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ"، والنار لا تصنع منها الثياب. كما أن النار التي نعرفها حين تحرق الجلد واللحم فإن

المحترق يموت وينتهي أمره، أما نار الآخرة فحين تُنْضِجُ الجلد ينبت مكانه جلد آخر حتى يتجدد إحساس المحترق بالعذاب إلى ما شاء الله. كذلك فأعضاء الإنسان لا تتكلم ولا تشهد على أحد، فضلا عن أن تشهد على صاحبها، إلا أنها يوم القيام سوف تتكلم وتشهد على صاحبها وتجادله وتفحمه. وفي الجحيم لن يكون هناك نار فحسب بل وزمهير أيضا. ولا ندرى كيف يكون تعذيب الزمهير في النار. أما في الجنة فلن يكون ثم شمس ولا زمهير رغم علمنا أن البشر يحتاجون في الدنيا إلى التعرض إلى أشعة الشمس من أجل صحة أجسادهم. من هنا فإنني أقول: هناك فعلا نار، لكنها ليست كنارنا الدنيوية أو هناك ألوان من العذاب رهية الإيلام سوف نقاسيها، مع ترك تحديد كيفياتها لله سبحانه.

وعلى كل فالمجاز ظاهرة من الظواهر في كل نظام لغوي، وإن كان من علماء المسلمين من ينكر وجوده، وبالذات في القرآن، ظنا منهم أنه كذب. والقرآن، كما يقولون، لا يمكن أن يحتوي على الكذب لأنه من عند الله سبحانه وتعالى، الذي لا يقول غير الحق. وهم، في إنكارهم للمجاز، يتعسفون الكلام في كل مجاز وإثبات أنه حقيقة. فإذا قابلوا مثلا وصف الرسول عليه السلام لفرسه بقوله "إن وجدناه لَبَحْرًا"، أي شديد العدو سريعه، قالوا إن البحر معناه: واسع كبير. ومن ثم فوصف الحصان بـ"البحر" ليس على التشبيه بالبحر، بل بمعنى أنه واسع الخطوة شديد السرعة. وهذا مجرد مثال، وهو تجميع للأمور كما يظهر لكل ذي عينين. فنحن، حين نقول: "بحر" فقط ينصرف الذهن فوراً وبلا أدنى تردد أو ارتياب إلى المساحة المائية المعروفة، ولا يمكن أن يتطرق الذهن أبداً إلى غير ذلك، ثم يأتي فيما بعد التعبير المجازي، فنقول عن فلان إنه بحر، أي كريم، وعن غرفة إنها بحر، أي شديدة الاتساع، وعن عالم إنه بحر، أي غزير المعرفة متدفق الكلام... وهكذا دواليك مما لم يكن في الأصل مقصوداً بكلمة "بحر" بل أضيف ويظل يضاف إليها ما دامت تستخدم على الألسنة وعلى أسلالت الأقلام. ولا يشذ القرآن عن هذا، فهو يقول مثلاً عن الكافرين الذين أَلْغَوْا عَقْلَهُمْ ولم يعودوا يميزون بين الحق والباطل: "دواب" في قوله تعالى ذكره: "إن شر الدواب عند الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"، "إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون". ومثله قولنا عن أي شخص غبي بليد الذهن إنه "حمار" مما لم يكن موجوداً في الكلمة في الأصل، لكنه ألحق بمعناها حين لوحظ أن الحمار غبي بليد. ومنها قول القرآن عن اليهود: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا". كما قد نصف شخصاً ثالثاً بأنه "ينهق" إشارة إلى أنه قبيح الصوت مزعجه، فتكون هذه إضافة لمعنى النهيق لم تكن متضمنة في الكلمة من قبل، بل جَدَّتْ مع الأيام. ويؤكد هذا أننا نقول أيضاً عن شخص آخر إنه "حمار

شغل"، فلا تكون هذه العبارة سبابا وإهانة كالعبارات السابقة، بل تدل على صبره على أداء الواجب الثقيل وانخراطه في العمل دون تواني أو كسل أو تذمر من كثرة الشغل الذي يتعين عليه إنجازه. وفي قول القرآن عن نفور المشركين من القرآن وفرارهم من سماع كلمة الحق: "كَأَنَّهُمْ مُّهِمَّرٌ مُّسْتَفْهِرٌ * فَكَرَّثَ مِنْ قَسْوَرَةٍ" معنى آخر هو النفور الشديد عن مواجهة الحقيقة والخوف من الاستماع إلى رسالة القرآن وكأنها أسد لا يملك الحمار أمامه سوى الهروب بأقصى طاقته. وهذا معنى جديد على الكلمة. كما يطلق "الحمار" أيضا على خشبة في مقدمة الرحل تقبض عليها المرأة وهي في مقدّم البرذعة، فيكون هذا استعمالا آخر لم يكن الكلمة تعرفه قبل ذلك. و"حمار الصَّيْقَل" خشبة التي يصقل عليها الحديد. فهذا استعمال جديد كذلك لم يكن للكلمة به عهد أول ظهورها... وهلم جرا. وكل أهل لغة يفرقون بين الحقيقة والمجاز في استعمالهم لها، اللهم إلى المتنطعين الذين يعترضون على ما لا يقبل اعتراضا ولا إنكارا. وقد قيل عن حق إن المجاز هو شطر الحسن في الكلام. وهذا صحيح، فإنه يضيف على اللغة ثراء وإدهاشا وجمالا يبعث النشوة في النفوس. والحديث في هذه المسألة يطول، ويجد القارئ مناقشة أكثر تفصيلا وأوسع مدى للموضوع في كتابي: "منكرو المجاز في القرآن والأسس الفكرية التي يستندون إليها".

هذا، وقد جاء في الفصل الحالي من كتاب كارلا باور ذكر الصحفي النمساوي اليهودي الذي أسلم في منتصف عشرينات القرن الماضي في السعودية: محمد أسد، وروت المؤلفة مدح الشيخ الفائق له. فهل يعرف الشيخ أن أسد يقول بالمجاز في الجنة والنار وفي المعجزات النبوية وفي أشياء أخرى كثيرة في القرآن المجيد كما تقول ترجمته للقرآن: "The Message of the Qur'ân"؟ إن في القرآن نصوصا كثيرة تتحدث عن معجزات وقعت على يد عدد من الأنبياء والرسل، وفيه أيضا آيات أخرى تقول لمشركي مكة، الذين كانوا يتعصبون على الرسول صلى الله عليه وسلم مطالبين إياه أن يأتيهم ببعض المعجزات كما كان يفعل الأنبياء السابقون، إن المعجزات لم تُجَد مع الأمم الخالية، إذ ظلوا على كفرهم رغم وقوع ما طلبوه منها. ومع هذا فإن بعض المفسرين في العصر الحديث قد درجوا على تأويل هذه المعجزات بها بخارجها عن إعجازيتها وبلحقتها بالحوادث المعتادة التي تخضع لقوانين الطبيعة المطردة، ومن هؤلاء محمد أسد. وقد سبقه إلى هذه الخطة المفسرون القاديانيون مثل مولاى محمد على وملك غلام فريد في ترجمتهما التفسيريتين للقرآن الكريم إلى الإنجليزية. ولعل مولاى محمد على هو الوحيد الذي ورد اسمه في ترجمة محمد أسد من بين المفسرين غير العرب، ولهذا دلالة.

لقد ذكر القرآن المجيد في ثلاثة مواضع منه تهديد قوم إبراهيم عليه السلام له بتحريره في النار وأن الله أنجاه من كيدهم. وإذا كانت العبارة في موضعين من هذه الثلاثة لا تحدد ألقى خليل الله في النار فعلا أم لا، فإن الموضع الثالث واضح الدلالة في أنه قد ألقى فيها لكن الله منعها من إحراقه، وذلك في قول رب العزة: "قالوا (أي قومه عليه السلام): حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا: يا نار، كوني بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم". بيد أن محمد أسد يؤكد أنه "لم يحدث أن ذكر القرآن في أي موضع منه أن إبراهيم قد ألقى بجسده فعلا في النار وبقي حيا فيها، بل إن قوله تعالى في الآية ٢٤ من "العنكبوت"، على العكس من ذلك، يشير إلى أنه لم يلق في النار. وفضلا عن هذا فبمستطاعنا تتبع مصدر القصص الكثيرة المستفيضة والمتعارضة التي طرّز بها المفسرون القدامى تفسيرهم للآية التي نحن بصدددها، في الخرافات التلمودية، ومن ثم فمن الممكن أن نلقى بها دُبُرَ آذاننا. أما ما يقوله القرآن هنا وكذلك في آية "العنكبوت" والآية ٩٧ من "الصافات" فلا يزيد، فيها يبدو، عن أن يكون إشارة رمزية إلى نار الاضطهاد التي كان على إبراهيم أن يقاسيها والتي ستصبح بعد ذلك، بسبب عنفوانها، مصدر قوة روحية وسلام باطنى له".

ولنا على هذا الكلام كلام، مثله: فأولا ليس في القرآن البتة ما يدل على أن خليل الرحمن لم يقذف به في النار، وإلا لكذب القرآن بعضه بعضا، فإن آية "الأنبياء" تقول بصريح العبارة إنه سبحانه قد أمر النار أن تكون "بردا وسلاما على إبراهيم" بما يدل على أنه قد ألقى فيها فعلا، لكنه سبحانه سلب عنها خاصّة الإحراق. وعلى أية حال فهذا هو ذى آية "العنكبوت" أضعها مرة أخرى تحت بصر القارئ ليحكم بنفسه، إذ تقول: "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: اقتلوه أو حرقوه، فأنجاه الله من النار"، فهل يرى القارئ الكريم فيها أن قومه عليه السلام لم ينفذوا فعلا ما عزموا عليه؟ ألا يوافقنى على أن هذه الآية مظلومة؟ ومثلها آيتنا "الصافات"، وهذا نصها: "قالوا: ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين". إذن فنحن أمام نصوص قرآنية ثلاثة: اثنان منها لا يقولان إن إبراهيم لم يلق به في النار، وثالثها يقول إنه قد قذف به فيها لكن الله جردها من طبيعتها المحرقة.

أما تأويل أسد لهذا النص الأخير بأن المقصود هو نار الاضطهاد فقائم على التكلف العنيف، إذ قد دخل الموضوع وفي ذهنه إنكار المعجزات، وإلا فأين في الآية ما يدل على أن المراد شيء غير الظاهر؟ الحق أن ليس في الآية ما يدل على شيء من ذلك، وإنما اعتقاد بعض الناس، حتى من بين المسلمين أنفسهم، في أن قوانين الكون لا يمكن إيقافها أبدا هو المسؤول عن الرغبة في صرف مثل هذه الآيات

عن ظاهرها إلى تلك التمثيلات الغريبة. ولكي يطمئن القارئ إلى ما أقول ألفت نظره إلى أن "نار الاضطهاد" التي يذكرها أسد لم تكن خاصة بإبراهيم وحده، بل كل الأنبياء والرسل قاسوا لظأها، فكانت في نهاية الأمر بردا وسلاما عليهم، فلماذا يا ترى لم يذكرها القرآن إلا في حالة إبراهيم وحده دون سائر الرسل والأنبياء؟

وبالنسبة لعيسى عليه السلام نجد محمد أسد يؤول كلامه في المهد بأنه إشارة تجازية للحكمة النبوية التي كانت تلهم عيسى منذ وقتٍ جد مبكر من حياته. لكننا نعرف أن اليهود، عندما أشارت إليه أمه وهو لا يزال في المهد كى يسألوه فيما يريدون أن يعرفوه عن السر في ولادتها إياه دون زواج، كان ردهم عليها: "كيف نكلّم من كان في المهد صبيًا؟"، وحينئذ أجابهم عيسى بقوله: "إنى عبد الله، أتانى الكتاب وجعلنى نبيا"، فإذا يقول أسد في هذا؟ إنه يؤول الزمن الماضى هنا في "أتانى" و"جعلنى" بأنهما يدلان على أن ذلك سوف يحدث في المستقبل لا أنه حدث في الماضى. وجوابنا هذا يدل على صحة ما قلناه عن هذه الآية، إذ معنى الكلام حسب تأويله هو أن الله سيؤتى الكتاب وسيجعلنى نبيا في المستقبل، ومعنى هذا بدوره أنه عليه السلام لم يكن قد أصبح نبيا بعد، ومعنى هذا ثالثا أنه كان صغيرا حقا، اليس كذلك؟ وإلا فلو لم يكن عيسى قد تكلم فعلا في المهد فلماذا لم يذكر القرآن ذلك عن غيره من الأنبياء أيضا، وكلهم بحمد الله قد رعى الله خطواتهم منذ بداية حياتهم وصنعهم على عينه؟ ولماذا يوافق القرآن ما جاء في بعض الأناجيل من أنه عليه السلام قد تكلم فعلا في المهد؟ أمثقل أن يحكى القرآن القصة كما رواها أحد الأناجيل مما يؤكد وقوعها، ثم يتقلب على نفسه وعلى ذلك الإنجيل مغمغما في همس لم يسمعه إلا محمد أسد ومن يلقون لقه بأن شيئا من ذلك لم يقع، وإنما هو كلام في الهواء؟ وبالمناسبة فإن القاديانيين هم أيضا ينفون كلام عيسى في المهد ويؤولونه بما يخرجه عن إعجازيته. وهذا هو ديدنهم مع الآيات الخوارق التي يؤيد الله بها أنبياءه ورسله كما قلنا.

الواقع أننى لا أستطيع أن أوافق محمد أسد على ذلك المنهج الذى سلكه واتفق فيه مع جماعة القاديانيين، تلك التى ظهرت في الهند في القرن التاسع عشر، وكان لبعض رجالها صولة في باكستان إبان نشأتها في منتصف القرن الماضى، وهو الوقت الذى كان فيه أسد هناك يعمل في وزارة الخارجية، وبالذات في الوفد الباكستانى إلى الأمم المتحدة قريبا من ظفر الله خان (القاديانى)، الذى كان وزيرا للخارجية الباكستانية ورئيس وفد الباكستان إلى الأمم المتحدة في تلك السنين. وسبب مخالفتى لأسد أن القرآن قد أثبت المعجزات لعدد من الرسل والأنبياء بعبارات لا تحتمل تأويلا إلا إذا حططنا قواعد اللغة

والمنطق، فضلا عن أن الآية ٥٩ من سورة "الإسراء" تقول بصريح العبارة رداً على مطالبة مشركي قريش لمحمد عليه السلام بأن يأتيهم بمعجزة كي يصدقوه ويؤمنوا به: "وما مَنَعْنَا أَنْ نَرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ"، وهو ما يدل على أنه كانت هناك معجزات يظّهرها الله للكفار ثم توقفت عند مجيء محمد. والآن ما معنى هذا؟ إننا لو جاربنا الأستاذ أسد لترتب على ذلك أن القرآن قد اتبع في الرد على الكفار منهجاً عسياً: فهو قد أثبت المعجزات للرسل السابقين رغم أنه لم تكن هناك معجزات ولا يحزنون، مُطْمَعاً بذلك المشركين في التعمت على الرسول والإلحاح في مطالبته أن يأتيهم هو أيضاً بمعجزات مثل الأنبياء السابقين عليه الذين أقر هو نفسه أن الله كان يعصدهم بها، وموقعاً نفسه بهذه الطريقة في مأزق غريب لا يجد مخرجاً منه إلا بالقول بأن عصر المعجزات قد ولى. ولقد كان في غنى عن هذا كله لو قال من البداية إنه لم تكن هناك معجزات في أي وقت، وإنه لم يحدث أن أتى أي رسول أو نبي بشيء منها، أو لو أنه على الأقل قد سكت فلم يتعرض لهذه النقطة، حتى إذا طالب المشركون الرسول بمعجزة كان جواب القرآن عليهم: "ومن قال لكم إنه كانت هناك معجزات حتى تطالبوه بمثلها؟".

أيقظ أن يضع الله سبحانه رسوله في هذه الزوايا الضيقة الحرجة دون أدنى داع؟ وحتى لو قلنا إن الرسول هو مؤلف القرآن (استغفر الله!) فإنه لم يكن ليقع نفسه في هذه الورطة التي لا يحمّد أحد عليها، وهو العبقري الراجح العقل البعيد النظر. ثم كيف يتفق القرآن الكريم مع ما جاء في العهدين القديم والجديد عن معجزات موسى وعيسى بالذات رغم تأكيده أنهما قد تعرضا للعبث والتحرير؟...

وعلى أساس من التأويل أيضاً نراه يتناول الجنة والنار وما فيها من نعيم وعذاب، فهو يؤكد أن أوصاف الجنة من أكل وشرب ولبس، وكذلك كل ما يتعلق باليوم الآخر في القرآن، إنما هي تعبيرات رمزية لتقريب هذه الأمور، ولا يصح فهمها على ظاهرها بأية حال: ف"اتكاء أهل الجنة على فرش بطائنها من إستبرق" كما جاء في الآية ٥٤ من سورة "الرحمن" معناه عنده الراحة التامة والسلام الشامل لا أكثر ولا أقل، "والرحيق المختوم" المذكور في الآية ٢٥ من سورة "المطففين" مجرد إشارة رمزية لمشاعر البهجة الأخروية المركزة التي لا تخطر على قلب بشر، و"صَحَّحُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ" في نفس السورة هو مجرد معنى مجازي يشير إلى سعادتهم بحظهم الطيب لأن مثل ذلك الضحك مما لا يليق بالمؤمنين، و"أنكال" سورة "المدثر" التي أعدها الله يوم القيامة لأهل الجحيم ليست سوى رمز على بقاء النفس في العالم الآخر مقيدة بمتعتها وشهواتها الجسدية، ومن ثمّ لا تستطيع بلوغ عالم الروح والصفاء،

و"صَرِيح" سورة "الغاشية"، وهو فيها طعام أهل النار، إنما هو مشتق من "الضراعة"، وليس إلا تعبيراً مجازياً... وهكذا.

ومن الواضح أنه ينظر إلى متع الجسد نظرة تقززية وأن الحياة الآخرة لديه إنما هي حياة روحية محضة. وهذه نظرة شائعة بين قطاع من المسلمين، ولا أعرف لماذا، ولا على أى أساس من آيات القرآن أو أحاديث النبی يقولون بذلك، ولا لأى سبب يحتقرون الجسد ويعلمون من شأن الروح وحدها. إن كلا من الجسد والروح هو صنعة الله، فلماذا نحتقر ذلك ونفضل هذه عليه؟ لأن الجسد يمرض ويشيخ ويتغصن ويفرز البصاق والعرق والعياص والبلغم والبول والبراز والقبح والصدید وتتغير رائحته مع مرور الوقت؟ سبحان الله! وهل الروح بمنأى عن العيوب والثلمات؟ ألا يشعر الإنسان بالملل والضيق واليأس والشح والحقد والغرور والضعفة والأنانية والشك والسهو والنسيان والغباء واشتهاء المحرمات؟ أليست هذه ألوانا من النقص تعترى الروح البشرية، وغيرها كثير؟ إذن فلم تلك النظرة الدونية للجسد؟ ثم من قال إن أجساد أهل الجنة ستكون كأجسادنا هنا على الأرض؟ إن آيات القرآن وأقوال الرسول واضحة الدلالة على أنها ستكون خالية من كل ما يسبب لنا الألم والضيق والتقزز في الدنيا، فما المشكلة إذن؟

والآن ماذا يا ترى يقول أكرم ندوى في محمد أسد؟ وماذا يقول فيه كذلك حين يعرف أنه ينفي العصمة عن الأنبياء ويرى أنهم يرتكبون الكبائر والفواحش؟ إنه يلح على بشرية الرسل والنبين، وهذا أمر لا يمكننا المشاحة فيه، إلا أنه دائماً ما يجعل إشارته إلى بشرية الرسل والأنبياء منطلقاً للقول بأنهم، مثل سائر البشر، معرضون للخطأ كلما سنحت الفرصة. فعلى سبيل المثال يقول، عند تعليقه على قوله تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أميته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم"، إن إلقاء الشيطان في أمية النبی والرسول معناه ألا يكون هدفهما الأخذ بيد أمتهم في معراج الرقى الروحي، بل إحراز القوة والتأثير الشخصي. لكن أى نبي أو رسول يا ترى استطاعت الشياطين أن توسوس له بوضع مطامع في القوة والنفوذ الشخصي فوق الغاية النبيلة التي انتدبه لها رب العزة والجلال؟ ها هو ذا القرآن الكريم بين أيدينا، وليس فيه شيء من ذلك على الإطلاق.

وفي كلمته التمهيدية التي يقدم بها لسورة "القصص" يقول إن "معظم قصة موسى في تلك السورة تصور الجانب البشري الخالص في حياته، أو بتعبير آخر تصور الدوافع وألوان الحيرة والأخطاء

التي تشكل جزءاً من الطبيعة البشرية، وهو ما يبرزه القرآن إبرازاً رغبة منه في مقاومة أى ميل عند المتدينين إلى عزو أية صفات شبه إلهية إلى أحد من رسل الله". وبعد قليل يعقّب على اقتتال المصري والإسرائيلي وتدخل موسى عليه السلام ووكّنه للمصري الوكزة التي قضت عليه دون قصد منه، فيقول إن "الآيتين ١٦-١٧ من هذه السورة تومنان إلى أن الإسرائيلي لا المصري هو المخطئ. والظاهر أن موسى قد تقدم لمساعدة الإسرائيلي بدافع من الميل الغريزي نحو ابن جلدته دون اعتبار للصواب والخطأ في هذه القضية، وإن كان قد تبين له أنه اجترح إثماً فظيعاً، لا يقتله إنساناً بريئاً فقط رغم أنه قتل غير مقصود، بل بإقامته تصرفه كذلك على أساس من التحيز العنصري".

وفي أحد الهوامش التي خصصها للتعليق على قصة يونس عليه السلام وإيقاعه إلى الفُلك المشحون حين لم يجد من قومه آذاناً صاغية، نراه يختم كلامه بقوله إن الهدف من هذه القصة في القرآن هو تفهيمنا أنه، ما دام قد "خلّق الإنسان ضعيفاً" كما جاء في سورة "النساء"، فإن الأنبياء أنفسهم غير محصّنين ضد أى من ألوان الضعف المركوزة في الفطرة البشرية. وهو ما يعنى بوضوح أنهم عليهم السلام يمكن أن يرتكبوا أى شيء مما يقع فيه البشر هانٍ أو عظيم. وقد كرر المعنى ذاته في تفسيره لقوله جلّ جلاله مخاطباً نبيه محمداً عليه السلام: "ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر"، إذ يؤكد أن الإنسان مهما ارتقى في معراج الخلق وكان حميد السجايا فإنه عرضة للوقوع في الخطأ بين الحين والحين، وأن الآية تشير من طرفٍ خفيٍّ إلى أن التحرر من الأخطاء مقصور على الله سبحانه.

وفي ضوء هذا نستطيع أن نفهم قوله بصدد الحديث عن الخصمين اللذين تسوّرا المحارب على داود عليه السلام وشكّا أحدهما الآخر إليه بأنه طلب منه نعبته الوحيدة التي لا يملك سواها كي يضمها إلى قطيعه المكوّن من مائة نعجة... إلخ، إذ تساءل قائلاً: هل الأنبياء معصومون من الذنوب والخطايا كما يقول علماء المسلمين القدامى أو لا؟ ثم يجيب بأن هؤلاء العلماء يذكرون أن داود قد أحب امرأة قائدة العسكرو أوريا ورسم خطة للتخلص منه لكي يخلو له وجه الزوجه، إذ أمر بأن يوضع في مكان مكشوف على خط المواجهة مع الأعداء حيث قُتل، وعندئذ تزوج داود المرأة وأنجب منها سليمان، وإن أنكروا في ذات الوقت أن يكون قد زنى بها إنكاراً شديداً. ومن الواضح هنا أيضاً أن أسد مع عدم عصمة الأنبياء.

لكن لو أن داود عليه السلام قد صنع بأوريا هذا الذي ادّعى عليه أكان الله سبحانه تاركه دون مؤاخذه، وهو الذي عرّض يونس عليه السلام لتلك التجربة المرعبة المؤلمة، تجربة ابتلاع الحوت له

وبقائه في بطنه أياما وليالي، لمجرد غضبه من قومه وإيقاعه إلى الفلك المشحون بسبب صلابه رقابهم ولجاجهم في الكفر والطغيان؟ إن التأمر على قتل إنسان برىء طمعا في زوجته الجميلة ليس بالأمر الهين الذي يمكن أن تُعدَّى عنه السماء بمثل هذه البساطة، وإلا فالعفاء على الأخلاق بل على النبوة ذاتها! والمضحك في الأمر أن من قبلوا من علماء المسلمين على داود هذه الدعوى السخيفة بل المجرمة كانوا حرصاء في ذات الوقت على أن يبرئوه من تهمة الزنا، وكأن قتل الأبرياء بدم بارد وتخطيط مسبق ودون خالجة من ضمير ليس بشيء بجانب هذه التهمة!

إن القصة القرآنية تقول إن الأخ الغنى لم يأخذ من أخيه الفقير نعبته فعلا، بل كل ما في الأمر أنه سأله ضمَّها إلى نعاجه. فهذا كل ما هنالك، وإذن فلو أن هذين الخصمين ملاكان أرسلهما الله إلى داود، كما جاء في بعض كتب التفاسير، لينبهاه على سبيل التلميح إلى الجريمة التي ارتكبتها، فأى جدوى من هذا التصرف ما دام قد سبق السيفُ العَدْلُ وتمت الجريمة ولم يعد من سبيل لتداركها؟ إن هذا عبث لا تليق نسبته إلى المولى عز وجل، الذي كان قادرا على أن ينبه نبيه في هذه الحالة تنبيها مباشرا يمنع الجريمة قبل وقوعها بدلا من تركه يقتربها ثم عتابه له بعد فوات الأوان؟ ثم إذا كان الأنبياء يمكن أن يجترحوا جريمة القتل والتأمر على هذا النحو، فما الفرق بينهم إذن وبين عتاة المجرمين؟ إن الإنسان العادي لا ينحط إلى هذه الدركة، فكيف يتدهَّدَى إلى مثلها الأنبياء والمرسلون، الذين اصطفاهم الله على سائر خلقه وصنعهم على عينه وجعلهم من الأخيار أُولَى الأيدي والأبصار وزودهم بالحكمة والتقوى على أحسن حال؟ فضلا عن ذلك فالقرآن نفسه يقول عن داود عليه السلام في سورة "ص" ذاتها: "وإن له عندنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ"، فكيف يمدحه الله سبحانه هذا المديح العظيم ويأتى بعضنا فيتهمه تلك التهمة الشنيعة جريا وراء اليهود الملاعين الذين لم يتركوا نبيا ولا رسولا إلا افترَّوا عليه أشنع ضروب البهتان في كتبهم؟ أنكذب القرآن ونصدق العهد القديم؟

ونأتى إلى وَكَزَّةَ موسى، التي ينبغي ألا يفوتنا أنها كانت قبل النبوة وكانت مجرد وَكَزَّةَ أرادها عليه السلام أن يدفع العدوان أو ما ظنه عدوانا على ابن جلدته في بليد كان الاضطهاد والعسف يتناوشان بنى إسرائيل فيه لا لشيء إلا لضعفهم وهوانهم وقلة حيلتهم آنذ، لكن كانت للأقدار مشيئة أخرى، إذ مات المصري بسببها. وأغلب الظن أنها كانت "القشة التي قصمت ظهر البعير". أى أن أسباب الموت كانت مهياة لظنى صفحة ذلك الرجل من الوجود، كأن يكون مصابا بأزمة قلبية مثلا، فجاء وَكَزَّ موسى في ذلك الوقت مصادفة واتفاقا ليكون هو العامل الظاهري الذي أودى بحياته. ولنلاحظ أن موسى قد

أنَّه ضميره على الفور ولذَّعه تلذيعا شديدا، فأخذ يستغفر ربه ويستهل إليه نادما أشد الندم رغم أنها ليست سقطة أخلاقية كما قلنا.

ومن الأمثلة التي وجهتها كارلا باور أيضا للشيخ السؤال التالي: ما الذى سوف يحدث في الآخرة لواحدة مثل لا تؤمن بدين، بل تعتقد فقط في وجود إله على نحو ما؟ والإجابة الجاهزة هي: طبعاً ستدخل النار. وهذا فعلاً ما قاله لها الشيخ أكرم، وإن حاول تلطيف الكلام بقدر ما وسعه التلطيف. لكن ينبغي أن يفصل الكلام في تلك القضية بعض التفصيل حتى تتضح الصورة من كل جوانبها. يقول سبحانه وتعالى: "لا يكلف الله نفسه إلا وسعها"، ومعروف أن الوسع يختلف من إنسان لإنسان: فهل نتوقع مثلاً أن يفهم الطلاب جميعاً كل ما في الكتاب المقرر، وبنفس الدرجة من العمق والصحة؟ وهل نتوقع من الأعشى أن يبصر الألوان إيصاراً صحيحاً كسليم العينين؟ وهل نتوقع من المريض العليل الهزيل أن يرفع من الأثقال ما يرفعه بطل الحديد في هذا المضمار؟ وعلى نفس الشاكلة هل نتوقع من الناس جميعاً رغم اختلافهم في الذكاء وسعة الاطلاع وعمق التفكير والمرونة العقلية والنفسية والخلفية الحضارية والدينية والاجتماعية والقومية أن يتجهوا إلى الإيمان بالإسلام وأن يؤمنوا به الإيمان الصحيح متى ما عُرض عليهم؟ هل الأوربي الذى ملأه القساوسة والمبشرون والحاخامات والمستشرقون تعصبا ضد الإسلام ونبه وعاش طول عمره يسمع عن سيدنا رسول الله الأكاذيب يكون إيمانه بالإسلام بنفس السهولة التى يؤمن بها من أتى من بيئة ثقافية وحضارية وعقلية غير مبغضة لسيدنا رسول الله، ووجد من أبيه أو أخيه أو صديقه أو أستاذه مثلاً تفهما وتشجيعاً على تتبع الحق والاستمسك به متى تبين له أنه هو الحق؟ هل اليهودية الأمية العجوز التى لا يمكن أن تشك طرفة عين في صحة دينها حسبها تربت ونشأت سوف تحاسب يوم القيامة على عدم مسارعتهما إلى اعتناق الإسلام عند عرضه عليهما بنفس الصرامة التى يحاسب بها مسلم باع نفسه للشيطان عمداً مع سبق الإصرار لقاء منصب أو مال أو خوفاً من فضيحة مخزوية أمسكها عليه شياطين الإنس، وترك دينه وارتد عنه إلى الكفر؟ بطبيعة الحال لا. ثم عندنا كذلك قوله عز من قائل: "ومن يشاقق الرسولَ من بعدما تبيّنَ له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُؤَلِّه ما تَوَلَّى ونُضِلِّه جهنمَ، وماءت مصيراً" مما يفهم منه أنه لا بد أن يتبين له الحق لكنه يعاند ويتمرد ويصر على الكفر حتى يصل جهنم، وإلا فلا. وكذلك لدينا قول رسولنا العبقري العظيم: "من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد". معنى ذلك أن المجتهد، أى الباحث الذى لم يأل جهداً ولم يدخر وسعاً وأخلص في التحقيق والتدقيق والتقصي

ولم يتيسر مخه عنادا وعصيانا بل كان مرنا مفتحا، لن يعدم الأجر إن شاء رب العباد. فماذا يريد الواحد أعظم من هذا؟ إنه إذن الجاحد للنعمة يستحق ضرب القباقيب!

وأنا من الذين يعتقدون أن رحمة الله واسعة لدرجة مذهلة بشرط أن يبذل الإنسان كل ما في وسعه بحثا عن الحق وعملا للخير، فرحمته وسعت كل شيء كما جاء في القرآن، ورحمته سبقت غضبه كما يقول الحديث القدسي، والله سبحانه يغفر الذنوب جميعا كما ورد في سورة "الزمر". وإذا كان القرآن يحكى عن جهنم على لسان المولى سبحانه: "يوم نقول لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟" ويقول جل وعلا: "لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين" مما يفهم منه أنها تطلب دائما المزيد فإنه سبحانه هو نفسه القائل في كتابه العزيز أيضا وصفا للجنة: "جنة عَرْضُها السماوات والأرض" مما يفهم منه أن جهنم رغم طلبها المزيد دائما ليست بالنسبة إلى سعة الجنة شيئا يذكر. على أن يكون واضحا أنني لا أتكلم عن شخص بعينه، بل أكفى برسم الخطوط العامة. إلا أن الذى لا أفهمه هو أن كارلا باور، حسبما تخبرنا في كتابها، قد وجدت نفسها وعزاء قلبها في القرآن وألفت صورة الله فيه جليلة عظيمة، بل استولى عليها القرآن استيلاء، لكنها رغم ذلك لم تسلم، أى لم تقم بالقفزة اللازمة من عدم الإيمان إلى الإيمان. إنه موقف غير مفهوم لأنها، فيما يبدو، ليس لها عذر في اتخاذ هذا الموقف، وبخاصة أنها قضت ردحا طويلا من الزمن استفسرت فيه عن كل شيء في الإسلام. لكن هذا هو مصيرها هي لا مصير أحد آخر، وهي حرة في اتخاذ القرار الذى يرضيها، وهي الوحيدة التى سوف تتحمل جريرته.

وإذا كان الشيء بالشىء يذكر فقد كان عندى طالب في تسعينات القرن الماضى يأتى إلى في مكتبى بالكلية ويسألنى عن مصير الجاحظ يوم القيامة، وهل سيدخل الجنة أو لا؟ فأعاجله بدورى ضاحكا: ولكن لم الجاحظ بالذات؟ فيقول لى: لأنه معتزلى! فأغرق في الضحك وأفهمه ملء صدرى وملء جيوبى وأكمامى وشنطتى وأدراج مكتبى، وملء الغرفة وباحات الجامعة كلها، بل ملء الكون أجمع. وهنا يعيد السؤال، فأجيبه وأنا لا أزال أضحك: وهل قالوا لك إننى سوف أقف على باب الجنة أنظم الدخول إليها، فأسمح لهذا بالولوج، وأحرم ذاك وأرده خائب المسعى؟ بل هل أستطيع أنا أن أعرف مصيرى في ذلك اليوم؟ إننى سأكون أسعد السعداء لو نجوت من النار ولو بلجنة راقية. ثم أكر عليه مهاجما هجوم الدعابة وأنا أنظر إلى أسنانه البنية: طبعا أنت تدخن؟ فيقول: نعم، وأنت تعرف ذلك. فأعقب قائلا: لكن عمنا الجاحظ لم يكن يدخن. ثم أسأله كرة أخرى: وهل تصل دائما؟ فيقول لى في انكسار: أحيانا وأحيانا. فأعلق بقولى: لكن عمنا الجاحظ، فيما أتصور، كان يصل كل الصلوات. ثم

أضيف السؤال التالي: وهل تقرأ كثيرا كما ينبغي أن يفعل طالب ناضج مثلك طبقا لما يريد الإسلام من أتباعه؟ فيقول وقد أخذ القلق يداخله: لا، بل قراءتي قليلة. فأقول: أعرف هذا الذي تقول، بينما عمنا الجاحظ كان يكثرى دكاكين الوراقين ويقضى فيها يومه وليله يقرأ ويقرأ ويقرأ حتى لتقول الرواية إن الكتب سقطت عليه ذات ليلة فمات. ثم أعاجله بسؤال آخر: وهل تكتب مدافعا عن الإسلام كما كان يفعل الجاحظ؟ بل هل تكتب شيئا أصلا تنور به العقول وترّوح به عن القلوب؟ فيسقط كفيه إلى الأمام كأنه يقول: أنا، يا مولاي، كما خلقتني! فيرفع صوتي بالهتاف قائلاً له: ثم تطاوعك نفسك يا منحوس أن تأتي فتسألني عن مصير الجاحظ متصوراً أنه لن يريح رائحة الجنة بعد هذا كله؟ اغرب عن وجهي يا ولدا! فيتسم من مداعبتى ويجلس إلى جوارى صامتا، وأستمر أنا في الضحك!

لكن لماذا ينظر هذا الطالب إلى الجاحظ على هذا النحو؟ لقد أفهمه هو وأمثاله بعض المشايخ أن العقيدة الإسلامية الصحيحة التي لا يقبل الله سبحانه أبدا سواها هي عقيدة أهل السنة والجماعة. وعلى هذا فقد احتكر أهل السنة الجنة والفردوس وحجزوا كل الأماكن، ولم يعد هناك ولا خرم إبرة لغيرهم. فالشيعة والخوارج والمعتزلة ولا أدري من أيضا من الفرق والمذاهب مصيرهم جهنم الحمراء بلا مشوية ولا تردد. إن الأمور عندهم مجرد قوالب كلامية محفوظة يرددونها ألياً كما سمعوها من أولئك المشايخ. وعشا أفهم أمثال هؤلاء أن الإسلام عبارة عن أوتوستراد رحيب شديد الاتساع يضم مسارات كثيرة من يسلك أحدها مجتهدا مخلصا لا يفتش على غيره ولا يظلمه ولا يفكر في إيذائه فهو ناج بمشيئة الله وكرمه ورحمته. وليس من المعقول أن نحول هذا الأوتوستراد إلى خيط عنكبوت معلق في الهواء عبر جهنم، وعلى من يريد دخول الجنة أن يعدو عدوا فوق هذا الحبل من غير استعانة ولا بزانة خشب يحفظ بها توازنه، ودون أن يتطوح جسمه يمينا أو شمالا بل دون أن يهتز له جفن أو يضطرب له قلب، وإلا سقط في الحال في الهوة الفاعرة فاها تحته تلظى فيها ألسنة اللهب تلمظا لأي عابر من غير أهل السنة والجماعة. ثم أقول لهم: إن كل فرقة من فرق المسلمين ترى في نفسها أنها الفرقة الوحيدة الناجية، والباقيون ضائعون لا محالة، لكن الله أرحم بعباده من أن يلزمهم خطأ واحدا أدق من الشعرة وأحد من السيف من خرج عنه قيد أنملة هلك هلاكا أبديا، وإن الناس مختلفة في العقول والأذواق والمشارب والافتقاعات. وبعض معارفي يظنون أنني معتزل رغم ما يقرأونه في كتبى من انتقادات لبعض آراء المعتزلة، مثلهم في هذا مثل سواهم من الفرق، إذ أين ما في كل فرقة من حسنات وعيوب حسب

اجتهاداتي، مردفا أنني أنا أيضا عرضة للوقوع في الأخطاء، وأنه سوف يأتي من يكتشف في كتاباتي عيوباً ويدل الناس عليها مثلاً أصنع أنا مع الآخرين.

وأذكر في هذا المجال أنني كتبت منذ سنوات بحثاً من عشرات الصفحات تناولت فيه التهمة المعلقة فوق رأس ابن المقفع بأنه زنديق، وطالعت كل كتاب له صلة بالموضوع، وحللت تحليلاً منفصلاً مرهقاً جميع ما وصلنا من مؤلفات الرجل وما قيل عنه وعن حياته وأخلاقه وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين وما عُزِيَ له من أقوال، وسافرت بعقلي وفكري عبر الأزمان والأمكنة المختلفة، بعد أن استعنت بكل صديق يمكنه مساعدتي، ومنهم صديق مصري في سويسرا أمدني بصورة من كتاب "الرد على ابن المقفع الزنديق اللعين" بتحقيق المستشرق الإيطالي جويدي سنة ١٩٢٨م، الذي كنت أبحث عنه منذ أكثر من خمس عشرة سنة حتى حصلت أخيراً على تلك الصورة منه بعد محاولات مضنية قبل ذلك ذهبتُ عنها، ليأتي في نهاية المطاف أحد المعلقين في المنتدى العلمي المشياكي (الإنترنتي) الذي نشرت فيه البحث المذكور فيكتب أربعة أسطر لا غير أصدر فيها حكمه الجازم الحاسم على البحث بأنني ضيعت وقتي إذ دخلت مجالاً لست متخصصة فيه وخالفت ما يقوله علماء السنة والجماعة في زندقة الرجل. ولم يفكر المعلق الطريف في أن يعمل عقله فيما كتبت ويقلب براهيني وتحليلاتي واستنتاجاتي، مكتفياً بتريد ما حفظه كأنه آلة صماء، وغافلاً عن أن الطباطبائي الذي اتهم ابن المقفع بالزندقة ومعارضة القرآن ليس من أهل السنة والجماعة بل من الشيعة، وأن الباقلاني مثلاً لم يشارك في ذلك الاتهام، وكان أقرب إلى تبرئة الرجل. ودعنا من بعض الكتاب الكبار المحدثين ممن لا يرون في الرجل زنديقاً ولا فُكر قط في معارضة القرآن.

وأترك القارئ الآن مع هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تصور رحمة الله تعالى بعباده: قال تعالى: "إنما التوبة على الله للذين يعملون سوءاً بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب. فأولئك يتوب الله عليهم. وكان الله غفوراً رحيمًا". "إن الله لا يظلم مثقالَ ذرة. وإن تَكُ حَسَنَةً يضاعفها ويؤتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجراً عظيمًا". "قل: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم". "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثْلِها، وهم لا يظلمون". "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. والله يضاعف لمن يشاء. والله واسعٌ عليمٌ". "والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يصِرُوا على ما فعلوا وهم يعلمون *

أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها. ونعم أجرُ العاملين". "إن الحسانِ يذهبن السيئات. ذلك ذكرى للذاكرين". "من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات. وكان الله غفوراً رحيماً". "ورحمتي وسعت كل شيء. فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون". "الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا: ربنا، وسعت كل شيء رحمةً وعلماً، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا، وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات. ومن تقي السيئات يومئذ فقد رحمته. وذلك هو الفوز العظيم".

وفي الحديث النبوي: "لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة معه راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه وما يصلحه فأصلحها، فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكاني الذي أضللتها فيه فأموت فيه، فرجع إلى مكانه، فغلبته عينه، فاستيقظ، فإذا راحلته عند رأسه، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه". "يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثله أو أغفر. ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً. ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة. ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة". "إن الله كتب الحسانات والسيئات ثم بين ذلك: فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو همَّ بها وعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإِنْ هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة". "من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فعمل بها بعده كُتِبَ له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً فعمل بها بعده كُتِبَ عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء". "ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها". "كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبيته: إذ أنا ميتٌ فأحرقوني ثم اطحنوني ثم دَرُونِي فِي الرِّيحِ، فوالله لئن قدر على ربي ليعذبني عذاباً ما عَذَّبَه أحد. فلما مات فُعلَ به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: "اجمعي ما فيك منه"، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: "يا رب، خشيتك"، فغفر له". "لا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى: يدعون له الصاحبة والولد، وهو يعافيه ويرزقهم".

"أتبع السيئة الحسنة تَمَحُّهَا". "عن عامر أخى الخضر بن محارب: إني لبيلاذنا إذ رُفِعَتْ لنا رايات الرُّوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسِطَ له كساء، وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسقام فقال: إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض ثم أُعْفِيَ كان كالبعير عَقَلَهُ أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضت قط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم عنا، فليست منا. فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء، وفي يده شيء قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيته أقبلتُ إليك فمررت بغِيضة شجر فسمعت فيها أصوات فرائح طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي، فهن أولاء معي. قال: ضعهن عنك. فوضعهن وأبَّت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فوالذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها. ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن، وأمهن معهن. فرجع بهن."

"قَدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صيبا في السبي فأخذته وألصقته بطنها وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أترؤن هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهى تقدر ألا تطرحه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أرحم بعباده من المرأة بولدها." "جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه." "إن الله عز وجل يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويسطر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها." "إن الله يمهل حتى يذهب شطر الليل الأول، ثم ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشق الفجر."

"أُذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب، اغفر لي ذنبي."

فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اجعل ما شئت فقد غفرتُ لك". "والذى نفسى بيده لو لم تذبوا للذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم". "إن الله تعالى يدنى المؤمن فيضع عليه كفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أى ربّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطيه كتاب حسناته يمينه. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهداد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ألا لعنة الله على الظالمين".

"إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تناذوا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحقونهم بأجنتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادى؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رَأَوْنى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: وكيف لو رَأَوْنى؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيذا، وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول: فما يسألوننى؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رَأَوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رَأَوْها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: يقول: فمِمَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْها. قال: يقول: فكيف لو رَأَوْها؟ قال: يقولون: لو رَأَوْها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم. إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم".

"قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك. يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة... ويضرب جسر جهنم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأكون أول من يميز، ودعاء الرسل يومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وبه كلاليبٌ مثل شوك السعدان. أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قَدْر عظمتها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم: منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن

يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مَنْ كَانَ يَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيُخْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدْ اِمْتَحَشُوا، فَيَصْبُ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَةِ فِي حِمِلِ السَّيْلِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مَقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ قَشَبْنِي رِيحَهَا، وَأَحْرَقْنِي دُكَاؤُهَا، فَاصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ. فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللَّهَ، فَيَقُولُ: لَعَلَّكَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ. فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: يَا رَبِّ، قَرَّبْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُ: أَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَلَّا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ وَيَلْكَ ابْنُ آدَمَ! مَا أَغْدِرُكَ! فَلَا يَزَالُ يَدْعُو، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ. فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَيُعْطِي اللَّهُ مِنْ عَهْدٍ وَمَوَاقِيقَ أَلَا يَسْأَلُهُ غَيْرَهُ، فَيَقْرَبُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فإِذَا رَأَى مَا فِيهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: رَبِّ، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ. ثُمَّ يَقُولُ: أَوَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَلَّا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ وَيَلْكَ يَا ابْنَ آدَمَ! مَا أَغْدِرُكَ! فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ. فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكُ، فإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ أَذُنٌ لَهُ بِالْدُخُولِ فِيهَا. فإِذَا دَخَلَ فِيهَا قِيلَ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا. فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا. فَيَتَمَنَّى حَتَّى تَقْطَعَ بِهِ الْأَمَانِي، فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا لَكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا. قَالَ: وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ جَالِسٌ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يَغْيِرُ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ حَدِيثِهِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ: هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعِشْرَةُ أَمْثَالِهِ".

وأخيراً في نهاية الكتاب تتوقف الكاتبة لترصد التطورات التي أدخلتها علاقتها بالشيخ على شخصيته وسلوكه، ومنها مثلاً انفرادها بها في المتحف الأشمولي بأكسفورد مثلاً لإعطائها دروساً في القرآن، مما تبرز هي نفسها خروجه على ما تواضع المسلمون عليه في الهند، وبخاصة إذا كان فاعل ذلك عالماً من ندوة العلماء هناك. وهو ما يذكرني بأول تقرير من تقارير مؤسسة راند حيث نجد خطة أمريكا في التخلص من الإسلام من خلال تقريب من يسمون بـ "المعتدلين" واستخدامهم في ضرب المتشددين تجاه الغطرسة الأمريكية والمناضلين ضد تدخلها في شؤوننا والعبث بديننا وصوغه حسب مصالحها وأهوائها، ثم بعد تخلص الأمريكان من المتشددين ينقلبون فيضعون أيديهم في أيدي العلمانيين لضرب المعتدلين المغفلين... وهكذا دواليك! وهذه المؤسسة تدعو حكومة بلادها إلى عدم الوقوف مكتوفة الأيدي أمام التفاعلات الاجتماعية التي تعصف ببلاد المسلمين ووجوب السعي للتمييز بين الطوائف المختلفة وإذكاء التباعد بينها، إذ تقوم الدراسة بذكر الاتجاهات الدينية المختلفة ما بين أصولية وتقليدية

وإصلاحية وحدائية وعلانية، واضحة حدودا واضحة تبين مواقف أصحاب هذه الاتجاهات المختلفة من القضايا المحورية كدور المرأة في العمل العام وتعدد الزوجات وحقوق الأقليات في المجتمع المسلم والحجاب والجهاد وغير ذلك. كما تقوم الخطة التي يدعو إليها واضعو التقرير على ضرب الطوائف الدينية الإسلامية بعضها ببعض عن طريق تقريب هذه الطائفة أو تلك في وقت معين للارتفاع بموقفها أو رأيها الذي ترى الإدارة الأمريكية أنه يتطابق أو يقترب مما تريده في القضية المطروحة، حتى إذا ما تم التغيير المزمع انقلبت أمريكا عليهم وركلتهم ركلتها المعروفة، ثم استدارت لغيرهم تستعين بهم إلى أن تنال لبانتها منهم فتركهم بدورهم بحذائنها الذي لا يرحم ولا يعرف للوفاء ولا لتقدير الجميل معنى... وهكذا دَوَّالِك!

وإن الإنسان ليتساءل: بأي معنى تتدخل أمريكا في ديننا بحيث ترى من حقها أن تغيره وأن من واجبنا أن نصيخ لما تقول ونسمع له وننفذه دون أدنى اعتراض؟ والجواب أن أمريكا إنها تتدخل بحق قوة السلاح. وهذه حقيقة لا يمكن أحدا أن ينكرها، فلو لم تكن أمريكا قوية بقنابلها ومدافعها وطائراتها وبوارجها ودباباتها وصواريخها ومدركاتها وأجهزة اتصالاتها ومخابراتها وميزانياتها ومواردها الاقتصادية وعلومها واختراعاتها وصرامة نظامها وتخطيطها وطموحها لسيادة العالم ومثابرتها على تحقيق ما تصبو إليه وتجهيز البدائل المختلفة مقدما وعدم الانتظار إلى الوقت الضائع على طريقتنا، حتى إذا ما سُدَّ في وجهها طريق استطاعت أن تجدد في الحال أو في الوقت المناسب على أقل تقدير طريقا آخر، لو لم تكن أمريكا قوية بهذه الطريقة وإلى هذه الدرجة لما استطاعت، بل لما فكرت بمجرد تفكير، بل لما خطر لها أصلا أن تتدخل في حياتنا وفي أخص خصائص أمورنا على هذا النحو العارى الجلف الوقح.

وعلى هذا الأساس فلو أردنا أن نكف أمريكا عن مثل هذا التدخل فليس أمامنا إلا أن نكون أقوياء إلى الحد الذي يردعها عن هذا التصرف حيالنا والاستهتار بنا وبشؤوننا وبيدتنا والاحتقار المائل لنا. وليس شرطاً أن نكون في نفس قوة أمريكا الآن، وإنما يمكن أن نلزمها حدودها لورأت أن مثل هذه التصرفات التي تمارسها معنا سوف تكلفها غالبا، وذلك عن طريق الاستغناء عنها قدر المستطاع، وعن طريق الصلابة والقدرة على الصمود في وجه مخططاتها، وعن طريق المقاومة المسلحة، وعن طريق تلاحم الشعوب مع حكوماتها وغيرة الحكومات على مصالح شعوبها واحترامها لها، وعن طريق الشورى، وعن طريق العلم والثقافة والعمل الجاد والإنتاج والإبداع في كل المجالات، وعن طريق الإقلال من الكلام الفارغ الذي لا يجدي والإكثار من العمل، وعن طريق التنبيه للعملاء الذين ينتقهم

أعداؤنا من بيننا كى يثبوا التخذيّل فى صفوفنا ويدعوننا إلى الاستسلام لهم ويعملوا على نشر أفكارهم وقيمهم ويشككونا فى ديننا وتاريخنا ورموزنا، وكذلك عن طريق الوحدة بين الأمم العربية والإسلامية. وهذه النقطة الأخيرة فى متهى الأهمية، فالغرب إنما يرمينا عن قوس واحدة مهملها بدا الأمر لنا أحيانا غير ذلك، إذ هو يتصرف نحونا بوصفنا أعداءه الألداء. وإيانا أن نتخدد بموقف بعض الدول الغربية حينها يبدو من هذا السياق أو ذاك أنها تعارض سياسات بعضها الآخر تجاهنا. وهذا هو السبيل الذى يجب أن نتجهه إذا أردنا أن تكون لنا قيمة فى سوق العلاقات الدولية ولا نكون هملا كالبهائم التى ليس لها صاحب يسأل أو يدافع عنها. ومنذ قديم الزمان، والقوة فى عالم العلاقات البشرية هى التى تقرر ما يمكن وما لا يمكن. أما ما يقال من أن الحق وحده يغلب القوة فهو كلام فارغ لا قيمة له فى دنيا البشر. ذلك أن القوة تتكون من عناصر كثيرة من عناصر النجاح والانتصار، أما الحق فليس سوى عنصر واحد لا يستطيع شيئا بمفرده بل لا بد له من عناصر أخرى من عناصر القوة كالإيمان به والاستعداد للمناخنة عنه والتذرع لنصرته بقوة السلاح والتخطيط والدهاء والصبر وطول البال وتجميع الحشود حوله وإعداد كل ما يلزم للمعركة من طعام وشراب وملابس وتوعية... إلخ.

وعلى هذا فإذا أردنا فعلا أن نكون مالكين لمصائرنا وأن تكون القرارات التى تتعلق بمستقبلنا ومستقبل بلادنا من صنع أيدينا، فليس من سبيل أماننا إلا القوة: نكتسبها إذا لم تكن متاحة لنا، أو نحافظ عليها إذا كانت فى حوزتنا. ولا شك أن الناظر فى أحوال العرب والمسلمين فى هذه اللحظة التابعة البائسة من تاريخهم لن يسه أبدأ ما يراه من هذه الأحوال: فالكسل والبلادة والكذب والنفاق وقلة الصبر وكرهية العمل والعجز عن الإقتان والشعور بالهوان والرضا بالمذلة والانسحاق أمام الغرب هو سيد الموقف، كما أننا لا نحاول صادقين الخروج من هذه الدائرة الجهنمية أبدا، متناسين أن البشر إنما هم الذين يصنعون إمكاناتهم إذا شاؤوا أو يفرطون فيها!

وسبيل القوة، كما يراه المسلمون المتمسكون بدينهم، هو العلم والعمل والإقتان والكرامة والحرية والعدل الاجتماعى والتعاون والمساواة وسيادة القانون والنوق الراقى والحساسية العقلية والنفسية وصلابة الأخلاق، ومن قبل ذلك العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج انطلاقا من الإيمان بالله وملأنكته وكتبه... إلخ. اليوم الآخر، لا كأساس للجدال والشقاق كما هو مشاهد الآن بين كثير من المسلمين الذين أصبحوا كلهم بقدرة قادر مفتين متضلعين من الفقه وعلم الكلام، بل كأساس للعمل والتجويد والخوف من الله ومن حسابه الشديد الذى لا يفلت شيئا دون أن يؤاخذ عليه، اللهم

إلا كان لنا فيه عذر من ضعف قاهر أو ظرف كاسر! ومن سبيل القوة أيضا اليقظة والتنبه لما يحيكه لنا أعداؤنا ومن يوالوهم من بين ظهرانينا ممن يشاكلوننا لسانا وسخنة وموطنا، لكنهم يخالفوننا قلبا ومتزعا وضميرا باعتزازهم بأعداء البلد والدين والأمة وركونهم إليهم وضلوعهم معهم، وإذا فوئخوا في شيء من ذلك كان جوابهم: إنما نحن مصلحون. وما هم في الحقيقة بمصلحين، بل هم المفسدون! هذا هو السبيل لامتلاك القوة، أما تضييع الوقت والجهد في التفاهات والشكليات التدينية واستعراض العضلات في ميدان التقعر والتفيهق الذي حذرنا منه وبغضنا فيه سيدنا رسول الله فهو عَرَضٌ من أعراض التخلف ودليل على أن أصحابه مرضى يعانون من ضعف في دينهم وأخلاقهم، وليس من شأنه أبدا أن يرفع أمة من حضيتها أو يتشل فردا من الوهدة التي تردى فيها، وإن حَسِبَ التافهون المتحذلقون أنهم يحسنون بعملهم هذا صنعا.

وأخيرا فقد لاحظت تركيز الشيخ أكرم ندوى على أن العبرة بالحياة الآخرة، أما الدنيا فلا قيمة لها لأنها عابرة وزائلة. وهذا كلام خطير رغم أن الدنيا فعلا زائلة وعابرة، فالدنيا في الحقيقة نعمة إلهية، وعلينا أن نقبلها بشعور غامر بالجميل من يد المولى سبحانه شاكرين حامدين، ونبذل كل جهد ممكن في ترقيتها وتحسينها ونعمل على إحراز عوامل القوة فيها حتى لا تأكلنا الذئاب المتريصة بنا. والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف كما قال الرسول الكريم عليه السلام، واليد العليا خير من اليد السفلى، كما أن ترك المسلم ورثته من بعده أغنياء خير من تركهم عالة يتكففون الناس. بل إن الرسول ذاته ليحض على غمك القوة العسكرية: "ألا إن القوة الرمي" تطبيقا لقوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ". وجعل القرآن التقاعس عن الإنفاق على الجيش وتسليحه وعدم الانخراط فيه للدفاع عن الدين والوطن إلقاء باليد إلى التهلكة. ومن نعم الله على عباده البيت الواسع والزوجة الصالحة والطعام الهنيء. وإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. والنظافة من الإيمان. وتمشيط الشعر وتنظيف الأسنان وتبييضها من السنة المحمدية. وهذا كله، وهو مجرد أمثلة على الطائر، يدل دلالة حاسمة على أن الإسلام لا يعرف إهمال الدنيا. بل إن المسلم إن أهمل دنياه فلسوف يخسر دنياه وأخراه جميعا، إذ الدنيا مزرعة الآخرة، ولا حصاد هناك ما لم نزرع الأرض هنا ونبذل جهودنا في تكثير الثمار وتحسينها. والتقوى التي يكثر الشيخ من ذكرها وإبرازها ليست شيئا هيواليا بلا ملامح، بل هي كل نشاط خير نقوم به تجاه أنفسنا أو أسرنا أو وطننا أو ديننا أو الإنسانية جمعاء وسائر المخلوقات. إنها العمل الجاد والإتقان والتنظيم ومشاورة

الآخرين في المشروعات التي ننشئها والاجتهاد في تطويرها وترقيتها وإحراز الثروة والغنى والقوة الاقتصادية، وإلا لكان عبد الرحمن بن عوف مثلاً آثماً، إذ كان من الصحابة الشديدي الثراء بما كان يزاوله من تجارة رغم أنه هاجر إلى يثرب وهو لا يملك شيئاً يذكر.

إن الدنيا لو كانت فاقدة القيمة لما امتن الله بنعمه فيها على عباده، بل لما خلقها أصلاً ولوجدنا ستارة الخلق تفتتح على الحياة الآخرة مباشرة دون أن تكون هناك دنيا أساساً. لكننا ننظر في القرآن فنجد تذكيراً لنا وامتناناً علينا بشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها وأنهارها وبحارها ونباتها وحيوانها وطعامها وشرابها ورياحها ومطرها وظلالها وجبالها وبيوتها وما وهب الله عباده فيها من الزوجات والبنين والحفدة. أجل كيف يمتن الله على عباده بكل هذه النعم لو كانت الدنيا ونعمها بلا قيمة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلم يأتى لم يبق الشيخ في الهند مكتفياً بأقل القليل من الطعام وأرخص الملابس وأضيق البيوت ويمارس التقوى على راحته دون أن يتعرض لإغراءات الدنيا والحضارة الغربية في بريطانيا ويتعرف إلى صحفية أمريكية يهودية تشكك في كل شيء يتعلق بالإسلام يهدوء ودهاء وتدافع عن حق الشواذ من اللوطيين والسحاقيات وتشر الريبة في النفوس تجاه المجاهدين الذين يذودون عن أوطانهم ضد الاستعمار الغربى والصهيونى ولا تقول كلمة واحدة تدين بها أمريكا أو إسرائيل أو أى بلد غربى، ويخلو بها بحجة إعطائها درساً في القرآن رغم أنه يعطى سلسلة من الدروس العامة تستطيع أن تلتحق بها وتبتعد عن الانفراد به وحدها؟ وكيف يقال ذلك عن الدنيا، والأنبياء والملائكة جزء منها؟ وكيف يقال ذلك عن الدنيا، والله قد جعل الإنسان فيها خليفة، وزوده بها لم يزوده به ملائكته فعلمه الأسماء كلها مما تفوق به على الملائكة، وأسجدها له؟ ثم كيف يقال ذلك عن الدنيا، والدنيا هى مسرح الحضارة البشرية بكل ما فيها من إبداع عجيب شاهق وعبقورية عقلية وأدبية وفنية وصناعية وبيوت ومعابد ومدارس وصورح للتمثيل وملاعب ومسابقات رياضية وسيارات وطائرات وغواصات وصواريخ وأدوية وأدب وتصوير وموسيقى ومطابخ ومزارع ومصانع ومتاجر وكتب ومذياع ومرناة ومشبك... إلخ؟

وكيف يصف الشيخ كل تلك المسرات والمباهج والسعادات والخيبات والآلام والتعاسات التي تتعاور نفوسنا على الأرض بأنها لا معنى لها؟ وكيف يصف الغرائز والشهوات والتطلعات والآمال والابتهالات والطاعات والعصيانات والإنجازات والكوارث التي نعيش تحت مطارقها طوال الوقت بأنها لا معنى لها؟ أو كُتِل ذلك حقاً لا معنى له؟ نعم نحن نعرف أن متاع الدنيا بالنسبة إلى الآخرة شيء

قليل، لكنها في حد ذاتها ليست بالقليلة إطلاقاً. إن هذه الدنيا تضم في كنفها المجتمعات والدول والتاريخ المتناوح الآماد والأجيال المتتالية التي لا تكاد تنتهي، وفيها تتم الحروب والمعاهدات والحب والبغض والزيجات والخيانات والطلاقات، وعليها تُقْبَل بل تتراعى تحت أقدامها ونحن مربوطون إليها بأمراس من حديد لا يمكن الإفلات منها أبداً مهما قست علينا وحرمتنا وخيبت آمالنا فيها وانهاالت علينا مصائبها. أوكل ذلك لا معنى له؟ إن الدنيا لو لم يكن فيها سوى "مرتفعات ويزرنج"، التي أقرؤها الآن للمرة لا أدرى الكَم منذ طالعتها لأول مرة حين كنت في الإعدادية عام ١٩٦٣م، بما فيها من أحزان ومرارات ومشاعر عاصفة وقسوة وحقد وطباع متوحشة وثلوج وبرار وموت وإحدا، لكفى بها سبباً كي نعرف أن الدنيا ليست شيئاً لا قيمة له. وإن لم يكن في كلامي هذا مقنع للشيخ فسوف أدعو الله أن يحیی مستر هيكليف الذى لا یرحم أحداً، ویسلطه علیه. وأنا زعيم أنه سوف یشفی من هذا الكلام العجیب الذى یقوله عن الدنيا.

فهرست الكتاب

=====

هل القرآن يقبل التفسير وتقيضه؟ ص ٥

أكرم ندوى ص ٢٤

الإسلام عند أكرم ندوى ص ٥٠

المحدثات ص ٧٣

الخميراء ص ٩٦

النساء في الإسلام ص ١٢٦

عُمْرَة أكسفوردية ص ١٥٢

أهل الكتاب ص ١٧٧

الإسلام: دين جديد أم لا؟ ودين عدواني أم لا؟ ص ٢٠٦

الجحيم الأخرى ص ٢٢٨

Jesus, Mary, and the Quran, P. 133

Beyond Politics, P. 142

The Pharaoh and His Wife, P. 149

War Stories, P. 161

The Last Lesson, P. 169

CONCLUSION

Everlasting Return, P. 180

ABOUT THE AUTHOR



Jamie Smith Photography

CARLA POWER writes for *Time* and was a foreign correspondent for *Newsweek*. Her writing has appeared in *Vogue*, *Glamour*, *O*, *The Oprah Magazine*, *The New York Times Magazine*, and *Foreign Policy*. Her work has been recognized with an Overseas Press Club award, a Women in Media Award, and the National Women's Political Caucus's EMMA award. She holds a graduate degree in Middle Eastern Studies from Oxford as well as degrees from Yale and Columbia. She lives in England with her family.

TABLE OF CONTENTS

INTRODUCTION

A Map for the Journey, P. 3

PART ONE

THE ORIGINS

1

The Quran in Twenty-Five Words, P. 16

2

An American in the East, P. 23

3

A Muslim in the West, P. 30

4

Road Trip to the Indian Madrasa, P. 46

5

A Migrant's Prayer Mat, P. 61

PART TWO

THE HOME

6

Pioneer Life in Oxford, P. 70

7

Nine Thousand Hidden Women, P. 80

8

"The Little Rosy One", P. 86

9

Veiling and Unveiling, P. 97

10

Reading "The Women", P. 109

PART THREE

THE WORLD

11

A Pilgrim's Progress, P. 122

felt oddly bereft. He'd gone to his mosque, and I was left, like my father before me, to admire the beauty of Islamic cultures without enjoying the full expanse of belief. Only nearing the end of our lessons did I recognize the irony of the year's project. Studying the Sheikh's faith had allowed me to practice mine. Our lessons were rites paying tribute to my belief that to be fully human is to try to understand others. Had he been entirely convinced of my worldview, or me of his, we would have risked destroying the fragile ecosystem of our friendship, made richer and stranger by our differences. For if understanding difference is among my own key values, it is also a Quranic one. Only through diversity, says the Quran, can you truly learn the shape and heft of your own humanity:

O humankind, We created you from a male and a female,

and We made you races and tribes

for you to get to know each other. (49:13)

And also to know ourselves. Without a year trying to see the world from Akram's vantage, I wouldn't be able to make out the contours of my own.

brothers and sisters didn't talk to one another, he was now meeting a woman—a nonbeliever, no less—in an art museum. Was our conversation not my precious pluralism in action? With exquisite manners, the Sheikh said as much when I asked him whether there were elements of Western culture that might shock his younger self. “For example, I’m sitting here with you now,” he said. “If someone sees in Nadwah that I am sitting with you, they cannot imagine it! An *alim* with a woman!”

In the most polite way, he was saying: “I’m here, aren’t I?” We were talking. About death. And sex. And marriage. Nature. What it means to be human. That we didn’t always agree, or that he didn’t fall into raptures over Western civilization on our way to the Islamic gallery—what of it? Surely he had offered me much more than a few shared seconds in front of a pretty bit of art.

When the novelist Salman Rushdie was living under a death threat issued by the Ayatollah Khomeini for alleged blasphemy against Islam, Rushdie wrote of literature as a sacred space, remaining “the one place in any society where... we can hear voices talking about everything in every possible way.” There were no voices in the Quran, just a single, omnipresent one. Nor, despite passages of exquisite power and beauty, was the Quran literature. But for the Sheikh, the Quran was as infinite as a novelist deems literature to be. For me, reading the Quran with Akram allowed us to talk, if not about “everything in every possible way,” then at least about far more than I ever thought possible. At the start of these lessons, I’d known of the dazzling possibilities of Islamic culture to embrace points of view like my own. But I’d expected to find them among Muslim progressives, not with a conservative madrasa scholar.

The lesson that followed, as we sat on the wooden museum bench surrounded by fragments of Muslim cultures, reminded me how tricky these boundary crossings could be. We were talking of the widespread practice in many Muslim societies of marrying girls young. Predictably, I’d railed against it. What about education? Personal choice? Hopes for a career? The usual, in short.

The Sheikh listened—and then suggested I take a look at Western civilization. One had to look back only three hundred years or so in Europe’s history, back before the Industrial Revolution, to find early marriages. No public schools, or truant authorities, or Rights of the Child manifesto, or underage statutes. My outrage may have burned, but it cooled slightly after Akram reminded me that Western absolutes were made, not born. What I take as Truth is built on a history of revolutions—political, industrial, and personal. A girl’s right to school and a childhood weren’t fixtures of the landscape, like a boulder or an ocean. They had to be fought for, and then created. It was bracing, this reminder of my own culture as a living tradition, built by framing and reframing the norms of what justice means.

“When we grow up in a certain culture, a certain context, the mind is so fixed that we cannot think in any other,” the Sheikh observed, picking up his coat. “It is very hard to see the whole situation.”

Having gently pointed out the girders holding up Western morality, he left for evening prayers.

I sat for a moment on the bench in that museum, surrounded by all manner of Islamic objects. A twelfth-century turquoise bowl from Central Asia. An Iznik tile painted in russet and lapis. An Egyptian mosque lamp. When Akram left, I

On a wall hung a set of Persian tiles decorated to illustrate "Yusuf and Zuleikha," a poem by the Sufi poet Jami that was based on the Quran's story of Yusuf. In lapis and turquoise, with touches of pink to set off the cool blues, some eighteenth-century Iranian artist had painted the women of Memphis, lounging on rugs and looking, amazed, at handsome Yusuf. I was ridiculously pleased to stumble upon this so soon after the Yusuf lecture, and to see it with the Sheikh. The tile hung a short walk from where he worked—what were the chances? To find an image based on the sura of Yusuf in the Ashmolean, that venerable British institution, seemed like some sort of cosmic nod. We stood there for a minute, and it felt urgent that he acknowledge it. For a secularist like me, the coincidence reinforced Akram's lesson on the circle and the line. What prayer gave him, art gave me. Each reassured that no matter what space you find yourself in, even in this fractured world, there was a unity. The sign that you weren't alone, the means of making a connection. I'd grown up trying to bridge my life in St. Louis with my worlds in Kabul or Cairo or Delhi. To make the world seem whole, I'd read Rudyard Kipling in Clayton, Missouri, and tales of Midwestern prairie girls on the road to Kandahar.

Besides, the tiles were gorgeous. Look at Yusuf, I exclaimed, with that halo-disk illuminating his head! How the artist had managed to make him look stoic, but also shocked, with one eyebrow slightly raised? The bowls of fruit, the lounging women?

Akram glanced at the tiles for a second. He nodded politely. He knew the poem they were based on, he said. And that was that. He turned away and made for a nearby bench, sitting down to begin the lesson.

At first I wondered whether I'd upset him. I knew that like many Muslims, he preferred to avoid figurative art. Just now, getting lost looking for the Islamic art, we'd strode past a Michelangelo sketch and a row of Greek busts without slowing our steps; they might have been McDonald's ads for all the attention he gave them. He was simply indifferent: unmoved by the art around him but willing to sit on a bench in the middle of it.

Later, when I asked him whether I'd offended him, he'd assured me I hadn't. It was simply that Muslims didn't hold with images of prophets, he explained. "To depict them limits them," he explained. "Out of respect for the prophets, we don't like to limit them."

That upended my pat ideas of art's power. For Akram, pictures stunted the imagination rather than stretched it. I felt deflated. Outflanked, somehow. Looking back on it, I wonder whether I'd been hoping, that day at the Ashmolean, for some sort of conversion from the Sheikh. Not a religious conversion, obviously. But I know I hoped he'd see the tile, or perhaps a Titian, and see, for a minute or two, its beauty. There was, I suspect, an element of Show and Tell in me, some need for approval, or if not that, for connection. The year had included endless amounts of hospitality and kindness from him, and boundless generosity with his time and expertise. But I suspect I wanted some mutual curiosity from him. Just for a second, I wanted him to take a step toward my worldview, as I'd done toward his. It wasn't that I wanted him to change his outlook, just to acknowledge the beauty of mine.

In truth, he had already endorsed many of my values simply by showing up at the Ashmolean. By the standards of Uttar Pradesh Muslim purdah, just agreeing to my solo lessons was a major cultural leap. Born in a household where

something in opposition to science? It crumbled. Akram simply saw science as another way of understanding God's creations. The universe was big enough for both approaches. ("Never," said Arzoo, "when I was doing my physics degree at Oxford, did he ever say I shouldn't do the course." Just the opposite. "He kept telling me that I must finish it.") My belief that the devout were spared doubt? Groundless. Flattened the day Akram confessed that he worried, often, that he was being faithful in the wrong way, and that on the Day of Judgment, his devotion would be found wanting.

My neat opposition between my own post-Enlightenment worldview and the Sheikh's Muslim one? Pretty nearly rubble. The day I looked in a book by the secular humanist thinker A. C. Grayling, I started in recognition at his checklist of Enlightenment values: "pluralism, individual autonomy, democracy, the rule of law, tolerance, science, reason, secularism, equality, humanistic ethics, education, and the promotion and protection of human rights and civil liberties." Most of these values were Akram's—the great exception being secularism. Indeed, he strove to make God central to everything he did. Politics, society, art—all were subsumed to worshipping God. But I was repeatedly amazed at how the Sheikh's faith allowed, even encouraged, critiques that echoed my own. Among other things, the year was a reminder of the possibilities of Akram's particular brand of piety, with its defense of the most basic human rights, its stress on individual conscience over state-mandated laws, and its live-and-let-live ethos.

True, when we talked about women's domestic roles and anything to do with gay rights, I'd bumped up against the limits of the Sheikh's expansiveness. If I really wanted a reading of the Quran whose outlook utterly matched my own, I would need to look to feminist pioneers like Amina Wadud, Asma Barlas, and Asghar Ali Engineer—or indeed, to the new generation of bloggers, writers, and activists building on their work. Should I want a take on homosexuality more in line with Western legal thinking, I would need to refer to the work of scholars like Scott Siraj al-Haqq Kugle, whose work on Islamic homophobia has included a return and a rereading of the story of Lot, or Lut, in the Quran.

When the Sheikh and I did disagree, our collisions only served to remind me how relatively recently the prevailing Western views had formed. Our lessons coincided with the evolution of what tolerance and human rights meant in Europe and North America. Month by month, it seemed, more states and nations expanded their definitions of the meaning of justice. Of what constituted a family. A couple. Equality. When I was born, gays in England were criminals. Midway through writing this book, they won the right to be brides and grooms. Lessons with the Sheikh underscored not merely the dynamism of contemporary Muslim societies, but also the dynamism of the West.

* * *

Not long after his lecture on Yusuf, Akram and I met in the Ashmolean Museum in Oxford for a lesson. We strode past the Greeks and Romans and skirted the Renaissance, heading straight for the Islamic collection. We passed two balding men straining to see a blue-and-white Iznik tile. A lithe young woman in jeans, earbuds firmly in her ears, gazed at the cypress on a frieze from Damascus. As we walked, something caught my eye. "Come," I said to the Sheikh. "You've got to see this!"

he's found a past that argues for a liberated present. Unlike the traditions invoked by the men who would confine women to the home, he's discovered a past that propels women forward.

The Sheikh's beloved prophet Ibrahim had warned against worshipping in a certain way simply because one's forefathers had done so. Akram's counsel to contemporary Muslims echoes Ibrahim's warnings of spiritual sclerosis: "When a culture focuses on the outer aspects of a faith—like a headscarf—their religion just becomes about identity," Akram cautions. "At the end of the day, people are carrying a dead body, with no soul." Go back to the sources, back to your prayer mats, and make your faith your own, he counseled. Don't do what everyone else does. Read. Think. Brush off the dust of tradition, and with it the certainties of your ancestors. True worship requires one to look past burqas, beards, and sharia laws, which too often are just the props, not piety itself. True worship was *taqwa*, consciousness of the Return. And this ever-present sense of the Return gave Akram the grace to set out in the world. With it he moved nimbly from the village of Jamdahan to the city of Lucknow to the West, unburdened by bitterness and without feeling conflicted, or crippled by loss.

Migrants, particularly Muslim ones, are often cast as people whose lives are broken in two by moving to the West. In the United States and Europe, the post-9/11 focus on security and integration among Muslim minorities has meant that hyphens, such as those in "Muslim-American" or "British-Pakistani," are read as breaks, not bridges. But migration can double a self as well as halve it. Salman Rushdie has called migrants "translated men." Too often, it's assumed "that something always gets lost in translation," Rushdie wrote. "I cling, obstinately, to the notion that something can also be gained."

Much has been gained through Akram's translation from India to England. His migration has meant a layering of cultures rather than a break with them. Life in the West provided perspective, allowing him to see which parts of the faith were Islamic and which were simply ancestral traditions. Akram's Oxford life gave him the money to return to Jamdahan and to set up a girls' madrasa. It meant he returned to Nadwah to deliver a lecture widely perceived as daring, in the community of ulama, in its suggestion that Muslims must share the blame for their contemporary ills. In Britain, he could seem like a translated man. But step back far enough from the globe to hold both India and Britain in a single gaze, and you'll see him not as translated, but as translator.

The writer Mustafa Akyol pointed out that Muslim cultures often clung to rigid, unchanging precepts and created traditions when they felt threatened by the West. Like every other culture, Muslim societies have shown the greatest flexibility in times of confidence. The powerful Ottoman Empire, noted Akyol, never lost its Islamic identity even as it gave Jews and Christians equal rights as citizens and abolished apostasy laws. There was a show of similar confidence, too, in a 2011 Pew survey of Muslim Americans. Most agreed that there was more than one true interpretation to Islamic teachings, and that different religions can lead to eternal life. When I asked the Sheikh how I could deepen my understanding, his answer invariably echoed the command that Muhammad heard: "Read." Keep reading the Quran, he told me at our last lesson. Read it, and read it again. Return.

As I talked to Akram, my own fundamentalist beliefs frequently collapsed. My assumption that literalist readers of scripture like the Sheikh saw their faith as

The line was not your problem, he said. The circle was: "Observe it, always, in the fear of Allah." So it is that for Akram, the high point of every hajj was a circling: the ritual circumambulation of the Kaaba. Walking seven times around the black stone "is always the most beloved thing in my heart," he said. Every day circled back to his God. Thirty-five times a week—and often many more—he returns to prayer. In standing, kneeling, bringing his forehead to the earth, then standing again, his attention returns to his origins and destination, which are one and the same. On good days, prayer could feel like returning to "the arms of your mother, when you are a child," he said.

I continue to envy him that feeling, even though I still don't understand the Quran as a unified whole. While many passages move me, none has moved me to tears. To be fair to my teacher, it's a truism that the Quran cannot be translated. Anyone who can't read it in the classical Arabic, we are repeatedly warned, misses much of its poetry and power. I began my year feeling really bad that I couldn't read it in the original. Over the year, I've grown to feel less so, even though I now have accumulated even more copies of the Quran than I had when we began studying. Next to my college paperback of Muhammad Marmaduke Pickthall's translation, with his florid verbal flights, and my Saudi Arabian-issued tome, I now have four more translations. To the purist, each new effort at interpretation might signal the impossibility of translation, a reminder of the receding of a Single Truth. But there is another way to look at the impossibility of translation, a way that chimes with my own secular humanist creed: each new translator embarking on a fresh foray to understand the Quran suggests not its untranslatability, but its richness.

When I began my Quran lessons, I assumed, with pert certainty, that I would read a book through and learn what was inside it. The first clue that I couldn't had arrived during that first lesson, back at the Nosebag. "Ah, but is it a book?" the Sheikh had asked. I'd patted my paperback, clueless as to what he meant. I'd come a long way from my earliest encounter with the Quran, making it a Brontë novel for my doll, but I still hadn't understood that it was far more than a much-revered book. Over the course of the year, I began to see that the Quran was not merely a set of pages between two covers. Calling it a book, something one can read from beginning to end, embalms it in expectations. It was just another way of limiting it into something small: an amulet, a manifesto, an instruction guide, a political tool. In the life of a Muslim like Akram, its meaning is much more diffuse. So, too, is the Quran's reach in Muslim societies, where its words blare from mosque loudspeakers, issue from radios and CDs, or hang on necks or walls. Grasping at what the Quran might be, I can only settle on the metaphor of return. It is a place to which the faithful return, again and again.

Much as they do to prayer. Scientists who have studied the postures of Muslim prayer have found they encourage calm and flexibility. Standing straight in the opening stance, they discovered, strengthens musculature. Bowing stretches out the lower back and hamstrings. The pose of sitting after prostration keeps joints mobile. Akram's prayers have rendered him culturally supple, too, stretching his humanity in surprising ways. The act of return—to his prayer mat, to his Quran and his classical texts—has often afforded an expansion of his worldview, not a restriction of it. Going back to primary sources of hadith scholarship has allowed him to see a pattern that others had missed, or had chosen to ignore. In piecing together a history of thousands of learned women,

CONCLUSION

Everlasting Return

When the call came telling the Sheikh that his mother had died, his first words were those that Muslims traditionally use on news of death or hardship: *Inna lillahi wa inna ilayhi rajioon*. "We belong to God, and to God we return." Taken from the second chapter of the Quran, the phrase cradles the speaker, the listener, and the deceased together in a common destiny. Its power derives from its symmetry: our origin is our destination, in our end is our beginning.

There's a story the prominent British sheikh Abdalhaqq Bewley tells about how those six words changed his life. Born a Christian, he indulged in the excesses of the Swinging Sixties in London before he embraced Islam. His conversion came when, as a young man, he was traveling through Morocco. One evening in Fez, he and two companions hiked to a hill above the city to watch the sunset. Since it was time for evening prayers, the sky was crisscrossed with calls to prayer, the muezzins calling the faithful from minarets. The three men met a shepherd passing with his flock. One of his companions, who spoke excellent Arabic, greeted the old man, asking, by way of conversation, where he was going. "We belong to God," the shepherd replied, "and to God we return."

On hearing this, Bewley decided to convert, and did so the following day.

It's a powerful story, with a satisfying "Reader, I married him" sense of closure. Boy meets Truth. Boy embraces Truth. As I imagined it, the scene on the hill above Fez was something straight from a scripture—or the Hollywood version thereof: The bowl of the ancient city stretching out below the men. The sun burnishing the dun buildings to orange. The shepherd's craggy face, calm as he watched his goats pick over ruddy, crumbling rocks. Then the words of the Quran, piercing through the atmospherics, promising reunion with the Creator.

Unlike the man who became Sheikh Abdalhaqq Bewley, I didn't convert. But my year with my own sheikh and the Quran provided me with many moments of grace. I found comfort in how small I felt reading the text, as when I considered the images of the "Lord of the heavens and the earth and everything in between, and Lord of all points of the sunrise." Even as a nonbeliever, I still found myself taking refuge in the Quran classes as a calm inlet from daily life. The Sheikh's disregard for all the measurements of getting and spending was soothing. Yesterday's close on Wall Street, the exam score or dress size, even happiness itself; all were nothing next to the fact that from God we come and to God we return. The constant reminders of one's own puniness and powerlessness were strangely bracing. When my mother died, I remember thinking how sensible it was, the Muslim practice of saying "Inshallah," or "God willing," after every plan, every promise, no matter how minor, since only God can be sure whether next Wednesday's lunch date will indeed be kept. It was a comfort, in a season of grief, to hang out with a community that honored this world's uncertainties.

The shepherd's quote from the Quran still haunts me, not least because the circle it describes gives Akram's life shape and meaning. To study with Akram was to learn how his life runs on an awareness of this return. For the Sheikh, existence was a circle with God at its end, beginning, and every point in between. From Allah he has come, and to Allah he will return. Those drawings of a circle and a line on the board, that day he'd lectured on the story of Yusuf, were a sketch of a pious Islamic life. The circle: a cycle of days, a Muslim's constant turn toward God. The line: the space in which the Muslims found themselves.

Then the Sheikh came in, wearing white, the color for Muslim mourners. "Thank you so much for coming, Carla," he said, lowering his head. "We were going to come to Brighton to see you, when..."

"We should just meet midway," I joked, envisioning the two of us perched on the shoulder of some British highway, two foreign-born orphans condoling each other for our lost mothers.

He sat briefly but then excused himself: there were more men waiting in the other room to pay their respects.

Unsure what to bring, I'd settled on flowers. Later, I found out that Muslim condolence callers traditionally brought food. As in Judaism, custom called on the community to feed the grieving.

"Food!" I cried, gratefully devouring a plate of spiced potatoes and spinach. "Food for the bereaved! That's exactly what we Jews do!"

"I can't see why there's so much fighting," smiled Sumaiya, as she ladled out more. "So much is the same."

"Will your father be able to say prayers for your grandmother?" I asked.

"The custom is to get as many people to pray at the grave as possible, so he's missed that. But we've all been keeping her in our prayers from here."

Akram's parents had always hoped to move to join their son's life in England. "My father always said he'd bring them over," said Sumaiya. "But it would have meant so many arrangements. We'd have had to build an Eastern-style toilet for them. We'd have had to find people to care for them who spoke Urdu. And there would have been the matter of the weather. After Jamdahan, they'd have felt cold, even in the summers."

Akram's piety connected him to the life to come. He carried an awareness of death the way other men carry their car keys. But even with his honed sense of impending death, he could not block grief. The force of faith might weaken the lesser emotions that beset humans, like lust or covetousness. But piety can't fill the hole a mother leaves when she dies.

played on loop: My father, with a yellow backpack, getting on a London bus to catch his plane. My mother, waving gamely from her wheelchair, telling me to kiss my kiddies back in England for her.

I'd gone home with Akram the last time he saw his mother, perched on her charpoy. Tonight, I was a bridge back to Jamdahan.

He was quiet on the phone, murmuring low and speaking little. Such was his natural reserve, of course, but he was also following the sunna: the Prophet had spoken out against loud wailing over the dead. Quiet tears are acceptable, Muhammad had said, but loudly crying was not, as it was too much like the extravagant mourning of pre-Islamic Arabia.

The call was short, which was a good thing, because I was on the verge of some loud and un-Islamic lamentation myself. "You are very close to our hearts," the Sheikh said, before hanging up.

* * *

The family would be receiving condolence calls on Sunday, Sumaiya told me. As in Judaism, it is a Muslim tradition that friends and family come to pay their respects to the dead and to comfort the living. Back in St. Louis, friends and I had asked whether my brother and I would sit shiva, the week-long Jewish condolence period after burial. We hadn't. At the time, the practice had felt rather more formal than our diluted Judaism called for. Besides, sitting shiva wasn't practical for scattered families like ours. Since both of us were sleeping in friends' spare rooms, there'd been no obvious place to sit.

Returning to England, I regretted not having done it. I spent a weekend at the house of my English mother-in-law. An old-fashioned Briton, she's not one for grief's messiness. Her generation prided itself on making it through the war without a fuss. She doubtless hoped that her chat about her book club and crossword puzzle clues would be welcome distractions from thoughts of death. It just made me want to shove wads of raw pain into every conversational pause and to hurl every teacup meekly passed.

After a weekend of Anglo-Saxon stoicism, the Sheikh's house felt reassuringly familiar. I found relief in the signs of wakeful sadness—the unmade bed set up in the front room, the Sheikh's reddened, half-shuttered eyes. The chaos of loss was comforting: the fretful children, the stuttered attempts at conversation, the scramble for travel arrangements.

The Sheikh was having trouble getting a visa to return to India. To get fast-tracked at the Indian consulate, he needed a death certificate, something his mother didn't receive, dying as she did in a remote village. The Sheikh had already missed the burial, which Muslim tradition dictates should take place within three days. In Jamdahan, where there was no electricity, the September heat meant the funeral rites were concluded even sooner. Akram's mother had been buried the day after she died, with Akram's sisters washing the body in accordance with Islamic custom and wrapping it in the customary five white shrouds. The day after, his eldest sister had fainted and had been rushed to the hospital, to be put on a drip for exhaustion.

The afternoon I paid my condolence call, the Sheikh was nowhere to be seen. I was ushered into the living room, where I sat with Farhana and the children. The Sheikh, they told me, was receiving male callers in another room. When the men were just about to file out the front door, I heard him call softly for the door to our room to be closed, so we could observe purdah as they left.

Frost. Her last seven years were spent with Lewy body disease in a St. Louis nursing home. Cruel little chips of calcium lodged in her brain, so that her old self would wax and wane.

During her life, my mother had worn her Judaism lightly. But it's a truism that ritual and belonging provide comfort for those left behind after death. I boarded the plane from London steeped in my Quran, but when I got off in St. Louis, I fell gratefully into the embrace of my mother's circle of friends, most of whom were Jewish. "Getting more Jewish by the minute!" I texted my husband. My mother's real tribe was largely drawn from the university, so the service, held down the hall from the English department, had speeches quoting Shakespeare and Adrienne Rich. Though we didn't have a rabbi, we did have my mother's friend, a Hebrew professor, lead us in saying the kaddish, the Jewish prayer for the dead. My brother Nicholas and I had managed to misspell it as "kadish" on the program, and when we recited it, everyone seemed to know it but us. Still, I found comfort in stumbling through the unfamiliar words: "In seeking peace and understanding for ourselves, we promise our own understanding to bring peace to all we meet."

When I returned from St. Louis, I called the Sheikh and told him my news.

"I keep thinking of that Iqbal poem you recited when my father died, about 'Who will wait up for me? Who will wait for my letters?'" "I'm really very sorry, Carla," he said simply. "There is nothing in this universe like a mother."

I knew he believed it. It was always a mother's love, not a father's, that he invoked to illustrate Allah's benevolence toward the universe. I hung up, and once again looked up Iqbal's elegy. I realized why the poem had moved me so deeply, that day Akram had recited it. Iqbal captures not just loss through death, but the pain of separation during life. As any migrant will tell you, a death at long distance has its own rhythms. Time zones and logistics give the pain sharp new twists. Only two weeks before, with Julia and Nic watching wide-eyed, I made long-distance phone calls in the early morning dawn. Many deaths feel unreal, but for the migrant in mourning, they're doubly so. Having lost the presence of your loved one in daily life, you've only had them as a ghostly presence to begin with. Visits home and phone calls can bring them to life, but only temporarily. So after the call with the news comes, the long-distance griever has to res summon the love object in her mind, then lose the beloved again. The gears of the imagination grind through a painful game of found-and-lost, lost-and-found.

* * *

At my mother's memorial, a friend, reflecting on her last years, quoted Shakespeare: "When sorrows come, they come not single spies/ But in battalions." A few days after the service, the Sheikh's student Arzoo texted me. The Sheikh's own mother had died unexpectedly, earlier that day. It felt as though we were in the grip of some mad transnational epidemic of maternal loss.

Stunned, I texted condolences, not wanting to intrude so soon.

A few minutes later, my phone registered a missed call. It was the Sheikh.

I phoned back.

"You saw her last when I saw her last," he said quietly.

"It was a privilege," I said. I knew only too well the importance of the last time. Of replaying memories of the last backward glance—or worse, the lack of such a glance. Everyone who's lost anyone has them, but they're particularly vivid for migrants like Akram and me. I had my own two stretches of film that

"You see youth shining, but you never include death. Okay, so maybe not everyone will believe in the Day Hereafter, but at least death should be mentioned properly! It should be seen by the people: people should know what death means! Old age, sickness—these should be part of society! People who are poor, they should be part of society!"

I nodded. "It's a relief when a culture can admit to death."

I told him how, when my father died, I had gone to Pakistan for a few months. Officially, the trip was meant to get me started as a journalist, but really I went to grieve. I chose Pakistan because I'd wanted to mourn in a part of the world where my family had once been happy, but I also wanted to be where death was viewed as part of life, not as a fluke or a failure of medical science.

Many people mourn every day in America, but it is often a lonely place to do so. There's a heavy pressure to heal, to get back in shape to pursue happiness. Death is forced underground, or into encounter sessions with grief counselors or priests. Death felt too irrevocable, too unfixable, for the land of the people who tend to look on the bright side, home of the self-helped and self-made.

In Pakistan, death was allowed out of the closet. Because I was looking for it, I found it everywhere. In grisly newspaper headlines about tribal wars and honor killings. At the cocktail party, where a socialite told me how her fiancé had gone out for cigarettes and never returned, killed in a car crash. At the Lahore Museum, in a statue of Buddha, rendered so skinny that the stone carver had seemed to place the bones outside the flesh. At night, I found myself telling a casual dinner companion about my father's death—and even as I did so, I knew that such talk from a near-stranger was as irrelevant, intimate, and unappetizing as finding a hair in your soup. Yet my date was polite, dipped his bread into yogurt, nodded, chewed, swallowed: "Ah, yes. My own father was killed in a tribal war when I was six. Luckily, my uncle raised me." And then he craned his neck to find the waiter, as though being an orphan was as minor an inconvenience as a dish without salt.

When I pressed the Sheikh about whether he'd hoped I would convert over the course of our lessons, his answer, as ever, came back to death. I was free to make up my own mind, he said, but he wanted to tell me of what lay ahead. "When I stand on the Day of Judgment, and I am asked whether I warned the people about the Fires of Hell, I want to be able to say that I had. Those who are my friends, like you, I should certainly try to save them." After all, would I not do the same for him? "If there was something in this country that would put me in prison, or cause me pain, wouldn't you warn me?"

* * *

A week after my last lesson with the Sheikh, my brother called me to tell me that our mother had died. The twenty years since my father's death had tested her. Three weeks after his death, she'd had a heart attack so severe that when she survived, her doctors called her "the Save of '93." Survive she did, and for the following years she forged a plausible, if lonely, life. She taught feminist studies at the university, and visited Egypt and Italy, where she and my father had lived, and returned to the house where he died, in Mexico. At times she could project a semblance of her younger self, a woman who had road-tripped with a friend from Tehran to Herat, who could whip up a five-course French meal with barely a glance at her copy of Julia Child. But my father's death and her own depression wore her out. "What to make of a diminished thing," she'd say, quoting Robert

Sheikh's humility wouldn't allow him to trust in his own piety. Every time he prays, he adds a prayer asking God, once again, to let him die a believer.

If nothing is certain, I asked, then "how can you prove that God actually exists?"

"You can't, not one hundred percent, offer a proof of God," said Akram. "Just as you can't offer one hundred percent proof that He doesn't exist."

For Akram, the signs were all there. That we were here talking about it at all was proof. So were sunsets and skin cells, gnats and Niagara Falls. "Allah has created enough signs for all the arguments," he said. Believers are meant to be readers of these signs: the Angel Gabriel's first word to Muhammad had been "Read."

"If Allah had wanted to make all people Muslim, he could have," explained the Sheikh. "But instead, he sent guidance. He wants people to think."

"I do think," I began. "But it seems to me that believing still requires a leap."

"You know, in the English language, when people say they 'believe,' it means 'I doubt.' Like if I ask you if you're coming to see me, and you say, 'Oh, I believe so,' it means you are doubtful. But belief in Islam is not like that. Belief in Islam means that you are certain it must be true."

"Exactly. A leap."

Less a leap, more a dawning sense of certainty, said the Sheikh. "Coming to belief is a bit like understanding a mother's love," he said. "It grows. She is kind to you, so you believe five percent. Then as you grow, she keeps on showing her love. Feeding you, teaching you, and so on. So it grows to ten percent, and the more you notice, the more you believe."

"Well, have you ever had any doubts?" I asked again.

"I don't remember ever having any doubts. I really have no doubt that the world is created by God. In fact, it's not a matter of proof. It's just that people don't want to see."

Two teenage girls clattered into the restaurant. In the distance, the sound of an ambulance. A motorcycle tore down the road. The Sheikh's focus didn't falter.

"I'll give you an example. Everyone knows that death is coming. So why don't people mention it? All you have to do is think! It's certain. But people don't. Because if people think, they can't enjoy life. If I am told by a doctor that after ten days I am going to die, do you think I have time to go to the party and enjoy the roses?"

"Well, lots of people think that the certainty of death is precisely the reason to smell the roses," I said.

But the *carpe diem* attitude denies reality, said the Sheikh. "In this society, old people, sick people, they've all been put aside. People only see young faces, shining faces. Look at how they portray the movie stars. They don't advertise what happens to that person after their twenties! You only see them when they're young."

Western culture doesn't give life's full arc its due, he argued: "Everybody says, 'If you want to understand something properly, look at all the different aspects of it, put them together, and then you can understand.' In the West, people only know one part of life."

"Which is?"

seen a similar soulful solidarity. Cathedral choirs, Catholic masses, Quaker meetings: none had the simple power of a roomful of women prostrating. But I couldn't make the leap. I kept thinking, with a smile, of my father's take on faith: "I would love to believe," he'd say, stretching out his arms as though waiting for some deity's embrace. As for me, I still remained an appreciator of Islam. Like my father before me, I was a collector of its treasures, peering through glass cases at the museum instead of prostrating at the mosque.

What finally drove Asad out onto that long bridge was the moral bankruptcy of interwar Berlin. It was 1926, an era of go-go economics and tinselly values. Germany was gripped by vast, screaming inequalities and a frantic materialism that would soon come crashing down. One day on the Berlin subway he looked around his carriage, at the prosperous passengers, at a man with a glittering diamond ring, at a woman with a mouth "fixed in a stiff semblance of a smile." To Asad, they all seemed miserable. They were "without any faith in binding truths, without any goal beyond the desire to raise their own 'standard of living,' without any hopes other than having more material amenities, more gadgets, and perhaps more power."

Asad responded by going home and opening his Quran, seemingly at random. His eye alighted on a verse:

You are obsessed by greed for more and more

Until you go down to your graves.

Nay but you will come to know! (102: 1-3)

For Asad, this was the answer, one that proved "beyond any doubt, that it was a God-inspired book I was holding in my hand."

* * *

The tea arrived, and prayer time was in an hour, so I decided to seize the moment. "Sheikh, so what do you think is going to happen to me? Do you think I can be a good person but still not submit? Am I still going to hell?"

Never had a fire-and-brimstone message been delivered more gently.

"The thing basically is," the Sheikh said evenly, "in the way of the Quran, people have no salvation until they believe there is no one to worship except Allah. If people are good without that, there could be some reward for them in this world, but it's not real salvation."

His kindness prevented him from saying "you," or from mentioning the manacles and flames. He smiled and observed that it was difficult to accept when one has been on the wrong path. "The problem actually is, Carla, we don't want it, but it's always better for people to correct themselves before it is too late. Even people who correct themselves one hour before death, it's fine." He continued, "Belief in God—every good starts from that. Then after that, people can get better and better. The basic level is to believe properly."

We sat for a second in silence.

"And you've never had any doubts?" I ventured.

"Sometimes, I really feel very frightened." The Sheikh hesitated. "For myself. There is no guarantee that you will die a believer. It could be that someone who thinks they are a believer is actually an unbeliever. Everything depends on God. Nothing is certain."

This uncertainty, not of God but of himself, felt reassuringly familiar. Secularists often assume that the faithful have the comfort of certainty. But the

had been held in an internment camp in India as an "enemy alien." His fellow inmates included a group of German Jesuit priests, who delighted in debating religion with the brilliant young Muslim. One day, their leader, an aristocratic and erudite Bavarian, asked Asad why someone born an Austro-Hungarian Jew would choose Islam over Christianity. Asad said he'd willingly convert to Christianity, provided the Jesuit could just clear up one question. "If you do, you can take me next Sunday to the chapel tent and baptize me," said Asad.

Done, said the Bavarian.

Asad's question concerned the Trinity: How could God be One, and yet Three?

The Trinity, responded the Jesuit, is a great and mysterious truth, a "mysterium." "When you achieve faith," he assured Asad, "then your heart will make you understand it."

That, Asad told him, is why he became a Muslim. "You tell me, 'Believe in faith, and then you will understand it.' My religion tells me 'Use your reason, then you will gain faith.'"

The Jesuit gave up.

When Muhammad Asad's own son Talal was growing up, he impressed on him that one should always try to approach non-Muslims using reason and tolerance. "There is no compulsion in religion," he'd remind the boy, citing the Quran.

I knew Akram felt the same, which was why I was only slightly nervous at this, our last lesson. Because I'd saved until now the question that I'd been wanting to ask him ever since he'd first started talking to me about hellfire: What did he think was ultimately going to happen to me, somebody who believed in some sort of God but was nowhere near ready to submit to a faith?

After a year of classes, I knew his worldview was broad enough to encompass mine—broad enough, indeed, to respect it. But though he'd never said so, I'd often wondered whether Akram had embarked on our lessons in the spirit of *dawa*, or calling me to Islam. I was a friend who had asked for the favor of his time and learning. But I was also a non-Muslim. For me, our Quran lessons had been a listening exercise; I wondered whether he'd hoped that through that listening I'd embrace Islam. Others had hinted that I might convert. The day I went to see the Sheikh and his group off on *umra*, one man had turned and, with a conspiratorial grin, said, "Who knows, maybe you'll be going next year...?"

"Do you know something I don't?" I asked.

He just smiled.

* * *

On the bus up to Oxford, I'd read Asad's description of his conversion to Islam. As a young man traveling in Arabia and Afghanistan, he'd been drawn to the faith's spare self-sufficiency, but he couldn't yet bring himself to submit. Becoming a Muslim seemed "like the prospect of venturing out onto a bridge that spanned an abyss between two different worlds: a bridge so long that one would have to reach the point of no return before the other end became visible."

Just reading the description gave me vertigo. The mental bridge I'd built between Akram's worldview and mine was miles shorter. So much of the Sheikh's worldview appealed. A genuine belief in people's equality before God. Humility. Kindness. What I took to be certainty. At *itikaf*, watching rows of Muslims, shoulder to shoulder, praying together, I couldn't remember having

then, without a family in Oxford to draw him home, he'd often work late and early. I found him sitting in the office we shared with other researchers, hunched over an Urdu text. "My father died," I blurted. Akram stood up and pressed his hand to his heart. "Losing a parent is very hard," he said.

Then, standing straight, his hands resting on the back of his plastic chair, he began, in a loud, clear voice, to recite a poem. He made no concession to its being midweek or to our being at work. With the burnt-gold of an Oxford autumn behind him, he recited without pause or embarrassment. It didn't matter that I didn't understand the words: for a minute or two, the tiny office blazed with Urdu verse and the late afternoon light.

When he finished, I asked what it was. An elegy the Pakistani poet Iqbal had written when his mother died, Akram replied. "He is asking, 'Who will wait for my letters now?'" he translated. "He is asking, 'Who will welcome me home, now that she is gone?'"

Later, I would find a translation of the elegy Akram had recited. Verses from a poem written after Iqbal's mother's death capture the gray disorientation of grieving for a parent:

Who would wait for me anxiously in my native place? Who would display restlessness if my letter fails to arrive?

I will visit thy grave with this complaint:

Who will now think of me in midnight prayers?

The Sheikh and I didn't yet know each other well, that day. His words, and Iqbal's, were the first hint I'd had that our collegiality might break through to friendship. Of all the condolences offered after my father died, the Sheikh's comforted me the most. He hadn't known my father; he barely knew me. But the Sheikh's recitation was a balm because of its foreign qualities, not despite them. His recitation was a reminder that death was a universal occurrence, as common as life itself.

* * *

"Ah, you've been reading *The Road to Mecca*," said the Sheikh as I unloaded my book bag onto our table at the Oxford Kebab House. "Yes, you kept talking about Muhammad Asad, so I picked up a copy. Whenever you say that the Quran urges people to think, you tend to mention him."

"Do I?" said the Sheikh, allowing himself a tiny, pleased smile.

He did. Muhammad Asad was among the most eloquent proponents of Islam in the twentieth century. He began life in 1900 as Leopold Weiss, born into a family of bankers, lawyers, and rabbis in what was then the Austro-Hungarian Empire. Raised in Vienna by parents whose Judaism was practiced as, he later wrote, "the wooden ritual of those who clung by habit," he became a foreign correspondent in the Middle East, then a sometime screenwriter and bohemian in Weimar-era Berlin. In Islam he found an antidote to the "complicated, mechanized, phantom-ridden age" of interwar Europe. He moved, first to Arabia, then to India, where during the 1930s he collaborated with the poet-philosopher Iqbal, laying the intellectual foundations for the future state of Pakistan. For a time, he represented Pakistan at the United Nations, before turning to translation and writing. He dedicated some of his works to "People Who Think."

Asad's defense of Islam as a religion based on reason rather than blind faith particularly impressed Akram. The story the Sheikh loved to tell was of the debate Asad once had with a group of Jesuit priests. During World War II, Asad

The last time I saw him he was in fact embarking on a trip, one that took a sudden, tragic turn. He'd waved at me from a London bus stop, heading to the airport, on his way home to St. Louis and, a few weeks later, to Mexico. We had a rental property in San Miguel de Allende, and he was going to fix it up for new tenants. While there, he was approached by men who believed he owed them money, and they beat him. A few days later, he died from his injuries.

The phone call telling me of his death had come at dusk, on the first day of October 1993. I was alone at home, in London. I remember the vague smell of mold in the flat, the warm, rough pine table with the phone on it. I remember picking up the receiver and hearing the words. "Daddy's died," said my mother, in a voice carefully steadied for the purposes of the call.

There'd been an earlier phone call, six days before, bringing bad news, but not as bad as this. Three men had broken into the house in San Miguel, on the day of the annual celebration of St. Michael Archangel. When crowds clogged the streets, and music and confusion would have drowned out my father's cries, they forced their way into the house and tied up my father, the gardener, and the maid with ropes. Then they beat him, calling him *el abogado*—the lawyer—and demanding "the money," over and over. My father had no idea what they were talking about, and told them so. That only brought more beatings. Somewhere there was a blow that would dislodge the clot of blood that would stop up his lung a week later.

Just after the attack, my father had told my mother she didn't need to fly down. Not to worry, he had said. He was fine. Somewhat shaken, a bit sore, but fine. Lucky, really, not to have been hurt worse. Two days afterward, our tenant in the casita, the little house next door, had found him lying on the floor, unable to get up. She called an ambulance, which took him to the hospital, where the doctors noted internal bleeding from a tear in the liver and operated immediately. As he lay in a hospital bed, my mother flew down from St. Louis. She arrived off the bus from Mexico City to find him so thin that "his little cheeks stuck out like a cherub's," she said. "He'd been so glad I had come down." She'd read aloud to him from the *New Yorker*, and that night, he hadn't wanted her to leave. His delight on seeing her, his naked neediness, shocked me most. We were raised to make journeys, but not sentimental ones. I had not traveled back to my grandfather's funeral from Italy, and I had not come back from Britain to help bury my grandmother. As a family, we were trained to be hardy, to stand our ground, even if it was foreign. It was a sign of how scared my father was feeling that when my mother had flown down to see him, he hadn't forbidden her to do so.

"They wore good shoes," Maria Elena, our placid, moon-faced maid had told the police of the attackers. The shoes were all she'd managed to see of them, having kept her head down during the ordeal. They were the only clue that this was a professional call by men who'd done well in the drug trade. My father's death had been a case of mistaken identity: the *abogado* who owed the men money must have been a former tenant, an American lawyer. That night, I filled in the gaps of Maria Elena's description with cartoon images. I imagined my father's killers as banditos with flaccid mustachios, flashing teeth and eyes, and sombreros hung with tassels that jiggled as they kicked him.

The next morning I went into the office to get some books and papers I'd need for my trip back home. The place was empty, except for the Sheikh. Back

Those who did not submit to God's commands, however, were destined for another place, described vividly in a sura called "Dominion":

And for those who reject their Lord, there is the agony of hell, a miserable destination:

when they are thrown into it, they will hear its gasp as it flares, nearly exploding with fury. (67:7-8)

Akram parsed the Arabic words describing the fire. The Arabic evoked the fire's sound and fury. Its hunger was like a lion in the forest, he said: "When the fire receives the people, it's so hungry, so angry," he explained. "It wants to eat them as soon as possible."

At question time, I raised my hand and then stretched it out for the microphone.

"Um ... that bit about the fire. Are we to read it as a metaphor? Are these really flames we are talking about, or is it just to suggest that bad things happen to sinners?"

"The fire is fire," Akram responded. "It is really very real." He had read the philosopher Bertrand Russell, who questioned Christianity's emphasis on the flames of hell as a doctrine of cruelty at odds with the faith's central message of compassion. Over the past century or so, fewer Christian preachers talked about hellfire, for fear of scaring their flocks, he said, clearly disapproving: "They felt it was very frightening for the people."

Soft-pedaling the threat of hell, continued the Sheikh, was a mistake. He recalled the day when he'd answered his front doorbell to find a Christian there with a Bible. The Sheikh listened to his pitch, then asked the man, "What will happen to me if I don't believe you?"

The man was silent, clearly not wanting to scare off a potential convert. What about hell? Akram asked him. Oh, no, the man assured him. There was no mention of any hellfire in the Bible. "I had a Bible in my house," the Sheikh said. "I'd underlined it, and I went and got it, and showed him." Here, and here, and here, he'd showed the missionary, the Christian scripture spoke of the flames of hell.

"Never feel shyness to mention the fire of hell," he assured his listeners. "You either believe, or if you don't believe, then it's the fire of hell."

The discussion of hell was a rare moment of literalism for the Sheikh. Other Muslim thinkers had ventured that the descriptions of the afterlife were allegorical, not least because, as the Sheikh often reminded us, so much of the language of the Quran was suggestive of realities beyond human apprehension. But the Sheikh's fear was very real, just as real as he believed the flames to be.

* * *

My father had died when I was twenty-six years old. At the time, my sense of where he went afterward was thin and tinny. While grieving, my mother and I told each other rather feeble stories of Dad being pulled around on a cloud, hanging out with Billie Holiday, Tennessee Williams, and other luminaries he'd always wanted to meet. We comforted ourselves that he lived on, in my love of wandering the world, in my brother's talent for wheeling and dealing and his suspicion of authorities. Splitting the difference between belief and skepticism, I'd indulge myself in childish and soothing fantasies, pretending that he'd simply gone on a long trip somewhere.

The Last Lesson

I'd never attended a hellfire sermon, not a real one. I'd seen them, of course, in movies set in Puritan New England or the Depression-era Ozarks, with shaggy-browed actors, filmed from below, leaning over pulpits and issuing spittle-flecked certainties. Their voices and chins vibrated with righteousness as they spoke of flames and the Day of Judgment. I'd not imagined I'd see my first such talk in Cambridge, a town twinned with English refinement and Anglican reserve. But it was there that I first heard Akram's description of the afterlife, in his Magnificent Journey seminars, which covered the last two sections of the Quran.

The intensity of these eight-hour lectures—and their frequent mentions of death—made the morning walk from the Cambridge train station feel elegiac. Except for a lone student slinking home, or tourists huddled over damp maps, the streets would always be empty. Crossing a college town on a Saturday morning meant tiptoeing through a certain amount of Friday night debris, stepping over squashed burgers and beer bottles, dodging the odd slick of orange vomit. With the air of someone going abroad, I'd stock up on provisions, buying a cappuccino and a croissant before reaching the River Cam. It was silent at that hour, the empty punts moored, waiting for the day's passengers. The bridge, flanked by willows, marked a frontier between my world and Akram's. At Cambridge's King's College, on the west side of the Cam, Salman Rushdie had studied Islamic history, which he later used, to infamous effect, in *The Satanic Verses*. To cross the bridge to the east bank, and to "The Magnificent Journey," was to scramble away from relativism and into a world of certainty, for a day discussing what the Quran called "the Scripture whereof there is no doubt."

The town seemed to recede. Gone were the stately colleges, the chic boutiques, and the sleek glass offices, monuments to Cambridge's high-tech boom. The world burned off as I walked along a quiet road, through a parking lot, and into a squat, modern university building. For hours, the world was stripped back to a bare auditorium and Akram's stark message: that this life is but a sideshow compared to the next. "Your life is governed by death," he said. "The next world is our destination. This one is for travel."

That fall, we kept returning to what was lying in wait for all of us: death. "Whether we like it or not, every single moment, people are moving toward their death, whether walking or sitting, whether happy or not," the Sheikh said.

In this life, there are certain things one had to do: "You need to eat and drink, you need a house, you need to get married. These are only needed to help you worship Allah. But they all end with death." To become too attached to this life, he insisted, was akin to being a traveler who decided to build a house in a train station rather than passing through it.

For those who submitted, there was the promise—though not the guarantee—of paradise. It was a garden, whose cool lushness would have been particularly dazzling to the desert dwellers who first heard the Quran. Rivers flowed beneath it. Trees shaded it, heavy with low-hanging fruits. Believers would sit on couches, dressed in silk, sipping a gingery drink from shiny goblets. When they wanted more, their cups would be refilled by young boys, all "so nice-looking, you will think they're sprinkled with pearls!" said Akram.

Alpine scene brightened the peeling yellow wall and lace doilies dotted small tables. Anhar Sayyad Mursi, the mother of two sons in their twenties, was surprisingly eager to talk. Atta's story—of a boy who went abroad and went astray—had made Anhar more protective than ever of her two boys. "September 11 put me on a heightened state of alert," she said. "It was a good lesson to me as a mother." She ushered us into the boys' bedroom, the same room in which Atta had done his engineering homework. Even now, she said, there might be extremists in the neighborhood, keen to lure her boys toward misadventure. "In my house, I'm a microscope," she said. "I know what my sons are thinking about. I try to protect them with my belief in God."

Her battle had two fronts, one against Western-style corruption, the other against the Islamists. While dusting their room, Mursi admitted, she'd sometimes "accidentally" rip down one of the Michael Jackson or Spice Girls posters. When the boys came home, she sniffed their breath for alcohol and peered into their eyes to make sure the pupils weren't dilated from hashish. But her main weapons against extremists, she said, were the Quran and the sunna of the Prophet. "I try to fill their heads with them," she said, so they would have no space for any radical thoughts. And when her boys claim to have prayed, she checked their prayer mats to make sure they were warm.

I often think of Mursi, battling Spice Girls poster by Spice Girls poster and verse by verse to protect her sons from suffering a similar fate as the apartment's previous occupant. Over the last generation, millions of mothers have doubtless done much the same. But as the sage in the old story suggested, it's far easier to ride off on a plane or a horse to jihad than it is to submit day after day. Part of that submission is the patient labor of setting individual verses in context and seeing how they might fit into larger Quranic themes of peace and preparation for the world to come.

tough, they told me, trying to be pious surrounded by temptation. Tougher, perhaps, than actual battle: "The real jihad is when you grow up in a place like this," Zubair said. "You want to be a real man and fight the real fight? You try being a good Muslim when you're in a place with naked women, with miniskirts, with casinos and guns."

* * *

"So what would the conditions for a just jihad be?" I asked the Sheikh one day over tea at the Oxford Kebab House.

Jihad had very specific parameters, he said, sternly. One couldn't harm women, children, or other noncombatants. The enemy's crops and fields must be respected: "You can't harm even a tree." A jihad can be waged only by legitimate Islamic leaders operating openly, not by self-appointed guerrillas striking covertly. And jihad must not target fellow Muslims. "Those who raise their weapons against us," said the Prophet Muhammad, "are not from us." Today, the vast majority of the people dying in the name of jihad are Muslims.

"So what would you need in place to make a jihad legitimate?" I asked the Sheikh.

"First, believers must make *dawa*—call people to Islam. Once they have done this properly, and have found a place where they can live as a community..."

"Then they are allowed..."

"When they have a community—not a state, but a Muslim society," he said, reluctant, as always, to graft modern political terms onto Islamic concepts. "If you have one, and there are people who are preventing you from preaching, or from worshipping—then Islam allows you to fight back."

Then and only then: one could wage jihad only if one was being prevented from worshipping freely. While Qutb and his ideological grandchildren had cast jihad as an offensive war, the Sheikh saw jihad solely as a matter of self-defense.

"And then," he continued, "there are two more conditions."

First, the Muslims need a safe place from which to launch the jihad. Second, Muslims needed enough troops and weapons so that victory looked likely. Today, Muslims had neither: "Muslims have no safe places in our time, so when they try to wage jihad, many of them are killed." Contemporary Muslims lacked the causes or the conditions for armed struggle. "If you do things in the wrong order, it can never work," said the Sheikh. "Are you going to give *hiryani* to a newborn? No! You must wait until his teeth are grown!"

Context, he counseled. Always context. Muslims needed to know the context of these verses, and the only way to acquire it was through education. After 9/11, it was fashionable to dismiss madrasas as the problem. In truth, one needed more Islamic education, not less. The term that appears most frequently in the Quran, after "Allah," is *ilm*, or knowledge. Islam began with the command, "Read." And the Sheikh's own message was not a call to arms, but a plea to his students: "Think!"

* * *

During my studies with the Sheikh, I often thought of a mother I'd once met in Cairo. With a colleague from *Newsweek*, I'd gone to report on the neighborhood where the World Trade Center bomber Mohammed Atta had grown up. The Attas were long gone, but the family who'd moved in after them remained. We sat and sipped tea in a pin-neat living room, where a poster of an

Westernized outlooks. A widespread perception of the ulama's overcozy relationships with unpopular regimes didn't help; in many Muslim states, governments put scholars on their payrolls, undermining the ulama's traditional political independence.

With the advent of modernity, many people simply stopped consulting traditional scholars. Rising literacy rates and new technologies allowed ordinary Muslims to begin interpreting texts for themselves. Today, anybody with an Internet connection can consult what some wag called "Sheikh Google" instead of a trained scholar. This democratization of Islamic knowledge—though not of its more rigorous disciplines—allowed self-styled sheikhs to flourish. One didn't need a madrasa degree to declare oneself an authority. Indeed, the newly minted authorities wore their scorn for the old guard as a badge of honor. Osama bin Laden loudly disdained the ulama and began issuing fatwas of his own. Abu Hamza al-Masri, a former nightclub bouncer and civil engineer turned radical preacher, felt free to dismiss traditional religious authorities while claiming his own right to be one. In medieval times, people had to rely on sheikhs, but "today, information is available in books and computers," he said in 2002. "All one has to do these days is to read. You can even phone a scholar for an opinion. We have direct access to Islamic information these days."

At their worst, these new challenges to traditional religious authority have resulted in rampant textual looting, a free-for-all trawl through the Quran to find verses to legitimize violence in the name of God. To make jihad the center of Islamic life, as many extremists have done, is to do real violence to the text of the Quran, said the Sheikh.

In the West, the word "jihad"—literally, striving or struggle—has become synonymous with wars like the Major's. But *jihad al-nafs*, the struggle of the individual against his lesser self, means a person's effort to quell negative impulses and to lead a pious life. The twin meanings of "jihad" are threaded through a story the Sheikh liked to tell. A group of mujahidin on their way to battle stayed overnight at the lodge of some Islamic mystics, or Sufis. In the morning, one young Sufi disciple, awed by the warriors' steeds and swords, went to his sheikh and told him that he was joining the mujahidin. Armed jihad was the easy route, his sheikh warned. Far harder was the struggle to maintain a lifetime of submission to Allah. "It is easy for me to have my neck cut once," the elder explained. "It is hard for me to bow my head all the time, day after day."

I experienced a contemporary version of the tale in the British city of Bradford, shortly after 9/11. On assignment for a magazine story, I encountered two young men, Zubair and Muhammad, who were passing the time before Friday prayers. They sat in the front seat of their car, fiddling with their hand-rolled cigarettes and watching the rain spit down outside. They had rolled down their window so we could chat. Zubair had a broad Yorkshire accent, Bradford-raised as he was, but he told me he identified as an Afghan Pathan, and as a Muslim. They were not the best of Muslims, admittedly: "We smoke this and that," said Zubair. "We look at women we shouldn't. We're weak, the lowest of the low." Nothing, in fact, compared to the mujahidin, the warriors who were defending the Muslim cause in Afghanistan and Iraq. It was these jihadis "who are the real serious Muslims, man."

But the more the two friends described their lives, the more they sounded like the old Sufi sage in Akram's fable rather than the young firebrand. It was

Court scholars during the Muslim Empires cited this verse in fatwas supporting rulers' foreign wars. Bin Laden used it in his famous 1996 fatwa declaring jihad on the Americans. The scholar Bruce Lawrence has described the sword verse as the "shibboleth, the battle cry" for jihadis.

What the jihadis tend to leave out, however, is the verse's second half: "But if they repent and practice prayer and give alms, then let them go their way; for God is most forgiving, most merciful."

Equally crucial is the historical moment the verse was revealed. The Quraysh in Mecca had broken a treaty with the Muslims and, along with their allies, continued to attack them repeatedly. It came down when the Prophet "had done everything possible to preach to the people of the Quraysh," the ruling Meccan tribe, and to their allies, said Akram. "They started fighting him, and making things very difficult for the Prophet." Earlier verses of the Quran had entreated the Prophet to hold back, to be patient, not to fight. Finally, when the tiny Muslim army—a few hundred men—faced the larger, better-equipped army of the Quraysh, the Quranic verse came down that "allowed him to become tough" against his community's enemies, said the Sheikh. Even then, "he only killed a few people, and then forgave all his opponents."

Contemporary jihads were worldly, not spiritual, said the Sheikh. The men waging them operated not from an excess of piety, but a lack of it: "It is just the Islamicization of violence," he said. "People think they can use Islam to fight for land, or honor, or respect, or money. But these are not religious people. They are just following non-Islamic examples."

The jihadis tended to be far more Westernized, in a superficial sense, than the Sheikh and his fellow ulama. Contrary to popular belief, most of the jihadi extremists weren't trained in madrasas. Rather than studying the nuances of classical Islamic thought, their training tended to be secular and technical, in subjects like engineering, computer programming, or medicine. An influential study examined the backgrounds of four hundred violent extremists and found that only 13 percent were from madrasas or Islamic boarding schools.

The Sheikh hadn't heard of the study, but its profile of extremists with day jobs as engineers and doctors didn't surprise him. It was "Western-educated types," not madrasa graduates, he said, who harbored the biggest grudges against the West. "They want what the West has," he said. "They want power."

If the Sheikh thought little of jihadis' Islamic credentials, jihad's ideologues were similarly dismissive of madrasa scholars. It was the ulama, they charged, who wanted what the West had: a religion as privatized and part-time as Christianity had been ever since the Enlightenment. Traditional Islamic scholars were simply "defeated people," charged Sayyid Qutb. "They have adopted the Western concept of 'religion,' which is merely a name for 'belief in the heart,' having no relation to the practical affairs of life." In his influential book *Milestones*, he called for a movement to free the world from the state of *jahiliyya*, or pre-Islamic alienation and ignorance. The goal was "to establish the reign of God on earth and eliminate the reign of man, to take power out of the hands of those of His worshippers who have usurped it and to return it to God alone."

For centuries, traditional Islamic scholarship had shriveled, and the prestige of the ulama along with it. European colonizers had left madrasas to languish, favoring modern education as a means of producing able administrators with

Afterward, the Major escorted me downstairs. When he was done with jihad in Kashmir, he said, he and his men would move on. Perhaps to India. Perhaps beyond. Wherever they were needed, they would keep fighting, forever, until the whole earth became Muslim. "We want to convey the message to the whole of the world," he said as we stood in his doorway. "The whole of the globe belongs to Allah, and the whole of His Law has to be executed on the globe. Wherever the United States and Europe stop the expansion of Islam, there will be war."

I left the house queasy-spirited. His jihad wasn't inspired just by angels, but by foreign powers' involvement in the region. Specifically, American power. Everyone knew that the men Washington trained and armed during the 1980s to fight the Soviets in Afghanistan had helped produce future jihadis. It was a commonplace, even before September 11, that global jihadis were "blowback" from the Afghan war, the unintended consequences of a covert military operation. The Major was blowback's human face. That this face spoke perfect English, polished by training with Americans, made it all the more chilling.

* * *

In the roughest of sketches, the Major and the Sheikh would seem to have similar worldviews. Both are devout Muslims in the scriptural tradition who take the Quran as the central text in their lives. Both are educated South Asians who have achieved professional success. Both worked in prestigious institutions, for a time, alongside Western elites—the Major with the Green Berets, the Sheikh at Oxford. Both despair of the spiritual drift and materialism they see in contemporary life. And both men hope to see strong Islamic societies emerge one day.

From that point, their visions diverge dramatically. The two men differ markedly on what those societies would look like and how they'd be achieved. While the Major calls for armed struggle against unbelievers and an imposition of Islamic law, the Sheikh sees the need for personal piety and peace. While the Major is trapped in an agonistic struggle against everyone he thinks thwarts Islam, Akram's vision of *taqwa* frees him. Rooted in the Islamic classical tradition, Akram can transcend the static categories that have come to define modernity. Since the East India Company set up shop in Surat, since Napoleon stepped onto the banks of the Nile, the colonial experience and its aftermath have too often been cast in terms of opposing categories. Western and Islamic. Modern and traditional. Indian and Pakistani. Such labels don't distract the Sheikh much, steeped as he is in an altogether different world order. His own attentions are trained on the details of religious texts. While the Major reads 4:76 as a general directive to "fight the friends of Satan," the Sheikh reads it as an account of a specific moment in Islamic history, when the young Muslim community was at war with the far more powerful forces of the Quraysh and their allies.

Attention to context, both textual and historical, is all too often overlooked by jihadis and Islamophobes alike. Take the case of the so-called "Verse of the Sword":

But when the sacred months are past,
then kill the idolaters wherever you find them,
and capture them, and blockade them,
and watch for them at every lookout. (9:5)

Stony-faced, he ushered me into his salon, with its marble floors, comfortable couches, and cut glass bowls of flowers. A servant poured tea, which the Major took in three sips, in the manner of the Prophet.

American Green Berets had helped train him, he said, back in the 1960s, in the same elite corps as Pervez Musharraf, later to become Pakistan's president. "A brilliant strategist," he conceded. But ultimately weak, since his tactics were based on what he could see rather than the otherworldly. The Americans he trained with were also hobbled by secularism: "When you are fighting for Allah, you believe in the unseen." What really made a truly good fighting man, he told me, were "the techniques of Allah." One needed to marry a Green Beret's discipline and professionalism with piety. Firing a bullet, for example, should be followed by a submission to God. "You say, 'Oh, Allah, I'm firing with your power, kindly make this bullet reach the enemy,'" explained the major.

The command to fight the oppressors of Muslims, he said, lay in the Quran. He turned to the large copy on the table in front of him. "All the directions to human beings are here," he said. He opened it to the fourth chapter and quoted verse 76: "Believers fight for the sake of God, while atheists fight for the sake of idols; / so fight the friends of Satan, for the strategy of Satan is weak."

"One has to fight the friends of Satan," the Major said.

Looking around his white suburban palace, I wondered what had curdled his outlook. Was it a slow drip-drip of frustration? A snide comment from a superior? Millions were angered by the unresolved conflict in Kashmir; millions more were incandescent over Western powers' meddling in the affairs of Muslim countries. But what had made the Major a jihadi?

When I asked him, he cited not anger, but angels. Specifically, the white-gowned angels on horseback that helped him one day on an Afghan field when he was a young commander, fighting alongside the mujahidin. Between his 125 men and the ridge they needed to take was a plateau sown with mines. A thousand soldiers loyal to the Soviet Union lay in wait for them, he claimed. But his men charged across the field, coming under fire from antiaircraft guns and long-range mortars. Armed with Kalashnikovs and Allah's help, his men made it through without any casualties. Protecting them, he claimed, was "a huge fighting force, with horses and white dresses." Angels on horseback guided and protected them, he said, just as they did throughout his Afghan campaigns: "I have seen corpses where the heads were chopped off," he told me, reaching for his teacup. "Not by men, but by angels."

The Major showed me a sheaf of pictures from his training program. If you ignored the shots of soldiers crouching behind rocks with rifles, they could have been publicity stills from a summer camp in Wisconsin. A cook in his mess bent over pots. Fir trees. Tents. Young men working out in a sun-dappled clearing.

He invited me upstairs to meet his wife and teenage daughter and suggested we all watch a video. The daughter was studying for her master's in English literature. We exchanged pleasantries about Shakespeare as her father lowered the lights and popped a VHS cassette into the machine.

"Bosnia," the Major said, nodding at the screen.

The tape spat out a montage of howling, wounded machismo. Corpses, eyes staring. Crying women. Fierce fighters leaping, running. Fallen fighters, borne on stretchers. God is great, intoned the voice-over.

announced that resistance had been crushed, and the new People's Republic was proclaimed.

When we woke the next morning, the sky was quiet, the same blameless blue as the morning before. We arrived home to find that our guard, Mir Ali, had patrolled our compound all night. He'd paced up and down in the yard as the skies over Kabul reddened with explosions from Russian-built shells. His only weapons had been the ax he used to chop wood—and my brother's plastic baseball bat.

If there'd been signs that the coup was coming, we'd missed them. Two nights before the tanks rolled in, the American center in Kabul had held a Soviet-U.S. friendship night. Whether or not the rumors were true about the local CIA station chief having been in the stands watching our Little League game while the tanks rolled into Kabul, it's clear the coup surprised pretty much everyone, Afghans and foreigners alike. Within days, the new government made their Marxist ideology clear. The tanks parked at intersections were decked in paper flowers—"no doubt following the prescription of some revolutionary handbook," my father wrote. The radio beamed reports of the people's joy at the overthrow of the feudal Daoud regime and vilified the enemies of the glorious April Revolution as "foreign agents." Across the street from our house, the portrait painter swiftly replaced his painting of President Daoud in his window with one of Nur Mohammed Taraki, chairman of Afghanistan's new revolutionary council. The regime spoke of vigorous new efforts to help women and workers. At first, my parents greeted these promises with cautious optimism. "Maybe," my mother said, "a little socialism is just what Afghanistan needs."

Twenty-three years later, in the weeks after watching the Twin Towers fall, as the United States prepared to rain missiles down on Afghanistan, I often thought back to that spring. The 1978 coup that toppled President Daoud began to weave American and Afghan histories together, first into the loose braid of "aid" to the mujahidin groups fighting the Soviets, then later into the tight, then tangled knot of direct conflict. The events unfolding after that first coup, ones that would eventually lead to 9/11 and the wars that followed, are covered in other books. But for me, looking back from the twenty-first century, the coup marked the end of my father's Islamic world and the beginning of my own. With the Russian invasion of Afghanistan and the revolution in Iran the following year, Islam could no longer be dismissed as a faith for old ladies or village elders. For my generation, it was to become an engine for rebellion against old political orders and for fighting the Western powers who supported them.

Twenty years after the 1978 coup, I found myself sitting in the home of a major from the Pakistani army, hearing how the Afghan war had made him into a jihadi mastermind. A short man in a houndstooth blazer and loafers, he wore his salt-and-pepper beard neatly clipped and lived in a large white house in a Lahore suburb favored by army elites. In his high-ceilinged hallway hung framed pictures of him shaking hands with other heavily decorated men. By the time I interviewed him for *Newsweek* in 1998, Major Ehsan ul-Haq had retired from Pakistan's army, but not from war. For ten days every month, he managed a textile factory, a job that funded his true calling: running a jihadi training camp in the mountains of Kashmir to send guerrillas to fight the Indian Army.

War Stories

Every war has countless beginnings, hundreds of moments pushing toward that first shot fired, the first pulse stilled. For many Americans, the modern conflicts between Islam and the West began on a September day when horrors fell from a blue sky over Manhattan. An Al-Qaeda combatant might date their start back to 1991, when American troops flooded onto Saudi Arabian soil after Saddam Hussein's invasion of Kuwait. An Iranian government cleric may point to 1953, when a CIA-backed coup toppled the democratically elected prime minister and installed the Shah. A Pakistani jihadi might set the conflict's origins back to 1947, to a summer when a London barrister created India and Pakistan, carving up the subcontinent like a Sunday roast. Others would cite 1933, when the Saudis granted a concession to a California oil company. As always with history, there are scores of beginnings to choose from, leading back as far as the day in 1600 when Queen Elizabeth gave the East India Company their royal charter.

For me, the great geopolitical struggle of the twenty-first century began one Saturday afternoon in 1978, a couple of hours into Little League practice. Eyes squeezed tight, mitt stuck up, I caught my first pop fly by dumb luck out of the clear blue sky. Leaving Newman Field, still wreathed in the glow of all-American victories, we turned—right into a convoy of tanks, their khaki treads gnashing up the road leading toward the presidential palace.

"Mom, is it a coup?" I asked. At eleven, I hadn't yet learned to leave unspoken fears unspoken.

Ever since we'd arrived in Afghanistan, I'd heard about coups, which seemed the standard regional practice for changing governments. A month before we'd arrived, there'd been one down the Khyber Pass in Pakistan, when General Zia ul-Haq had staged a military takeover from his predecessor, Zulfikar Ali Bhutto. Four years before that, Kabul had seen its own coup, when President Daoud had seized power from his cousin, King Zahid. It had been a "white" coup, my parents assured me, every time I'd asked—a peaceful one, with no bloodshed. Since we'd arrived in Kabul, I'd worried about coups, particularly "red" ones.

"A coup? Oh, gosh, no," said my mother, in a voice varnished into certainty. "It's a parade of sorts. They're probably getting ready for the Non-Aligned Nations meeting here next month." She looked out the car window. In the tank behind us, the soldier had a pistol out, pointed skyward, and a fierce sense of purpose not commonly associated with parades.

That afternoon, safe inside our friends' compound, we played tag in the yard until a call came from the embassy and the grown-ups called us inside. "Let's play indoors this afternoon," my mother suggested brightly. A fighter jet ripped the sky wide open, leaving a white scratch in the bright blue. We edged away from the windows and bedded down in the windowless back hall.

My father tried to jolly us along, putting on a plummy English accent and pretending to be a BBC announcer during the London Blitz. From the direction of the palace, less than a mile away, came loud popping, like the crack of baseball bats on balls. Sometime amid the noise that night, bullets killed President Daoud and nineteen members of his family. By 8:00 p.m., the radio

And yet there were moments, I could see, when even Mona wavered, finding the Sheikh's faith in stoicism hard to bear. "What should I do?" she once asked him. "Just stand here, and let my brother hang?" The Sheikh smiled gently and said that life was a test. Political action should never take the place of a Muslim's true work, which was practicing *taqwa*. Rather than agitating for change, one should be still and resolute while facing it. The rise and fall of presidents and world powers was inevitable, but faith outlasted them all.

it in their own history," he said, shaking his head. "They want to show that 'what you Westerners are doing now, we have done already.'"

That naked envy of Western power, and of worldly riches, informed so much of the Islamist project, the vogue for "Islamicizing" everything from war to elections. Too often, Islamic leaders bought into it, since talk of politics and war often filled their mosques faster than spiritual ruminations. "You know, Carla, there's been a Saudi preacher, very famous. He's been telling people to go on jihad in Syria. And there he sits in London! Really, this is rubbish. If jihad is true, you should go, too!"

He wasn't finished. "Oh! And he has sons, too! But when people asked him why he didn't send his sons, he said they are doing something more important. Well, other people's sons are doing something important, too!"

In matters of war, the Prophet Muhammad never asked his Companions to do what he himself wouldn't do, the Sheikh observed.

He drew his palm over his face, weary. "All this about Caliphate and sharia and jihad," he sighed. "So leave the power in this world to the Americans! At the end of the day, the world is not ruled by the Americans, but by God."

We laughed, and he slapped his thigh. But he wasn't kidding. "You know, Carla, if Muslims just stop and don't do anything, Islam would have much more attraction. Many more people would come."

I whinnied with laughter.

"No, really! You can quote me on this! It would be better if we didn't do anything. All this fighting, this jihad, this sharia, it would be better if Muslims just stop and do nothing. Don't work. Don't pray. Nothing. If you don't do anything, then it would be better."

Every modern political struggle undertaken under the mantle of Islam, he argued, had failed. Islamist political programs were overwhelmingly negative, he said, far more focused on getting power than governing effectively. When they did get into office, their governance was often disastrous: "It's like when someone says 'I'm such a good cook,' and then they cook for you, and then..." he turned his hands skyward and grimaced.

"Look at the Muslim Brotherhood," he said. "Is Egypt better now than before the Revolution?" At the moment, it looked a lot worse.

He shrugged. "If you don't do anything, then it's better."

* * *

A few months after I'd first interviewed her, I spoke with Mona, who appeared on my computer screen via Skype from a café in Cambridge. She had lost weight, and she seemed both calm and animated, charged with some new strength. The evening we spoke, it had been 195 days since her brother had been arrested. A few months after his arrest, the police burst into her parents' Cairo apartment at dawn. "They trashed the place" and arrested her father, too, she said. Then they froze the family's bank accounts. Faced with these hardships, Mona was accepting, even grateful. They provided, she believed, "an opportunity from Allah to learn more about myself. I am learning what I am capable of." With very little money now, and no way to return home, she had learned "how to be fully dependent on Allah." Back in Cambridge, she was trying to finish her PhD, and Allah gave her the strength to endure. One's anchor, she told me, "is not family, it's not money, it's not a place. It's Allah."

Center bombers, and of the American politicians who fought back with their War on Terror. Both obsessed with external threats, they seemed as symmetrical as the Twin Towers. The jihadis blamed the West for the ills of the Muslim world, while the American hawks exaggerated the threat from the jihadis. Neither side was willing to look at what was really ailing their societies, thought Akram. In the Muslim case, it was their mistaken turn away from true piety to identity politics. In the United States, it was a moral decline and an unquenchable desire for "eating, drinking, money, and sex and all this and that," said Akram.

Too many Americans misread the meaning of the harbor's statue of the lady with the torch, he observed. "This freedom people talk about, to buy whatever they like, wear whatever they like, drink, and so on, this is not good for the people," he later told me. "True freedom means freedom from desire. True freedom means freedom of thinking. If your mind just follows your desires—how to make more money, how to eat more, drink more, have more things—it's really worse than slavery."

Americans weren't always like that, he added. "In the beginning, when American people were getting their freedom, when they wanted to build their nation, they were willing to make sacrifices. But now, too many people are slaves of desire, and that's not good for people. These things are more likely to bring death to America than any Al-Qaeda, any destruction of towers. If people have the right ideas, then people can't destroy the nation."

* * *

"Anyone can make anything comprehensive," he said one day as we sat in the Oxford Kebab House. "Maududi wanted to do that. But he came at a time when Muslims lost power. Young people want something like power through Islam, because when Western people talk about power, they feel inferior."

He leaned forward as though about to share a confidence. "You know what these Islamic reform movements are really for?"

"What?" I smiled.

"They're for Western-educated Muslims, to convince them that Islam can also deliver what the West has. It's to tell them, 'Oh, they laugh at you? Well, you have the power to laugh at them.' But Islam is not like that."

"Islamic movements, they think they can get a reward in this world," he sighed. "If the state and power are so important, why are the Prophets so important? Ninety-nine percent of them didn't have any power. Ibrahim didn't have a state. Jesus Christ didn't!"

As for political Muslims, fond of talking about Medina as the first Islamic State, and the Constitution of Medina as the ideal basis for contemporary politics? Misguided, to his mind. The Prophet hadn't wanted to leave Mecca in the first place: he was forced to leave, since he was unable to practice his faith. And when he got to what would become Medina, it was in search of freedom of religious worship, not power. Power was thrust upon him. "He did not especially want to run a state," explained the Sheikh. "But when he got to Medina, he had to organize it properly."

One website proclaims the Constitution of Medina "the first written constitution in human history" and claims it laid the "practical foundation of democracy." Such parallels suggest a profound insecurity, he suggested. "Many Muslims became influenced by Western ideas of the state, and they want to find

feminists, have argued that the faith—or at least its symbols—should be employed for political change. Traditionalist Sunni ulama like Akram view their role as moral stewards, offering gentle guidance to rulers but not ruling themselves.

I thought about the Pharaoh and his wife, who seemed to perfectly illustrate those stock characters we read about from the Middle East: strongmen with an iron grip over public life, and pious women who turn inward to their houses or families, or faith. These were the archetypes that seemed to appear in every piece I wrote for American magazines, the strands woven into the Western narrative of the Islamic world. By and large, the dominant story of Islamic countries was to be told by and about powerful patriarchs—whether mullahs or secularized despots like the Shah or Saddam Hussein. Too often, these hulking Pharaohs have blocked out our view of the rest of society, obscuring people who might not buy arms in bulk, or attend summits in Western capitals.

The Sheikh opposed any extremes, and indeed questioned any system, Western or Islamic, that claimed to be comprehensive. Islamist thinkers like Sayyid Qutb and Maulana Maududi, who wanted Islam to provide the answer for virtually everything in a modern society, were misguided. The great irony, in the Sheikh's view, was that these great defenders of Islam were actually more Western than traditional Muslims. Qutb, with his talk of "systems" and his call for a "vanguard" to create an Islamic state, could sound awfully close to a twentieth-century Western revolutionary at times. Malise Ruthven, a scholar of Islamic movements, notes that Qutb's concept of the vanguard is a European import, with a lineage starting with the Jacobins, and developing through the Bolsheviks and more recent Marxist guerrillas like the Baader-Meinhof gang.

Akram put it more simply: the young people who looked to Islam as an answer for everything from penal codes to banking practices simply wanted a Western state with an Islamic flavor. The "Islamicization" of everything sprang from a deep envy of the West's power and geopolitical supremacy. "All they want," he said, "is what the West has."

* * *

Sayyid Qutb, the godfather of modern extremism, sailed on a steamship from his native Egypt into New York Harbor in 1948. Onboard, he'd been sexually propositioned by a "beautiful, tall, semi-naked" woman in his cabin, an encounter that Qutb would describe as a major test of his Muslim mores. Things went downhill from there. He likened New York to a "huge workshop," with traffic that "surged forward as if it were the Judgment Day" and citizens with eyes "filled with greed, desire, and lust." His stay in America, and the racism, spiritual vacuity, and licentiousness he found, provided fodder for his critique of the West, one that would go on to inspire radicals, from Sadat's assassins to Al-Qaeda's Ayman al-Zawahiri.

Akram had also stood at the edge of Manhattan looking out over New York Harbor. In 2006, when the Islamic Society at New York University invited him to speak, he stayed near Ground Zero, the site of the Twin Towers. From his hotel window, he had watched the crowds streaming off the ferries and squinted at that famous statue of a bare-armed woman holding a flame. Visiting Ground Zero, he saw a hole in the street surrounded by policemen and flags. The men who'd flown their planes into the Twin Towers had wrought havoc on America, but also on the world's Muslims. As he looked down, he thought of the World Trade

discos lay a very different Maadi, in the *baladi*, or "native" quarter. There lay the clinic of Ayman al-Zawahiri: a brilliant young doctor, an activist in the Jama'at al-Islamiya, and the future leader of Al-Qaeda.

It was all too easy, as an American in Anwar Sadat's Cairo, to imagine one had the run of the place. My American school held its high school graduation in front of the pyramids, with the commencement speech delivered by Egypt's First Lady, Jehan Sadat. Egypt was poised to become the second-largest recipient of American aid, a reward to Sadat for signing the Camp David Peace Accords with Menachem Begin. I remember the crush of crowds near the Nile as my brother and I strained for a glimpse of the motorcade bearing the presidents the Americans were calling peacemakers: Jimmy Carter and Anwar Sadat. "Carter looks awful," my mother wrote in a letter home. "He and Sadat and their wives rode in an open car throughout Cairo. Really scary, and I think unnecessary. All they needed was one person from the PLO there." In the great tradition of Arab dictators, Sadat was everywhere; his balding head and stern military bearing loomed over us from billboards and pictures hung in every café. He even stared me down in my own bedroom. I'd bought a cheap poster in the bazaar showing Sadat's head flanked by doves with olive branches clamped in their beaks. The poster outlasted the president, yellowing on my wall in St. Louis even after his death.

The death came in 1981, in a plot by a Jama'at splinter group. A young radical named Khaled al-Islambuli, a member of a small group of conspirators called Islamic Jihad gunned down President Sadat as he reviewed troops in a military parade. "I have killed Pharaoh," he shouted.

For Egyptian Islamists, the Pharaoh was a potent symbol of oppression, tapping into both the country's own history and the Quranic story of the tyrant oppressing Moses and his people. The image of the Pharaoh was harnessed in Revolutionary Iran, too, where posters depicted the Shah as the Quranic tyrant—and the Ayatollah Khomeini as Moses.

The year Akram and I read the Quran, crowds filled the Egyptian streets, once again pitting themselves against an Egyptian leader styled as Pharaoh. Protesters hoisted signs showing an Egyptian president's face framed with the blue and gold stripes of King Tut's crown. Which president it was hardly matters: to rule in Egypt means that someone will eventually call you Pharaoh, whether you're an Islamist, a secularist, or a nationalist.

Akram wasn't particularly interested in the political imagery of the Pharaoh, or in struggling against him for justice: he was far more intent on the Quran's story of the Pharaoh's wife. Over and over, he ignored him and invoked her. Named by the Quran as "an example for those who believe," the Pharaoh's wife chose belief in God over her husband's idols and magicians. She asked her God, "Build me a house in Your presence in the Garden; rescue me from Pharaoh and his course of action, and deliver me from tyrannical people."

"She had everything," Akram marveled. "House. Jewels. Servants. Power. But she turned away from all that, turned away from her husband, and submitted to her Lord."

The division between those who focused on the repression of the Pharaoh and those, like Akram, who ignored it spoke to an essential division between contemporary Muslim thinkers: Should Islam be used as a political tool, or simply as moral guidance? Reformist Muslims of all orientations, from jihadis to

person, because in Egypt they won't let you," she said. "I understand when he says that politics is a corrupt environment. But if we leave politics only to the corrupt, we will have corrupt politicians all the time."

A child of postpartition South Asia, the Sheikh had been raised when memories of the region's struggle for self-determination were still fresh. The high hopes for a separate utopia for Muslims? The bloodshed over a country they could call their own? All they had brought the Muslims was Pakistan. In the run-up to South Asian independence, "there was so much writing against the British, how they wanted their own countries, one for Hindus, one for Muslims," he said. "But if the real problem is the British, why do Hindus and Muslims want to come to the UK? The children of those people who fought for independence from the British, all are coming here! All are coming to live in Britain!"

These struggles to expand your space—to a country, like Pakistan, or a dream, like a new caliphate—all diverted Muslims from their real purpose: to practice *taqwa*. Remember Yusuf, the Sheikh would say, working in his master's house, ducking the advances of his master's wife? In his own space—his head, his heart—he remained as pious as possible. "We Muslims are concerned about the wider space," he mused. "But our personal space, nobody else controls us. In my heart, if I love God, no power on the face of the earth can stop me. And if this space—the space of the heart—is not being used by Muslims properly, then you have no right to criticize about the other, bigger space."

* * *

Mona had grown up in Maadi, the same suburb where my family lived while in Cairo. We'd left Kabul in a hurry in 1978, since it was clear, after the coup, that the new Marxist government wouldn't require the services of an American law professor. My father took a teaching position at Cairo University and our family moved to Maadi, which provided a quiet approximation of Western suburban life à l'Orient, with gracious villas, Nile-side cafés, and international schools. I was twelve when we lived there, high on the suburban freedoms of a bike and quiet streets. I'd ride down to the shops on Road 9 to visit Kentucky Fried Chicken or check out bell-bottoms in the local boutiques. I attended an American school, complete with cheerleaders and a swimming pool. At my middle school disco, Donna Summer's "Last Dance" throbbed in the jasmine-scented night.

My Maadi life took place in a bubble. Under Anwar Sadat's "Openness" policy, promoting investment from the West and the Gulf States, the rest of Egypt was frayed by social and economic strain. The year before our arrival, the country was traumatized by the Bread Riots, triggered when food prices shot up after Sadat canceled subsidies on oil and flour. To the annoyance of devout Muslims, he downplayed Egypt's Islamic identity in favor of the country's Pharaonic past, promoting the King Tut treasures in the United States with an eye toward tourism and closer ties with Washington.

One response to the conspicuous consumption of Sadat's Egypt lay in Islamic religiosity. Many middle-class Egyptians turned to their faith, sometimes as a spiritual embrace, other times as a way of coping with the overrapid changes of modernity, sometimes both. Most pious activism was akin to Mona's: peaceful attempts to change society through charity work or lobbying for legal changes. But for a tiny minority, this Islamic revivalism would mean more than peaceful protest. Across the rail tracks from the Maadi of riding lessons and Friday night

approached Akram and admitted, in low voices, that the seminar had been most enlightening. "They said that in the morning, they really were thinking very differently from me," said Akram, nodding with satisfaction, "but that by explaining properly, with logic, I'd changed their minds."

Other students managed to resist the Sheikh's persuasive powers. At one talk, a student stood up, fulminating over the need for sharia law. "We need to forget about sharia," responded the Sheikh crisply, and focus on proper worship. Later, the man complained to the seminar organizers that the Sheikh was too "pro-government." Once, when the Sheikh said the energy spent on protesting against the British government would be better channeled into prayer, a young woman raised her hand and in ringing tones called him a "defeatist."

He didn't seem to mind the criticism. On one trip back to India, the Sheikh stopped off at Nadwat al-Ulama and delivered a speech on Islam and the West. "I don't think they liked it very much," he told me cheerfully.

"How do you know?"

"I could just feel the audience," he said. "I think they wanted me to criticize America and Saudi Arabia."

"So what did you say?" I asked.

"I told them, when you criticize the West, you assume they're just a military power, so you want to try to defeat them on military grounds," he said. "But the West is not only military. It's ideas. It's culture. It's history. All are there." It was foolhardy, in this day and age, to try to fence off a pristine Islamic world, unruffled by the cross-breezes of global culture.

He sighed. "If I had more time there, I could begin to show them my way of thinking."

At least one student in the Nadwah audience understood. An undergraduate wrote to thank the Sheikh for his "tolerant and broad view." He was "tired of listening to intolerant views of ulamas about the West," the young man wrote, "especially of Jews and Americans." The Sheikh had provided "fresh air in the narrow-minded atmosphere."

At times, even I found myself yearning for Akram to tie the Quran and Prophet's sunna more tightly to worldly events. I'll admit it: I am worldly, and so I wanted him to demonstrate how his teachings played out in the world, not just in the invisible space of people's souls. I found myself perking up in seminars when someone asked a political question. I printed out the ad for a lecture by the Sheikh with the subject line reading "English Defence League in Makkah?" The blurb pointed out similarities between the Prophet's persecution by the Quraysh in Mecca and the rise of the EDL, a right-wing party with an Islamophobic bent. But at the lecture itself, the Sheikh barely touched on the EDL. They were scarcely worth a thought, he counseled. The good Muslim shouldn't allow himself to be distracted. His thoughts were with God's powers, not earthly skirmishes.

Forged in the relative freedoms of India and Britain, the Sheikh's outlook lacked the urgency of Mona's Egyptian-born activism. While he believed it premature for Muslims to venture into the political arena, Mona and her fellow Muslim Brotherhood members disagreed. "It's a duty to stand against what is wrong," Mona told me. "It's not enough to condemn it in your heart." It was one thing to keep your soul trained on *taqwa* in leafy, peaceful Oxford, and entirely another thing living under a dictatorship: "In Egypt, you cannot be a good

or calling for the strict enforcement of Islamic law. But that was the sort of rhetoric so many young Muslims demanded these days, the Sheikh sighed.

It's not that he preached utter political apathy, or told people to abstain entirely from politics. Back in India, when Muslims used to ask him whom to vote for, he'd shrug and tell them to tick the box for whichever party they thought would develop the country. What was good for India was good for its Muslims; voting for parties angling for the Muslim vote would only foment sectarian tensions.

The major problem with Islamists, said Akram, was their tendency to make Islam more about political struggle than piety. Prominent twentieth-century thinkers like Egypt's Qutb and Pakistan's Maududi had moved politics to the center of an Islamic agenda, he said. "Politics is part of Islam, but Islam is not politics," he explained. "Just as Marxism made money central to everything, Maududi and Qutb made politics the center of Islam. Nobody denies the importance of money, but money is not the center of everything. Similarly, politics is one small part of everything in Islam."

Through the turned-around telescope of Akram's piety, Islamist politics looked tiny and frantic. All this heated talk of implementing sharia law, the flyers calling for the return of the caliphate (Islam's early leadership system), the burning effigies of leaders, the banners with slogans painted in English that were held up to appear on the BBC, all were just politics as usual.

* * *

The day of the Sheikh's lecture "Shariah Law, Islamic State, and Jihad," the men's side of the hall was standing room only. So many young men had filled the auditorium at Queen Mary's College, University of London, that a few even spilled over into the women's side. The Sheikh had heard gossip that the audience was packed with members of the hard-line group Hizb-ut-Tahrir, eager to challenge him over his political quietism. (The group later dismissed these rumors.) The Sheikh came prepared to disarm any young firebrands with *adab*. When it came to his analysis of Islamic movements, he said he hoped they'd bear in mind a bit of Urdu verse: "In the garden," he translated, "accept and bear with me when I'm a little bit aggressive, or when I'm offensive, or hurting you, because sometimes the poison can do the work of the cure."

"Sometimes, you cure with medical treatment," the Sheikh warned them. "Or with poison. So some of this poison will be coming, inshallah [Allah willing], so don't worry."

That got a big laugh, even from the leather-jacketed dudes with slicked-back hair and splayed legs sitting in the back. The Sheikh, in his pale pink shirt and gray V-neck, delivered his "poison" gently. To make political power your goal, he suggested, was to follow not in the footsteps of the Prophet, but rather in those of the kings and clites who were the Prophet's enemies. The quest for sharia law was quixotic: imposing sharia sapped people's piety rather than building it. A state-sanctioned sharia, he argued, "just makes you a law-abiding animal." Real piety derives from *imaan*, an individual's committed belief. "If your *imaan* is deep in your heart, the state and powers cannot take that away from you," he said. But bring in a state-imposed Islam and "hypocrisy will come."

Over the course of the day, I sensed the crowd mellowing. By teatime, I detected a distinct sagging of will where earlier there'd been tension. My intimations turned out to be correct: at the end of the day, several men

the Prophet's Companions swiftly followed suit, shaving one another's heads with such gusto that Umm Salamah worried that she'd see a fatal shaving accident.

The following year, the community returned on hajj, as the treaty stipulated. The pilgrims' calm decorum while performing the rituals impressed ordinary Meccans, who decided to stop supporting the war against the people they'd been told were religious fanatics. A year later, the Prophet Muhammad and his Companions rode into Mecca. The city surrendered without a struggle.

To gather strength, the Prophet Muhammad had to display what looked like weakness, explained the Sheikh. "The Quran calls the Treaty of Hudaibiyah a victory," said Akram. "Even though it was not in favor of the Prophet, he gained time. He could make contact with other Arabs. Peace gave him so much of an opportunity."

Sadly, today's Muslim leaders are rarely strong and supple enough to compromise, he said. "If the Palestinians made peace, they could rebuild. Their children could get education. All this time, all this fighting and this and that. So many youths have been killed."

* * *

"So is he a radical?" non-Muslims often asked when I told them about the Sheikh. "Not at all," I'd say, assuming we were all speaking in post-9/11 code. "Of course not."

And I'd meant it. He is not a radical. Or rather, not their kind of radical.

His radicalism is of entirely another caliber. He's an extremist quietist, calling on Muslims to turn away from politics and to leave behind the frameworks of thought popularized by Islamists in recent centuries. Akram's call for an apolitical Islam unpicked the conditioning of a generation of Muslims, raised on the works of Abu l'Ala Maududi and Sayyid Qutb and their nineteenth-century forerunners. These ideologues aimed to make Islam relevant to the sociopolitical struggles facing Muslims coping with modernity. Their works helped inspire revolutions, coups, and constitutions. But while these thinkers equated their faith with political action, the Sheikh believed that politics was puny. He was powered by a certainty that we are just passing through this earth and that mundane quests for land or power miss Islam's point. Compared with the men fighting for worldly turf, Akram was far more uncompromising: turn away from quests for nation-states or parliamentary seats and toward God. "Allah doesn't want people to complain to other people," he said. "People must complain to Allah, not to anyone else."

All the time spent fulminating, organizing, protesting? It could be saved for prayer. So unjust governments run the world? Let them. They don't, anyway. Allah does, and besides, real believers have the next world to worry about. So the Saudis require you to wear a hijab? Wear it. So the French government won't let you wear one to school? So put it on at home. Laws of the land, so long as they don't interfere with your ability to worship, should be respected. Ultimately, you should not be obedient to the Saudi regime, or the French government, or even to your own desire, but to Allah: "You are a slave. A slave of God. You are owned by Him."

With the war raging in Syria, and the Arab Spring's fallout rocking Egypt, expressing such quietism took courage. Many of his fellow ulama felt forced to harden their lines in their Friday sermons, fomenting resentment against the West

"No. If you insist on justice, then the weak community becomes weaker, because those in power won't give it. They will just hate them more."

"But what can Muslims do without seeking justice?" I asked.

Compromise, said the Sheikh. That will bring peace, which in turn will give a battered community the time and space to heal.

"Weak people, if they don't admit they are weak, it's going to destroy them more and more," he noted. "Some people say, 'When we make peace, we accept injustice.' I'm saying, when we make peace, we buy time."

The Quran, he reminded me, says "Peace is better."

Besides, fighting for justice never gets you peace, he said: "Look at the people in Palestine and Kashmir. They need space and time to do something, to build something. They need to get education. If they keep fighting for justice, they will lose more—and not even get that." What at first appears to be weakness might ultimately prove to be strength. Take the Treaty of Hudaibiyah, he suggested. The incident occurred in 628, when the Prophet, then based with his followers in Medina, was still at war with the Quraysh of Mecca. Despite the fact that the ruling Quraysh still controlled the Kaaba, Muhammad declared that he would go to Mecca for *umra*. Fourteen hundred followers decided to accompany him, even when he said he would not bear arms. It was a brave decision, since the Quraysh had been trying to kill the Prophet for six years. But a few miles outside the city, at a site called Hudaibiyah, Muhammad's camel sank to its knees, refusing to get up.

The pilgrims sat in the desert, waiting for the Quraysh to send an envoy to negotiate their entry into Mecca. They eventually did, but they brought with them an offer many of Muhammad's Companions thought he should refuse. On the face of it, the terms looked pretty humiliating: Muhammad had to go back to Medina without doing *umra*, and had to wait a year before returning. But this meant there would also be a peace treaty between Mecca and Medina for ten years—so long as Muhammad would send back to the Quraysh any Meccan who had emigrated with him without their consent. This condition, however, didn't apply to the Quraysh: they could keep any Muslim that joined their side.

Despite the lopsided terms, Muhammad agreed to the cease-fire.

When he did, his companion, the future Caliph Umar, approached the Prophet.

"You're a Prophet, are you not?" he asked.

The Prophet said he was.

"And aren't we on the right path? And aren't they on the wrong one?"

Indeed, responded the Prophet quietly.

Umar was incredulous at what he believed to be a capitulation to the Meccans.

To show that the Muslims had accepted the treaty, the Prophet asked his Companions to slaughter their camels and shave their heads. The two acts were symbolic recognition that they were no longer in the purified state required of the *umra* pilgrim and thus were abandoning the plans to enter Mecca. None of the men moved to slaughter their beasts or shave. Muhammad asked them again—three times. All they did was stare at him, dazed and bewildered.

Disappointed, the Prophet went into his wife Umm Salamah's tent. The Muslims were upset, she pointed out. "Go out, and don't say anything. Slaughter your own cattle, and shave your own head," she advised. The Prophet did so, and

her go, but they reminded her that they could stop her anytime, should they choose. "As though they were doing me a favor," she scoffed.

Mona spent the Arab Spring in England, where she marched in solidarity with the Tahrir Square protests. Exultant as she was that Egypt was shaking off the political torpor she'd endured her whole life, the news from home was harrowing. State police beat up her uncle and cousin and teargassed her best friend. A bullet narrowly missed her brother. When Mubarak fell, Mona rejoiced, hoping that the country would finally get democracy and justice. When the Muslim Brotherhood won the elections, Mona believed her party would bring Egyptians bread and representation. A year later, she was watching the army and Brotherhood supporters fighting in Egypt's streets. If Egypt's Arab Spring was born with hopes of democracy, it had now tilted back into dictatorship. As the months went by, she heard snippets of news about her brother. He was in solitary confinement, she learned, and her sister-in-law was doing her best to get him a blanket for his cell.

When I asked Mona what had inspired her to become politically involved in the first place, she told me she was spurred by the injustice she had seen during the second Palestinian intifada in 2000. Widespread demonstrations by Palestinians had erupted across the country, triggering casualties in clashes with the Israeli army. Just fourteen at the time, she watched the famous footage of a twelve-year-old in the streets of Gaza, Mohammed al-Durrah, cowering and clutching his father while they sought shelter from the cross fire. Shocked by the image, she decided to devote herself to combating injustice, starting by addressing the poverty and corruption she saw at home, in Egypt. "Islam is about justice," she reasoned. "I want to be a good Muslim, so I need to stop the injustice in the world."

Like Mona, I'd always been taught that justice was the cornerstone virtue of Islam, occupying much the same position that love does in Christianity. Prophets were sent to bring justice to the people through their messages. Polygamists are counseled to be just with their wives, and merchants to make fair deals in the marketplace. "A just leader," the Prophet Muhammad is reported to have said, will be "the most beloved of people to God," while the "most hated" would surely be a tyrant. While Islam's Sufi mystics might stress love, it is justice that runs through the writings of twentieth-century Muslim reformers, often intertwined with cries for freedom from local despots and foreign imperialists. The Ayatollah Khomeini called for justice and the resistance to the tyranny of Iran's Shah; Islamic feminists write of finding gender justice in the Quran. "Justice" is the cry for Kashmir and Palestine, and in petitions about Iraq and Guantánamo Bay.

I called the Sheikh to ask about justice. "It's the basic tenet of Islam, right?" I asked.

A pause. There was justice, ultimately, he said, but it would not necessarily arrive in this life. Allah would provide it in the Hereafter. In Islamic political circles, rather too much can be made of it, he said, and that hurt Muslims. "Think of Palestine," he suggested. "We have no doubt that there has been wrongdoing against the Palestinians by the Jews. But one has to really think about helping what is a very weak community. The way to help is not to bring justice."

"No?"

The Pharaoh and His Wife

"But what," the young woman asked the Sheikh, "about struggling against unjust rulers?" Mona was just twenty-six, but she somehow seemed older. Her face was solemn, and she wore her khaki hijab tightly tucked. A PhD candidate in neuroscience at Cambridge, she tended to ask questions that hinged on theological categories or the finer points of Arabic grammar—the queries of a student taught to analyze systems. But today's question felt more urgent. How, she pressed, should one respond when there was tyranny?

"Sometimes people's space to worship is taken away," agreed the Sheikh. "But when that happens, people still have to keep doing as much as they can." Think of the Prophet Yusuf, he urged, "in the house of that woman." In prison. The God-fearing, he said, can worship Him from any space.

So said the Sheikh from a peaceful classroom in Cambridge. But earlier that summer the streets of Mona's hometown, Cairo, were convulsed with angry Egyptians, and later strewn with corpses. It was, she said, "the worst time of my life." That summer, Egypt's army toppled the nation's first democratically elected president, the Muslim Brotherhood's Mohamed Morsi.

Mona's beloved brother Khaled had been a top adviser to Morsi, serving as his secretary of foreign affairs. A few weeks after the Sheikh counseled Mona to think of the Prophet Yusuf in prison, the army imprisoned Khaled, along with other presidential advisers and Morsi himself. For weeks, Mona and her family had no idea where Khaled was. Though just six months away from completing her PhD, Mona told Cambridge she was putting her studies on hold. She threw herself into working as the Muslim Brotherhood's UK spokesperson and lobbying for Khaled's release. At the time, Western commentators were calling the army's actions an "intervention," but Mona appeared on British television and called Morsi's removal "a military coup." Doing so, she later said, meant she wouldn't be able to return to Egypt for the indefinite future.

She was willing to make that sacrifice. Her sense of injustice dated back over a decade, to when she'd been a teenager. She'd grown up in "a niche existence" of Cairo's private international schools and expensive shops, cut off from ordinary Egyptian struggles. But privilege couldn't block out the yawning inequalities and corruption she saw in Hosni Mubarak's Egypt. Nor could it shield her family from the meddling of state security services. Her father, the headmaster of a private school, was hassled by police when he didn't hang the obligatory portrait of Mubarak, Mona told me. He even had to pay a fee for the government informers assigned to the school. "It was very Big Brother," she observed.

Of her five siblings, she and Khaled were closest, getting up before dawn prayers during Ramadan to read the Quranic sura "Repentance"—their favorite, whose theme, she said, "is victory." Khaled joined the Muslim Brotherhood and Mona followed while still in her teens, deciding that the Brotherhood was Egypt's only serious opposition to Mubarak's rule. The siblings rose quickly: Mona was a gifted speaker, Khaled an efficient organizer. Under Mubarak, Mona believed, her activism hobbled her career. She graduated first in her university class but saw the teaching job she wanted go to someone else. When she won three scholarships to Cambridge, government officials said that they would let

one didn't sacrifice *taqwa* in the process. Political gains are transient, but the afterlife endures. For Akram, Muslims' real rewards lie not within the pre-1967 borders of Palestine, nor in any Muslim state. Indeed, they lie no place on the planet, but in the infinite space afforded a single soul by God.

memory, historical character, and customs, this "delinked" Islam functioned like a mobile SIM card: a portable, fungible faith, without roots or a culture of its own.

In the mid-1990s, many American Muslims announced that they were delighted to peel off the local customs their parents had imported when they'd migrated. They wore T-shirts to youth conventions with the Quranic verse proclaiming strength in diversity:

O mankind! Lo! We have created you male and female and have made you nations and tribes that you may know one another. Lo! the noblest of you, in the sight of Allah, is the best in conduct. (49:13)

When I met these young Americans, they frequently assured me that they would no longer be hobbled by the narrow, localized Islam that their parents brought over from Pakistan or Syria. Their Islam would be pure. Strictly religious, rather than mingled with customs. "It's a new beginning, it's a new frontier!" enthused one Muslim leader at an East Coast college. "We can get away from all the cultural baggage of the Middle East and create something new, away from the turmoil and chaos of the Muslim world."

I remember wondering, a bit wistfully, about this all-American zeal to forget the past. Whether these New World pioneers really wanted to rush in and strip back the layers that their forefathers had set down. Whether Islam, strained of culture, was going to be sustaining enough. I wondered, too, how long it would be before they built up cultures and traditions of their own. These young Americans, with their talk of fresh starts and pure origins, were some of the newest migrants to embrace the dream described in the final page of *The Great Gatsby*. In the words of these new Muslim migrants, hoping for a pure faith, free from despots, wars, and repression, I heard echoes of Fitzgerald's description of the European discovery of America, of the first sight of "a fresh, green breast of the new world," and of the fleeting hope that it would remain fresh, green, and new.

* * *

Another joke from the Sheikh, this one about the traditional Egyptian buffoon figure Joha. He wandered down to the riverside one day, where he saw a crowd of people, waiting expectantly on the other bank.

"What are you waiting for?" he cried.

"A boat," they yelled back. "To get to the other side!"

"But why would you do that?" called Joha. "You are *on* the other side."

Too often, the Sheikh said, Muslims acted like Joha on the riverbank: "We never look at problems from how other people might see them." "I thought that was what you Muslims always said was an American problem," I teased. "An inability to see things from anybody else's point of view."

"No, really! Like when I hear Muslims complain about why America always supports Israel. They think it's not consistent with their support of democracy and human rights. But it is consistent, because they are supporting what is in their own interests. If you look at it that way, it's very consistent!"

It was the first time I'd ever heard Akram mention the Israel-Palestine dispute. It was something I'd always assumed was a core issue for Muslims. Not for Akram. Like the struggles in Kashmir and Syria and Afghanistan, he left this Middle East conflict to the capitalized-*M* crowd. For Akram, fighting over bits of earth was far less compelling than mapping out hell or paradise. Lobbying for Muslims in Parliament was fine, if one went in for that sort of thing, so long as

The Muslims who warn against befriending Jews or Christians often cite the fifty-first verse from the fifth sura, "The Table," which can read like a bald warning not to mix with other monotheists: "Choose not for friends such of those who received the Scripture before you." Thomas Cleary, my favorite English translator of the Quran, sees 5:51 as a warning merely against taking "Jews and Christians for patrons, for they are patrons of each other." Whether one opted for "patrons" or "friends," the phrasing seemed to encourage Muslims to keep their distance from people of other faiths. Hostile zealots—both Muslim and non-Muslim—love to brandish that line from 5:51 as proof that "we" should keep clear of "them." I'd seen 5:51 quoted on a nasty little Islamophobic website that boasted it had "the politically incorrect truth about one really messed up religion." I'd also read it invoked by a hard-line Muslim sheikh online. In response to a young man's query as to whether Muslims could "play basketball" or "hang out" with non-Muslims, he handed down fatwa number 59879: "Allah has forbidden the believers to take the [disbelievers] as friends."

When I asked the Sheikh about it, he cautioned that 5:51 wasn't a blanket statement. Rather, it applied to a very specific group of non-Muslims at a particular moment in Medina when certain Jewish tribes aligned with the pagan Quraysh against the young Muslim community. "That verse came down when they were in war conditions," he explained. "That verse is for when unbelievers have all the power, and yet still they oppose the Muslims, and persecute them, and don't give them freedom."

Reach out to people of other faiths, the Sheikh encouraged his students. Invite your non-Muslim neighbors to your daughters' weddings! (He had, though it was fortunate that "our neighbors are very nice people anyway.") If your neighbors are sick, help them out! Take them a plate of *samosas*! "The way to bring people to Islam is not the sword," he smiled. "Sometimes, food can do more than the sword. Invite them for a nice *biryani*." Or a kebab. All were means to "interact with the people, mix with the people. People are not your enemy! If there is a barrier between you and them, break the barrier! If people just smell you cooking your *biryani*, they will hate you! If you offer it to them, they will love you!"

I laughed, along with the rest of the crowd, at the image of *biryani*-based *dawa*. He knew his audience well: most had roots in South Asia. Whenever he invoked the reign of Shah Jahan, or recited Urdu couplets, or told a joke involving a Hindu and a Muslim, it was a reminder that he wasn't anchored just by Islam, but by the subcontinent, too. Because the Sheikh had brought his love of Lucknow, his devotion to the poetry of the Pakistani poet Iqbal, and the *adab* of the traditional *alim*, he could retain a supple, accepting outlook of his new country. It was precisely his immersion in his own faith and culture that allowed him to live in another so peacefully.

Olivier Roy, a French scholar of global Islamic movements, wrote that mass Muslim migration has frequently "delinked" religion from culture. The child of the villager who chances a better life in Karachi, or the Karachi youth who gets a U.S. green card, often feels cut off from his ancestral culture. Some seek a globalized form of Islam to fill the hole, and the result can be a brittle Islamic identity, one ripped from their past. This rootless, decontextualized strain of Islam, notes Roy, mirrors the process that has produced it: globalization. Whereas one's ancestors were steeped in a local Muslim culture, with its own

half in Medina, the Prophet received a revelation that ordained that Muslims should switch their *qibla*, or direction of prayer, from Jerusalem to Mecca. This shift of orientation to the Kaaba was a sign, notes the author Karen Armstrong, "of a proud new Muslim identity."

In the centuries that followed, the most successful Muslim states, whether the Mughals or the Ottomans or Muslim Spain, demonstrated tolerance toward other faiths. For Akram, enjoining his students to spread the word of Islam, it helped to ignore religious divisions and focus on a shared humanity. It was a bit like being a savvy businessman, he once explained: "I open a shop, I want to get every customer possible!" he said. "I don't want to tell people, 'No, you can't come here because you are a Christian, or a Jew, or a Wahhabi, or a Barelvi.' When you are working for your money, this is how you are thinking." The same principle should apply to doing *dawa*: "With everyone, be nice to him. Treat him as an individual, not as a Jew!"

The image of the shop reverberated—and not only because it was rare for Akram to cite anything as grubby as commerce. The marketplace fits with one of my own operating principles: welcoming diversity and pluralism.

Doing *dawa* may require the expansive and open qualities of a good businessman, but it wasn't a sales pitch, warned Akram in another Cambridge lecture. One couldn't sugarcoat Islam's message. By way of explanation, he cited an editor's letter from the front of *Time* magazine. It advised readers that, as the Sheikh read, "We keep our readers in mind, and select the stories that will interest them."

(Well, of course, I thought. How else would a magazine work?)

"Salespeople are not interested in what benefits you," Akram said rather sternly. "They only want to sell you something."

It was tempting to stress "how nice Islam is, so people will love us," he conceded. "But the message itself is self-sufficient. It has its own wisdom."

That said, one had to know one's audience. "Understand people's context," Akram counseled. "Messengers always have great character. So it helps to build up your own, and then people will see it. They will know the Prophet through you. If you are generous, they will know that your Prophet is generous."

Connect with the place in which you find yourself, he stressed. It was true, of course, that "people should live in this world like a traveler," mindful that what really mattered was to come after death. But that didn't mean Muslims should float, disconnected, on the surface of the society in which they lived. Too often, Western Muslims whiled away their lives dreaming of going "back home" to the Punjabi village that their parents had quit decades ago, or fantasizing about some Islamist utopia where sharia ruled the land.

Don't waste your time, counseled the Sheikh. If you live in Britain, embrace Britain. Be a good citizen. Contribute to society—and not just Muslim society. Help out the British government, if they need it! Boost the economy! Give to the needy—whether Christian, Jewish, Muslim, or Hindu!

The speech was characteristically confident. Exhorting his students to get out there and mingle with non-Muslims, the Sheikh challenged the extremist concept of *al-wala wa al-bara*, the doctrine of loyalty and dissociation, which holds that Muslims should not, except in circumstances of extreme need, befriend non-Muslims.

Akram urged his students to look at the Prophet and his Companions. Faced with a silly sketch, or a nasty novel, would they have demonstrated? "Let's think, really," he urged. "No matter how much the Prophet had been abused by people who opposed him, did he protest? Did he burn their houses? Did he harm them? No! He went to do *dawa*. When he wanted to persuade the people in Mecca to become Muslim, he would go to someone's house seventy times! He would have patience!"

Still, in class after class, students asked how Muslims can defend Islam from slurs against it.

"Musk smells sweet on its own," Akram advised, quoting a Persian proverb. "You don't need a perfume seller to tell you of its sweetness." One needn't defend Islam, but one should try to spread its teachings. Britain had given its Muslims so much. "We are takers here," he said. "We come to this country, and we have taken their wealth, we have taken their technologies. Everything we have we got from them." The least they could do would be to share their most precious of gifts, their faith, with the British. The least they could do would be to try to save them from the fires of hell. "The reason people hate us is they believe we have come to this country to take," he said. "But we have to give."

Dawa could never be aggressive, cautioned the Sheikh. You weren't angling to win a debate. You weren't trying to chalk up more souls to boost a community's numbers, like some Christian missionaries. Rather than protesting, the Sheikh preferred that Muslims spend their time doing what some translations of the Quran call "beautiful preaching." Think of the Prophet Muhammad, Akram said, and how he modeled the teachings of the Quran, humanizing Islam. Where the Quran could sound forbidding, Muhammad helped soften it by presenting its human face. He showed how God's message worked in the real world.

The first Muslim community grew up in a multifaith environment. Medina was home to pagans, seekers, and three Jewish tribes as well as Muslims. Indeed, for the first years of his prophethood, Muhammad stressed that his message was for Jews and Christians as well as for pagans. Upon arrival at the oasis of Medina, having fled Mecca, Muhammad's first words framed the basic laws for the first Muslim community: "Spread peace, feed the hungry, honor kinship ties, pray while people sleep, and you shall enter Paradise in peace."

In the early Medina years, notes Reza Aslan in *No god but God*, Muhammad stressed that his message was for all the People of the Book, and so he took care to promote acts that would build allegiances between the Muslim and Jewish communities. In the first Muslim state in Medina, the Prophet Muhammad guaranteed nonaggression between the Muslims and the rest of the population, including the Jewish, Christian, and pagan clans. "He who wrongs a Jew or a Christian," said Muhammad, "will have me as his accuser on the Day of Judgment." The Muslim fast was to be observed on the same day as Yom Kippur, the Jewish day of atonement. Like the Jews, Muslims were commanded to pray facing Jerusalem. Muhammad picked Friday as the day of communal prayer so as to be in concert (and not conflict) with the Jewish Sabbath.

As the Muslim roots in Medina grew, so did the distinctions between its Jews and Muslims. Some of the town's Jewish population began showing up in the mosque to jeer at the Muslim community, and to scoff at the differences between the Quran's version of certain stories and the Torah's. After a year and a

was delighted: "Yes! Exactly! So many times in the Quran, it is not describing a group called 'the Muslims.' The word is with a small *m*, describing those who submit to the Lord!"

But it's capitalized-*M* Muslims who inevitably make the news, or feature in government debates and sternly worded op-eds. Capitalized-*M* Muslims feed the whole "clash of civilizations" myth, with its claim that Islam and the West are two airtight systems. For those who hold with such a notion, the two are mutually exclusive; for extremists on both sides, "the Islamic world" and "the West" are straining toward each other's destruction. The Swiss burgher fretting about the threat that minarets might pose to the Alpine landscape was concerned not with a faith, but with an identity group. So was the jihadi ranting about the evils of unbelievers at the mosque; and the Islamophobe congressman, intent on protecting decent, hardworking Americans from sharia law.

The journalist traded in capital-*M* Muslims, too. Lowercased-*m* muslims weren't a story, for the simple reason that they don't create conflict. As bullies and demagogues well know, pitting one group against another produces swift and lasting results. Conflict was a gift that kept on giving, bonding these identity groups ever tighter together, laying down foundations for more conflict. Bin Laden's faithful and American Crusaders. Islam and the West. Without a bracing storyline, bristling with events, small-*i* islam just can't compete.

Akram refused to sit and listen to divisive tales, and he refused to tell them, too.

He had heard them hundreds of times, sometimes from his students, sometimes when he happened to see a headline in a British paper. In recent years, a few highly excitable young men wanted to go back to the time when the world had been divided between Dar al-Islam (the Land of Islam) and Dar al-Harb (the Land of War). Anything that wasn't Islam's, they deemed to be the Land of War. But that, the Sheikh pointed out, was strictly applicable only when Muslim societies were strong. It made no sense now. "It was for when Muslims had empires," he said. "Now, the whole world is Dar al-Dawa"—the realm of calling people to Islam.

When the Sheikh's students voiced fears about Islamophobic media coverage, or Western laws that they felt discriminated against Muslims, the Sheikh would warn them to be careful not to confuse group politics with piety. "Islam is not a property," Akram once observed during a seminar. "It's not your identity. Don't think that if someone laughs at you, you have to explain yourself. We are more interested in defending our belonging, our identity, than in the Prophet. Don't think about identity! Think about good character!"

A British-Indian novelist published a story slurring the Prophet Muhammad? Ignore it. Don't issue fatwas against him, or burn books in town centers, or stage protest rallies. Turn away from this world and toward God. Pray. Do *dawa*—call people to Islam. "If people write books against your Prophet, there are many ways to solve the problem! The best way is to pray for these people. Write some books yourself." Some cartoonist in Denmark sketched some ugly little pictures insulting the Prophet? Let it go; go toward God instead. "Someone makes a cartoon, and we protest. We make protest, and we think we're doing what we're supposed to do!" They're not. "Where is it in the book of Allah that we 'protest'? Is this business of 'protest' anywhere in the Quran or the Prophet's sunna?"

13

Beyond Politics

The Sheikh's humor tended toward the arcane. For anyone weaned on Woody Allen and *Saturday Night Live*, his jokes were nearly unrecognizable as such. More gentle fables on human folly than jokes per se, they ended not so much with punch lines as with pat lines. The day the Sheikh and I discussed how different readers bring their own agendas to a text, he told me this one: A boy and his dad go to the zoo. On seeing the animals, the boy begs his father to get him one of his own to take home.

"But how would we feed it?" the fretful parent asks. "You know I can't afford another mouth to feed."

"Not a problem, not with these animals," the son counters. "Look at the sign on the fence: 'No Feeding.'"

The Sheikh waited for me to get it.

"Aha!" I said, hoping that polite appreciation, rather than mirth, might suffice.

"Do you see?" he asked. "The boy didn't understand that the sign was meant to be read from the angle of the visitors! It was not written about the animals, but written for the visitors!"

Got it. A gag built on grammatical confusion. Does "feeding" function as an adjective, describing the animals, as the boy argued? Or is it a directive, telling the zoo visitors how to act?

The joke reminded me of a rather graver case of grammatical ambiguity, one that hinged on a single letter. It appeared frequently in the Quran and revolved around the letter *i* in the word "Islam." *Islam* with a capital *I* refers to the religion itself, while *islam* with a lowercased *i* just denotes "submission" or "surrendering" to God. In this lies the difference between a specific religious group and something rather more elastic. The space between them suggests the creative tension between the Quran as a scripture reaffirming earlier Abrahamic faiths, and one setting up a community distinct from them. The Sheikh, and other scholars, read most of the allusions to "islam" in the Quran as lowercased *islam*. "In the Quranic worldview, 'Islam' is not so much the name of a new religious tradition as it is the quality of submitting oneself to God wholeheartedly," writes the professor of Islamic studies Omid Safi in *Memories of Muhammad*. "For the most part in the Quran the word 'Islam' is a verb, not a noun."

Similarly, the word "Muslim" means "one who submits," or "one who surrenders." But there's a huge difference between Muslims with a capital *M* (a faith group) and lowercased-*m* muslims (monotheists who have submitted to God). Much depends on whether one reads it as a proper noun describing who someone is, or as a verb describing what they do. When I look up English translations of bin Laden's 1996 declaration of jihad against American troops, the online translators render the opening sura he quotes thus: "O you who believe! Be careful of your duty to Allah with the proper care which is due to Him, and do not die unless you are Muslim."

But when I opened my copy of Thomas Cleary's translation of the Quran, I found that the final phrase was translated, rather less stringently, as "do not die without your having surrendered to God."

When I point out that so much of the Quranic message seemed to be about lowercased-*m* muslims, or rather, anyone who has submitted to God, the Sheikh

umma, the multistranded community of believers. Just as early Christians had worked to distinguish themselves from the Jews, so, too, had medieval Muslims sharpened the divides between their own young faith and other monotheistic faiths.

Identity politics, it turns out, has a long-standing history of its own, nested within the broader sweep of religious histories. At one dinner party, I met a screenwriter who'd recently moved back to London from Tel Aviv. She was chic, smart—and unconvinced when I argued that anti-Semitism wasn't intrinsic to Islam, only to some modern extremists. "I think you'll find," she said, slowly smoothing back her long dark hair, silver bracelets jangling, "that you're choosing not to see what you don't want to see. The Quran calls Jews monkeys and pigs." There was a shocking amount of anti-Semitism among Muslims, she said, and their scripture just condoned it. She'd once had a horrific encounter with a Muslim in a British corner shop. Taking her for a Muslim, with her dark hair and olive complexion, the shop assistant had begun flirting with her. She didn't flirt back, and things got nasty. When he began yelling anti-Semitic remarks, she decided that it was time to move to Israel.

"That sounds awful," I said, meaning it. But I also despaired of this anecdotal approach to discussing civilizations. It felt like an endless ping-pong match: "You show me your Muslim, I'll show you mine." Or, "You show me your seemingly incendiary Quran verse, I'll counter with one calling for peace." Such discussions were a relentless tit-for-tat of examples, rather than exploration.

The following day, I phoned the Sheikh about the monkeys and pigs verse. "It is not about all Jews," he said. "Just some of the Jews, in a particular fishing town, Eilat. They tried to fish on the Sabbath by spreading their nets out in advance of it. They tried to get around God's laws through their cleverness, and so they broke the Sabbath. The other people in the town, the Jews who observed the Sabbath, they are fine!"

Had we not been on the phone—and had it not been wildly inappropriate—I could have hugged him. As ever, he put the words in context, both in terms of Islamic history and thematically, in the broader messages of the Quran. As we hung up, I thought, for the umpteenth time that year, how people could use reckless readings to find nearly anything they wanted in the Quran. As with the Bible and the Torah before it, it's easy to find incendiary passages if you want to. The challenge, as ever, is to step back and consider them in context. But such study remains a luxury, beyond the means of many Muslims and non-Muslims alike. Too many Muslims are left to learn with an untrained village mufti, or to explore the badlands of the Internet with only "Sheikh Google" as a guide. For Christian and Jewish readers of the Quran, proper study takes not merely time and effort, but a careful separation of their interpretations of the text from contemporary events. It's quick work to allow modern tensions between Muslims and Jews in Gaza, or between Muslims and Christians in Egypt, to infuse a reading of the Quran. But to do so is to place the self, rather than God, at the center of one's reading of the Quran. And that, the Sheikh had taught me, will never do.

wiggle room on various roads to salvation. Could Jews and Christians be saved, for example?

"The basic idea, really, is that when a new Messenger comes, all the people who know him must accept him, and must follow him. As Musa [Moses] says, you must believe in the new Messenger when he comes." Moreover, it is the duty of Muslims to try to connect people of other faiths with this new message, to reach out as *dais*—people who do *dawa*, or call people to the right path.

But the Sheikh, who always took care to give the most tactful answer he could find, then gently offered a bit of hope. "I suppose... it could be that someone, somewhere believes in one God, makes an effort, and has no other guidance ... has no idea of the Prophet Muhammad, no idea of Islam or access to the Quran, and he dies as a true believer, there's hope for him to be forgiven. These people who are believers without being Muslims could be saved. It's up to God."

In other words, among non-Muslims, only a hermit might have a shot at salvation. In the Sheikh's estimation, if one knew about the Prophet Muhammad's message and turned away from it, even if one turned toward another faith, one cannot be a true believer.

But still, even many Muslims seemed to be ignoring Muhammad's teachings, said the Sheikh. It was simply human nature to focus on the most recent prophet: "The Jews took Musa to be more important than the religion of Ibrahim," he noted. "The Christians ignored earlier Prophets, and now the Muslims are ignoring the teachings of the other Prophets in favor of Muhammad."

So without Muhammad, said the Sheikh, Jews and Christians wouldn't make it to paradise. It wasn't what I had wanted to hear, but I knew he believed in freedom of belief. On this, he was as emphatic as the Quran: "There is no compulsion in religion." Don't take my word for it, he always counseled: "If you disagree with my interpretation, seek out someone else's." And so I did. I turned to my bookshelf and found Muslim writers who wrote on Islam and pluralism. In the Quran itself, in the forty-sixth verse of the twenty-ninth sura, I found a succinct expression of an enlightened coexistence between Muslims, Christians, and Jews, three groups of the faithful, theologically distinct, perhaps, but believing in the same truth:

And do not contest the people of scripture, unless with what is better, except those of them who have been unjust: say, "We believe in what was revealed to us, and what was revealed to you; for our God and your God is one, to Whom we acquiesce." (29:46)

Relief.

I was even more consoled by *No god but God*, in which Reza Aslan describes Muhammad's view of the People of the Book. In the earliest days in Medina, Aslan writes, the Christians and Jews were "spiritual cousins who, unlike the pagans and polytheists of Arabia, worshipped the same God, read the same scriptures, and shared the same moral values as his Muslim community." Aslan even floats the theory that though they were theologically distinct, they were conceived, in Muhammad's city-state of Medina, as a single community of monotheists, committed to pluralistic living. It was only later, notes Aslan, that the jurists promoted a conservative worldview, much as they had done with women's rights. It was these medieval scholars, not Muhammad, who had deemed Jews and Christians "unbelievers" rather than simply members of the

was to turn away from Him, said the Sheikh. Jews and Christians who wanted salvation must acknowledge Muhammad as a prophet.

I hung up, deflated. His answer was far less encouraging than the view of progressive Muslims, who pointed out that Islam acknowledged that God allowed for a variety of ways of worshipping Him:

For each of them We have established a law, and a revealed way.

And if God wished, God would have made you a single nation;

but the intent is to test you in what God has given you.

So let your goals be everything good. (5:48)

I counted this among the Quran's most comforting verses, a resounding endorsement of my own creed: diversity and good deeds. Different paths to God were not just tolerated, but part of the divine design traced out by God. Religious differences were a source of strength, polishing belief as the faithful contrasted, compared, and competed to please God through kindness and piety. A sort of divinely sanctioned free market of faith. "And there is a messenger for every people," the Quran says. For those who follow these messengers well, there was nothing to worry about.

Omid Safi, professor of Islamic studies and author of *Memories of Muhammad*, notes that the Quran stressed that "no one group—including Muslims—claims exclusive salvation." Indeed, the Quran dealt sternly with any religious group claiming that their way of worship was the right one:

And they say: None entereth paradise unless he be a Jew or a Christian. These are their own desires. Say: Bring your proof (of what ye state) if ye are truthful. (2:111)

The Quran took a dim view of any one group claiming they'd found the sole path to paradise. Along with all the careful reminders that only Allah knew someone's ultimate fate, there seemed to be grounds to believe that salvation didn't belong to Muslims alone.

But that wasn't what the Sheikh had said. Hoping to find comfort in nuance, I crept around to the issue from another angle, over tea at the Oxford Kebab House. My nervousness was compounded by the fact that I was the only one sipping tea, since it was a Thursday. Except when he was exercising particularly hard at the gym, the Sheikh fasted on Mondays and Thursdays, just like the Prophet Muhammad.

"Now, Sheikh, the Quran makes clear that what it brings is nothing new, right?" I said. "God has sent down revelations before, first to the Jewish people, then to the Christians. So why send new revelations, with slight details altered, if the essential message is the same?"

"It is deconditioning people," he said. "The new Messenger deconditions the people who have been following the religion and have made it into culture and identity. So when the Messenger comes with new details, the religion becomes fresh, like a still pond getting a new water supply."

When a new Messenger comes, he said, people must believe in his message.

Oh.

I was unaccustomed to such stark certainty from the Sheikh. So I asked yet again, at a Q&A session in a public lecture, raising my hand, waiting for the microphone to be passed to me, and asking whether the Quran allowed any

they had forgotten Abraham's covenant with God. Over time, their religion had settled into a matter of habit. They began to treat Judaism as a matter of belonging to a people rather than believing in a God, he argued. Such was the case for many Muslims today: "When Jesus came, the Jews really wanted to be treated as believers without being believers," he said. "We Muslims, at this moment, want to be treated as believers without being believers."

Modern Muslims often simply cling to the external signs of their faith: "People are busy worrying about their beards, or their headscarves," he observed. "So the faith becomes like their identity. It happens like this in every culture, every faith. The outer aspects become more important, while the soul inside is forgotten." He paused, shook his head, and gazed mournfully out at the crowd. "At the end of the day, people are carrying around a dead body, with no soul."

"Why do we Muslims have so much suffering, all over the world?" he demanded. "We are carrying the body of Islam! We don't have submission. We have got the law, but without the *hikma*—the wisdom—behind it. Religion hasn't come to give people an identity! Its purpose is not so you can say, 'We belong to this group.' But at this moment ninety-nine percent of Muslims treat religion as identity! But God does not like identity. He does not want people to be proud of belonging. He wants faith, and he wants action."

* * *

I wasn't surprised to hear Akram discussing the connections between Jews, Christians, and Muslims and their prophets; I knew that the Sheikh was tolerant of differences: I'd known that since the day I bounced into our shared office in a miniskirt. I'd watched him talk politely to pierced and dreadlocked hippies. And when, just a few years ago, I finally had the guts to tell him that my mother was Jewish, he nodded, smiled, and was as warm as before. Differences weren't just to be tolerated, he once wrote, but were God's design: "If Allah had pleased, He would have created all people alike, yet Allah has bestowed on man the potential for intellect and will, hence people have diverse beliefs, thoughts, and tendencies."

But just how diverse could these beliefs be? One day the Sheikh and I were on a bad mobile phone connection, fixing a date for our next lesson, when I found the courage to ask whether Christians and Jews would be saved.

"Oh, Sheikh, before we hang up—one last question. It's about Christians and Jews. So, I understand that Muslims embrace earlier prophets," I began. "But those who worship the earlier prophets, what of them? If you're an observant Christian or Jew, and you submit to God, are you considered a true believer?"

The cell phone connection was crackly, but the Sheikh's answer was unequivocal. The Quran revered the prophets of the Jews and Christians—but the Jews and Christians, in turn, needed to believe in the message of the Prophet Muhammad: "You cannot deny any of the Prophets. They believe in their own Prophets, just as we do, but they cannot deny Muhammad and his Message. Otherwise, it is just holding on to the religion of their ancestors."

Clinging blindly to the faith of your forefathers, the Quran asserts, is arrogant. Noah's 950 years of warning didn't persuade pagans to forsake their idols, and so they were drowned. Moses warned the Pharaoh and his cronies, but they didn't listen: on the Day of Resurrection, they will head to hell. To hold on to your ancestral faith without acknowledging the new signs that God sent you

religion by rote, assuming that being part of a particular community made you one of the faithful. "Whenever things become habit, the way of God is to break the norm," he said. "Look at Ibrahim. He got a child when he was barren and old, to remind everyone that God is not the slave of norms, but that the norm is created by him. Zakariah has no child; his wife is barren. But he gets a son, Yahya [John the Baptist], who is born by breaking that norm."

With the coming of Jesus, or Isa, "God wanted to make a bigger point," said Akram. "He wanted people to be guided, so he created a man without a father."

The belief that Jesus was "without a father" was also a rebuke to those Jewish people who cared more about identity than faith. "God is saying, 'I am creating a prophet, but he is not connected with the family,'" said Akram. "This is to remind them that connection through genealogy is not so important. What is important is faith and action."

Jesus appears not just in the Quran, but in the *sira*, the Prophet's biography. According to Muhammad's early biographers, the Angel Gabriel whisked Muhammad from Mecca to Jerusalem on Buraq, a winged creature with the body somewhere between a horse and a mule, "whose every stride carried it as far as its eye could reach." In Jerusalem, Muhammad met and prayed with Abraham, Moses, Jesus, and other prophets. Later that night, during his ascension to heaven, Muhammad stopped off to visit them again, each in a different level of the seven heavens. On his return to Arabia, he would describe them vividly to his companions. Of Ibrahim, Muhammad said, "I have never seen a man more like myself."

Moses—tall, thin, with curly hair and a hooked nose—offered the newest monotheistic prophet a bit of advice. As Muhammad descended back to earth from his audience with God, Moses asked him how many daily prayers were required of his followers. "When I told him fifty, [Musa] said: 'Prayer is a weighty matter, and your people are weak, so go back to your Lord and ask him to reduce the number.'" So Muhammad went back to God, who took off ten prayers. When he passed Musa again on the way down, the older prophet asked the same question, and again advised asking for a reduction. "So it went on until only five prayers for the whole of the day and night were left," said Muhammad. At this point, Muhammad had to tell Musa that he was too "ashamed" to go back for any further negotiations. The agreement for five daily prayers continues to be observed to this day.

When Muhammad met Jesus, he was struck by the sight of a man "as handsome as you can imagine anyone being," the Sheikh said casually, as though he were recounting a celebrity sighting. Medium height, with a reddish complexion—"like the people from Syria or Lebanon"—Jesus had shiny, shoulder-length hair, which shook with "pearls of water, as though he was just coming from the bath," said the Sheikh.

Over and over, Akram spoke not of Jesus' teachings, but of his importance as a prophet for today's Muslims. Like the Jews of the Roman Empire, contemporary Muslims needed to heed Jesus Christ's message, since so many today were spiritually lost: "Religion comes with a body and a soul," the Sheikh explained. "But after a few generations, etiquette and manners become more important in a religion, which means the spirit of the religion disappears." Such was the situation among the Jewish people, he said, when Jesus began preaching:

The angels came to her, continued Akram, saying, "Allah has chosen you. Your Lord has made you clean and pure, and has chosen you from all the women in the world." They told her she would have a baby. And this, said Akram, his voice growing in excitement, is what made Maryam an exemplar of true submission. "Believers have been known to sacrifice their lives, or their property, for Allah," he said excitedly. "You can be killed in the path of God. But to sacrifice one's honor? Who can do that? For a pure woman, honor is more important than anything. For a pure person, to be accused of *zina* [extramarital sex] is unimaginable. This poor woman is soon going to be accused that she is a sinner!"

Think, he exhorted, fixing his dark eyes on the quiet crowd, think how hard it must have been, in that community, to be regarded by society as a fallen woman. "This is something that nobody can imagine," he said. "Compare it to even how hard it is to wear a hijab in a community where nobody has headcoverings! People insult you. People laugh at you. It's not easy." Wearing a headscarf was a minor inconvenience compared to bearing a child everyone would have thought was illegitimate, in a society where unwed mothers were pariahs. And yet Maryam did it, "for the sake of Allah."

Grade school nativity plays and Tuscan paintings had left me with an image of the pregnant Mary as a pretty woman with a gently swelling tummy, perched on a donkey or reading demurely. The Quran, by contrast, gave gritty details of labor pains. Maryam withdrew to "a faraway place," all by herself: "Then labor pains impelled her to the trunk of the palm tree. She said, 'Would that I had died before this and been completely forgotten!'"

Not to worry, an angel told her. There was a stream flowing beneath her feet. "And shake the trunk of the palm toward you to let fresh ripe dates fall by you. / Then eat and drink and be of good cheer."

If the Quran evoked Jesus' birth as a bodily act of sweat and tears, its discussion of Jesus was of a flesh-and-blood man, not the Son of God. Muslims reject Christianity's concept of the Trinity: the notion of the Father-Son-Holy Ghost structure would constitute the grave sin of *shirk*, or ascribing partners to God. "The Christians somehow got confused," Akram said. "They made Jesus Christ divine, and his mother divine. But Allah is not the father, and Jesus is not the son. If God had wanted to create a son, why did that son not come in the beginning of creation?"

No, Akram continued, Jesus could not be the son of God, because God could never have partners. "The Quran is uncompromising: nobody is to be worshipped other than Allah. Allah can forgive any other sin, other than *shirk*. There is no softness there: the only people who are never forgiven are the people of the *shirk*."

For Akram, Jesus was a "man without a father," whose extraordinary life served to remind lapsed believers of God's power: "God made every single thing in Jesus' life against the norm. His entrance in this world—against the norm." His exit, too. He did not die upon the Cross, as the Bible says, but was raised to heaven alive. As Akram explained it, Christ's would-be killers "were confused." The Quran's language is more formal: "They did not crucify him, although it was made to seem thus to them."

Prophets served to remind humankind of God, observed Akram. The really important ones arrived when God's people were just going through their

successful person and others was not a lack of strength, or a lack of knowledge, but rather a lack of will.”

“Sheikh, who was this coach?” I said, sideswiped by the sudden appearance of an NFL personality in our discussion. “I forget the name ... he was famous. He died in 1970...”

“Vince Lombardi?” I said, producing the only name of a football coach I could remember from childhood.

“Vince Lombardi,” nodded the Sheikh. “Yes.”

* * *

Given my parents’ casual attitude toward religion, it should come as no surprise that my first-ever Bible sermon was delivered by an Indian Muslim. Like many living far from the country of their birth, I’ve often engaged most fully with American culture by stepping back and looking at it from a distance. “What should they know of England, who only England know?” asked Rudyard Kipling. Not much. For me, distance has always spurred engagement, if not enchantment. I was most attentive to Western culture when I was far away from it. I’d never really listened to Bach until I discovered an LP of his flute concertos in Kabul, carefully shipped there by my parents via diplomatic pouch. The plights of Pip, Estella, and Miss Havisham felt far more urgent when read on a Turkish bus ride than they ever would have back in Missouri. The same principle held when it came to my interest in Islam: I’d never paid it much attention while we lived in Muslim countries. My curiosity grew only when I went to a college founded by Congregationalists in New England.

Such a dutiful little secularist was I that the priests I’d looked to for Bible lessons had been Renaissance painters such as Bellini and Raphael. Catholic schoolgirls are taught to follow the Virgin Mary’s faith and forbearance; this schoolgirl looked to her as a fashion statement. In museums, I’d parse images of the Virgin as others do the images of models in glossy magazines: to see what she wore and how she wore it. My connection to the Virgin’s image would be not through faith, but through art, and my emotional response would be not about God but about the self.

As a kid, my favorite image of the Virgin was Titian’s *Presentation of Mary in the Temple*, which was the only painting I knew that showed her as a little girl. Though she was barefoot, she had a thick flaxen braid, a shiny blue dress, and, best of all, a divine spotlight. Golden rays wreathed her; all eyes were on her. I didn’t know what was happening, but I wanted to be her.

That day at the mosque in Cambridge, I finally heard the story behind the Titian picture of Mary’s presentation at the Temple—or rather, the Quranic version thereof. The third sura, “The Family of Imran,” tells how Imran’s daughter, Maryam, or Mary, was chosen to serve at the Temple despite being a girl. Imran’s wife had vowed to give her firstborn to serve at the Temple, explained Akram. “But when she said ‘I have delivered a female! What shall I do? How should I serve you?’ Allah knew best.” Maryam was presented at the Temple, and it was clear that she was exceptional—so much so that she was the only woman with a Quran sura bearing her name. Not only was she a descendent of Daoud (David), going back to Yacub (Jacob), “the purest line on the face of the earth,” Akram told us, “but Allah made her to grow so nicely. Her mind is amazing! Her soul is amazing! Her wisdom is amazing!”

Jews and Christians, we respect them, because of their scriptures," Akram once assured me. "They don't belong to the same community, but that's fine."

To reinvigorate their faith, Akram believed that Muslims must begin paying attention not just to Muhammad, but to the prophets that preceded him. Too often, Muslims skimmed over the prophetic stories in the Quran. "A big mistake," he said, peering out through his spectacles at the crowd. The five major prophets—Nuh (Noah), Ibrahim (Abraham), Musa (Moses), Isa (Jesus), and Muhammad "are the examples for the believers, at every stage of their life. If we don't know about Maryam [Mary], or Isa, we cannot live in the world as believers!"

All told, there are twenty-five major prophets in the Quran. God has sent thousands of messengers to mankind, said the Sheikh: some traditional Islamic sources say there are as many as 124,000 of them. When it comes to honoring fellow prophets, the Quran is expansive:

Say, "We believe in God, and what was revealed to us and what was revealed to Abraham, Ishmael, Isaac, Jacob, and the Tribes, and what was given to Moses and Jesus, and what was given to the prophets from their Lord. We do not make a distinction between any of them; we acquiesce to God." (2:136)

The Sheikh had only begun thinking deeply about these earlier prophets since his arrival in Britain. At Nadwat al-Ulama, his professors had skittered over them in favor of more fashionable branches of Islamic learning, like *fiqh* and Arabic grammar. But a couple of years ago, Akram started looking at the suras on Ibrahim, or Abraham, and found his story particularly trenchant.

Both Muslims and Jews claimed Ibrahim as their ancestor: one of his sons, Ismail (Ishmael), was said to be the founding ancestor of Muhammad's tribe, the Quraysh; and the other son, Ishaq (Isaac), was the ancestor of the Israelites. Ibrahim, says the Quran, was a *hanif*, a believer who did not identify himself as a member of a religious community, only as a fervent monotheist: "Abraham was not Jewish or Christian, but he was a committed devotee, and not a polytheistic one."

The Quran says that Ibrahim and his son Ismail built the Kaaba in Mecca. "Even the Prophet Muhammad was commanded to follow the way of Ibrahim," said Akram. When I asked the Sheikh why he admired Ibrahim so much, he said, "He showed that it is necessary to turn away from everything in the universe to God ... all of creation, even your own family!"

When Ibrahim's father refused to abandon his many gods in favor of the true One, Ibrahim turned away from the old man. When God told Ibrahim to slaughter his son, the boy agreed. Akram told me, "He said to his father, 'Oh my father, you will find me with the patient people.'" The Quran has a voice calling out, telling Ibrahim to stop at the last minute, for "Lo! That verily was a clear test."

When we'd meet for our private lessons, the Sheikh often spoke about Ibrahim, whose stoic devotion to God greatly impressed the Sheikh. "He made submission in the full details," he said, sounding rather awed. "What he did was not only worshipping God. It was turning away from everything, sacrificing everything for the sake of God."

"It reminds me of what a famous American football coach, in the 1960s, had remarked about winners," he added. "He said, 'The difference between a

Jesus, Mary, and the Quran

One Sunday morning I attended my first sermon on Jesus Christ. Like millions around the world that morning, I listened to a preacher clothed in white tell me that I needed Jesus in my life. The congregation sat in a spare white room with slender windows while the preacher warned them that too many had forgotten the true meaning of their religion. They had abandoned the essence of their faith in favor of going through the motions. Too often, they'd made worship more about belonging than believing, more about flaunting piety than submitting to it. To find the road to real salvation, one must follow the lessons of the prophets, the preacher said, his pate glowing with the heat and light of his message. To really live your faith, one needed to follow the stories of Jesus, Mary, and John the Baptist.

Beside him lay a copy of the scripture, containing stories of Adam and Eve, Jesus and Mary, Moses and Noah, Abraham and his son. In it, a verse commanded the faithful to

Say, "We believe in God, and in what has been revealed to us, and in what was revealed to Abraham, Ishmael, Isaac, Jacob, and the Tribes; and in what was given to Moses, Jesus, and the prophets from their Lord." (3:84)

So said the Quran, and so, too, said Sheikh Akram, preaching his Jesus sermon to a standing-room-only crowd at a Cambridge mosque. The white simplicity of Masjid al-Ikhlâs made it feel more like a New England Congregational church than a mosque. But a mosque it was, one whose website stressed that one function of mosques was providing a place for discussions between faiths. Islam's first mosque, built by the Prophet and his Companions in Medina, was a matter of mud bricks in the sand, with a roof of palm leaves that leaked in rainstorms. When a group of Christians came from Yemen to see the Prophet Muhammad, they stayed there. It was in this spirit that Masjid al-Ikhlâs had advertised the Sheikh's talk to non-Muslims and Muslims alike. The orange flyers—"Jesus Christ in Islam: The Epitome of Spirituality and Savior of Humanity"—had even drawn a few people I took to be Christians, listening intently to what the Sheikh would say about their prophet Jesus.

* * *

The pagan Arabs of seventh-century Mecca, the original audience for the Quran, probably had a better grounding in Bible stories than I do. Mecca was a multifaith city, and religious traditions being largely oral at the time, many Arabs would most likely have heard the broad outlines of New Testament and Torah stories from Christians and Jews. Into this multifaith ferment came a new prophet, bearing new words but assuming a fair bit of biblical knowledge from his listeners. As a whole, the Quran's message was much the same as the one that Abraham had brought: there is just one God. Within the Muslim faith, Muhammad is seen as continuing the biblical tradition, as the last in a line of monotheistic prophets stretching back to Adam. "God wanted to be fair with everybody," explained the Sheikh. "He's sent different messengers, but the real differences are just about language, or culture, or history. The main message is the same: to believe in God."

The Quran took care to distinguish between the pre-Islamic Arabs who were pagan polytheists, worshipping idols at the Kaaba, and the Ahl-e-Kitab, or People of the Book, possessors of the Torah and the Bible. "When it comes, to

I dug in, blinking at the incongruity of eating mutton curry in the middle of the night. "Is this traditional food for a Ramadan breakfast?" I asked Maryam, piling my plate high with spiced fruit salad and sweetened rice.

She shrugged. "At home, we usually just have cereal."

After the meal and another rest, I woke a second time to find a different scene: the floor was a quilt of sleeping women and patches of sun. The mosque hall was quiet except for the odd dream-induced murmur and the soft rustle of sleeping bag nylon. I splashed my face, fished out my iPad, and stole out the door into a Cambridge Saturday morning. Outside, the sun and concrete felt jarring. A minute away, at the Café de Paris, Gershwin tunes played. An old man reading his tabloid pronounced loudly on last night's TV reality shows. A rumpled young couple goggled at each other over their morning cappuccinos. I gulped my own, guiltily. In the mosque, nobody but the kids would allow themselves so much as a sip of water until nine tonight. As the caffeine hit my bloodstream, I opened my iPad to write a bridge of words, trying to find ways to describe the world that lay across the street.

The Cambridge *itikaf* didn't entirely seal off ordinary life, but it did throw the everyday into relief. Like Chaucer's pilgrims on the way to Canterbury, some *itikaf* participants seemed to see it as nearly as much of a social event as a spiritual one. (Later, I'd hear that some attendees had criticized what they felt was a too-casual air, suggesting that less talking and fewer cookies might have engendered a more spiritual atmosphere.) But whether on hajj or in *itikaf*, this porous quality between a spiritual experience and ordinary life is a feature—and a strength—of Muslim life. Islam affords an infinite space for spirituality, but it also provides guidelines for society itself. It concerns itself not just with solitary souls, but with how these souls interact with the world.

the Quran, and I relied on the kindness of a stranger to help me find a free patch of wall for my stuff. A beautiful woman in her forties with a brilliant smile, she was an unofficial den mother for the women's section. She helped teenagers with their Arabic pronunciation on their Quran recitations, and she patiently explained to me the night prayer regime. The pleasure was all hers, she assured me: any good deeds during *itikaf* are multiplied seventy times, and so they are met with bonus rewards in the hereafter.

Perhaps because such incentives were at stake, the room hummed with round-the-clock graciousness: there were murmured "May Allah reward you" when people passed plates to one another as we broke the fast. When the meal was over, there was practically a tussle over who got to vacuum up the spilled rice.

At the far end of the wall was a flat-screen TV, on which Sheikh Akram appeared twice a day, delivering his lectures. Watching him, it was hard to believe he was enduring the rigors of Ramadan: he lectured for three hours at a stretch without stumbling. His patience with the listeners felt boundless. They questioned him on subjects ranging from Allah's angels to whether good Muslims could order takeout from restaurants that sell alcohol, a banned substance in Islam. After the lecture, when the Sheikh came to greet me and I saw him up close, I detected a touch of weariness about the eyes, but listening to him, I'd never have guessed.

Maryam, resplendent in a lapis hijab, bent over her Quran, murmuring verses under her breath. Not everyone was so focused. Though *itikaf* is meant to keep the world at a distance, the world somehow found the Cambridge mosque's *itikaf*. Teenage girls at the back of the women's quarters chatted and energetically scrolled through their phone messages: A huddle of boys played Temple Run on an iPad. I needn't have worried about taking a vow of silence, either. Talk ranged freely. Beside the spigots where women gathered to wash before prayers, a young writer extolled the merits of Harry Potter. Over dinner, a recent science graduate enlightened me on the expanding boundaries of biomedical engineering. Before evening prayers, I talked to a think-tank strategist about the weirdly hermetic qualities of Sussex seaside towns.

Before evening prayers, more people streamed in from around Cambridge. "Fill every bit of floor! Not every foot, every *inch*!" came the cheerful command over the loudspeaker. Between the rows of praying women, a little girl in a golden *shalwar kameez* batted a green balloon in the air. Babies gurgled in car seats. Elderly ladies, unable to prostrate because of their knees, sat on chairs to pray. They weren't the only ones at *itikaf* worried about their joints: praying most of the night meant that even women in their twenties were taking painkillers to soothe their aching legs.

The crowd dispersed after midnight, and I found a spot on the floor and fell asleep to the giggles and whispers of the women waiting for the next prayers. I slept—and, according to one report, snored—through two prayer sessions, waking at 2:30 in the morning to find breakfast under way. On the oilcloth spread on the floor were plates of curries and rice, kebabs and cakes. Everyone stretched out around it, chatting softly and passing paper plates. "It looks like a painting of the Last Supper," said one woman sleepily, as she roused herself and served rosewater milkshakes to the group.

ahead," he added. "But the mountain's not part of hajj, so I didn't think about it in the same way."

The Sheikh's favorite moment during any hajj was the seven circuits around the Kaaba. Being there, so close to the House of God, as it was called, was a bit like being a teenager in love, he said, lingering outside the home of one's beloved.

A similar grace came the night Maryam left the hotel at 1:30 in the morning to do extra prayers before the *fajr* prayer at dawn. Despite all the fuss the Saudis made about women needing male protectors, it turned out that going out unescorted in Mecca was perfectly safe, even at that hour. Shop lights blazed, and people still strolled the streets. Maryam and her roommates walked to the Grand Mosque, where they prayed, then sat on the smooth marble courtyard with cool drinks. They splashed their faces with Zamzam water and talked softly until dawn prayers.

* * *

While I wasn't allowed to witness a religious gathering's potent mix of spirituality and logistics in Mecca, I did join a gathering in Cambridge a few weeks later. Toward the end of the Muslim holy month of Ramadan, I boarded a train with an overnight case, a half pound of cherries, and the Quran. Leaving Antony to look after Nic and Julia, I was going to sleep overnight in a mosque as part of *itikaf*, a spiritual retreat usually performed, during the last ten days of Ramadan. The Sheikh was doing *itikaf* in a Cambridge mosque with seventy other Muslims, teaching and reading the Quran.

I took a hijab, a toothbrush, and a sleeping bag. The cherries were a hedge against the Ramadan regimen: no food or water for about eighteen hours a day, and prayer for most of the night. The dictates of the Muslim holy month required fasting from dawn until dusk. If the heat of an Arabian desert can make such disciplines tough, so, too, do the long days of an English summer. The day I went to Cambridge, British Muslims were fasting from around 3:30 in the morning until nine at night. I'm not Muslim, so I wasn't on a fast, but while in the mosque, I would respect theirs.

Though the Sheikh had asked Maryam to look after me, I was nervous about the lockdown during *itikaf*. Many of the Muslims confined themselves to the mosque for the whole ten days. The little rest they got was snatched in sleeping bags on the floor; bathing was done as best they could manage, under spigots. Night prayers could mean standing for an hour and a half at a stretch. The Sheikh urged us not to chat, and to avoid discussions of worldly matters. "Sleep less, eat less, talk less, mix with the people less," he told the assembled at the kickoff of the Cambridge *itikaf*, quoting an old saying by a Sufi sheikh.

Technically, I had nothing to be nervous about. I was going for only a day and a night, and just as an observer. A work deadline meant I was going to have to duck out of the mosque to write in a nearby café. But even with the prospect of panini breaks and clandestine phone calls home to check on the progress of Nic's cold and Julia's science homework, I was daunted. What would witnessing *itikaf*'s spiritual discipline feel like? Would tempers fray? Would people resent my *itikaf* tourism? Would I mess up somehow, or intrude on their experience?

The day was humid, my bag was heavy, and the stairs up to the women's section were steep. In the large gabled room, women sat on their bedrolls reciting

posted a cute picture of the Sheikh with his grandson on his knee, both in their white garb.

Sumaiya's handbook warned that people might shout at the pilgrims in their party—and they did. Twice, Akram's daughters found themselves clashing with guards over Saudi norms on women's access to the sites. The Sheikh and Aisha were doing their circuits around the Kaaba when the Sheikh lifted her up to touch the black stone. "A man started yelling at us," Aisha recalled. "He grabbed my wrist. He said women shouldn't be allowed to touch it."

"The same thing happened to me," agreed fourteen-year-old Fatima. "Some man yelled at me for saying 'salaam' to the Prophet. He said women weren't allowed to stand where I was standing. He said I shouldn't say my 'salaam' from there." She beamed. "My dad said it was fine."

She shook her head. "Culture."

* * *

The hillocks of Safa and Marwa are part of the Grand Mosque: the rocky desert where Hajar ran between them is now an air-conditioned corridor with a cool marble floor, divided into lanes for the pilgrims. "Like an airport," explained Maryam. Green lights in the corridor indicate the stretch where Hajar lost sight of her son during her frantic search for water. Male pilgrims—not, strangely enough, female ones—run between them, symbolically tracing her route. The ritual encourages pilgrims to reflect on Hajar's faith in the face of hardship—and on one's own struggles. When Sumaiya's husband, Farhan, ran between the green lights, he thought of Hajar's strength of character—and prayed that he had passed his medical school exams.

So much of the hajj seemed to be about balancing one's own experience with those of the people around you. Today's pilgrim must negotiate her space in crowds and find a way to make her *umra* mesh with those of millions of others. In 2003, the Sheikh went on hajj with his parents, which compounded the pilgrimage's challenges. One afternoon, he spent hours searching for their tent amid the sea of white tents pitched on the plain of Mina. When it came to the day to renounce the devil by hurling stones at the three pillars, the Sheikh worried about how his parents would fare. Because of the crowds throwing stones, there were frequently deaths during this ritual. The Sheikh decided that his family should go late in the afternoon, and was glad he did: he later heard that nineteen people had been killed.

One could see why *sabr* could be a matter of safety as well as spirituality. Even a man as unflappable as the Sheikh had been known to get impatient with the crowds in Mecca. The second time he did *umra*, he and a friend went to visit the Cave of Thawr, where the Prophet Muhammad had hidden for three days while escaping Mecca for Medina. With space for just three people, the cave had a line of people waiting to enter it stretching down the mountain. Akram and his friend were going to be late for noon prayers back in Mecca. "It's such a big line," Akram's friend said, looking up from the plain at the mountain. "It's going to take the whole day."

"Don't say anything," said the Sheikh. "Come with me." Together, they crept around the other side of the mountain, approached the cave from a different direction, and hopped in—"ahead of everyone," recalled Akram, sheepishly. He'd never have cut the line, he was quick to add, had it been a proper hajj ritual rather than sightseeing. "It's part of hajj not to harm anybody or push yourself

Mecca required even more *sabr* than Medina. To go to the city, the pilgrims had entered *ihram*, or the purified state of the hajj or *umra*. Women wear ordinary clothes but are forbidden to cover their faces, a ban that Sumaiya found "a bit strange," since it meant she had to take off her *niqab*. Men wear two pieces of white cloth, unstitched. "Why can't there be stitches?" I asked Sumaiya.

"One should never try to comprehend the reasoning," she responded. "Some of these things might not make sense logically, but there's a reason behind them, and one mustn't question it."

A good Muslim didn't ask for logic from the sunna, she said. One trusted Allah and didn't demand proof through science or reason. That Islam's ban on pork was later upheld by studies on trichinosis, say, or the discovery that fasting was actually good for your health—these weren't important. One avoided pork and fasted because that was true submission. God's laws didn't need scientific confirmations. They were God's, and thus the laws were the Truth. "Scientists could turn around tomorrow and say fasting is no longer healthy, and despite that, we should continue to fast," observed Sumaiya. "We should do it, because that's always been the sunna."

The *ihram* outfits made arriving in Mecca more stressful. "It's hard to faff around with luggage when you're wearing something you're not used to," observed Sumaiya. As in Medina, there was confusion over lodging. The pilgrims had paid for a five-star hotel, only to be told on arrival that the place they'd reserved had no electricity, since it was soon due to be razed to make way for a new hotel. This was plausible: the city was undergoing a massive modernization drive, and the Meccan skyline was a forest of cranes. But the group happened to drive by the hotel on their way to the Ramada Inn, and they could see other travelers checking in. The lights seemed to work just fine, and the excuse, they decided, had probably been the travel agent's ruse to swap their reservations on them.

In the section on *sabr* in Sumaiya's guide, she quotes a hadith: "Never is a believer stricken with discomfort ... or even the pricking of a thorn, but that Allah expiates his sins on account of his patience."

The Ramada Inn was just a few minutes' walk from the Masjid al-Haram, the Grand Mosque. Farhana, the Sheikh's wife, spent nearly all her waking hours in Mecca there, doing *tawaf*, or the seven circumambulations of the Kaaba. Sumaiya reckoned her mother must have done *tawaf* about seven times—forty-nine circumambulations in all—but wasn't sure. Farhana would never have told her, since a good Muslim should never indulge in *riyaa*—showing off—about her pious actions on *umra*. However many *tawafs* she'd completed, it was clear "she was on a roll," said Sumaiya. "Every time we were like, 'Where is she?'" invariably, she was at the mosque.

To avoid the heat of the day, Sumaiya did her own circuits around the Kaaba at three or four in the morning, when the temperature cooled to the high eighties and the crowds thinned. Even then, Sumaiya found the rituals harder than on her previous *umra*, before she became a mother. Asim wriggled as she held him and circled the Kaaba, and they frequently had to stop to let him drink some Zamzam water. Once, he even managed to toddle a circuit around the Kaaba on his own, wearing a tiny set of white cloths his grandmother had made for him. Farhana had sewn it, figuring that a ten-month-old was allowed a certain amount of stitching in his *ihram* even if adults weren't. On her Facebook page, Maryam

mental toughness required to screen out worldliness. Some people didn't even bother to pray in the Grand Mosque, they told me, preferring the air-conditioned cool of their hotels. Others used the trip as a chance for shopping in Mecca's massive new malls. The handbook included a hadith for those tempted to shop on the trip: "The most beloved of places to Allah are the mosques, and the most disliked of places to Allah are the markets."

In Medina, it is customary to visit the Rawdah. A stretch of green carpet between the Prophet's grave and pulpit, it is a bit of heaven on earth, says one hadith from the Prophet: "That which exists between my house and my pulpit is a garden from the gardens of paradise."

Maryam had inherited her father's calm, but when she queued at the women's entrance, she was nearly overwhelmed by the crush of the crowd. The desert heat was stifling, and the guards' shouted directions were confusing. Pilgrims were divided into national groups for the duration of the wait, but Maryam was stranded far away from the Britons, squeezed in with the Pakistanis. Since she understood Urdu, she stayed, half-sitting on two strangers' laps, sandwiched between the Pakistanis and some Turks. "It was literally packed, and I was sitting with my legs out straight," she said. When the gates opened, some women began shouting at the guards: "All of these Pakistani ladies were quite desperate to get through," she said. "It must have been quite frustrating for the workers."

When the crowd finally surged forward, Maryam didn't push through. *Sabr*. "One woman looked at me really weirdly, like 'Why aren't you desperate?' But that's not what the Prophet taught." The melee at the grave contravened the Quran's counsel on how to speak to the Prophet: "Those who lower their voices in the presence of the Messenger of God are those whose hearts God has tested for conscience; there is forgiveness for them, and a tremendous reward."

At the Prophet's grave, many pilgrims cried. Maryam didn't, worried that tears might "seem like *shirk*." Worshipping anything other than God—*shirk*—is Islam's gravest sin, so mainstream Sunni Islam frowns on visiting graves as an act of religious devotion. For a scripturalist Muslim like the Sheikh, it was not permissible to travel simply to visit a grave, even the Prophet's. Making pilgrimages to graves and shrines was a superstition of unlettered village Muslims or Sufi mystics. The Prophet's grave was an exception: one could visit it, say "salaam" to it, but only if one happened to be in Medina anyway.

In Saudi Arabia, a Wahhabi fear of promoting idolatry had led to the destruction of many early Islamic monuments. When the al-Saud tribes entered Mecca in the 1920s, they destroyed cemeteries containing graves of important early Muslims. More recently, Saudi efforts to accommodate the growing number of hajjis have wreaked havoc on early Muslim monuments. The expansion of the Grand Mosque has turned the house of Muhammad's beloved Khadija into a bank of toilets; a Hilton hotel now sits where once stood the home of Abu Bakr, Aisha's father and Islam's first caliph. Strict Wahhabis may deplore sightseeing, but the Sheikh's party climbed Jabal al-Nour, the mountain Muhammad used as a retreat for quiet contemplation. "It took a good forty-five minutes to get up there," recalled Farhan. "I was struggling, and I'm in my twenties, I can't believe the Prophet Muhammad used to do it when he was forty years old!"

decorations in the mosques: they were mere distractions from prayer and the Quran. Watching TV in the hotel “would be an utter source of shame and regret,” given that the Kaaba and the Prophet’s mosque were so close, offering spiritual rewards. Travelers should be skeptical of soaring spirits: “A superficial elated feeling should not be equated with a rise in [piety],” wrote Sumaiya. “A rise in faith would lead you to perform more righteous deeds and abstain from sins.”

The handbook urged the *umra* party to be polite, but the rigors of *umra*, and the stressful thrill of achieving a lifelong goal, meant that fellow pilgrims frequently weren’t. Among the trials that awaited the pilgrims:

People will push you, push ahead of you, poke you in the back, there are no proper queues anywhere—whether in the shop or the Masjid [mosque] toilets, or the hotel reception... The Masjid guards could shout at you, people can spit in your way and throw rubbish near you. People will shout at you—constantly—even in the Masjid, even in *tawaf* [the seven circumambulations of the Kaaba]. People will shout and argue in languages you don’t understand (or maybe do understand). People will smell next to you and make a mess in the bathrooms and the Masjid. Shopkeepers could throw the money back at you (this is normal) and you may not get what you paid for.

What to do in the face of such annoyances? “Prepare mentally for all the above and do not lose your temper,” advised the handbook. “Just say *alhamdulillah* that Allah has invited you to the holy lands, and be beautifully patient.” The chance to practice *sabr* was the chance to seek afterlife rewards.

* * *

At times during the party’s stay in Saudi Arabia, the temperature reached 108 degrees. For Maryam, the Sheikh’s eighteen-year-old daughter, the heat was *umra*’s biggest challenge. “We saw it as a way of learning to be patient,” she said. “The heat added to the experience, and made it more exciting.” To stay cool, everyone kept drinking Zamzam water from the beige drums around the mosque.

“We told people to bring lots of *sabr* with them,” said Farhan, Sumaiya’s husband. A compact, smiling man, he was a medical student and had taken his exams just before the trip. He’d helped as an organizer, wearing an “Al Salam Umra 2013” T-shirt at Heathrow and assisting pilgrims with their bags and papers, but it was his wife, he said shyly, who had shown “true commitment” to organizing the *umra* trip.

The travelers needed every shred of *sabr* they could muster. They needed it at the six-hour wait at the Jiddah airport’s immigration zone after their flight, and on the five-hour bus ride through the desert to Medina. On arrival, the group discovered that many of them were without rooms, their reservations having mysteriously disappeared. After hours of calls home to England, and later to the police, it was alleged that some entrepreneurial soul, perhaps a travel agent on the Saudi end, had booked them in a day later, pocketing the cost of the night for himself.

“The guys at the hotel kept saying *sabr*,” said Farhan. “But after a few hours, I was like, ‘I’m doing business with you. We took money from these people for rooms, and so we need to provide them with rooms.’” *Sabr* didn’t extend to botched business practices—or fraud.

While I listened to the Sheikh’s daughters as they recounted their *umra*, I marveled not just at the physical rigors of the Arabian heat and dust, but at the

Ibrahim in the hopes of their conceiving a child. Hajar bore a son, Ismail, but when God told Ibrahim to leave mother and child in the valley near Mecca, Ibrahim did so, depositing them under a tree with a skinful of water and a sackful of dates. Two nights later, with dwindling supplies and a fractious baby, Hajar ran between the hillocks of Safa and Marwa, begging God for aid. Seven times she ran back and forth, scouting the horizon for help.

It soon came, in the form of water, miraculously bubbling up from the sand. Hajar and Ismail drank deeply, becoming the first people to benefit from the Zamzam, Mecca's famous well. "To leave her kid, in the heat," marveled Sumaiya on Hajar's faith, "to walk in that rocky desert with no shoes. The more you trust in God, the more you're given."

Sitting on a bench beside the British Airways check-in, the Sheikh gave a short predeparture address. Half of the group had never been on *umra* before, so his opening remarks were cautionary. The trip would take *sabr*, he warned. Eat light: fruit and yogurt suit a hot climate better than heavy meals. One didn't want to be too sleepy to pray. Control your frustration. If you encounter trials on the trip, don't complain to anyone other than Allah. Don't backbite. Be nice.

But soon the Sheikh's tone changed to a new register, leading listeners away from travel-related stresses. He recited bits of poetry by the South Asian philosopher-poet Muhammad Iqbal on the glories of the hajj, and he waxed lyrical on the benefits of a journey: "Life becomes more and more pure by travel," Akram told the pilgrims. "With moving, and traveling, new blood comes to life."

After the Sheikh's speech, the group went to check in. From a distance, I watched them walk to gate G, receding into the brightly lit tube of the terminal, their wheeled suitcases bumping behind them. My eyes teared slightly as I watched them go, not least because I was envious. I disliked standing on docks waving other people off. I wanted to be the one leaving, the one whose "new blood" was stirred.

Alone in the airport, clutching my cellophaned fajita wrap, I waited for the glass elevator to ferry me to the Underground. For the Sheikh, Heathrow's terminal 5 was no different from the rest of the planet. He regarded this world much as many people do airports: a way station to endure in order to reach one's true destination. A place to navigate, as best you can, through its lines and officialdom, to get where you're really going. "We belong to God," says the Quran, "and to God we return."

* * *

As a journey to draw the faithful closer to the Creator, *umra* was a constant reminder of death. Repent all your sins, advised Sumaiya's handbook, before leaving for the "court of Allah" in Mecca. "Are you going to complete your Umrah or die on the way there?" asks the handbook. "Or die on the way back? Only Allah knows."

Sumaiya's step-by-step guide read like an antitravel brochure, upturning every convention of a glossy holiday guide. Instead of promising pleasures, it guaranteed trials. "Travel," read the hadith opening a section called "The Journey," "is a portion of punishment." The ten days were a chance for worship, and no time should be wasted in other pursuits. Don't spend time gazing at the famous clock that towers over Mecca (the biggest clock in the world, boasted Saudi souvenir guides). Bypass Mecca's shopping malls, and ignore the

days. Arranging the visas and lodgings had taken months, and writing the *umra* guide had meant lots of late nights. As Chaucer well knew, a pilgrimage is an uncanny mix of the logistical and the spiritual. Sumaiya's guide reflected this, combining practical tips with soulful quotes from medieval theologians. It advised on everything from practicing gratitude to hygiene in Meccan bathrooms to the importance of pacing oneself: "If you burn yourself out in the first few days, you put the rest of your days in the blessed lands at risk: tired minds and bodies will decrease your *ibada* [worship]." Sumaiya even included emotional guidelines, such as what one might do when one first sees the Kaaba: "In that sweet precious moment, let the tears in your eyes melt the image of this majestic place that soothes your soul."

Wondering what the first glimpse of Mecca might be like for a believer, I asked the Sheikh's daughter Maryam, a solemn and beautiful eighteen-year-old, what she thought when she first saw the Kaaba. "I thought it would be bigger," she said.

Like the Taj Mahal or the White House for a secularist, I supposed. Of course it would be smaller. No structure that's been drummed into your dreams since childhood ever takes up as much space as it does in the imagination.

Aisha, the Sheikh's youngest, jumped from foot to foot. Even at nine, she was a seasoned *umra* pilgrim. The last time, she told me, she actually touched the Kaaba! But the crush of the crowds in the mosque could be a bit scary, too. During one trip, there was a time when she had been separated from her sister. At that point, she said, "I started crying."

I watched as a woman in the group dandled her toddler.

"Allah," she pronounced, moving her mouth slowly.

"Aya," hazarded the child.

"Al-lah."

"A-ee-yah." "Aaaaallllllaaaaah."

"A-ee-yah."

The mother, Nadia, had spoken with Sumaiya daily over the past few weeks, consulting on the added challenge of taking a baby along on *umra*. "I almost expected Sumaiya would be a little bit on edge, or say 'Leave me alone,'" said Nadia. "But she always had time to talk, and was always patient and gracious—even when I could hear her baby crying in the background."

She admitted that she had been nervous about taking her child into the crush of a pilgrimage and the heat of an Arabian July. But then, she reasoned, where would God's protection be stronger than in Mecca? "The whole reason for going on the trip was trying to get closer to the Creator," Nadia said. "I thought to myself, 'I'm leaving my baby with my Creator. He created her; He will look after her.'"

Sumaiya, too, was worried about baby Asim in the Saudi Arabian heat. He had been sick the week before, growing so dehydrated he'd had to go on a drip in the hospital—"and that had been in Oxford," said Sumaiya. "So I was thinking, how is he going to respond to Saudi Arabia?" Her suitcase was crammed with sunscreen, baby aspirin, and rehydration powders, but Sumaiya's main protection for her son was faith in God.

By going on *umra*, the two mothers were traveling to the very spot where one of the great heroines of the Quran, Hajar, had trusted God to save her baby. When Ibrahim and Sarah couldn't conceive, Sarah gave the slave girl Hajar to

"Women need a guardian to go," volunteered Shabana's husband. "A brother, an uncle..."

"To me it's so ironic that women can't go without men," I said. "What with the Sheikh having found women scholars in the earliest years of Islam traveling by themselves, on horseback and camels. If it's in the pursuit of religious knowledge, surely nobody can object to women going?"

"There are reasons that women can't travel alone," observed Shabana's husband. "I'm not sure what the reasons exactly are, but there are reasons. There's a lot of travel involved. It would probably be a bit too much."

I stretched my lips across my teeth into a smile-that-wasn't. I remembered the "Step-by-Step Guide to a Successful Umrah," a chapter of the Umrah Course Handbook written for the pilgrims by the Sheikh's daughter Sumaiya and a friend. Throughout, the guide counseled *sabr*, or patience: "If someone annoys you—transcend it."

As a non-Muslim, I wasn't allowed in Mecca, but I had hoped to go with the group as far as Medina, where the Sheikh and other scholars were going to conduct seminars. For a month or so, it had looked as though I might have been allowed: the visa official at the Saudi embassy had been encouraging, at first. But the group's hotel, it turned out, was inside the Haram, the sacred area in Medina restricted to Muslims. Besides, getting my husband, Antony, to come along as my *mahram* would have been a fiscal, logistical, and ideological pinch. Still, when the Sheikh's student Arzoo arrived, dragging a hot pink suitcase, I gazed at the *umra* visa in her passport enviously. "The last time I went, the officials stuck another woman's picture on my visa by accident," she said, laughing. She got into Saudi Arabia anyway, which surprised me: The dour face gazing out from her *umra* visa page looked nothing like sparkling, vivid Arzoo. To get the magic stamp in her passport this time, she and her sister had chipped in to pay her uncle's fare so that he would accompany them as *mahram*. Arzoo was lucky: her friend Mehrun had wanted to go, too, but all her male relatives were too busy to come. "I was so annoyed," Mehrun later recalled. "I didn't even ask them for their reasons; I didn't need to hear much more than the 'no can do.'" For a while, she wondered if she could contrive to go to Saudi Arabia for a professional conference or a consulting gig and then sneak off to join the Sheikh's group. Friends even suggested she claim one of the men on the trip was her "uncle"—a common ruse women use to flout the Saudi *mahram* rule. But unable to bring herself to tell a lie in order to go on a pilgrimage whose point was moral purity, Mehrun had resigned herself to staying at home and working on her master's degree.

The pilgrims were traveling light, at least on their way out. Many were planning to bring home water from Mecca's famous Zamzam spring; a ten-liter drum of water counted as half their baggage allowance. Zamzam water is widely regarded as blessed, and many pilgrims bring home bottles as gifts for friends or as a cure for illnesses, or for ablution during special prayers. Sumaiya swears by the water's nutritional properties, and its ability to clear up pimples. On her last *umra*, she returned from Mecca with a bottle, splashed it on her face daily, and found that her complexion improved.

As I stood in the group of milling pilgrims, a woman in a *niqab* approached who turned out to be Sumaiya herself. Through the slit in her *niqab* I saw dark half-moons under her eyes: she had organized the trip and hadn't slept for two

PART THREE

THE WORLD

11

A Pilgrim's Progress

The multifaith prayer room in terminal 5 of London's Heathrow Airport was sandwiched between a cappuccino bar and the check-in for British Airways. Back when such airport facilities were called "chapels" and labeled with a cross, my father would often seek one out—not to worship, but to nap before flights. In these chapels, he found a quiet spot in a crowded airport. He'd usually have them to himself: in the 1970s, before the Iranian Revolution and the Islamic revival, nobody seemed to need them much.

They did now. When I arrived, panting and sweating from my run across the airport, terrified that I would be late to meet the Sheikh, I found terminal 5's prayer room full. The shoe rack was overflowing, and there were rows of Muslim men praying together.

I was at Heathrow to see the Sheikh and a group of fellow pilgrims off on *umra*. In Arabic, *umra*, or "the visit," is the smaller of the two Meccan pilgrimages. Unlike the hajj, which occurs on five days in the twelfth month of the Islamic calendar, *umra* can be undertaken any time of the year. One of the five pillars of Islam, the hajj is required for all Muslims at least once in their lives, if they are physically and financially able to perform it. Hajj requires stamina of the body as well as of the soul: pilgrims walk seven times around the sacred black stone, the Kaaba, run between two sacred hills, and pray on Mount Arafat. As part of the symbolic renunciation of evil, "Stoning the Devil," pilgrims hurl pebbles at three pillars, on the spots where Satan was said to have tempted Ibrahim, telling him to ignore God's command that he sacrifice his son.

Hajjis perform these rituals in a state of purity, avoiding sex, quarrels, or unpleasantness, since both hajj and *umra* are meant to purify the soul and to bring pilgrims close to their God.

The Sheikh had performed two hajjs and several *umras* before, but today he was embarking on his first teaching *umra*. He was leading thirty-seven British Muslims on the trip to Mecca and Medina, where he would head seminars with Saudi scholars. For many ulama, these pilgrimages can also serve as unofficial professional conferences, with Mecca and Medina serving as places to talk shop as well as perform rituals. When the Sheikh went on hajj in 2003, a top hadith scholar he'd always hoped to meet was in town for his own pilgrimage. On hearing the news that the man was in Mecca, the Sheikh said he had "jumped out of happiness."

The pilgrims on this trip were mostly young and mostly male: Saudi Arabia banned a woman going on *umra* without a *mahram*, a close male relative such as a brother, uncle, or husband to act as a guardian. Shabana, who had just finished her master's degree in human resources, had wanted to do *umra* ever since she began observing Islam devoutly, about six years ago. But she couldn't find a male family member who was willing to accompany her until she married last year.

"My family really doesn't practice, or pray or anything," she said. "So for me, the past six years, getting married, finding someone to take me to *umra*..."

the men who give charity and the women who give charity,
 the men who fast and the women who fast,
 the men who are chaste and the women who are chaste,
 and the men and women who remember God a lot,
 God has arranged forgiveness for them, and a magnificent reward. (33:35)

It was the promise of this forgiveness, of this reward, that drove the Sheikh. His scholarly critiques might have sounded muted next to Musawah's calls for equality and justice. Yet using the tools of his own madrasa tradition, he was working to excavate the Islamic principles of justice from underneath customs. I wouldn't call him a feminist, but within his conservative milieu, he waged a powerful campaign for women's rights. He wouldn't call himself a feminist either. Just a Muslim who has read his Quran.

men and women in 4:34 can be countered with other verses, like Wadud's translation of this description of marriage as a shelter built of respect between man and woman: "Among His signs is that He created for you, from your own selves, mates. And He has made between the two of you love and mercy."

The Quran may say that men and women are "mates," but contemporary Islamic laws seldom reflect this. In many Muslim-majority countries, the modern laws governing marriage and divorce, inheritance and custody, are often based on the thinking of Islam's classical jurists, men in medieval Baghdad or Damascus, working between one and four centuries after the Prophet's death. Like any human interpretation of divine law, these medieval rulings bear the stamp of their time. One jurist went so far as to write that marriage "is a contract whose object is ... dominion over the vagina." A millennium later, the frameworks set by classical jurists still underpin laws governing marriage rights in many Muslim countries. From Pakistan to Egypt, legal codes remain a far cry from the Sheikh's idea of partnership, or from the Quran's tender image of marriage as a comfort for both spouses: "They are a garment for you, and you are a garment for them."

Across the globe, Muslim women and men are challenging the misogyny that has crept into Islamic cultures. Pakistani schoolgirls are defying Taliban edicts in their quest for education. African activists are demanding that local mullahs point to where, exactly, the Quran advocates female genital mutilation. Indonesian feminist scholars are giving male mullahs gender sensitivity courses, while Malaysian campaigners travel to small-town mosques and schools, handing out pamphlets with bright red covers and provocative titles such as "Are Muslim Men Allowed to Beat Their Wives?" and "Are Men and Women Equal Before Allah?"

More and more people are realizing that the answer to that last question is yes. A few years before I started studying with Akram, I attended a conference organized by Musawah, the global women's organization devoted to reforming Islamic family laws, held at a glittering hotel ballroom in Kuala Lumpur. Activists from around the world gathered to celebrate the movement's goal: putting the justice and equality they found in the Quran back into Muslim laws and cultures. Scanning the ballroom, I saw Amina Wadud talking to Indonesian activists and Sudanese lawyers mingling with Thai anthropologists. Filipina development workers swapped business cards with Iranian feminists. A veteran of Malaysia's feminist movement chatted with an Egyptian *éminence grise*. On heads: hijabs, but also dreadlocks and curls, African *geles*, combat-short buzz cuts. Toward the evening's end, the conversational hubbub dwindled as a loudspeaker proclaimed women full and equal members of humankind. The words were the Quran's, verse 33:35, revealed to Muhammad after one of his wives, the formidable Umm Salamah, asked him why, exactly, it seemed sometimes as though God only spoke to men, not women. The response came soon after:

For the men who acquiesce to the will of God, and the women who acquiesce,

the men who believe and the women who believe,
the men who are devout and the women who are devout,
the men who are truthful and the women who are truthful,
the men who are constant and the women who are constant,
the men who are humble and the women who are humble,

the tree that many Muslims used to clean their teeth, just as the Prophet had cleaned his. "If a husband, or a father, or a wife—anyone in authority—causes pain, then this is a grave mistake," said Akram. "If they hit, and cause injury, then jurists say you can take them to court."

So stringent were the limits on beating, he observed, that "there is no hitting happening in the Muslim world according to Islamic law," he said. "Most people are hitting out of anger—or out of their own pride or arrogance. That's not Islam."

Besides, he noted, the Prophet never hit his wives. Nor did most of his Companions. "The best among you," said the Prophet Muhammad, "is the one who is best towards his wife." As so often happened, the Quran's language was stricter than Muhammad's explanations to his Companions. "When the Prophet conveys the Quran, the words are so firm," observed Akram. "But when he teaches the message in his own words, he tells it so nicely."

Between this law and the Prophet's teaching of it, there was light: "The Quran puts down the boundary, but the Prophet did not go to the boundary. He did not hit his wives." Indeed, the Prophet strongly reprimanded those who did—"All the husbands beating their wives, those aren't good people among you"—and he cautioned men "not to beat any of Allah's woman servants."

"And you, Sheikh, in these matters, do you look to the Quran, or do you look to the Prophet's sunna?"

I thought I knew the answer, but I needed to hear him say it.

"In the way of normal behavior, I look to the Prophet. When I read something in the Quran, I then go, and look at the hadith, and at the Prophet's *sira* [biography]. Remember, Aisha called the Prophet 'the walking Quran.' So it is always best to see what he did."

The Sheikh never hit his children, or his wife.

* * *

From the moment the first revelation—"Read!"—came down to the Prophet, Islam was established as a faith of the word, and the faithful as those who read God's signs, both in the Quran and in nature. The good Muslim must read the sources, and read God's signs. But with a text as intricate and powerful as the Quran, reading meant far more than mere literacy: Akram must have read "An-Nisa" dozens of times before he eventually realized that his father had to give away the land to Akram's aunts.

Across the world, Muslim progressives in places as disparate as Jakarta and Virginia have read 4:34 anew. They've been pressing this verse, and the rest of the Quran, for possible readings that can guide pious Muslims through twenty-first-century circumstances. In 1992, the American Muslim scholar Amina Wadud published the first woman's commentary on passages of the Quran dealing with gender roles. Until Wadud wrote the PhD dissertation that was to become her book *Quran and Woman*, modern Muslim women were all but voiceless in debates over Quranic interpretation. Through the work of Wadud and others, that's changing. Women are returning to the basic texts and chiseling off the man-made prejudices that have hardened into Truth over centuries. It's slow work, digging down to find the scripture's universal messages, ones that guarantee women and men justice and humanity. It takes courage to peel back the layers of misogyny that have grown over fourteen centuries. Many of the tools these Islamic progressives use are in the Quran itself. The seeming inequities of

household expenses. "The Prophet said, 'Yes, when a woman has a husband who does not spend properly, it is okay to take what is fair.'"

"But suppose we agree that there needs to be one person who ultimately has the last say in a household," I said. "Why should it be a man? What about women who earn more than their husbands? Or who are cleverer, or better educated?"

"It doesn't matter if God has made men the guardian, or women the guardian," he said. "Look, if women become it, what would happen? Go to any office where a woman is the boss, and ask people! It's the same thing! It doesn't matter who's in charge: as long as people don't fear God, these things are going to happen, really!"

"But is there not, Sheikh, an argument that the whole *qiwamah* system should be phased out, in the interests of justice?" I asked. "Since it opens the possibility for men to twist laws?"

"The basic thing is not who is *amir* (leader)," said Akram. "If people don't do justice, nothing's going to work."

For Akram, it all went back to piety and treating people with kindness and justice. It wasn't the *qiwamah* system that was to blame, but people and their flaws.

"So are there grounds that, since things have changed since the seventh century, we can now change the laws?"

"In the laws, there are certain things that will always be the same, that can't be changed. There is no doubt that Islamic law keeps changing, when the context of the people keeps changing."

In every society, agreed the Sheikh, people had to arrange their household affairs in practical ways. Marriages were partnerships and both men and women had shared responsibilities to make them work well. "But still, certain things are firm—certain realities remain the same. A mother being a mother—that can't be changed."

* * *

At last, we arrived at what remains the Quran's most contentious passage on marital rights. Specifically, the words that many Muslims claimed allowed husbands to hit rebellious wives.

"First, let us define the meaning," said the Sheikh. "The word used—*daraba*—means to strike someone. In any language, it has no other meaning."

"Not, 'to go away from?' or 'to advise'?" I said, ever hopeful. "I've read some Muslims who've glossed it that way..."

Nope. According to Akram, apologists might try to say it means all sorts of things, but they were wrong: "*Daraba* means 'to beat'!"

It was not advisable to hit—indeed, it was a mistake, but if it was absolutely necessary, he continued, there were steps a husband needed to take before hitting. "First, you must try to reconcile. Then, you can bring in the family—both of your families. Then if that doesn't work, don't sleep with them."

If that doesn't work, only then could you hit. But only on three conditions:

"Nobody in authority—whether in the state or in the family—is allowed to hit when they're angry. If you discipline when you're angry, then you're doing it for yourself. The second thing is, this must be in the interests of the person, not the hitter. If I am hitting my child, it should improve him, not me. The third condition is that it must just be a gesture. There should be no pain, no injury, nothing." Some jurists recommended using shoelaces, or a *miswak*, the twig from

misuse it. There's no doubt about it. But the reason for suffering is that men are not implementing the Quranic way of justice."

"Sheikh," I began evenly. "I utterly understand how these arrangements were about justice in seventh-century Arabia. Women needed protection then. But now, in the twenty-first century, the socioeconomic conditions are changing. More women are educated. More women work and are shouldering economic responsibilities. Now that facts on the ground are changing, is it possible to change inheritance laws so that they're fair?"

"That's fine," nodded the Sheikh. "But they can only be changed if Islam changes their responsibilities."

"Well—on the ground they have, Sheikh! So can it?"

"Well, once this is changed, it means there is no guardian in the house," explained the Sheikh.

"What about having two guardians? Splitting the responsibilities and the power?"

Akram smiled. "If you have two guardians in the house, then, it's like there are two rulers in the same state: fighting will happen so quickly. Man should be supervising—otherwise, there's no way that they know who is going to decide things."

My face must have fallen, because he quickly added, "But he should consult his wife, and respect everybody."

"In some houses, it's the women who are actually ruling, even in the house!" he went on, eyes shining. "The Quran does not mind that. Actually, in the proper Muslim family, the house is always run by the women. My mother, she would decide how the household was run. But my father, he always earned the money and would go shopping ... And now, it's the same thing in my house! It's not I who decides what we're going to eat: I just have to earn the money."

The Sheikh wasn't being disingenuous. Nor was he being patronizing, like the patriarch who nods at his wife while smirking and saying, "She's the boss!" Akram truly saw the twin spheres of the home and the outside world as separate but equal. Family life was so central to his understanding of Islam that he genuinely believed in the importance of a wife's main duty: educating the children. For Akram, this business of the outside world, with its earning and getting and competing, was really rather trivial.

Akram's faith created his very real respect for his wife's work. My own, very worldly view was that economy was destiny. I had sat and despaired with well-educated friends, bemoaning the fact that family life meant cuts in our earning power. Whoever held the purse strings of the house held the power, we agreed. Whether one wanted a feminist household or a pious Muslim one, there was all too often a chasm between theory and practice. I had watched my own mother look up from marking her women's studies papers to meekly ask my father whether she could buy a copy of the Sunday *New York Times*.

"What prevents the guardian from being unfair about how he provides for his wife and children?" I asked.

Akram assured me that in fact the Prophet had provided a loophole for wives whose husbands were tight with money. Abu Sufyan, the leader of the Quraysh tribe, was very stingy. His wife asked Muhammad whether it was allowed for her to take money from him without his knowing it, just for basic

The Sheikh shut his eyes for a second, a sign that a joke was coming: "If someone said to me, 'I am going to look after you, I am your guardian,' I would really feel so happy!" he quipped. "I would love that, really!"

* * *

Even hearing him jest about it, a Muslim woman's role sounded spookily similar to Woolf's Angel of the House, that powerless phantom creature that had to be stone-cold dead before a woman could begin to write well. Not that every woman, Muslim or otherwise, who stayed home to tend the children would end up powerless. But exemptions from duties can ossify into exclusions from power. In her famous essay "The Jew Who Wasn't There," Rachel Adler writes of how orthodox Judaism's exemptions for women, children, and slaves made all three groups "peripheral Jews." Allowing them to skip such rites as hearing the shofar on Rosh Hashanah or praying at the three daily services meant that they were "excused" from most of the positive symbols which, for the male Jew, hallow time, hallow his physical being, and inform both his myth and his philosophy." In Islam, the dispensation that allowed women to pray at home worked, in practice, to deny many of the pleasures and support of communal mosque prayers. In many Muslim cultures, it had also morphed considerably, from being a rule allowing women to stay at home into a custom of confining them to it. Akram knew this better than most Muslims, having so often tried to persuade conservatives of women's right to go to the mosque or to attend university.

"Sometimes, a girl will come to me and say that her parents will not let her go to the mosque," the Sheikh said. "So I ask her, 'Do they let you go to the shops?' She'll say 'Yes.' So I say: 'They'll let you go shopping, but not to the mosque?'" To bar women from going to pray communally but then send them to buy groceries was not just inconsistent but unfair, and un-Islamic.

I knew that Akram was attuned to the dangers of overzealous confinement of women, for I'd heard him warn of them. A couple weeks after our "An-Nisa" discussion, he gave a talk on "Surat al-Jinn," a chapter at the end of the Quran dealing with unseen spirits, or jinns. Far too many people, he said, saw jinn possession as a major problem. Over the years, both Indian and British Muslims had consulted him on jinns, and usually it was women, not men, who were said to be possessed by them. These women were simply suffering emotional anguish brought on by overstrict interpretations of purdah. In the notes distributed to his audience, the Sheikh warned that these women's "jinns" were in fact mental distress:

They feel trapped in the lives they are leading, unable to escape conditions of confinement, terrible loneliness, emotional and even physical abuse. The conditions of their life are such that they have no hope of joy or happiness. They feel utterly powerless to change their circumstances, and so they do not want the life they have. After a time they find themselves, in extreme cases, unable to sleep, unable to eat, unable to move, unable to act or think normally ... It is at this time that people around them, sometimes with the best of intentions, may say things like, 'She is not herself. She is possessed.'

The day we discussed "The Women," I pressed the Sheikh on how the whole "guardianship" system set out in 4:34 would work. "Okay, so assuming that we can limit guardianship to the man providing financially for the household. How is this system not going to be exploited?" "People who take the power, they

middle so that I could then go out, see the world, and earn money, so that I could, if I chose, heed Woolf's advice and leave money to a women's college.

I must have looked unconvinced. "The idea of male guardianship," he hastened to add, "is just an organizational matter. It's just for the arrangements of the house."

"But for some people, how you organize the house is the starting point for justice, not just something incidental," I parried, thinking of my mother's cookieless consciousness-raising sessions. "For so many people, they say there can't be justice if one gender is given guardianship over another, even if it's just a matter of who does the laundry."

"But the one who is being a guardian, he does not make the law. He only implements it. If he has to make the law, then yes, that is injustice. Look, there's only one thing that is different, and that is that women get pregnant, so they cannot do some things as freely as men. The rest of the things are the same, really." Islam liberates mothers from the burden of certain duties that men can't escape.

"Because of the way God has made the family system, men have all these collective responsibilities—they have to take part in active duties of society, but women have the right to decide whether they want to share or not. For men, it is a duty, they must do!"

"Well, like what?"

"When leaders call meetings in mosques, men have to go," he said. "Women can decide. Jihad—men must go; and women have the right to go or not to go. Friday prayers! It's the same thing—men must go, and women can choose."

Women's biology allows them certain respite from social duties, explained Akram. "They're going to be pregnant. They're going to be mothers. If women are given the same authority and duties as the men, it would really be much more difficult for them, no doubt really." He grinned broadly and shook his head. "You know, I really don't understand why God does not divide things differently! You know, for ten years, woman can be mother, and ten years, man can be mother!" Suddenly, he was sounding like the head of a feminist collective in Vermont. "Because, you know, people always think that what men have got must be better! But I think it should be the other way around. Men should say, 'I want to leave guardianship of the house—give me motherhood!'"

"You remind me of some feminists," I smiled. "They talk about how society needs to value mothering, and how it shouldn't be undermined in favor of the male model of paid work and career status—that they're all about money. You sure you're not a feminist, Sheikh?"

By this time, we were both guffawing, perhaps a bit loudly. A bespectacled man at the next table shot me a hard look from over his teapot. But Akram was in free flow. "God said, 'Paradise is under the feet of the mothers.' He never said the same thing about fathers! Mothers get so much respect!"

Besides, he continued, being a male guardian can be a drag.

"People enjoy power, but power actually limits their enjoyment," he said earnestly. "Administration is slavery. The Quran wants to free women from administration. A woman can sleep when she's tired. But I'm a father. Even if I'm tired, I know my duty. My wife, she can have a rest. But if I have a headache, I still have to teach."

principle than practicality. Women need their own property "because money makes people look seriously at someone," he explains. "Women need to get shares of property so that they get a certain respect."

From inheritance, and the respect it accorded, came all sorts of other possibilities for women. Less than a century before Akram and I sat talking in Oxford, Virginia Woolf had mapped out some of them in a lecture she gave in Cambridge. In it she evoked the grandeur of Oxford and Cambridge's men's colleges, funded by kings and industrialists. She contrasted it with the grim little supper she'd had at a women's college—"Fernham," invented for the purposes of her argument—of beef and prunes, eaten off plain china and washed down with water. If only Fernham's founder, an energetic Victorian lady who'd laboriously raised the funds to build it, had possessed money: "Now if she had gone into business; had become a manufacturer of artificial silk or a magnate on the Stock Exchange; if she had left two or three hundred thousand pounds to Fernham, we could have been sitting at our ease tonight and the subject of our talk might have been archeology, botany, anthropology, physics, the nature of the atom..."

But they weren't. Instead, Woolf and her hostess were discussing why it was that there'd been no room "for partridges and wine, beadles and turf, books and cigars, libraries and leisure," and why "to raise bare walls out of the bare earth was the utmost [our mothers] could do." Women who could have left fortunes to Fernham had raised children rather than made money. (Before the 1870 act, of course, women couldn't inherit at all.) In Woolf's era, family life was exclusively women's work. Building an institution to rival the grand male Oxbridge colleges "would necessitate the suppression of families altogether."

Family life is laborious, agreed Akram. But it's made far easier by a neat division of labor—which is how he reads the controversial verse, 4:34. While many scholars had interpreted it as a broad endorsement of men's power over women because of their inherent superiority, Akram believes it has a far narrower application. *Qiwamah*—often defined as "guardianship"—was for him simply a matter of the man having financial responsibility to provide for his household. "You know, it's not that Islam does not want to give women authority," he said. "If a woman wants to become a mufti, if she wants to become a scholar, or wants to work: she can have all these positions. It's just in the house that the man is guardian. Under God's law, men and women have the same rights and responsibilities. The family is the only place where they have different ones. It is a secondary matter."

"Maybe secondary for him," I caught myself thinking. "Not just because he's a man, but because he's a believer." For Akram, equality didn't hinge on who does the dishes, but on equal grace from God: "In the Quran, man is the guardian. People think that the men are better than the women. It is not like that. When men are guardians, it does not mean that in the Day of Judgment, they are more pious. No! It could be that the wife goes to paradise, and he goes to the fire of hell!"

As a secularist, undecided as to what is to come after death, the only Day of Reckoning I'm certain of is today. Akram could content himself with a just God who would even things out after death. Yoked as I was to this life, I couldn't afford to see my justice deferred. I needed it now, in this world, in my own kitchen and bedroom: I wanted my dusting duties and school runs split down the

verse in Arabic, he was shocked. His grandfather, and his great-grandfather, had unwittingly cheated their daughters out of what was rightfully theirs. Like many Indian Muslims, Akram's family had followed village customs, under which women often don't inherit land. Akram's father and uncle had split it between them; his two aunts had received nothing. On his next visit home to Jamdahan, Akram confronted his father: he and his brother must give a third of this land away, dividing the share between their two sisters. Akram convinced his father, but when the two men explained to Akram's aunts that the Quran had granted them a share of their father's lands, they were too frightened to take it at first. "They used to come to our house and stay for a month, or two," Akram explained. "They were worried that if they took their inheritance, they wouldn't be able to come anymore. They worried that things would change."

His aunts fretted about their clever young nephew, just back from Lucknow, insisting on rearranging family affairs. Why bother with all this fuss when their brother took such good care of them? But Akram and his father persisted, and the two women eventually took what the Quran said belonged to them. Back then, they were among the only Muslim women to inherit land in Jamdahan. Now, Akram said, the village men have begun to approach him, asking what the Quran says about passing on property to heirs.

It's not only land inheritance that is changing in Jamdahan, said Akram. Over the centuries, the village Muslims had adopted the Hindu custom of the joint family system, in which grooms bring their wives home to live with their parents. But in Islam, every Muslim husband is required to provide his wife with her own home. Ever since Akram began advising the villagers of this, fewer Jamdahani Muslims were living in joint families. As he told me this, he allowed himself a smile of quiet satisfaction. "Even when I was young, they would listen to me," he said. "Even when I was young—still studying at Nadwah—they'd take my advice."

I thought for a minute about Akram's aunts, hesitant to grab hold of what their God—and their family—agreed was rightfully theirs. The warm and steady press of custom can provide a certain comfort even as it stifles.

"Change can be hard, huh?" I said. "Even when you're benefiting from it."

"Injustice has its own order," the Sheikh agreed. "After one or two generations, it can seem like injustice is the normal way of doing things. When you try to establish justice, it can create change, and for a time, it seems there is disorder."

Operating his household along Quranic guidelines, Akram used his salary to support the family, while his wife kept her own money for herself. What Farhana earned from her sewing business was hers. "Sometimes she sends it back to her family," he said. "But I never interfere with it. I never even ask her about it! It's hers."

Her *mehr* was hers to keep as well. The future groom gives this Muslim form of dowry to a woman before marriage. It's an investment in a woman's status, explained Akram: "If men have to give a *mehr*, then you think before you marry!" he exclaimed. "It means that marriage is not just for enjoyment!"

"Actually, in the Islamic context, the question is, 'Why do women get anything at all?'" said Akram. "They don't need to spend anything anyway!" He paused, letting this provocative statement linger for maximum effect before answering his own question. Women's inheritance rights had more to do with

He read, "O humankind, be conscious of your Lord, who created you from one soul, and created its mate from it, and propagated from the two many men and women."

So the Quran starts from the assumption of absolute equality in creation. So far, it felt more enlightened than the best-known creation story in the Bible, which casts Eve as a mere helpmeet for Adam, created from one of his ribs—and even then, created only after the Lord had given life to "every beast of the field and every fowl of the air."

The creation from a single soul, Akram pressed on, illustrates how Islam grants men and women equality in light of honor and respect before God. "They both have the same soul, and they both have the same Creator, so they are subject to the same laws."

In the context of seventh-century Arabia, the notion that women had rights of any kind, and were God's creations, on a par with men, was revolutionary. In pre-Islamic Arabia, girls were considered a liability. They were mouths to feed, and bodies requiring expensive dowries when they married, so they were sometimes murdered at birth, buried in the desert dunes—a practice the Quran explicitly condemns.

Those females who made it past childhood were nearly always prohibited from inheriting or owning property. Indeed, a woman was effectively part of a man's goods and chattels: if her husband died, she passed to his male heir, along with the rest of the property. With the arrival of Islam, women gained the right to inherit: the Quran states they are entitled to half as much as their male relatives. The formula may not meet contemporary Western notions of equality, but in seventh-century Arabian society, it was a model of fairness. In the traditional Islamic setup, it is the man, not the woman, who supports a family financially. A woman's inheritance is her own, to be spent as she wants; a man's duty is to use his inheritance to support his family.

By all standards but the most modern ones, the two-to-one inheritance ruling was extraordinarily progressive: until 1870, British common law operated on the principle of "coverture," which meant that married women, legally speaking, didn't exist. Since the law saw husband and wife as one, women couldn't inherit property or keep their earnings. "Their very being and legal existence is suspended during the marriage," wrote the eighteenth-century jurist Charles Blackstone. In the United States, it wasn't until 1900 that women gained the right to control their own property.

Unsurprisingly, men in the seventh century were less than enthusiastic on hearing that women could inherit property. Early Islamic histories report disgruntled men complaining to the Prophet, notes Reza Aslan. "How can one give the right of inheritance to women and children, who do not work and do not earn their living?" they asked. "Are they now going to inherit just like men who have worked to earn that money?" A verse in "The Women," suggests Aslan, gave them their answer, in no uncertain terms: "Those who disobey God and His Messenger, and who try to overstep the boundaries of this [inheritance] law, will be thrown into Hell, where they will dwell forever, suffering the most shameful punishment."

These verses have had a considerable effect on the Sheikh's family fortunes. He hadn't truly understood the inheritance verses properly until he was nineteen years old and studying at Nadwah. When he read, and then reread, the

Still, my mother applauded Virginia Woolf's critique of nineteenth-century family life. In class, she'd parse the writer's disdain for the Victorian ideal of the "Angel of the House," obedient, pure, self-sacrificing. At home, she'd press a copy of *A Room of One's Own* on me with touching urgency, echoing Woolf's call to young women "to go about the business of life," to shuck off the provincialism of confinement in drawing rooms and family life because "no human being should shut out the view."

During the Sheikh's classes, I detected a yearning for a broader view in some women's questions. Once, when a student asked him what he thought of feminism, Akram answered without hesitation. One cannot blame Muslim women who are attracted by feminism, he said, given the conditions many of them suffer under in the Muslim world. "People want justice," he said. "Feminism wants justice for women. Where Muslims aren't doing justice for the women, these movements will come. If women don't get the respect they deserve, we cannot complain if they seek it out in feminism. If women are suffering, they will."

Changing prevailing attitudes will take time, he advised me. "In Europe, when they comment on the rights of women in Muslim societies, they usually comment how they are all very bad," he said. "They talk as though it was always the way it is now in Europe for women. But in some places in Europe, women have only been voting since the 1970s."

* * *

On the day we met to discuss "The Women"—"An-Nisa" in Arabic—we sat at our usual table at the Nosebag. I was hunkered down over my latte, tense as a boxer before the championship bell. When I flipped through my Quran to find the passage, the Sheikh nodded resignedly, as though he'd known it was only a matter of time before I'd open it there. We both knew that it was all but inevitable, this squaring off over 4:34. We both knew that I'd point at the place in the text that I'd marked in ballpoint pen. I wanted to understand how a faith so concerned with justice seemed to have injustice written into its scripture.

"So—about this 'guardian' verse, where some translations claim men are superior to women—how would you translate it?" I blurted. "What does *qiwamah*, which I've seen translated as 'guardianship,' really mean?"

Akram paused. "Let us start by talking about the chapter as a whole," he said gently. "If you read the sura from the very beginning, you will find that it is actually defending women."

As Akram explained it, "An-Nisa" was a sura that protected women, not punished them. It laid out the approved treatment of weaker members of society, such as orphans, war widows, and women in general. Between its dictates, the sura reminds people to fear and to obey God. These warnings, embedded in a chapter concerned with the rights of the weak, are a rhetorical form of protection, explained Akram. "Clever people, or people with power, they always can interpret law in their own ways," he said. "So God reminds people, 'Fear Me.' Now we know, in your house, if you do injustice to your wife, maybe she cannot take you to court ... but there's another court." He pointed upward. "The Lord knows what's happening."

The sura begins in the spirit of egalitarianism. "Look," said Akram, cupping his hands around the space in front of him, his fingers forming a neat oval. "At the opening, it says that men and women are created 'from one soul.'"

Saudi reading of 4:34: "Females," it read, "must be accompanied by a *mahram*"—male guardian.

* * *

Like Akram, I had grown up in a household with many copies of the same book. In the Sheikh's case, it had been the Quran. In my parents' house, the multiple copies were not of a single scripture, but of a handful of seminal feminist texts. My mother taught women's studies at Washington University in St. Louis, and being a devoted professor but an erratic housekeeper, she littered the house with copies of her course books. One *Norton Anthology of Literature by Women* lived in my parents' bathroom upstairs, while another, annotated in my mother's spidery hand, sat atop the brass tray in the dining room between its trips to the university for classes. Toni Morrison's *The Bluest Eye* functioned as our household version of the Gideon Bible: you could find a copy of it in most bedrooms. And we seemed to have a shelf of copies of *A Room of One's Own*, in a paperback edition as slim and elegant as Virginia Woolf herself. It was as though my mother, heeding Woolf's call for her own room, had given Woolf the run of not just one, but many.

Growing up in a household with a Woolf in every room, I was trained to spot the signs of sexism young, in much the same spirit that pioneer kids were taught to hunt and fish. At abortion rights rallies, at seminars on *Thelma and Louise*, at Take Back the Night speak-outs, I learned that only I could protect my own rights. When I was four years old and wondered aloud why my mother never served cookies to the ladies at her consciousness-raising group, I was told that the personal was political. Coffee was allowed, but anything more was banned at these events lest they trigger a carbs arms race brought on by competitive baking and hostessing. One Valentine's Day in St. Louis, sometime in my teens, my mother and I drove past a billboard advertising a suburban-flower shop: it featured a pair of disembodied, naked female legs sticking out of a vase next to the slogan "We've got great stems." My mother reversed and drove to the florist in question, and together we went in and complained about the sign's sexism. Women's body parts sticking out of a vase weren't romantic in the least, my mother told the sales assistant. He looked bemused but promised he'd convey our concern to the owner. "Make sure you tell him that it was a mother and daughter, together, who came in to complain," my mother pressed sweetly.

Though she would often quote me that great feminist line about well-behaved women seldom making history, my mother was a well-behaved woman. She'd begun her academic career at a time when undergrads still wore white gloves on dates, and she only wholeheartedly embraced feminism during the Reagan presidency. Since she was happy to leave her teaching for years at a time to follow my father around the world, she'd missed the furor over *Roe v. Wade* and the Equal Rights Amendment and had sat out the sexual revolution. While her colleagues battled on the wilder shores of women's studies, like queer theory or feminist economics, my mother found her feminism in the essays of Woolf and Mary Wollstonecraft and the novels of Jane Austen and the Brontës. "Oh, I do love teaching all these kids about the possibilities out there for women, and how they shouldn't take equality for granted," she once exclaimed. And then, leaning forward, she offered a guilty confession, sotto voce: "But sometimes, I just want to close the book and tell them how fabulous it is to have children and a family."

Reading "The Women"

When I told a Muslim friend of mine that I was to be studying with a sheikh, she had one request. "Ask him," she said, "why Muslim men treat women so badly."

When I did, he said it was because men weren't reading the Quran properly: "If they don't fear God, then they oppress their women." And yet many of the men who deny their wives and daughters basic freedoms hide behind their Qurans. A favorite passage for patriarchs: the famous 4:34, the thirty-fourth verse of "The Women," the Quran's fourth chapter. These six lines must surely rank among the most hotly debated in the Muslim scripture. The Muslim women's group Musawah has called them the "DNA of patriarchy" for the Islamic legal tradition. For it is here that many scholars have claimed to find Allah setting out men's superiority and authority over women, an authority that can be backed up by force.

One popular translation, by the early-twentieth-century English translator Muhammad Marmaduke Pickthall, reads:

Men are in charge of women, because Allah hath made the one of them to excel the other, and because they spend of their property [for the support of women]. So good women are the obedient, guarding in secret that which Allah hath guarded. As for those from whom ye fear rebellion, admonish them and banish them to beds apart, and scourge them. Then if they obey you, seek not a way against them.

As debates on how to translate the verse rage online and at academic conferences, new translations suggest less sexist meanings than earlier ones. Thomas Cleary, whose work is used throughout this book, suggests a slightly more equitable arrangement—at least in the verse's first line:

The men are supporters of the women, by what God has given one more than the other, and by what they provide from their property. So women of integrity are humble, guardians in absentia by God's protection.

As for those of whom you fear perversity, admonish them; then leave them alone in bed; then spank them. And if they obey you, then seek no means against them. (4:34)

Another translation casts men as women's "protectors and maintainers," and yet another says that "men are to take care of women, because God has given them greater strength." The Arabic word that Pickthall translated as "scourge," and which other translations rendered as "beat," Cleary translates as "spank." But the word, notes Reza Aslan, can also mean "turn away from," or "go along with," or even to "have consensual intercourse with."

One may debate 4:34's meanings, but one thing remains certain: men's interpretations of the verse have made millions of women miserable. Muftis, or Islamic judges, cite it to excuse domestic violence. Husbands have hijacked it to stop wives from going to graduate school, to work, or to the bazaar. The Saudi Arabian government leveraged its message to legislate a "guardianship" system in the Kingdom wherein women could not, until recently, open a business or a bank account, travel abroad, or enroll at a university without a male relative's permission. A few days before my lesson with Akram, I'd received an e-flyer advertising a trip to go on a pilgrimage to Mecca. Under the price, the travel dates, and the assurance of four-star accommodations was a line derived from a

"But why is homosexual desire there, if we agree that some people are just born that way?" I pursue. "Surely if God created these feelings, they are fine."

"Enjoyment of the body is just for the purpose of the family. Nothing else."
 "But if you have inclinations, Sheikh...?"

"Well, just because you have inclinations does not mean you should give in to them. That doesn't mean they should give in to those desires. These people should be supported to strengthen their faith."

My chest tightened, much as it did later that week when I read a newspaper story about persecution of Nigeria's *yan daudu*. An established subculture of men who act feminine, the *yan daudu* wear scarves and makeup, even as they live as husbands and fathers. Long tolerated, I read, they're now targeted by a Muslim religious revival in Northern Nigeria, and by renewed pressure on sexual minorities. "It hurts my heart that people say, 'May Allah reform you,'" one *yan daudu* said as he did *wudu* and made his way to the mosque. "A judgment belongs to Allah, so if we are different, it is because Allah made us different."

In a sentence, the Nigerian had succinctly summarized an emerging body of progressive Muslim theologies. In new readings of the Quran, whether from feminists, or Queer Theorists, or readers arguing for political pluralism, there is an emphasis that diversity is something not to be shunned, but embraced.

On this issue, I remained firmly in the Muslim progressive camp. Or rather, in the camp of most everyone but religious conservatives, be they Christian or Muslim. During my studies with the Sheikh, Christian evangelists in Africa were pushing through legislation to make homosexuality a crime. In a decade when new laws allowed gay marriage in many places, and when even the Pope said he was in no position to judge what consenting adults did in bed, Akram's views on homosexuality felt countercultural. Yet they were also a reminder that the fault lines we walked were not between Islam and the West, but between orthodox interpreters of the major faiths—and nearly everyone else.

Besides, he said, launching into a speech nearly identical to the ones I'd given my daughters: "Don't just do things because other people do them. Always think that you're different, and you have to do things that are better for you, not other people! People are not going to respect you because you've got more nail polish!"

Before the lunch break, a woman with a microphone made an announcement, asking us to support HHUGS, a charity for the families of men detained under Britain's antiterrorism laws. "Close your eyes," she told the audience, and imagine that life as you knew it was taken away from you with a policeman's knock on the door. Your children are crying, she instructed us. "You're forced outside, without time to put on your hijab," she said. "You're in your nightgown." Your husband, or your father, is taken away, and you're never certain when you'll see him again. That, the speaker told us, was the experience of so many wives of prisoners, in Guantánamo or in British prisons.

When she finished asking for donations, I opened my eyes. I was now doubly dizzy from a morning spent careening between bodily functions and equality, nail polish and police detentions. Girly preoccupations had bumped up against the sacred; profundities were chased by trivialities. The flow of ideas simply didn't conform to my own logic. Edward Said's *Orientalism* argues that the Western study of Islamic cultures was in fact "a system for dominating, restructuring, and having authority over the Orient." I wondered just how much my own project was guilty of this: of trying to stuff the Sheikh's worldview into Western categories.

I wandered out, impressed with the Sheikh's sang-froid. Not many men could face an all-female audience to discuss sperm and menstrual blood. But Islam gave him a blueprint to discuss these issues. Few scholars of the Sheikh's stature would have tolerated teenagers asking question after question about toenail polish. It was a bit like having the head of the Mayo Clinic write you a prescription for your tickly throat. But the Sheikh's absence of vanity allowed him to swerve away from the hidebound masculinity that so often seemed to be expected of males, Muslim or otherwise. "Sheikh Akram's not a typical man," his student Arzoo once observed. "He's got a perfect balance of masculine and feminine qualities." In this, he was sticking to tradition. The Prophet Muhammad was gentle, affectionate with children, and did housework. Marriage was a partnership, believed the Sheikh: women had the duty to educate the children, and men the responsibility to provide financially. Even though Akram believed in those gendered roles, he conceded that the roles could be swapped, "although it would be difficult."

* * *

There were limits, however.

"You know, God has made a difference between men and women for a purpose: to make family. If you have two men in the house, that hurts the whole family. Some women are very strong, and some men are very weak. That's not a problem. But people should not exceed the limit."

The limit, of course, was homosexuality.

"But why, if God has created these feelings?" I ask. "Should they not enjoy sexual relationships too?"

Sex, said the Sheikh, is for just one thing: the continuation of the human race.

Turner and William Hurt's loveless couplings in *Body Heat*. Furtive flips through *Fear of Flying*. My mother's proud presentation, on my fifteenth birthday, of my first copy of *Our Bodies, Ourselves*. These rites imbued me with the orthodox sexual worldview of a modern Western feminist. Unshackled from marriage, pregnancy, and even love, sex was but another mode of self-expression. Provided you visited Planned Parenthood and pushed the specter of AIDS out of your mind, it was freedom incarnate.

The Sheikh had never read a *Playboy* or seen an R-rated matinee, but that didn't stifle frank discussion at his females-only day seminar, "What Every Muslim Woman Should Know." It was held at a Muslim primary school in South London, so I walked through hallways full of kids' drawings of London's Big Ben and Mecca's Kaaba before entering an auditorium with hundreds of young women and being handed the lecture notes. On the front page, in the discussion of *wudu*, or ritual ablution, was a hadith from the Prophet's wife Aisha that was so gamy that, certain I'd misunderstood, I had to read it twice: "I used to scratch the sperm off the Messenger of Allah's clothes if it was dry, and wash it off if it was still wet."

This information wasn't cordoned off from other advice in the notes, such as the number of shrouds required to wrap a woman's corpse (five), or the placement of women's hands when they pray (over their chests). Sperm, and its disposal, were simply seen as issues a good Muslim should know about, much as they knew about the rites of death or prayer.

The morning's lecture tackled wet dreams, both male and female—"a sign of desire, and becoming mature," said the Sheikh. There was a discussion of menstrual blood, and when precisely one could judge it had stopped so that one could resume sexual relations and return to the mosque to pray. To demonstrate the proper way to do *wudu*, the Sheikh came out from behind his desk. He slipped his feet out of his shoes to demonstrate where the water should go. Putting his hands on his head, he showed women how to cleanse their heads, how to place their fingers under their hijab to do so. He showed the subtle differences between men's and women's prostration: men touched their foreheads to the earth, with enough space that a baby goat could pass under them. Women keep their bodies close to the ground, for modesty's sake.

Nothing felt off-limits. "No doubt you will have certain questions different from men," said the Sheikh, looking out at the women encouragingly. "So many rules in hadith came because women asked questions!"

The crowd's main concern appeared to be makeup. Young women with open faces and open notebooks posed question after question. Could one wear toenail polish? Not during prayers, if the polish kept water from cleansing the nails properly during ablutions, responded the Sheikh. What if one wore socks over painted toes? What if the manicure had glued-on decals on it? Did waterproof makeup make ablutions invalid? Anything that keeps water from cleansing the skin, advised the Sheikh, would prevent a proper ablution.

The Sheikh's patience in fielding questions on Islamically correct beauty routines astounded me. Could one dye one's hair? asked one young woman. Pluck one's eyebrows? another pursued. The Sheikh replied that faith meant that you didn't need to spend your money on makeup and manicures. "You see," he said brightly. "Islam makes life cheaper!"

Muhammad's biographies detail moving accounts of sexual tenderness between the Prophet and his wives. When Muhammad was unsure as to whether the Revelations were a sign of madness or a sign from God, Khadija asked him to alert her whenever he next saw the Angel Gabriel. When the Prophet did so, his wife asked him to sit next to her right thigh. Could he still see the Angel? Yes, just as he could when he sat next to her other thigh. But when she then opened her robe, the creature fled. For Khadija, that was proof that the being appearing before Muhammad was an angel, not a devil. Had it been a malicious creature, it would have stayed to watch.

Within marriage, sex is a right for both married men and women. If either partner can't perform in bed, the marriage contract can be dissolved. "One of the classic reasons that a woman can go to the court and get a divorce is if a husband cannot have relations with her, or cannot satisfy her desire," Akram told me. Once, a student confided to him that after a year of marriage, she was still a virgin. "I told her not to be so shy. If he cannot do these things, it is important to find a solution. Now, she is married to someone else."

The Sheikh had a fairly low opinion of lust, which allowed him to talk freely about it. "Everyone wants passion," he conceded. But too much of it squeezed out room for God. "It means you are basically worshipping someone else than Allah." When it came to sex, his discussions weren't gummed up by romanticism or stifled by shame: lust was just an urge placed in humans by Allah for the sole purpose of procreation. I once asked him about the Quran's "tilth" verse. Where Lily Munir had read the verse about wives being tilth to cultivate as a call for lots of foreplay, Sheikh Akram emphasized its agricultural imagery. You till in soil, a place where things are planted to grow. "Some people think if they get desire, they can do it anywhere, like in the back place, or in the mouth," he explained. "But this desire is for a family purpose. You must do it in the right place. Any position they like, people can do, as long as they do it in the place that is meant for the purpose of having a family."

Lust required regulation: it was why the curtain hung in some mosques and classrooms, and why modesty was a cardinal virtue for all Muslims. Along with most classical scholars, the Sheikh considered sex outside marriage, or *zina*, to be among the gravest sins in Islam. Sex may have been regulated by Islam's moral dictates, but in this it was no different from prayer, eating, or giving charity. Since Islam was a way of life, and sex a part of it, one needed to ascertain whether one was approaching it in the spirit of piety. Shyness should never prevent anybody from finding out how to live as a good Muslim. Muhammad himself used to hold special women-only sessions, so there'd be no excuse for bashfulness. Good Muslims needed to ask questions about sex just as about other issues: "Shy people can never learn," Akram said with a shrug. "Arrogant people can never learn."

The Sheikh's ideas on sex were unlike any I'd heard firsthand. My own sex ed was fairly standard for the child of 1970s liberals. It began in the fifth grade at Linda Schuham's house, poring over the hairy couple doing nudie gymnastics in *The Joy of Sex*. Then came the day I overheard my mother discussing the So-and-So's, who were busy consulting divorce lawyers because their last-ditch experiments with whipped cream hadn't worked out. Hollywood played its usual role as erotic instructor. There was the flushed stillness required while watching *The Last Picture Show* next to my parents, and later, the damp thrill of Kathleen

street, they should meet as humans. "Covering those differences," he said, "helps people to be treated as human beings."

* * *

Talking to Akram and his wife, I found that the veil seemed to keep moving. Suddenly, the curtain dividing public and private would close, covering up topics I'd assumed were perfectly proper for public discussion. Farhana's childhood games were to be left off-limits in print. No amount of probing could get Akram to speak with any nuance about moving from India to Britain. But sometimes, just as suddenly, the hijab would be lifted off, often exposing surprising revelations. Nowhere was this curtain raising more dramatic than on the subject of sex. Figuring out when the Sheikh would draw the curtain and when he'd raise it felt as befuddling as desire itself. Once, I simply happened to ask whether Aisha ever had any disputes over a hadith with a particular companion of the Prophet, Abu Huraira. Suddenly, without warning, we were on the topic of ejaculation—or rather, the lack thereof. Akram said that Aisha did voice her differences of opinion with Abu Huraira on reporting sayings of the Prophet. "For example, Abu Huraira used to say 'If someone has relations with his wife, and nothing came out, there was no need for a bath upon him.' But Aisha, she said 'No, he is wrong.'"

Islam has a clear-eyed acceptance of sex as part of life. Early Islamic texts declare it a good part, so long as it occurs within marriage and between a man and a woman. "Your women are a field of yours," the Quran tells Muslims. "So come to your field as you wish." (That's Thomas Cleary's translation: other English translations sound even more macho: "Your wives are a tilth for you, so approach your tilth when or how ye will," reads one.) When I first read that oft-quoted line, I was taken aback at the comparison of women to soil, and at the implication that men were entitled to free and open access to it whenever they wanted. That was until Lily Munir, an Indonesian Islamic feminist, helped me tease out the metaphor's nuance. "Soil has to be prepared for the seed," she told me, eyes twinkling. "It has to be watered, it has to be made soft, and smooth, and ready."

The collections of hadith stress a married couple's rights not just to sex, but to enjoying it. "Don't come onto your wife just like an animal," the Prophet Muhammad is reported to have said, counseling kisses, caresses, and soft words to get her in the mood. In Cairo, I once interviewed an Egyptian religious scholar about Islam's attitudes to sex, and he was similarly enthusiastic on the subject of foreplay: "The woman is not a chair that you can just pull out and sit on!" he explained, slapping his knee for emphasis.

Done right, sex is an Islamic blessing. "A man's sexual play with his partner, when accompanied by sincere intent, causes him to be rewarded by Allah," wrote the sixteenth-century hadith scholar Ali Muttaqi. "As the Prophet is reported to have said, 'Allah is pleased with a man's playing with his wife, and records a reward for him and makes a worthy provision in the world for him because of it.'" Christianity links sex to sin, but the Cambridge theologian Tim Winter notes that Islam casts it as "a glimpse of transcendence." Islam doesn't endorse celibacy and has no mainstream traditions of monks or nuns. "In the Christian context," Winter once explained to a British newspaper, "sexuality is traditionally seen as a consequence of the Fall, but for Muslims, it is an anticipation of paradise."

fashion for lavish hijabs wasn't lost on the Sheikh. "Many Muslim women make them so they become more attractive!" he told me later, with a rueful smile. "That's not the function. Islam wants to develop simplicity of the clothes for the woman. You can't just put a hijab on your head while you're wearing tight jeans. You should wear it to show your purity."

To be fair, it wasn't just women who'd indulged in pre-lecture primping that morning in Manchester. Riding the elevator up to the auditorium, I caught one youth raking his fingers through his beard, patting and tugging it for maximum length and heft. The Sheikh's theme that day was how to create a good Muslim marriage. The crowd—young, and largely single—packed the lecture hall, which hummed with possibility. The Sheikh chose his words to chill any romantic illusions in the room. "Very often, people think, 'I have fallen in love with someone,'" he began. But all too often, love proved to be mere desire. Allah had put sexual impulses into the hearts of humans in order to continue the propagation of our species. But like other basic human urges, the desire for sex with someone can't last. Once it is quenched, warned the Sheikh, it subsides: "If you marry someone because of desire, your desire will go down. Just like when you are hungry, and you eat, the desire for food goes down. Desire, by nature, is something that diminishes. Love, by nature, grows."

Marriages born of desire are destined for failure. "If you marry a woman because she has a good character, you will see more and more of her qualities. If you marry a woman because of desire, the marriage will fail. If you marry a woman because she is a twenty-year-old, what will happen? The next day, she'll be more than twenty years old."

The difference between desire and love, said the Sheikh firmly, was like the difference between a meal at a fast-food restaurant and a home-cooked meal. The hungry man passing a McDonald's might eat, but it would be bad for him. Far better to forgo that burger and go home instead to eat healthful food prepared with care. "Force your desires to listen to you!" he exclaimed. "If people just have what they desire, then they will ruin their health. If people marry someone just for enjoyment, that marriage will never last. When the desire for sex comes, don't rush. Think properly: 'Am I ready for marriage?'"

Returning home from the lecture, I passed through Victoria Station. I heard the din of chanting men, stumbling in packs from a rugby match, wafting beer and testosterone. A hen party tottered out of a suburban train, the bride-to-be trussed up in a fat pink sash with the word "Bride" on it. Her friends hustled after her in high stilettos and low necklines. Above me, a poster of two breasts, and behind them their owner, hawked beer. How curious, I thought, that so many Westerners think it's just the Muslims who mark out the differences between the genders, through segregation and the hijab. At the Sheikh's lecture that day, men and women both had been so modest that the differences between them seemed smudged and muted. Everyone had been so demure that the sexes seemed to blend.

But that's exactly it, the Sheikh exclaimed delightedly when I told him. "Uncovering makes more clear who are men and women," he said. "And when they cover their differences, they are more like the same."

The big issue was whether they were at home or in public. "God has made men and women both as human beings, but with certain differences," said the Sheikh. "Inside their houses, they can meet as men and women." Out in the

I stood beside my mother at a merchant's stall in the Tehran Grand Bazaar, finally settling on a print of peacock greens in swirling paisley, chosen from hundreds of bolts, from the palest dove gray to the fieriest orange, stacked floor to ceiling. I remember the *kiss kiss* of scissors blades as the merchant cut into the fabric. The pleasure of watching him fold it into a squashy bundle, wrapped in brown paper. Even then, I knew that sometimes a length of cloth was not just a length of cloth. A veil was special, I recognized, a strong signal of something about adulthood, and its dangers.

To a kid with the luxury of not having to wear it, the chador meant power, not submission. There was glamor in its sweep, drama in its drape. I'd seen *Sleeping Beauty* and knew what real femininity entailed: flowing garments and, if not a trancelike sleep, then at the very least a mysterious silence. When my friend Tara and I spent afternoons playing Iranian Ladies, dandling our baby dolls while wrapped in our chadors, there was a tacit agreement that the women in chadors held far more dramatic potential than our American mothers. With their jeans and uncovered hair, American women lacked the force field of femininity that the women in chadors possessed. In 1972, with our feminist mothers jettisoning their heels and lipsticks, it was chador-clad Iranians who embodied a five-year-old's vision of what it meant to be a woman.

I was a child then, and I have since put away childish things. But when it comes to the veil obsession in the West, many haven't. Why is it that the hijab seem to obsess non-Muslims so much? Muslim men are supposed to wear beards, but this covering of chin and cheeks is seldom described as a human rights violation. Under the Taliban, Kabul's men would nervously pull and fluff their facial hair, worried it would not meet the "fist and a half" standards required by the Virtue and Vice squads.

But it's the veil that gets all the attention, drawing a near-fetishistic interest by religious zealots and Western media commentators alike. Sensational legislations by strident secularists like the French, or religious zealots like the Taliban, make veils into news, of course. But more fundamentally, the veil wreaks havoc on the standard secular notion of what is private and what is public. When a woman puts one on, her head is suddenly signaled as an erotic site. What secular society deems public is now made private, while one's religion—what is in many Western societies considered to be private—is exposed for everyone to see. As the Moroccan feminist Fatima Mernissi observed, modern tensions between Muslims and non-Muslims come down to boundaries.

Once, back working at the Oxford Centre for Islamic Studies, I'd accidentally walked in on my Pakistani colleague Iftikhar while he was praying. Mortified, I quickly turned and left, shutting the door behind me. Later, he brushed away my apologies. "That's the difference between us," he said, waving a hand breezily. "You Westerners make love in public and pray in private. We Muslims do exactly the reverse."

* * *

At a lecture by the Sheikh in Manchester one Sunday, I felt profoundly dowdy amid a sea of hijabis. Mere hair can't compete. My mousy-brown pixie cut made me as invisible as any *niqab*, surrounded as I was by heads swathed in scarves draped as carefully as Chanel gowns, with fabric covered in leopard print, roses, bright plaids, or stripes. Pearl and diamanté clips secured headscarves, some folded so voluptuously that they resembled cloth crowns. The irony of the

Taliban's fall, the Western press would rush to capture women shedding their veils. It was as though this transition from burqaed lump to woman was a twenty-first-century Pygmalion myth: a breathing of life into Afghanistan's people.

The extent to which a Muslim country's women veiled—or didn't veil—has long served as a sort of litmus test for its relationship to the West. For the Middle Eastern dictator, making your women take off their veils was a cheap and easy way to prove you were moving toward Western-style "progress." When the Iranian dictator Reza Shah, father of Iran's last shah, banned the chador as part of his modernizing drive in 1936, police were told to rip the coverings off women's heads if they persisted in wearing them. The edict was soon followed by a sort of regional dance of the veils. Rulers from Afghanistan to Turkey encouraged women to uncover their heads; traditionalists fought back, either in the mosques and streets or in parliaments. Making women take off their headcoverings signaled assertive Westernization, or secularization. Orders to veil sent a countermesssage, telegraphing a commitment to traditionalism and independence from the West.

It's an epic struggle that continues to this day, not just in the Muslim-majority countries but also in Europe. The judgments—for wearing a hijab, for not wearing a hijab—rain down on women as well as nation-states. Too often the meaning of the hijab is taken as clear and unequivocal, like an on-off switch, a neat binary code. A Muslim woman is "traditional" if she wears one, "modern" if she doesn't. "Oppressed" if she wears one, "liberated" if not. Scarf on: "devout." Scarfless: "moderate," or, who knows? Perhaps even "secular." Much like my efforts to locate the Sheikh on a spectrum modeled on the American scale from left to right, such conceits are doomed to fail. Sumaiya's confidence is palpable—indeed, has grown—under the *niqab* she chooses to wear.

In the Taliban's Kabul, veils weren't about choice, but submission. Under Taliban rule, women shrank against the walls when the Vice and Virtue squads rolled by in their red Toyota trucks. While there in 1998, the photographer Nina Berman and I both wore burqas so as to sneak into Afghan homes undetected as foreigners. But a burqa couldn't hide the bulge of Nina's Nikons and lenses, nor did it hobble her strides. Even shrouded, she looked like what she was: a Manhattan woman in a hurry. "Baby steps!" I hissed at her from under my burqa. "Remember, you're oppressed!"

In societies where women themselves decide what they wear, a hijab can mean any number of things. It can suggest a woman's relationship to God, or peer pressure. It can signal obedience to her state or to herself, or can just mean a bad hair day. The Cairo commuter may don a headscarf to avoid harassment on crowded buses. The Lebanese villager may wear her headscarf to signal that she's a Muslim, not a Christian. An American feminist Muslim could don her hijab to demonstrate a defiance of consumer culture. But her sister, whose hijab has a Nike swoosh on it, embraces it. Sumaiya thought perhaps she took up the *niqab* against sexual temptation; another woman told me she felt like "a right sexy bitch" when she put on her red-and-white-flowered *niqab*.

* * *

I was only five when my parents bought me my first chador in Iran, but I still remember the charge of excitement it gave me whenever I wore it. Its soft polyester gave it a spooky warmth and stretch. To put it on was to be folded in an oversoft, overclose embrace: cozy but cloying, like the moist hug of a great-aunt.

Knowing *tagwa* couldn't be dictated, the Sheikh left his daughters to decide how to dress. When his younger girls reached puberty, the age at which many Muslim women begin wearing the *jilbab*, the flowing, long-sleeved robe, they asked whether they'd need to wear it, and Akram's response was mild. "I'm not going to force you to wear it," Sumaiya recalled him saying. "I think you should. But it's up to you."

"Because he didn't force us," she shrugged, "the *jilbab* stayed."

So did her devotion to modesty. Sumaiya's decisions on what constitutes modesty varied from day to day. She was not a veiled woman, but a woman who chose how she veiled. Some days she wore the *niqab*, a choice that often hinged on geography. When she and her husband moved to their East London neighborhood, she found the mood there to be "very anti-Islamic." It was nothing overt, but she couldn't help but notice little things: chilly nods in the street, terse notes left on the doorstep reminding the couple to trim their grass. When she and her husband first moved in, somebody complained to the local government authorities about the fact that there was furniture on the sidewalk. "Of course there was furniture outside," Sumaiya sighed. "We were moving in!"

Whether her neighbors were being Islamophobic or merely rude, Sumaiya decided to forgo the *niqab* in her own neighborhood in favor of a simple hijab. She still wore the *niqab* when going to more Muslim-friendly parts of London. The day we spoke about it, she was unsure as to whether she would wear the *niqab* while attending graduate school; she'd stopped wearing it when she was an undergraduate and had resumed wearing it—when she wanted to—only after leaving the university. "I feel more comfortable wearing it," she observed, "rather than not wearing it."

* * *

One day, midway through the Sheikh's seminar on manners, I looked up to see a late arrival, a woman in a *niqab*, trundling in with a stroller. I nodded and smiled, moved my backpack so she could sit, and turned back to the lecture. A nudge, a whisper—"Hi, Carla"—and possibly, I inferred from the warm eyes, a smile. Sumaiya was now a voice and a presence rather than a face. Later, during lunch break, I watched as her son Asim toyed with the face veil. "He's used to it," she said. "He loves playing peek-a-boo with it."

For centuries, male leaders have played veil peek-a-boo, too. But their game is less about clothes than about power. "All the problems Muslims have faced in recent decades are more or less boundary problems," wrote the Moroccan feminist writer Fatima Mernissi. In the Islamic world over the last two centuries, the biggest boundaries crossed have been territorial, in the form of Western imperialism. But these incursions into Muslim lands frequently led to skirmishes over more intimate boundaries: those related to women, and how they covered, or didn't cover, their bodies. From the French in nineteenth-century Algeria to the Americans in twenty-first-century Afghanistan, Western military invasions of Islamic countries have been accompanied by rhetoric about liberating Muslim women from their hijabs. To "modernize" or subdue a country meant to unveil its women. "The Arabs elude us," noted General Bugeaud, the French administrator of Algeria in the 1840s, "because they conceal their women from our gaze." After 9/11, in the run-up to the American bombardment of Afghanistan, politicians and pundits linked the country's liberation from Taliban rule to the liberation of women from their burqas. In the months after the

that's sometimes called "The Verse of the Hijab," which an early account says was revealed after one of Muhammad's weddings. When the celebrations had wound down, some guests had lingered in the bride's room rather longer than was polite. A verse descended:

Believers, don't enter the houses of the Prophet unless you are given permission to come for a meal, and then without waiting around for its time. But when you are invited, then go in;

and when you have eaten, then disperse, without socializing for conversation;

for that annoys the Prophet, so he shies away from you.

But God does not shy away from truth.

And when you ask the ladies for something needed, ask them from behind a screen:

that is purer for your hearts and their hearts. (33:53)

The part about addressing the Prophet's wives from "behind a screen" spoke to the situation in the household of Muhammad, whose stature in the community meant there was a constant flow of traffic. The more people came to see the Prophet, the more it became necessary to find ways to give the Prophet's wives privacy. The curtain mentioned in the verse allowed this. During the Prophet's lifetime, "veiling, like seclusion, was observed only by his wives," writes historian Leila Ahmed. The veil's prevalence in the Muslim community came later. It may have spread in part, surmises Ahmed, in imitation of the Prophet's wives, or after Islam spread to regions like Syria and Palestine, where veiling was an aristocratic custom. Later, medieval scholars made these customs into law.

Nobody should force women and girls to cover their heads, believed the Sheikh. Modesty, like piety itself, should come from within, not be imposed from above. "Laws don't make people pious," he observed. "They protect piety when it is already there." Governments couldn't legislate their citizens into submission: Iran and Saudi Arabia proved that. Just as trying to impose sharia law wouldn't make people into good Muslims, imposing the hijab wouldn't automatically confer modesty. Without fear of God and a true submission to Him, these outward displays of Islamic identities were just about showing off an identity, he explained, not about faith. "There could be people who follow sharia law, but they're not believers," he said. "Or there could be someone who doesn't cover, but they are believers," he said.

Covering your head required true commitment before it truly worked. "Clothes don't make you pious," he told his students. "If you're pious, the covering can protect you. But trying to force women into the house, or into the hijab, it's not going to make them pious." Nor could one presume to judge what a particular woman's headcovering meant. Veils, like other public displays of Islamic faith, meant little without true Islam. For the Sheikh, the issue of hijab was a bit beside the point compared to the more trenchant matter of true piety. In this he was in agreement with a very different type of Muslim thinker, the African-American feminist Amina Wadud, who had said, "If you think the difference between heaven and hell is forty-five inches of material, boy, will you be surprised." She quotes the Quran's assertion that "the best dress is the dress of *taqwa*," or God-consciousness.

As for her father, he accepted the *niqab* as soon as he understood that it had been her choice and hers alone. Muslims, men and women both, must be modest. On that Akram and his daughter agreed. Both agreed, too, that a *niqab* was optional, not required. Like many classical scholars, the Sheikh believed a woman should cover her head, arms, and legs and wear loose-fitting clothes so as not to draw attention to her form. But her face and hands didn't need covering. If a woman wanted to wear a *niqab*, that was her choice. If she wanted to wear black gloves with it, as some *niqabis* did, that was her choice, too. But in the Sheikh's opinion, neither was required. For the Sheikh, modest Muslim covering was not to render a woman absent or invisible, just "that they be present and visible, with the power of their bodies switched off."

* * *

Few garments, if any, have been freighted with more debate than the Muslim veil. Mullahs pontificate on the proper sheerness, length, and style. Governments, both Muslim and Western, have used it as a plank in policy strategies. Even using the word "veil" can be controversial, as it can conjure an orientalist fantasy of alluring harem girls. Despite this, I've opted to use the term "veil" in this chapter, not to perpetuate an image of the Mysterious East, but because it's the broadest term I could find to describe the concept of Muslim women's coverings, which can range from filmy headscarves to all-enveloping burqas.

There's debate among Muslims as to whether the Quran says explicitly that a woman must cover her head. The verses most frequently quoted as arguments for veiling appear in the chapter "Light," or "Nur":

Tell the believing men to lower their eyes and guard their privates.

That is more innocent for them; for God is fully aware of whatever they do.

And tell the believing women to lower their eyes and guard their privates, and not to show their ornaments except the obvious ones, and to draw their coverings over their breasts. (24:31)

The verse's wording is so vague that it's been ammunition for both champions of the veil and their opponents. Akram and many classical jurists believe that the line allowing women to show "the obvious" ornaments suggests that women can show their faces and hands. Others say that the verse merely encourages dressing modestly. Some have even read the verse as a simple caution against innuendo-laced banter between the sexes, which historians say was common in pre-Islamic Arabia. Some conservatives read it as prescribing the burqa. One controversial Quranic translator even renders the verse to read that women should only allow the palms of their hands to show, along with "one eye or both eyes for necessity to see the way."

Characteristically, Akram managed to be both aware of the range of readings and respectful of them. "There is an opinion that covering the face with a *niqab* is obligatory, a requirement on every woman," he said diplomatically, when asked. "But," he went on, "we know that the wives of the Prophet didn't ordinarily cover their faces, from a story about Aisha." Once, having heard about a beautiful woman who wanted to offer herself in marriage to the Prophet, Aisha's co-wives urged her to go survey the woman's charms. To do so without being recognized, Aisha donned a *niqab*.

What's more, the wives of the Prophet were more covered than the other Muslim women in the community. The Quran ordered as much, in the verse

Veiling and Unveiling

One morning, Sumaiya Akram had come down to the family car for her ride to school wearing a *niqab*, and her father was so shocked, he refused to start the car. She was now a figure with her head and face covered, a slit left for her eyes. "He thought I was mad," Sumaiya recalled. "He just sat there waiting for me to go back into the house, to change. He wouldn't turn the car on."

On first seeing the *niqab*, the Sheikh thought that she had fallen under the sway of some hard-line group. He worried that she hadn't made the choice to wear it for herself. Could she have been influenced by somebody? "I was thinking that she was perhaps impressed by someone," he said. "That she wanted to copy someone."

Wearing the *niqab* had been entirely Sumaiya's choice, though she wasn't completely sure what, exactly, prompted her to take it up. She was sixteen, so there were hormones to consider, both her own and other people's. As a teenager, she felt that she shouldn't be looking at men, and men shouldn't be looking at her. "I thought the hijab might be a constant reminder for me," she said, to help control temptations. But a decade on, her decision remained vaguely mysterious, even to her. "I don't know what it was," she said pensively. "I just thought I'd try it."

Watching this straight-talking, self-possessed woman bustle around her suburban living room in East London, I wondered how much her *niqab* had been a halal form of teenage rebellion. Had it been a version of a Goth hairdo or a heart tattoo? A declaration of self, a gentle press against the boundaries of her childhood? But then I checked myself: simply flattening the *niqab* to an adolescent fashion statement stripped it of anything sacred. Not that all hijabs are about submitting to God. Those with fake Calvin Klein logos on them suggest a submission to the market. For the women wearing both hijab and skinny jeans, a headscarf is not necessarily about modesty but perhaps represents a personal style signature.

But a *niqab* was different. It was not a "choice" in the manner of the consumer economy. A visual obliteration of the self, a plain black *niqab* was a refusal to engage in everyday modes of self-expression. The woman who wore it chose to wear it because it connected her to something bigger than the self. It could be God. It could be a Muslim-identity. But it wasn't a simple case of a teenage fashion choice, that was certain.

Whatever it was that made Sumaiya don the *niqab* in 2005, it took courage. Sumaiya's *niqab* was among Oxford's first. What's more, she attended a high school without many Muslims, so she wasn't getting support from her peers. Her classmates, she crisply observed, must have expected her "to blow up the class or something." Her favorite teacher asked if there was a festival of some sort. Not at all. "This is me now," replied Sumaiya. The woman never mentioned it again: that appeared to be that.

Non-Muslims didn't tend to comment on her new attire—"the English are very reserved." It was fellow Muslims who seemed most unnerved by this bold declaration of piety, and in class they tended to keep their distance. "For some of my teachers, it must have been, 'What do we do with this girl now?'" But she took care to stay "normal," to continue speaking up in class, to sit where she'd always sat, to keep her grades as high as ever.

"He said, 'I have been talking to Arzoo and Mehrunisha over the last few weeks about the issue of the marriage of minors,'" recalled Arzoo, in a Skype conversation. "'And I've revised my position.'" Having heard their arguments against the practice, he had gone back to the sources, and had found an eighth-century judge and jurist, Ibn Shubruma, with a sound fatwa against the practice of child marriage. Ibn Shubruma argued that the issue hinged on a woman's autonomy. When girls reached puberty, they could choose whom to marry. By being married in childhood, this choice was taken away from them. Akram added to this argument, stating that the oppression and injustice occurring within child marriages today emphasises the need to oppose it at the juristic level. The classical legal argument, bolstered by the modern examples of injustice that Arzoo and Mehrun had brought to his attention, changed his mind: "I've learned from these girls," he said.

The mostly male crowd was stunned. For a sheikh to declare that he was changing his mind was unusual enough, but for him to do so after debating with two women students?

"The boys were shocked," recalled Mehrun.

"The guys' hands all shot up immediately," laughed Arzoo. "For weeks, none of them had said anything during our classes to challenge the marriage of minors. And now suddenly, they were spurred on by the turn of events."

"The men were very quick to form a dissenting voice," agreed Mehrun. "It wasn't that any of them practiced child marriages in their own lives or that they even agreed with it. But they clearly felt that this was an attack on their role as males, and their ability to make decisions for their children."

"Their reactions just motivated me more," added Mehrun.

The pursuit of justice, the Sheikh told the two women, needed to be informed by women's voices and experiences. Muslims shouldn't merely look to classical texts to understand their faith. Today's scholars needed to write new ones, taking into account women's viewpoints on the true spirit of the Quran and the sunna. "Write a book," he urged Arzoo. "Women were not so present when these legal opinions were being written. You must write a book."

How ironic, I later mused, that so many outsiders see Islam as a matter of cast-iron rules, of binding fatwas and unforgiving bans. As the year went on, I was repeatedly surprised by the broadness of its intellectual framework. This intrinsic flexibility could be used for good and ill alike: Islamic laws were only as humane as the Muslims interpreting them.

Within a traditional worldview, I could see the institution's logic. But my worldview couldn't stretch to see it as the Sheikh did, so I hung up despondent. Championing women's rights within a conservative Muslim matrix, the Sheikh saw such arrangements as logical. I, however, saw them as aspects of the patriarchy that he was unwilling to touch.

* * *

By assuming the Sheikh wouldn't revise his views, I'd underestimated him. It took Arzoo and Mehrun, the two Oxford housemates studying with the Sheikh to become Islamic scholars, to make their teacher rethink his position on child marriage. One Sunday, in an advanced course on *fiqh* in Oxford, the class was tackling a legal text by Imam Kasani, with a chapter called "The Marriage of Minors." "There were about forty guys in the room, and just a few women," recalled Arzoo. As the day wore on, with the class placidly taking notes on the finer legal points of marrying children, the two women "were turning pink, and purple, and blue with anger," said Arzoo. As a doctor and public health consultant, Mehrun had worked in Kenya and Zambia and had seen the dire costs of the practice up close. "She was imploding," said Arzoo. "The more upset she gets, the quieter she goes."

"I could not understand how an eight-year-old could be expected to stand up to her elders and explain to the court what is in her best interests," recalled Mehrun. "I was too flustered to ask the questions myself, so I prodded Zoo"—her nickname for Arzoo.

Arzoo raised her hand and asked the Sheikh how Islamic law could possibly condone anything that led to such suffering. She spoke of Yemeni girls; of parents marrying off their kids for money rather than protection; of internal bleeding and prolapsed uteruses, those all-too-common results of underage intercourse and girls giving birth. She went on, saying she knew the jurists said a girl could refuse a marriage, but how, she asked—slightly breathless now—could one expect a little girl to challenge her parents like that in a court of law, or to even know her own mind?

The Sheikh listened, and nodded. Without the proper mindset—and monitoring from the state—such practices were no doubt common. They were unjust, and un-Islamic. Islam would never condone anyone being married, or having sex, without their consent.

For weeks, the women continued to debate the issue with Akram, watching his position evolve. At first, the Sheikh held that while child marriage was permissible, the parents must have the best interests of their daughters in mind—and that governments should monitor such arrangements to ensure that neither the parents nor the husband abused the girl. He could find no evidence that marriages could legally be consummated before puberty, and he said no girl should have sex before she begins menstruating. "What is needed for the child is a contract," he told Mehrun and Arzoo, "not consummation."

Such debates went on for weeks, with Arzoo making the legal case, and Mehrun telling the Sheikh of child brides she'd treated in Africa. Then, at the morning Hadith class one Sunday, the sheikh told the two women, "Make sure you try to come to the *fiqh* class today," he stressed. "It's an important one."

It was indeed, for it was at that class that he made an announcement that, as Mehrun later put it, "lifted us up to the clouds."

downtown to the courts and demanding a divorce. Asked by her future lawyer why, she responded: "I hate the nights."

Nujood's case made headlines across the world. When a law in Yemen was passed raising the minimum marriage age to seventeen, it met with so much opposition from conservatives that it was repealed. In 2010, the Associated Press reported that Yemen's Muslim leaders had issued a statement declaring that any supporters of the new law would be denounced as un-Islamic, and apostates. It took until 2014 for there to be a concerted push to pass a law banning child marriages.

* * *

In classes, the Sheikh would caution his students not to repackage Islam to make it more acceptable to Westerners. His lectures on Aisha—and the issue of polygamy—were proof that he practiced what he preached.

"So Sheikh," I ventured one day. "My understanding is that you're only allowed two wives as long as you treat them equally."

I was talking about the verse that qualifies the fact that you can "marry women who please you, two, three, or four; but if you fear you won't be equitable, then one."

Muslim feminists had pointed out that in affairs of the heart and house alike, being equitable was impossible. They argued that the verse actually discouraged, rather than promoted, the pre-Islamic practice of polygamy.

Nope, responded the Sheikh, to my dismay. "A man can have two, three, or four wives, as long as he provides each of them with separate accommodation and expenses. But people cannot love them equally—what's in your heart, this is more difficult."

"But wasn't the revelation about polygamy really about taking care of widows, after the Muslim battles?" I asked, hoping that he'd agree with the reading of a Muslim woman activist I'd once met. She'd said that the verse had descended after Muhammad and his Companions were faced with military losses, which had left lots of widows behind. The spirit of the law, she suggested, was not about picking young and gorgeous second and third wives for fun. Rather, it was meant to provide vulnerable older women with protection, sorely needed in patriarchal seventh-century Arabia.

"No doubt, after the battles, when there were people killed, it was beneficial for society for people to marry widows," said the Sheikh. "But no, the reason was not for this. Arabs used to have more than one wife anyway—there was no limit." Islam simply capped the number at four.

"So it wasn't really about protecting widows or orphans?"

"No, not just that. Some Muslims just want to show Islamic law as acceptable to a larger audience."

In the case of polygamy, I couldn't accuse the Sheikh of that.

But the Sheikh saw polygamy as something else, too: an acknowledgement of male weakness, and an efficient system for minimizing its damage. "Many men cheat," he said. "It's so easy for them to fool a woman, and leave her, maybe with a child." Marrying a second wife, he argued, gives women protection: the relationship is made public, and the man's responsibilities to provide for the woman are, too. "A second marriage is better for the woman," he said. "They get a house, and they get expenses."

secularism. How was the book going? he asked, refilling my glass with champagne. The lessons with the Sheikh?

I told him a bit of what I'd been learning. How studying with the Sheikh constantly surprised me. And then I rapidly changed the subject.

* * *

Of course, I wouldn't keep off the subject of Aisha's marriage when I next met Akram for a lesson. One member of the Aisha lecture audience had praised him for his courage in "not shying away from the marriage issue," and I couldn't ignore it, either.

"Look," I said, "I understand that it's one thing for a very young girl to have been married in the seventh century. But I wasn't quite clear on whether you thought that behavior was acceptable now. Could you unpack that?"

Context was important, the Sheikh agreed. It put him in mind, he said, of a saying of Mahatma Gandhi's that he'd learned at Nadwah, "something about, 'If you're not in that person's situation, it is difficult to imagine the whole situation, and difficult to judge wisely.'"

And the context was? "Well, in the Western world now, there is university education, and people cannot plan to marry if they don't have jobs. But imagine Europe, three or four hundred years back. Imagine a farmer's house—you know, these people have nothing to do, other than marry. A farmer's boy and a farmer's girl—there's nothing to stop them from these things, even very young."

"But now, in the modern world, people basically see children marrying as child abuse!"

"Abuse is also happening, you will see abuse," he nodded composedly. "But not everyone who marries like this is thinking about child abuse. If you grow up in a certain context, and your mind is so much thinking one way, you can't think of things like this in any other way." It was a point of pride for me, as a pluralist and a journalist, to try to see things from another cultural point of view. I could see that Aisha was an exception, could allow that seventh-century Arabia had an entirely different set of codes. But the Sheikh's unwillingness to offer a blanket condemnation of child marriage rankled. True, he didn't believe children should be married, but he still didn't challenge the fact that traditional interpretations of Islamic law—like those of Hinduism and Judaism—allowed it. For the Sheikh, marriage, even relatively young, was far preferable to the Western phenomenon of unmarried teenage motherhood. "Without marriage, people are having kids at fifteen, sixteen, and so the woman is left alone," he argued. "That's worse, surely!"

Intellectually, I could see his point, within traditional societies where single women are outcasts. Emotionally, I couldn't, not least because of the memory of Nujood. She was ten when I met her, in Sana, Yemen. I'd been sent by an American magazine to interview the girl, whose courage in the face of local culture had made her Yemen's most famous divorcée. A child with a passion for Tom and Jerry cartoons had been married at nine and divorced at ten. After one sister was kidnapped and another raped, her unemployed father, who had sixteen children and two wives, figured an early marriage would keep Nujood fed and safe. On her wedding day, she got a twenty-dollar ring, three dresses, and two hijabs, but the excitement wore off by the evening, when, she said, her thirty-year-old groom raped her. A year later, she made Yemeni history by taking a taxi

grew up fast—not just in the Muslim community, but among Jews and Christians, too. One Jewish tradition holds that Rebecca married Isaac when she was three; scholars estimate Mary gave birth to Jesus around the age of twelve. Besides, we need to refine our definition of what it means to be married: across the Near East, marriages were often political alliances used to link families and tribes—a custom that continued for hundreds of years in Europe, too.

That was how I would have framed the issue, and how many Muslim feminists do.

And then, I wanted the Sheikh to say, "Look, we can acknowledge that Aisha's marriage was of its time and place, and that, because of the extraordinary personalities involved, it worked out very well. But that doesn't mean we shouldn't condemn the marriage of young girls today." I wanted him to criticize child marriage in places where it remains common, like India and Yemen, and to call it one of the greatest drags on Muslim society today. I wanted him to tick off how it ruins women's health, chokes off their education and employment, and bodes ill for the future of their kids and communities. For Muslims, followers of a faith deeply concerned with justice, child marriage today should be an abomination, just as it should be for every other human being on this earth.

That's what I wanted him to say. I wanted him to denounce child marriage in loud and ringing tones.

He didn't.

He didn't say it later, when another student, a young man in the front, raised the issue again. Those hadiths about her playing with dolls and swings, he said, didn't they bring up the issues of consent?

"She was a child, but she was a bright child, very bright," responded Akram. In Islamic law, issues of consent only arise when a girl is married by someone other than her father: "Other people don't have the love, but a father has the love," he said. "He has full wisdom, and full love."

(And the mother? I wondered. Where's the mother in all this?)

Of course, he continued, if a daughter doesn't want to marry, she should never be forced. A girl once knocked on Aisha's door, crying that her father was trying to marry her against her will. Aisha took the girl inside, and when the Prophet heard the girl's complaint, he declared the marriage invalid.

That was calming. And yet, still, the questions kept coming about Aisha's age—polite, but pressing.

How, one young woman asked, should one explain Aisha's marriage to non-Muslims? It was one of the things they always asked about. When they do, she said haplessly, "I don't know what to reply."

Forget defending it to non-Muslims, said the Sheikh. "You should be convinced," he said. "And if you believe that the Messenger is so pious and so pure," he said, "then you must know that the marriage was, too."

One culture could never understand another "unless they appreciate the main foundation of the culture." Non-Muslims, who may not know the Prophet's honesty and purity, might never be able to understand some of his actions. "When you read the story in light of our time, it looks bad, but when you read it in light of the Prophet, then it's understandable."

Soon after, I went to a party and ran into Hans, the intellectual who'd dismissed my arguments about Islam guaranteeing the same human rights as

Akram could draw a huge, approving laugh from the women's section whenever he mentioned the counsel he gave women contemplating divorce: "I always tell women who are having trouble with their husbands, 'You think your life is married life? Husbands can come and go, but your Lord is always there.'" Akram's vision of *taqwa* also provided a key for combating oppression within marriage. To the husbands in the audience who might be tempted to mistreat their wives he'd state its corollary: "You don't rule her! You didn't create her! If your wife is happy, thank Allah and be happy. We did not create our wives, and we did not create our husbands. Allah did."

His reasoning was framed in the language of submitting to Allah alone: no human should have control over any other one. It sounded bracing, liberating, and as stripped of gooey romanticism as any second-wave feminist text.

* * *

After Akram finished his Aisha talk, he opened the floor to questions. From the men came questions about marriage. A young man asked advice for "the brothers here who are looking for wives": What should they look for in a wife? Not a household slave, held Akram. "It is the duty of the men to look after the house. Men have to cook the food! Men have to clean!" The Prophet, after all, would sweep the floors, patch his own clothes, and repair his own sandals.

From the women's section, applause. From the men's, nervous laughter.

"The wife's job," continued Akram, "is to educate the children. So the primary criterion to look for in a wife, is to look for someone educated."

Akram went on, warming to his theme. In Muslim societies nowadays, women seldom got the respect they deserved. The Quran and the early life of the Prophet show just how much authority Islam gave them. Modern Muslims needed to turn back to these basic sources, to recognize all the rights they had lost.

And then came the question I was desperate to know about but was glad I didn't have to ask.

How, asked a young man, would the Sheikh address the question of Aisha's young age when she was married?

Well, responded Akram. Aisha was the Prophet's only child bride: all his other wives were mature women, widows or divorcees when he married them. Aisha was exceptional. Aisha did indeed go to the Prophet's house when she was nine, but different people mature at different ages. "Some girls, they are, from the beginning, very bright, very intelligent," he said. "And they also, you know, they grow very quickly. Some girls are different from most other people ... God has made some people like that. There are other people who are thirty or forty years old, but they're not mature."

I thought I'd misheard him. Hoped I had.

What's more, he said, "We have never had any single report that she was unhappy." Like the Prophet's other wives, she was given a choice whether or not to leave his house, and she chose to stay. What's more, we had her word on her happiness in the marriage, for it is her account of it that has been passed down from generation to generation. Unlike so many women, Aisha got to tell her side of the story.

My chest felt tight. I had utterly expected—and now fervently wished—that Sheikh Akram would have taken the cultural relativism route. Things were different in seventh-century Arabia, I wanted him to say. Life was short, and girls

Back in town, the gossips began whispering. Aisha's young rescuer was awfully handsome. And she was so playful and pretty. What on earth could have happened out there in those secluded dunes? Even the Prophet himself became unsure of what had taken place that day in the desert. He grew distant and a bit chilly to Aisha, and his revelations stopped. Aisha herself had fallen ill after the incident and had moved back to her parents' house to recover. Eventually, the Prophet confronted her. Her parents were crying, and so was she, said Akram. "The Prophet said, 'Oh, Aisha, listen, if you have done this thing, it is a mistake,'" continued the Sheikh. "'Repent to Allah, and he will forgive you.'" Aisha, however, remained resolute. "I was a young girl at that time, and I had not read much of the Quran," she later recalled. But having seen that Muhammad thought the accusations might be true, she couldn't say anything. "If I say to you that I am quite innocent—and Allah knows that I am innocent—you would never believe me to be true," she said. "If I confess to the allegations ... in that case, you would take me to be true." Her only course, she decided, was to be patient and to ask for Allah's help. She turned her head away and lay down on the bed.

The Prophet, in turn, began to sweat, and beads of moisture were "dropping from his body like pearls, though it was a wintry day," Aisha recalled. He fell into a sort of trance and began to receive a revelation. The words that came down denounced the gossip as slander and the gossipers as sinners. The verses not only confirmed Aisha's innocence, but stipulated that if a husband accuses his wife of adultery and she claims her innocence, she should be believed. Later in the verse come the key Quranic passages for Islamic laws on adultery, invoking the famous "four witnesses" of the sex act needed to prove the guilt of the accused:

When you heard it, why didn't the faithful men and women think the best on their own and say, "This is an obvious lie!"

Why didn't they bring four witnesses to testify to it?

If they didn't produce witnesses, then *they* are the liars in the sight of God. (24:12-13)

Muhammad was hugely relieved, said Akram. "When the revelation came to him, the Prophet became very, very happy," he said. "And his face shone. And he said, 'Oh, Aisha, your purity has been revealed to me by the heaven.'" The girl's mother immediately urged her to thank her husband. Aisha wouldn't. "She said, 'No,'" said Akram, admiringly. "She said, 'I'm not going to thank him. I'm going to thank my Lord.' She was so bright, no doubt, that she had learnt that Islam is about the connection to her Lord, and every word, every deed should be to please Him." A husband, even if he was the Prophet, was not the dispenser of grace. Allah was.

And here, Akram laid out a powerful principle, one that had battered against man-made hierarchies from the start of Islamic history. No matter who you were, and what your situation, you were given an implicit dignity by faith in your God. *Taqwa* (God-consciousness) and *imaan* (belief) made you answerable not to the power structures around you, but to a higher power. You could be a teenage bride, refusing to be cowed by small-town gossip, or by your parents' pleas, or even by the suspicions of your husband—who just happened to be God's Messenger on earth. Aisha's faith gave her the strength to withstand such pressures, to turn from earthly power structures in favor of something much, much larger.

refused, three times—until finally the evening's hosts agreed to include her in the invitation, too. When she wanted to see a public sporting event, he hoisted her up so she could see, even though "the Prophet was not so interested, because he was old," explained Akram. What's more, the couple would run races with each other—some of which Aisha won. "You can't imagine any *muhaddith* [expert in hadith], or *faqih* [jurisconsult], or someone like me, having a race with their wife? Their young wife?" Approving chuckles from the crowd. "They have a race, and she beat him! And he did not mind! Nobody does this now! Why do we not follow the example?"

These anecdotes stirred mixed feelings in me. They suggested a tender, respectful union. But the stories—of races run, of Aisha's enthusiasm over a sporting event, of unabashed questions—seemed only to underscore that unavoidable fact: Aisha was very young.

Akram read them differently. For him, Aisha's life suggested something all too often overlooked: that happiness was crucial for a good Muslim family. "People, when they marry, they don't want to make their wives happy," he said. "When they have children, they don't want to make them happy." Why ever not? demanded the Sheikh. "Make them happy!" Aisha shared the Prophet with many other women, and yet, he pointed out, Muhammad managed to make all his wives happy. Admittedly, not every minute was blissful. Once, Muhammad's wives began to grumble about his propensity to give away the household's food to the poor. "The wives would say, 'Why do you give to everyone else, but not to your family?'" noted the Sheikh. This carping meant that Muhammad slept separately from his wives for a month, and he received a revelation that appears in the Quran, giving them a choice: They could either stay married to the Prophet, living simply, or they could leave him, but leave as rich women:

O Prophet, say to your wives, "If you desire the life of the world and its finery,

come then and I will provide for you, and divorce you on the best of terms.

But if you want God and God's prophet, and the home of the hereafter,

God has prepared a tremendous reward for those of you who do good."

(33:28-30)

This verse answered anyone concerned that the Prophet was keeping Aisha in a marriage against her will, said Akram. "Many people think Aisha was forced to be married," he said. "But when the revelation came, she said, 'I have chosen you.'"

The Sheikh lingered over what is the most famous anecdote of Aisha's life, one so important that it appears in the Quran. The so-called "Incident of the Lie" triggered a marital crisis for the couple, political tensions in the young Muslim community, and a revelation proclaiming Aisha's innocence. Muhammad and his followers were returning to Medina from a campaign against a hostile tribe. When the caravan stopped, fourteen-year-old Aisha hopped off her camel to relieve herself. On returning, she realized that she had lost a necklace and so decided to retrace her steps. Since the girl was light, and the curtains of her canopied seat on top of the camel remained closed, nobody had noticed she wasn't there when the caravan moved on. On discovering she'd been left behind, Aisha waited for someone to return and escort her back to the others. Nobody did, but a young man happened by and brought Aisha back to Medina, setting her on his camel and leading her by the reins.

leaders. Not the Sheikh. Aisha's tenacity, and expansiveness to the women of the victors suggested another lesson to him: "When you make a mistake, move on!"

* * *

One evening in London, I set out to hear the Sheikh deliver a lecture on Aisha. The lecture was to be held at Imperial College, one of Britain's premier science and engineering universities. For an evening in midweek, the audience was huge. The Sheikh was expecting as much, he later told me: the subject of Aisha always draws big crowds, particularly at universities. She inevitably steers the discussion toward marriage—a popular topic with students. The Sheikh was late, stuck in traffic, so as I waited, I scanned the auditorium from my perch at the back, in the "Sisters" section. The Sheikh didn't believe that male and female students should be segregated at his lectures, since they hadn't been in the time of the Prophet Muhammad. Still, the people organizing the Sheikh's lectures often seated men and women separately. Divisions were signaled in a range of creative ways. Sometimes there was a white plastic curtain, or a hanging sheet, drawn down the center of the room. Other times, though there was no formal division, the men and women automatically gravitated to opposite sides of the auditorium. Whether visible or invisible, the gendered seating created an atmospheric shift, like a change in cabin pressure in a plane. Dividing the room gave it its own set of rules, at odds with those governing the streets outside.

That night, the division was innovative: a desk with bottles of Pepsi Max and plastic cups separated the men, in front, from the women, in back. I minded this, not merely for the message it sent about women's second-class citizenship, but because it made it difficult for my BlackBerry to pick up Akram's words clearly. It could be worse, of course: in many mosques, women aren't even allowed in the main room with the men. I've been crowded into dank basements with the other women, trying to make out a *khutbah*—the mosque imam's lecture—over the squall of babies and the loudspeaker's crackle.

Rarely, in my experience, does this gender apartheid seem to do what it's designed to: turn one's thoughts away from the opposite sex during lectures. As my mother once reported, on returning from an orthodox Jewish wedding, where women and men sat on separate sides, barriers actually seemed to heighten one's awareness of the opposite sex, rather than tamp it down. I remember hearing a story about a Pakistani scholar who was asked why Islamic cultures were so intent on keeping men and women separate. "Why?" he asked. "Why, to boost the birthrate, of course!"

As we waited for the Sheikh's arrival, the scene morphed into two parallel parties, one all-male, the other all-female. Nothing gets people thinking more about sex than gender segregation, I muse, watching a guy in a checked shirt sneaking glances at the women's section from under thick-fringed lashes.

At last, the Sheikh did arrive, having made his way through London's traffic. After apologizing for keeping the audience waiting, he began to talk about Aisha. Because the Prophet knew Aisha both as a child and as a wife, he said, her life serves as a guide for good Muslims on how to raise pious children, and how to have a happy marriage. Both children and wives, he continued, need the freedom to explore, learn, and pursue happiness.

Aisha enjoyed far greater freedoms than many twenty-first-century Muslim women. She debated with men, and she went to the mosque and to the battlefield. Once, when Muhammad received a dinner invitation that excluded her, he

woman's interpretations, at the core of a religious tradition. "Take half your religion from Humayra [the Little Rosy One]," Muhammad advised his Companions, using his nickname for the fair-skinned Aisha. For Leila Ahmed, in her authoritative book *Women and Gender in Islam*, it is the centrality of women in Islam's core texts that sets Islam apart from other monotheisms: "How many of the world's major living religions incorporate women's accounts into their central texts, or allow a woman's testimony as to the correct reading of a single word of a sacred text to influence decisions?"

But while Aisha showed how close my beliefs were to the Sheikh's, she also showed how far apart they could be. It was the subject of Aisha's life that led to our most distressing conversation.

* * *

She was betrothed at six or seven. As Aisha described it, she was playing outside, oblivious, at the time the marriage took place. "The Messenger of Allah married me while I was playing with the girls," she recalled. "I did not know that [he] had married me, until my mother took me and made me sit in the room rather than being outside. Then it occurred to me that I was married."

It was marriage, but not, at first, as we know it: she wasn't to live with the Prophet until she was nine. "I was playing on a seesaw and had become disheveled," she said. "I was taken and prepared and then brought in to him. He was shown my picture in silk." The silken image appeared to the Prophet in a dream. The Angel Gabriel appeared holding the portrait, and said, "Marry her. She is your wife."

The marriage was an extremely happy one, full of playfulness and intellectual debate. Muhammad's love for Aisha was "like a firm knot in a rope," he once told her, ever constant. Even today, she is known by the epithet "the Beloved of the Beloved of Allah." Still, Aisha's description of the short route from seesaw to silk picture unnerved me. My temptation, when I came across it, was to snap her biography shut in disgust. Islam's detractors have done that for centuries, dismissing the marriage between the fifty-year-old Muhammad and the little girl as pedophilia. But to shut the book, so to speak, would reduce Aisha to merely being a bride. To focus only on her age at marriage, rather than what came after it, I'd miss the best bits of the story, the ones that add tone and texture, not just to the marriage, but to Aisha herself.

For the child bride grows into a heroine for grown-ups. After the Prophet's death, when the jousting began over what Muhammad actually said and did, Aisha proved an agile debater against misogyny. When one man claimed that Muhammad had said that prayers were invalid should "a dog, a donkey, and a woman" cross in front of the person praying, Aisha retorted: "You have compared us [women] to donkeys and dogs." Nothing of the sort invalidated prayers, she said: "By Allah! I saw the Prophet praying while I used to lie in bed between him and the Qibla." In the political arena, her boldest move came after the murder of Uthman, Islam's third caliph, or successor to the Prophet. She demanded that the new leader, Ali, hunt out Uthman's assassins. When he refused, Aisha undertook the Battle of the Camel, so named because she directed the troops from camelback. Her side lost, but she went to nearby Basra to teach women from both the winning and losing sides about Islam. Some scholars have read the Battle of the Camel's defeat as proof that women aren't meant to be

"The Little Rosy One"

If there was ever proof that a pious Muslim woman need not be a muffled and submissive wife and mother, it is the life of Aisha, the third of the Prophet's eleven wives. The Prophet's most controversial wife, she has divided opinions ever since the seventh century, among both Muslims and non-Muslims. A top Islamic scholar, an inspiration to champions of women's rights, a military commander riding on camelback, and a fatwa-issuing jurist, Aisha stretched the role of Leader's Wife far beyond the usual job description of comeliness and decorum. By the standards of both our own time and hers, Aisha's intellectual standing and religious authority were astonishing.

She knew it, too. Ten things, she said, set her apart from her co-wives. An excerpt from an early Islamic account of her words: "He did not marry any other virgin but me... The revelation would come to him while he was with me, and it did not come down when he was with any of his wives except me. Allah took his soul while he was against my chest."

Aisha is not the only wife of Muhammad whose life explodes notions of what constitutes a "traditional" Muslim woman. Khadija, whom the Prophet married first and loved deeply until her death, ran a caravan business in Mecca. A wealthy and successful trader, she was also a twice-widowed single mother, fifteen years Muhammad's senior, and his boss. Her marriage proposal to the future Prophet was forthright: "I like you because of our relationship, your high reputation among your people, your trustworthiness, your good character and truthfulness."

Khadija emerges as an impressive presence, but it is Aisha who shimmers, lifelike, on the pages of the early Muslim histories. Her voice carries across the centuries, preserved in 2,210 hadiths. And what a voice: bell-clear and courageous, one can hear it, should one choose to listen, pronouncing on Islamic traditions on matters from prayer to trade to sex. That we know so much more about Aisha than Khadija comes down to timing: most of Khadija's life predated Islam, so it was not chronicled with the same care as Aisha's. Born four years after Muhammad's first revelation, Aisha grew up while the verses of the Quran were descending on the Prophet. We are privy to extraordinary details of his youngest wife over the course of her sixty-odd-year life: her penchant for wearing safflower red, her gift for poetry, her knowledge of medicine. We hear accounts of her spirited debates with other intellectual luminaries, and her fatwas on topics ranging from breast-feeding to inheritance. After the Prophet's death, her fatwas were highly respected, pronouncements that remain crucial to Islamic law to this day.

Some fourteen hundred years on, Aisha remains not just a role model but a red-blooded human, at once laudable and yet reassuringly flawed. We see her giving away the last scrap of food in her house—a grape—to a beggar, but we also hear her jealousy of her co-wives. Here is her crisp account of a quarrel with Safiyya, a Jewish convert and the Prophet's tenth wife: "I insulted her father, and she insulted mine."

Reading about Aisha—how she'd fret over the Prophet staying out too long in the sun, or how she'd recite scores of poetry verses from memory—I was exultant. So much of Aisha's life closed the gap between Islamic traditions of womanhood and my own feminist sensibilities. In Aisha we find a woman, and a

listeners of the woman who publicly dared to correct a caliph—the leader of the Muslim community. When he told them about Fatimah al-Batahiyyah, the scholar who taught while leaning on the Prophet's tomb, the women gasped. "Whoa!" exclaimed the young woman next to me, shaking her head disbelievingly. "Leaning on the Prophet's tomb!"

Despite the excitement rustling the grassroots, the details of most of Akram's nine thousand women remain buried. With the exception of a single-volume introduction, published in English, his research lies dormant in the hard drive of his computer. Forty volumes would prove too expensive, said his usual publishers in Damascus, Beirut, and Lucknow. Despite entreaties from his students, he wants to see it as a book before publishing it on the Internet.

For a time, there was interest from Prince Turki al-Faisal, Saudi's former ambassador to Washington. Sheikh Yusuf Qaradawi, whose TV sermons on Al-Jazeera helped make him one of the most famous Sunni scholars in the world, expressed his admiration for the project. Some of his students have started a *Muhaddithat* fund, attempting to raise money for publication. But the research remains unpublished, in part due to the Sheikh's lack of worldly ambition. "Some man from the United Nations called me," he said one day in passing. "He said they want to help me with my work." But Akram misplaced the caller's name and number, and when I pressed him, he couldn't remember the name of the section the man worked for. He wasn't concerned: "He'll call back."

Until he does, Akram spreads news of his research by lecturing to women's groups and on university campuses. But the differences between his findings and contemporary mores gape depressingly wide. The day he lectured on women at Cairo's Al-Azhar, the Sunni world's venerable university, which has both women students and even female professors, the audience was all male.

At moments like that, Akram lamented how change arrives too slowly. "All culture," he would say, frowning. "It's all culture." Great scholars like Abu Hanifa and Malik—founders of schools of religious law—"They never had problems with women! They were learning from them!" He once described reading Thomas Gray's "Elegy Written in a Country Churchyard," the eighteenth-century poet's lament for dead English peasants, whose horizons were constrained by village life, which denied them the education to develop their natural talents. "Gray said that the villagers buried there could have been like Milton" with the right education, Akram observed. "Muslim women are in the same situation. There could have been so many Miltons."

pray in mosques, even when they were far from home. Who finally gave the woman space to perform prayers? A Hindu merchant. "He opened his shop to let her pray there," said the Sheikh approvingly.

Denying women access to the mosque, like denying them other rights, was simply clinging to customs, not faith, said Akram. In the case of education, he'd gone further: preventing women from pursuing knowledge, he said, was like the pre-Islamic custom of burying girls alive. Stifling their potential makes the current status quo no better than the *jahiliyya*, the Arabic term for pre-Islamic ignorance. "I tell people, 'God has given girls qualities and potential,'" he said. "If they aren't allowed to develop them, if they aren't provided with opportunities to study and learn, it's basically a live burial."

* * *

By digging up the buried tradition of women scholars, Akram has prepared the ground for radical social change. For Muslims, the Islamic past is not just a source of interest for historians but a blueprint for the present. Precedent, not innovation, guides the devout on how to live and behave. So Akram's discovery of these women scholars isn't simply an interesting bit of long-buried history, but a quietly eloquent argument for changing the status quo.

"What he's doing is revolutionary—which is perhaps an odd word to use in connection with a traditionalist scholar," says Asma Sayeed, a history professor at UCLA and the author of *Women and the Transmission of Religious Knowledge in Islam*. While other Muslims—progressives and feminists—might question the Islamic patriarchy more forcefully, the Sheikh chips away at it from inside its traditions. He's a madrasa-educated man, a conservative, whose interest in women scholars was formed by the tradition itself, starting through the lens not of gender, but of hadith.

His findings inadvertently make him into something of a spokesman for women's liberation. When news of *al-Muhaddithat* emerged, Muslim women passed it around via email. "We were ringing one another up that Sunday morning the story about his findings appeared, telling each other, 'Can you believe it?'" one Muslim woman told me. Suddenly, the Sheikh's name was being touted on such unlikely blogs as Badass Muslimahs and The Fatal Feminist. (Full disclosure: the Sheikh had no interest in publicizing his research. I, however, did. Word of his work spread widely only when I wrote a piece on it for the *New York Times Magazine*, leading the Sheikh to tease me that he had me to blame for his growing fame.) Now groups from New York to Kuala Lumpur have invited him to speak on women. Muslim graduate students come to Sayeed in her office at UCLA eager to do their dissertations on Islamic women's history, citing the Sheikh's book as inspiration.

One night, he spoke at the Idea Store, the public library in Canary Wharf, London's financial center. His audience was nearly all women, with their BlackBerries buzzing and their backpacks and briefcases sitting beside them. To sit in a forest of skyscrapers housing the world's biggest banks listening to Islamic scholars might seem incongruous—but only to non-Muslims. Indeed, a theme of the evening was fluidity, and the range of roles and venues afforded Muslim women scholars. Akram and his fellow presenter, the scholar Aisha Bewley, sketched a history at odds with the confinement of many contemporary Muslim women. In medieval times, women bazaar merchants held classes in their shops. Some learned women taught courses in parks. The Sheikh reminded his

more," he said. At the end of each volume of *al-Muhaddithat*, he had included citations of scores, sometimes hundreds, of women who weren't named in sources but were identified—in heartrendingly brief descriptions—simply as "Sister," "Wife," or "Daughter."

He hasn't found merely quantities of scholars, but quality ones. The women hidden in the sources, he enthused, were excellent authorities on hadith, well-versed in the traditions. "In the history of Islamic scholarship, no woman has ever been accused of fabrication or inaccurate reporting of hadith," Akram said.

I laughed. "I don't believe it," I said. "Much as I'd love to believe in the moral superiority of women over men, I can't believe that!"

"No, really! It's true!"

"But how can that be?"

"They didn't need to make up hadiths," explained Akram. "Hadith wasn't a source of income for them, and they didn't do it because they wanted to become famous. When they decided to learn, their reasons to do so were just for learning."

Purdah, argued Akram, kept their scholarship pure. For women, scholarship was a spiritual vocation rather than a career.

Men, on the other hand, had to earn their living. The cut-and-thrust of court life meant that they had to pitch their scholarship to appeal to the powers that were. "Many times, Islamic scholars in the service of kings would invent hadiths," said Akram, "because they flattered or aided the ruler." One Central Asian scholar managed to "find" a hadith stating that the Prophet Muhammad said that the rivers of Central Asia were just like the rivers of paradise. Another savvy scholar-courtier, noting that his boss tended pigeons as a hobby, "discovered" a hadith stating that whoever looks after pigeons has a place in paradise. The pious caliph, recognizing flattery and faked Islamic tradition, promptly killed all his birds.

After the seventeenth century, with the rise of European colonial rule in many Muslim countries, women's scholarship declined. The Sheikh explained its dilapidation, in part, by the more general decline in Muslim intellectual confidence. The madrasa system languished, so patriarchal customs filled the vacuum. Flabby leadership from the ulama, many of whom have turned to politics rather than scholarship, left Muslims ignorant of their own history. "Our traditions have grown weak," the Sheikh once told me, "and when people are weak, they grow cautious. When they're cautious, they don't give women their freedoms."

Insecurity made the issue of who can claim religious authority particularly fraught. Some ulama deemed a woman's voice raised in public to be *haram*. For these men, a woman speaking authoritatively about religion was particularly offensive. When a woman comes to the mosque from the local government to speak about mundane matters, like flu shots or community relations, the men will listen to her, Akram told me. But a woman speaking about religious matters rankles many men. "If it's about religious knowledge, they say, 'Oh, a woman's voice is *haram*, and this, and that!'" said the Sheikh glumly. "It's because it's their field!"

Male insecurity about what they saw as their own traditions meant women often suffered. A friend of the Sheikh's was traveling with his wife in England, and when it came time for prayers, the couple stopped in the local mosque. The imam refused to let the wife pray there, claiming that women weren't allowed to

scholars he was chronicling, the research was pushed to the margins: the Sheikh's *muhaddithat* project was confined to his evenings and weekends.

By the standards of modern biography, the facts he turned up were pretty bare-boned: dry lists of books and teachers, the odd dutiful notation of a scholar's virtues. The life of a prominent eleventh-century hadith scholar, Umm al-Kiram Karimah bint Ahmad ibn Muhammad ibn Hatim al-Maarwaziyyah, for example, is sketched out in *al-Muhaddithat* through tantalizingly brief details. We learn that she was a popular narrator of the famous book of hadith *Sahih al-Bukhari*, and that she was based in Mecca, where she died at the age of one hundred. Students came from all over to study with her, including great imams and the well-known historian al-Khatib al-Baghdadi. She traveled "in the path of knowledge" to the Iranian cities of Sarakhs and Isfahan, and to Jerusalem.

For Akram, these details are a mine of information, much as the briefest of descriptions—"Upper East Side, pre-war," or "Varsity Lacrosse, Harvard"—conjure whole worlds for an American. "In Islam, after the Quran, the most important book is Bukhari"—one of the six key compilations of hadith. "If she is teaching Bukhari, you can imagine how great she is," the Sheikh said. "In any madrasa in India or Pakistan, the most important teacher is the person who is teaching hadith. It is the source of law, and the source of life."

At first, I blithely assumed that these women's names had been forgotten in much the same way that Western women's lives had been ignored. For most of Western civilization, men wrote history, and they wrote what they knew. Until feminist historians began unearthing women's achievements after the 1960s, women's contributions were left unsung.

In the context of Islamic culture, the erasure of women was rather more complex. "Muslim society prizes female modesty," Akram explained one day on the phone. "Traditionally, many Muslim families didn't want the names of their wives or their daughters published." Keeping women's names out of classroom, madrasa, or mosque records was just a broad interpretation of the concept of hijab. The term, commonly used to refer to women's headcoverings, in fact referred more generally to the modesty required by both men and women. In an effort to keep women shielded from public view, the lives and works of learned women were simply left unrecorded.

The broad interpretation of hijab still persists today, he said. "Even now, some people don't want the names of their wives and daughters printed or announced in public," Akram told me. "Once, I wrote an article about going on hajj for an Urdu newspaper. I wanted to include the names of the people in my pilgrimage party, but all the men told me not to use the names of the women in their family."

"So how did you refer to them?"

"As 'the wife of so-and-so' and the 'daughter of so-and-so.'"

A generation ago, my own mother had done the same. Her address labels from the 1960s read "Mrs. Richard W. Power." Then came feminism, and the labels were consigned to a drawer. By the eighties, one of her women's studies students would ask, in utter seriousness, whether she'd taken the name "Helen Power" as a feminist tribute to Helen of Troy.

Given the tradition of the unnamed woman, the nine thousand women the Sheikh had found were probably just a fraction of the female Islamic scholars through history. If I've found nine thousand of them, there are many, many

Akram's work, *al-Muhaddithat: The Women Scholars in Islam*, would challenge such myths. A decade after he'd begun work on his "pamphlet," Akram had a dictionary spanning forty volumes and containing nearly nine thousand women scholars, stretching from the day of the Prophet to the twentieth century. His work stands as a riposte to the notion, peddled from Kabul to Mecca, that Islamic knowledge is men's work and always has been. "I do not know of another religious tradition in which women were so central, so present, so active in its formative history," Akram wrote. In traditional Judaism, women didn't learn or teach the Torah, and though feminist scholarship is now uncovering the fact that women had a greater role in early Christian history than previously believed, Christianity's clergy was until relatively recently an all-male affair.

In medieval Mauritania, the Sheikh found evidence that hundreds of girls could recite *al-Mudawwana*, a famous book of *fiqh*, by heart. In twelfth-century Egypt, a woman scholar was lauded by her students for her mastery of a "camel-load" of religious texts. In Samarkand during the medieval period, Fatimah al-Samarqandiyyah, trained by her father in hadith and *fiqh*, would judge court cases. She also issued fatwas—and advised her far more famous husband on how to issue his. In an age when many women never enter mosques, let alone teach in them, it's bracing to read about these historical female scholars enjoying such freedoms. Women scholars taught judges and imams, issued fatwas, and traveled to distant cities on horse- or camelback to study with scholars. Some particularly learned ones made lecture tours across the Middle East, like the tenth-century Baghdad-born jurist who traveled to teach women in Syria and Egypt, or the fifteenth-century Meccan scholar who taught across Arabia. Or Fatima bint Yahya, a thirteenth-century jurist whose husband, also a jurist, used to consult her on his tougher cases. "This is not from you," his students would say when he'd bring back one of her fatwas. "This is from behind the curtain."

Like the Sheikh himself, many of the *muhammadithat* led cosmopolitan lives. Among my favorites was the eleventh-century scholar Fatimah bint Sa'd al-Khayr, whose travels in Asia deserve a book in themselves. Born to a Spanish Muslim father in western China, she was an itinerant student, moving through madrasas in Bukhara and Samarkand, studying with another celebrated woman scholar in Isfahan, settling for a time in Baghdad, teaching men and women in both Damascus and Jerusalem, and dying in Cairo at the age of seventy-eight.

To find such women, the Sheikh haunted the margins of Islamic history. He found traces of them tucked away in biographical dictionaries, in travel books and private letters, and in the accounts of mosques or madrasas. The lost history he searched for was scattered across continents, genres, and languages. Friends and fellow academics sent him copies of manuscripts from libraries in Turkey, Pakistan, and Saudi Arabia. To write a single entry, the Sheikh could hunt through half a dozen texts, some in Urdu, others in Persian or Arabic. Like the craftsmen who decorated Islam's mosques, working entirely with colored squares and triangles of tile, Akram seized on pieces that had until now been isolated and arranged them to reveal a dazzling pattern.

The work was achingly slow, and for nearly a decade unrecognized. At his day job, the project was met with indifference at best. The director at the Oxford Centre for Islamic Studies seemed far keener for him to concentrate on the atlas project and tasks like translating business letters into Arabic. Like the women

Nine Thousand Hidden Women

In 1998, I went to Afghanistan to report on life for women under the Taliban. During their five-year reign in Kabul, the Taliban's major policy initiative was to ban anything that they deemed to be un-Islamic, including flute music, kites, nail polish, and the public display of women's faces. The most devastating of the Taliban edicts, however, was the ban on women's education. When I visited, it was illegal for girls over eight to attend school. Girls' schools were closed, said Taliban leaders, to halt the rot of secularized education. I'd met women defying the ban by running secret classes, and women university graduates so terrified the Taliban would discover their diplomas that they'd traveled with the documents under their burqas, next to their skin. Whenever she saw her old textbooks, a former law student in Kabul said, she got headaches and anxiety attacks, so she had to hide them. At one point during my trip I had asked a father of a ten-year-old girl whether she ever went out. His answer: "For what?"

In the years that the Taliban were busy protecting Islam by keeping women at home and uneducated, Akram was uncovering a radically different version of Islamic tradition. Its luminaries included women like Umm al-Darda, a seventh-century jurist and scholar who taught jurisprudence in the mosques of Damascus and Jerusalem. Her students were men, women, and even the caliph. Another woman in Akram's research discoveries: the fourteenth-century Syrian scholar Fatimah al-Bataihiyyah, who taught both men and women in the Prophet's mosque in Medina, drawing students from as far away as Fez. She leaned against the Prophet's tomb while she taught, reported one of her rather dazzled male students, who couldn't resist adding that she leaned on the most revered spot: right beside the Prophet's head.

I first heard of Akram's finds on my way back from reporting in Kabul. "I'm working on something you will be interested in," he mentioned over tea in an Oxford department store. "It's about women."

"Women?" I replied.

It had begun by accident, he explained. Reading classical texts on hadith, he kept running across women's names as authorities. He decided to do a biographical dictionary—a well-established genre in Muslim scholarly culture—that included all the women experts of hadith.

"A short book, then?" I teased. Researching the atlas at the Centre, I'd toiled through some biographical dictionaries of scholars: cover to cover, they'd been all about men.

"That's what I thought, too," said Akram. "I was expecting to find maybe twenty or thirty women. I was planning to publish a pamphlet. But it seems there are more."

"Really?" I said. "Well, like how many more?" "Thousands."

"Thousands?"

Who knew? Learned women were well known, of course, throughout history, stretching back to the Prophet's wife Aisha. A couple of historiographers had written about women hadith experts. But the prevailing perception was that women's Islamic knowledge always functioned as a kind of cottage industry: if women studied, it was generally in the purdah of their own homes. And if women taught, they taught only women.

That will change gradually, he hopes. A few days before we spoke, he'd held a graduation ceremony for graduates of the Nadwat al-Ulama course in Islamic sciences he'd taught in Oxford. Of the six, four were women—Arzoo and Mehrun, and his daughters Hala and Husna. There are also plans for him to open his own madrasa in the UK in a few years, when the Cambridge group organizing it completes the fundraising. When he does, women and men will be taught together.

The next time I saw them after the family lunch, Akram's daughters told me that the whole family had sat in the living room testing one another on the riddles in the joke book Nic had given Aisha. The Sheikh, mysteriously, had known all the answers. Asked how, he smiled: "It was really very easy," he said. "I waited till the end, and so I was tested last. By that time, they'd been through the whole book."

Quietly biding his time as the answers unfolded, the Sheikh had let his daughters test out their answers. Then he offered his own.

negotiations. A world of infinite favors didn't yield reliable results. My secularist's do-it-yourself existence did not get me into the habit of being grateful for date palms, fragrant herbs, and seas.

The Sheikh's sense of gratitude was altogether more muscular, perhaps because it had somewhere to go. His consciousness of God as a creator took gratitude to a whole new level, cosmic in scope and near-constant in presence. Akram was a man who could find God in the act of making a cup of tea. "Everyone says, 'Any child could make a cup of tea,'" he said. "But every cup of tea depends on the whole universe being there. For the tea to exist, it needs the sun and the moon. It needs the earth to be there. He made water, He made the container to hold it, He made the leaves to grow. When we were born, everything was there, just waiting for us. Every cup of tea depends on the whole universe." I couldn't decide whether this logic was oppressive or inspiring. I rather thought it was both, like the satisfying ache of stretching after a session hunched over a laptop.

Studying with a man who saw everything from tea leaves to algebra as gifts from God, I was struck by a new seam of gratitude running through me. I'd emerge from a lesson not with faith, but with what I suppose a fashionable guru would call mindfulness. On the bus ride home, particularly when the sun lit up the green hills beside the highway, I found myself, for a second, seeing them as the Sheikh might: not as something pretty, or as expensive real estate, or as the space between me and London, but as a connection to something larger. There were moments, while I was reading a sura, or carting the kids to school, or chopping an onion, that I sensed what this radical gratitude must feel like: a constant reminder that you're alive, but just for now.

* * *

The Sheikh's gratitude didn't afford him laziness, either for himself or for his daughters. Quite the opposite. He had always expected the girls to work hard, both in their secular education and in their Islamic subjects, and his discoveries of the achievements of women scholars throughout Islamic history only raised his expectations. "He's seen so many women do so many things," said Sumaiya. "He can't understand why we can't do it all. Those women scholars had families. Their children had colic. They had to look after ill people. They had money problems. With all that to handle, they still managed to do a lot, so he doesn't see any reason why we should be behind."

Many traditionalist Muslims educate their daughters, but when the girls hit puberty, they often opt for madrasas, not mainstream education. At first, the Sheikh did the same with his own daughters, sending the eldest three up north to board at an all-girls' madrasa in Bradford. "But I found out that it wasn't really serious about education," he said. "Most people just send their daughters to madrasa to keep them safe from..."

"Boys and nightclubs?" I offered brightly.

He nodded. After discussing the matter with his own sheikh in Lucknow, he decided to send his daughters to the local school in Oxford and teach them Islamic studies himself. "Too often, girls' madrasas don't have good teaching," he tells me. "Many people don't want their daughters taught by men." Since men have traditionally had access to the best education, the girls get second-rate teachers.

wanted to, and so she went to see a sheikh who took a more relaxed view on hair dye. On receiving his fatwa, she colored her hair.

* * *

Sitting and gnawing his fist, Asim gurgled. His first year had been hard for Sumaiya. Wide-eyed and round-cheeked, he was a beautiful baby, but a colicky one, whose cries, much of the day and much of the night, meant that Sumaiya hadn't slept much over the past year. "My mom says she's never seen a baby like him," she said. "He just cries and cries. No remedy seems to work." Sometimes, she'd put on a recording of Abu Bakr al-Shatri, her favorite Quran reciter, which seemed to calm him. Sumaiya herself would find her own peace when she read her favorite sura, "Al-Rahman," or "The Benevolent One." "When I'm stressed, it just reminds you of how much you have," she said. During that year of being shut in with a baby in a London suburb, the sura provided Sumaiya a window to wider vistas. Detailing the creation of the universe, it stretched her vision past baby bottles and colic remedies. "The way our lifestyle is here, you don't often see the sky," she said wistfully. "With all the modern technology, we sometimes forget the original things. If the electricity went out, Europe would grind to a halt. But listening to "Al-Rahman," you're reminded of how much you have. How perfect it is." It's simpler to remember this bounty of nature back in Jamdahan, "where the sun is hot, and the day's timetable works with it," sitting in the courtyard, or watching dawn or dusk from the roof.

When I get home from Sumaiya's house, I open to the sura "Al-Rahman," whose steady beat mirrors its stern logic:

And the Benevolent One has set the earth for creatures,
with fruit there, and date palms with spathes,
and grain with stalks, and fragrant herbs.
Now which of the blessings of your Lord do you deny—
having made man from clay, like earthenware,
or having created the sprites from a mixture of fire—
which of the blessings of your Lord do you deny?
Lord of the two Easts and Lord of the two Wests—
which of the blessings of your Lord do you deny—
having loosed the two bodies of water to meet
without overflowing a barrier between them—
so which of the blessings of your Lord do you deny—
owner of the ships under sail over the sea, like mountains—
which of the blessings of your Lord do you deny? (55:10-25)

The Quran is known as "A Book of Signs." Aya means "verse" in Arabic, but it also means "sign," and just as every verse of the Quran is a sign, so, too, is nature. The Milky Way, a birch tree, a breeze, all are made to guide humans toward belief. To read these signs was not just to believe, but to appreciate, just as "Al-Rahman" demanded.

Spending time with the Sheikh and his family, I was struck at how grateful they were for small things, and how often. In Sumaiya and her sisters, I saw none of the vague dissatisfaction I'd seen flourish around me—indeed, in me, growing up. As a member of the American middle class, I was raised in a nation of strivers, a nation founded on the right to pursue happiness. Our discontent was productive. It got things done. The drive to do better propelled you through graduate school and up career ladders. Through spin classes and salary

populations with sharia laws, parents won't teach their children morals by being ultrastrict. "People should have the right to do wrong," he explained. "You need to give children their space, and to teach them well. And it is up to them whether they do good or not."

When Sumaiya graduated from university, her parents began pointing out a young student in her father's weekend hadith classes. "My dad sort of told me to check him out," grinned Sumaiya. "Every Sunday, my mom would say, 'Go see how he looks! His beard is this length! His glasses are like that.' And I was like, 'It doesn't matter what *you* think of him, Mom!'"

The couple married five years ago. "I don't think anyone else could be better for me," said Sumaiya. Had she been engaged back in Jamdahan, she would have been lucky to be allowed a single glimpse of her groom before the wedding; her parents didn't meet before theirs. Sumaiya was allowed a few chaperoned meetings before the engagement, during which she couldn't find any basis to reject him: "We ended up together on the basis of, 'How could I say no?'"

She could have, of course. Islam does not allow forced marriages. Like her father, Sumaiya believed that everyone has the right to make individual choices. But like him, she was conscious that people needed limits, and she was skeptical about the culture of individualism that dominates Western life. It starts so early, she marveled: "Even in nursery, in Show and Tell, there's a sense of 'Look what *I've* got.' There's all this emphasis on the fact that it's *your* thing and *you're* showing it off."

I'd never thought of Show and Tell as baby's first building block of individualism, but seen through Sumaiya's eyes, it suddenly seemed like an early foray into the culture of the self. The monogrammed towels, vanity license plates, and sloganeering tote bags would follow—a lifelong parade displaying one's own distinctiveness. If Western culture has the laudable goals of speaking up and standing out, these values also bring collateral damage: the cult of personalization.

"In this country, we're constantly getting drilled, 'This is your life, and you do with your life what you want,'" said Sumaiya. When she was in the hospital giving birth to Asim and the doctors wanted her permission for a procedure, "They kept saying, 'We need your consent,'" she recalled. In the middle of labor—"not in the frame of mind to go through the pros and cons!"—she referred them to her husband. "But they kept saying, 'It's what *you* want.' And I was like, 'I *want* you to ask my husband!' But they wouldn't: they needed my consent! You can be a woman in labor, or a drunk person—someone hardly fit to answer—and they still ask for your consent!"

For Sumaiya, the incident showed the chasm between the Western secular worldview and her own. She was puzzled by anyone who thought they had a sense of ownership over their own fate, or even absolute ownership over their own body. Everything belonged to Allah. "You don't have this attitude that 'I do what I want, because it's my life,' because the first thing you're taught is that it's not your life," she said. "We believe you've been given this body to look after."

That said, Sumaiya isn't beyond making temporary adjustments to the body that's been entrusted to her. Recently, she decided she wanted to color her hair, something her father, when asked, had said he'd prefer she didn't do. Still, Sumaiya, like every Muslim, was free to seek out any scholar's opinion that she

It helped that they always came directly home at the end of the school day. Akram saw school as a place one went to learn, not somewhere to loiter around doing gymnastics or drama club. There were no birthday parties for the Akram girls. To throw a party for something that Allah did—making a year pass—was to take credit for the divine order. Real achievements were celebrated, so the girls got parties in the backyard when they finished reading the Quran. Aisha, the Sheikh's youngest, made it through the scripture at the extraordinarily young age of five, so her party featured a bouncy castle and cupcakes. She shared the festivities with Fatima, who is six years her senior: "Yeah, she was reading it, and I was too, and when I heard she'd finished it, I thought I'd better hurry up," grinned Fatima. "Everyone said the party was for both of us, but..." Fatima's face suggested she knew better.

On weekends, the family used to pick a place out of the *Road Atlas to Britain* and get in the car to explore. There were picnics, and once, horseback riding. In the summers, after dawn prayers, the family would walk to the local park to play badminton or tag. In the evening, they'd have Chat Time, when Akram and Farhana would sip tea and the girls would come down from their rooms to join them. For a time, there was a TV, and the children would watch cartoons and Farhana would watch Indian soap operas. After a while, Akram began noting loudly that nobody had time to talk with one another, or to him. "One night, after one of these comments, my mother took the TV out of the wall and decided to get rid of it," recalled Sumaiya. She put it outside with the garbage, for collection.

The next morning, thinking better of it, Farhana went to retrieve the TV, but it was gone. "As always, my father got what he wanted without having to say or do anything!" laughed Sumaiya.

The TV incident was the Sheikh's *modus operandi* at work: suggest, don't demand. "He'd never shout," she recalled. "He'd be quiet, which was worse. And he never told us to do things directly, but somehow we'd end up doing them anyway."

In parenting, as in other matters, the Sheikh's watchword was *sabr*: patience. "People should not expect what they want at the moment that they want it," he told me. "Things should happen at the moment that God wants. If I want my children to behave properly, even if I become annoyed, I have to think, 'Okay, if not today, then tomorrow, and if not tomorrow, then sometime.' The fruit should come when God wants. If you can control your desire, then you will get what you want."

There were no real rebellions anyway. "My sisters and I didn't have teenage-hood," shrugged Sumaiya, who thought perhaps she might have slammed a door a couple of times. "At school, I had no clue what went on. When girls talked about how they'd been out the night before at a club, I used to just ask, 'How did your parents allow you?'" she recalled. "And when they would tell me that their parents didn't allow them out and they just snuck out, that was shocking. I would be like, 'But your parents would be so worried about you! They must have been waiting up for you!' And they'd be like, 'It's just normal to not tell parents where you are.'"

There was never any question of the Akram girls going clubbing or dating, but the Sheikh did believe that children needed freedoms. Just as Islamic governments will inevitably fail when they try to legislate piety into their

here: a busy husband with a spouse cut off from her home and culture. Farhana, I decided, was suffering from the misery of exile. Weighed down by domestic drudgery. Imprisoned by tradition.

Such was my attempt to stuff her into a grand cultural narrative. Not long after, I realized that my vision of her as Virginia Woolf's Angel of the House was a flight of fantasy.

As it turned out, she had a headache that day. I would later learn that instead of the dutiful housewife I'd imagined I'd seen, she was a lively and respected member of the Muslim community who did charity work, ran her own sewing business, and possessed an impish sense of humor.

As it turned out, had I spoken Urdu, I could have enjoyed her quick wit. ("Mmm, this pasta is delicious," a lunch guest once told her. "Who made it?" "The Sheikh," she said. "Really?" said the student. "No, not really!" Farhana quipped. "You think the Sheikh would have cooked this?")

The next time I came to stay, Farhana's face glowed. Downright girlishly. She chortled as she tickled her grandchildren, rewarding them for good behavior with tenpence coins from her purse. I was staying the night, so when I unpacked and showed her the new pajamas I'd just received for my birthday, she wheedled me into modeling them for her.

* * *

It took a meeting with Akram and Farhana's second-eldest daughter, Sumaiya, to get a sense of the fortitude it had taken for Farhana to raise her six children in Britain. When Sumaiya was young, it was Farhana who took the girls to school and who was home waiting for them when they returned, who cooked their meals, washed their clothes, disciplined them. "My dad's work wouldn't really have been possible without her," observed Sumaiya. "He would have had less time to write the books, to travel abroad, to teach or lecture. She's made lots of sacrifices."

Sumaiya, a confident woman in her late twenties, was proof that the sacrifices have paid off handsomely. Married to a medical student, she was the mother of a nine-month-old boy, Asim. When I went to visit her at the family's suburban house in London, she was dandling Asim while cooking a multicourse lunch for us, just having run batches of food over to her ailing in-laws. All this while helping her father organize lectures and debating rival offers to pursue master's degrees at two prestigious London colleges, one to study Arabic, the other to study history.

Though the Sheikh had six daughters, there was never any question as to whether his ambitions for their education were in any way diminished because they were girls. "The Prophet," he told his students, "never liked anyone who treated women differently from men." Then he'd tell them about the time Muhammad saw a man arrive with his two children at one of his lectures. The man set his daughter on the ground, but then he kissed his son and sat the boy on his lap. The Prophet went up to the man and pointedly asked, "Why did you not treat them equally?"

The Sheikh began teaching the girls Islamic subjects while they were still in grade school. Mornings, they studied Arabic for an hour, and in the evenings they would study hadith and the Quran for two or three hours, on top of their regular schoolwork. The Sheikh would sit with them from five to eight every evening while they completed their work.

daughters went upstairs with Aisha to see the family hamster, I tried to find out more about Farhana, with Fatima's help as translator.

Farhana had grown up in a village about a half hour from Jamdahan. "What did your parents do for a living?" I asked. "Were they shopkeepers, like Akram's, or farmers?"

"Farmers."

"And did you go to madrasa, like your husband?"

"There was no madrasa in her town," translated Fatima. "The school stopped at year four." That meant that her education had ended at age nine.

"How old were you when you married?"

She held up ten fingers, then another six. She'd never seen the Sheikh before her wedding day: their elders had arranged the match.

Farhana's life had begun in a village, then had been stretched across the earth. Her story was not dissimilar from those of hundreds of millions of other modern lives. But that didn't diminish the enormity of quitting the green fields of Jamdahan, boarding a plane, and emerging into the hustle of Heathrow Airport. I thought of the lonely heroism it must have taken to leave her life in the courtyard in Jamdahan and to be set down alone in the unforgiving gray of Oxford, to raise her daughters in a strange culture, one whose language she didn't speak.

I tried another angle. In Jamdahan, I said, I'd heard that after dark, when nobody could see them, the village women used to go visiting by scrambling over the rooftops from house to house. "I bet Oxford must have seemed a bit ... lonely, at first."

A leading question, I knew, but I was dying out there. What, I pursued, did she miss most?

Her answer came, quick and sure: "My parents," she said softly. "My brother."

Both mother and father were now dead. Her brother was in Saudi Arabia.

"Ah," I said, delighted at this nugget of information. "What does he do in Arabia?"

A quizzical look.

"I mean, what job?"

A short burst of Urdu. "She's never asked," said Fatima.

Was Farhana's reserve cultural, personal, or both? Whichever it was, my curiosity about her life must have seemed to her to verge on the obscene. To display parts of oneself like shopwares, to allow a casual visitor to rifle through memories, to pick them up and inspect them—this was an alien culture of individualism. Hoping that she'd get to reminiscing about her childhood, I asked what sort of games she'd played as a kid. She regarded me warily.

"Is this going to be in the book?" she asked, smiling in sweet exasperation.

"Um—no, not if you don't want."

I knew I should have drawn the interview to a close but could not resist asking which of her husband's lectures had been her favorites, which themes spoke to her most deeply.

"She doesn't really understand them," said Fatima. "They're all in English."

I left lunch with a neatly framed image of Akram and Farhana's marriage. I'd read the news stories about first-generation South Asian women in Britain, ground down by isolation and tradition. I was certain I knew what was at work

"Their house was so clean!" Julia later exclaimed. "So tidy!" So spoke a kid whose own home was filled with the noisy chaos of a patchwork aesthetic, a place stuffed with oriental carpets and Egyptian copper and Pakistani mirrorwork. All beautiful, but also all testimony to the magpie tendencies I'd inherited from my father. The simplicity of the Sheikh's house shocked Julia. It reflected a sensibility of certainty; the surroundings suggested the residents' streamlined spirit. Like a magazine devoted to simplifying your life, or one of those stores selling organizers for your closet and kitchen, the Sheikh's worldview had an appealing promise of order about it.

Looking at the luminous "Allah" on the wall, I was reminded that this order was built solely out of words. Among non-Muslims, it's a cliché to say a writer or poet is immersed in language. But a secular relationship to words, passionate as it may be, doesn't begin to touch Akram's. His life is built of them. The divine words of the Quran provide the bedrock of his existence. Growing up in a village without TV or movies or billboards or museums, he received all information of the outside world verbally, either on the radio or on a page. As a young boy, Akram learned about the world from the Quran, and later, from books of Persian poetry. When he went off to Nadwah, his immersion in words only grew, through his study of classical Arabic grammar. A core subject in any madrasa, it provides the Islamic scholar tools to parse the meaning in Allah's pronouncements.

Poetry was his sole artistic pleasure—his *Star Wars* and his *Citizen Kane*, his *Sergeant Pepper* and his *Mona Lisa*. His memory stored reams of verse, so he'd often lace his lectures with a couplet from Saadi, or a bit of a Hafez *ghazal*, to drive home a point or revive flagging attention. And daily, after dawn prayers, he allowed himself a few moments to read a poem or two. "Poetry," he once told me, "makes the heart soft, especially when read in the morning."

* * *

The Sheikh's wife, Farhana, was in her forties, with a moon-round face. She struck me as having the solid air of a woman who has shouldered her lot in life and trudged with it uncomplainingly. She spoke little English, so we relied on fourteen-year-old Fatima to translate. After we arrived, Farhana appeared briefly, hugged me, then hustled back into the kitchen to prepare lunch. We sat on sofas opposite Fatima and Aisha, both in pink, with their long hair left uncovered, since there were no men around. Julia and I flapped and jabbered and queried. Yes, they were enjoying their holiday. Yes, Aisha liked Jacqueline Wilson books, just like Julia.

To cultivate modesty, the Sheikh was sparing in his praise of his daughters. Whenever the girls came home with good grades, he would tell them they'd done well, but then he'd invariably ask: "Is there anybody better than you?" He wasn't acting on the competitive instincts of a Tiger Parent, but rather from a concern with God-consciousness, *taqwa*, and the humility it required. "Don't be proud of your children," he counseled. "Never be proud. If they do well, just say, 'You have done this favor upon me, O Allah. Everything is from You anyway.'"

The lunch table was quiet; there was only the sound of clinking plates and cutlery. Farhana had filled the dining table with platters of curried fish and rice pilaf and mini-pizzas. She sat at the head of the table, not eating herself until she saw that we had started. Watching her, I thought fleetingly of the Angel of the House, the self-sacrificing Victorian wife that Virginia Woolf conjured: "If there was chicken, she took the leg ... If there was a draught, she sat in it." When my

seemed drenched in icky pink suggestiveness. The Jamdahan adults would take a dim view, I was sure, of the Amazing Makeover Barbie. I chose coloring books and crafting kits. As it turned out, I needn't have worried: I later found a fatwa from a respected sheikh waiving the usual strictures on idols and statues in the case of children's toys and dolls.

Unlike their cousins in Jamdahan, the Sheikh's children speak English, which made picking gifts easy. I'd seen the Sheikh's youngest, nine-year-old Aisha, reading a Horrid Henry book during her father's lectures. My own nine-year-old, Nic, was a fan, and so we brought her a few. I also packed a copy of *Little House on the Prairie*, not merely for the pleasure of inflicting a childhood favorite on others, but because the Sheikh's Oxford life frequently reminded me of Laura Ingalls Wilder's tales of American pioneer life. Like the Ingalls family, the Sheikh and his wife, Farhana Khatun, were raising a family in an uncharted landscape. All immigrant parents do this, of course, but the couple's moral code made the similarities more striking. It wasn't simply that the Akram family's entertainments—from playing I Spy to making checkerboards out of cardboard and buttons—were nineteenth-century wholesome. Both the Akrams and the Ingallses had a moral architecture built of privation, hard work, endurance, and above all, a fear of God.

On the appointed day, we marched up to the brick house with white trim, past the family Volkswagen, and rang the bell. I'd briefed Julia and Nic on the bus from London. We'd just be seeing the Sheikh's two youngest daughters and his wife. There wouldn't be video games, or pasta on the menu. I trotted out the standard speeches about being on their best behavior and remembering their manners.

They did, bless them. The only gaffe I detected came not from rudeness but an excess of enthusiasm. At the last minute, Nic had decided to bring her own gift for the Sheikh's daughters: a palm-sized snake figurine she had won the day before on the two-penny game at the amusement arcade on Brighton Pier. As we walked in the door, she pulled it out of her jeans pocket and thrust it toward a perplexed Aisha. "This is for you!" trumpeted Nic. "And I got it"—arms thrown out, legs planted in a conquering hero stance—"from gambling!"

I winced. Gambling is *haram*, the Quran explicitly warning that "Satan only wants to sow hostility and hatred among you with wine and gambling." Yet here was Nic, barely inside the front door, bragging about her takings like the whole cast of *Ocean's Eleven*. Boasting, too, was un-Islamic. "Don't swagger around on earth," cautioned the Quran, "for God loves no pompous braggart / And moderate your stride, and lower your voice."

To my relief, Aisha and Fatima either didn't notice or were just too polite to comment. Besides, Nic's bumptiousness was soon drowned out by our admiration of the house. My eleven-year-old daughter Julia exuded high-gear politeness, like a Victorian vicar's wife hopped up on sugar. "So much light!" she exclaimed. "So lovely! And you have a garden! Isn't it lovely?"

It was. They'd redone the living room since last I'd visited, and the effect was unwittingly chic. Dingy carpet had been stripped away in favor of wooden floorboards. Teacups dangled neatly on hooks in a china cupboard. The bright white of the walls glowed in the sun, making the room's sole decoration mesmerizing in its simplicity. It was a single word, in elegant calligraphic black: Allah.

PART TWO

THE HOME

6

Pioneer Life in Oxford

Home is where one starts from, said both T. S. Eliot and the Sheikh. A good Muslim home makes for a good Muslim life, said the Sheikh, whether in Las Vegas or Lahore. Particularly since the era of Western imperial expansion, the home has remained perhaps the most hotly contested arena in Muslim cultures. For centuries, there have been tensions between conservatives and modernizers revolving around family life, and women's and men's roles in it. Almost invariably, the issue is framed around women's rights. Muslim societies might build glittering skyscrapers, depose their despots, retool their banking and trade laws, but customs and laws regarding women's roles remain largely unreformed. Whether in debates over women's dress or their rights to go to school or work or to choose their husbands, women have been the front line in the jihad, the struggle, between tradition and change.

Protecting women's honor proves an emotive rallying cry for traditionalists, from the Taliban to conservative Saudi clerics. At times, Western powers have used the cause for their own agendas, making much of liberating Muslim women during foreign wars. For both modernizers and traditionalists, the status of women is a barometer for a country's mind-set. Conservatives have long cast women's liberation as a newfangled import from the West—or, worse, an imperialist plot. Women, opined a postrevolutionary Tehran weekly, are the stealth weapons of colonialists; "the best means of destroying the indigenous culture to the benefit of imperialists."

The Sheikh's masterpiece collapses the opposition between women's rights and Islam. All forty volumes of his work, *al-Muhaddithat: The Women Scholars in Islam*, stand as proof that women's freedoms are intrinsically part of Islamic traditions, and have been for centuries. Much like the work of Islamic feminists, his discoveries underscore that it is often patriarchal culture, not Islamic tenets, restricting women.

My conversations with the Sheikh about gender roles were by turns reassuring and disconcerting. On women's rights to study and work, and on disrupting outdated gender roles for housework, the Sheikh's beliefs nearly matched my own. Sometimes, the limits of his vision could shock. Other times, examining his worldview forced me to reexamine my own. If my readings of the Quran showed me what the Islamic tradition allows, spending time with the Sheikh and his wife and daughters allowed me to see how one family actually lives that tradition.

* * *

We needed to take gifts, of course, the day I took my two daughters for lunch at the Sheikh's. I'd learned that lesson in Jamdahan, where the largesse of the Sheikh's sisters had overwhelmed both me and my suitcase. I'd returned to Britain with diamanté jewelry, embroidered shawls, and *shalwar kameez* sets, but reciprocating had been tricky. I wanted to send toys to his nephews and nieces, but I didn't want to contravene Islamic restrictions on representations of the human form. The ban on idolatry made the toy section of Amazon.com a minefield. Anything involving action figures was out, and everything for tweens

circumstances, uncomplainingly? Such virtues hadn't been fashionable since before the French Revolution. Where I come from, claiming dissatisfaction with the status quo was just something everyone did. "Think Different," counseled Apple ads. "Question Authority," said the bumper stickers.

When I got off the train from Liverpool and crossed King's Cross Station, I saw a young man who reminded me that one could practice piety and accept one's place despite modern distractions and Western dissatisfaction. People streamed off trains toward heaving city streets and poured into the station's restaurants and chain stores. The man was silent, standing apart. Under an arch in a corner of the station, he had put down his overnight case, rolled out a mat, and begun praying. The crowds hustled by. Credit card machines whirled. Glasses clinked in cafés. On his mat, with his prayers, he had found a separate peace.

As I watched the young man in King's Cross, I realized how Akram had made Lucknow, and now England, his home. Prayers were a home, even far away from one's homeland. A five-times-daily return to origins, no matter where in the world one found oneself.

master's wife gazed at him in a most improper way, Western Muslims needed to practice mindful pragmatism. A *hijab* was important, but even if one was banned from wearing it in an office or school, as French Muslims were, nobody could take away what was far more important: your faith.

With this in mind, he tried to be flexible when people approached him for fatwas on life in Britain. To be a skilled mufti, or legal expert, you needed two traits. First, one had to remember that "if people come to ask you for a fatwa, they're not criminals." They've come either to repent for something they've done, or to ask for guidance on how to do it. A mufti's job, believed Akram, is to provide solutions, not obstructions. "To say *haram* [forbidden] is easy," he said. "Everyone can say '*haram*.' What's harder is to find a solution."

To live in Britain—indeed, to live anywhere in the world today—required a certain flexibility about Islamic laws. He drove a car. Technically, he shouldn't. Cars weren't *haram*, obviously, but drivers' insurance was. Most interpretations of sharia law see insurance as just gambling on the future, and thus it is forbidden. But British law required drivers to have insurance. So here was his fatwa: British Muslims could indeed get drivers' insurance and still be good Muslims. As long as one observed the cycle of *taqwa*, necessary compromises on issues like insurance weren't a big deal.

The Sheikh had little patience with showy gestures of piety. Too often, sharia laws and other draconian measures were simply showcases of religiosity rather than the real thing. Elaborate Islamic finance schemes promising to avoid *riba*, or interest, were exercises in finding loopholes, not practicing piety. A woman who wore a *niqab* but wasn't nice to her neighbors had missed Islam's point: true belief comes not from the right clothes, but from submitting to God. Purifying the heart, that was crucial, not loud proclamations of Muslim identity.

In his own life, the Sheikh worked to avoid excessive display. Even as his acclaim grew, Akram refused any hint of showiness, a striking attribute in an age when the TV and the Internet have made some of the ulama into celebrities. "When other sheikhs give lectures, they often come on first-class tickets, with entourages, staying in the best hotel in town," Akram's student Arzoo had told me. Akram arrives alone, via bus or train, or he drives himself. "He's so humble," she remarked admiringly, "he almost goes unnoticed." Many scholars dress in specialized attire marking them out as sheikhs—turbans or robes, or frock coats and karakul caps. Akram rarely wears such garments. "I don't like to wear clothing that sets me apart from the people," he told me. He doesn't say so, but he's keeping with the Prophet Muhammed's habit of dressing in the same coarse and simple cloth as his Companions.

The Sheikh thought that all this energy expended on showy Muslim identity, on Islamic political parties, on worrying about the requirement for beards and hijabs, was proof of just how far many had strayed. "When people come far away from the purity of the religion, the outer aspects of the religion become identity," he explained. "When you have *taqwa*, you don't need fatwas." Change yourself, he counseled, not the system. It really doesn't matter where you are, whether you're in Liverpool or Lucknow. Pray. Reach out to non-Muslims. Work. Smile. Don't complain. Use the space you find yourself in wisely, and Allah will take care of the rest.

This call to endure sounded downright countercultural to me, trained as I was in the West to strive for More, Better, New, and Now. To accept your

To do otherwise, he went on, was to court disappointment. The problem with many Muslims today: they were too concerned with their immediate conditions, and not concerned enough with their *taqwa*. "For a long, long time, Muslims have been very concerned with the space. We think, 'If I had a better space, it would be better.' The Muslim reformers think, 'If we had the caliphate, it would be better. If we get a Muslim state, it will be better.' Are there Muslim states?"

Nods from the crowd.

"Are we better?"

Silence.

In Egypt, Muslims said that when the Muslim Brotherhood took charge, all would be well. All is not yet well in Egypt, said the Sheikh.

Or, he said, just as sternly, there are the Muslims who contemplate *hijra*. The term, which means emigration, refers to the Prophet's flight from Mecca to Medina, to try to find a place where his Companions could worship freely. Today, some Muslims invoke the concept of *hijra* in their own lives, aspiring to move from non-Muslim environments to Muslim ones. "We think, 'The people around us, they are not Muslims.' We think, 'If we go to Saudi Arabia, it will be a better country.' Go to Saudi Arabia ... and you'll see there's no freedom!"

He went on. All the complaining, all the protests that the Muslim world had seen over the last century were counterproductive. India's Muslims thought they'd be better off when they got a proper space of their own? Well, they got Pakistan—and look how well that turned out. After the great struggle by Indians to get the British out, after the traumatic slicing up of territory to create Pakistan, what did the children of these freedom fighters do? "They're all running away!" he said. "They all want to leave Pakistan and come to live in the UK!"

All this energy spent looking for the perfect space in which to create the ideal Islamic state, and yet the Muslims living in so-called Islamic states were desperate to get to the West. Only last year, he'd met a scholar from Mecca—the epicenter of Islamic civilization—whose great aim was to go work in the United Kingdom. All time wasted: "When you come to the space given to you by Allah, don't complain!" he exhorted his students. "Learn how to use it. Think!"

Besides, he pressed, did living in the West prevent you in any way from being a good Muslim? "Tell me," he persisted. "Is any government stopping you from being pious? When you are in the mosque, is anyone stopping you from being pious? Do you really need an Islamic government to make your house pious?"

Days after the lecture, when we talked on the phone, he continued on this theme. The real problem, said the Sheikh, was not the British, but the Muslims themselves. Without the purity of intent of the Prophet and his followers, *hijra* was a hollow gesture. The other day, he said, a French Muslim asked him about the French government's ban on the *hijab* in public places. Would it be better, he asked Akram, if French Muslims emigrated someplace where they could practice their faith properly? Akram sighed. "These people are making a big thing out of nothing," he said. "I ask these people, 'Is the French government coming into your home? Into your heart? Preventing you from fearing God? Is it stopping you from being pious?'"

For Akram, the Yusuf sura was a primer on how to live a God-centered life in a secular world. Just like Yusuf, who managed to stay pure even as his

cycle going on," he intoned. "Whatever circumstance. You are in prison, you are a slave, you are a master, you have parents, you don't have parents, you are married, you are not, you speak Urdu, you speak English. Whatever space you have been given by Allah, thank Him!"

Consider Yusuf, he went on. "He was in the well. Did he complain? He was sold into slavery. And did he complain? He was sold as a slave in Egypt, then put in prison, what could be worse than that?" Yusuf taught us stoicism whatever happened. When he was thrown in prison on a trumped-up charge, "Did he write something in the newspapers?" asked Akram. "Did he go to the media?" To change your situation, tend to the cycle, resist temptation and pray to God. Once you do that, "any space will be turned in your favor." To be sure, he added sternly, *taqwa* takes work. "If you want *taqwa* to come to your house, you will make effort," he said. "It's not magic. Every value is connected with labor. You work hard, you get it."

Herein lie the seeds of political quietism and a docile population, I thought to myself as I tried to copy down Akram's torrent of words. Akram's formula felt entirely alien to someone raised to believe she was more or less master of her own fate.

We broke for lunch, and I went for a sandwich with a group of women from the audience. Most were all British-Asian and British-African students, the daughters of parents who had migrated from South Asia or East Africa for better lives in Britain. They were confident young women, most pursuing medicine or dentistry degrees. One student, Aisha, was Chinese, a recent transplant who wore tights under microshorts and no hijab. Exceedingly cheerful, Aisha assured me she adored Liverpool. Finding the university's Islamic society, she said, had been vital. When I asked her if she was homesick, she shook her head vehemently: "Not at all."

Reflecting on it, I could see how Akram's space-cycle model could comfort a migrant, homesick or not. In recent decades, terror analysts have suggested that the dislocations of the migrant experience helped create conditions for breeding extremism. Ripped from their ordinary contexts and networks, migrants are often vulnerable to being recruited by Muslim extremist networks. Greatly simplified, the theory goes as follows: The children of the migrants, at home neither in the culture of their parents' homeland nor in the West, find a cultural home in the mosque. Radicals, savvy to the vulnerability of this in-between generation, target these lost youths as recruits.

Yet here Akram was proposing an entirely different response to the challenges posed by a fragmented world: prayer and acceptance. Reading the sura, I could see how Yusuf's endurance, as he is bounced from slave market to jail, spoke to millions of Muslim migrants. To the Mumbai-born day laborer in Dubai, or the Punjabi gas station attendant in Texas, or indeed to the Lucknawi sheikh missing his old madrasa, the *taqwa* cycle gave control over circumstances. The conscious practice of patience and faith lent dignity, comfort, and meaning to lives spent far from home. For those who had to tell themselves that it would be just one more year before they went home, it served as an engine. The men who'd promise themselves daily that they'd quit the Gulf after just one more season, after earning just another thousand dollars, got strength from *taqwa*. "Every time when the sun rises, think what Allah is," said Akram. "Do what he commands. And the space will be changed."

scholarly gifts? It was only years later, when I heard the Sheikh teach the sura on Yusuf, the Quran's chapter on the Prophet Joseph, that I began to understand. What I'd first dismissed as passivity was revealed as something far more purposeful: a muscular submission. Yusuf, one of twenty-five prophets mentioned in the Quran, was the Bible's Joseph. My own vague sense of his story, culled from an old DVD of Donny Osmond in *Joseph and the Amazing Technicolor Dreamcoat*, was of a man with great clothes and horrible brothers. Akram read the story rather differently. In it he found the tools to endure wherever he happened to find himself: humility, patience, and adaptability.

The Sheikh gave his Yusuf seminar at a university in Liverpool. Waiting for the lecture to begin, I skimmed through the Joseph sura. I could see why Andrew Lloyd Webber saw a hit in it. A noble and handsome hero endures family breakups, treachery, murder plots, lust, and sudden reversals of fortune. A synopsis of the Quranic sura: As a young boy, Yusuf has a dream of the planets and the moon and sun prostrating to him. The vision is a sign, realizes his father, that the child is a prophet. Jealous over what they see as their father's favoritism toward Yusuf, his brothers try to kill him, throwing him in a well and claiming he'd been devoured by a wolf. A passing caravan rescues Yusuf, and when it reaches Egypt, he is sold as a slave to a rich and powerful man. The handsome young slave catches the eye of his master's wife. When she attempts to seduce him, he resists: "He desired her, but for the fact that he saw evidence of his God." The women of the city begin gossiping about the grandee's failed seduction of a poor slave boy. To save her reputation, she has him thrown in jail. There, Yusuf interprets the dreams of two fellow inmates, and when word of his ability to read the meaning of dreams reaches the palace, he is called to interpret one of the king's own dreams. Impressed, the king grants Joseph a high position in government. By the sura's end, Joseph is eventually reunited with his family. He forgives his brothers and restores his blind father's sight.

The Quran tells the story vividly, particularly the scene in which the master's wife attempts to seduce Yusuf. So vividly, in fact, that one Muslim scholar forbade women to learn it. Luckily, Akram disagreed. The fatwa against reading sura 12 was unsound, he said, likening it to other fatwas designed to limit women's rights, like the one banning women from learning to write on the grounds that they could write love letters, or from living on high floors lest they be seen from outside. "Nothing in the Quran is for the men or for the women," he emphasized, peering out at the crowd. "It's for men and women both."

We opened our Qurans. From being a slave and a prison inmate to being a king's right-hand man, marveled Akram. Such a change in circumstances—and all because of piety. On the whiteboard next to him, the Sheikh drew a line. Next to it, he sketched a circle. The line represented your space, the environment in which you find yourself. The space could be anywhere—a well, a prison cell, a state ruled by a despot, or a foreign country. Next, he pointed to the circle. That symbolized the cycle of a Muslim's life, the steady beat of night and day, ticking away, for as long as God chose to keep you on this earth. The space you found yourself in was not in your control, said Akram. The cycle was. Your circumstances were given to you by Allah; using the cycle of your days to practice *taqwa*, or love and awe of God, was your job. Tend to this cycle of faith, said Akram, rather than worrying about your circumstances: "Any condition, even the worst condition of life, will result in something better if you keep the

didn't mean he should leave his family and suffer homesickness? No doubt there'd be a professorship waiting for him in India, if he wished. He'd be closer to his parents, his wife would be nearer hers, and he'd have the camaraderie of Nadwah he so adored. Raised on the doctrine of the pursuit of happiness, I found his unwillingness to move entirely mysterious. The daughter of an American nomad, I just figured a person could always cut loose and move on until he found contentment. I had never doubted the centrality of the self in one's own life. As a toddler, I had lisped along to the *Sesame Street* song, a true believer: "The most important person in the world is you—it's you, and you hardly even know it!" My parents and teachers had drummed into me how intensely special I was, just as millions of other darlings were told they were special, too.

Akram did not subscribe to the American cult of specialness. Once, he had asked me to help him write a letter of recommendation for a former Nadwah student of his who wanted to do graduate work in Scotland. Akram's English remained pretty rudimentary, so he'd supply the facts, he suggested, for me to render into a reference. The details he offered were sketchy: the student in question had done well in his classes in *fiqh*, hadith, and the other madrasa subjects. "All the usual things," said Akram. "A good student."

Just "the usual things" wouldn't dazzle the admissions committee. We'd need originality, I'd explained earnestly. At the very least, we should convey a sense of this person's unique intellectual gifts, the ones that would make him stand out from a tall pile of applicants. Was this student, perhaps, extraordinarily perceptive about currents in Islamic philosophy? Did he have a particular feel for medieval jurisprudence? Akram looked puzzled. I tried another tack. Perhaps he'd enrich university culture, I prompted. Did he have interesting hobbies? Any sporting prowess? Akram smiled, and shook his head. My forays went further. Given the chance, would he perhaps help build cultural bridges between Muslims and non-Muslims in Scotland? Had he overcome any particular hardships in his past?

Nothing. Akram didn't quite see the point, all this scrounging for his student's individuality. Trying to plot the salient points of a Nadwah seminarian's life on my own neat little graph of American-style achievement just didn't work. For Akram, it was simple enough. His student had mastered the curriculum. That should suffice, surely, to allow him to continue his studies.

But I felt we needed a story of sorts. I lived in the age of Oprah. My passion for personal narrative came as easily as breathing. To get into a good school, to land a prestigious job, or to be valued at all required presenting the world with something new and unique. I was musing on this one day with my former colleague Iftikhar, whose University of Chicago days had exposed him to the American quest for originality. In traditional madrasas, the groves of academe weren't quite the same, he explained. Islamic cultural history prized continuity and precedent, not rupture. Most Muslims believed that the best generation had been the Prophet's, and each successive generation had gone downhill from there. He went on to tell me a story about an Islamic scholar who, after years of work, had at last finished his magnum opus. "And what's more," proclaimed the scholar proudly, "there's not one original word in the whole thing!"

* * *

Why on earth, I remember wondering, would Akram remain in Oxford, suffering loneliness and the British rain and working on a job that wasted his

"I'm going to the eye hospital," he told me. He'd had a headache that had lasted for several weeks. "Weeks?" I asked. "But how have you managed to work?"

"It's not so very bad," he said. "It is painful, but I can still read."

Just then, for example, he was rereading the medieval theologian Ibn Taymiyya.

Once, the Atlas team went down to London for a day to look at the antique map collection at the India Office Library. We watched as a white-gloved curator unfurled a yellowed strip of paper, which turned out to be a Mughal strip map showing the road between Delhi and Kandahar. Whereas standard maps show places in relation to one another in a plane, this one showed a road, and almost nothing but the road. Two elegant lines in spindly black ink, it included the occasional marker—a boulder or a tree, a shrine or a town. These were signposts, but the road was the real thing. What lay beyond it was of little concern. It was a map for a traveler who chose not to indulge in his peripheral vision, for someone who had no use for distractions. That, I remember thinking, is a map for a man like Akram.

* * *

Oxford's prestige didn't daunt Akram. It was just the place he found himself in, and he was neither hostile to it nor particularly impressed. The manicured lawns were just grass, the spires and courtyards mere stone. For Akram, it was simply a place to work, as his sheikh had suggested, and pray, as God commanded. Nobody else I knew in Oxford had such a steady compass. The project we worked on was massive and multivolumed, lavishly funded by prestigious American grants. The Centre touted it to visiting dignitaries as a happy marriage of high-tech methods and high-minded scholarship. Eager to cross the chasm between the university and their fledgling institution, the Centre's administrators would put on their black academic gowns to dine at High Table with their fellow dons. Every couple of months during my two years working at the Centre, I'd done so as well, crossing town for an evening of the traditional trappings of Oxford: lectures by scholars I'd seen on TV, dinners with good port, bright silver, and the tense and shiny exchanges of insecure students. Akram never ventured out of the Centre and into the university except to use its libraries. As Akram focused on his books, the Centre tunneled into the heart of the British establishment. Prince Charles became a patron not long after he visited, and he later awarded it a royal charter. The Centre's director was eventually made a Commander of the Order of the British Empire. The Sheikh remained impervious. He would perform his duties at the Centre, then go home to his real work.

At twenty-four, I found Akram's indifference incomprehensible. I was ambitious in the standard mold of a privileged American—for myself, for my career, for "experience," whatever that was. At work, I wore my skirts as short as I could get away with, fancying myself pretty daring for bringing the outside world into the Centre. "You'll be good for them," a silver-haired Centre administrator assured me when I asked whether the more traditional Muslims might mind me, a woman, around the place.

As I ran around Oxford, scrambling to assemble a self, Akram seemed curiously content. His calm acceptance of his exile from Lucknow baffled me. If he missed Nadwah so much, why not move back? Surely his sheikh's directive

Baghdad's. At Nadwah, worship and religious study had shaped the days into a continuum of faith. In Oxford, his fellow worshippers prayed and left, rushing off to their classes or their taxis or their corner stores. Once, I asked him what he missed most about Lucknow. "True friendship," he replied.

The Atlas team provided conviviality. One tea break involved a half-serious debate over how a Muslim astronaut would time his prayers in outer space. (The assembled scholars finally settled for allowing him to pray on Meccan time, once he was free from the earth's atmosphere.) David Damrel, a long-haired American expert in South Asian Sufi orders, would engage in a sort of duel of graciousness with the Sheikh, each trying to one-up the other in South Asian-style courtliness.

"You, Sheikh," David would begin, in his soft Southern drawl, "are the sun."

"Ah, Sheikh, you are so bright that you blot out the sun and the moon together," Akram would reply.

Since the two men shared an office, the Sheikh would frequently ask David about the oddities he kept discovering in Western culture. British women's propensity to wear what the Sheikh saw as "such small clothes" could be disconcerting. How, he once asked his officemate, did he handle the distraction? "I just figure, 'it's none of my business,'" David told him—an attitude that Akram readily embraced. British music was another puzzle. A street musician habitually played under the window of the Atlas Room, every day at the same time. After a few days of listening, over and over, to the same three songs, the Sheikh finally asked: "Is that good music?" Some Muslim traditionalists frown on music; the closest thing to songs the Sheikh had ever listened to were recitations of the Quran. Once, after he'd lectured in Liverpool, I asked him whether he'd heard of the Beatles. "When I came to Britain, I read many British philosophers," he said. "But no, I don't know these Beatles."

Akram stayed on in Oxford, and after a couple of years he managed to get visas for his wife and his two daughters, Husna and Hala. Four more daughters were born in England, British from their first breaths. At the Centre, other researchers came and went, from Europe or America, to help research the atlas of South Asian Islam. All were diligent, but progress on the project remained glacial. The research team kept changing, for one thing. Moreover, the Centre's director was frequently taken up with plans for a grand new building for the university skyline: a center that would marry the best of Oxford with the finest traditions in the Islamic world. The director would write funding letters to Gulf sheikhs and princes and have Akram translate them into Arabic. Akram did this uncomplainingly, just as he would translate the Centre's glossy newsletter into Arabic. Because he was asked, he attended seminars on topics he'd never even heard of at Nadwah, like Islam and the Environment or Islam and the Media. Because he was asked, he'd sip tea with the latest visiting scholar, or stand beside a benefactor while the visitor inspected the blueprints for the new building. He performed these chores without complaint. He may have missed Lucknow, but he lived in Britain without an ounce of self-pity. His self-discipline was prodigious, this man who would pray deep into the night, then rise before dawn to pray again. Once, I called him on his mobile and found him on a bus to London.

A Migrant's Prayer Mat

When I worked at the Oxford Centre for Islamic Studies in the early nineties, it was a flimsy prefab building off a back street in Oxford—not the sort of place I associated with giddiness of any sort. But one spring day, it seemed to hum. A tent had been erected, a red carpet unrolled, and fruit juices and cookies ordered. For on that day, a prince was due. Prince Charles—or, as the Centre newsletter would call him, His Royal Highness the Prince of Wales—was to visit. The Centre's administrators had spent weeks in preparation. Invitations were printed and caterers engaged. The phone lines were clogged, and fax machines spat out security clearances. All this bemused Akram, as did the breathless speculations of the young secretaries planning the event. The day itself had the vibe of a costume party for well-connected old men. Oxford dons assembled in their black academic gowns. Limousines from London disgorged mustachioed Arabs in flowing white *thobes*, the Gulf's traditional ankle-length gowns. British businessmen with slicked-back hair and tailored suits consulted one another in clumps, craning their necks, searching—in vain—for the sherry. When the prince and his entourage arrived, a hush fell, and heads bobbed in uncertain half bows.

Not Akram's. He stood ramrod straight in his gray *karakul* cap and his *shehrwani*, the buttoned black frock coat that is the traditional garb of an Indian *alim*. Standing a few paces back from the red carpet, he watched the prince mingle with courtiers. I was awed at Akram's cool. Like many scholars before him, he believed that the ulama should stay independent from royal courts of any kind. But his dignity derived from somewhere deeper, I later realized. It wasn't just that he was unmoved by office politics or royal celebrity. Islam, for him, flattened worldly hierarchies. There was just a single power he cared about: God's. "To behave differently just because someone is weaker or stronger than ourselves," he later wrote, "implies a weak understanding of our equality of being as creatures of the ... Creator." His imperviousness to Prince Charles was particularly impressive, since he'd grown up in living memory of British rule in India. Born in 1963, he spent his childhood on a subcontinent where Britain and its royals still commanded considerable respect. When his own sheikh, the principal of Nadwah, had selected him to go to take up a fellowship in Oxford, Akram agreed, not because of Britain, but because of his obedience to his sheikh. He was a slave of God. In Akram's world, when your sheikh asked something of you, you did it, provided it didn't interfere with your faith.

During his first autumn abroad, Lucknow felt very far away indeed. He bought a bus pass and a bicycle and applied for a reader's card at Oxford's Bodleian Library. He invested in stout shoes and a parka to withstand the British winter. He borrowed books on Christianity from the Oxford public library, and he was shocked to read the way people wrote about Jesus, "either as a god, or as just another human being." In the spring, when Lucknow's famous mangoes ripened, he found an Oxford supermarket selling mangoes and bought every last one. He found a halal butcher and taught himself to cook Lucknawi *yakni pulao*. At the mosque in North Oxford, his prayers felt the same, of course, but he couldn't help missing his Lucknow routine. At Nadwah, he'd follow his dawn prayers with a stroll beside the Gomti River, debating Greek logic with friends or discussing how the Arabic grammar schools of Kufah differed from Basra's and

green sprouts." I recognized the ascetic streak: the Sheikh was rigorous about his workouts at his Oxford gym, and a couple of years ago he had embarked on a weight-loss regime, eating only fruit in the evenings.

Just off the road, we stopped to look at land Akram had bought while a young Nadwah professor. Back then, he'd imagined staying in his beloved Lucknow, teaching and raising his family on the two plots of land he'd purchased. In the two decades since, a suburb of white cinder block houses had sprung up around them. But Akram's land remained undeveloped. Waliullah managed it for him, building a neat brick wall around it and planting a grove of poplars. The trees were now tall, monuments to Akram's twenty-two years away from India. They cast a welcome shade, and as we got out of the SUV and stopped in it for a moment, I thought of how much Akram had given up by moving away from home.

taken with existentialism. "Nadwah basically wanted to teach its students to think," he said. "At most other madrasas, it's not thinking, it's just copying."

There were limits, however, to how much of the outside world was allowed inside the madrasa gates. As undergraduates, Akram and his friends begged to be allowed to go off campus to see the circus. As future ulama, they petitioned, they needed firsthand knowledge of depravity, to see the evils pious folk were up against. Their argument failed to move the mufti, so they never saw the circus. Movies were banned, too. Sneak out to the Leela movie theater to see the latest Shah Rukh Khan or Tom Cruise, and you risked the standard Nadwah punishment: having your meals stopped for a week or two. "People say you can't be a Nadwi without having your food stopped at least once," grinned Akram. As a warden for a madrasa dorm, Akram patrolled the downtown movie theaters for Nadwis. "They don't want students to get corrupted," explained Akram. "People already think it's a modern institution, and they don't want it to get a bad name." The madrasa's movie patrols didn't always work. Later, Akram was to find that he was the only Nadwi he knew to observe the ban: every other student, it seemed, had been to the movies.

Not all Nadwis end up scholars, as I discovered when I met Akram's old madrasa roommate, Waliullah. A broad man with bright eyes and a bushy beard, he resembled a South Asian Ernest Hemingway. He'd shared Akram's dorm room but not his studiousness. After bungling his final exams, Waliullah went into construction, where business was good. It showed, too, in the easy way he greeted the waiters at the tandoori restaurant he treated us to, and in our transport for the day: a Chevrolet SUV, complete with a driver and air-conditioning. We drove through central Lucknow, past the bone-white Tila Mosque, where Akram once celebrated a friend's memorization of the Quran, with Cokes from a nearby café. We wove down the Malihabad Road, past once-gracious bungalows built by the British that were now rotting slowly under exhaust fumes and monsoon rains. A group of young Muslim women passed, wearing scarves tied around their heads and faces, like guerrilla commandos. It's a look that's developed since his time in Lucknow, said Akram, one less about piety than about belonging to a Muslim identity group. "Identity," he said, shaking his head.

The land bordering the road was lined with low-slung warehouses and shops, but back when Akram had been at Nadwah, it had been forest. On Fridays, Akram and his friends used to hunt in nearby fields before midday prayers. Akram would use the old German rifle that his father had a hajji bring him back from Mecca. The Sheikh wasn't quite as good a shot as his dad. "He'd draw a 5 on a piece of paper, go back a long way, and still hit the stomach of the 5," recalled Akram, suddenly the slightly awed son. But the Sheikh himself was pretty good. Some weeks, he and his friends would bag sackfuls of doves that they'd take to a nearby madrasa, run by a fellow hunter, and they would have them for lunch. "We could get twenty-five to fifty birds in a morning," he recalled. "My friend's wife would cook them in a curry. Very tasty."

"What was Akram like when he was at Nadwah?" I asked, swiveling around from the front seat to look at Waliullah. "He studied hard," said Waliullah. "Once, after our rector gave a lecture, Akram was so inspired he went into our room and kept reading for three days straight." He chuckled. "He'd heard somewhere that it was healthy to eat the green sprouts off chickpeas. So all he ate for those three days were chickpeas, soaked in water, with those little

was the fact that the railway track that took them to Jaunpur was British, just like the BBC they listened to on their battery-operated radios.

* * *

If Jamdahan was Akram's ancestral home, Nadwat al-Ulama was his intellectual one. As an undergraduate at Lucknow University, he'd studied Arabic and economics, but it was the years he spent at Nadwah, in Lucknow, that shaped him most. Visiting the campus, Akram was as nostalgic as a former quarterback returning for Homecoming—and just as fêted. On seeing him, older professors lit up, and younger ones darted awed looks in his direction.

"Did being away from the village make you homesick?" I asked the Sheikh.

He looked nonplussed. "I was so happy to be here, you could not imagine."

I could, actually, because the madrasa was like none I'd ever seen. Black and yellow butterflies darted across the quad's grass. The campus was green and spacious: outside his former dorm, the Sheikh pointed out a copse of trees he'd had his students plant. ("It was against the rules," he said with a grin. "But nobody said anything.") We paused at the lot where his badminton team used to practice. We paid tribute to the spot at the campus canteen where Akram and his friends would sip chai together, splitting the bill, a practice that, because of the individualism they'd heard reigned in the United States, was called "American tea." In the evenings, the madrasa held poetry recitations—Islamic poetry slams of sorts, with each student trying to best the others. The hub of the Nadwah campus was its original building, built in the nineteenth century in high Anglo-Indian style. Lemon yellow with white trim, it had scalloped arches and sculpted strings of delicately painted plaster flowers trellising their way around columns. It resembled an upmarket bridal boutique.

The decorative grandeur was deliberate. Nadwah was founded in 1898, more than a half century after the British had decided to push English-style education for the Indian elites. Madrasas had been declining for centuries, as had the prestige of Islamic scholars. "The whole idea behind making Nadwah so beautiful," Akram explained to me, gesturing up at a latticed balcony above us, "was so the ulama who were in training could feel proud. The men who founded it didn't want Muslim students to feel inferior to those who were studying in Western-style institutions."

He paused under a framed quotation and translated: "How many times have I wished I could return to childhood, so I could study in owledge." Nadwah graduates earn the right to put "Nadwi" after their names. Madrasa football matches pit "Nadwis" against "non-Nadwis." The "non-Nadwis" aren't an away team, just Nadwah students who haven't yet received their degrees. Scrolling down a list of alumni or the college magazine's masthead makes for repetitive reading: every name ends in "Nadwi."

Nadwah's great rival is Deoband, founded a generation earlier. The Deobandis opposed British rule and refused to include Western-influenced sciences or humanities in their curriculum. The men who founded Nadwah, by contrast, were keen to train young men both in the Islamic sciences and in secular subjects, carving a middle way between the strict traditionalism of the Deobandis and the secular education championed by the British. Akram's study of *fiqh* and the Quran, Arabic grammar and logic, was supplemented by reading Shakespeare, Freud, and Sartre—Nadwi students of his generation were very

the old brick kiln outside town, and put his brother-in-law Abu Bakr in charge of it. As so often happens in girls' madrasas, the standard of teaching, he conceded, was not high. Families usually only wanted women teaching their daughters, and to date, women teachers have not been as well educated as men. But the new Madrasat al-Salihah—the Madrasa of Righteous Women—was a hope that things might change. In a generation or two, education might erode long-standing codes.

* * *

Sitting with Akram at a fusion restaurant in Oxford, sipping lattes and eating nachos, it was hard to imagine just how smothering the gentle pressure of village custom could be. Life in Jamdahan confined people to a tight-knit group of Muslims, living much as their ancestors had. The warm press of such an environment made it far too easy for local traditions to get tangled up with faith. Akram—like many Muslim migrants to Europe and the United States—felt that life in the West had helped him tease out which traditions were simply a part of North Indian culture and which were a part of Islam. Living in Britain allowed him to mix with Muslims from various countries and schools of law. Far away from his village and madrasa, he found a neutral space where he could reexamine the original sources afresh.

"Going to Nadwat al-Ulama was a shift, but it was really when I came to this country, and started reading more hadith, that I could focus on the main things in the religion—like piety and fear of God—rather than on things that are just culture," he said. But villagers, with limited education and no experience of the outside world, wouldn't welcome being lectured on his discoveries.

"But you let me give a lecture," I fished. "Speaking of which, how did people respond?"

Apparently, my visit was the talk of the village. "People don't have much to do," explained the Sheikh. "For about two weeks, whenever people sat together, they must be talking about you. They are not necessarily saying bad things, but they'd be talking. A lot."

"I never really understood what a risk you were taking, just having me there," I said.

"All the people around there, they cannot imagine an *alim* and a woman," he agreed. "Even now, people must be telling about it to their friends. It's something in the memory of the village."

"So did anyone say anything nasty?" I pressed.

"Nobody made a big problem about it," he said, sounding mildly surprised. "Nobody doubted our piety."

"But it was so clear that they really didn't like the United States," I said. "They were lovely to me, but all those questions about policy..." "They don't like American policy," he nodded. "But they didn't connect those policies to you."

What's more, he added, the audience questions might have been less about political ideology and more about showing off: "They might have been asking about Palestine and Israel because they don't know anything else about America."

I wouldn't find hard-line anti-Western rhetoric in the village, the Sheikh assured me. "They are very simple people," he said. "They praise British rule more than Indian rule, because all they care about is who makes their lives better." Urban elites might have the luxury of thinking big thoughts about colonialism and the struggle for independence, but for Jamdahanis, what mattered

Jamdahan, I was once again reminded, was a place for women and old men. With nearly all its fathers and husbands off working in the Gulf or beyond, and observing purdah on their visits home, its men and women lived largely separate lives. In the West, we worry about families fracturing under the strains of divorce, work pressures, or generational differences. Sulky teens or workaholic spouses create their own divisions. But there are other ways to split up families.

* * *

In the Sheikh's house in Oxford, purdah is practiced, but less strictly than in Jamdahan. When the Sheikh has male visitors, they'll often repair to one room, and his wife or daughter will close the door of the sitting room, to preserve a sense of separateness. But there's far more freedom here than in India, particularly for the younger generation. Akram's second-eldest daughter, Sumaiya, rolled her eyes skyward when she recalled a hesitant non-Muslim asking her whether she knew how to drive a car. "I could drive before my husband did!" she chortled.

When Sumaiya wanted to wear a *niqab*, Akram was shocked, but he figured it was her choice. "Islam wants women to cover everything with loose clothing when they leave the house," said Akram. "But this covering of the face—this *niqab*—developed later on, after the Prophet's day."

"But why don't you tell your family in Jamdahan that?"

"To someone who has grown up in the village, they think it is totally Islamic. They can't separate what is tradition from what is Islamic. They only thing people in Jamdahan know about the *niqab* is that the Hindus don't wear them, and Muslims do." Like many village customs, "they are traditions not done from religious knowledge, but to build their identity as a group."

"But Akram, you're an authority!" I chided. Even the oldest men in the village deferred to him on religious matters. In a rare break with Jamdahani hierarchies, it was he, not his elders, who led prayers in the mosque, out of respect for his religious learning. "You're a world-famous scholar," I wheedled. "Why not tell them they don't have to wear *niqab*, so long as they're modest? What about telling them about your stuff on women scholars? About all those women who rode alone on camelback to get to classes in the first few centuries of Islam? That woman in medieval Samarkand who issued fatwas? Or that other scholar, who lectured male students, standing at the Prophet's grave?"

"Nobody would listen," he said. "People would say, 'Oh, he's gone to Nadwah,' or 'Since he's gone to Britain.' I can say it in Lucknow. I can say it in Oxford. I can't say it in the village. If you're going to change people's minds, you can't start from the village."

Changing tradition, like putting in electricity or running water, needed the right infrastructure. The *niqab*'s popularity derived in part from the widespread harassment of Indian women, said the Sheikh. "At the moment, you can't imagine how much disrespect there is for women in India," he said. At the time, his fourth daughter, Maryam, had just started her undergraduate degree, studying Arabic at the University of London. "In Britain, if Maryam travels to London, there's no problem," he said. "But in Jamdahan, you really cannot imagine a girl going out without her face covered." Since everyone wore it, you made yourself a target if you didn't.

The way to change people's mindsets, says Akram, was education. To this end, he's built a madrasa for Jamdahan's girls, set in the rice paddies just beyond

with her own pots and wood-burning stove, I caught a glimpse of a gray and gentle presence that turned out to be Akram's father. We exchanged the briefest of glances, then both looked away. For a man of his generation, to have a woman, unrelated and without a hijab, wander onto his sleeping veranda must have been highly improper.

Later, back in Oxford, Akram explained that he had stayed away from his family's home because he was observing purdah. In the village, purdah's dictates took precedence over family togetherness. "I don't like to mix with the wives of my brothers," explained Akram. "Had my wife been there, it would have been different. Besides, there were so many women from the village who had come to see you. It wouldn't have been good." My presence had created a crush of women and girls from the whole village, curious about what an American woman might look like. "All those women who came to see you," he marveled. "It was like a wedding, when they come to see the bride."

In part, Akram stayed away out of consideration for his sisters. "I wanted to give them their freedom: they wouldn't have been so free, the wives of my brothers, in front of me. With me there, they can't laugh loudly, they can't talk freely. Inside the house, women are free, and men are not."

Something like regret moved across his face. For a second, I saw how purdah could be double-sided, reducing freedom for men as well as women. Curtains can cut out light and air for people on either side of them. They don't block everyone's view of the world equally, of course: purdah's restrictions are drawn most tightly around women. Akram's sisters and mother would never go outside without covering their faces with a *niqab*, the Islamic covering that leaves just a slit for the eyes. Nor could they venture out to the markets in nearby Khetasarai without a male escort. The Sheikh didn't believe in restricting women's movement like this, but the rest of the village did.

The Sheikh's eldest daughter, Husna, was just nine when the family left Jamdahan, but even as a kid, the rules of purdah applied. By seven, she was no longer allowed to play freely outside. "We could go down the street to the shop if it was an emergency," she later recalled. Since everyone else kept their daughters indoors, venturing outside made you an automatic target for catcalls and comments.

Husna's years in Jamdahan had left her with a reserve and an accent that her Britain-raised sisters lacked. When she explained to me the strictures surrounding purdah observed in the Jamdahan ancestral home, I finally understood why I barely saw the Sheikh during my visit there. The household's purdah was so strict, Husna recalled, that sisters and brothers barely spoke to one another: "My older auntie would speak to my dad, but the rest of the sisters wouldn't, or not much. They were shy."

Husna, too, described herself as shy, and even years later, married and living in Oxford near her parents, she continued the purdah conventions she learned in India. "I don't speak to men, or if I do, I keep it to a minimum," she said matter-of-factly. "I don't speak with my sister Sumaiya's husband—there's no need to talk, really. Even now, I hardly speak to my dad."

"Sorry?" I gasped. "Really?"

"Yes. Like, if it's raining, and I have to go home, I ask my mom to tell him that I need to go," she said. "She'll ask him to drive me, rather than me."

move to Bombay and open a clothing shop. Glimpsing the world outside convinced him that his sons would need more formal education than he had received. For a devout rural family with dwindling land ownership, sending sons to madrasa allowed them to hold on to tradition while preparing for a changing rural economy.

Besides, Akram in particular was proving to be a nimble student. At five, he'd begun his education at the one-room madrasa down the alleyway, across from the white mosque with the mint-green tiles. Sitting on a floor mat, he mastered his alphabet—the *qaida*, or base—a word that would, in time, gain dangerous new connotations. At six, he'd started committing the Quran to memory, but after finishing two of its thirty sections, he decided that memorization was boring. By the time he was eight, he'd outstripped the local madrasa's curriculum. So his grandfather packed a bag with the Quran and a Persian primer and walked him down the main road to a larger madrasa, two miles away.

There, he began studying Persian, a subject he loved so much that he'd be the first to school in the mornings and the last to leave at night. On Fridays, the day off, he would cry. "Once, my father even beat me, he was so annoyed that I always wanted to be at school," recalled Akram.

At night, he'd drag his charpoy out into the alleyway and curl up with a kerosene lamp and his copy of Saadi's *Gulistan*, a celebrated

eleventh-century collection of stories and verse. The neighborhood boys would join him on the charpoy, and he'd read aloud to them. For a year or so, Jamdahan's villagers, inspired by Akram's virtuosity, began sending their own sons to the same madrasa. The Jamdahani boys formed a gang of sorts, sitting together at lunch and skirmishing with boys from other villages. Within a year, most had dropped out, going back to work in the fields. But Akram remained, riding his bicycle for miles through the countryside to hear lectures at mosques. "Every time I heard there was a pious person speaking at a mosque, I'd go," he recalled. By the time he was fifteen, he'd written his first manuscript, a book on Arabic grammar.

In the afternoons, Akram would sit by his grandfather's charpoy and read the Quran to him. He was reading it aloud at the moment the old man died. Akram looked up to see that his grandfather had stopped breathing in the middle of a sura. He scarcely paused. "My father said 'Keep reading,' and I did." He repeated "Ya Sin," the sura recited after a death, forty times.

Akram's brother Muzzammil and two of his sisters have memorized the Quran and become *hafizes*. At Akram's urging, all his younger sisters studied in a women's madrasa in Azamgarh. All the adults in the household read from the Quran at least once a day, and several times on Fridays. "If you read the Quran, it doesn't matter if you understand it or not," Muzzammil assured me. "Just by reading it, you get a reward."

I instinctively scoffed at this, this reading-that's-not. Until I thought back to the rooftop reciter I'd heard that morning. I hadn't understood the words, but hearing them had brought me an uncanny sense of peace.

* * *

Throughout my visit at his house, Akram was nowhere to be seen. Except for Muzzammil and his father, the household was populated entirely by women and children. When I toured the house to see every sister's separate kitchen, each

huddle and watched me eat. Two of them whirled fans above my head. Midway through my first plate, Azeema gestured at my hands: I was eating with my left one, traditionally reserved for cleaning oneself after the toilet. I switched clumsily, and made a foray at conversation. "You must be so proud of Akram," I said, between mouthfuls. "What do you think about him becoming a world-famous *alim*? Could you have predicted it?"

My heartiness felt too loud, too bald. I sounded as if I were announcing the Super Bowl. Titters from the younger women; silence from their mother.

Muzzammil looked embarrassed. "We live in a village," he explained. "We think about bread, and nothing more."

Later, back in Oxford, I asked the Sheikh's eldest daughter how he was viewed by his Jamdahan family. "They don't know much about him," she said. "They know he's educated, he lives in the West, and that he's on TV."

* * *

The house was built for purdah, with women carefully screened from the alleyway outside. The men slept out front, the women in the back. I wondered where married couples went for privacy but couldn't summon the courage to ask. The women's bedrooms were windowless, and the outside world was reduced to a rectangle of sky hung high above the central courtyard. Muzzammil's red motorcycle was propped in the corner, hinting at the promise of open roads. The household's command center consisted of three charpoys, wooden beds pushed together to form a giant platform, and it was filled with Akram's family. I watched the charpoy island multitask as a couch, a salon for the ladies who drop by to pay social calls, a nursery, and even as a kitchen counter, with one sister squatting atop it, deftly slicing ladyfingers with a small scythe.

Just before dawn prayers, Muzzammil's wife, Azeema, motioned me to follow her to the roof, the only space where women could move freely outside without their *niqabs*. Even after a single night in purdah, standing on a rooftop in full view of the village felt slightly daring, like the first foray onto the beach in a new bikini. Next door, a neighbor sat cross-legged, bent over her Quran stand. It was the only time I saw anybody alone in Jamdahan.

Dawn prayers, the Prophet said, are witnessed by both the angels of the night and the angels of the day. It was easy to imagine otherworldly creatures listening to the woman's soft recitations. The morning mist was burning off, and the neem trees and palms came into focus, as though a giant camera lens was slowly turning. A peacock strutted in a nearby field. Dragonflies darted. As a boy, Akram had played *kabbadi*, the Indian running game, in these fields. Evenings, after school, he'd walk the family buffalo to the riverbank, where he'd play with other boys waiting for their buffalos to finish watering.

Three centuries ago, under the Mughals, the Sheikh's ancestors had owned most of the land around Jamdahan, until the British came and pushed through land reforms. ("When people in the village speak of the British, they say they were good," he said, with a smile. "Except for my family!") The Sheikh's grandfather farmed these fields himself, growing wheat, barley, and sugar cane. He couldn't read or write himself, but he knew swathes of the Quran by heart and made sure that his son, Akram's father, memorized it in its entirety and so earned the title of *hafiz*. As a young man, Akram's father started work in a nearby textile factory, where he taught himself not merely to operate the machines, but to fix them. When Akram was a young boy, his father had amassed enough capital to

"they hate our freedoms." But the very question was misguided: everywhere I went in the Muslim world, our freedoms weren't hated, but envied. The bitterness was not aimed at Americans, or our democratic values, as Bush claimed. It was at our callous misuse of power, our continued willingness to prop up dictatorships in countries like Egypt and Saudi Arabia that denied their people the very democracy we purported to want to spread. It wasn't "us" they hated, but our policies.

The Jamdahanis' questions, I realized, were far more to the point than platitudes about shared values. For village men who'd never met an American before, the intersection between Islam and the West was shaped by geopolitics, not tales of toddlers being touched by the Quran. It dawned on me that the anecdote about Nic made no sense to a madrasa crowd. For the truly devout, it would hardly be surprising that my child was moved by divine words. Only a secularist would be impressed that the Quran could soothe a crabby child. For the faithful, it was obvious she would be.

* * *

Stars started to gleam in a darkening sky, as if on a low-set dimmer switch. Akram and Muzzammil bundled me into a bicycle rickshaw with

my baggage, and the rickshaw driver pulled me over the pits and ruts of Jamdahan's unpaved alleys. A boy ran beside us, holding up a bike light to show the way to Akram's home.

We arrived at a two-story house with an atmosphere as intensely feminine as the madrasa's had been masculine. Akram was nowhere to be seen, for reasons I would later discover. A tiny, smiling mob of women and children surrounded me. A girl grabbed my hand and led me inside, and I yielded to the warm bossiness of Jamdahani hospitality. In the inner courtyard, Muzzammil introduced me to his and Akram's three sisters, their clothes a riot of russets, purples, and saffron yellows. Muzzammil's wife, Azeema, was plump and pretty, with a complexion the color of honey. As I was introduced to the family, only one figure remained silent and seated: Akram's mother, who nodded brusquely and followed my movements with a rheumy, unblinking gaze. I later learned that she was about seventy years old, but she looked around forty, her glowing skin preserved by a life spent indoors in the *zenankhaneh*—the women's part of the house. Her lower lip was russet, stained from years of chewing *paan*, the betel nut and tobacco mixture often wadded up in a leaf. She prepared *paan* several times during my time there. In a ritual nearly as frequent as prayer, she would lean over, plastic bangles clacking, and bring out the *paan* box from below the charpoy, the traditional twine and wood bed. She'd open the box, with its cunning little compartments of leaves, herbs, and red *paan*, massage them into a paste, and fold it into a neat package wrapped in a leaf.

Akram's mother never seemed to speak, but even though she was silent, she loomed. I went to the guest room to put my bags down before dinner and to pull off my headscarf, assuming it was fine to be bareheaded in the *zenankhaneh*. I assumed wrong. Wordlessly, without a smile, Akram's mother pointed at her head. I put the *dupatta* back on. "People here love tradition," Muzzammil told me. "And they're willing to endure some discomfort and inconvenience to preserve it."

Dinner was for one. The sisters led me to a table full of mutton, curries, and salads and motioned me to sit. Then they stood around me in a sympathetic

societies rigid. A loss of confidence can stop cultures from mixing and flexing when confronted with fresh currents. As India's Muslims had experienced with the rise of Hindu fundamentalism, or with the tensions with Pakistan, setting oneself against an Other was a cheap and easy way of getting heard, or getting votes, or getting a following.

The Sheikh was making a stand against such thinking simply by letting me study with him. "The more we talk, the more I see how many ideals we share," I told the audience. "Like him, I want peace and security, good education for my kids, and a just society." But Americans are often ignorant of how much they share with Muslims. "The best weapon against mutual hostility and ignorance of Islam," I said, "is occasions like this."

The next words sounded as if they were penned by a not very promising State Department underling: "Cultural dialogue is the world's most powerful weapon against extremism of any kind," I pontificated. "Genuine engagement between people holding different points of view is the best hope for making this increasingly polarized planet work." Having put the tenets of my creed before them, I indulged myself with a memory of my youngest, Nic. She was two the day I had to visit a local London madrasa for a magazine story. The babysitter had canceled, so I took her along, though she was fractious as any toddler at dinnertime. The madrasa was a basement room below a North London corner grocery. I clambered down the steep stairs, Nic clumping grumpily after me, to find a roomful of children, each with a Quran, working through their suras, murmuring in Arabic. The sound of recitations soothed her. Together we sat cross-legged on the grubby carpet, focused on the children who were focused on their Qurans. Just minutes before, Nic had been headed for a tantrum. Somehow, the sounds of the Quran being recited unknotted her mood, and mine.

Hoping the closing anecdote hadn't been too It's a Small World, I looked out at the crowd. "In the spirit of cultural exchange, I'd like to open the floor to questions." I smiled in my best Town Hall Meeting manner.

The first one came from a bespectacled journalist. "Is the American media controlled by Jewish people?" he asked.

I gulped. He was looking at one, I was tempted to say. Besides, I never know what people mean when they say "the media," any more than I do when they say "Muslims." I knew Akram was nervous enough about my speech; saying that my mother was Jewish wouldn't help matters. So I wimped out, sidestepping the issue with an anodyne comment on the dangers of generalization and America as a melting pot. The political questions kept coming, polite but pointed. "Why is the United States so unswerving in its support for Israel?" demanded a wiry young man.

I spoke of history, of the Holocaust, and of a powerful lobby.

"What is the reason that American politicians always seem to act against Muslim interests?" asked Akram's courtly, mustachioed uncle.

I reminded him of the war in Bosnia, in which we'd championed Muslims against Christian Serbs, but I had to concede that yes, it often seemed that political Islam scared the American public.

His question reminded me of a mirrored question from the West—the plaintive litany after 9/11: "Why Do They Hate Us?" I had helped report the famous *Newsweek* story that attempted to answer the question. I had watched President Bush on television assuring America that we were attacked because

that doesn't prevent the Saudis from banning women from driving cars. Both the Quran and Muhammad stressed the importance of education, but Afghan and Pakistani reactionaries blow up girls' schools in the name of Islamic tradition." In many Muslim cultures, tradition holds that women pray not in the mosque but at home. Despite having produced a world expert on gender roles in early Islam, the village of Jamdahan was no exception. Local mores meant that the only female at my talk was the Sheikh's ten-year-old niece, who took a back-row seat, next to her cousins. And yet the Sheikh himself had written about how the Prophet explicitly encouraged women's presence in the mosque—and welcomed their children and nursing babies with them. When he'd hear a baby cry during prayers, he'd shorten the prayer session out of consideration for its mother. (Even not having a *jilbab*—a loose overgarment—was no excuse, records one hadith. If you can't find your own, Muhammad counseled, borrow one from someone.)

As the courtyard filled up, I began to see what a delicate diplomatic negotiation Akram had embarked upon simply by having me speak. My presence here might offend the sensibilities of more conservative madrasa sheikhs, or upset purdah, the tradition of screening women from public view. I tugged my hijab down more tightly. "Everyone," the Sheikh had said quietly, earlier that afternoon, "is waiting for you to make a mistake."

I was grateful that he trusted me not to make one. Welcoming me, an American woman, traveling alone without her husband, made his madrasa a target for slurs. There might be gossip that the place was "liberal"—shorthand, in the minds of some conservatives, for an erosion of proper Islamic values. In particular, the Sheikh worried about detractors from a rival madrasa nearby, which followed the Deobandi tradition, stricter than his own. Concern about the Deobandis had prevented Akram from calling local papers to send reporters to cover my speech. "You know," he explained, "people gossip." (As it turned out, a reporter showed up anyway, interviewed me, and stuck me in the local paper, using a photo pulled from the Internet.)

The madrasa had other critics, too. Akram had built the place on public land, carped a couple of villagers. One citizen had even tried to take him to court, in an effort to get the madrasa moved. A few ultra-conservatives had grumbled about his building a madrasa for girls. Some villagers had even started a whispering campaign, saying that Shahnawaz should be dismissed as director of the boys' madrasa. "I don't know exactly why," hazarded the Sheikh. "Maybe because they were jealous, or something." In any case, Akram resisted. "They say 'Remove him,' but if we do, they'll just want to do the same with the next head," he shrugged.

* * *

A young student with a wispy beard began the afternoon's program, reciting from the Quran in a soulful voice. More than a chant but less than a song, it quieted the audience. A second teenager declaimed a very, very long poem he had composed in praise of the Prophet—a classic warm-up for madrasa events. Then I took the microphone and delivered my speech, pausing and passing the microphone to the Sheikh after every paragraph so that he could translate it into Urdu.

We're living in dangerous times, I told the assembly, full of mutual misapprehensions between Muslims and non-Muslims. The United States, like India, could be an open and confident country. But fear of the Other can render

Not all madrasas are built on rote learning and rigid certainty. In New Mexico I had observed a class at an Islamic center built of buttermilk adobe. A California-born sheikh, Hamza Yusuf, guided the class through a text by an eighth-century Egyptian scholar, showing the students its calls for tolerance and pluralism: "We say, ultimately, 'God knows best,' where decisive knowledge about a matter is not clear to us."

Over tacos at a nearby cantina, Yusuf, a former surfer with a neat goatee, bemoaned the decline of the traditional madrasa system. Much of the rot occurred under European colonial rule, when Islamic seminaries were deemed relics from a premodern age, holding back progress and the spread of Christian values. With the dilapidation of traditional madrasa learning came the erosion of *adab*, or intellectual etiquette. By the late twentieth century, measured moderation was all too often drowned out by the shrill certainty of radicals. Yusuf had worked hard to counteract such voices—both Muslim and non-Muslim. Invited to the White House after the attacks on the World Trade Center, he brought President George W. Bush a Quran bristling with Post-it notes.

* * *

After late-afternoon prayers, Muzzammil escorted me to the courtyard and motioned me to sit in a line of straight-backed chairs facing the audience. A goat wandered the yard, nosing at the bougainvillea. I smiled gamely at the crowd of youths clicking my picture on their mobile phones. I was not allowed to reciprocate, much as I wanted to: Akram had nervously asked me to refrain. So I sat, hands folded in lap, and watched the audience fill the rows of red plastic chairs. Farmers trooped in from the fields in white dhotis and turbans. Shirtsleeved shopkeepers sat stiffly. The Sheikh greeted the local grandees, who as honored guests were allowed to join me on the dais, facing the audience: The mayor of Jamdahan. A doctor. Akram's uncle, who once had been an assistant to a high court judge in Bombay. The audience filled every last seat, to the Sheikh's great satisfaction. "The last time the madrasa did a program, very few people came," he whispered. "This time, they keep asking when it is going to start."

I was incongruous at the madrasa but was beginning to enjoy it. I like being the odd one out, having learned long ago the profoundly relaxing properties of being spectacularly out of place. Whether you're the new kid in the fifth grade, or the only woman to have delivered a speech at Jamdahan's madrasa, little is expected of you, and most lapses are forgiven. Like my father before me, I feel most at home when I'm away from it, freed from the expectations of my own culture. My father knew the principle of outsiderdom well. Indeed, a lifetime of being the odd man out helped draw him to the Muslim world. In St. Louis, he was the shy, slight figure, alone beside the punchbowl at parties. In a University of Tehran seminar, or meeting Kabul's legal establishment, his foreignness camouflaged his eccentricities. In St. Louis, his persona made him eccentric. In Asia, it was only his culture that rendered him a curiosity.

Being a curiosity, of course, was the only way I was allowed inside the madrasa. In a courtyard full of men, I was the only grown woman. "It's not considered proper for Jamdahan's women to appear at public meetings," Muzzammil explained. As so often happens, local customs overshadow Islamic teachings. The disparities between Islam's teachings and real-life practice gape most widely when it comes to women. The Prophet's wives rode camelback, but

accent." We arrived at the madrasa, a tidy white compound with turquoise trim. Inside was a two-story building with a series of classrooms. It was sparsely decorated, but a courtyard by the mosque, shaded by neem trees, softened the effect. On the main road, a huddle of students gathered around the madrasa "canteen," a shack of palm leaves and bamboo selling sweets and fried snacks. Their living conditions are minimal, Muzzammil told me. There are no dorms, so students sleep on the classroom floors at night.

The Sheikh had included the standard classes on Arabic, the Quran, and Islamic jurisprudence, as well as classes on the English language, in a departure from the classic madrasa curriculum. Despite the spartan conditions, the madrasa had an impressive record: sixty-five *hafizes*—Muslims who have memorized the Quran in its entirety.

"All this, in eight years!" I said to Shah Nawaz. "You must not sleep much!"

"If I slept," he grinned wolfishly, "would I have nine children?"

He ushered me into a classroom, furnished with Quran stands to keep the holy book from touching the floor, and five clocks, each showing a time for that day's prayers. (Prayer times, linked to the sun's position in the sky, change daily.) A ceiling fan scythed the thick air, running on a generator specially brought in for my visit. The Sheikh arrived, looking uncharacteristically harried, trailed by the entire madrasa faculty. A half dozen or so young men, they smiled shyly, bobbed their heads, and sat on the floor facing me. A student arrived with a tray laden with dates, cookies, and a can of Red Bull. Shah Nawaz presented me with an elaborately wrapped gift from the madrasa trustees—a biography of the Prophet Muhammad—with a card addressed to "Honourable Ms. Carla Power, the Well-Known American Journalist." I should rest, Muzzammil urged. I've been traveling for nine hours, it's hot, and I'm to deliver my speech right after evening prayers.

* * *

Red Bull and gifts were not the greetings most Americans would expect from a madrasa. After 9/11, Westerners learned the word "madrasa" as a place where dull-eyed boys rock back and forth, rote-learning the Quran. Madrasas were cast as jihad factories where the great Muslim unwashed were taught to hate the West. Like many others who'd reported on extremism from Pakistan over the past couple of decades, I'd visited the infamous Madrasa Haqqania, alma mater of numerous jihadis and Taliban leaders. In the late 1990s, professors at Haqqania, run by the media-savvy, flame-haired cleric-politician Sami-ul-Haq, obligingly spat out quotes about the need for armed jihad in Afghanistan, the venal dealings of Western powers, and the righteousness of Osama bin Laden's struggle.

But many madrasas undermine the stereotypes. An ad for English classes hung in the Lucknow bazaar, promising "Attractive Offers for Madrasa Students" and illustrated with a picture of a flapping American flag. The Sheikh had once arranged for me to visit a West Yorkshire madrasa, in the heart of Brontë country, all gray slate walls and windswept moors. The atmosphere recalled a Muslim version of the muscular Christian upbringing that I imagined the Brontë sisters probably enjoyed in their father's parsonage. Veiled girls in long cloaks strode in pairs across sodden hills and giggled softly in dorms as neat and white as unbroken eggs.

Indians, noted even the dinkiest Punjabi hamlet and the farthest-flung Himalayan hill town. Soon, the walls of the Atlas Room hung with maps covered in spidery webs of connections. They traced the travels of sheikhs' disciples who had fanned out across the region, building madrasas and mosques of their own. On the maps, red arrows swooped across the Indian Ocean, showing how Arab traders had sailed over to buy spices and silks, bringing the new faith with them. They showed the routes of Indian scholars who went west to study with the great sheikhs of Baghdad, Cairo, and Damascus, and who went north to Samarkand and Bukhara. Many would eventually circle back to their hometowns, setting up madrasas to teach local youths what they'd learned in the big city.

With the money he earned in Oxford, Akram would continue that tradition, building two madrasas in his village, one for boys and one for girls. The Sheikh had been the first person in Jamdahan's history to make it to Lucknow's prestigious Nadwat al-Ulama, and he wanted to prepare local boys to follow him there. In six years, his madrasa had sent twelve students to Nadwah, impressive for a remote village of thirty-five hundred. The pass rate helped put Jamdahan on the map. "When I first went to Lucknow, I used to have to tell people I was from Jaunpur"—the nearest city, he told me. "Now, I can say I'm from Jamdahan."

I juddered along toward Jamdahan, munching on a soggy *samosa* from the lady who liked my bracelet. I wondered what to say in my speech, beyond the obvious theme about the importance of mutual cultural understanding. It felt a trifle presumptuous, lecturing Indians on blending cultures and tolerating disparate faiths. The South Asian zealots who call for an India ruled by "Hindu" values, or for a "pure" Islam, ignore the subcontinent's long history of cultural mix. Central Asians, Arabs, Portuguese, French, Dutch, and British—all came to trade and rule, and India managed to find room enough for all of their cultural influences. During its more confident periods, South Asian Islam was expansive and open, absorbing influences from both West and East. Centuries of living alongside Hindus had fostered a Muslim culture of saints and shrines, flowering alongside orthodox madrasas. The Muslim emperor Akbar had even designed a syncretic faith of his own, the Din-i-Ilahi, which aimed to braid together the best elements of South Asia's various religions. Even Urdu, the language of South Asian Muslims, is a blend of Arabic, Hindi, and Persian. One reason the Sheikh was so comfortable with the world, I suspected, was that the world had always come to India.

I was met at the station by a smiling band of male Jamdahanis led by Akram's brother, Muzzammil. Fifteen years younger than his brother, Muzzammil was Bollywood handsome. His teeth were bright, and the white of his loose, long shirt dazzled—which may be why he wore oversized aviator shades. With Muzzammil was Shahnawaz Alam, the head of Akram's madrasa, whose high cheekbones suggested Central Asian ancestry and whose red-hennaed beard marked him as a hajji—a veteran of a Meccan pilgrimage.

We piled into a car borrowed specially for the occasion and putted out of town down narrow roads scuffed with dust. On either side of the road lay rich farmland, and we passed emerald rice paddies, mustard fields, and houses of scar-pink brick. Muzzammil wheeled around from the front seat to talk. Like his older brother, he lived in Britain, teaching at a madrasa in Slough. His British-born teenage students were capable enough, he said, but not as respectful as Indians would be. "They call me 'freshy,'" he said ruefully. "Because of my

Road Trip to the Indian Madrasa

If the Sheikh believed that a return to original sources was central to understanding Islam, I hoped that a return to his origins would help me understand the Sheikh. To see how a village boy from Uttar Pradesh had grown into an Oxford *alim*, I shadowed the Sheikh when he returned to his ancestral village and his beloved Lucknow. When I'd asked whether I could come along on his trip, he agreed, as long as I could cope with what he termed "Eastern toilets" and would deliver a speech at the madrasa he had built in his hometown of Jamdahan.

I made my way to India, landing a few days after Akram's arrival. The day before my trip from Lucknow to his village, Akram reminded me at least three times not to miss the 8:45 a.m. Doon Express, en route from Dehradun. There was one train that day that stopped at Lucknow before heading near the village of Jamdahan, and the Doon Express was it. To miss the train would be to miss the Sheikh's first trip back to his childhood home from England for four years. To miss it would mean skipping the chance to meet his parents and to see the fields where his grandparents had farmed barley and sugar cane, just as their ancestors had under the British, and before them, under the Mughals.

So I made sure to catch the Doon Express, and the seven hours on it passed quickly, not least because I had the sheer pleasure of saying that I was on the train from Dehradun—a sentence redolent of Rudyard Kipling, or a Bing Crosby–Bob Hope road movie. Curled up on the bottom bunk of a sleeper car, I watched Uttar Pradesh through a window so dirty that the green fields looked grainy and sepia-tinted, like a nineteenth-century daguerreotype. Halfway through the trip, I forced myself upright and onto my iPad: I had a speech to write. When I'd asked Akram what the topic should be, he'd been unhelpfully vague: "Just say how happy you are to be there."

Indian trains are ferociously social places, so I wrote slowly. The porter wanted to chat: he was a fan of Manchester United, or at least of saying the phrase "Manchester United." The partridge-plump matron in the opposite bunk admired my bracelet, clicking photos on her phone to show her jeweler. Every stop brought a parade of men with tin trays, offering chai and fried snacks.

The trip had a poetic symmetry to it. A day's travel across a stretch of the subcontinent to see a sheikh was just the sort of journey Akram and I had been researching when we first met. In Oxford, our days were spent following the intellectual and geographical paths of South Asian scholars. We'd hunch over histories and biographical dictionaries, sketching links between men and towns, between scholars and mosques, between mosques and madrasas. Islam arrived in South Asia in the early seventh century, brought by an army of Arabians under the command of a seventeen-year-old general, Muhammad bin Qasim. Later, it spread through trade, traveling scholars, and Sufi mystics. For the two years I worked on the team with the Sheikh, my job was to scan nineteenth-century British records of South Asia for mentions of any sheikh or saint, mosque or Sufi shrine. Months plowing through page after brittle, yellowed page of the *Archaeological Surveys of British India* proved that the Oxbridge men sent to rule the subcontinent were nothing if not thorough. Duty, a Victorian zeal for classification, and sometimes genuine enthusiasm for India meant that these colonial officers missed nothing. They detailed every caste and subcaste of

The new approach allowed the students to scrutinize their tradition afresh. "You can't find this kind of discussion anywhere," said Arzoo. "Not in a textbook, not in a madrasa."

"We were just blown away," added Mehrun. "That he thought he could trust us to reach that level of knowledge." When they tackled Bukhari, one of the six great books of hadith, the Sheikh diverged from simply studying the words and deeds of the Prophet, said Mehrun, and pressed the class to discover the intricate construction of the work itself. The questions he posed about the texts—Why was this scholar included? Why was that hadith excluded?—reminded me of my undergraduate literature classes in deconstruction.

The Sheikh was teaching differently not only from his earlier classes, but from his own training. He threw out all the methods he'd been taught at Nadwah, and instead pressed for fresh thinking. "He keeps emphasizing, 'I want to teach the tools of learning, so that you can learn to think for yourselves, and actually come up with these new findings for yourselves,'" said Arzoo. "He said, 'I can't teach you everything, but I can teach you how to think, and if I know that you are at the stage where you can reason through your arguments, and use the sources correctly, then you will have to go away and discover for yourself all the things that I haven't taught you.'"

Islam's critics frequently argue that the faith stifles thinking. Such critiques grew particularly loud during the *Satanic Verses* controversy, after the Ayatollah Khomeini's fatwa against Salman Rushdie. The British writer Fay Weldon wrote that the Quran, in contrast to the Bible, offers "food for no thought. It is not a poem on which a society can be safely or sensibly based. It forbids change, interpretation, self-knowledge, even art, for fear of treading on Allah's creative toes."

And yet the Prophet Muhammad was careful to tell his Companions that blind faith, without thought or action, wasn't enough. In a famous anecdote, Muhammad came across a Bedouin walking away from his camel, having neglected to tie it up. When he asked the man why he didn't secure the beast, the man said, "I put my trust in Allah." Muhammad's response was pithy: "Tie your camel first, then put your trust in Allah."

To follow blindly, the Sheikh told his students again and again, went against Islam's spirit. Muslims had to think for themselves even as they submitted to one truth, to one eternal message. He encouraged his students to think differently from him—as long as they tethered their arguments to the classical sources. At times, he shocked some of the less flexible scholars by suggesting that Muslims should bypass Islam's four schools of law and go straight back to the Quran and the Prophet's sunna, or example. He had even supplemented his exhaustive knowledge of the Islamic sources by a broad, if eclectic selection of Western books, from nineteenth-century British orientalist to Nietzsche and Sartre.

But then, Akram's own life was a deft shuttle between tradition and exploration. Though he'd grown up in an Indo-Islamic culture, he'd made his name teaching British Muslims. While he was raised in a house with strict gender segregation, he produced historical research that undermined that very tradition. Only when I followed him back to India, to his ancestral village and his alma mater, did I start to see how his faith had anchored him even while propelling him out into the world.

Her children would, she hoped. She had just managed to persuade her husband, a cricket fan, to forgo his Saturday games so that the whole family could attend the Sheikh's seminars.

The crowd the Sheikh attracted tended to be a lot like the three sisters: young, well-educated, British-born, and yearning for freedom from the cultural baggage their parents or grandparents brought from the Old Country. His students wanted to learn about Islam based on texts, rather than the customs of the Punjab or Gujarat. They were keen to separate "culture" from the sharia itself. "Culture" was what I kept hearing whenever anyone referred to any practice that had crept in over time and ossified to religious law. Female genital mutilation; caps for prayer; purdah, or the traditional seclusion of women from public view—I'd heard all those things dismissed as "culture, not Islam."

I met two of Akram's star students for tea and cakes one day. Arzoo Ahmed and Mehrunisha Suleman, or Mehrun for short, were both in their twenties; they began attending his classes on weekends in 2005 and never left. Their expertise had soon reached the level where they would be taking madrasa-level exams, which the Sheikh said would make them *alima*, or women scholars, themselves.

Both women were gifted students in secular curriculums as well. Mehrun held a physiology degree from Cambridge, a master's in global health sciences from Oxford, and was pursuing a PhD in the ethics of clinical research. Arzoo had earned two Oxford degrees: one in physics, and a second in medieval Arabic thought. They shared a flat in Oxford, as well as an infectious warmth and articulate confidence. When I met them for tea and cakes in the Ashmolean Museum, they bubbled with an earnest excitement about the Sheikh. "He's a gem," pronounced Arzoo. When I mentioned I had first met him in 1991, her bright eyes widened, and a grin lit her pretty, round face. "You're so lucky!" she sighed. "How amazing!"

The Sheikh's teaching style had evolved over the years they had been studying with him. During his earlier classes, in London, he'd teach very much in the old-school madrasa mode: he'd read the hadith aloud in Arabic and explain a few terms. In a class on *fiqh*, he'd go over the juristic work of the scholars in great detail, explaining the reasoning behind the scholars' fatwas.

"They were quite entertaining, those classes," mused Arzoo. "With the boys asking hilarious questions," added Mehrun.

There were many wacky questions on the issue of *wudu*, or ritual ablution before prayers. "Like, 'When you're in water, in the sea, and it's prayer time, how do you do *wudu*?' " offered Mehrun, shaking her head slowly, smiling. "'Like, 'Do you have to get out and jump in again to do the ablutions?' It was hilarious."

"But he'd never say, 'What a stupid question,'" ventured Arzoo.

The "What if?" crowd gradually stopped coming as the lessons got longer. But after two years, the tenor of the classes changed. The Sheikh walked into the class the first day after summer break and said, "We're not going to focus on reading the book, we're not even going to focus on finishing the chapter," recalled Arzoo. "I'm going to go through this book, and explain why the hadith is written the way it is, why the hadith are put in a particular order."

was a patchwork. When he fretted over how Islam had become mere identity for many Muslims, a matter of clannishness and fashion rather than piety, I recognized myself, only more so. It's just that my identity hinged not on purity or unity, but on its mongrel qualities. As a secular cosmopolitan, I had roots everywhere and nowhere: a Midwesterner with Middle Eastern experience, now married to a British husband, raising kids with Anglo-American outlooks.

* * *

As his reputation in Britain has grown, Akram has attracted many ardent students, men and women who get up on weekends to catch 6:00 a.m. trains, or who gather in carpools in gray British dawns to drive the length of the island to hear him talk. In the early years, when students came in ones and twos, he taught from his living room in Oxford, often starting right after dawn prayers. By the time I began studying with him, he could fill an auditorium. On weekends, his Magnificent Journey lectures, a series on the Quran held in Cambridge, were not just eight-hour lectures, but family outings. Mothers dandled babies. Weather permitting, boys played cricket outside. Three pounds bought you a *biryani* or baguette at lunchtime, and there were always tables set up with cookies and tea, one at the ladies' entrance, and the other at the men's. (I'd blithely ignored the distinction at the first lecture. Having seen Akram's brother Muzzammil waiting in line for tea, I had bounced up to him to talk. I'd reached the front of the tea line and was just reaching out for a cup when a smiling man pointed out the line across the hall. "That's for the Sisters," he said.)

These students of the Sheikh's, who referred to one another as "Sisters" and "Brothers," possessed a marked sweetness and seriousness of purpose. There was the young optometrist who'd told her boss in no uncertain terms that she wouldn't be at work on Magnificent Journey Saturdays. Another woman, Samina, who drove hours from Hertfordshire, regularly dispensed M&M's among the Sisters to help them keep up their strength. Before prayer times, when the lecture hall's bathroom was crowded with women doing *wudu*, or ritual ablutions, the atmosphere had a purposeful conviviality, as women crowded to wash their feet and faces in the institutional sinks. I applied lipstick as they did *wudu*, and I phoned home to check in during prayers, but my fellow students didn't seem to mind that there was a non-Muslim in the class. Quite the contrary: they were curious about the book I was writing, and eager to share their thoughts on the Sheikh.

One Saturday, I met three sisters, none of whom wanted to give their names, but all of whom wanted to explain why Akram's Islamic lectures were so different from any others they'd attended. While many of the ulama refused to take questions from the audience, the Sheikh welcomed them. "His message is a lot more positive, and a lot more spiritual, than the sort of things we grew up on," said one. A petite woman in her thirties, she'd not had time to attend Islamic lectures since her kids were born. Back in the 1990s, she'd found the vibe on the Muslim lecture circuit to be far angrier than the Sheikh's. "There was all this negativity, as though people were trying to push an ideology," she said. "There was this whole judgmental tone. Lots of paranoia. It was 'them' and 'us.' They told us we shouldn't integrate. They'd talk about the jihad and the *kafir*"—the nonbelievers.

The bunker mentality was alienating, and she knew it was a distortion, but back then, "I was very new to it all, so I didn't have the confidence to speak up."

As so often happened when he spoke of the Prophet, the Sheikh's description was vivid and intimate, as though Muhammad were an esteemed living relative, not a man dead fourteen hundred years.

The problem, continued the Sheikh, when he'd stopped chuckling, is that law had hardened into a career. Being a mufti, or legal expert, kept you from going back to the essence of the faith. Like any prestigious profession with its own benchmarks for excellence, work as a mufti is hobbled by convention or precedent. The Sheikh was determined to avoid the stifling effect of the so-called four schools of thought—Maliki, Hanbali, Shafi, and Hanafi, each named after the jurist who founded it. These legal structures, which range from the relatively broad-minded Hanafi school, which dominates in South Asia, to the stricter Hanbali school, common to Arabia—have frequently encouraged divisions in the Muslim community and distracted people with niggling differences of opinion. Too often, *fiqh* simply required one to agree or disagree with earlier scholars, he held, not explore other possibilities. "Once you have a system, you have to think inside it. That's true in medicine, like where drug companies don't want people to look into homeopathy. And it's true in Islam, where the expansion of *fiqh* is preventing people from going back to the Quran and the sunna of the Prophet."

I had a sudden, bizarre image of Akram in a Bay Area coffee shop, with beads, long hair, and a Berkeley PhD. If you closed your eyes and just listened to him railing against the systems, he would fit right in.

There was a kind of machismo associated with laws that hadith didn't possess. "Lots of Muslims think *fiqh* makes you strong," he said, making fists and curving his arms like a circus strongman. "But all these rules lead to extremism, while the Quran, and the Prophet's sunna, want to teach people to be moderate."

He paused. "The more I read it, and the more I think about it, I am increasingly convinced that the only way is to come back to the Quran, and to the hadith." His brow unfurrowed slightly. Differences of opinion on such matters were understandable, he said. Rules laid out clearly in the Quran and sunna must be followed, but as for the raft of issues where jurists disagree, one was free to make one's own choice. "There are so many differences among the Muslim community," he concluded, "and still we survive."

Indeed, it's arguable that the differences within the *umma* have helped Islam to thrive. The simplicity of its basic tenets meant it spread from Arabia to Asia within decades of its birth. Islam's suppleness is one reason the faith is flourishing everywhere from rural Africa to Brooklyn brownstones. But this flexibility has come with a price, for it means that practices not associated with the faith are often bolted onto it, welded into what's considered "Islamic." When I asked Akram about why practices like female genital mutilation are so widespread in Islamic communities in Africa, he observed that Islam allowed local customs so long as they didn't contravene it. "Of course, if these practices hurt people, that's another matter," he added.

Akram had grown up steeped both in his village culture and in his faith. At times, I envied him. He had never been to the movies, and had never had a Hindu friend. But over the course of our yearlong journey, I began to suspect that he was rather more cosmopolitan than I ever would be. His *taqwa*, or God-fearingness, and profound knowledge of his Indian Muslim heritage weren't necessarily blinkers, but anchors. My own identity, both cultural and religious,

Proof of Akram's reach lies in his collection of *ijazas*, diplomas issued by an Islamic scholar or Sufi sheikh. If a sheikh gives you his *ijaza* in a book or subject, you are certified to teach it to someone else. If you've got one, you're in an *isnad* linking you to your teacher, and then to your teacher's teacher, all the way back to the book's original author. More generally, it has come to mean an endorsement, a sort of letter of recommendation. Akram's *ijaza* collection now stands at over five hundred, a number that grows every year. Once, when I went on vacation in Syria, Akram asked me whether I could pick up an *ijaza* from the city's head mufti, or sharia law expert, much as a baseball fan would ask a friend to score a Yankees cap from Manhattan. I duly went to the mufti's office in Damascus and presented him with a letter of introduction from Akram. I sipped tea in his study as he wrote out the *ijaza* and then asked me to take a photo of him behind his desk. "It was lucky you got it for me," Akram noted when we were reminiscing about it. "He died soon afterward."

Whenever I travel to South Asia or the Middle East, I try to remember to ask him whether he needs an *ijaza*. "I don't need one from Delhi," he said, on a recent venture. "But Jaipur ... let me see if there's anyone there..."

* * *

The Prophet Muhammad was often far more flexible than the legal scholars who followed him and developed *fiqh*, the Sheikh assured me.

"For example, if someone has [sexual] relations in the daytime during Ramadan, then in Islamic law, you have to free a slave," Akram explained. "If you don't have a slave to free, then you have to fast continuously. If you can't do that, then you have to feed sixty people."

I nodded. The law itself wasn't familiar, but the severity and specificity of the punishment for transgression chimed with the popular image of a stern sharia law.

"So a gentleman came to the Prophet during the month of Ramadan, and he said to him, 'I must destroy myself, I must kill myself.' When the Prophet asked why, the man explained," said Akram: "'I came home, and my wife had nice jewelry on, nice ornaments, and I couldn't control myself. I had relations with her. And now I don't know what to do.' So the Prophet said, 'Okay, do you have a slave to free?'"

The man didn't own a slave.

"So the Prophet said, 'Well, then you must fast continuously.' And the man says, 'Well, in just one day fasting, this happened! What would happen if I were to fast continuously?' So the Prophet says, 'Well, then you have to feed sixty people.'"

The man didn't have food for sixty people.

"So the Prophet said, 'Okay, stay here,'" continued Akram. "Luckily, somebody had brought the charity of a gift, enough to feed sixty people. So the Prophet came back and said, 'Here, give to the people.' And the man said, 'In the whole of Medina, there's no house poorer than my house. Nobody is worse off than me.'"

Here the Sheikh cracked into a wide smile, slapped his thigh, and shook with laughter.

"And so the Prophet said, 'Okay, so go and eat.'"

exhaustive cataloguing of the Prophet's words and deeds, there's scant information on his inner life, in the modern sense of the term. "We sense very little of his own thoughts or inner turmoil," writes the historian Jonathan A. C. Brown. "Even when his infant son Ibrahim dies and the Prophet sheds tears, his Companions react with surprise. He has to explain to them that he also grieves at such a loss."

Akram, too, had lost a son, a baby who'd died back in India. "It was the one time I'd seen the Sheikh sort of tear up," recalled Damrel. "But still, even so, his focus was on the afterlife." Once, years after the death, I marshaled the courage to ask him about it. I received the briefest of responses. Characteristically, the Sheikh talked not about grief, but about God: "He sends us these issues," he said, "to test us." To the student who raised his hand and asked how to deal with tragedies like a child dying, the Sheikh advised him to follow the Prophet's sunna. "If your son dies, you can weep, but you cannot make noise." When his child Ibrahim died, the Prophet wept, but the tears were silent, and he cautioned Muslims against ripping their clothes or wailing loudly, as the pagan Arabs did.

Most Muslims feel love for the Prophet, but Akram's vast knowledge of hadith tied him to Muhammad particularly tightly. Akram was bound to Muhammad by a heavy set of intellectual chains. For this is what a hadith is: a chain of narration linking people through knowledge of the Prophet Muhammad, down through the generations. The *isnad*, or chain of hadith, is a sort of holy game of telephone stretching across the centuries from the Prophet to the present. Akram has scores of these chains coiled in his memory. His strongest *isnad*—since it is the shortest, with the fewest links connecting him to Imam Bukhari, the great ninth-century compiler of hadith—has just fourteen people in it. At one of our meetings—which happened to be in a kebab house in Oxford, where a CD player blared an Iranian singer warbling of lost love—he recited the chain of names:

My teacher Muhammad b. Abd al-Razzaq al-Khatib informed me, and Abu al-Nasr al-Khatib informed him,

and Abdullah al-Talli al-Shami informed him, and Abd al-Ghani al-Nabulusi informed him,

and Najm al-Din Muhammad al-Ghazzi informed him and Badr al-Din Muhammad al-Ghazzi informed him,

and Abu al-Fath Muhammad b. Abi al-Hasan al-Iskandari informed him, and Aisha bint Ibn Abd al-Hadi informed him,

and Abu al-Abbas Ahmad b. Abi Talib al-Hajjar informed her,

and Abu Abdillah al-Husayn b. al-Mubarak al-Zabidi informed him,

and Abu al-Waqt 'Abd al-Awwal b. Isa al-Harawi al-Sijzi informed him,

and Abu al-Hasan Abd al-Rahman b. Muhammad b. al-Muzaffar al-Dawudi informed him,

and Abu Muhammad Abdullah b. Hammuyah al-Sarakhsi informed him,

and Abu Abdillah Muhammad b. Yusuf b. Matar al-Firabri informed him,

who was informed by Imam Muhammad b. Ismail al-Bukhari.

Once, he dazzled a group of students by reciting a chain of narrators all the way back to the Prophet. Sometimes, out to dinner with important donors to the Centre for Islamic Studies, he'd oblige the director by reciting a chain or two for them. Invariably, they'd beg for more. "People become so amazed, really," he said. "Nobody does this anymore."

Hearing this anecdote, I suddenly glimpsed the narrowness of my own vision of broad-mindedness. In my creed, sex, drugs, rock and roll, and any number of other explorations were fine, so long as nobody got hurt. Such tolerance derived from the assumption that this life is all we have, and that every individual has freedom. Akram's tolerance came from a belief in just the opposite: in a God-centered universe, nobody has freedom, and nobody has the right to judge others. That is God's job. The Quran is not merely a guide, but a means to broaden the mind. "Don't look at this tiny world," he suggested. "Things are much bigger than you can imagine. There's a past beyond your past, and a future beyond your future."

Akram's awareness of his own limits guided his life. Given his status in the British Muslim community, it would have been easy to overstep them. At the mosque and his lectures, Akram was asked to pronounce on issues from paradise to hair dye. Before I watched him at work, I assumed that a sheikh served fellow Muslims much as local Irish or Italian priests once served their flocks: as moral guides who occasionally crossed over into pronouncing on social or political affairs. Sometimes, the Sheikh did serve as a sort of father confessor. But only God, not one's fellow humans, could pass judgment. An *alim's* role was to make life easier for people, not harder: "If a person is going to repent, that's enough, really."

But the engaged Islamic scholar does far more than the parish priest. In Akram's case, it was as though an Ivy League professor moonlit as an advice columnist while serving as an attorney. In his spare time, he wrote scores of books on Islamic theology, Arabic grammar textbooks, biographies of great men, memoirs, philosophy, and even literary criticism.

He'd stop writing in the evenings, when visitors often rang his doorbell or his cell phone seeking advice. Young newlyweds, worried that mortgages violated Islamic bans on interest-bearing loans. Bereaved families observing burial rites. Businessmen, drawing up their wills, asking for guidelines on inheritance law. Fractious couples demanding divorces. (He found his work as marriage counselor particularly satisfying, said his daughter Sumaiya: "He's generally very happy when he's managed to get two people together again.")

Such work drew on his natural kindness, and his cultivated *sabr*—patience. There was the woman who kept phoning—sometimes every ten minutes or so—worried she was not a good Muslim. The very fact that she was concerned, he told her gently, proved she was. He listened to lonely widows and divorcees desperate for husbands for companionship and sex. On occasion, he even made house calls, as when a spooked homeowner asked him to check that his house didn't have jinns (supernatural creatures). "Just call me," he chuckled. "The jinn will run away!"

Much to my frustration, as a journalist trying to create a portrait of him, the Sheikh was a studiously reserved man. In this, he was consciously following in the steps of the Prophet Muhammad. He was also sidestepping the conventions of the confession culture promoted in pretty much every corner of Western civilization, from the couches of Upper West Side psychoanalysts to the pages of Proust. For Akram, serving up one's loves, hates, predilections, and memories in public was alien, if not downright vulgar. "When Muhammad began preaching in seventh-century Arabia, he did not call people to his religion by talking about himself, or about his childhood traumas!" he once exclaimed. Indeed, despite the

the Prophet used to. He would eat breakfast with his right hand, just like the Prophet, and comb the right side of his hair first. Before using the toilet, he would utter the Prophet's customary prayer: "Oh, Allah! I seek refuge with you from all evil and evildoers." There was a prayer, too, on leaving the toilet, just as there was one on leaving the house. His observance of the Prophet's sunna spread beyond mere habit and into manners. He didn't ever want to keep his guests waiting, because the Prophet never did. Since the Prophet always used to go to the mosque after returning from a journey, so as not to take his family by surprise, the Sheikh made sure to phone his own family to tell them he was coming home.

Following the way of the Prophet, Akram once counseled, "makes life so much easier." Take social gatherings, he ventured. Suppose you're serving guests some water. Do you start with the more important guests? The elders or the kids? Easy, he responded: start from the right, since that's what the Prophet did.

As a youth, Akram had begun a lifelong effort to emulate the Prophet, not just in habits and manners, but in character. Because the Prophet had counseled his Companions "to do things gently and softly," Akram tried to do the same. "When I was young, I made an effort to control my anger," he said. It worked. "Now, to become angry is an effort with me!"

The Muslim men who make the headlines tend to focus on the Prophet as a political leader. Not the Sheikh. For him, Muhammad was primarily a teacher about the fires of hell and how to avoid them. "The Prophet is not calling people to get power, or to establish an Islamic government," he said. "He's teaching them one thing: to follow the plan of their Creator and to save people from the fire of hell." Unsurprisingly, for a man who often gives eight-hour seminars, Akram was keenly attuned to Muhammad as someone who would try, over and over, to explain his message. "He never forced people to believe anything," Akram told me. "Anybody who forces people to change their beliefs, they are not a teacher. Learning should come from understanding properly, not from being forced."

Once, I asked Akram what it was he most admired about the Prophet. He thought for a moment, and then said quietly, "That he knew his limits." He knew his limits as a husband, not presuming to dictate to his wives how to behave. He also knew his limits on what lay in other people's hearts. A well-known anecdote tells how, during a battle against a non-Muslim tribe, a Companion killed a man who—just as the blade fell—had pronounced the *shahada*, "There is no God but God, and Muhammad is His Prophet." The Companion thought the deathbed conversion was insincere, but the Prophet Muhammad refused to presume. "Did you split open his heart?" he demanded of the Companion. Only God truly knew what lay inside it.

Akram showed a similar reluctance to pass judgment. David Damrel, who shared an office with him at the Centre, recalled the phone ringing one day with a frantic parent on the line seeking advice from the Sheikh. Their unmarried daughter had revealed she was pregnant. What should they do? Sex outside marriage was denounced as a major sin in the Quran. "Akram's answer surprised me," said Damrel. "He told them, 'This poor woman has already sinned, so there will be consequences in the afterlife.'" But on earth, in this life, a parent's role was to ease her way. "He told them to help and support her," recalled Damrel, "and not to judge her in this world."

Muhammad as a warrior grew during the Crusades, providing useful propaganda for societies embarking on holy wars to wrest Jerusalem from the clutches of the Saracens. The image of a faith built on military conquest endured long after Jerusalem fell: in 1744, George Sale, who produced the first English translation of the Quran, would write that "Mohammadanism was no other than a human invention, [which] owes its progress and establishment almost entirely to the sword." Today's image of Islam as a faith of terrorists fits neatly into the tradition of Crusader tales.

In truth, the nine battles Muhammad fought were mere skirmishes. In the Prophet's great victory against his enemies in Mecca, the Muslims lost fourteen men, and Meccan casualties numbered just seventy. In the Prophet's great defeat, only sixty-five Muslims died. Centuries of polemic, however, mean the Western obsession with the Islamic sword continues to this day. Aided and abetted by the actions of jihadis, the old images endure. Media headlines and online computer games invoke "the Sword of Islam." Cartoonists have drawn Muhammad brandishing scimitars, and with a ticking time bomb for a turban.

The Prophet Muhammad became a target for polemicists almost from the moment he began receiving his revelations. For a revolutionary, that was just part of the job. "Prophets," the Sheikh once observed, "must be prepared to be hated, as they love to be loved." But in Muhammad's case in particular, all this mythmaking stood in stark contrast to the details of his life, set down with reverent obsessiveness in classical Islamic sources. In the history of the world, no major prophet has had his life recorded so closely as the Prophet Muhammad. After the Prophet's death, his Companions—a lovely term, more democratic than "Disciples" and friendlier than "Followers"—recorded every detail of his words and deeds that they could remember. These details were assembled into collections of hadith, which gathered together are seen as Muhammad's sunna, or practice. Hadith collections contain information on everything, including the way the Prophet used to eat, make love, wash, and praise his Lord. For a snapshot of hadith's wide horizon, I opened one of Akram's books on jurisprudence. Here's a chunk from the index of hadiths, picked at random:

The Prophet once prayed a funeral salah and then went to the grave of the deceased and threw three handfuls of soil from near the deceased's head

The Prophet ordered that masjids built in the houses must be cleaned and perfumed

The Prophet ordered the martyrs of the Battle of Uhud to be buried in their bloodstained clothes

The Prophet ordered the mu'adhdhin [the callers to prayer] to say: "Pray in your places," on a cold, raining night

Here, in four random moments from the Prophet's life, lie the roots of Islamic law on burial, mosque maintenance, and the leeway to pray at home instead of the mosque in stormy weather. "The Quran is guidance, it's not laws," Akram once told me. "It gives you the direction. Like if you want to go from here to London, it's basically south. The Prophet comes and gives the main roads to make it easier." Muhammad's wife Aisha called him "the Quran walking." For Muslims, his life mapped out Quranic values on a human scale.

* * *

In daily life, the Sheikh would try to follow the Prophet's example in scores of ways. Whenever he walked into the kitchen, he placed his right foot first, as

the Prophet recognized that they needed to emigrate, and he began dispatching them to Yathrib, 210 miles away.

In AD 622, on news that the Quraysh were plotting his murder, Muhammad himself joined the other Muslims in what was to become Medina, or "the City," short for "City of the Prophet." The move, known as the Hijra, or "migration," was so pivotal as to mark the start of the Muslim calendar. In Medina, Muhammad and his Companions were to build Islam's first mosque: a courtyard with a roof of palm fronds supported by trunks, surrounded by huts for Muhammad's family. It was there that his role as a spiritual leader expanded to include a political role as well. He became the de facto leader of a multifaith community, drawing up the Constitution of Medina, which outlined the rights and responsibilities of Medina's inhabitants, whether Muslim, pagan, or Jewish. It was a pact of mutual nonaggression, recognizing people's distinct affiliations yet guaranteeing justice for all. "To the Jew who follows us belongs help and equality. He shall not be wronged, nor shall his enemies be aided. The peace of the believers is indivisible." All disputes were to be settled by Muhammad. All clans would be allied to defend Medina from outsiders.

The years in Medina were marked by military clashes with the Meccans. Nine battles and eight years later, Muhammad rode into Mecca in triumph, without bloodshed. The Prophet's first act: to enter the Kaaba and smash the Arab idols in it with his staff. His final years were spent teaching and consolidating Islam as Arabia's preeminent religious and political force. In 632, not long before his death, he performed his final hajj, during which he addressed 144,000 pilgrims from a mountain outside of Mecca. A few months after his speech, he died.

* * *

Much like the Quran itself, Muhammad's life is so rich that one can find pretty much whatever one wants in it. People have ascribed any number of roles to the Prophet, revealing rather more about themselves than Muhammad: politician, diplomat, warrior, devoted family man, polygamist, human rights advocate, revolutionary. The Marxist Islamist Ali Shariati, preaching against the Shah's regime just before Iran's revolution, found a fellow traveler in Muhammad. Jihadists stress his wars; humanists stress his mercy when he won them. Those working for social justice cite his charity toward the poor; his generosity frequently left his own family hungry. Islamic feminists invoke him as a gender revolutionary, Islamist statesmen as a democrat and author of the world's first constitution.

Non-Muslims have handpicked from the Prophet's life to bolster their own polemics. The Enlightenment philosopher Voltaire used Muhammad in his arguments against clerical power and superstition, writing a play called *Mahomet, or Fanaticism*. The nineteenth-century writer Thomas Carlyle considered him a hero. Others were less complimentary, their slurs against the Muslim prophet tending to fall into one of three camps: clerical, sexual, or military. From the eighth century onward, Christian writers, defensive about this young upstart faith, denounced Muhammad as an impostor, a liar, a Christian heretic, or a magician, intent on undermining the Church. Sex provided another preoccupation of hostile Western orientalisks, starting with the medieval Christians. Learning of the Prophet's polygamy, they vigorously applied themselves to attributing all sorts of perversions to the Muslim prophet. Medieval Europe's obsession with

the one who taught the use of the pen,
taught man what he did not know. (96:1-5)

Terrified at the words tumbling out of his mouth, Muhammad assumed he was possessed by a jinn—an evil spirit. He rushed out of the cave and began climbing the jagged mountain, preparing to hurl himself off it in despair. On the precipice, he heard the voice of the angel again. “Oh, Muhammad,” Gabriel said. “You are the Messenger of God.”

After that first encounter, Muhammad would continue to receive revelations for the next twenty-three years, until his death in AD 632. The 6,236 verses of what would eventually become the Quran are by turns lush and harsh, poetic and prescriptive, intimate and majestic. Some verses came down unbidden, catching the Prophet while he was eating dinner or having his hair washed. Others arrived in response to a particular issue Muhammad or his community faced. Sometimes Gabriel would arrive at a public gathering, or appear while Muhammad was strolling in the desert. At times, a ringing bell announced the advent of the verses. Some messages descended in pictures, others in dreams.

None came to Muhammad easily. At times, he would burst into sweat from the strain. “Never once,” he said, “did I receive a revelation without thinking that my soul had been torn away from me.” After a verse descended, he would recite it aloud to his Companions, the earliest Muslim converts. Some would memorize it, and the men Muhammad had designated as scribes would set it down, preserving the verses on palm leaves, scraps of wood or parchment, or the shoulder bones of camels.

Aside from his few Companions, the rest of Mecca wasn’t nearly so receptive. He was a madman, it was whispered in the souk. One of those poets-for-hire or soothsayers who plied their trade on the caravan routes. He was pelted with garbage, with dirt. A sheep uterus. No matter. He kept preaching.

The message he brought made him powerful enemies. Islam’s concept of a single, all-powerful deity challenged Arabia’s polytheists—and Mecca’s economy. Much of the town’s wealth derived from the hajj, the region’s annual pilgrimage to the Kaaba, or the black granite cube housing idols of the various gods worshipped by tribes. The idea of a single omnipotent God overthrew the traditions of tribal gods—and the 360 statues of them kept in the Kaaba.

Muhammad’s social egalitarianism challenged prevailing social hierarchies. Mecca’s power brokers weren’t keen on a man preaching that all people are “as the teeth on a comb.” Much like the first followers of Jesus, Muhammad’s earliest Companions were often drawn from the poor or disenfranchised sectors of society. To a tribal culture, Islam brought a radical new concept: a community based not on family or clan, but on faith. No longer could wealth or bloodlines protect you. Just piety.

The new faith introduced other forms of equality as well. Islam didn’t tolerate the Arab custom of burying girls at birth. Women were no longer to be regarded as chattel, but as human beings with rights to inherit property and to dispose of their own wealth as they saw fit. The rich should give to the poor. All races were equal under God.

For twelve years after his first visit from the Angel Gabriel, Muhammad stayed and preached in Mecca. But as opposition from the town’s powerful ruling Quraysh tribe grew, and as his Companions faced increasing persecution,

"Yes, right! Because at the end of the day, every religion and creed calls for justice. Everybody knows you need to be nice to people. To give people justice and their rights, to do charity. You don't need Islam for this! Doesn't the United Nations have the same concerns? These ideas you can make from your own home!"

Islam anchored these universal human values in the history of the Prophet Muhammad. "This morality is not abstract," said Akram. "They are connected to the details of a history, the life of the Prophet Muhammad." Loyalty to that history—to the Prophet's sunna, or words and deeds—is what makes Muslims different from all the other humans striving to be good. Preserving the Prophet's sunna in everything one did, from brushing one's teeth to building a system of government, thus became a sacred act. "Islam has been revealed to the Prophet Muhammad, and he taught it to his Companions, and now it is a duty for us to transmit it to the next generation exactly as he transmitted it to them."

The caffeine had hit my bloodstream, and my deep-seated skepticism about there being a single history—of absolutely anything—spilled over.

"But surely, Sheikh, that history depends on who tells it? You of all people should know that. The history of women scholars, before you went back and found them, had been pretty much erased—probably because Islamic history had always been told by men."

"Yes, of course, you have to verify this history. You have to weigh it up, look at different reports. You have to look at the sources, and examine if there is any way to prefer one over the other one."

Then he had to hang up. He was sorry, but some visitors had come to see him. They'd come all the way from Boston, in America, and he didn't want to turn them away. There had been a bombing at a marathon, by two men claiming to act in the name of Islam. There was advice to be dispensed on how to respond.

* * *

By the standards of any era, the Prophet Muhammad's life was extraordinary. Born in AD 570 in Mecca, he was orphaned young in a society where family and clan were a person's only sources of protection. Penniless and parentless, he was raised by his grandfather and later by his uncle, growing into a striking man, with dark, intense eyes and long hair that he wore in two braids. As a young man, he worked as a simple shepherd in a town built on trade. His natural gravitas soon drew the attention of Khadija, a widow who was one of the wealthiest Meccan traders. She had heard of the bright young man known around Mecca as al-Sadiq al-Amin, the Trustworthy. She entrusted him to take a caravan to Syria, and later, despite being fifteen years his senior, married him.

One day when Muhammad was alone in a mountain cave near Mecca, his habitual spot for spiritual contemplation, he suddenly heard a pronouncement by the Angel Gabriel: "Read!" Bewildered, the forty-year-old Muhammad asked what it was that he should read. "Read!" pressed the angel, embracing and squeezing the terrified man so tightly that he thought he would die. Muhammad protested that he was not a reader. After a second and third heart-stopping embrace, Muhammad stopped resisting and began to speak the words that crowded into his head:

Read, in the name of your Lord, who created:
created man of clotted blood.

Read, for your Lord is most generous,

on prayer caps. Was it necessary, one man asked him, for men to wear prayer caps when they prayed? No, responded Akram. It was simply a South Asian custom, not an Islamic requirement at all. The congregation was nonplussed. To pray bareheaded? But their fathers had prayed in caps, and theirs before them! Outrageous.

Another controversial fatwa: the Sheikh's declaration that women could cut their hair short. Consternation. Did this endorsement of hair cutting mean the Sheikh was preaching Westernized thinking? Had he been swayed by fashion into forsaking Islamic doctrine? As it turned out, he had based his fatwa on a hadith that reported that after the Prophet died, his wives all cut their hair short. If short hair was good enough for the Prophet's widows, he reasoned, it was certainly permissible for the Muslims of today. "Some people think women shouldn't cut their hair short, because that is what Western women do," the Sheikh said. "They think I am a liberal. But really, I am just going back to the sunna of the Prophet."

For a time after the prayer cap controversy, the invitations to speak at mosques dried up, leaving the Sheikh without a place to teach. So he began giving lessons from his living room, starting at 6:30 in the morning. In time, usually accompanied by his daughter Hala, he began filling seminar rooms, and later mosques and auditoriums. Sometimes, the suspicions that he was a "liberal" meant that mosque officials would ask him to muffle his message. When he first went public with his work on women scholars, various men begged him not to publish. They didn't doubt his scholarship; they knew the sources he based his research on were authentic. But it would make them look bad, particularly in the eyes of the West. Sometimes when the Sheikh visited a mosque to deliver a speech, the mullah asked that he not mention some fatwa or other lest it upset the congregation. One mullah in the north of England asked the Sheikh not to mention his fatwa on the *niqab*, the veil that leaves just a slit for the eyes. In that mosque, most of the women wore it, he explained. Akram's opinion that *niqabs* are optional, not obligatory, might create a stir. Ever the polite guest, Akram complied.

* * *

If the Quran served as the spiritual and philosophical foundations for the Sheikh, the Prophet's life was a model for how he put them into daily practice. "Islam is not an idea," he told me one day via Skype. "It is a history."

A mere three sips into the first coffee of the morning, I was confused, and said so.

"Well, in other religions, such as Christianity, they emphasize abstract ideas, like closeness to God, and being a good neighbor, and loving one another."

"So aren't you concerned with these values, too, as a good Muslim?"

"Yes, of course, but we don't want spirituality to come through these big ideas. Christians are not so concerned about what Jesus did. They're not concerned with the details of the way he led his life. Our spirituality comes through doing the five prayers, as the Prophet Muhammad did. Or through giving charity, just as the Prophet did. We want the closeness to God through this history." Without the particulars of this history, Islam wouldn't be so very different from any other faith, the Sheikh observed.

Or even, I hazarded, from my own secular set of values.

devotion to Lear in loud and tinny voices, Cordelia merely said: "Nothing." Like Lear's youngest, Akram refused to join in the passion play of politicized emotion. He wouldn't play the part of the insecure migrant torn between cultures. He wouldn't agree to being one of those Muslim mummies featured on the news, vengeful and furious. As postcolonial storms raged in India and Britain, he sat watching. To those looking for a good show, a spectacular clash of civilizations, he said nothing.

Cordelia may have been the still and sane voice of morality in *Lear*, but boy, did she suffer for it. She was exiled, jailed, and by the end of the play, dead. Akram's independence had made him a target for criticism, too. In a post titled "Dr. Akram Nadwi's disastrous mistake!" one blogger ranted that Akram was "the epitome of the word controversy" and that he "seeks to undermine the sunnah by demeaning the practices of Islam." For a time, there was a blog called "Akram Nadwi's Strange Views," whose posts included discussions of the Sheikh's attitudes on topics ranging from "Segregation" to "Wearing Pig Hide/Leather."

In one online chat room, I found someone calling him a Salafi, a proponent of the rigid, puritanical Islam now associated with fundamentalists and zealots who condemn anyone who deviates from their strict moral codes. (After the Arab Spring, a *New York Times* headline read "Don't Fear All Islamists, Fear Salafis.")

Somewhat nervously, I called to ask why people might be calling him a Salafi.

"Simply because I say we should come back to the Quran and the sunna of the Prophet," he replied mildly. "Salafis say this, too."

I nodded, thinking that I'd heard exactly the same back-to-basics call from Islamic feminists and progressives. Then again, I had also heard this repeated by jihadis, reformists, modernists, neotraditionalists, queer Muslims, dictators, democrats, and Marxist-Socialists. Regardless of the labels they choose or have chosen for them, Muslims agree on one thing, at least in theory: the primacy of the Quran and the hadith. "Anybody who claims legitimacy in an Islamic context ultimately has to root their discourse in the founding narrative," Tim Winter had reminded me. "It's the same with Christianity."

The Salafi label still intrigued me, though.

"So, uh, are you a Salafi?" I persisted.

"No," he answered. "I'm not this, I'm not that. I'm just Muslim."

In such a politically riven environment, he explained, it was hard to convince people that one is truly independent. "In the beginning, when I started lecturing, people thought 'everyone belongs to a group,'" he said. "Now, most people realize that I don't belong to one."

It was true that he'd shared platforms with a motley assortment of fellow Muslims, from psychiatrists and conservative Deobandis to Sufi mystics and female professors. Appearing onstage with women speakers had even landed him in trouble with various firebrands who suggested that the shared platform violated the tradition of keeping the sexes separate. No woman, they claimed, should address an assembly of men.

Most unnerving for some of his fellow Muslims have been the times the Sheikh has pointed out practices that have nothing to do with Islam, but with habit or cultural tradition. When the Sheikh first came to Oxford and began giving sermons at his local mosque, he shocked the congregation with his views

At the time, the Salman Rushdie controversy still roiled in mosques and the media. The Ayatollah Khomeini's fatwa, calling for the death of the novelist whose book he said insulted Islam, remained a very real threat to Rushdie. The novel dares to raise questions of the Quran's authenticity as the word of God, and it contains scenes depicting a brothel with whores who take the names of the Prophet Muhammad's wives. Muslims around the world saw the book as a slur on the Prophet Muhammad, his family, and the Quran.

The wounds were especially raw in Britain. The British Muslim community draws overwhelmingly from South Asia, a region where sensitivities about both the Quran and the Prophet Muhammad are particularly keenly felt. While Arabs can claim the Prophet Muhammad as a fellow Arab, and Arabic as a shared language of the Quran, subcontinental Muslims cannot, so defending the honor of the Prophet and the Quran can become a precious cultural totem. First- and second-generation South Asian Muslims were pained that Rushdie, a fellow Indian Muslim migrant, would turn on the most dearly held aspects of their Islamic culture to spin a bit of fiction. The Rushdie affair galvanized British Muslims as no issue had before, bringing bearded men in *shalwar kameezes* and *karakul* hats into Britain's streets and consciousness. They burned books, shook placards, hoisted ugly effigies of Rushdie wearing horns. The controversy was not just a lightning rod for the general discontents of a young and tender migrant community. It was also a blunt sorting tool for those who would seek to sort the world into "moderates" and "radicals"; into "us" and "them."

So it was hardly surprising that the Centre's director wondered what the young scholar, fresh out of madrasa, thought Muslims should do about Rushdie's work.

"Ignore it," replied the Sheikh.

In the fevered climate of 1991, suggesting a do-nothing strategy meant condemning oneself to a cultural no-man's-land. Camps had been established. Deep trenches had been dug, dividing the protectors of free speech and "Western" values from the defenders of the faith. "At that time, everyone thought we should protest," said Akram.

To suggest ignoring both the novel and the fatwa? How, exactly, would that work? What cultural team did this young madrasa grad play for?

Islam's, it turned out. Protesting, the Sheikh reasoned, would only hurt Muslims. The *Satanic Verses* firestorm didn't injure God or the Prophet, neither of whom needed defending. But it did great damage to the world's view of Islam. "When we did march and protest, no single person changed their mind about Islam," he said. Had British Muslims used the controversy to correct misconceptions and reach out to the wider British community, it might have done them some good, said the Sheikh. But burning books and complaining were a waste of time.

Besides, as a scholar, he didn't think much of the Ayatollah's fatwa. "It was a useless fatwa, of no benefit to Muslims," recalled the Sheikh. "It was more of a political fatwa than a real one. After the war with Iraq, Khomeini was not very liked in Muslim countries. This was just Khomeini trying to get back respect in the hearts of the Muslims."

When Akram recounted his unwillingness to engage in the *Satanic Verses* controversy, I was reminded of Cordelia, King Lear's daughter, who refused to produce a public display of love for her father. While her sisters proclaimed their

A Muslim in the West

When I tell people that I am studying with a Muslim scholar, the first thing non-Muslims usually want to know is what kind of Muslim scholar. "A moderate?" they'll ask. "Or a fundamentalist?" Or sometimes, "Is he liberal or conservative?" The terms vary; the subtext doesn't: Is he "one of us"? Or "one of them"? This is the language we are left with, after the trauma of recent decades. It's now too easy to slot people into the neat grooves worn by the media and the "clash of civilizations" crowd.

But how to characterize the Sheikh? Hours in the library with a stack of books on modern Islamic movements didn't help. Does his work on women scholars make him progressive? Do his calls to return to the Quran and traditions of the Prophet make him a reformist, or a neotraditionalist? Do his literal readings of the Quran on the flames of hell and the lush gardens of paradise make him a Salafi or a Wahhabi?

The more I studied with the Sheikh, the less helpful I found all the available labels, both Western and Muslim. What is the Sheikh, anyway? A traditionally trained scholar who scandalizes conservatives and disappoints progressives. And sometimes just the reverse. A champion of women's rights who accepts that Islam allows polygamy. A defender of individual conscience, but not Western-style individualism. A champion of creative thought, so long as it's based on proper Islamic scholarship and classical sources. Think for yourselves, he counsels students, but don't change Islam's God-given Truth. "The Message," he cautions, "is the Message." He is traditional, yet is frequently criticized by others claiming to be traditional. He is a proponent of fundamentals who draws fire from fundamentalists. Every time I thought I'd found a term to describe him, the opposite also seemed to apply. To try to categorize the Sheikh was to flail.

As it turned out, flailing was entirely appropriate. I discovered this, to my relief, when I visited Tim Winter, a professor of Islamic studies at Cambridge University. Trying to fit Islamic thinkers into Western categories was a nonstarter, he told me. "Islam doesn't have a spectrum," said Winter, who also goes under his Muslim name, Abdal Hakim Murad. "There are Muslims who come from very literalist traditions who are massively pro-women. There are others who are very mystical, but also very political. Any combination is possible. The danger is always when you try to impose the idea that Christianity is the default religion."

I left Winter's office vowing to try to avoid rigid categories. I'd flail on.

* * *

Even Akram's fellow Muslims seemed to have a difficult time pinning him into the available categories. "He's very conservative, isn't he?" said an activist, after meeting him to discuss his work on Islamic scholars. No, indeed, he's very liberal, said the outraged Muslims who thought that his work on women meant he was championing unrestricted mixing between men and women.

When Akram first arrived at the Oxford Centre for Islamic Studies in 1991, the Centre's director "wanted to know my mind," he recalled. The director was a suave administrator with well-cut suits and a keen interest in fundraising, and so he administered what was, back then, the litmus test for Muslims. What, the director asked Akram, should be done about *The Satanic Verses*?

To read the Quran was to shoulder a legacy, but also to shuck it off. What my father had begun—this need to connect with the foreign by pacing up and down Asia—I would continue. Except that my exploration would be conducted through a scripture, and a friendship. His journeys were taken in a world where exoticism still—only just—existed. Mine was to be an expedition for a connected, globalized world, a world in which the geographic distance between the Muslim world and the West was disappearing, where increasingly “Muslim” and “Western” were not diametrically opposed, but overlapped.

wars. They raised children, built mosques, started lobbying and voting in their new countries. They bridged the distance between those two seemingly distinct spaces, "the Islamic world" and "the West."

* * *

For Edward Said and the postcolonial critics inspired by him, the West saw the Islamic world as static, peopled by types rather than living, breathing people. The epigraph to his seminal work, *Orientalism*, was a quote from Karl Marx: "They cannot represent themselves; they must be represented." Working as a journalist, there were moments when I saw this premise at work. In a story meeting, discussing how we should cover a horrific bombing in Israel, I suggested that we might want to get a Palestinian reaction as well as an Israeli one. "I think we know what they're thinking," snapped an editor. My first month at *Newsweek*, in 1995, I was sent to write a story on tensions between Christians and Muslims in inner-city Philadelphia. When I got there, I found peaceful coexistence, and reported accordingly. But right before we went to press, I found myself pleading with an editor not to run the headline screaming above the piece: "Jihad in the City." To his credit, the headline was changed.

Again and again, the categories we had used to describe Muslim groups collapsed on close scrutiny. The term "Taliban" has become synonymous with puritanical anti-Western fighters. But on a reporting trip to the Taliban's Kabul, I heard the foreign minister's press secretary rhapsodize, in excellent Italian, about the gardens of Rome, from his days studying archeology there. Another high-ranking Talib mused on the glories of Las Vegas: "An amazing place," he said. "But I lost ten dollars in the machines of Caesars Palace." The young Talib named Jang who was assigned to *Newsweek's* photographer Nina and me as a guide was no terrifying zealot, but a terrified young boy, one who, we surmised, had never before spoken to women outside his family. He would chew on the ends of his turban cloth and blush if we laughed. "Dear sister," Jang would say, giggling. "I have never been with journalists before." Even our questions about mountains and street names seemed to embarrass him: once he even buried his head in his hands. "If you really want to scare him, you could touch him," suggested a middle-aged Afghan man. We never had the courage, and remained obligingly timid with him during our visit. In private, we called him "our Talib."

Knowing that stereotypes often crumbled when examined up close, I wrote feature stories on Islam, ones I hoped would serve as counterpoints to the Muslims who made the news pages. I covered innovative mosque designs, Islamic entrepreneurs, and hip Bay Area Muslims. Such pieces were well-meaning but superficial. I made snapshots of Muslim lives rather than considered portraits of them. The subtext was that these Muslims were just like Westerners, and my stories reminded me of those pages in the supermarket tabloids showing celebrities doing ordinary things, like carrying squirming toddlers or sipping lattes. Muslims buy stocks and shares, just like regular folks! They network! Work out! Guzzle energy drinks, so long as they're halal! These pieces were a break from the news parade of jihadis and burqaed women, but they still shuttled between the worn poles of Same and Different. They still took Western culture as the North Star, the guiding light around which every other culture must arrange itself. These articles were less about Islamic culture on its own terms than about the West and its obsessions.

view, Western depictions of Eastern cultures were pageantry, an extension of the very real political and economic subjugation of Asian and African peoples by European colonial powers. Studying the British Raj in India, I recognized my parents in rough outline in the descriptions of the sahibs who came to lay down Westminster's laws in Bengal, or the memsahibs who recreated Wiltshire gardens in the Punjab. With his grant from Washington to help codify Afghan constitutional law, my father wasn't part of a formal empire. Still, his presence in Kabul, along with that of many other Americans, hinted at the desultory Great Game played in Afghanistan between the Soviets and the Americans. Before the Russians finally invaded in 1979, it played out in tit-for-tat development projects. The Soviets built Kabul's airport; the Americans provided its communications and electronics. The Soviets hollowed out the Hindu Kush to make the Salang Pass; the Americans dug a dam in Helmand.

To be an American kid in Kabul was to be doubly childlike: high compound walls and Westerner-only clubs and commissaries preserved an imperial detachment from Afghan society. In many ways, my life in Kabul was more American than it was in St. Louis. We watched *Star Wars* on a Betamax, played tennis, and lived in a white two-story house with a dog and a yard. "Just like a Southern Californian split-level," my mother wrote, "if you squint hard enough!"

Like most British sahibs of the Raj, we had limited relationships with the locals. We were fond of our servants, and we exchanged pleasantries with the Supreme Court justices and ministry officials who occasionally came to dinner. But memories of my time in the region are curiously devoid of real friendships, or even extended conversation, with Afghans. With his good Farsi and his weekends spent with rug merchants, my father was, of the four of us, the closest to Afghan culture. Later, he would say that his years in Kabul were the happiest in his life.

In a way, his generation was the last to indulge in the orientalist fantasy of a distant, self-contained Islamic world. In the 1960s and 1970s, Westerners could just about convince themselves that Islam lay in lands far, far away, just as they had done since 1095, when the Crusaders rode off to wrest Jerusalem from the Saracens. Up until 1979, one could go to the East to find one's personal bliss in a hash bar or a Sufi lodge, or to forge a career building dams or roads or penal systems. Back then, before the Iranian Revolution, before the wars in Afghanistan, the Middle East and Central Asia remained in their place.

Today, the space between the United States and Afghanistan has shrunk to nothing at all: mothers in Milwaukee fret about foot patrols in Helmand. Kandahar is a household word, and Kabul a routine PR stop for presidents and generals. Migration, as well as war, has smudged the lines between the Muslim and non-Muslim worlds. There were Muslims living in the West during my father's day, of course, just as they had for hundreds of years. But it wasn't until the 1960s and 1970s, when migrants from former European colonies began settling in the West and raising children, that there was a sense that Islam would remain a permanent presence there. In the eighties and nineties, the immigrants were joined by refugees from dictatorships and wars. To Paris and Peoria, Berlin and Los Angeles came Iranians on the wrong side of their revolution; Iraqis persecuted by Saddam Hussein; Libyans hoping to outrun Muammar Ghaddafi's secret services; and Algerians, Afghans, Somalians, and Sudanese fleeing civil

twenty-five-hundred years of the Persian monarchy. Party planners built walls hiding whole neighborhoods, lest the foreign dignitaries have to look on them. A florist flown in from Versailles coaxed a rose garden from a scorpion-infested desert at Persepolis. In air-conditioned tents, world leaders drank 1945 Château Lafite-Rothschild and ate roast peacock. The guests were dressed in clothes that could have been conjured in the fevered dreams of a five-year-old: even Haile Selassie's dog wore a diamond-studded collar.

For years before the Persepolis celebrations, both secular and religious critics of the regime had been preaching against this cult of Western-imported surfaces. Many were exiled, imprisoned, or hassled by SAVAK, but their words reverberated from exiles abroad and were circulated in banned pamphlets. In 1962, the Iranian writer Jalal Al-e-Ahmad clandestinely published *Gharbzadegi*, or *Plagued by the West*, an attack on the Iranian elite's obsession with aping the West. "A West-stricken man ... is like a dust particle floating in space, or a straw floating on water," wrote Al-e-Ahmad. "He has severed his ties with the essence of society, culture, and custom."

Studying the history of the region only increased my sense that we'd been oblivious to the societies we had lived in. As individuals, we were hardly Ugly Americans. And yet, for all my parents' Farsi lessons and fascination with Iranian mosques and carpets, I realized we'd been part of what amounted to an American invasion of Iran in the 1970s. Though culturally sensitive, my mother and father were still members of the fifty-thousand-strong force of Americans brought to consult on pipelines and penal codes or to sell refrigerators or missiles—and to drive Iran along the road to Westernization.

Because we were American, the laws of the land couldn't touch us. I witnessed our inviolability one cold winter night when my family had arrived in Shiraz on a sightseeing trip. As my parents unloaded the bags from the taxi, they told me to watch out for my two-year-old brother. I didn't, at least not closely enough, and he waddled into the street, to be knocked down by a truck. He was fine, if stunned, but the incident drew a crowd, and a couple of policemen. My parents assured the officials that the fault lay not with the truck driver but with them, for thoughtlessly leaving a toddler in a five-year-old's charge. Still, the driver was hauled off to prison, for the simple reason that we were Americans. The Shah had signed an accord with Washington, known by Americans as the Status of Forces Treaty (SOFA) and by Iranians as the Capitulation Treaty, which gave Americans immunity on Iranian soil. My father spent the rest of the night at the police station, pleading for the driver to be released.

I thought no more of the incident until some two decades later, when my Farsi professor at Oxford had us translate one of the Ayatollah Khomeini's sermons. Dating from 1964, just after SOFA, it was the speech that would get the Ayatollah banished from Iran until the fall of the Shah. "If someone runs over a dog belonging to an American, he will be prosecuted," Khomeini noted. "But if an American cook runs over the Shah, the head of state, no one will have the right to interfere with him."

Other readings added troubling new dimensions to my memories. In college, like millions of other students in the 1980s, I became enamored of the works of the literary and cultural critic Edward Said. For centuries, he wrote, the Western vision of the East had been a fantasy—one that had more to do with Western fears and imperialism than it did with the societies themselves. In Said's

view, Western depictions of Eastern cultures were pageantry, an extension of the very real political and economic subjugation of Asian and African peoples by European colonial powers. Studying the British Raj in India, I recognized my parents in rough outline in the descriptions of the sahibs who came to lay down Westminster's laws in Bengal, or the memsahibs who recreated Wiltshire gardens in the Punjab. With his grant from Washington to help codify Afghan constitutional law, my father wasn't part of a formal empire. Still, his presence in Kabul, along with that of many other Americans, hinted at the desultory Great Game played in Afghanistan between the Soviets and the Americans. Before the Russians finally invaded in 1979, it played out in tit-for-tat development projects. The Soviets built Kabul's airport; the Americans provided its communications and electronics. The Soviets hollowed out the Hindu Kush to make the Salang Pass; the Americans dug a dam in Helmand.

To be an American kid in Kabul was to be doubly childlike: high compound walls and Westerner-only clubs and commissaries preserved an imperial detachment from Afghan society. In many ways, my life in Kabul was more American than it was in St. Louis. We watched *Star Wars* on a Betamax, played tennis, and lived in a white two-story house with a dog and a yard. "Just like a Southern Californian split-level," my mother wrote, "if you squint hard enough!"

Like most British sahibs of the Raj, we had limited relationships with the locals. We were fond of our servants, and we exchanged pleasantries with the Supreme Court justices and ministry officials who occasionally came to dinner. But memories of my time in the region are curiously devoid of real friendships, or even extended conversation, with Afghans. With his good Farsi and his weekends spent with rug merchants, my father was, of the four of us, the closest to Afghan culture. Later, he would say that his years in Kabul were the happiest in his life.

In a way, his generation was the last to indulge in the orientalist fantasy of a distant, self-contained Islamic world. In the 1960s and 1970s, Westerners could just about convince themselves that Islam lay in lands far, far away, just as they had done since 1095, when the Crusaders rode off to wrest Jerusalem from the Saracens. Up until 1979, one could go to the East to find one's personal bliss in a hash bar or a Sufi lodge, or to forge a career building dams or roads or penal systems. Back then, before the Iranian Revolution, before the wars in Afghanistan, the Middle East and Central Asia remained in their place.

Today, the space between the United States and Afghanistan has shrunk to nothing at all: mothers in Milwaukee fret about foot patrols in Helmand. Kandahar is a household word, and Kabul a routine PR stop for presidents and generals. Migration, as well as war, has smudged the lines between the Muslim and non-Muslim worlds. There were Muslims living in the West during my father's day, of course, just as they had for hundreds of years. But it wasn't until the 1960s and 1970s, when migrants from former European colonies began settling in the West and raising children, that there was a sense that Islam would remain a permanent presence there. In the eighties and nineties, the immigrants were joined by refugees from dictatorships and wars. To Paris and Peoria, Berlin and Los Angeles came Iranians on the wrong side of their revolution; Iraqis persecuted by Saddam Hussein; Libyans hoping to outrun Muammar Ghaddafi's secret services; and Algerians, Afghans, Somalians, and Sudanese fleeing civil

twenty-five-hundred years of the Persian monarchy. Party planners built walls hiding whole neighborhoods, lest the foreign dignitaries have to look on them. A florist flown in from Versailles coaxed a rose garden from a scorpion-infested desert at Persepolis. In air-conditioned tents, world leaders drank 1945 Château Lafite-Rothschild and ate roast peacock. The guests were dressed in clothes that could have been conjured in the fevered dreams of a five-year-old: even Haile Selassie's dog wore a diamond-studded collar.

For years before the Persepolis celebrations, both secular and religious critics of the regime had been preaching against this cult of Western-imported surfaces. Many were exiled, imprisoned, or hassled by SAVAK, but their words reverberated from exiles abroad and were circulated in banned pamphlets. In 1962, the Iranian writer Jalal Al-e-Ahmad clandestinely published *Gharbzadegi*, or *Plagued by the West*, an attack on the Iranian elite's obsession with aping the West. "A West-stricken man ... is like a dust particle floating in space, or a straw floating on water," wrote Al-e-Ahmad. "He has severed his ties with the essence of society, culture, and custom."

Studying the history of the region only increased my sense that we'd been oblivious to the societies we had lived in. As individuals, we were hardly Ugly Americans. And yet, for all my parents' Farsi lessons and fascination with Iranian mosques and carpets, I realized we'd been part of what amounted to an American invasion of Iran in the 1970s. Though culturally sensitive, my mother and father were still members of the fifty-thousand-strong force of Americans brought to consult on pipelines and penal codes or to sell refrigerators or missiles—and to drive Iran along the road to Westernization.

Because we were American, the laws of the land couldn't touch us. I witnessed our inviolability one cold winter night when my family had arrived in Shiraz on a sightseeing trip. As my parents unloaded the bags from the taxi, they told me to watch out for my two-year-old brother. I didn't, at least not closely enough, and he waddled into the street, to be knocked down by a truck. He was fine, if stunned, but the incident drew a crowd, and a couple of policemen. My parents assured the officials that the fault lay not with the truck driver but with them, for thoughtlessly leaving a toddler in a five-year-old's charge. Still, the driver was hauled off to prison, for the simple reason that we were Americans. The Shah had signed an accord with Washington, known by Americans as the Status of Forces Treaty (SOFA) and by Iranians as the Capitulation Treaty, which gave Americans immunity on Iranian soil. My father spent the rest of the night at the police station, pleading for the driver to be released.

I thought no more of the incident until some two decades later, when my Farsi professor at Oxford had us translate one of the Ayatollah Khomeini's sermons. Dating from 1964, just after SOFA, it was the speech that would get the Ayatollah banished from Iran until the fall of the Shah. "If someone runs over a dog belonging to an American, he will be prosecuted," Khomeini noted. "But if an American cook runs over the Shah, the head of state, no one will have the right to interfere with him."

Other readings added troubling new dimensions to my memories. In college, like millions of other students in the 1980s, I became enamored of the works of the literary and cultural critic Edward Said. For centuries, he wrote, the Western vision of the East had been a fantasy—one that had more to do with Western fears and imperialism than it did with the societies themselves. In Said's

belonged to secular modernizers like the Shah or Saddam Hussein, sound men who'd buy our tanks and planes, who'd build roads and dams and, if not democracy, at least security. On New Year's Eve 1977, President Jimmy Carter had toasted the Shah, calling Iran "an island of stability" in a rough region. The future was Western, and secular. Islam was a pastime for village women, or wizened elders crouched in mosque courtyards.

It was only later that we began to realize how blinkered that vision had been. In the winter of 1979, the news carried pictures of grim women marching the streets of Tehran in black chadors. Scraggly-bearded men shouted "Yankee, go home." The same winter brought other images, equally shocking: the Shah and his wife, the Empress Farah, swathed in furs, on the tarmac at Tehran airport, leaving Iran for a "vacation" in Egypt, never to return. Two weeks later, an Air France jet brought home a hatchet-faced Ayatollah Khomeini, to an ecstatic welcome.

When we'd lived in Tehran, the Shah had seemed like a secular god, with his Peacock Throne and an impossibly beautiful empress, whose coronation crown had been bigger than any I had seen in my fairy-tale books. To me, the Shah felt all-powerful and all-seeing, with his cold, dark eyes staring out from portraits on the wall of every shop and bank. But then so had President Sadat when we'd lived in Egypt in 1979, the year he signed his peace treaty with Israel. Two years later, I was poring over images in *Time* magazine of a bullet-riddled reviewing stand and a president assassinated by a member of Islamic Jihad.

Even then, I felt vaguely ashamed that we'd been so clueless: our distance from the societies on which we'd perched seemed suspiciously close to a moral failing.

"How could you not have known?" I demanded, with all the self-righteousness of adolescence. We were back in St. Louis, and my parents and I were watching footage of the Iran hostage crisis on the six o'clock news. Onscreen, American diplomats, bound and blindfolded, were being paraded through the grounds of the American embassy, a place that I'd loved because the restaurant had Heinz ketchup and sugar packets on the tables.

I stared at my parents accusingly. "All this was going on, and we were there, and never knew?"

"Well, we did know something was rotten, below the surface," my mother replied gently. "All that building, and cash, and signage. But you had the feeling it was all just one block deep, and behind the beautiful façade, everything was terrible."

Back when we lived in Iran, there were rumors that the head of SAVAK, the Shah's secret police, was a student in my father's criminal justice class. The Shah's shadow even loomed over my mother's Shakespeare course. As a portrait of a weakened tyrant, *King Lear* proved a particularly tricky play to teach. Try as my mother might, she couldn't make her Iranian students understand why Cordelia wouldn't give her father Lear the flattery he demanded. Obedient subjects of the Shah, "King of Kings, Light of the Aryans," heirs to centuries of courtly obeisance, her class remained perplexed. Or perhaps, conscious of the rumors of on-campus SAVAK stooges, simply pretended to be.

While the Shah's dictatorship shaped the lives of ordinary Iranians, most of the West remained starstruck with his regime. The year we lived there, he threw what the Ayatollah Khomeini dubbed the "Devil's Festival," a party celebrating

It was in Iran, in the early seventies, that he had first found a potent antidepressant in Islamic culture. The slower rhythm of the days, punctuated by cups of tea and calls to prayer, soothed him. Bazaar culture, where meandering conversations cushioned the cut-and-thrust of commerce, struck him as more human, and more humane, than the mall. For once he felt at home. Squatting against a wall at an Isfahani mosque, or debating the merits of a Turkoman saddlebag in the bazaar, he was no longer the wallflower at the Law Review mixer. For a man who never joined anything but his immediate family, Western Asia offered him a sense of belonging. Even as a kid, I saw the transformative effect that crossing cultures had on him: it went beyond a value to become a survival strategy.

My own first apprehension of Islamic societies was purely sensual, a matter of surface textures. A mosque's turquoise dome against a brown-sugar desert. The dusty, meaty smell of wool carpets laid out in the sun. The efficient grace with which Iranian women gripped the edges of their chador—the head-to-toe Iranian veil—in their teeth, freeing their hands for babies or shopping bags.

As a child trying to make the foreignness around her familiar, I made crude attempts at cross-cultural understanding. At five, my favorite game was "Iranian Ladies"—an American kid in Tehran's version of House—which I played wrapped in my child-sized chador. Six years later, living in Kabul, I daydreamed of a stall, somewhere deep in the bazaar, that might have sold Bubble Yum, Bonne Bell Lip Smackers, and Levi's jeans, the items my eleven-year-old self most yearned for from the United States. All my mental maps of the region were drawn on a small, highly personalized scale. The Khyber Pass was the road American teens took to the State Department orthodontist in Islamabad. Peshawar had a Chinese restaurant with delicious dumplings, and a gold bazaar where they let you try on tiaras sparkling with real rubies and emeralds.

Living in Kabul, I wasn't the only one with a myopic vision of the region: during the 1970s, if Westerners gave Afghanistan any thought at all, it was as an exotic playground for thrill seekers and eccentrics. Hippies came in search of a finer grade of hash than Delhi's or Goa's. Oxbridge classicists scoured the countryside for antiquities left by Alexander the Great. My father arrived looking for Kashgai rugs, sweet Bokhara melons, and the longest possible distance between himself and the faculty lounge at the St. Louis University School of Law.

Despite his love for both Iran and Afghanistan, my father had an outlook on Islamic culture that was more orientalist than immersive, more an aesthetic appreciation than an acknowledgment of a living tradition. In his letters home, the faith appears only as the source of sumptuous mosques and shrines, peacock blue tiles, and prayer rugs. We hovered on the outskirts of society, oblivious to the formative events unfolding in the Middle East even as we lived there. From our balcony in Tehran we watched the Muharram processions, in which men flagellate themselves, sometimes with whips or chains, singing "Yo, Hussein," mourning the death of the Prophet's grandson at the Battle of Karbala. My parents had no idea that such energy, harnessed to hatred of the Shah's regime, would be strong enough to tow a revolution. Nor did they foresee that Islam would be a potent tool for Afghan fighters against the Soviet army. Or that it provided a framework for Egyptian discontent with its dictators.

Until 1979, Islam had been shriveling back into the private sphere, or so went Western conventional wisdom at the time. The future of the Middle East

An American in the East

For my father, taking his family to live for years overseas was a salve for both his chronic discontent with American society and his clinical depression. He was a law professor in Missouri, but he felt far more fulfilled in foreign places, all the more so if they had the "grapes, melons, and olive trees" he deemed necessary for civilization. And so my childhood was split between suburban St. Louis and cities across the Muslim world. Admittedly, the list of foreign postings—Tehran, Delhi, Kabul, and Cairo—looked pretty suspicious. My mom's family assumed my dad was a CIA operative cunningly disguised as an eccentric professor. He wasn't with the Agency: he moved us abroad less for professional reasons than aesthetic and emotional ones.

The closest thing my family had to a belief system was a firm faith in the restorative power of travel, so I was raised ignoring religious texts. The daughter of a lapsed Quaker father and a Jewish mother whose faith lay in bagels and dim memories of the dreidel song, I never read a scripture growing up. Ours was a secular household, whose churches were art galleries and parks and whose default setting was doubt. My parents, both professors, didn't care much for faith. It might have been useful for our forefathers, who schlepped in the shtetl or struggled on homesteads in the Great Plains, but it wasn't for my parents, with their advanced degrees and their Miles Davis LPs. Transcendence, they believed, was found in Titian paintings or sunsets, not in holy books or holy men. My only religious training was the odd Sunday we made it to the Ethical Society, the humanist congregation where we drew pictures of children of many lands and sang songs about the gift of simplicity.

When my mother's Judaism did surface, it was as a culture, not a faith, and even then it was explained as something she'd had in her childhood, like saddle shoes or braces. If she remembered, we might hide the matzo on Passover, or light the menorah on Hanukkah. Occasionally she'd surprise us with some dimly remembered Yiddish from her Lithuanian grandmother: dismissing *Love Story* as "schlock," and declaring me a "vilde chaya"—wild child—when I roughhoused with my brother. And yet I did feel Jewish, vaguely, though it meant little more than a distinctive strain of urban cosmopolitanism, comprised of coffee-dark irony and a subscription to the *New Yorker*. The only relic of my father's Quaker heritage was a fierce belief in thrift. That, and stories of great-aunts who used to "thee" and "thou" one another, and the vague sense that going to a Quaker meeting might be nice, sometime. "I would love to believe," my father would say, spreading his arms wide, as though waiting for some deity to arrive in his embrace. None ever did.

In the empty space where faith might have resided, my father stuffed travel and artifacts brought back from it. At home in St. Louis, we lived amid flaking gilt Buddhas, Indian miniatures, and piles of oriental carpets—barricades my father built to blot out Missouri. For him, St. Louis was a city of curt nods to neighbors, of gas pumped in surly silence, of long walks hunched against the winter cold. But with a family to support, he had settled for a job teaching law there. It was bearable, he found, as long as he could travel in Europe in the summers, and every couple of years take a fellowship or unpaid leave to live overseas.

The next day, with grim determination, I made straight for Bloomsbury. When I was a graduate student, I used to shake off Oxford's straight-backed sobriety by going to work in the library of the far hipper School of Oriental and Asian Studies at the University of London.

Just studying there felt liberating. The students had piercings and hijabs; the halls were plastered with posters for world peace and against racism. Even the bright, clean-lined library felt less constrained by history. I made straight for the stacks devoted to *tafsirs*—commentaries on the Quran—and pulled down a stack of them. I wanted to regain the tight, bright certitude I'd felt before.

I sat with my tower of *tafsirs*, finger-scanning index columns for "Al-Fatiha" and for "Quran—attitudes to Jews and Christians." I found some comfort in an introductory text by Fazlur Rahman, a great twentieth-century Muslim reformist. In *Major Themes of the Quran*, he cites a verse from the second sura: "Those who believe [Muslims], the Jews, the Christians and the Sabaeans—whosoever believe in God and the Last Day and do good deeds, they shall have their reward from their Lord, shall have nothing to fear, nor shall they come to grief." Ultimately, concludes Rahman, these words have an "obvious meaning," which is simply that those "from any section of mankind—who believe in God and the Last Day and do good deeds are saved."

There. It was ultimately about belief in God, and being good. A flood of relief. That I could do. I regained my faith in Islam as being a force for harmony between faiths.

thought of that famous line from the British director Jonathan Miller. "I'm not a Jew," Miller said. "Just Jewish. Not the whole hog, you know."

The Sheikh continued. "God does not favor people who have gone astray. Some people think this part means Christians, who went to extremes by confusing their prophet Jesus with the divine. The Quran wants Muslims to remember that Jesus is only a man."

"But aren't the Jewish people and the Christians 'Ahl-e-Kitab'?" I asked, plaintive now. "People of the Book?"

Islam's famous respect for Ahl-e-Kitab, literally the People of the Book, as the followers of the two other great monotheisms are known, was invariably invoked at interfaith events.

"Yes, they are," said the Sheikh. "We respect the Jewish people and the Christian ones."

The Sheikh did not believe that the last line of "Al-Fatiha" referred to Jews and Christians specifically, but to any Muslim who veered off piety's path.

* * *

The lesson ended shortly after that. I rode back to London, queasy from hours on a stuffy bus and rattled by hearing Akram recount the potentially hostile reading of that final line. Like Hans's casual denunciations of Islam at lunch, it suggested that prejudice lurked in unlikely places. It disturbed me. Not as a Jew, but as a humanist. Maybe studying the Quran with Akram was too risky, like getting your parents to teach you how to drive. In unpacking the Quran's first sura, we'd strayed from the carefully pruned list of topics we'd stuck to for twenty years. We'd veered off our own straight path and onto the hard shoulder of the road. So much of my enthusiasm for Islamic society had been born of the pleasure of finding similarities with my own outlooks. I'd reveled in finding shared values under superficial differences. So much of the pleasure of Akram's friendship was the sheer surprise of connecting with someone whose outlook diverged so spectacularly from my own. And yet here, in our first lesson, I was already hearing things I didn't want to hear.

Such disturbances were necessary, of course. To study with Akram was, among other things, to test the limits of my own tolerance. To date, my pluralist outlook had been a laissez-faire business, more a cosmopolitan habit than a true challenge to my beliefs. It meant tacos at lunch, the mantra "Om" before yoga class, and Chinese herbs during hay fever season. Over the years, I had embraced diversity twice daily at least, on those morning commutes spent sitting on New York subways surfing on the sea of languages, or on London buses scanning the horizon of heads, some in hijabs, others bald or dreadlocked.

This first lesson with Akram hinted that my engagement with other worldviews had been more about pageantry than pluralism. I knew some old-fashioned Republicans, but none who had stuck with the GOP after George W. Bush's presidency. I had lots of Jewish friends, but most were cultural Jews; none were Orthodox. Any Catholics I knew had lapsed long ago. Nobody in my social circle denied a woman's right to choose an abortion. I might identify as someone who celebrated diversity, but in reality, my worldview was pretty cramped.

The bus lurched into London and let me out at my stop, sadder and less certain than when I'd boarded it that morning. Standing on the pavement, I hiked my backpack on my shoulder and glumly wondered what Hans would say.

creator. It gave people an inherent dignity vis-à-vis their fellow humans. Such a satisfying sura. I wondered what Hans would make of it.

Akram pointed out that the line "to You we turn for help" is an indication of Islam's central tenet of submission. "It shows mankind asking how to worship," he noted. "It is saying, 'We are helpless people. We need more of your favor. We need to know how to worship You.'" Here again was the surrender that Islam—derived from the same Arabic root word as "peace," but literally meaning "submission"—demands of a Muslim. "When you see the word 'worship,' or *ibada* in Arabic, this is the sort of extreme humiliation that is only allowed in the case of God," observed Akram. "That's why we have to bow in prayer. Before him, we require an extreme humbleness." While Christianity and Judaism drew their names from people, the word "Islam" refers to a relationship rather than a single figure—that between every believer and God.

Up to now, the lesson had been going well. Akram's reading of "Al-Fatiha" described a just and expansive worldview. The verse's emphasis on the individual's direct association with God, unbrokered by clerical middlemen, was reassuringly democratic. The concept of extreme humility before God felt familiar, and admirable. It was only in the last three lines that I felt any disquiet:

Show us the straight path,

The path of those You have favored;

Not of those who are objects of anger, nor of those who wander astray.

"The Quran wants you to walk in the path of God," the Sheikh explained.

"The path of God is the straight path."

"And who are those whom He's favored?" I asked, assuming it would be pretty much anyone who stuck to the straight path. It was rather more specific than that. "God has bestowed His favor on four types of people," said Akram.

I sat up straight, ever the eager student, fingers hovering above the laptop keyboard. "Prophets," I transcribed.

"*Siddiqeen*. These are people who aren't prophets, but whose true nature is so powerful that it puts them on the straight path, like Maryam—the Bible's Mary, who followed God's instructions, with a pure and clean heart."

Oh. Then: "Martyrs."

Next?

"Other righteous people."

I hoped it was a catchall category.

His elaboration—"Those whom God has favored"—was a rather narrower demographic than I'd been hoping for. Wondering how broad the definition of "righteous" was, I found a clue in the next line: "Not [the path] of those who are objects of anger, nor of those who wander astray."

"And what kinds of people are they?" I asked, fully expecting to hear a list roughly similar to that in the Judeo-Christian tradition, beginning with *A* for adulterers and ending with *U* for usurers.

The list was far shorter than I expected. "Well, some people have said that 'those who are objects of Thine anger' refers to the Jews," said Akram, whose calm suddenly grew unnerving. "God became angry with the Jews after they rejected Jesus Christ. God's favor can be taken away from you at any time."

"Jews" struck like a pebble. It is a hard, small, unyielding word. It always seems to jam the conversation in a way that the adjective "Jewish" doesn't. I

The reading for the day was short but powerful: "Al-Fatiha," or "The Opening," the Quran's first sura. It's been called Umm al-Quran—the Mother of the Quran—since the key themes of the Quran are packed into its twenty-five Arabic words. Some non-Muslims have likened it to the Lord's Prayer, but it is more than that, so tightly knotted are its words into the fabric of Muslim life. Pious Muslims recite it seventeen times a day: twice during dawn prayers, three times while praying at sunset, and four times apiece in the three other prayers. "Al-Fatiha" can greet good news, seal a contract, or smooth bazaar negotiations. Some Muslims carve it on tombstones; others say its words while undressing to protect them from the prying eyes of jinn, or spirits. One hadith holds that the chapter is "a source of healing for every ailment except death," which is perhaps why its words make for a popular amulet, rolled up, encased in gold or silver, and worn around the neck. It hangs on the wall in Muslim homes across the world, protecting the inhabitants from harm. Once, the verse saved a woman I know during a robbery. She calmed a pair of thieves holding her at gunpoint in her bedroom by pointing to the words of Al-Fatiha, framed and hanging on the wall. She swore on it that she wouldn't scream if they left quietly. At the sound of her words—and the sight of the Quran's—one man slowly lowered the gun he had held to her head. They left soon afterward, leaving her unharmed.

I opened my Quran to the first verse and began reading:

In the Name of God, the Benevolent, the Merciful,

Praise is Proper to God, Lord of the Universe,

The Beneficent, the Merciful. Ruler of the Day of Requit,

It is You we serve, to You we turn for help. Show us the straight path,

The path of those You have favored;

Not of those who are objects of anger, nor of those who wander astray.

(1:1-7)

"It is You we serve." With this phrase—which in some translations is "Thee alone we worship"—the old polytheism of the Arab tribes of the Arabian Peninsula was to be replaced with one God, uniting individuals from a collection of tribes into a community of faith. For the pagan Arabs of Mecca and Medina, the Quran brought not merely a new faith, but a reimagined social order. No longer were you just a member of your tribe or family, but of something much larger: a community of people called Muslims, united by worshipping a single Supreme Being. No longer would there be the scrum to worship hundreds of minor gods and goddesses, as Mecca's pagans had done until Islam arrived. In its place, there was utter submission to the all-powerful Creator.

But this statement didn't simply declare monotheism. The line proved even more radical. In four short words lay the concept of the dignity of the individual, bestowed on him by his creator. "When it says 'Thee alone we worship,' it means people aren't allowed to worship any angel, any man of money, or any man of power," explained Akram. "A Muslim submits only to God."

There. Right there lay the justification for everything from the Arab Spring revolts to the Islamic women's movement. With breathtaking linguistic economy, sitting just inside the first verse of the Quran, lay the words that punctured tyranny. They were gentle weaponry against husbands who ruled over their wives, or presidents who tortured their people. In a God-centered universe, no person had the right to rule over another person, since all were equal before their

norm that said they shouldn't. In many parts of the Muslim world, women stopped going to the mosque—or were prevented from doing so.

Pointing to Islamic history, Akram challenged this. "The women were so happy, really," he said, allowing himself a nanosecond of quiet triumph. "Not everyone was convinced, but it was a start." Since news of his work on women scholars began to spread, Akram had been called out on scores of such diplomatic missions. The man who began his career as an expert on hadith has become a celebrated defender of Muslim women's rights within a traditional Islamic framework.

In Leicester, he'd told the mosque authorities about his work assembling the names of historical women who didn't just pray in mosques, but debated and lectured in them, teaching male students as well as female ones. I hoped that he also told them, as he had me, of the tenth-century Baghdad-born jurist who roved around on lecture tours, teaching women in Syria and Egypt; and of Umm al-Darda, a prominent seventh-century jurist from Damascus. Akram found that as a young woman, she used to sit with male scholars in the mosques, discussing theology. "I've tried to worship Allah in every way," she wrote, "but I've never found a better one than sitting around debating other scholars."

That quote alone made me want to adopt Umm al-Darda as an unofficial patron saint for this project: I loved the image of her sitting in the mosque with men, secure in her knowledge that debate was a holy thing. Akram's research suggested she was very much her own woman. An orphan, she'd go to mosque without covering her head, and for a time she could be found praying in the men's rows rather than the women's. In her classes in Damascus and Jerusalem, she counted men, women, and even a caliph—a Muslim leader—among her students.

* * *

When we reached the café cashier, there was a gentle tussle over who would buy the tea. The bored blonde behind the register watched our friendly match of "allow mes" and "no, reallys" and "next time, it's mines." As elaborate as calligraphy, as old as our acquaintance, the ritual was particularly reassuring today, after my jarring conversation on Sunday. Hans's knowledge of Islam was shaped by the news of fundamentalists and extremists. Their certainty and anger came from a brittle interpretation of Islam, not from *adab*—the suppler, subtler concept of a humane and educated manner. The Prophet Muhammad once declared that *adab* nearly "equals two-thirds of religion." The Sheikh's own *adab* went beyond graciousness. I suspect it also had something to do with the quiet of certainty. He enjoyed the profound peace of a man who observed his duty as a Muslim: being a "slave of God." Over the course of the year, I would watch, not a little envious, as I saw how this enslavement brought him considerable calm.

Reverence for the Quran doesn't always confer calm. Earlier in the year, the news had been full of riots and protests, after American soldiers at the Bagram Air Force Base outside Kabul had been discovered burning Qurans with trash. The books had been confiscated from prisoners on suspicion that they were being used to pass on extremist messages. President Barack Obama apologized, but that hadn't prevented a furor, and the deaths of thirty Afghans and six American soldiers. This tragedy was one of several following rumors—some true, some false—of the Quran's destruction by American troops in the tense post-9/11 world. *Adab*, like truth, is a casualty of war.

sunshine and opening the sliding doors onto their deck. I took an easier tack. "Well, of course, you're probably just going by what you read in the papers," I nodded. "Believe me, I know, as a journalist: Who makes the best stories, who gives the best quotes? The extremists, the crazies. So who do we tend to hear from? The people who shout the loudest."

"But where are the moderates?" he asked. "Why aren't they speaking up?"

"Well, they're there—they just don't make the headlines," I answered. "Quietism doesn't make for news. Sometimes they're writing op-eds, or working with interfaith groups or NGOs. But you're not going to hear about them, since they're not blowing things up or blowing off steam."

"But are there any Muslim moderates, really?" he asked. "I mean, real moderates?"

"Of course there are!" I said. "You've got millions and millions of Muslims who view their faith in much the same way that most Christians or Jews or Buddhists do—as a private matter. And if you're looking for Muslims trying to square their faith with universal human rights, you've got mini reformation movements going on: women and gays and minorities going back to the Quran and reading it for themselves, not letting the local mullah tell them what to think. You've got lots of scholars, and lots of ordinary Muslims, trying to take back their religion from the radicals who've styled themselves as leaders without any training in Islamic law or tradition. There are Sufis, reacting against the strictness of the mullahs..."

"But what about Saudi Arabia?" he pursued, pushing his chair back from the table with the air of a wrestler limbering up before a match. "What about the Taliban? What they do to women ... In Saudi Arabia, women can't drive. Under the Taliban, they couldn't go anywhere without covering up..." The other guests, sensing a low hum of tension, began to gather their plates and ferry them to the sink.

"They aren't practicing Islam," I replied, perhaps a tad too smugly. "That's local or tribal custom made into national law. Yes, those laws and restrictions are terrible, but they're not Islamic. All you have to do to find out that it's got universal values—ones very much like yours and mine—is go back to the sources."

Our hosts had returned to the table bearing chocolate cake, so we came to an uneasy truce in the interests of gluttony and good cheer. Together we stepped, a bit shakily, onto the safer conversational turf of the dangers of Iranian nukes and the virtues of Neapolitan pizzas. I knew I hadn't swayed him, but I had complete confidence that the sources, as read by Akram, would reveal a just and humane faith. I left the party troubled by Hans's prejudice, but charged with righteousness, and braced by my own certainty.

* * *

I carried this clean, bright feeling to Oxford with me a few days later, where it only grew on seeing Akram again. As we walked up the steep stairs to the Nosebag, he talked about how he'd spent the day before in Leicester, meeting with women and Muslim community leaders to talk about allowing women to pray in mosques. During the Prophet's era, women prayed freely in mosques along with men, but in time, many cultures began restricting their presence. Over the centuries, the scholars' consensus that women didn't have to go to mosques to pray if they couldn't get away from home and the kids morphed into a cultural

PART ONE

THE ORIGINS

1

The Quran in Twenty-Five Words

A few days before my lesson on the Quran's first sura, I went to a Sunday lunch party in North London. At the table, I met a man—I'll call him Hans—with crisp graying hair, brushed apple-green tweeds, and a languid Continental accent. Born in Vienna and educated at Cambridge, Hans had pronounced on subjects from primary school pedagogy to F. Scott Fitzgerald's prose before he'd even finished the first glass of Prosecco. After he told me about the book he'd published, on a literary journal in wartime Paris, he learned I was a journalist and asked what I was writing about. When I told him, he looked as though he'd just swallowed the backbone of his sea bream.

"The Quran," he spluttered. "But, why?"

An awkward pause. On hearing this daring dismissiveness from so refined a man, I felt as flummoxed as he seemed. A year or so earlier, a British Muslim politician had charged that Islamophobia "passed the dinner-party test" and was now, disgracefully enough, an acceptable form of discrimination in polite society. I'd hoped she'd been exaggerating, since I hadn't come across it in my tiny, tolerant circle until now. I swallowed my fish and ran through the reasons. They seemed so self-evident that I restrained myself from reciting them in the singsong tones I use to chide my children to brush up to the gum line: A lifelong personal interest in Islamic societies. A worldwide population of 1.6 billion Muslims and counting, a number that was ever-growing, Islam being the planet's fastest-growing faith. Post-9/11 wars. A crucial new issue in European parliaments and American elections. The text's power, its poetry. I felt vaguely silly as I rattled off the list. Until a minute ago, I'd assumed that the sort of person who rereads *Tender Is the Night* and writes on twentieth-century intellectual history would deem reading the Quran a worthy pursuit. I finished my monologue, triumphantly forked some kale into my mouth, swallowed, and parried. "Why? What do you think about Islam?"

"They're living in the medieval ages," Hans said breezily. "They need to get up to speed with the rest of the world."

I'd heard this dozens of times before—from London taxi drivers, on Midwestern talk radio, and even from cultivated types like Hans. Had it not been for the din of kids bickering over whether to watch *Peter Pan* or *Snow White*, perhaps I would have retorted that fundamentalists can't be dismissed as medieval. That they don't exist outside modernity but are very much a part of it, with their use of technology, their sophisticated global networking, and their keen sensitivity to media cycles. Had I not been on my second Prosecco, and conscious of other guests waiting for us to tie up the strands of our conversation, I might have told Hans what various scholars have posited: that the anti-Western, antiseccular rhetoric of Muslim fundamentalists is a response to the fraying social fabric in fast-changing, increasingly polarized societies. That for new migrants to big cities or foreign countries, the mosque provides shelter from loneliness. That for people unmoored from home or family, a prescriptive faith provides an anchor. I didn't launch those arguments, deciding that they were a shade heavy for a Sunday afternoon, what with our hosts taking advantage of the rare winter

"Look, the Quran is difficult. To read it in the original, you need to know classical Arabic, which very few people want to take the trouble to learn."

I certainly wasn't going to. I remembered well the old grad student wheeze about learning Arabic—that it's just the first twenty years that are tough. I patted my translation, sitting right next to the teapot, and I made to open it, eager to get started, but the Sheikh went on. "To really understand it, you'll need to know a lot," he said. "To understand the stories of the Prophets in it, you need to know your Bible stories."

I gulped. My knowledge of the Bible was cobbled together from Renaissance paintings and reading *Paradise Lost* in sophomore English. To understand the text, you need to understand the context, the Sheikh continued. To make sense of the rules it sets down, you need to understand Arab society during the age it was revealed: "So if you don't know the customs and traditions of the Prophet Muhammad's time, you can't make sense of it."

My background in seventh-century Arabia was rudimentary, and my Arabic nonexistent.

The Sheikh beamed as he reached for his coat. "And of course, if you're lazy, you can't make sense of it."

I was frequently lazy. I thought of Carlyle, a Victorian, a Scotsman, and a philosopher—in short, a man emphatically not of lazy stock—who nonetheless warned, "Nothing but a sense of duty could carry any European through the Quran."

* * *

As any child's primer on world religions will tell you, Islam began as a desert faith. My time studying with the Sheikh felt a lot like desert travel. The sun can dazzle, and the air's clearness can compress the appearance of distances. A far-off dune can look near; the horizon can loom, then recede in a blink. A strong wind can cover paths and footprints with sand. Such was the experience of studying with the Sheikh. The Quranic landscape was neither dry nor parched, but to a Western secularist like myself, unschooled in scriptures of any faith, it often lacked landmarks. I found myself setting mental boundaries, then having to reset them, again and again.

We made an odd little caravan, the Sheikh and I, a pious believer and a skeptical secularist. Yet surprisingly often, I'd pad up to a topic I'd assumed would be divisive, and we found ourselves agreeing. Some issue that mullahs or politicians had fulminated about for years would be revealed as utterly trivial. Then, just as suddenly, I'd trip across a phrase that seemed perfectly innocuous, only to discover craggy complexities lurking beneath it. I'd find myself staring across canyons of incomprehension. It could be quite dizzying.

But disorientation is a good teacher. Reexamining beliefs—most importantly, your own—lies at the heart of the Western secular tradition. Disorientation is also a sign of the power of God, and a theme of some of the Quran's most ravishing passages.

The Sheikh was never truly disoriented. He had his *qibla*—his direction—and that direction was God. Having embarked on a journey of sorts, we could only move forward, together.

their wives. Bin Laden had used the Quran to declare war on all those he deemed infidels.

There's reading the Quran properly and reading it sloppily, the Sheikh continued. All too often, people read it selectively, taking phrases out of context. "People just use it for whatever point they want to make," he shrugged. "They come to it with their own ideas and look for verses that confirm what they want to hear."

The Quran was not a shopping list for the good life, said Akram. Pious Muslims like him, and eager students like me, need to stand back for a panoramic view of the text. The careful reader couldn't be distracted from its overarching messages and interlinking themes. Its very design was miraculous, one of the infinite signs of God's grace.

"A book as miracle," I nodded.

"Ah! Now is it a book?" he slapped his thigh gleefully. "That's the first question you need to ask! Is it a book, or not?" He leaned forward, warming to the question. Was not the man-made concept of a book, with a beginning, middle, and end, too puny a word to describe something as infinite as the Quran?

"After all," he continued, "it doesn't read in the order it was revealed. The first revelation Muhammad received doesn't come until very late, until sura 96."

This was not good news. I was prepared for subtlety, but like a Broadway producer, I'd hoped for a tune I could hum.

The Quran may not unfold chronologically, but its ordering was deliberate, sent down from God, explained Akram. "Why do you think the order was changed?"

"Since God was specific, there must be a reason." He sat back, satisfied. Many things were open for discussion, but not divine strategy. It was a lurch, this switchback route from ambiguity to certainty and back again.

"So, in this sense, it's a book, right?"

"Yes. The Quran keeps calling itself a book. It's a book sent down to the Prophet, and it revealed to the people what they needed, when they needed it." But being no ordinary book, he continued, the Quran didn't always make sense as other books did. "You'll be in a verse about the law of divorce," he says, tracing a line on the table, like a football coach planning a play. "Then suddenly there will be a bit about prayer, and then go back to divorce." He sat back. "How is one supposed to make sense of that?"

I had no clue, and in that, I certainly wasn't alone. Among the most stridently confused readers of the Quran was Thomas Carlyle. The Victorian writer was a great admirer of the Prophet Muhammad and of Islam itself, but found its Holy Book "as toilsome reading as I ever undertook ... a wearisome, confused jumble."

But it wasn't a jumble, insisted Akram. "You will see, and be amazed, how it fits together. If you move the verses around, you'll be surprised to find that they don't work out of order."

I was beginning to see why many Muslims focus on concrete rules rather than the Quran's subtleties. Wrangling over mundane problems like veils and pork derivatives was far easier than wading through thickets of Quranic verse. How comparatively simple, to debate whether M&Ms are *halal* (permissible) or *haram* (banned). Few mortals could rise to the challenge of appreciating a divine design. I felt overwhelmed, and it must have shown, because the Sheikh smiled.

I leaned forward, assuming I'd misheard. His voice is as soft as it was when he was a young *alim*, and despite his two decades in England, his accent still bears the strong stamp of provincial India.

"Really?" I stammered. "But it's ... I mean, it's the Quran! It's obviously the basics of what religious scholars are studying?"

"It's not. Far more effort and class time is given to the texts of jurisprudence or hadith." The branches of Islamic knowledge that came after the Prophet's death, like law and philosophy, had only made the Muslim world's injustices and divisions grow, he continued. They'd moved mankind further from the source. The message of the Quran and the sunna, the example of the Prophet Muhammad, had been buried by a mountain of academic debate. In the centuries after Muhammad, scholars erected an elaborate system of *fiqh*, or jurisprudence, a man-made legal scaffolding based on interpretations of the Quran and hadith. Developed after the death of the prophet in AD 632, these four schools of law differ on issues from the proper prayer postures to whether or not believers may eat lobster. The medieval religious scholars who developed *fiqh* were frequently far more conservative than the Quran, and often much more punitive than the Prophet Muhammad. "Read the books of Islamic law, and you'll see they are much harsher on women," said Akram. "You know when they get really against women? When all the scholars start studying philosophy." The misogyny running through *fiqh*, said the Sheikh, was a matter not merely of scholars' medieval mores, but of the influence of the Greek philosophers on them. Aristotle, a man who held that the subjugation of women was both "natural" and a "social necessity," influenced key Muslim thinkers who shaped medieval *fiqh*, argued Akram. Before Aristotle became a core text, and before the medieval scholars enshrined their views on gender roles in Islamic law, men and women were accorded far more equal freedoms in Islam, he explained. He sketched peaks and troughs in the air, as if plotting the rise and fall of sexism through history.

"God Rest Ye Merry, Gentlemen" was reaching its crescendo above us. "So why do people get obsessed with following the schools of law?" I asked. "Why not just go back to the Quran?"

A wide, bright smile. "People can be lazy." Consulting scholars and obeying their rules was safer and easier, said the Sheikh. "You don't need to read, or question, or think. You've got other people thinking for you. If you become open, it's a challenge." He glanced at his watch, checking to see how much time remained before the noon prayer. "You see, Carla, what's happened, really, is that we in the Muslim world have destroyed the whole balance. We've become obsessed with these tiny details, these laws. What does the Quran keep repeating? Purity of the heart. That's what's important! Why has cutting off a thief's hand—something it mentions once!—become of such importance to some people?"

As a scholar, he was incredulous; as a journalist, I wasn't. Gore and absolutes always grab people's attention faster than poetry and nuance.

Akram smiled conspiratorially. "People are really very shocked when I tell them that the four schools of law aren't really that important," he said. "If people would just read the Quran, most of these differences would finish."

I wasn't convinced. More people were reading it, but it still created controversy. Men still used the Quran to legitimize their actions when they beat

We'd agreed to meet at the Nosebag because it was convenient, just around the corner from the Sheikh's office. I put my copy of the Quran on the table between us and tried to ignore my inner twinge of embarrassment. It felt unseemly, somehow, holding an earnest discussion of a holy book out in the open, where others could hear us. Briefly, I had a half-formed thought of setting up a cardboard sign on the table: "This Conversation for Research Purposes Only."

The Sheikh saw nothing odd in studying the Quran over midmorning tea in Oxford's shopping district. My own sense of religion may be confined to houses of worship, but Islam takes a broader view. "The whole world," the Prophet Muhammad once observed, "is a mosque." At airports during hajj, or pilgrimage season, I've seen the pious prostrating outside duty-free shops and next to boarding gates. Muslim cabdrivers pray behind the taxi office at New York's LaGuardia Airport. I once saw a turbaned Afghan standing on the empty storefront display platform of a St. Louis grocery. Eyes closed, palms curved heavenward, he was praying, connecting with the Infinite over Grand Boulevard's lunchtime traffic.

Akram and I embarked on our study of the scripture through a decidedly more mundane activity: eating cheese scones and sipping strong mugs of English Breakfast tea. The Sheikh looked nothing like the Western stereotype of a Muslim scholar that day. In his herringbone tweed, khakis, and black lace-ups, he just resembled an affable professor. His beard is shot through with gray, but his face retains a younger man's smooth and open quality. He has eyes the shade and sheen of polished teak. Though I'd known the Sheikh for twenty years, I felt nervous.

"Sheikh," I opened hesitantly, "I've never actually read the Quran." I waited for the gravity of my confession to sink in. Admitting as much at this stage in my career felt shameful, akin to a literature professor revealing she'd skipped Homer and Hamlet.

"Most Muslims haven't read it either," Akram said brightly, buttering his scone. "And even if they have, they don't understand it. The Quran is alien to them. Usually, they'll just go to the books of law. Or if they're interested in piety or purifying the heart, they'll read Ghazali"—a philosopher—"or Sufis like Rumi."

Akram's calm unnerved me. I knew, of course, that many graduates of the Muslim world's lesser seminaries hadn't really read Islam's scriptures. The boys in village madrasas, rocking back and forth, lisping lines from the Quran in classical Arabic, a language they didn't understand, might have been literally reading, but not much more. The suicide bombers and jihadist foot soldiers who had been promised a reward of seventy-two virgins in paradise were duped. Nowhere does the Quran mention such rewards for murder. Yet I assumed the graduates of the great Islamic institutions, like Cairo's venerable Al-Azhar, or the Sheikh's own alma mater, Nadwat al-Ulama in Lucknow, would know the Quran intimately, if not by heart.

"Even people who go to good madrasas don't necessarily know it as well as they should," said Akram, briskly brushing scone crumbs off his khakis. "In fact, the Quran is often the weakest part of the madrasa curriculum."

Nowhere, it seemed, did the Sheikh feel out of place. He was at home in both the West and in India, since for him, his true home lay somewhere else altogether. "This tiny earth, it's not your place," he once told me. "You have to sit here for a very short period—sixty or seventy years. It's a testing place, then you come back to your real place."

If I admired the grace with which Akram navigated the world, it was partly because my own journeys through it had been somewhat meandering. My cosmopolitanism, spread broader and thinner than the Sheikh's, was born of a childhood being towed around the world by a restless father. A man who yearned for minaret-studded skylines lit by scimitar moons should never have taught Wills and Trusts at law school in St. Louis. Summers were spent in Europe, and every few years my parents would take leave from their universities to teach farther east, taking my brother and me to live in Iran, Afghanistan, India, and Egypt.

My father flattened the earth for us, making its exploration a sort of spiritual quest. During these years abroad, my brother and I discovered "home" was less a single place than wherever we happened to be. I was a well-trained little nomad, comfortable most places as long as I had my parents, a Laura Ingalls Wilder paperback, and the occasional playmate. My earliest lessons in cultural difference were crude, but they were a start: in Qom, the Iranian city of seminaries and scholars, every female, even five-year-olds like me, wore a chador, the black cloak worn by Iranian women. In Afghanistan, you never went sleeveless, never photographed someone without permission, and never refused a cup of chai. When I could, I tried to understand the cultural differences between Islamic societies and my own, but I also loved seeing their similarities. Initially, this desire sprang from trying to make foreign places home. The compare and contrast routine helped knit together an existence split between the Midwest, the Middle East, and Asia. As I grew older, this exercise became academic and professional: I studied the interplay between Western and Islamic cultures in college and graduate school, and later wrote on it as a journalist. After 9/11, the topic gained a political urgency, with fear and anger convincing both Muslims and non-Muslims that "They" hated "Us." To study with Akram was not just to cultivate a deeper understanding of Islam. It was to test the boundaries of my own faith: a zealous belief in the virtues of trying to understand what's really foreign, and what just looks that way.

* * *

Our experiment in cross-cultural conversation started in a café, just off Oxford's main shopping street. With its sumptuous display of triple-decker cream cakes and cutesy name, the Nosebag, it seemed a strange place to hold a Quran lesson. In earlier centuries, the Nosebag might have been the sort of coffeehouse where more sober Oxford undergraduates repaired for table-pounding debates over Locke and Sophocles. The Sheikh and I sat at a dark wooden table under a low ceiling, gazing out leaded windows onto a gray winter drizzle. Britain starts its Christmas preparations the minute the first leaf falls, so though it was early November, a choral version of "O Come All Ye Faithful" piped from a speaker. Two American grad students gossiped about their professors. Gray-haired ladies in cashmere rustled their shopping bags, talking softly of their Christmas finds.

"But why study with him?" asked a Muslim friend. "Why this particular sheikh?"

She had nothing against Akram *per se*; she didn't know his work. Still, she knew that there are hundreds of English-speaking sheikhs in Britain and America, and that many of them are willing to teach women. Some would doubtless take on a non-Muslim like me. Choosing an Islamic scholar is inevitably complicated, since Sunni Islam famously lacks a clergy and a central organizing structure. With no archbishop's office or local diocese to steer one toward a particular scholar or imam, anyone seeking Islamic knowledge can study with anybody who will teach them. So her question was a good one: Why choose Akram? Why not an Islamic progressive, one whose worldview lies closer to my own? Why not write on Amina Wadud, the African-American scholar who produced the first feminist reading of the Quran? Or Hamza Yusuf, the Berkeley-based cleric with a Los Angeles madrasa, who can riff on Homer and Florence Nightingale as easily as on fourteenth-century Sufis?

I chose Akram for many reasons, chief among them being the fact that his outlook is so different from my own. Western journalistic coverage of Islam occupies a cramped space, focusing either on violent extremists or hidebound fundamentalists. Occasionally, we Western readers get exposed to what are dubbed "moderates"—shorthand for Muslims whose beliefs make no intrusion on politics or public spaces. The horizon isn't exactly broad: we're invited to peer either into the abyss—or a hall of reflecting mirrors. If I wanted to see where my own worldview intersected with and diverged from an Islamic one, then it made sense to read the Quran with someone who had trained in a traditional madrasa, outside the West.

Akram's years in an Indian madrasa anchored him far more securely in the Islamic tradition than the radicals, many of whom learned their Islam on weekends or at teach-ins. As a working *alim*, consulted by ordinary Muslims in Britain about practical issues from marriage to mortgages, he has a vantage many academics at Western universities simply don't share. "Akram is really different," observed David Damrel, a former colleague from the Oxford Centre for Islamic Studies, now a professor of comparative religion at the University of South Carolina Upstate. "There are some scholars who engage with local communities, but rarely with people outside of them. There are others who teach at Western-style universities. Akram has done both. As an imam in Oxford, he didn't simply engage with Western-style academics. He was also on the front lines, at the mosque."

Educated in India and Saudi Arabia, fluent in Urdu, Hindu, Persian, Arabic, and English, Akram has an outlook built from layered identities. During his youth, the culture of the village of Jamdahan mixed with his madrasa training, which began locally, then in Jaunpur, and then finally at Nadwat al-Ulama in Lucknow, India. After twenty years in Britain, and seasons spent studying in Damascus and Medina, the Sheikh has a cultural scope that spans continents. Even by the standards of an educational tradition in which bright village boys can go far, the Sheikh's near-seamless transition from a village prodigy to a global scholar is a stunning example of Muslim cosmopolitanism. Rare is the working *alim* who has taught Oxford undergraduates. "Offhand, I can't think of anybody who has made such a dramatic leap," said Damrel. "I can't think of anyone who has done it so gracefully, and done it with eyes wide open."

well-behaved visitor in the realm of the believers, I wanted to try a year of immersing myself in Akram's worldview, and the most obvious way to do that was to read the Quran with him. As a journalist, I'd spent years framing Muslims as people who did things—built revolutions, founded political parties, fought, migrated, lobbied. I craved a better understanding of the faith driving these actions. I'd reported on how Muslim identity shapes a woman's dress or a man's career path, a village economy or a city skyline. Now I wanted to explore the beliefs behind that identity and to see how closely they matched my own.

To go beyond writing about Muslims as headlines, I knew I needed to engage in an extended conversation, exploring the issues that made

the news but stretching far beyond them into how the Quran shaped a Muslim's worldview. I wanted to go to the book at the source of the faith and to begin to understand how it guided one learned believer's life. I hoped to understand the Quran's impact not just on culture and politics, but on an individual as well.

Several years after our Great War conversation, I approached the Sheikh and proposed a project that would eventually become this book. I wanted to immerse myself in his teachings, attending his lectures on the Quran and other Islamic issues and having occasional one-on-one lessons over the course of a year. Rather than attempting a comprehensive investigation of the entire Quran, which would be the work of a lifetime, not a year, the lessons would be a springboard for discussing all manner of topics. Some would be taken from the standard playbook of Western obsessions with Islam: I was curious about Akram's views on women's rights, polygamy, and sharia law. I was eager to hear his reading of the so-called "Verse of the Sword," which bin Laden used to justify his jihad. But I also wanted our conversations to range into areas seldom touched by stories in the media. I wanted to know more about what the Sheikh saw as the Quran's most important themes, and how they'd shaped his life. Which verses and which hadiths (words and deeds of the Prophet) had guided him, as migrant, husband, and father? I hoped to hear his thoughts on marriage and child rearing, and on Judaism and Christianity. I wanted to learn more about the Quran, but I also wanted to work as a sort of cultural cartographer, charting where our worldviews overlapped and where they clashed. I wanted to map out what divided us, and what united us.

To my surprise, he readily agreed. He said yes, not just to the lessons, but to what would be unprecedented intrusions for so private a man. In the course of the year, he endured scores of interviews and numerous visits to his Oxford home. When I asked to shadow him through a typical day, from the gym to the mosque, he let me. He allowed me to accompany him back to India, where we visited his old madrasa and ancestral village. He encouraged me to interview his family and students. Never did he try to limit who I talked to, the questions I asked, or what I wrote.

Why would he consent to such a regime? It helped that I'd written about him before, and that we'd known each other for twenty years. But ultimately, he agreed to my project for much the same reason that I wanted to do it. "There's so much misunderstanding about Islam and Muslims," he said. "People only hear the words of the extremists. The ulama, their voices are never heard."

* * *

stories on the Islamic world, had an editor asked me to write about, or even cite, the Quran, and how Muslims understand it.

This gap was particularly glaring in my case, as someone who had been exposed to Muslim cultures nearly all my life. I had lived in Tehran, Kabul, Delhi, and Cairo growing up, and I had studied Islamic societies in college and graduate school. And yet what most interested my professors and editors was not faith, but the politics that grew from it. I had churned out papers on the split between Islam's Sunnis and Shias, on Egyptian Islamists, on Moroccan marabouts, but never on the central text that united them all: the Quran. Writing for *Newsweek* and, later, *Time* magazine, I wrote on mosque design and yuppie Muslims, headscarves and punk bands, Islamic hedge funds and halal energy drinks. I also wrote stories on violent leaders who made the news: jihadis, bin Laden, the Taliban, Pakistani extremists. I wrote on their political views, but never, really, on the piety they claimed inspired them all. And I certainly never reported on the Quran.

To be fair, Islam is so all-encompassing that one can easily swerve from its spiritual aspects. Its foundations, the famous five pillars, are mostly centered on actions rather than beliefs: reciting the *shahada*, the statement that "There is no god but God, and Muhammad is His Prophet"; performing the five daily prayers; giving to charity; fasting during the holy month of Ramadan; and going on hajj. With guidelines on everything from dressing to eating to trading, Islam is woven through the world itself rather than confined to church on Sundays.

Still, it's telling that the few times I did turn my attention to the Quran, I merely dipped into it. I studied a few suras for an undergraduate seminar. I read the verses scholars cite on topical issues, like women's dress codes and wife beating. I shivered at the muscular beauty of its poetry. At times, I wondered about what a deeper appreciation could bring to one's existence. Reading *Madrasah Life*, Akram's first-person account of a day at his seminary in Lucknow, I was struck by his description of his early-morning ritual—a dawn recitation from the Quran, before he attended congregational prayers at the mosque. A favorite chapter was "al-Zumar," or "The Crowds," which had a verse on God's forgiveness that would inevitably make him cry:

Say: O My slaves who have transgressed against their own souls

Do not despair of God's mercy. Surely God forgives all sins.

Surely He is Oft-Forgiving, Most Merciful.

"On reciting it," Akram wrote, "I experience such joy that I keep reciting it over and over again."

As a nonbeliever, I knew I couldn't replicate Akram's ecstasy. As an English speaker without classical Arabic, I knew I'd lose the poetry of the original words. But a bit like the nun who, while drifting off to sleep, allows herself a few seconds of wondering about sex, I found that Akram's description suggested the limitations of my own cozy secularism. It rankled that I could be missing one of the most powerful experiences on offer. I'd read of Muslims who believed the Quran could stop earthquakes. The mother of a friend recited it to keep calm while being robbed at gunpoint in her own home. In mosques in Lahore and Cairo, I'd watched grown men weep at the sound of its words. To date, my appreciation of Muslim civilizations had merely involved observation, as when admiring the medallions on a Turkoman carpet or the sweep of calligraphy around a Mughal arch. It was polite and restrained. Weary of being a

there, armed only with my keyboard, and attack prevailing stereotypes. I was ready to lead a charge into transcivilizational dialogue. The blithe generalizations about "the Islamic world" and "the West" were fictions, lazy catchalls employed by headline writers and zealots.

"What did *you* do in the war, Daddy?" the Sheikh repeated slowly. "That's very good, really. It is incumbent on us to work hard, in these times, to make people understand one another."

* * *

When I think back on that day in Oxford, I note that he didn't say that it was time "to take a stand." Such sentiments were for hard-liners. The Sheikh's life smudged the thick black lines that Muslim extremists and American neocons wanted drawn between "the Islamic world" and "the West." Since his education had followed the classical Islamic syllabus, he'd been schooled in those great building blocks of Western civilization, Greek philosophy and ethics. Shuttling between mosque and think tank, Akram led a life in England that proved that the West and Islam weren't separate, but braided together. Unlike many Muslim religious scholars, he educated his daughters in British secular schools. What were his Oxford-born daughters if not "Western"? And also "Muslim"? And what of the Sheikh himself, who taught students at Britain's oldest university, Oxford, and also gave lessons at mosques and madrasas?

His own six daughters will never have to ask him what he did during the messy decade after 9/11. Between teaching and work at the Centre, he produced research that chipped away at the belief that Islam had never allowed women freedoms. Over those years, he uncovered a long-forgotten history of female Islamic scholarship, blotted out by centuries of cultural conservatism: a tradition of women religious authorities stretching back to the days of the Prophet. When he started, he figured that biographies of women religious scholars would make a slim volume, representing thirty or forty women. Ten years on, the work stands at forty volumes. He'd discovered nearly nine thousand women, including ones who lectured, dispensed fatwas, and traveled on horse- and camelback in pursuit of religious education. The Sheikh's work on women scholars challenges bigots of all types. The Taliban gunman who shoots a girl for going to school. The mullah who bars women from his mosque. The firebrand who claims that feminism is a Western ideology undermining the Islamic way of life. The Westerner who claims that Islam oppresses women, and always has.

Such voices rise loudest, soaring above softer ones like Akram's. Extreme messages carry furthest, without the weight of equivocation. Men spitting out sound bites denouncing the West make for arresting headlines. Conflict and cultural outliers are two great turbines of the news business, but they're particularly central to the Western media's coverage of the Islamic world. In part, this stems from the very real wars in the post-9/11 era. Yet the news stories of conflict are rarely balanced by feature stories in other sections of the media. Scanning American magazines over the years, I can't remember ever seeing a major fashion magazine cover featuring a woman wearing a hijab, or travel magazine coverage of the best hotels in Mecca for the hajj, the Muslim pilgrimage.

If Muslims rarely make it into the papers as three-dimensional human beings, there is also scant appetite in the mainstream Western media for what their scripture actually says. Never, in my seventeen years of writing magazine

the invasion of Iraq, or Muslims who deplored both the jihadis and the policies of the U.S. government.

Most of the media echoed President Bush's black-and-white vision, pounding out a steady drumbeat of declarations about two cultures, airtight and separate: "the West" and "the Islamic world." When the twain met, they assured us, trouble followed. It had been this way since the days of the Crusades and it would continue in this way until those Muslims got modernity like the rest of us. But "Islamic world" was always a flabby term. It grows increasingly useless in an era in which migration and conversion mean that Muslims now live everywhere, from Peking to Sydney to Patagonia. Equally meaningless: the statement "Muslims believe." Those pronouncements about a group that encompasses 1.6 billion people fall dramatically short in describing an *umma* that embraces people as diverse as Pathan tribals and Kansan surgeons.

But fear favors the crude stereotype, and those were fearful times. When I worked at *Newsweek*, a respected writer emailed a memo disparaging Muslim culture in terms so sweeping and vulgar that all I could think of—as I stared at his words with hot, red eyes—was anti-Semitic rhetoric out of 1930s Germany. The Sheikh heard parallel rants from his fellow Muslims. "When people say things against Americans or Jews, I tell them I've worked with both kinds of people, and that not all of them are like the ones we read about," he said.

In such a climate, our friendship felt freakish. It had always been an oddity: I'm a secular feminist, Jewish on my mother's side and Quaker on my father's; Akram is a conservative *alim*, or Muslim scholar. When we'd met, I'd been a miniskirted twenty-four-year-old, unsure of anything except her own importance. For the two years we worked together, we had found common ground in the commonplace, sipping tea, grumbling gently about our boss and sodden English winters. He was soft-spoken and gracious, quoting liberally from his beloved Persian poets, sharing homemade *biryani*s. Growing up, my family lived in a range of places in South Asia and the Middle East. In Akram, I recognized the effort it took to create familiarity in an unfamiliar place. In time, we would grow from friendly colleagues into friends.

When I visited him that day in Oxford, we sat, two bookish types, bewildered at the blood and vitriol of the battles being fought in his name and mine. Every Islam-related bit of news seemed to be bad. Every Muslim depicted in Western papers seemed to be extreme. "Nobody wants to interview Muslims like you, Sheikh," I sighed. "Pick up a Kalashnikov! Start calling for sharia law! Then you'll get some airplay!"

The conversation petered out, and our cups of tea grew tepid. The pale lemon sun had faded, giving the room an antique feeling. For some reason—perhaps the Oxford dusk, perhaps my sense of being swept aside by the zeitgeist—I suddenly remembered a World War I recruiting poster I'd once seen. A chiseled man in a three-piece suit and one of those T. S. Eliot hairdos, slicked and center-parted, was shown at home in a cushy armchair, looking glum. His blond daughter was on his knee, and his son marched toy soldiers across the floor. The caption read: "Daddy, what did YOU do in the Great War?"

Designed to spur an earlier generation of Britons onto the battlefield, the poster had precisely the opposite effect on me. It rallied me, sure. It made me worry about how my kids would look back and ask me what I'd done during these dark times, during this so-called War on Terror. It made me want to run out

Hindu returns. "Thanks so much," he said. "Fascinating. But I wonder, could you give me a copy of the other Quran?"

"Um, you're holding it there," said the Muslim. "There's just one Quran, and you've got it."

"Yeah, I read it," replied the Hindu. "But I need a copy of the Quran that's followed by Muslims."

"The joke is right," said Akram. "All this talk about jihad and forming Islamic states, that's not what the Quran says!"

We were sipping tea in an office in Oxford, a couple of years after 9/11. I was a correspondent at *Newsweek* magazine then, and had dropped by to see him at the think tank where I first met him in the nineties and where he was still working, the Oxford Centre for Islamic Studies. We'd been talking that day, as so many millions of pairs of friends had been, of angry young men with pilot's licenses, of grizzled criminals hiding in caves, of daisy cutters and blood begetting more blood.

Crowded with desks, strewn with papers, the room where we sat resembled the headquarters of some ramshackle militia. The walls were hung with maps of South Asia, crisscrossed with arrows and studded with little red X's, from north of the Khyber Pass to down south below Bombay. On the bookshelf, spines glittered with gold-embossed lettering in Arabic and Urdu. Rows of binders labeled in English, Urdu, or Persian filled shelf after shelf.

I recognized my own handwriting on some of those binders. A decade before, I'd worked with him to help fill them. We'd researched together on a team of scholars—some Muslim, some Western, all male except for me—mapping the spread of Islam through South Asia. To distinguish him from all the other Mohammads who worked at the Oxford Centre for Islamic Studies, my colleagues and I called him "the Maulana" or "the Sheikh," traditional honorifics for an Islamic scholar.

And what a scholar he was. Just twenty-seven years old when we first met, he was already a rising star in the global network of traditional ulama, or Muslim religious authorities. Though he was raised in an Urdu-speaking village in the Indian state of Uttar Pradesh, the Arabic he learned at a small-town madrasa was so good that he'd begun writing grammars of the language as a teenager. He went on to the prestigious Nadwat al-Ulama, a madrasa in Lucknow, India, where he later stayed to teach and write. His earliest specialty was hadith, or the words and deeds of the Prophet Muhammad, which form the basis of Islamic laws as well as guidelines for the daily life of devout Muslims. At Oxford, he would begin the work that would gain him fame far beyond madrasa circles: a forty-volume collection of biographies of thousands of Muslim women scholars, a work that would reilluminate Islam's lost history of women as religious authorities. That day at Oxford, the mood was bleak. More than a decade after we'd been colleagues, we were both grayer. Since 9/11, we'd watched relations between Muslims and non-Muslims fray in ways destined to remain unrepaired during our lifetimes. All the sweet optimism of our days spent researching India's Muslim scholars and mystics seemed quaint. When the Twin Towers fell, the world had cleaved in two, we were told. "You're either with us," intoned my president, George W. Bush, "or against us." In a single sentence, President Bush had dismissed the Sheikh, me, and scores of millions more. His worldview had no space for nuance or equivocation. It didn't recognize Americans who questioned

when migration and technology have spread its message far beyond its traditional homelands, the Quran has impressive influence in Europe and America. At times, it has been the target of displays of intolerance. Dutch politicians have tried to ban it. A Florida preacher burned it, streaming the destruction over the Internet. News that American soldiers in Afghanistan had burned several copies of the Quran sparked protests and killings. And when the University of North Carolina put excerpts from it on a summer reading syllabus, right-wing groups launched lawsuits, claiming reading the Quran would interfere with students' religious freedom.

The Quran began as a series of revelations to Muhammad, a caravan trader, in the seventh century. In two decades, these words grew into a spiritual, social, and political force in the Arabian Peninsula. Today, the Quran's impact is global. Over fourteen hundred years after the Prophet Muhammad heard the first revelation, the text continues to transform geopolitics as well as personal worldviews. As the scripture of the planet's fastest-growing religion—with 1.6 billion followers, Islam is second in global popularity only to Christianity—it stands as a moral compass for hundreds of millions. Studied alongside the words and deeds of Muhammad, the Quran has been a bedrock for constitutions, leadership styles, and laws. Its words have lent legitimacy to regimes—and to resistance to them. Reading it should be a prerequisite for understanding humanity.

And yet, as I'd later discover, surprisingly few people do. Like any rich and complex text, the Quran is invoked more often than read, and read more often than its meanings are agreed upon. Hostile and casual readers have accused the Quran of being chaotic. Even pious Muslims concede that while its majesty and lyricism overwhelm, some verses confuse as much as clarify. In fact, many students of the Quran don't understand the classical Arabic they stumble through, and even top madrasas frequently overlook the book in favor of classical works on Islamic law or philosophy, texts that came into being centuries after the Quran's revelation. Many—good Muslims and curious non-Muslims alike—simply never attempt it. Even the Quran proclaims its own limitless possibilities:

Say, even if the ocean were ink

For (writing) the words of my Lord, The ocean would be exhausted

Before the words of my Lord were exhausted,

Even if We were to add another ocean to it. (Chapter 18: Verse 109)

Revered by a population as diverse as the *umma*, or worldwide Muslim community, the Quran can refract in dazzling ways. The San Francisco civil rights lawyer may discover freedoms in the same sura, or chapter, in which a twelfth-century Cairo cleric saw strictures. A Sudanese mullah, or religious teacher, may read a command for wifely obedience; an Indonesian wife may interpret the same passage as a call for equality and compassion. The Marxist and the Wall Street banker, the despot and the democrat, the terrorist and the pluralist—each can point to a passage in support of his cause.

* * *

Sheikh Mohammad Akram Nadwi, the Islamic scholar who taught me the Quran, once told me an old Indian joke. A Hindu goes to his Muslim neighbor and asks if he could borrow a copy of the Quran. "Of course," said the Muslim. "We've got plenty! Let me go get you one from my library." A week later, the

Hindu returns. "Thanks so much," he said. "Fascinating. But I wonder, could you give me a copy of the other Quran?"

"Um, you're holding it there," said the Muslim. "There's just one Quran, and you've got it."

"Yeah, I read it," replied the Hindu. "But I need a copy of the Quran that's followed by Muslims."

"The joke is right," said Akram. "All this talk about jihad and forming Islamic states, that's not what the Quran says!"

We were sipping tea in an office in Oxford, a couple of years after 9/11. I was a correspondent at *Newsweek* magazine then, and had dropped by to see him at the think tank where I first met him in the nineties and where he was still working, the Oxford Centre for Islamic Studies. We'd been talking that day, as so many millions of pairs of friends had been, of angry young men with pilot's licenses, of grizzled criminals hiding in caves, of daisy cutters and blood begetting more blood.

Crowded with desks, strewn with papers, the room where we sat resembled the headquarters of some ramshackle militia. The walls were hung with maps of South Asia, crisscrossed with arrows and studded with little red X's, from north of the Khyber Pass to down south below Bombay. On the bookshelf, spines glittered with gold-embossed lettering in Arabic and Urdu. Rows of binders labeled in English, Urdu, or Persian filled shelf after shelf.

I recognized my own handwriting on some of those binders. A decade before, I'd worked with him to help fill them. We'd researched together on a team of scholars—some Muslim, some Western, all male except for me—mapping the spread of Islam through South Asia. To distinguish him from all the other Mohammads who worked at the Oxford Centre for Islamic Studies, my colleagues and I called him "the Maulana" or "the Sheikh," traditional honorifics for an Islamic scholar.

And what a scholar he was. Just twenty-seven years old when we first met, he was already a rising star in the global network of traditional ulama, or Muslim religious authorities. Though he was raised in an Urdu-speaking village in the Indian state of Uttar Pradesh, the Arabic he learned at a small-town madrasa was so good that he'd begun writing grammars of the language as a teenager. He went on to the prestigious Nadwat al-Ulama, a madrasa in Lucknow, India, where he later stayed to teach and write. His earliest specialty was hadith, or the words and deeds of the Prophet Muhammad, which form the basis of Islamic laws as well as guidelines for the daily life of devout Muslims. At Oxford, he would begin the work that would gain him fame far beyond madrasa circles: a forty-volume collection of biographies of thousands of Muslim women scholars, a work that would reilluminate Islam's lost history of women as religious authorities. That day at Oxford, the mood was bleak. More than a decade after we'd been colleagues, we were both grayer. Since 9/11, we'd watched relations between Muslims and non-Muslims fray in ways destined to remain unrepaired during our lifetimes. All the sweet optimism of our days spent researching India's Muslim scholars and mystics seemed quaint. When the Twin Towers fell, the world had cleaved in two, we were told. "You're either with us," intoned my president, George W. Bush, "or against us." In a single sentence, President Bush had dismissed the Sheikh, me, and scores of millions more. His worldview had no space for nuance or equivocation. It didn't recognize Americans who questioned

when migration and technology have spread its message far beyond its traditional homelands, the Quran has impressive influence in Europe and America. At times, it has been the target of displays of intolerance. Dutch politicians have tried to ban it. A Florida preacher burned it, streaming the destruction over the Internet. News that American soldiers in Afghanistan had burned several copies of the Quran sparked protests and killings. And when the University of North Carolina put excerpts from it on a summer reading syllabus, right-wing groups launched lawsuits, claiming reading the Quran would interfere with students' religious freedom.

The Quran began as a series of revelations to Muhammad, a caravan trader, in the seventh century. In two decades, these words grew into a spiritual, social, and political force in the Arabian Peninsula. Today, the Quran's impact is global. Over fourteen hundred years after the Prophet Muhammad heard the first revelation, the text continues to transform geopolitics as well as personal worldviews. As the scripture of the planet's fastest-growing religion—with 1.6 billion followers, Islam is second in global popularity only to Christianity—it stands as a moral compass for hundreds of millions. Studied alongside the words and deeds of Muhammad, the Quran has been a bedrock for constitutions, leadership styles, and laws. Its words have lent legitimacy to regimes—and to resistance to them. Reading it should be a prerequisite for understanding humanity.

And yet, as I'd later discover, surprisingly few people do. Like any rich and complex text, the Quran is invoked more often than read, and read more often than its meanings are agreed upon. Hostile and casual readers have accused the Quran of being chaotic. Even pious Muslims concede that while its majesty and lyricism overwhelm, some verses confuse as much as clarify. In fact, many students of the Quran don't understand the classical Arabic they stumble through, and even top madrasas frequently overlook the book in favor of classical works on Islamic law or philosophy, texts that came into being centuries after the Quran's revelation. Many—good Muslims and curious non-Muslims alike—simply never attempt it. Even the Quran proclaims its own limitless possibilities:

Say, even if the ocean were ink

For (writing) the words of my Lord, The ocean would be exhausted

Before the words of my Lord were exhausted,

Even if We were to add another ocean to it. (Chapter 18: Verse 109)

Revered by a population as diverse as the *umma*, or worldwide Muslim community, the Quran can refract in dazzling ways. The San Francisco civil rights lawyer may discover freedoms in the same sura, or chapter, in which a twelfth-century Cairo cleric saw strictures. A Sudanese mullah, or religious teacher, may read a command for wifely obedience; an Indonesian wife may interpret the same passage as a call for equality and compassion. The Marxist and the Wall Street banker, the despot and the democrat, the terrorist and the pluralist—each can point to a passage in support of his cause.

* * *

Sheikh Mohammad Akram Nadwi, the Islamic scholar who taught me the Quran, once told me an old Indian joke. A Hindu goes to his Muslim neighbor and asks if he could borrow a copy of the Quran. "Of course," said the Muslim. "We've got plenty! Let me go get you one from my library." A week later, the

INTRODUCTION

A Map for the Journey

When I was eleven years old, I bought a tiny book containing a verse from the Quran from a stall outside a Cairo mosque. The amulet was designed to be tucked into a pocket to comfort its owner throughout the day. I was neither Muslim nor literate in Arabic; I bought it not for the words inside but for its dainty proportions. The stall's proprietress watched me bemusedly as I cooed over the matchbox-sized book. My family and I were living in Egypt at the time, and back at home I taped a bit of paper over the cover and crayoned a woman in a long blue dress, writing on top, "Jane Eyre by C. Bronte." I then placed the book in the waxy hand of my doll, which sat stiffly on a high shelf in my Cairo bedroom.

The little book outlasted the doll: I found it over a quarter century later, one sticky summer afternoon in St. Louis, wrapped in a jewelry box in my parents' house. It was a minor miracle that such a flimsy item from a market stall had endured so long. It was a major miracle that I'd found it at all, in a three-story house so crammed with exotic souvenirs that friends called it Aladdin's Cave. But somehow I did find that booklet, amid the spoils of my father's avid collecting from the Middle East and Asia: mosque lamps from Cairo, stacks of Indian brocades and embroideries, Bokhara samovars, lapis lazuli boxes, mounds of tribal jewelry, and hundreds of carpets.

Amid all this, my Quran chapter survived. By the time I found it, I knew enough to be embarrassed for having wrapped someone else's scripture in my own childish concerns. The summer I rediscovered it, during that bleak time after 9/11, shrill voices proclaimed a "clash of civilizations" between the Islamic world and the West. With suicide bombings in Kabul and Baghdad and the horrors of Abu Ghraib still fresh in my mind, my juvenile game seemed insensitive.

By then, not only had I inherited my father's immersive interest in the Islamic world, but my childhood fascination had been seasoned by studying and reporting on Muslim societies. Over the years, I'd also acquired several more Qurans. As an undergraduate, I bought a \$5.99 paperback for a survey course on Islam. It sat on my bookshelf, its pages cheap and grainy, its spine barely cracked. In my twenties, when I was working at an Islamic think tank in Oxford, I received a Quran for free, courtesy of the Saudi Arabian government. Bound in blue leatherette, stamped in gilt with calligraphic script, it was one of millions of copies distributed across the globe in the 1990s as part of an official Saudi campaign. A third Quran was parrot green, with pink flowers on its cover. Inside: a pressed rose, withered jasmine blossoms, and two ticket stubs from the Cairo opera house—relics from a romantic summer studying in Egypt. On my bookshelf alone, there were three translations of the Quran, with as many symbolic meanings: one copy a textbook, another an instrument of state-sponsored propaganda, the third a repository of personal memories.

But my Qurans only hint at the book's symbolic possibilities. Since Muslims consider it the word of God, a Quran not only offers comfort and inspiration as a text, but commands reverence as an object. This power has also led to the text's politicization. Waved before a crowd, it can inspire revolutions and wars. Burned or besmirched, it triggers diplomatic incidents and deaths. Quoted or misquoted, it's been used to justify mercy, and mass murder. In an age

AUTHOR'S NOTE

While the events in this book are true, I have occasionally compressed or rearranged them for thematic clarity and narrative flow.

Unless otherwise indicated in the text or notes, the quotations from the Quran used throughout are taken from *The Quran: A New Translation* by Thomas Cleary (Chicago: Starlatch, 2004).

ACKNOWLEDGMENTS

Sheikh Mohammad Akram Nadwi and his family were unstinting in their time, knowledge, and generosity of spirit. My thanks for the patience and graciousness you showed during the countless hours of interviews, visits, and other intrusions that this project required of you.

Arzoo Ahmed, Tara Bahrapour, Professor Bruce Lawrence, Mehrunisha Suleman, and Justine Thody gave thoughtful critiques on manuscript drafts. The Reverend Jane Eesley provided incisive context on Christianity's discussions of Judaism. Tom Gouttiere provided helpful insight into Kabul in the late 1970s. Selina Mills offered razor-sharp advice on structure. For their support and encouragement over the lifetime of this project, thanks to Nina Berman, Sarita Choudhury, Hanna Clements, Caroline Douglas-Pennant, Amy Dulin, Rana Foroohar, Jill Herzig, and Liz Unna. A special thanks to Anne Treeger for the painting *Jane Eyre in Oceans of Ink* and much besides.

I owe a debt of gratitude to Irene Skolnick for encouraging the ideas that would become this book and for introducing me to my agent, Erin Harris, a writer's fairy godmother.

At Henry Holt, Paul Golob provided wise counsel and eagle-eyed attention to detail while my editor Emi Ikkanda's skill, sensitivity, and dedication singlehandedly restored my faith in the contemporary publishing process.

Finally, to Antony Seely and Julia and Nic Seely-Power, thanks beyond measure.

IF THE DREAMS WERE

*An Unlikely Friendship and a Journey to
the Heart of the Quran*

by ROBERT D. ALLEN and J. W. ALLEN